المهندس عصام قصاب

......محمد ... عيسى ... موسى

روسو
سبينوزا
فولتير
داروين
زرادشت
هيجل
سقراط
بوذا
كريشنا
ماركس

البحث عن الحقيقة الكبرى

إذا كنت مؤمناً بالنشأة..

إذا كنت ملحداً بالتقليد..

إذا كنت متردداً بين الكفر والإيمان..

... فاقرأ هذا البحث

المهندس عصام قصاب

البحث عن الحقيقة الكبرى

من وحي البحث

... عندما أغفو وأرى في منامي أني في مكان بعيد، وفي زمان مختلف، أقوم بأعمال ليست بالضرورة من وحي ملفات اللاشعور العميق، بل وأحياناً في زمن يقع خارج مجال عمري، قبل ولادتي، أو بعد مماتي، ومنها أعمال لم تخطر على بالي في حالة اليقظة. فمن سافر المسافة والزمن وقام بالعمل والجسم مازال راقداً في فراشه؟

هل لاحظت يوماً أنه إذا أيقظكَ شيءٌ فجأة من نومك، فإنك تبدو وكأنك قادم من مكانٍ أبعد من مرقد جسمك؟

ألا يمكن أن...

ISBN 1-57547-659-2



الطبعة الرابعة
طبعة مزيدة ومنقحة

البحث عن الحقيقة الكبرى

- ✿ إذا كنت مؤمنا بالنشأة،
- ✿ إذا كنت ملحدا بالتقليد،
- ✿ إذا كنت مترددا بين الكفر والإيمان،
- ✿ فاقرأ هذا البحث... بتمعن.

البحث عن الحقيقة الكبرى / محمد عصام قصاب.-
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩ .-٦٣٢ ص؛ ٢٤سم.
١- ٢٠٩ ق ص ا ب ٢- العنوان
٣- قصاب مكتبة الأسد
ع - ١٤٦٤ / ٨ / ١٩٩٩

شخصان يستحقان الاحترام:

شخص يخدم الحقيقة لأنه يعرفها،

وشخص يبحث عنها لأنه لايعرفها.



شباب لعصر المعرفة
2010=1431

دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

البحث عن الحقيقة الكبرى
المهندس محمد عصام قصاب
الرقم الاصطلاحي: ١٢١٧٣,٠١١ ت
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-659-2
الرقم الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)
٦٣٢ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة السادسة: ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م
ط١ ١٩٩٩م
المملكة العربية السعودية / وزارة الإعلام
فسح التسويق رقم: ١٣٦٩٠٤ – مكتبة العبيكان

بين يدي البحث

بقلم الدكتور شوقي أبو خليل

"البَحْثُ عَنِ الحقيقَة الكُبْرى"، عنوانُ كتاب مُغرٍ جذّاب، قرأتُه قراءةً متأنية فاحصة، فوجدته من الكتب المتفردة في موضوعها ومجالها، كتاب حواريٌّ، تتقدح منه بارقة الحقيقة، كاتبُه متمكنٌ مما بين يديه من مادة علمية، يملكُ وضوحاً ومحاكمة وعقلاً، ويملك البرهان والدليل، بعيداً عن العاطفة، يعرض فكرَه على محكّ البحث العلمي.

لقد جاء الكتاب جامعاً شاملاً في عرضه للنظريات والمعتقدات والشرائع، يُحاور بأسلوب سهل مبسّط، ولكنه عميقُ الدِّلالة، قاطعُ البرهان، مع التوثيق والعزو إلى المصادر والمراجع بأمانة، لذلك يجد فيه الباحث عن الحقيقة بغيته، يقرأ النظريات، ويقرأ مناقشتها حيث ما لها، وما عليها.

فيه مناقشة لفرضيات ونظرياتِ التّطور والنشوء، فيه مناقشةٌ منطقيَّة مع المادِّيين، لا لإدانتهم، بل لجلاء الحقيقة أمام أنظارهم.

فيه مناقشة لبعض أهل الفكر الذين تعرضوا لوجود الخالق، من (سقراط) إلى عصرنا الحالي.

قبل البدء بمناقشة (الشرائع السماوية)، بابٌ عن العقائد الوضعية في العالم... في بلاد الرافدين، والهند، والصين، وفارس، حيث العقائد المتباينة المختلفة، جاء شاملاً ممهِّداً للباب الثالث والأخير الموسوم (بالشرائع السماويَّة)، الذي ضمَّ تقديم اليهودية والمسيحية والإسلام بشكل موثَّق.

قدَّم اليهوديّة كما جاءت في التوراة الحالية التي بين أيدي الأتباع والناس جميعاً،

مع الدّقة التّامة في النّقل والعزو الصحيح، ومن خلال نصوص التوراة ناقش الأستاذ المؤلف رواية الخلق والطوفان... مع خاتمة تقارن بين التّوراة والتلمود.

وحينما درَس المسيحيَّة قدَّم تساؤلاتٍ منطقية، وأشار إلى الدور الفاعل لـ(بولُس) في التأثير على المسيحية، كلُّ ذلك بأمانة ودقة وتوثيق، وناقش التثليث، والصَّلب، والفداء، والظهور، والأناجيل الأربعة المعترف بها.

ولما عرض الإسلامَ، عرضه من كتابه الكريم أيضاً، عرضَ إعجازه العلمي بكلّ صدقٍ وعقلانية، دون تطرف أو انفعال أو عاطفة، بل بالعلم والبرهان، والحقائق العلمية غير القابلة للنقد، إذ هو نفسُه يبحث عن الحقيقة.

- هل صحيحٌ أنَّ الإسلام هو دينٌ من عند الله؟
- هل صحيحٌ أن معجزاته العلمية لا تنتهي؟
- هل الإسلام هو آخر الأديان؟
- إذا كان الإسلام علميَّ البراهين، فلماذا لم يؤمن به جميع علماء العالَم؟
- كيف ينظر الإسلام للسيِّد المسيح وأمِّه العذراء البتول؟

هذه التساؤلات وغيرها كثيرٌ نجد معالجتها في **"البَحْثِ عَنِ الحقيقَةِ الكُبرى"**، بحكمةٍ وهدوءٍ، وأدلة وتوثيق.

إنه كتاب جعلني أبحِر عميقاً مع أفكاري، وأنا أقرأ دراسته الممتعة، التي جعلت الحوار السبيل الوحيد للاقتناع، ففتح باب الحوار بآدابه وقواعده، فإن كان الوفاق، وأثمر الاقتناعَ، فبها ونعمت، وإن تغلَّبَ العنادُ وسيطرتِ المكابرةُ، فالحساب والحكم في الاختلاف يوم الحساب.

كم أتمنى أن يُترجَم هذا الكتابُ إلى بعض اللغات العالميَّة الحيَّة، لأنَّ أسلوبَه الحواري، سيقود أصحاب العقول المتفتحة المتطلعة إلى الحقيقة لتعيد حساباتها.

مقدمة الطبعة الأولى

بسبب إقامتي – غير القصيرة – في مجتمع مكوَّن من ملحدين ومشركين، وباحتكاكي مع العناصر المثقفة منه، سألت كثيرين:

هل تؤمنون بخالق للكون؟

قالوا: لا.

فسألتهم: لماذا؟

أجابوا: هكذا تعلمنا في المدارس.

وإن قلتُ لأحدهم: وهل تفكرت بالأمر؟

يقول: لا.

وإن سألتُه: لماذا؟!

قال: لم يخطر على بالي أن أفكر في هذا، خاصة وأن برنامجي اليومي مزدحم جداً، وأسلوبَ حياتي لم يسمح لمثل هذا الخاطر أن يعبر تفكيري.

كل هذا يدل على أن وجود الملحدين المتعلّمين، ليس –بالضرورة– ناشئاً عن عقيدة إلحادية مترسخة ومدروسة لديهم، بل عن بيئة نشؤوا فيها وتقليدٍ اتبعوه.

أرى أن فتح باب التفكير في العقائد يجعل كثيرين منهم يُخصِّصون بعض وقتهم لمناقشة مع ذاتهم حول نشأة الكون ومصيره، حول الحياة، كيف بدأت؟ وإلى أين تسير؟ متى تنتهي وكيف؟

إن سألتَ أحد الناس في مجتمع مؤمن: هل أنت مؤمن بخالق لهذا الكون؟

فيقول: طبعاً.

تقول: لماذا؟

فيقول غير العالِم منهم: هكذا وجدت المجتمع الذي نشأت فيه.

وبعضهم يقول: لأنه لا بُدَّ لهذا الكون من خالق.

فتقول له: أثبت لنا هذا.

فإن كان أُمِّياً عاقلاً يقول: أنا مؤمن على الرغم من أني لا أقدر على تحمُّل مسؤولية الدخول في مناقشة هذا الموضوع.

أما إن كان أُمِّياً جدلياً فسيخوض مناقشة حول وجود الخالق تَفتَقِدُ فيها حُجَجُهُ وأطروحاتُه إلى الأدلة العلمية، وبالتالي فهي ضعيفةٌ، غيرُ مقنعة، فيتلعثم ويخرج مهزوماً، مما يعطي خصمَه انطباعاً أنه انتصر عليه لقوةِ حجته؛ وليس لضعفٍ في معلومات المؤمن، إذ إن أغلبَ الآباء هم أجهل من أن يجيبوا أولادهم عن كيفية إثبات وجود الله تعالى، وأغلب المدرِّسين متخصِّصون في مجالات أُخرى، وكثير من رجال الدِّين يقدمون إجابات وبراهين فلسفية دينية بحتة، تجعل الملحد يدور في حلقات غير مقنعة، وأغلب العلماء الماديين يهتمون بكيفية أداء الوظائف، ولا يناقشون لماذا تُؤدى هذه الوظائف بالشكل الذي هو عليه؟

لهذا آمل أن يكون هذا البحث منارةً للمؤمن يقَوي حجَّته، وبرهاناً علمياً أقدمه للملحد، الغرضُ منه توجيه التفكير، وفتح الباب لمراجعة الكتب الأكثر تخصصاً في هذا المجال.

إلى هذا المؤمن بالنشأة، وإلى ذلك الملحد بالتقليد، وإلى هؤلاء المترددين بين الكفر والإيمان، **أقدم هذا البحث، ضمن رحلة جدلية بين الإيمان والإلحاد**، مؤكداً على ضرورة دراسته في لحظة عمق وهدوء وصفاء نفس.

مقدمة الطبعة الثانية

عندما يهجر المهندسُ المعملَ، والطبيبُ العيادة، والعالِمُ المختبرَ...ويلجؤون إلى القلم،... ، فلا بُدَّ من سبب وجيه!... هل هو ضغط العمل؟... ممكن... عندها تكون الهجرة خلال الإجازات فقط، أما أن يَقضي أحدهم كلَّ أوقات فراغه مع القلم، ويغرقَ في بحرٍ من كتب لا علاقة لمهنته بها!... هنا فقط يُطرَحُ السؤال بقوة... ما القصة؟... لماذا؟... ما وراء ذلك؟.

هذا ما حصل معي عندما بدأتُ التفكير في ضرورة كتابة هذا البحث، حيث إنني مررتُ بتجربة قاسية، وامتحان صعب، أثناء دراستي في نهاية العقد السادس من القرن العشرين، في إحدى الدولِ التي كانت تمنع ذكر اسم الله، فقد صادف أن اجتمعتُ مع مجموعة من الذين حملوا لواء الإلحاد، أكثرَ من مؤلفي مناهجِ الإلحاد أنفسهم -ظانِّينَ أنهم بذلك يجارون أفكار العصر والحداثة، ويردون بذلك جميل المنحة الدراسية التي حصلوا عليها- وخضت معهم نقاشاً حاداً عن وجود الله، خرجت منه أَلَمْلِمُ شتاتي، حاملاً ورقة التوت، معترفاً لهم:

١- أن خسارتي في هذه الجولة، إنما تعودُ لأسباب كثيرة أولها أُمِّيتي في هذه المواضيع وضعفُ ثقافتي، وآخرُها مناهج التدريس التي كانت تكتفي بحشو الذاكرة بعدد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، سرعان ما كنا نُنسَّاها خلال فترة الصيف، وحبذا لو كانوا أضافوا إليها أيضاً تعليم أساليب المناقشة العقلانية والفكرية، مع بعض الإثباتات العلمية عن وجود الله تعالى، مناقشة تسلح المؤمن إذا ما اضطر لخوض مثلها في حياته العملية، مؤكداً لهم أن خسارتي لا تعني أبداً انتصاراً لمبادئهم على عقيدتي.

٢- إن قبولَ وجودِ مخلوقٍ دونَ ضرورةِ وجودِ خالقٍ، ووجودَ كونٍ بلا مدبرٍ له، يخالف فطرتي وعقلي،... وعلى الرغم من عدم استطاعتي إثباتَ ما أؤمن به بالنشأة، مَثَلي كمَثَلِ الجاهل الذي يتمسك بما آمن به دون برهان، وكمَثَلِ المُلحِدين اليوم الذين يرفضون الإيمان بالله تعالى، على الرغم من عدم مقدرتهم على تقديم براهين تدعم ما يدَّعون، لكني وعَدْتُ من غَلَبني في مناقشة الكلام، وغلبتُه بإيماني الفطري، **أن أبحث عن الحقيقة الكبرى.**

منذ ذلك الحين وأنا أطرح السؤال نفسَه، تُرى كيف أستطيع إقناع الآخرين بضرورة وجود خالق للكون؟... كيف أخوض نقاشاً جاداً مع الملحدين؟... ومن أين أبدأ؟... ...إلخ، لكن تلاحُقَ المواد الدراسية،وإصراري على النجاح "لأسباب شخصية" أجَّلَ موضوع البحث لِمَا بعد التخرج.

تخرجتُ واحتفلتُ وعُدتُ منتصراً على جميع المناهج الهندسية بمعدلات عالية، وتوقعت السجادة الحمراء في المطار، وجموعَ المستقبلين، ولافتات الترحيب والتهليل بعودة المنتصر، لكن!!... كان ما كان!!... ووصلت إلى البيت وحيداً، ودون حقائبي أيضاً، إذ ضلَّت الطريق إلى مطار آخر، مما جعل سيارة الأجرة تسابق الريح فرحةً بالتخلص من أكوام الكتب المفقودة.

بعد فقدان عدة كيلو غرامات من وزني، وزيادة الشعر الأبيض في رأسي، في لسعيِ وراء الوظيفة (الميري)، حصلتُ على عملٍ غَبطني عليه الآخرون، وابتدأتْ رحلة إثباتِ الذات في العمل، وفكرة البحث ما زالت تدور في خاطري دون أن حد بداية الخَيط والوقت اللازم، خاصة بعد أن أدركتُ أن عملاً واحداً ما كان كفي لتغطيةِ ضروريات الحياة، فاشتغلتُ فترةً مسائيةً في القطاع الخاص، مما تهزَ على وقت الفراغ الذي كان يُفترضُ أن أعتني فيه بعائلتي، وأبدأ البحثَ عن تقيقة الكبرى.

استمر هذا الوضع حتى قضى الله تعالى أمراً كان مفعولا، وانتقلت إلى عملٍ

أتاح لي وقت فراغٍ مناسباً لتحقيق رغباتي، وسرعان ما لَمْلَمْتُ أوراقي وملاحظاتي، وملأتُ رفوف مكتبتي بالكتب المختصة، وتراجَعَتِ الهندسيةُ منها إلى صناديق كرتونية وُضِعَتْ في المستودع... ...وبعد ثلاث سنوات كانت مسوَّدةُ البحث.

لم يكن هذا البحثُ معدّاً للطباعة باللغة العربية، مما جعلني أتغاضى عن الدقة في التوثيق، لأن القارئ الأجنبي يهتم بالفكرةِ أكثرَ من اهتمامه بقائلها ناهيك عن جهله بأسماء المفكرين العرب، مما سيضطرني إلى التوثيق لهم قبل التوثيق بهم، لكن تحت إصرارِ الذين قرؤوا مسوّدة البحث على طباعتها باللغة العربية، وتشجيعهم.. كانت الطبعة الأولى على وجه السرعة، بسبب اقتراب موعد "معرض الكتاب السنوي" في دمشق عام ١٩٩٩م.

بعد أسابيع من التوزيع تلقيت كثيراً من رسائل التشجيع، بسبب الفكرة والأسلوب والشمولية -حسب تعبيرهم-، وتلقيت بعض الملاحظات والاستفسارات، ورسالةً واحدةً قالت: إن هذا البحث لم يأتِ بجديد، وإنَّ كثيراً من الكتبِ المؤيدة للخالقِ وشرائعه، والكتبِ المادية ذات الأفكار المضادةِ موجودةٌ في الأسواق، وتساءلتْ: لماذا أكتب أشياء مكَرَّرة؟.

وأنا بهذا أقدم شكري الجزيل لكل من خصص من وقته الثمين جزءاً لقراءةِ البحث ونقده، مقدِّراً لهم إرسالهم الملاحظات التي أُخِذَتْ بعين الاعتبار في الطبعة الثانية.

تحضيراً للطبعة الثانية كان لا بُدَّ لي -لأمانة البحث والنقل- من أن أعيد التوثيق بشكلٍ أدقّ، وإعطاء كلّ ذي حقٍ حقّه معترفاً بأنه لولا المراجع المذكورة في نهاية البحث، لما استطعت الخروج بما خرجتُ به، ولولا:

- تشجيع من الدكتور شوقي أبو خليل.

- وتوجيه من الدكتور محب الدين أبو صالح.

- ومساعدة من الأستاذ ياسين الفيغاوي الجزائرلي، في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وإجراء التصويبات النحوية واللغوية اللازمة.

لما خرجَت الطبعة الثانية، أكثر دقةً وأقل أخطاءً.

هذه كانت قصتي مع (البحث عن الحقيقة الكبرى)، التي فيها إجابات على أسئلة كثيرة، طُرحت عليَّ، تتلخص في:

- ما علاقة المهندس بالبحث الديني؟

- لماذا هجر المهندس المصنعَ ولجأ إلى القلم لكتابة موضوعات لا علاقة له بها؟

معلناً: إنني ما كتبت هذا البحثَ لغرض الانتفاع المادي، **بل لأنقل تجربة مررت بها، وأحببت أن أشارك الآخرين بها**، كيلا يقعوا بما وقعتُ فيه، بل ليكونوا متسلحين بسلاح العلم والمنطق والعقل ضدَّ كُلِّ مشككٍ بوجود الله تعالى.

مقدمة الطبعة الثالثة

كم هي مسؤوليةٌ صعبةٌ أن يعمل الإنسان في غير مجالِ اختصاصه... ظننتُ أني ببحثي هذا أحقق أمنيةً راودتني، بنقلِ تجربةٍ إيمانية مَرَرْتُ بها، إلى غيريَ من الشباب، من خلال عدة صفحات أطبعُها،... ثم أوزعُها وينتهي الأمر، وكلما كنتُ أسرع الخطا الخُطى للانتهاء من التعديلات والتصويب، ازددْتُ ارتباطاً بتلك الأمنية وتعمقاً في سبرها، فكنتُ كمن يناضلُ في بحر رمالٍ متحركة،... فتحوَّلت الأمنيةُ إلى دراسة،... والدراسةُ إلى بحث،... وتحولَ البحثُ إلى تخصُّصٍ،... والتخصصُ إلى مَسؤولية،... والمسؤولية إلى تفرغ،... فسقطَت جميعُ الهواياتِ الأخرى،... وتلاشت ساعاتُ الفراغِ،... وبقي مكاني فارغاً في كل المجالس العائلية،... وفي سهرات الأصدقاء، إذ كنتُ أنتقل من عمل... إلى عمل... إلى عمل،... وكنتُ أعيشُ بين إحباطٍ مرير لصعوبة تحقيقِ الهدف على الوجه الذي يرضيني،... وبين أملٍ بغدٍ يحملُ معه ما يُعينُني على الاستمرار في البحث، خاصة وأنَّ الهدف الذي أسعى إليه، لا علاقة له بثوابٍ في الدنيا.

لا بُدَّ أنه مرَّت على كلِّ مؤمنٍ لحظةُ ضعفِ إيماني، وراودته أفكارٌ تُشككُهُ في أمور دينه، فإذا لم يكن متسلِّحاً بعقيدة صحيحة قوية وعلمٍ وافٍ فإنَّ احتمال وقوعه في الخطأ واردٌ جداً، وإمكانيةَ خُروجه كلياً عن الطريق الصَّحيح لا تَقِلُ احتمالاً أبداً، خاصة إذا كان يحاورُ مَنْ تمكنَتْ منه الفلسفاتُ الجدلية، التي تُغري الشخص العادي بأسمائها البرَّاقة، وبأفكارها التي لا تعتمد حُجَجاً وحقائق علمية عقلية ذات شمولية، إنَّ تلكَ الفلسفاتِ نفسَها تتصارع فيما بينها، وتنتقل من

النقيض إلى النقيض، فترى الفيلسوفَ منهم يُلغي أفكارَ سابقيه، ويحاول إثبات خطئها وقُصورها، وينادي بتهافتها، والأحدث منهم ينادي بتهافت التهافت، فيَضَعُ القارئُ العادي في حَيرة، لأنَّ في كلٍّ منها جزءٌ من الصحَّة وكثيرٌ من الخطأ، فيختلط عليه الخطأُ مع الصواب،... ويَضيعُ بين الفلسفات المتناحرة،... ولا غرابة في ذلك!... إذ إنها كلّها تنبعُ من مصادرَ إنسانية محدودة البعد، متقلبة الأهواء، فهي إما مصادرُ عقليةٌ ترفض أي شيء لا يقبلُه العقلُ، ومعلومٌ أنَّ العقلَ مهما علا قاصرٌ غيرُ كاملٍ،... أو حسية لا تقبل إلا ما تحس به،... أو مادية جدليةٌ إلحاديةٌ ترى أنصافَ الحقائق،... أو إنسانيةٌ رقيقةٌ بعيدة عن الواقع،... أو تجريبيةٌ تخضع لاختلاف أدوات التجربة،... أو نفسيةٌ عاطفية تتغير حسب الظروف الخارجية،... أو فلسفيةٌ تعتمد الشّكَّ، فتُجبرُنا حتى على الشّكِّ في أساسيات الفلسفة نفسها،... أو طبيعيةٌ منحها أصحابُها صفات مطلقة وإرادةً،... أو،... أو،...إلخ. مما هناك من مُسمّيات غريبة مختلفة لفلسفات أكثرَ غرابة، لذلك فالإنسان العاقل يُحاول البحث عن فلسفة جامعة لكل الشظايا الفلسفية، التي حجزت نفسَها في زاوية مغلقة من زوايا النفس البشرية وأنكرت أمورها الأخرى، يبحثُ عن حقائق تَخرج من منبعٍ شامل غير محدود القدرة، لا يقبلُ الأحداثَ عليه، ولا تتغيرُ أسسُها مع عوارضِ الزمن والأهواء، هي "فلسفة الحقيقة الكبرى".

في هذا البحث يجد التائهُ منارةً تُقلّصُ أمامه اختيارات الضياع، وتُسقطُ ثوب المهابة عن فلسفات تُبهر القارئ بأسماء مؤسسيها البراقة، فيرى نفسَه يَسيرُ في طريقٍ احترمَ فطرتَه وعقلَه وإنسانيتَه وشخصيتَه.

بعد كتابة هذا البحث، تغيرت كل حياتي، فأصبحت لا أقرأ!... بل أتمعّنُ، ولا أسمعُ!... بل أُنصتُ وأُصغي، بتُّ لا أرى!... بل أُحدّق وأتفكر وأُحلّلُ،

صِرتُ أنظر إلى مشاكلِ الآخرين من وجهة نظرهم، وأجلس على مقعد خصمي لحلِّ مشكلتي معه، فأخذتُ أعالجُ الأمور بعقلانية أكثر، وتروٍ ودراسة أعمق، إذ تعلّمتُ استخدام مُجملِ طاقات فطرتي وإيماني وعقلي وعلمي ومنطقي،... كم أتمنى أن ينتقل كلُّ قارئٍ لهذا البحثِ، إلى ما انتقلَ إليه كثيرون ممَّنْ تدبروه، وكذلك أنا.

إنَّ هذا البحثَ نقلني من شاكٍّ إلى متيقنٍ، ومن مسلمٍ إلى مؤمنٍ،... ،... ومن أعزل إلى متسلحٍ بالإيمان والعلم والإدراك،... نقلني من مؤمنٍ بالفطرة والنشأة إلى مؤمن دعَّم إيمانه الفطري ببراهين عقلية وإدراكات حسية، مستخدماً ما وهبه الله تعالى للإنسانِ من عقلٍ وإحساساتٍ استخداماً صحيحاً،... كما نقل غيري أيضاً من الكفر والإلحاد الخالص إلى الإيمان الصافي السليم، وفي الوقت نفسه وضعني في متناولِ لهبِ مسؤوليةٍ تزداد مع الزمن، إذ ناقشتُ كثيراً من غير المسلمين عن نظرة الغرب للدين الإسلامي، فكانت لديهم أفكارٌ مغلوطةٌ عنه من جهات إعلامية موجهة، ولم يُخفوا دهشتهم وإعجابهم بما سمعوه عن الإسلام، من خلال مناقشة صريحة، وحوارٍ إيماني عقلي منطقي، بعيدٍ عن التطرف والعصبية. كما تعرضنا إلى مناقشة ما كانوا يسمونه "تناقضات واضطرابات بين آيات القرآن"[1]، وأثبتُّ لهم أن كلام الله تعالى لا يأتيه الباطلُ ولا تدخله شائبةٌ ولا ريبةٌ، وأن ما يسمونه تناقضاً واضطراباً ما هو إلا بسبب سوء فهمٍ لآيات القرآن الكريم،... ناقشنا نظرة الإسلام للمرأة، وكيف كرَّمَ الله تعالى المرأة في الإسلام، وأن الإسلامَ ليس دين الرجال فقط كما كانوا يظنون،...

(١) حسب الترجمةِ الحرفية لما لفظوا به.

من أجل هذا، تكون هذه آخر تعديلات وإضافات أُدخلت على الطبعة الثالثة من هذا البحث، فإن أصبت فأحمد الله، وإلاَّ فالكمال للهِ وحده.

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ

عِنْدَمَا بَدَأْتُ كِتَابَةَ هَذَا البَحْثِ لَمْ يَكُنْ فِي مُخَيِّلَتِي سِوَى نَقْلِ تَجْرِبَةٍ فَشِلْتُ فِي الانْتِصَارِ فِيهَا عَلَى الخَصْمِ، كَمَا فَشِلَ الخَصْمُ فِي تَحْقِيقِ هَدَفِه، وكَانَ فَشَلِي دَافِعاً لِي لِلْبَحْثِ عَنِ الحَقِيقَةِ الَّتِي لَمْ أَسْتَطِعِ الدِّفَاعَ عَنْهَا، عَمِلْتُ سَنَوَاتٍ طِوَالاً بِجَهْدٍ مُضَاعَفٍ، ودَعَوْتُ رَبِّي أَنْ يُعِينَنِي عَلَى مَا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ المَوْضُوعُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنْ اخْتِصَاصِي الهَنْدَسِي، إِلَى أَنْ صَدَرَتِ الطَّبْعَةُ الأُولَى بَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، قَضَيْتُهَا بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وقَلْبٍ قَوِيٍّ وعَزِيمَةٍ مَا عَرَفَتِ الكَلالَ ولا المَلَلَ، خَائِفاً أَنْ يَسْبِقَ أَجَلِي أَمَلِي.

كُلُّنَا يَبْحَثُ عَنْ حَقِيقَةٍ تُهِمُّهُ، وكُلُّنَا فِي سِبَاقٍ مَحْمُومٍ خَلْفَ هَدَفِـه، فَهَـذَا خَلْفَ لُقْمَةِ العَيْشِ، وذَاكَ لاهِثٌ خَلْفَ السَّيَّارَةِ الأُولَى، وآخَرُ خَلْـفَ المَلْيُـون الأَوَّلِ، وفِي خِضَمِّ هَذَا، يَفْقِدُ الإِنْسَانُ فُرْصَةَ التَّوَقُّفِ فِي مَحَطَّةِ اسْتِرَاحَةٍ يُعِيـدُ فِيهَا حِسَابَاتِه، فَيَخْسَرُ المُلْحِدُ فُرْصَةَ الإِيمَانِ، ويَخْسَرُ المُؤْمِنُ فُرْصَةَ التَّعَقُّلِ فِيمَـا يُؤْمِنُ بِه، ومَا خَابَ مَنْ جَعَلَ هَدَفَهُ البَحْثَ عَنِ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى.

مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِي وأَنَا تَحْتَ ضَغْطِ "افْعَلْ ولا تَفْعَلْ"، هَذَا مَسْمُوحٌ وهَـذَا مَمْنُوعٌ، هَذَا عَيْبٌ وهَذَا حَرَامٌ، يُوقِظُونَنِي فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ لأُصَلِّي، وإِنْ لَمْ أَفْعَلْ عُوقِبْتُ، أَفْعَلُ مَا لا أَفْهَمُهُ، وطُوبَى لِمَنْ وَجَدَ مَنْ يَهْدِيْه ويَشْرَحُ لَـهُ، لِمَـاذَا؟ وكَيْفَ؟ وإِلَى أَيْنَ؟ ومَنْ لَمْ يَجِدْ، فَلا بُدَّ لَهُ مِنَ الاعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ فِي بَحْثِهِ عَنِ "الحَقِيقَةِ الكُبْرَى".

مَنْ يَقْرَأْ هَذَا البَحْثَ المُبَسَّطَ عَنِ "الحَقِيقَةِ الكُبْرَى" بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، يَصِلْ عِلْمِيّاً وتَدْرِيجِيّاً وبِلا شَكٍّ إلَى أنَّ اللهَ حَقِيقَةٌ، وَمِنْ دُونِه لا وُجُودَ للكَوْنِ، ثُمَّ يَقُومُ مَعَنَا بِجَوْلَةٍ بَيْنَ كَافَّةِ الأَفْكَارِ الفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِذِكْرِ اللهِ، نُنَاقِشُهَا بِكُلِّ نَزَاهَةٍ وعَقْلانِيَّةٍ، ونَسْتَعْرِضُ الأَدْيَانَ الَّتِي ادَّعَى أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ فِـي أَرْضِـه، فَنَتَوَصَّلُ إِلَى حَقِيقَةٍ مُبَرْهَنَةٍ أنَّ الإِسْلامَ هُوَ دِينٌ سَمَاوِيٌّ، نَقَلَهُ اللهُ إِلَيْنَا عَلَى يَدِ رَسُولِه الكَرِيمِ ﷺ، وإِلَى أَنَّ القُرْآنَ هُوَ كِتَابُهُ الَّذِي لَمْ يُحَرَّفْ، حَيْثُ اسْتَعْرَضْنَا فِي جَلَسَاتِنَا أَغْلَبَ أَفْكَارِ مَنْ شَكَّ فِي صِحَّةِ القُرْآنِ ونَقْلِه، وذَلِكَ مِـنْ خِـلالِ مُنَاقَشَةٍ هَادِئَةٍ.

لَقَدْ يَئِسَ أَعْدَاءُ الإِسْلامِ مِنَ الدُّخُولِ عَنْ طَرِيقِ "الاسْتِشْـرَاقِ"، لِـذَلِكَ خَلَقُوا لَنَا "الاسْتِغْرَابَ"، فَأَخَذَ المُسْلِمُونَ "المُسْتَغْرِبُونَ" يُؤَلِّفُونَ كُتُباً يُسَمُّونَهَا عِلْمِيَّةً أَو ثَقَافِيَّةً فِيهَا عَشَرَاتُ الأَفْكَارِ الإِسْلامِيَّةِ الرَّائِعَةِ، ولَكِنْ يَدُسُّونَ فِيهَا بِدَاعِي الحَضَارَةِ والمُعَاصَرَةِ – عَنْ قَصْدٍ أَو غَيْرِ قَصْدٍ- ولَو فِكْـرَةً وَاحِـدَةً تُسِيءُ إِلَى الإِسْلامِ، فَيَقْتَنِعُ القَارِئُ بِأَفْكَارِ الكِتَابِ ولا يَنْتَبِهُ إِلَـى خُطُـورَةِ الفِكْرَةِ المَدْسُوسَةِ لأَنَّهَا مِنْ كَاتِبٍ مُسْلِمٍ، فِي حِينِ لَو قَرَأَ المُسْلِمُ لِكَاتِبٍ غَيْرِ مُسْلِمٍ نَرَاهُ مُتَنَبِّهاً بِكُلِّ جَوَارِحِه، لا تَفُوتُهُ الفِكْرَةُ نَفْسُـهَا إِذَا وَرَدَتْ فِيـه، وهَذَا هُوَ مَكْمَنُ الخَطَرِ.

يَسْتَحِيلُ وُجُودُ صِرَاعٍ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ؛ لأَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي الأَمْرِ الوَاحِدِ إِلا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ، ومَا الخَصْمُ الآخَرُ إِلا وَهْمٌ وَزَيْفٌ، والصِّرَاعُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِـلِ قَصِيرٌ لِصَالِحِ الحَقِّ، أَمَّا الصِّرَاعُ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ فَإِنَّهُ يَطُولُ ويَطُولُ؛ لأَنَّ أَحَدَهُمَا لَيْسَ أَوْلَى مِنَ الآخَرِ بِأَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ.

لَو أُرِيدَ للقُرْآنِ أَنْ يُفَسَّرَ مَرَّةً وَاحِدَةً، لَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِه، ولَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يُؤَوِّلَ أَو يُغَيِّرَ شَيْئاً فِي التَّفْسِيرِ. ولَو فَسَّرَهُ الرَّسُولُ تَفْسِيراً كَامِلاً لَجَمَّدَهُ، ولَحَجَبَ إِعْجَازَهُ المُسْتَمِرَّ، وهُوَ احْتِوَاؤه عَلَى الإِعْجَازِ العِلْمِـي المُتَجَدِّدِ الَّذِي لا يَنْتَهِي، والَّذِي سَنَطَّلِعُ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُ خِلالَ المُنَاقَشَاتِ، وغَيْرِهِ مِنَ الإِعْجَازِ اللُّغَوِيِّ والعَدَدِيِّ، ..إلخ. لَقَدْ أَوْضَحَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ القُرْآنِ مَا تُطِيقُـهُ العُقُولُ المُعَاصِرَةُ لَهُ، ومَا يَكْفِيهَا للإِيمَانِ بِه، تَصَوَّرْ لَو أَنَّهُ قَالَ قَولاً صَـرِيحاً: إِنَّ الكُرَةَ الأَرْضِيَّةَ مُكَوَّرَةٌ وتَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ، أَكَانَ يُصَدِّقُهُ أَحَـدٌ؟ وكَـمْ مِـنَ المُؤْمِنِينَ كَانُوا خَرَجُوا عَنِ الدِّينِ؟ وفِي الوَقْتِ نَفْسِه لَمْ يَرِدْ عَنْهُ ﷺ أَنَّـهُ قَـالَ مُبَاشَرَةً: إِنَّ الأَرْضَ مُسَطَّحَةٌ كَصَفْحَةِ الطَّبَقِ، مُؤَيِّداً مَا كَانَ سَائِداً مِنَ المَعَارِفِ.

إِنَّ مِنْ رَوَائِعِ القُرْآنِ أَنَّ كُلَّ جِيلٍ يَأْخُذُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِه، مُقْتَنِعاً بِإِعْجَـازِه وتَأْوِيلِه، فَإِذَا ارْتَقَى عَقْلُ البَاحِثِ فِيهِ فَسَيُعْطِيهِ القُرْآنُ عَطَاءً جَدِيداً، وهَذَا يُؤَكِّـدُ أَنَّ آيَاتِ القُرْآنِ يَتَّسِعُ إِدْرَاكُهَا حَسَبَ المُتَلَقِّي، وأَنَّ القُرْآنَ حَمَّالُ وُجُوهٍ.

لَو بَذَلَ النَّاسُ فِي البَحْثِ عَنِ "الحَقِيقَةِ الكُبْرَى" الجُهْدَ نَفْسَهُ الَّذِي يَبْذُلُونَهُ فِي مُحَاوَلَةِ طَمْسِ هَذِه الحَقِيقَةِ، لاسْتَطَاعُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَى عَظَمَةِ "الحَقِيقَةِ الكُبْرَى" فِي هَذَا الكَوْنِ، ولَعَلِمُوا أَنَّ الهَدَفَ مِنَ الدُّنْيَا، لَيْسَ هُوَ الدُّنْيَا بِذَاتِهَا، بَلْ مَا بَعْـدَهَا، لِذَلِكَ نَرَى المُؤْمِنِينَ يَسْعَوْنَ فِي تَطْبِيقِ التَّكَالِيفِ الإِيمَانِيَّةِ، لِيَصِلُوا إِلَـى الهَـدَفِ المَرْجُوِّ وهُوَ الجَنَّـةُ، فِي حِينِ يُفْسِدُ سُلُوكَ الآخَرِينَ لِجَهْلِهِمْ بِالهَدَفِ.

وَسَوْفَ تَكُونُ لَنَا جَوْلاتٌ مَعَ الكَوْنِ والقُرْآنِ، مِنْ خِلالِ بَحْثٍ جَدِيدٍ، هُوَ قَيْدُ التَّحْقِيقِ، تَحْتَ عُنْوَانِ "تَارِيخُ الكَوْنِ بَيْنَ القُرْآنِ والعِلْمِ"، نَأْخُذُ مَا اكْتَشَفَهُ العُلَمَاءُ عَنِ الكَوْنِ، وَصَارَ حَقِيقَةً مُؤَكَّدَةً، ونُسْقِطُ عَلَيْهِ مَا يُنَاسِبُهُ مِنْ آيَـات

القُرآنَ الكَرِيم، عَالِمينَ أنّ القُرآنَ لَيسَ كِتاباً علمياً، لَكِنَّهُ يَستَخدِمُ العِلمَ أحياناً لإثباتِ مَصدَرِه الإلهي، غَيرَ نَاسِينَ أنّ أيَّ اكتِشافٍ لَمْ يُطابِقْ مَا جَاءَ في القُرآن، فَعَلى عُلمائه إعادةُ النَّظرِ في استنتاجاتهم، مُؤكِّدينَ أنّ مَا ذُكِرَ في القُرآنِ الكَرِيم، لَمْ يُخالِفْ حَقِيقَةً واحِدَةً تَمَّ إثباتُها، عَلَى الرَّغمِ مِن مُحاولاتِ المُشكِّكينَ الكَثِيرَة.

مِمّا يُثلِجُ الصَّدرَ أنّ أصداءَ هَذا البَحثِ تَجاوزَت التَّوقُّعات، خَاصَّةً أنَّني مَا كُنتُ يَوماً متضلعاً في الكِتابَةِ والتَّأليف، وهَذا يَدُلُّ عَلَى أنّ النِّيَّةَ الصَّادِقَةَ كَانَت القَائدَ والدَّافِعَ لِبَذلِ كُلِّ جُهدٍ تَوفَّرَ لَديَّ ولَدى مَنْ حَولي، فَمَنْ أرادَ الاطِّلاعَ عَلَى رُدُودِ الفِعلِ فَليَطلُبْها مِنَ الشَّابِكَةِ "الإنترنت" بِوَضعِ اسمِ البَحثِ أو اسمِ الكِتابِ، وأذكُرُ هُنا بَعضَ مَا وَرَدَ فِيها:

١- "البَحثُ عَنِ الحَقِيقَةِ الكُبرَى" كِتابٌ ذُو أُسلُوبٍ حِواريٍّ بَسِيط، دَفَعَني بِشَغَفٍ إلى مُتابَعَةِ القِراءَةِ حَتّى آخِرِ صَفحَة.

٢- "البَحثُ عَنِ الحَقِيقَةِ الكُبرَى" هُوَ مِن أحلَى ثَلاثَةِ كُتُبٍ مَرَّتْ عَلَيَّ، مَواضِيعُها رَائِعَة - بَعدَ كِتابِ الله عَزَّ وجَلَّ الَّذي لا يُدانِيهِ كِتاب - ... كِتابٌ رَائِع ... رَائِعٌ جِدّاً وأنصَحُ الجَميعَ بِقِراءَتِه.

٣- هَذا الكِتابُ "مُو بَسْ عَجَبَني" كَمَوضُوعات "كَمان" عَلَى الأسلُوبِ الحَيِّ بِالنِّقاش.. جَزاكَ اللهُ خَيراً.

٤- في اختِيارِنا لِكُتُبِ الشَّباب لَمْ نَجعَلْ سَنَةَ النَّشرِ عَائِقاً، لأنّ هُناكَ كُتُباً جَمِيلَةً تَبقَى مَقرُوءَةً سَنَةً بَعدَ سَنَة، وتُعتَبَرُ مِنَ القِراءَاتِ الكلاسيكيَّةِ الضَّرُوريَّةِ في مَرحَلَةِ الشَّباب، ونَحنُ نُقدِّمُ هَذِهِ الكُتُبَ التَّالِيَةَ الَّتي نَالَتْ أكثَرَ الأصوات:

البحث عن الحقيقة الكبرى (عصام قصاب).

١-

٢- ......

٥- أحلَى كُتُبٍ قَرَأتُها:

١- لا تَحزَنْ للدكتور عَايض القرني.

٢- البَحثُ عَنِ الحَقِيقَةِ الكُبرَى للمُهَندِسِ عصام قصّاب.

٦- حَقِيقَةً، أنا أوّلُ مَرَّةٍ أقرأُ لِهَذا الكَاتِب، ولَكِنَّ مَا وَجَدتُهُ في هَـذا الكِتَاب يُشَجِّعُني عَلَى اقتِناءِ كُتُبٍ أُخرَى لَهُ إنْ وُجِدَت...

مِن عُنوانِه نَعرِفُ مَوضُوعَ الكِتاب، فَالكَاتِبُ يُناقِشُ فِيهِ مُناقَشَةً مُفِيدَةً عِلمِيَّةً وُجُودَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ والنَّظَرِيّاتِ الَّتي ظَهَرَت مِن أجلِ ذلك، تَكَلَّمَ عَنْ نَظَرِيَّةِ "داروين" و"أوبارين"... وأيضاً بَحَثَ في العَقائِدِ الوَضعِيَّةِ والشَّرائِعِ السَّماوِيَّة، ورَكَّزَ عَلَى المَسِيحِيَّة، ونَاقَشَ فِيها أُموراً لَمْ تَخطُرْ عَلَى بَالي سَابِقاً -مَعَ كَثرَةِ اطِّلاعي عَلَى هَذِه المَواضِيع- ثُمَّ نَاقَشَ الإسلامَ وأوضَحَ أحَقِّيَّتَهُ بِالاتِّباعِ عَلَى جَمِيعِ الدِّياناتِ الأُخرَى..

نَقاشُهُ عِلمِيٌّ جِدّاً خَاصَّةً فِيما يَتَعَلَّقُ بِالمَواضِيعِ الأُولَى، وهُوَ مَا أعجَبَني في هَذا الكِتاب.. واستَخدَمَ الكَاتِبُ عِندَما تَكَلَّمَ عَنِ الشَّرائِعِ السَّماوِيَّةِ أُسلُوباً مُمتِعاً، فَجَعَلَهُ حِواراً بَينَهُ (المُسلِم) وبَينَ أشخاصٍ آخَرِينَ مِنَ الدِّيانَتَينِ المَسِيحِيَّةِ واليَهُودِيَّة. أنصَحُ بِهِ لِمَنْ هُوَ مُهتَمٌّ بِمِثلِ هَذِهِ المَواضِيع..

٧- أحضَرتُ لَكُمْ مَجمُوعَةً مِنَ الكُتُب .... أُوصِي بِقِراءَتِها...أهَمُّها:

"البحث عن الحقيقة الكبرى"..... للمهندس عصام قصاب، إن هذا البحث نقلني من شاك إلى متيقن، ومن مسلم إلى مؤمن. بحث يناقش قضية هامة وعميقة .. لن أحرق مضامينه.... فقط اطلع عليه ولن تندم أبداً......

٨- أنصحكم بقراءة كتاب اسمه "البحث عن الحقيقة الكبرى" .. لكاتب نسيت اسمه.

٩- "البحث عن الحقيقة الكبرى" ذاك كان اسم كتاب رائع قرأته ولا زلت أقرؤه ... مؤلفه المهندس عصام قصاب.

١٠- قد تظنون أن الكتاب علمي، أو هندسي، أو ما إلى ذلك .. أرجوكم لا تتفاجؤوا إن قلت لكم إن الكتاب إيماني.

فما الذي دعا مهندساً أن يهجر المعمل ويلجأ للقلم!! هو سؤال طرحه المهندس عصام في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ... يقول المؤلف: "لا بد من سبب وجيه !.. ضغط العمل ؟ ممكن ؟؟ لكن الهجرة تكون فقط خلال الإجازات.. أما أن يقضي كل أوقات فراغه مع القلم، ويغرق في بحر من كتب لا علاقة لمهنته بها فهنا يطرح السؤال نفسه بقوة .. ما القصة؟ لماذا؟ ما وراء ذلك؟"

لو علمنا أن المؤلف قد مر بتجربة قاسية وامتحان صعب، أثناء دراسته في إحدى الدول الملحدة ... وأنه خاض نقاشاً حاداً عن وجود الله، مع بعض الذين حملوا لواء الإلحاد، ظناً منهم أنهم يجارون أفكار العصر والحداثة ... وأنه خرج من النقاش خاسراً يلملم شتاته.... وأنه رغم خسارته التي عزاها لأسباب منها أميته في مثل هذه المواضيع، وضعف ثقافته الدينية .... إلا أنه وعدهم، وألزم

نفسه أن يثبت علمياً للجميع أن الله هو الخالق، وهو الرب وأنه لا كون من دون الله ... وأن هذا ما يجب أن تكون عليه الفطرة السليمة، فكان أن أخرج لنا هذا الكتاب المبدع الذي لم يترك آية نظرية تنافي وجود الله الواحد الفرد الصمد، إلا وناقشها بهدوء وبعقل ومنطق، دون أن يتعرض بإساءة لأحد.

١١- "البحث عن الحقيقة الكبرى" ... هو كتاب موجه لكل ذي عقل من بني البشر دون تحديد ديانة معينة أو معتقد محدد، وعلى غلافه تجد عبارة ... "إذا كنت مؤمناً بالنشأة" .. "إذا كنت ملحداً بالتقليد" .. "إذا كنت متردداً بين الكفر والإيمان" .. فاقرأ هذا البحث".

فإن قرأه المسلم فأنا على يقين من أنه سيزداد إيماناً ... وإن قرأه غير المسلم حصل على فرصة، سيجد بعدها طريقه إلى الإسلام والإيمان بالله الواحد ... لكن بشرط أن يحكم عقلاً سليماً، لا تشوبه معتقدات سابقة، مما تعلمه في البيت ... والمدرسة .. وينسى كرهه للإسلام ... وحقده على الأديان السماوية.

هو كتاب مهم لكل داعية، يقوي الإيمان، إذ فيه من الحجج والمعلومات المفيدة، والمهمة لكل من كان في بداية طريق الإيمان.

أنصحكم بقراءة الكتاب، فهو بحق كتاب رائع.

تلك الآراء كانت جزءاً يسيراً من مجمل ما هو في "الإنترنت"، والتي آمل أن يمنحني الله عن كل رأي ولو حسنة واحدة، تفيدني يوم لا ينفع الإنسان إلا عمل صالح، وربما تنقذه حسنة واحدة. وأشهد الله أني ما عملت الكتاب إلا لهذا.

راجياً مَنْ له رأي حول موضوع هذا البحث، أو مَنْ له مداخلات حول موضوع البحث الثاني، أن يرسل رأيه أو مداخلاته، مكتوبة على العنوان أدناه، أو عن طريق دار النشر، وذلك حتى يتم توضيح الأمر ومعالجته والاستفادة من المداخلات.

والشكرُ لِكُلِّ مَنْ ساهَم في إخْراجِ هَذَا البَحْثِ ومَنْ سَيُشَرِّفُني بِرَأيٍ حَوْلَ مَوضُوعِ هَذَا البَحْثِ.

العنوان:

الجمهورية العربية السورية — دمشق

ص.ب. (٩٦٢) دار الفكر

http://www.fikr.com

E-mail:fikr@fikr.net

Esamkassab@yahoo.com

الباب الأول

هل الله حقيقة أم خيال؟

منهج البحث

كنت في الصغر أظن أن مسألة الإيمان بالخالق أو إنكاره هي مسألةٌ فطريةٌ روحيةٌ نفسية فقط، تعود إلى الوسط الذي ينشأ فيه الإنسان، مسألةٌ لا يمكن إثباتُها أو الاستدلالُ عليها بتوظيف العلوم، وأنه لا علاقة لها بالاكتشافات العلمية الحديثة، لكن بعد الاطلاع على بعض الكتب الدينية والعلمية المتخصصةِ التي تبحث في وجود الخالق، لاحظتُ وجود كثيرٍ من المؤشرات العلمية التي يستحيل تفسيرُها دون ردِّها إلى وجود خالقٍ كاملِ الصفاتِ، كما لاحظتُ أنَّ بعض الكُتّاب يستعينون بآيات دينية لإثبات قولهم عن وجود الخالق، وتقوية أدلّتهم، ورأيت في هذا تأثيراً سلبياً في بداية الدعوة، لأن القارئ لم يقتنع بَعدُ بالخالق ولا بكُتُبه،... وأحياناً يلجأُ الكاتبُ إلى السخرية اللاذعة من الملحدين والنقد الجارح لمن لا يؤمن، وهذا أسلوب أتجنبُه ولا تدعو حاجةُ النقاش إليه، لأنه يخالف حرية العقيدة، خاصة إذا كان الداعية في بلدٍ يخالفُ عقيدته، ويجعل القارئَ الملتزمَ بعقيدةٍ مخالفةٍ يهجر الكتاب قبل إتمامه، فلا يؤدي الغرضَ منه!.

لذا حاولت جاهداً الابتعاد عما أعدُّه مبالغةً، واتبعت القواعد الآتية:

١- عدمَ الانحياز بدايةً، لشريعة أو لعقيدة لمناقشة وجود الخالق، **فالخالق إن وجَبَ وجودُه** فهو موجود قبل الشرائع والعقائد، ويمكن الاستدلال عليه دونها.

٢- عدمَ الإساءة والقذفِ لأيٍّ من العقائد الدينية، مما يمكن أن يشكل رِدَّةَ فعلٍ سلبيةً، بل اعتمادُ أسلوبِ الحوارِ الهادئ الهادف.

٣- اعتمادَ **الحقائقِ العلميةِ** الثابتة فقط، التي لا يمكن للعلم مهما تقدم أن يثبت خلافَها، بل يمكن أن يُفسِّرَها ويوضِّحَها أكثر.

٤- عرضَ مختلفِ المسائلِ من وجهة نظر الملحد أولاً ثـمَّ المؤمن، بغرضِ سَدِّ الثغرات، والإجابة عن التساؤلات، ومتابعة تسلسل تفكير الطرفين؛ في مُحاولةٍ لتوجيهه الوجهةَ الفطرية العلمية المنطقية.

٥- في بحث التعرف على الشرائع السماوية والفلسفات الوضعية، حاولتُ ألاّ أنظر إليها من وجهة نظر مقيدة بشريعة بعينها، بل حاولتُ البحث عن التناقضات داخل الشريعة الواحدة -إن وُجِدتْ- مع التركيز على الشريعتين الرئيستين المسيحية والإسلام، لأن اليهود[٢] لا يهتمون بالدعوة إلى نشر شريعتهم.

(٢) اليهودي: هو يهودي النسب وليس يهودي الدين، والنسب هو للأم وليس للأب.

تمهيد

منذ قديم الزمان احتوت المجتمعات على مؤمنين وملحدين، وكانوا في جدال فلسفي لا ينتهي، لأنه لم يكن يستند إلى حقائقَ علميةٍ ثابتة، حيث اكتُشف أكثرُها في القرن العشرين.

يؤمن كثير من الناس بحواسهم فقط، ويرمونَ من آمن بغير ذلك بالجهل والتخلف، بينما نسوا أنهم أنفسَهم يؤمنون بالمغناطيسية ولم يحسوا بها، وبمحتويات الذرة دون أن تستطيع أكبر المجاهر رؤية ما بداخلها، وبالكهرباء من خلال آثارها فقط، وبالجاذبية دون معرفة تفسير علمي لحدوثها، ها قد آمنوا بعقلهم الذي عدّوه المرجع الرئيس للحكم، فهم يرون القضيب المغمور في الماء منكسراً!!.. والعقلُ يقول خلاف ذلك!... ويرون الطريق الطويل يضيق أمامهم حتى تتلاقى حافتاه!... لكنِ العقل جعلهم يؤمنون بغير الحواس!... حتى الإيمانُ بأنهم يسيرون ورأسهم دائماً إلى الأعلى أينما كانوا على سطح الأرض هو إيمانٌ خاطئ؛ لأن العقل والعلم يتدخلان، فلماذا يطلبون استخدام الحواس الخمس فقط للإيمان بالخالق؟ ولمَ هذه الازدواجية في معايير التصديق والاقتناع؟

ويؤمن كثيرون آخرون بعقلهم فقط، ويتّهمونَ من آمن بغير ذلك بالقصور العقلي، ناسين **أن العقل نفسَهُ يرفض الاعتماد على العقل**، لاعترافه بقصوره ومحدوديته وتباينه بين العاقلين.

إنَّ وضعَ مولودٍ في جزيرة مهجورة، وتأمينَ سُبُلِ البقاء له، ومتابعتَه حتى يكبرَ دون التأثير فيه، سنراه يستنتج بفطرته أن أثر الفريسة يدلُّ عليها، وأنه لا أثرَ بلا مؤثرٍ، ولا كونَ بلا خالقٍ.

فما بالك بمن آمن بالفطرة، ثم أَعمَلَ حواسه وعقله وتجاربه وحقائق العلم لتقوية إيمانه؟ ألا يكون إيمانه أثبت في صدِّ مناوئيه باستخدام أسلحتهم ذاتها؟

إن كثيراً من الناس العاديين والعلماء والفلاسفة قد اقتربوا من الإيمان فعلاً بخالق للكون؛ لكنهم لا يُصرحون ولا يدافعون عن إيمانهم، إما خوفاً من مجتمعهم، أو خجلاً من الاتهام بالتخلف،... حتى (داروين)[٣] نفسه، إمام الإلهيين الطبيعيين[٤] ودليل الملحدين، لم ينكر وجودَ خالقٍ للكون، ولكنْ كان لديه إدراكٌ خاصٌ للخالق سنبحثُهُ لاحقاً.

إن ما أطلبه من القارئ هو:

١- عدمُ الخوض في الاقتناعات السابقة مؤقتاً، والاستعداد المفتوح بقلب سليم لسماع أفكار ربما تكون مخالفة لما لديه.

٢- قبولُ تحكيم الفطرة والعقلِ السليم، والتجربةِ والحقائقِ العلمية الثابتة.

٣- التحررُ من المكابرة والتعنُّت.

٤- قبولُ بعضِ البدهيات مثل:

أ- العَدَمُ لا يُصْدِرُ بنفسهِ شيئاً، بأيِّ طريقة من طرق التحول والتفاعل، دون تدخل إلهٍ -إن ثبت وجوده- له القدرة على الخلقِ من عدم.

ب- الفعلُ المجرد عن التصنُّع يحمل صفات الفاعل.

جـ- فاقدُ الشيء لا يعطيه..... وغيرها...

---

(٣) (تشارلز روبرت داروين ١٨٠٩-١٨٢٢م): من المفكرين الإنكليز درَس العلوم في جامعة (كمبردج)، وتَخرَّج سنة ١٨٣١م، قدَّم كتابه المشهور (أصل الأنواع) سنة ١٨٥٩م، الذي قال في ختامه: "إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت عن جرثومة الحياة التي خلقها الله"، وقال أيضاً: "إنني متردد في عقيدتي الدينية، ولكن لم أكن منكراً لوجود الله"، وله كتاب بعنوان (أصل الإنسان) سنة ١٨٧١م، وقد حاول فيهما تطبيق نظرية التطور، واكتشاف أسلاف الإنسان من خلالها، صرَّح في آخر حياته أن أصل الإنسان قرد.

(٤) آمنوا بالخالق مُبدئاً وقابضاً للكون وليس للمخلوقات، لكنهم أعطوا الطبيعة دوراً مساوياً له بين الحياة والموت، ونسبوا إليها وجود المخلوقات.

أنا أتألم إذن أنا موجود، فلا داعي لمناقشة (المبدأ اللاأدري Agnosticism) التوهمي للوجود، الذي يعُدُّ وجودَ الله وطبيعتَه وأصلَ الكون، أموراً لا سبيل إلى معرفتها، إذ أيده أصلاً قليلٌ من المفكرين ورفَضه المنطق.

أنا موجود، فمن أنا؟... هل أنا جسم يفكر ويتكلم، يتغذى ويتكاثر؟ **هل أنا مادة فقط؟**... إن صح ذلك، فما الخوف، والحب والفرح والشجاعة؟ وما الشماتة والسَّكينة؟... إلى غير ذلك من المشاعر المختلفة.

إنَّ كلَّ هذا موجود فيَّ ولا مجال لإنكاره، ولكن أين مكان وجوده؟

هل أنا مكوَّن من مادة ومن غير المادة؟... لم تستطع أي فلسفة أحادية المنطلق (الفلسفة المادية[٥] أو الفلسفة المثالية[٦])، تفسير وجودي تفسيراً كاملاً مقنعاً، على الرغم من أن العلوم تؤيد المادة فقط لأنها فيزيائية مِخبريَّة، إلا أن فلسفتها لم تستطع إثبات نفيها لوجودِ عالمٍ غير مادي، والفلسفةُ الميتافيزيائيةُ[٧] (وهي فلسفة

---

(٥) **الفلسفة المادية:** هي النزعة القائلة بأنَّ كل ما هو موجود هو مادي، أو يعتمد كلية في وجوده على المادة، بمعنى أوضح أن الكائنات الإنسانية والمخلوقات الحية الأخرى، ليست كائنات ثنائية مركبة من جسم مادي وروح لامادية، وإنما هي أساساً جسمية في طبيعتها. (الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ٣٨٤).

(٦) **الفلسفة المثالية:** فلسفة تشمل كافة الآراء التي تجعل أساس الكون روحياً في نهاية الأمر (وهي تقابل الواقعية)، وتذهب إلى أن الأشياء الطبيعية لا يمكن أن يكون لها وجود بمعزل عن ذهن يعيها، وعلى هذا النحو لا تشمل هذه الفلسفة الذين وإن كانوا يؤمنون بالله، إلا أنهم ينسبون إلى المادة وجوداً جوهرياً قابلاً للتصور بغض النظر عن إمكان تجربته، وإن كانوا يرون أن الله في نهاية الأمر هو خالق المادة. (الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ٤٠٣).

(٧) **الفلسفة الميتافيزيائية:** دراسة شاملة لكل ما هو جوهري في الوجود والمعرفة والتفسير جميعاً. قال (أرسطو): إن "الجوهر" هو ما وجد في البداية، وإنه سابق على سائر الأشياء، وإن تفسير أي شيء آخر يتطلب فكرة "الجوهر"، ووجوده يتوقف على وجود "الجوهر"، وهي فلسفة تقوم على دراسة الواقع من حيث ما يقابل الظاهر المحض، وموضوعها هو ما يتجاوز الخبرة والتجربة، ومنهجها "قَبْلِي" أكثر من أن يكون تجريبياً، وهي صورة للأشياء كما هي حقيقةً، لا كما تظهر لنا.

ما وراء الطبيعة، أو الفلسفة الماورائية)، لم تنكر المادةَ، لكنّها تجاهلتها إلى حدِّ التطرف.

لقد أثبت العلم أن خلايا الجسم تتبدل كلياً خلال عدة سنوات، عدا بعض الخلايا النادرة وخلايا الجهاز العصبي!... إذن أنا الآن لست أنا الماضي، ولا أنا المستقبل، فأنا في تبدل مستمر، كالنّهر لا تسبح فيه مرتين، يَتَغيّرُ ماؤه باستمرار ويبقى النهر نفسُه،... فمن أنا إذن؟... إذا تغير جسمي وطرأ تغيير على عاداتي وطباعي وطريقة تفكيري وعلمي، ولم تبق لي سوى ذاكرتي التي تتلاشى مع الأيام،... لكنني أشعر في جميع مراحل حياتي أني مازلتُ أنا لم أتغير!... أتساءل هل يتحمل (أنا) الآن، ذنبَ (أنا) الماضي؟... وكيف لا أتساءل عن موت خلايا جسمي المِيتَةَ الأخيرة، إذا ما كانت هي أيضاً إحدى حالات التبديل!؟

وإنْ كان هناك سبيل للعودة إلى الحياة مرة أخرى، ألا يمكن أن يكون الموت مرحلةَ سُباتٍ مؤقّتٍ للروح، تنفصل فيها عن الجسد، كما تنفصلُ الأوراقُ عن أشجارها، أو كما تمارس أصنافٌ من الحيوانات مراحل طويلة من السبات الشتوي دون غذاء؟

عندما أغفو لحظة وأرى في منامي أني في مكان بعيد، وفي زمان مختلف، أقوم بأعمال ليست بالضرورة من وحي ملفات اللاشعور العميق، بل وفي زمن مستقبلي أو زمن قبل ولادتي، ومنها أعمال لم تخطر على بالي في حالة اليقظة، فمن الذي سافر المسافة والزمن وقام بالأعمال، والجسمُ ما انفكَّ راقداً في فراشه؟!.

- بعض الميتافيزيائيين بدلوا "الجوهر" بفكرة "الصيرورة"، ونرى (ديكارت) يعرِّف نمطين من الجواهر: المادة والعقول، أما (باركلي) فقد عرَّف جوهراً واحداً هو (العقول) أو (الأرواح)، ولم يعترف (سبينوزا) بغير جوهر واحد شامل هو الله أو الطبيعة اللامتناهية السرمدية، وقال: ما العقل والمادة سوى وجهين فحسب من هذا "الجوهر" الواحد، من هذا كله نرى أن الفلسفة الميتافيزيائية اختلفت أوصافها بين الفلاسفة. (الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ٤٦٦-٤٦٨ بتصرف).

هل لاحَظْتَ يوماً أنه إذا أيقظكَ شيءٌ فجأةً من نومك؛ فإنك تبدو وكأنك قادمٌ من مكان أبعد من مرقد جسمك؟

ألا يمكن الاستشهاد بهذا لتَقَبُّلِ فكرة الموت على أنه انفصال مؤقت للجسد عن جوهره الرُّوحي، وأن أحلام النائم تُقرب مفهوم الموتِ إلينا؟

يقولون: إن الميّتَ هو من غادرت روحُهُ جسدَهُ،... فكيف تغادره عند النوم؟

فنقول: إذا كانت الروحُ تغادرُ الجسدَ في رؤيا المنام أيضاً للتنقل بين الأحداث، فكيف ينبض القلب؟... وكيف يقوم الجسم بالوظائف الفيزيولوجية؟ وإذا كانت لا تغادره، فمن يسافر المسافة والزمن في تلكَ الرؤى والأحلام؟... لذا نضطر إلى طرح السؤال على الشكل التالي: هل مغادرةُ الروحِ المؤقتة للجسدِ تُعطِّلُ هذه الوظائف؟... هل يمكن للروح الواحدة أن تكون في مكانين في آن واحد؟... هل الروحُ ممتدةُ التأثير؟... ما هي طبيعة الروح؟.. هل نعلمُ كلَّ شيء عن الروح؟... وهل؟.. وهل؟.. تتشعب الأسئلة والجواب الجامع لها كلها، المريحُ والمقنعُ، هو أنَّ الروحَ ليست من الأمور الخاضعة للنقاش بين البشر، وأن لها من الأسرار ما يجعلنا **نكتفي من صفاتها بما نراه منها ونعلمه عنها للاقتناع بوجودها**، وإنه، لحكمَةٍ من خالقها، لم يُطلِعنا على كافة أمورها، وجعلها من أمره هو فقط.

إذن أنت وأنا حتماً أكثرُ من مجرد جسم ولدته أمه، وسوف يموت لتلف مادي في جسمه، إني شيء أذكى من أن أتقبل أنه إذا تفتت جسدي، أصبحت لا شيء يُذكرا! فمن يتحملُ ذنبَ طغياني، أو يعيدُ إليّ قهري ويحاسب من ظلمني؟... هل يذهب الظالم بظلمه والضعيف بهوانه بعد الموت؟.. فما ذنب المساكين يعيشون مقهورين ويموتون نكرات؟... إنها معادلات لا يقبلها المنطق العادل.

إن كانت المصادفة أوجَدتني فلا أمل لي بعدل، وإن كانت الطبيعة خلقتني فهي عاجزة عن أخذ حقي أو القِصاص مني، وأما إنْ كان خالقي هو قوةٌ أزليةٌ أبدية فالأمل كبير، لكن ما العمل وظالمي قد مات قبلي ولا سبيل إلى النيل منه، أو قَضيتُ أجلي قبل استردادي لحقي... إذن عليَّ أن أؤمن بخالق عنده يومُ محاكمة وعدل وقصاص، وعنده سجنٌ لمعاقبة الظالم، ومكانُ إسعادٍ لتعويض المظلوم ومكافأة المحسن والصابر.

إنها تساؤلات ومحاورات تدور في أذهان الناس ما عاش الناس!!.

الفصل الأول

صراع بين الإيمان والإلحاد

سألني أحد المعارف عن أمورٍ لم تُعجبه في الشرائع السماوية، وأخذ يهاجم بشدة ما كان يراه تطرفاً في بعض تعاليمها، وما عَدّه بعيداً عن المنطق والعقل.

فقلت له: ما رأيك أن نطبق عليك مقاييسكَ في الحكم؟ إذ إنَّ المنطق والعقل نفسيهما يرفضان أن تَلومَ عَن جَهل،... إنك لست مؤمناً بخالق لهذا الكون، فكيف تلوم غيرَ موجود برأيكَ؟... وأنا لست أرى أي منطق وعقلٍ في مناقشة محاسن السماء أو (مساوئها) مع من لا يؤمن بالسماء أصلاً،... إني نفسي لست بَعدُ واثقاً من إمكاناتي لإثباتِ وجود خالقٍ للكون، وأتردد بين رأيٍ مؤمنٍ به وآخرَ كافر، لكنني أبحثُ عنِ الحقيقةِ الكُبرى دون كَلَلٍ ولا مَلَل، وبلا سُخرية من أحدٍ ولا تَعَصُّبٍ لرأي، وقد قرأتُ كثيراً من المراجع بهذا الخصوص، فما رأيك أن أفكرَ معك بصوت مسموع، معيداً عليك ومناقشاً ما عَلمتهُ عن إمكانية وجودِ الله أو عدمِهِ؟... فإن وصلنا إلى نتيجة إيجابية، سنحاول معاً تَعَرُّفَ أديانِ السماء، ومناقشة صحتها، بعد ذلك نبحث عن جواب لتساؤلاتك من خلال ما سيُثبتُ لنا أنه دين السماء الصحيح غير المحرَّف، أليس هذا ما يُلزمنا به العقل والمنطق، اللذان تستندُ إليهما؟.

هزَّ الصديق كتفيه غير مبالٍ بما سمع مني، وقال: لا أُمانع، لقد سمعت كثيراً وقرأت كثيراً، ولم يغيِّر ذلك مِن رأيي شيئاً.

فقلت: إني أُقَسِّمُ مناقشة الإيمان والإلحاد إلى مناقشات ثلاث:

١ – مناقشة نشوء الكون:

الكون موجود حولنا، إذن هو ليس مستحيل الوجود... فهل هو:

أ – واجبُ الوجود: أزلي، وجِدَ تماماً كما نراه الآن؟ أم أن مادته فقط هي القديمة؟ ثم حصل فيها تناثر فوق العادة لأجزائها لسبب غير مؤكد، ثم تطوَّرَ وتراكب حسب قوانين الطبيعة.

ب – ممكن الوجود: سبقه العَدَم ثم أوجده الله بفعل "كن"؟... **إن كان الله خلقَهُ، فهل خَلَقَهُ بالضرورة أم بالإرادة؟** إن قلنا بالضرورة وجَبَ علينا قبول أزلية العالم لأزلية علته، وقبول أبديته لافتراضنا غياب الإرادة لإنهائه، وأن أي تبدلات في العالم لإنهائه، يَلزمُ أن الله عُرضَةٌ لتَبَدُّلات عليه وحوادث ستُرجِّحُ في المستقبل إنهاء العالم على بقائه، وهذا مرفوض، لأننا **إن نحن قلنا بوجود الله، فلا بُدَّ أنْ نقول: إنه قديم لا يَقبلُ الحوادث عليه لكمال صفاته.**

ولكن بما أن العالَم إلى حتمية الزوال حسب الإثباتات العلمية، (كما سنرى لاحقاً)[٨]، فلا بدَّ أنَّ العالم لم يكن ثم كان، مما يلزم **أن الخلق كان بالإرادة،** لأن رفض مبدأ الإرادة في الخلق تَلزمهُ أزليةُ الكون وهذا مخالف للحقيقة).

إذن، فالكون ممكن الوجود، أوجد الله مادّته من العَدَم بإرادته القديمة، ونفّذ الإرادة في الوقت الذي شاء بفعل (كُنْ)، وبالإرادة نفسها سيُنهيه في الوقت الذي يشاء.

(٨) انظر "الثقوب السوداء" من هذا البحث.

٢ – مناقشة بدء الحياة في الكون:

أ – الماديون يقولون: **بدأت الحياة في الكون مصادفة!...** ويقولون **بالخلق الذاتي للحياة!!..**

وعن **بدء الحياة على الأرض** يضيفون أيضاً إمكانية **الجرثومة المهاجرة** من الفضاء الخارجي، ثم يتصورون حصول التطور حسب قوانين الطبيعة التي وضعتها بنفسها لنفسها، ولا يعترفون بوجود إله يتحكم بالكون وبقوانين الطبيعة.

ب – الإلهيون الطبيعيون يقولون: إن الله أعطى الحركة الأُولى، والحياة الأُولى، ثم تنحى عن التدخل، كل هذا ليس بإرادته، بل إن من صفاته الخلق ولا يستطيع ألّا يخلق، فكان خلقُه للحياة بالضرورة، ثم أخذ التطورُ مَسْرَاه حسب القوانين الطبيعية، دون تخطيط إلهي مسبق، أو تدخل إلهي لاحق!.

جـ – المؤمنون يقولون: إن الله تعالى خلق المادة وخلق منها الكون، وبث فيه من كل أنواع المخلوقات، خلقاً مباشراً قابلاً للتطور دون الخروج عن صفات النوع الأساسية، ووضع للكون قوانينَه الثابتة التي يسير عليها، وهي ما يسميه الماديون والطبيعيون بالقوانين الطبيعية، دون أن يناقشوا من أين جاءت هذه القوانين، ومن الذي أوجدها؟.

٣ – مناقشة خلق الإنسان على الأرض:

هل هو خَلْقٌ مباشر ابتدأ بآدم وحواء كما يقول المؤمنون؟

أم هو تطورٌ من سلسلة القرود الكبيرة كما يقول الماديون والطبيعيون؟

إن هذه المناقشات الثلاث تحدد درجة إيمان الإنسان، أو مستوى إلحاده، وستكونُ المحورَ الرئيسَ لرحلتنا بين الكفر المطلق والإيمان المطلق، بغرض البَحْثِ عَنِ الحقيقةِ الكُبرى.

البحث الثاني: مناقشة مع الذات لمجموعات الوجود الأساسية:

للبحث عن خالق للكون؛ نستعرض ما يمكن لخيالنا إدراك وجوده بشكل عام، ونصنّفه في مجموعات[٩] أساسية:

أولاً: المجموعة الخالية:

هي المجموعة التي لا تحتوي على أي عنصر مهما كان نوعه وميزاته، ويستحيل لأي حالة موجودة خارج هذه المجموعة، أن تكون قد تطورت من حالة موجودة داخلها، دون تدخل قوةٍ خارجيةٍ -إنْ وُجِدَت- قادرةٍ على الخلق من العدم وهي مجموعة ليس فيها أي شيء قابل للوصف، كأن نقول عن مكان ما: إنه لا نور فيه ولا ظلام، لا سالب فيه ولا موجب، لا حرارة فيه ولا دفء ولا برودة، لا أبعاد له ولا سعة، ...إلخ. مما يمكن إطلاقه على العدم.

ثانياً: المجموعة المتكاملة:

هي المجموعة التي عناصرها تشكّلُ جميعَ أجزاء الكون وصفاته وقوانينه التي تسيطر عليه، ويمكن تسميتها **(مجموعة المخلوقين)**، أو **(مجموعة المسبَّبين)**.

ثالثاً: المجموعة الأزلية:

هي المجموعة التي عناصرها القوى الهائلة كافّةً القادرة على الخلق، وهي التي أوجدت عناصرَ المجموعة المتكاملة، ويمكن تسميتها **(مجموعة الخالقين)**، أو **(مجموعة الأسباب أو المسبِّبين)**، حسبما تعود القارئُ استخدامه.

هنا يعترض **الإلهيون الطبيعيون** على هذا التقسيم، ويقولون: إننا نرفض التسمية (مجموعة الخالقين)، ونقول: إنّ أسباب وجود المجموعة المتكاملة هي

(٩) ليس لهذه المجموعات حدود مادية تَحُدُّ ما بداخلها، وهي تسمية منطوقة لتقريب المقصود من المفهوم.

تطورات طبيعية ذاتية بعد أن أعطى الله الحركة الأولى للمادة التي وجدها، ونطالبُ بتسمية المجموعة الثالثة **(المجموعة الطبيعية)**، وهي مجموعة عناصرها تُؤلِّفُ المواد الطبيعة والظروفَ البيئية التي تطورت وكوّنت العالم.

بينما يصر **الماديون** على أنه لا مجال للكلام عن وجود إله خالق، ويعُدُّون مادة العالم قديمةً أزلية، كانت أساسياتُ ذراتِها وستبقى كما هي عليه الآن! وأن تشكيل عناصر المجموعة المتكاملة هو من قبيل العديد من المصادفات، نتيجة الحركة والتطور المستمر للمادة كمّاً وكيفاً، والتي أدت إلى تطورات وطفرات مفاجئة نتجت عنها الحياة، ويطالبون بإلغاء التسمية **(مجموعة الخالقين)** واستبدالها بـ**(مجموعة المصادفات)**.

بذلك يتحول النقاش إلى تحديد ماهية المجموعة الثالثة:

١- هل هي (المجموعة الطبيعية)؟

٢- أم هي (مجموعة المصادفات)؟

٣- أم هي (مجموعة الخالقين)؟

وسوف نستعرض هذه الاحتمالات قبل متابعة المناقشة.

١ - المجموعة الطبيعية:

أول من نادى بها هم **الفلاسفة الإلهيون الطبيعيون** (المؤمنون بوجود إله للكون) وأتباعهم، من الذين أعطوا الطبيعة دوراً أوسع من دور الله في الخلق والتطور، فقالوا: إن مادة العالم قديمة متساوية مع الله في الزمن، وإن الله ليس هو علة العالم المادية، بل هو علته الفاعلة والصورية والغائية[١٠]، إذ إنه وَجَدَ المادة

(١٠) انظر (أرسطو) في الباب الثاني/ الفصل الأول من هذا البحث تحت عنوان (فلاسفة ما قبل عصر التنوير).

فأعطاها **الحركة الأولى** وخلق منها **الخلية الأولى** ثم تنحى عن التدخل، ويمثلهم الأفلاطونيون[11]، وأتباع (أرسطو)[12].

بينما يقول **الفلاسفة الطبيعيون**: إنَّ الله وجد المادة، **فأعطاها الحركة الأولى فقط**، **وأما الخلية الأولى فهي من فعل الطبيعة** التي تهيأت لها الظروف، فأوجدت لنفسها التغذية والحركة والتكاثر، وهذا يعني أنهم يقولون بما سُمّي لاحقاً بـ(الخلق الذاتي) حسب فرضية (أوبارين)[13]، ثم التطور حسب فرضية (داروين)، ويمثّلهم علماء ما قبل (باستور)[14] مثل (بوشيه)[15] و(هكسلي)[16]، مما يعني أن عناصر المادة قد خَلَقَتْ نفسها، وأنشأت لنفسها أجهزتها اللازمة المعقدة.

ونحن نقول :إن هذا ليس من حالات المادة التي تقبلها الفطرة والعقل دون

(11) (أفلاطون، Platon ٤٢٧-٣٤٧ ق.م): من مشاهير فلاسفة اليونان، تلميذ (سقراط) ومعلم (أرسطو)، أساس فلسفته "نظرية الأفكار"، مثالها الأسمى "فكرة الخير"، من مؤلفاته "الجمهورية"، و"السياسي"، و"الشرائع".

(12) (أرسطو Aristote ٣٨٤-٣٢٢ ق.م): فيلسوف يوناني من كبار مفكّري البشرية، أهم مؤلفاته "المقولات"، "الجدل"، و"الخطابة"، وكتاب "ما بعد الطبيعة".

(13) (أوبارين Oparine): عالم أحياء روسي من القرن العشرين، ورئيس معهد الكيمياء الحيوية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وهو من أنصار المادية، آمن بنشأة الحياة الأولى على الأرض بسبب تفاعلات حدثت في المادة بعضها مع بعض (الخلق الذاتي)، ينفي المصادفة في خلق الكون، له كتاب "أصل الحياة"، في عام ١٩٢٩م أدلى برأيه حول نشأة الحياة على الأرض، لكنه فشل في إثباته.

(14) (باستور Pasteur ١٨٢٢-١٨٩٥م): عالم فرنسي اشتهر بدراساته عن الجراثيم، واكتشافه (البنسلين) ولقاحاً ضد مرضِ "الكَلَب".

(15) (بوشيه): عالم فرنسي، قال: إنه استطاع توليد أشكال دقيقة الحياة في سائل ضمن هواء معقم [لاحقاً تبين بواسطة العالِم (باستور)، أن الهواء لم يكن معقماً تماماً].

(16) (توماس هكسلي Huxley ١٨٩٤-١٩٦٣م): أديب إنكليزي وناقد اجتماعي، قال: إن الحياة والفكر يمكن تفسيرهما تفسيراً كاملاً -من حيث المبدأ- على أنهما نشأا عن المادة بطريق التطور، (الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٤١٥، وهو من أشد المتحمسين لأقوال (داروين) في التطور ولمبدأ المصادفة في الخلق، لكن سرعان ما تحول عنها عندما بدأ يرى الله في كل شيء حوله، إلى أن قال إنه آمن بالله، ظهر ذلك في كتابه "مكان الإنسان في الطبيعة"، حيث قال: "إن الله والعلم لا يفترقان، إنهما دائماً على موعد وفي لقاء في كل تجربة يقوم بها العلماء"، وَرَدَ هذا القول في كتاب "الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل"، ص٥٢.

برهان، حيث سينطبق السَّبَبُ على المسَبِّبِ، والمخلوقُ على الخالق، فإما أن تكون صفات العناصر من حرارة ورطوبة وقساوة وحجم...إلخ، أو خصائصها من تغذية وتكاثر وحركة ونمو،...إلخ. هي التي خلقت "المجموعة المتكاملة" -سابقة الذكر-، وهذا ليس أكثر من وصف لتلك العناصر والقابليات، ويستحيل إدراك أن طبيعةَ الأشياءِ وصفاتِها تخلقُ الأشياء، مَثَلُ هذا كمثَلِ الذي يؤمن أنَّ سفينة تحمل آلاف الأطنان، تطفو حسب قانون (أرخميدس)[17] وتتحرك حسب قوانين (نيوتن)[18] وتكتسب الطاقة الحركية حسب قوانين تحول الطاقة، ثم يقول: إن هذه الطبائع والقوانين هي التي خَلَقَت السفينة أو الطائرة أو القطار...أو الكون؟!.

بهذا يظهر عجز طبيعةِ العناصرِ وصفاتِها أن تخلق العناصر، كما فشلت العناصرُ ذاتُها في خلق نفسها، ويتّضحُ أنَّ هؤلاء العلماء والفلاسفة ألبسوا الطبيعة ثياباً فضفاضة لتتسع لكثير مما ينسبونه إليها.

ونقول لهم أيضاً: إذا كنتم ترفضون تسمية (مجموعة الخالقين) وتنادون بـ(المجموعة الطبيعية)، وفي الوقت نفسه تقولون: إن الله أعطى الحركة الأولى ثم تنحى جانباً، فنسألكم: في أي مجموعة إذن سيكون الخالق -الذي تؤمنون به- موجوداً في نظركم؟!

بينما وُجِدَ كثيرٌ من الفلاسفة الذين قالوا: إن المادة أزلية أبدية،لم يخلقها أحد، ولم يخلق منها أحدٌ شيئاً، وأنه إذا تهيأت الظروف والبيئة الملائمة للمادةِ فيمكن أن تُخلَقَ فيها الحياة ولا داعي لنسب ذلك إلى خالق ما، أُطْلِقَ على هؤلاء اسم **(الفلاسفة الماديون)**، وهم يلتقون مع **(الفلاسفة الطبيعيين)** بالخلق الذاتي للحياة.

(17) (أرخميدس ٢١٢ق.م): ولد وتوفي في جزيرة صقلية اكتشف القانون الذي تطفو حسبه الأشياء على الماء.

(18) (السير إسحاق نيوتن ١٦٤٢-١٧٢٧م): فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي وفلكي صاغ قوانين الجاذبية عام ١٦٨٧م.

يفترض مؤيدو الخلق الذاتي أن المادة أزلية كيلا يضطروا للإجابة على من يسأل: **من خلقَ هذه المادة؟**

يمكن نقض هذه الفرضية من أساسها، إذا أثبتنا أن المادة ليست أزلية[١٩]. وهذا سيكون أحدَ المحاورِ الأساسية لرحلتنا الجدلية، أما الآن فسوف نتجاوز هذا الموضوع مؤقتاً.

- الخلق الذاتي:

منذ (أرسطو) وحتى عهد (لويس باستور) في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، كان توالد بعض أنواع من الديدان في اللحم الفاسد، والذباب فوق نفايات في غرفة مغلقة؛ يفسره كثيرون بالخلق الذاتي، وخاصة بعد إعلان (بوشيه) الفرنسي، أنه استطاع توليد أشكال دقيقة من الحياة، في سائل ضمن هواء معقم، فاهتم (باستور) بذلك، وأحب أن يتأكد بنفسه؛ فصعد إلى أعالي (جبال الألب)، حيث يُتوقع أن الهواء أكثر نقاوة،... كان يمرر الهواء الذي يستعمله في تجاربه عبر قطن نظيف، فلاحظ أن لون القطن يتغير... فحص القطن بعد معالجته بمادة مذيبة في مزرعة جراثيم، فلاحظ وجود يرقاتٍ بعض الكائنات الحية وجسيمات صغيرة ساكنة، وضع هذه الجسيمات في مرق اللحم فبدأت تتكاثر، وكانت السبب في فساد مرق اللحم، فأعلن (باستور) حينذاك عن خطأ تجارب (بوشيه) وطلب منه أن يتأكد من ذلك بنفسه، ثم في محاضرة عامة في باريس أعلن (باستور) أن نظرية الخلق الذاتي لا أساس لها من الصحة.

وتابع (باستور) تجاربه أكثر من سبع سنوات بهدف البحث العلمي، أثبت فيها **أن الجراثيم لا يمكنها أن تتوالد بالخلق الذاتي** ضمن أية بيئة وظروف كانت، بل

---

(١٩) عندما تُفَرَّغُ النجوم الكبيرة من مادتها الداخلية -بسبب الانفجارات الحرارية النووية- تنهدم بفعل جاذبيتها، فتلتصق كل محتويات الذرة من إلكترونات وفوتونات ...إلخ مع بروتون الذرة، فتتغير ماهيتها وتصبح جاذبيتها هائلة بشكل تمنع خروج أي إشعاعات، فتبدو مثل ثقب أسود في السماء. (انظر نظرية الثقوب السوداء في الفصل الثاني من هذا البحث).

إنّ الأشكال الدقيقة من الحياة، إنما تنشأ من بُيوض أو كائنات مجهرية الحجم موجودة في الهواء الذي **افترضه (بوشيه) معقماً**، إذا صادفت الشروط الملائمة لها[٢٠].

وقام العلماء في مختلف البلدان بتجارب مماثلة، منهم (سبالانزاني)[٢١]، الذي أعلن بعدها، **أن كل كائن حي لا يأتي إلا من كائن حي مثله**، يحمل جميع صفاته وخصائصه الوراثية.

وهكذا انتهى القرن التاسع عشر مع انتهاء فرضية الخلق الذاتي وانحسارها.

لاحقاً قامت على أساس هذه التجارب صناعة المعلبات، وظهرت عملية "البسترة" [نسبة إلى العالم (باستور)، وهي عملية حفظ الأطعمة من الفساد بتفريغ الهواء من مُعلباتها]، فكانت لهذه النظرية أبعاد عظيمة جداً، دونها ما كنا استطعنا رد نظرية الخلق الذاتي.

إنّ هذه التجارب بين (بوشيه) و(باستور) تجبرنا على التساؤل: تُرى هل علينا دائماً الانتظار حتى يظهر (باستور) جديد، لدحض كل فكرة خطرت أو ستخطر لأحد العلماء، ولم يستطع هو إثباتَ صحتِها، ولا نَحن استطعنا إثبات خطئها؟

إن هذه التجربة تُظهر لنا عدم منطقية تعليق الإيمان حتى يَثبُتَ خطأ فرضية ملحدة أخرى، قد تظهر لاحقاً.

إن العلماء الذين حاولوا خلق الحياة في المختبر، قالوا: لقد جهزنا كل شيء، وانتظرنا دون جدوى حدوثَ ذلك **الحافز المجهول**، الذي يجعل الأشياء تنتقل من (اللاحياة) إلى (الحياة)!... وحول الموضوع نفسه يقول (روسيل وولاس): "يمكن

---

(٢٠) "مبادئ علم البيولوجيا" تأليف العالمة الروسية (أرينا كاروزينا) ص ٤٢٦-٤٢٧ بتصرف.

(٢١) عالم إيطالي اهتم بعلم الوراثة.

تحليل الخلية وإعادة تركيبها، لكنها لا تُكوِّن خلية حيـة، فكأنها قد فقدت بين التحليل والتركيب سراً نجهل ماهيته".

نتساءل: ترى من أحدثَ ذلك الحافز المجهول، الذي ينقل الأشياء من اللاحياة إلى الحياة؟ ومن أعطى الشرارة الأولى لها؟!.

أليس عن تدبيرٍ إلهي أن الأجسامَ الحيةَ كلّها تتألف من ماء وتراب وهواء، وأنَّ هذه مواد لا حياة فيها؟!.. تصور لو أنها من مادة غير مادة الأرض، فكيف ستتصرفُ بمليارات الجثث؟ وماذا سيكون تأثير تفسخها في الأرض وعلى المخلوقات، في ذلك نرى حكمةَ خالقٍ عليم.

ويقول (بخنر)[٢٢] في إمكانية الخلق الذاتي: "إن البَتَّ في التولد الذاتي للخلية الأُولى التي نشأ منها الأصل **غير متيسر الآن**، لأن الأصول المناسبة لتَوَلُّدِ الخلايا الأُولى تولُّداً ذاتياً **غير معروفة**، والخلية ذاتها على بساطتها هي بناءٌ وتركيبٌ يمتنع معه صدورها عن الجماد مباشرة، **بل إن ظهورها من الجماد في نظر العلم معجزة**، ليست أقل بعداً عن العقل من القول بظهور الأحياء العليا من الجماد مباشرة"[٢٣].

إذن فإن العناصر ذاتها لا تخلق العناصرَ، ولا صفاتُ العناصرِ وطبيعتُها تَخلقها، ولا تَوفُّرُ البيئة الملائمة يسبب الخلق الذاتي، ولهذا **فليست (المجموعة الطبيعية) هي التي خلقت (المجموعة المتكاملة)**، بل هي جزء مفترض منها، وعليه تسقط المقولة من المناقشة.

---

(٢٢) (بخنر ١٨٦٠-١٩١٧م): كيميائي ألماني درس التخمر، حصل على جائزة (نوبل) عام ١٩٠٧م، وهو من أشد المتحمسين لمذهب النشوء والارتقاء.

(٢٣) تجدها في كتاب "الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل". ص ٤٩.

٢- مجموعة المصادفات:

يقول مؤيدوها إنه لا مجال لمناقشة وجودِ خالقٍ للكون أو مَصْدَرٍ له، فالكونُ أزلي أبدي لا خالق له، مرت عليه ظروف كثيرة مختلفة، **وصادف** أن أحد هذه الظروف كان مناسباً لظهور الحياة!!.

يمثل هذا التيار الماديون، إذ يرون أن مجموعة من المصادفات، كانت السبب في ظهور الحركة الأُولى والحياة الأُولى، وهذا يعني أن:

أ- ذرات الكون وجزيئاتِها، وحركة الإلكترونات فيها، وجِدَت بالمصادفة!!. واختلاف شحنتها وثبات مداراتها بالمصادفة!!. وسعة كل مدار وإمكانية الاتحاد بين الذرات لتشكيل المواد المختلفة للكون بالمصادفة!!.

ب- انتظامَ الشموس في مداراتها والظروف الملائمة على الأرض للحياة مصادفة!!.

جـ- الإنسانَ بمجموعه -حواسه وعقلِه وأخلاقِه واستعداداته المختلفة- مصادفة!!.

د- هجرةَ الطيور والأسماك المتكررة كل عام تتم بالمصادفة!!.

هـ- التعقيد المعجز داخل الخلية مصادفة!!.

و- وظيفة حامض الـDNA [٢٤] والـRNA[٢٥] والكروموسومات و... و... وكل هذا مصادفة!!!.

ز- ......إلخ

---

(٢٤) .D.N.A: الحمض الريبي النووي المنقوص الأكسجين (Deoxyribonucleic Acid): (سكر البنتوز + الحمض النووي).

(٢٥) .R.N.A: الحمض الريبي النووي (Ribo Nucleic Acid): (الحمض الريبي+الحمض النووي).

أن تلتقي صديقاً في الشارع دون تخطيط مسبق منك أو منه، نقول عنه إنه لقاء بالمصادفة، أن تقدم امتحاناً ويصادف أنك سُئلت عن السؤال الوحيد الذي درسته وتنجح، فنقول: إنك نجحت بالمصادفة،... إذن أي شيء يحدث دون أي درجة من درجات التخطيط المسبّق من أي طرف من الأطراف المتصادفة، نقول عنه: إنه حدثَ بالمصادفة!.

يقول (هكسلي) وهو مؤيد لنظرية المصادفة: "لو أن ستة قرود جلست إلى آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة لشكسبير(٢٦)"!

هذا هو المبدأ الأساس لفرضية المصادفة التي يدَّعون أنها خَلَقَت الكون!!.

نقول لهم: تعالوا نناقش هذه الفرضية بالفطرة والعلم والمنطق السليم، والعقل الناضج، ولنبدأ بالمثال نفسه، ولنفترض أن القردة نفسها يمكن أن تعيش هذه المدة اللازمة التي يمكن أن تصل إلى عدد كبير من السنين يصعب لفظه، لاحتمال ورود -على الأقل- ألف حرف مثلاً، بحيث تشكل جزءاً من قصيدة لـ(شكسبير)!.

تبقى لدينا مشاكل لا حل لها تكمن في:

أ- أن هذه المدة اللازمة هي أطول من عمر الكون المفترض!.

ب- إمكانية اتساع الكون للورق اللازم لهذه الكتابة خلال مليارات السنين!، ولا حتى ذاكرة الكومبيوتر مهما اتسعت تفي بالغرض.

نستغرب أن يصدر مثل هذا التأييد عن فيلسوف بمستوى (هكسلي)؟!. لكن نراه لاحقاً قد غير رأيه وقال بوجود الله في كل ما حوله.

(٢٦) (شكسبير Shakespeare، ١٥٦٤-١٦١٦م): شاعر مسرحي إنكليزي غدا في مصاف رجال الأدب العالمي.

بينما يقول البروفسور (إدوين كونكلين) في كتابه (الدليل على وجود الله The Evidence Of God): "إن القول بأن الحياة وجِدت نتيجة حادث مصادفة، شبيه في معناه أن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة لانفجار مطبعة"!.

يقول (سقراط): "هذا العالَمُ يظهر لنا على النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة إطلاقاً"(٢٧).

ويقول الفلكي الكبير (جيمس جينز)(٢٨): "لا يمكن أن تكون المصادفة هي التي أوجدت نظام هذه الكواكب"(٢٩).

إن للمصادفة دراسة رياضية في بحث الاحتمالات، ولها قوانين تتحكم بها وهي قوانين احتمالية غير لازمة لحدوث المصادفة، والقانون العام يقول: إن احتمال حدوث المصادفة، يتناسب عكسياً مع عدد الإمكانات المتكافئة المتوافرة، أي كلما زادت الإمكانات قَلَّ حظ المصادفة من الاحتمال، فإن الاحتمال النظري للحصول على الرقم (٦) من أول رمية لحجر الزهر هو (١/٦)، لاحظ أنه يمكن رمي الحجر عشرين مرة دون لزوم الحصول على الرقم (٦)، لكن قوانين الاحتمالات تنطلق من مبدأ أنه إذا رميت الحجر عدداً كبيراً جداً من المرات فإنك تحصل على عدد رميات متساوية للأرقام من (١) إلى (٦).

أما سحب الكرة الحمراء من بين مائة كرة متساوية ومختلفة الألوان، فهو نظريا (١\١٠٠) واحتمال سحب الكرة البيضاء من بين الباقي هو (١\٩٩) أما احتمال سحب الكرة الحمراء ثم البيضاء مباشرة فهو (١\١٠٠)X(١\٩٩)= (١\٩٩٠٠)، وإذا أردنا سحب كل الكرات المائة، وبتسلسل معين للألوان عندها ينخفض الاحتمال لحدوث تلك المصادفة إلى الرقم:

(٢٧) "الله والعلم الحديث"، ص ١٣.

(٢٨) (جيمس جينز): من أعظم علماء العصر في الرياضيات، قال: إن حقيقة الكون ليست المادة، وإنما هو العقل.

(٢٩) "الله والعلم الحديث"، ص ١٦.

(١\١٠٠)x(١\٩٩) x (١\٩٨) x (١\٩٧) x . . . . . x (١\١).
(١\رقم يصعب النطق به)!.

أي إن احتمال حدوث هذه المصادفة هو واحد من بلايين بلايين بلايين المرات من المحاولات، والآن تصوَّر لو أن كل كرة يشترط استخدامها لمرة واحدة فقط، سيتوجب علينا إذن استعمال كرات جديدة في كل مرة نعيد فيها السحب، فما سعة المكان الواجب لحفظ الكرات اللازمة لهذه المصادفة؟... ناهيك عن أن الزمن اللازم سيقاس أيضاً بمليارات مليارات السنين!. وهذا غير متوافر لدينا من عمر الكون!.

نتساءل أيضاً ترى كم من الناس سيُصدق، إذا قلنا: إننا ألقينا ملايين من قطع الحديد، وأدواتِ ربطها من الجو، فكوَّنت لدينا بالمصادفة برج (إيفل) المشهور؟! أو ألقينا مئاتِ الآلافِ من أطنان الإسمنت والحديد والأسلاك واللوازم الكهربائية فسقطت على الأرض مكونة بالمصادفة صرح (الامباير ستايت) في أمريكا؟!.. وصادف أن حدث هذا من الرمية الأولى؛ مع مقارنة الفرق الشاسع بين الكون الكبير وبناء صغير على سطح الأرض!!!

إن المثال الحقيقي الواقعي التالي الذي أورده الدكتور (فرانك ألن)[٣٠] في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)؛ يثبت الاستحالة العلمية لحصول الكون بالمصادفة، إذ إنه بقوانين المصادفة الرياضية نفسها، التي بُنيت عليها نظرية المصادفة، سينفي أي احتمال رياضي لوجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة، بعد أن استطاعت العلوم الحديثة تقدير عمر الأرض، وضخامة حجم الكون إلى الحد الذي وصلت إليه القدرة الإنسانية في مسألة التقدير ودقته.

---

(٣٠) (فرانك ألن): عالم الطبيعة البيولوجية، أستاذ في جامعة (مانيتوبا) بكندا من سنة ١٩٠٤-١٩٤٤م.

يقول الدكتور (فرانك ألن): "من المعروف علمياً أن البروتينات هي المركب الأساسي للخلية الحية، وهذه البروتينات تتكون من خمسة عناصر فقط، هي: الكربون الفحم (C)، والهيدروجين (H)، والنتروجين (N)، والأكسجين (O)، والكبريت (S)، وكل جزيء بروتيني فيها يحتوي على أربعين ألفاً من الذرات الخمس المذكورة.

ولما كانت هذه العناصر الخمسة هي من أصل ما زاد عن مئة العنصر المعروفة حتى الآن والموزعة توزيعاً عشوائياً، فإن احتمال اجتماع عناصر البروتين الخمسة ثم وجودها بترتيب معين ثابت، وبعدد معين ثابت، لتكوين هذا الجزيء البروتيني، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي يجب خلطها خلطاً مستمراً -لكي تستمر المصادفات بالحدوث- لتؤلف هذا الجزيء البروتيني... فقد قام عالم الرياضيات السويسري (تشارلز يوجين جاي) بهذا الحساب، فوجد أنَّ الاحتمال لتكوين جزيء بروتيني واحد بالمصادفة، هو واحد إلى (١٠)١٦٠، ويلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة كمية من المادة هي أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، وأما الزمن اللازم لذلك الحدث بالمصادفة فقدره بـ(١٠)٢٤٣ من السنوات!.

ويتابع الدكتور (فرانك ألن) قائلاً: البروتين يتألف من سلسلة طويلة منتظمة من الأحماض الأمينية، والزمن اللازم لتألف هذه الذرات في السلسلة السليمة التركيب حَسَبَهُ العالم الإنكليزي (ج. ب. ليتز Leathes) فكان $(١٠)^{٤٨}$ مليون سنة وهي أكبر بكثير من عمر الكون حسب التقديرات والقياسات العلمية، كل هذا لتكوين جزيء بروتيني واحد، والبروتين ليس كل شيء فهو جزء من الخلية، والخلية جزء من عضو، والعضو جزء من جهاز، والجهاز جزء من جسد، والجسد كله من بروتيناته إلى خلاياه إلى أعضائه إلى أجهزته متداخل تداخلاً هائلاً ومنسجم انسجاماً تاماً، وهو متفاعل تفاعلاً كاملاً، لكل هذا يمكن حساب الزمن

اللازم لاحتمال حدوثه مصادفة، وحساب المكان اللازم لاحتواء المادة اللازمة لحدوث المصادفة، وسوف نحصل على أرقام أكبر بشكل خيالي من الأرقام التي حصلنا عليها للبروتين الواحد، والتي لن يستطع هذا الكون تحقيقها لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان". انتهى كلام (فرانك ألن)[٣١].

قال (كونت دي نوي Cont de Nouy) في كتابه (مصير الإنسان Human Destiny): "إن مقادير الوقت وكمية المادة والفضاء اللانهائي التي يتطلبها حدوث جزيء بروتيني واحد، هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على الأرض".

ونحن نقول: إذا كان الجزيء البروتيني يحتاج إلى بلايين البلايين من السنين فكيف في هذه المدة القصيرة التي هي عمر الأرض[٣٢]، جاءت كل هذه الحيوانات (أكثر من مليون صنف) والنباتات (حوالي ٢٠٠ ألف نوع)؟... وكيف جاء الإنسان من خلال هذا كله؟

حتى لو قال قائل: إن حجم الكون لانهائي، ويجب أن يتسع أي رقم نظري نصل إليه.

نقول مَنْ قال: إن حجم الكون لانهائي؟... إن الكون مخلوق والمخلوق محدود بكلٍّ مقاييسه، ونقول أيضاً: إنه قبل أن يخلقَ اللهُ الكونَ كان العدمُ، والعدمُ لا يخضع لقياس البعدِ والزمنِ أصلاً، والكونُ له بداية زمانية مثبتة وعمره لا يتسع لتلك الأرقام الزمنية الخيالية بأي حال من الأحوال.

---

(٣١) "العلم يدعو للإيمان"، (كريس موريس)، ص (١٠٠) وما بعدها بتصرف.
وأيضاً نراه في كتاب "الله يتجلى في عصر العلم"، ص ١١.

(٣٢) قدر العلماء عمر الأرض حتى الآن بـ(٢ - ٤،٥) بليون سنة بناءً على القوانين الخاصة بالعناصر المشعة وثبات نسبة تحولها إلى عناصر غير مشعة مع الزمن، فاليورانيوم يتحول تدريجياً مع الزمن إلى رصاص أخف من الرصاص الموجود أصلاً على الأرض.

فإن قال: إنَّ الزمانَ قديمٌ لانهائيٌّ قِدَم المادة.

نقول: إنَّ زمانَ الكون ليس قديماً وليس لانهائياً، بل هو مخلوق مع الكون، وله بداية ونُحيلُهُ إلى المناقشة اللاحقة عن قِدَم المادة والزمان الواردة في الفصل الثاني من هذا البحث، تحت عنوان الإرادة أم الضرورة في الخلق.

لذلك من المستحيل عقلياً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً!..

فإذا عجزت المصادفة عن بناء البروتين ذي الخواص الكيميائية المخبرية، فكيف تبني المصادفات كَوْناً بكل هذا التعقيد والانتظام؟ وكيف نفسر توازن الكون العجيب المسخر لمصلحة الحياة على الأرض؟... هل هو بالمصادفة أيضاً؟... إنه ليس بالإمكان حساب الزمن اللازم لحدوث المصادفة ضمن متكافئات يصعب حصرها أصلاً، أو فهم ماهيتها، كالجاذبية مثلاً!

هل من يفسر كيف يَعدِلُ المخ صورة الأشياء التي تنعكس مقلوبةً على شبكية العين، فنراها في وضعها الطبيعي؟

هل من يجيب لماذا تدور الإلكترونات حول البروتون؟ إجابة مبرهَنة علمية غير فلسفية، أو يشرح ماهية التمثيل الكلوروفيلي في النبات، ولماذا يحدث؟ وليس، كيف يحدث؟ كيف تُفسِّرُ المصادفةُ كَوْنَ أجزاء الجسم البشري والحيواني دائماً في مكانها في كل هذه الملايين من الكائنات؟ فلم يسبق لنا أن رأينا قلباً في أسفل القدم أو يداً تنبت من الرأس أو أنفاً تحت الإبط!!.

إنهم عاجزون عن تفسير أشياء تبدو بسيطة بدهية، لكنهم في الوقت نفسه يطالبون أن نفسِّر لهم الخلقَ ونجعلهم يتصورون الله، كشرط للإيمان، وهذا منتهى إسراف الإنسان على نفسه، وجحوده بربه.

يقول الدكتور (كيث ولكر) في كتابه (فيزيولوجيا الإنسان): "إن إحدى المعضلات التي تواجه علماء الحياة هي كيف أن خلايا جسم الإنسان تعمل في

توافق وتناسق وانتظام لتحقيق هدف واحد، هو مصلحة الكائن الحي وفي سبيل بقائه وحيويته".

ونتساءل هنا: كيف للمصادفة فعل ذلك؟ إذا علمنا أن أبسط خلل في عمل الخلية يمكن أن يؤدي إلى أمور خطيرة أقلها مرض السرطان، فكيف لنظام معقد كهذا أن يتكون بالمصادفة؟ لذلك فإن هذا التعقيد المعجز للخلية، والأهمية البالغة للتفاعلات داخلها تجبرنا على أن نكون بعيدين عن الفرضيات العشوائية في بحث الخلية، حتى العالم الروسي (أوبارين Oparine) وهو من أنصار المادية يقول: "إن شبكة التفاعلات للتحول الغذائي ليست منسقة بإحكام فقط، بل إنها موجهة أيضاً نحو الحفظ الذاتي الدائم للمجموعة في الظروف المتوافرة للبيئة الخارجية، هذا التوجيه المنسق بقوة وهو المميِّز للحياة، لم يكن وليد المصادفة".

فَصَلَ العلماءُ خليةً قلبيةً واحدة، فلاحظوا أنها تنبض بانتظام، وفصلوا خلية أخرى أبعدوها عن الأولى، فكانت أيضاً تنبض بانتظام، لكن ليس بالضرورة بالتواتر نفسه، وعندما لصقوا الخليتين مع بعضهما، لاحظوا أنهما بعد وقت قصير جداً، أخذتا تنبضان بالتواتر نفسه، وهكذا مع مجموعة من خلايا القلب، ألا نتساءل إذن: كيف تجعل المصادفة **جميعَ خلايا القلب** تنبضُ بتواترٍ واحدٍ إذا اجتمعت؟... تصور لو أن لِكُلِّ خليةٍ قلبيةٍ نبضٌ مختلف!!!. ولماذا تنبض فقط خلايا القلب، وليس كل خلايا الجسم، هل تتمتع المصادفة بتدبير كهذا وحكمة كهذه؟

إن مبدأ المصادفة والضرورة أضعف من أن يُفسِّرَ كيف أن (الأشكال الأصل للأشكال الحالية لم تزل ثابتة وتتعايش معها، وكذلك بالنسبة للكائنات ذات الخلية الواحدة الموجودة دائماً في الطبيعة، والبكتريا ما زالت أيضاً موجودة في العالم الحي، كيف يُفسَّرُ هذا بفرضية المصادفة والتطور؟... هل من مجيب؟...

كيف نفسر تصرفات الطير الأُسترالي المعروف باسم (موتّو Mutto Bird)[٣٣]، الذي يغادر أعشاشه تاركاً صغاره بعد ثلاثة شهور من فقس بيضه، ليقوم برحلته المكوكية السنوية، من أُستراليا إلى أمريكا خلال ستة شهور يقطع فيها مسافة ٢٥٠٠٠كم، ثم بعد ذلك بأسبوعين تغادر صغارُه الأعشاش لتقوم بالرحلة نفسها دون دليل يدلها على الطريق، وتُتِمُّ هذه الصغارُ رحلتها بكل دقة، **مما يحتم وجود جميع الأوامر الضرورية للرحلة داخل المادة الوراثية التي تحتويها البيضة!!.**

لنتصور كتلة المعلومات الهائلة التي يجب أن تكون بالضرورة متكيفةً مع اختلاف الظروف والبيئات التي يمر بها هذا الصغير، إنَّ هذا العدد الخيالي **من الأوامر التي تُحدِّدُ حركتَه خلال ستة شهور، بجميع الاختلافات الممكنة للمناخ**، كل هذا العدد يجب أن يكون من ضمن جملة أخرى من المعلومات المخزونة في حامض DNA في نطفة الطير!

قارن أيةَ رحلةٍ لأية سفينةِ فضاء، ملاحظاً تَقدُّمَ التقنيةِ المستعملة فيها، والبرامجَ، وعدد العقولِ الإنسانية والحاسُوبية التي ساهمت لنجاح الرحلة... مع الرحلة الأولى لهذا الطيرِ الصغيرِ ذي العقل المحدود، ومن دون تدريب مسبق، ألا يكون من السخف التصور بأن المكوكَ الفضائي، والأقمارَ الصناعية، وجميعَ أجهزتها كان بوسعها أن تكون بفعل المصادفة؟!. ومعلوم أنه كلَّما ازداد النظام تعقيداً قلَّ احتمال نشأته عن طريق المصادفة... **أليس من المنطق أن نبدأ بالتفكير الصحيح بأمر مُبرمِج رحلة هذا الطائر الأُسترالي؟** إن الصاروخ الأمريكي (توماهوك) المسمى (بالصاروخ الذكي)، -لأنه يستطيع تصحيح مساره عدة مرات أثناء رحلته، التي تقاس بالدقائق آخرها قبل خمس ثوان من إصابة الهدف- عُدَّ صيحة في عالم التقدم العلمي لم يسبق لها مثيل. إنه يكفينا السؤال كم من العقول والبرامج شاركت في هذا المشروع؟

---

(٣٣) "أصل الإنسان بين العلم والعقل"، ص ٨٢.

نسألهم: هل يوجد مكان للمصادفة في تصميم هذا الصاروخ وتنفيذه؟

إن قالوا: نعم!!.

نقول: إنكم تخدعون أنفسكم.

وإن قالوا: لا.

نقول: لماذا إذن تنادون بالمصادفة في تخزين برنامج الرحلةِ **نفسِه** في ملايين الطيور؟ وكيف صادف أن كلَّ أجيال الطير تقوم بالرحلة نفسها؟

حتى على مستوى علم المستحاثات، فإن المتحجرات القليلة تدل على قلّة الجماعة البشرية قديماً، فكيف يسعنا أن ندركَ عندئذ، بأن تَبدُّلات مصادفية وضرورية، كان يمكن أن تطرأ على المجموع القليل من الأفراد، خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً، للحصول على تنظيم متناسق للتطور الدماغي مع مليارات الخلايا العصبية في المرحلة النهائية للتطور؟

إننا نجد أنفسنا أمام استحالةِ كونِ تطورِ الإنسانِ ثمرةً للمصادفة، إذ كيف يُتاح لذرات المادة التي يتكون منها جسم النملة أو النحلة أن تقوم بعمليات غاية في التعقيد؟!

من كل ما سبق نرى أن فكرة وجود الله أقرب إلى الفطرة والعقل والمنطق من فكرة المصادفة العمياء، ونرى استحالة هذه المصادفة في حساب الاحتمالات، وأنها غير قابلة للتطبيق العملي.

يقول (ب. ب. غراسيه)[٣٤] في كتابه (تطور الحي): "**إن كل أعضاء الحواس عند الحيوانات اللبونة، تطورت تقريباً في الوقت نفسه**، إذ إننا عندما نتصور ما تتطلبه من تحولات متزامنة برزت في الوقت المحدد، ملبية بشكل كامل جميع

(٣٤) (ب.ب.غراسيه): أستاذ جامعي فرنسي متخصص في علم الحيوان، له كتاب (البيولوجيا الحيوانية)، وكتاب (تطور الحي).

الحالات، نظل مذهولين بكثير من الانسجام والمتطابقات الحسنة التي ارتبطت فقط بالمصادفة".

إن من يؤمن بالمصادفات التي أوجدت كل حوادث هذا الكون، إنما يعطي لهذه المصادفة إرادة مطلقة، وتفكيراً وخبرة وحكمة وذكاء لامتناهياً، فقد رفض الإلهَ الحكيمَ المريد، وأيد المصادفة بغبائها وعشوائيتها، وأعطاها كل الصفات الإلهية، فتحولت من مشكلة إيمان بالخالق، إلى عقدة نفسية ضد إله الكنيسة، نتيجة لاضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء زمن محاكم التفتيش!!.

إن الكونَ من التعقيد لدرجة لا تحيط بها عقول البشر، ومن الانتظام المتوازن الذي يخدم الحياة على الأرض، مما يجعل أي عقل علمي يرفض أن تكون المصادفة العمياء بمعناها المنطوق هي علة وجود العالم ونشأته وتطوره، فتلك الملايين من الذرات في جسم الإنسان تظل ساهرة على حفظ سير التفاعلات اللازمة، ونحن نعلم كم هو دقيق الانسجام بين مختلف الأعضاء، وكيف تنتقي كل خلية غذاءها من الجسم؟ وكيف تختار الكمية اللازمة؟ وكيف تُخرِج فضَلاتِها؟

نحن مثلاً لا نعرف مجموعة العضلات التي تلزمُنا لرفع يدنا، أو لنبتسمَ أو نعبسَ، ولا ندري كيف يكون تسلسل تلك الأوامر، وإلا لَتوجَّبَ علينا إصدار أوامر تفصيلية لكل عضلة على حدة، بينما نرى أنَّ كلَّ ما علينا فِعله هو **أن نُريد رفعَ اليد، فتُرفعُ اليدُ** (إذا لم تكن هناك علة في الجسم)، أو أن نبتسمَ... فنبتسم، كل هذا يجري في جسمنا دون أي تدخل منا، مما يدل على وجود وحدة تحكم دقيقة جداً تنظم هذا الجسم، الذي يحتاج إلى ملايينَ من معادلاتِ التوازن الواجبِ تَحقيقُها في آن واحد، حتى يعملَ الجسمُ بانتظام، ونحن لا نعلمُ من تلك المعادلات إلا قليلاً جداً، ومع ذلك نطالبُ أن نتصور كلَّ شؤونِ الله كشرط للإيمان به!!.

إنه من المدهش أن العالِمَ (مندلييف)[٣٥] في عام (١٩٠٧م) بعد أن رتب جدوله الدوري لعناصر الطبيعة، أكد على وجود ثلاثة عناصر مازالت إلى ذلك الوقت غير مكتشفة، واستطاع بناءً على مكانها المفترض الفارغ في الجدول -بسبب النظام الذي يتحكم بها- أن يحدد وزنها الذري وخصائصها الكيميائية وكأنه يراها، ولقد سرَّهُ كثيراً أن هذه العناصر اكتُشفت قبل موته[٣٦]، **فهل يُعقل** أن هذا النظام الدقيق من الذرة إلى المجرة، هو أثرٌ من آثار **المصادفة العمياء**؟... أم من الخلق الذاتي؟... أم فرضية الارتقاء والنشوء وبقاء الأصلح (وهذه سنبحثها بشكل منفرد)؟... أم أن هناك قوة هائلة خارجية كاملةَ الصِّفاتِ مطلقةَ الإرادةِ أوجدت ذلك كله؟

إن الرافض لمقولة: إن ذرات الجسم تتحرك فيه وتتفاعل ضمن قانون القدرة الكاملة والإرادة المطلقة، يلزمه القول: إن للذرات عقلاً هائلاً وفكراً نيراً يستطيع تحديد مسار الذرة... تصور ماذا يحدث لو تضاربت هذه المسارات بعضها ببعض واختلطت ذرات الجسم!!.

أما القائل: إن هناك قوانين تتحكم بحركة الذرات كلها وبحياتها.

فنقولُ له: نعم هناكَ قوانين، ونسألُه: من وضع هذه القوانين؟

- هل هي الطبيعةُ العاجزةُ بذاتها، المُجبَرَةُ على السير وفقَ قوانين خاصةٍ لها، لا تستطيع التحكم بها؟

-أم المصادفةُ المستحيلة؟

- أم إنها قدرةٌ هائلةٌ كاملةُ الصفات مطلقةُ الإرادةِ بشكلٍ يليقُ بخالقٍ له القدرة على الخلق من العَدَم؟

---

(٣٥) (مندليف): عالم كيميائي روسي، ألف جدولاً يرتب العناصر الكيميائية سمِّي باسم "الجدول الدوري" أو "جدول مندليف".

(٣٦) "قصة الإيمان"، ص ٣٥٣، الشيخ نديم الجسر.

مُلاحَظٌ أنه بتطور العلم؛ يتضاءل عدد المؤيدين لفرضية المصادفة التي ابتدأت بأساس فلسفي محض، وأنها قريباً ستصبح من اختصاص كتب التاريخ فقط.

٣- مجموعة الخالقين:

مجموعةٌ كل عناصرِها **يُفترض فيهم إمكانية الخلق من العدم**، يقول الفريق الأول بأنها تحتوي على عنصر واحد (**إله واحد**)، بينما يصر الفريق الثاني على تعدد عناصر تلك المجموعة (**تعدد الآلهة**)، ويتساءل بعضهم عن احتمال تطابقها مع المجموعة الخالية (**لا إله**)، وهذا سنناقشه بالتفصيل.

بهذا نعود إلى مناقشة التقسيم الأساس المفترض للوجود، الذي ابتدأنا به وهو:

المجموعة الخالية، والمجموعة المتكاملة (**مجموعة المخلوقين**)، والمجموعة الأزلية (**مجموعة الخالقين**).

البحث الثالث: فرضيات أخرى لبدء الحياة على الأرض:

أولاً: عرض الفرضيات:

قبل الخوض الأعمق في مناقشةِ مجموعات الوجود الأساسية المفترضة، أرى أن أي باحث عن الحقيقة، لا بُدَّ له من أن يُلقي نظرة على بعض الفرضيات التي لم تُثبِت حجَّتُها، ولا تَغَلَّبَ دليلُها، لكنها شوشت عقولَ كثيرين، ومن ذلك:

١- فرضية الجرثومة المهاجرة من أعماق الكون أو المخلوقة بتفاعلات كيميائية فقط:

هناك من يؤمن أن الفضاء الخارجي مليء بالجراثيم، وأن أصل الحياة على الأرض هي جرثومة هاجرت إليها من الفضاء ضمن أحد الشهب...!. أو أوجدتها سلسلة من التفاعلات الكيميائية، ولمحاولةِ إثبات ذلك قام العالم

(أوبارين) بتكليف من الحكومة السوفيتية، بالبحث عن مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي، وبعد أكثر من عشرين عاماً من العمل الشاق، أعلن رسمياً فشله وقال: "إن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المختبر، وأن العلم لا شأن له إلا بالمادة".

يدل كلامه على اعتراف ضمني بوجود خالق، ولكن هرباً من سجن الحكومة الشيوعية المؤمنة بالنظرية المادية آنذاك، أجاب عن سؤال يتعلق بإمكانية بعث الحياة بالتفاعل الكيميائي بقوله: "إن هذا ممكن، ولكن على كواكب أخرى غير كوكبنا هذا، وبتفاعلات لا نعرفها، ثم **انتقلت الحياة إلى كوكبنا بطريقة ما من الفضاء**".

٢- فرضية الحضارة القديمة والحضارة المستوردة:

من خلال مناقشتي مع بعض المثقفين حول نشوء الكون وظهور الحياة وتطورها، وعن الشرائع السماوية وبعض إعجازاتها، تبين أن بعضهم يؤمن أن ما ورد على ألسنة الأنبياء والرسل إنما هي معلومات أُخذت من:

أ- حضارة قديمة على الأرض:

يفترض بعضهم أن حضارات متطورة جداً وجدت على الأرض، ثم تلاشت هي ومعلوماتها، وانقطعت أخبارها عنا، ونحن الآن نعيد اكتشاف قوانين كانت معروفة قبلنا، واستدلوا على ذلك بوجود جمجمة في المناطق المصرية فيها ثقب عند منطقة المخ!!. فقالوا: إن قدامى الفراعنة كانوا يُجْرون عمليات دماغية متطورة!.

ب- حضارة مستوردة من أعماق الكون:

يفترض آخرون أن حضارات في مجرات بعيدة كانت تتصل مع الأرض، وتُخبر (الأنبياء) عن معلومات يمكن أن تُعَدَّ إعجازاتٍ علميةً في ذلك الزمان، أو تعلمهم أساليبَ خاصة لإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، وتحويل الحبال إلى أفاعٍ حقيقية، ويستدلون على ذلك بوجود بعض الرسومات التي اكتُشفت في البرازيل

لرجل فضاء، أو وجود بعض الأشكال التي تُرى بوضوح من الجو فقط، فَسَّروها بمنزلة نقاط عَلاّم، ومدارج هبوط لسفن فضائية.

٣- فرضية النبي العبقري والشعب الجاهل:

يفترض بعض الناس أن إنسان عصور الرسل والأنبياء كان متخلفاً، فظهر واحد منهم بطفرة ذكاء حاد، أحبَّ أن يستفيد من ذكائه ويسيطر على الناس، فنادى بأفكار، وقام بتصرفات ذكية، فهمها الناس على أنها معجزات إلهية، وقال لهم: إنني رسول الله تعالى، وتلك هي آياته، وكَتَبَ كتاباً قال عنه: إنه كتاب من الله تعالى.

إلى مثل هذه الأسباب، كانوا يلجؤون للخلاص من إحراج يمكن أن يؤدي بهم إلى الإقرار بوجود خالق! ومنهم من يُقِرُّ بوجود قدرة مطلقة الإرادة والذكاء، لكنها موجودة بشكل يصعب فهمها وإدراكها، وأحياناً يقول: إنه لا يصح حتى التكلم عنها، لأنها أسمى من أن تُشكر على ما فعلته من أجلنا، وكمالُها يجعلُها تترفع عن قبول الشكر!.. ولذلك فإنه لا داعي أصلاً للتفكير بها، ويقولون: إن هذه القدرة تَعْلَمُ الكليات، وتجهلُ الجزئياتِ والتفاصيلَ في مجريات الكون ومخلوقاته.

ثانياً: مناقشة فرضيات بدء الحياة على الأرض:

١- في فرضية الجرثومة المهاجرة نقول:

إذا نظرنا إلى هذه الفرضية بعين العلوم الموجودة بين أيدينا، وليس عبر افتراضات **غير قابلة للبرهان**، لرأينا أن العلم مازال يدعم بقوة نظرية نشوء الكون من تباعد فوق العادة بشكل فجائي يمكن تصوره كالانفجار -وهو ليس انفجاراً ولذلك سماه العلماء الخبطة الكبرى (Big Bang)[٣٧]- حصل لكتلة مادية

(٣٧) لم يسموه انفجاراً (Explosion)، لعدم استطاعتهم تبريرَ أسباب الانفجار وزمانه (بمعنى لماذا حصل عندما حصل، وليس قبل أو بعد ذلك)، دونَ الدُّخول في مناقشة وجود الخالق المريد.

مصمتة[٣٨] صلدة نجهل ماهيتها، إلا أنه منها تكونت كل أجزاء هذا الكون، وزنها يعادل وزن كل مواد الكون الحالي، فتطايرت الجسيمات على شكل سحب دخانية[٣٩] بسرعات خيالية، ثم تكثفت بدرجات مختلفة، وشكّلت ملايين التجمعات المختلفة التي سُميت (المجرات)، في بعض هذه المجرات حصلت أيضاً انفجارات فوق العادة، لأسباب اختلف العلماء حول تفسيرها -في بعضها يحصل الآن بدليل مشاهدة العلماء لولادة مجرات جديدة- شُكِّلت منها أفراد المجرات والمجموعات الشمسية، وهي ما زالت حتى الآن يتباعد بعضها عن بعض على شكل وحدات متماسكة -مجرات- بسرعات هائلة[٤٠]، بفعل هذا (الانفجار).

من أوائل من قالوا هذا[٤١] من العلماء هو العالم (جورج غاموف ١٩٠٤-١٩٦٨م) ثم أيده العالم (ألبرت أينشتاين)[٤٢]، ولذلك يَفترض أن طبيعة المواد المشكّلة لتلك المجموعات الكونية، هي مواد متشابهة مع اختلاف في نسب الموجودات من المواد الأساسية المكوِّنة.

كما أثبت (نيوتن)، وأيده علماء الفلك المعاصرون له، أن القوانين التي تعمل بها الكواكب والمجرات، هي القوانين نفسها المعمول بها على الأرض، وأكد العلماء بعده صحة نظريته (باستثناء المناطق التي تتأثر بالثقوب السوداء، إذ لها قوانينها الخاصة)، فالجاذبيةُ، حيثما كانت في الكون، تتناسب عكسياً مع مربع

---

(٣٨) مادة ليس فيها أية فراغات مجهرية بين مكوناتها، وكل ما فيها متلاصق بعضه مع بعض.

(٣٩) هذه السحب كانت تتألف من الأساسيات التي كونت عناصر وجزيئات الكون الأساسية مثل: جزيئات X (X-Particls)، وجزيئات Zee (Zee-Particl)، والكورك (CORC)، والإلكترونات والفوتونات والبروتونات ...إلخ.

(٤٠) تم قياس سرعة تباعد المجرات بعضها عن بعض، فكانت حوالي ١٨ميلاً/ثا (٢٩كم/ثا).

(٤١) جاء في القرآن الكريم في سورة الذاريات (٥١:٤٧): ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وإنا لَموسِعُونَ﴾، ونتساءل: كيف علمَ محمد ﷺ هذا قبلَ ١٤٠٠ عام؟

(٤٢) (ألبرت آينشتاين ١٨٧٩-١٩٥٥م): فيزيائي أمريكي، ألماني الأصل، وضع "النظرية النسبية"، حصل على جائزة (نوبل) عام ١٩٢١م.

المسافة، وسرعةُ الضوء في الكون ثابتة، لأنها ناتجة عن انفجارات نووية حرارية متماثلة لشموس متماثلة، ومن أصل واحد.

حتى الآن لم يُثْبِتْ علمياً وجود أي شكل من أشكال الحياة الأولية في الفضاء المحيط بالأرض، ولا في الكواكب التي وصل إليها الإنسان بعِلمِهِ، والأمل ما يزال موجوداً، وعليه فإن **فرضية أن الفضاء المحيط بالأرض مليء بالجراثيم لم تُثْبِتْ بَعدُ وحتمية عدم ثباتها في محيط الأرض قائم حتى الآن.**

لنفترض جدلاً أن تلك الجرثومة موجودة، وأنها بطريقة ما حاولت الوصول إلى الأرض، فإن هذه الجرثومة يجب أن تكون لها صفات حياتية مماثلة أو أقل من الصفات الحياتية للكائنات الحية الموجودة الآن على الأرض، لأن التطور إلى الأحسن، يؤيده بقاء الأصلح، إذن علينا أن نتصور أن الجرثومة المهاجرة هي جرثومة تتحمل حرارة تتحملها جراثيم الأرض، وتتغذى بغذاء جراثيم الأرض، وتستخدم الأوكسجين كجراثيم الأرض، ويقتلها ما يقتل جراثيم الأرض بالعموم،... فهل يمكننا تصور إمكانية بقاء جرثومة الأرض هذه -التي يُفترض أنها أفضل صفات من أصلها الفضائي المفترض- حيَّة إذا وضعت في الفضاء الخارجي، بتغيراته الحرارية، وإمكانياته الغذائية، في جو ينعدم فيه الأوكسجين، ثم انتقالها إلى الأرض على الرغم من وجود كثير من خطوط الدفاع، التي تحمي الأرض من هجوم الشهب، ومن هجوم الأشعة الشمسية القاتلة، وعلى الرغم من الطبقة المغناطيسية الواقية للأرض من الأشعة الكونية التي اكتشفها العالم (فان ألن)[٤٣]، التي ترفع حرارة الأجسام المارة خلالها بشكل يذيب أكثر المعادن صلابة خلال ثوان، فكيف استطاعت هذه الجرثومة اختراق هذه الخطوط؟!..

يقول أحدهم: إنها كانت داخل شهاب سقط على الأرض.

---

(٤٣) وسميت باسمه: حزام (فان ألن).

فنقول له: إنه مهما كَبُرَ الشهاب قبل دخوله خطوط الدفاع، فإنه سيحترق ولن يبقى منه إلا بضع غرامات من المادة، أو بضع مئات الكيلو غرامات في الحالات النادرة، والتي لن يزيد حجمها عن نصف متر مكعب، وحتى في هذه الحالات النادرة ستكون حرارة السطح عالية، بشكل أكبر من أن تكفي خاصية العزل الحراري لمادة الشهاب من حماية الجرثومة، ولو كانت في مركز ما بقي من الشهاب!.

بذلك أرى أن فرضية الجرثومة المهاجرة، لا ترتقي إلى مستوى الإثبات العلمي المطلوب، الذي يجعل بعض الناس **يبني على هذه التناقضات** وجودَ الحياة المعقدة جداً على الأرض، وهذا لا يمنع من طرح سؤال: **من أوجد الجرثومة المهاجرة المفترضة الأولى في مكانها الأصلي، مع الدليل والبرهان؟** فإذا كان الجواب: المصادفة أو الخلق الذاتي، فيرجى العودة عدة صفحات إلى الوراء واستعادة مناقشتها.

السؤال الآخر الذي يجب طرحُه: **كيف اخترق الإنسان خطوط الدفاع هذه وهو في طريقه إلى القمر؟**

للجواب؛ يكفي التذكير بأن الإنسان **درس** كل احتمالات الخطورة، **وطوَّر** موادَ مُركَّبةً **-لا توجد بشكل حر في الطبيعة-** وأليافاً كربونيةً خاصةً، **وشكَّل** منها طبقةً كافيةَ السُمك لحماية أجهزة السفينة الفضائية نفسها من الحرارة العالية، وبالتالي حماية الإنسان داخلها مستخدماً آخر ما توصل إليه العلم، بينما لو انطلق الإنسان ضمن شهاب أو صخرة لتحميه من الحرارة، فلن يتجاوز خطوط الدفاع المذكورة!.

٢- عن الحضارات الأرضية القديمة المتلاشية نقول:

إذا نسي الناس تلك الحضارات التي كانت تساعد الأنبياء، نتساءل: كيف انتقلت بعضُ معلوماتها العلمية الخارقة إلينا، وصادف أنه كان يَعْثُر عليها دائماً

شخص واحد فقط، ادعى على أساسها النبوة، ومن ثم تنتهي الأعمال الخارقة بانتهاء المدعي؟!..

- كيف توجد الحضارة المتلاشية وعِلْمُ المستحاثات لم يُثبت وجود بعض من بقايا لتلك الحضارات المتطورة جداً؟

- هل وجود ثقب في جمجمة يعني الحضارة الطبية؟!. ألا يمكن أن يعني أنه قُتل بسهم أو رمح في رأسه مقابل المخ؟!.

- وهل وجود شكل تجريدي **يمكن أن يُفسَّر** على أنه مُدَّخِرَةٌ (بطارية حجرية)، يكفي لبناء نظرية الحضارات القديمة الغائرة؟!.

لست أرى أن الفطرة والعقل المنطقي العلمي يقبل مثلَ هذا الدليلِ على أنه برهانٌ قاطعٌ، إن هذا يجعلنا نشك في تفسيرات المكتشفين، بأنها تعمل وفق خطةٍ مُنظمةٍ لإفساد العقيدة بشكلها العام!.

٣- عن الحضارات المستوردة من أعماق الكون نقول: مبدئياً لا أحد ينكر إمكانية وجود حضارات أُخرى بعيدة، فغير المؤمن يفسر بها الحياة على الأرض، وأما المؤمن فإنه يُصدِّقُ ما في الكتب السماوية، إذ لم ينف أيٌ منها وجودَ كائناتٍ في الكون، حتى أن القرآن الكريم (كتاب المسلمين) قد بيَّنَ بوضوح إمكانية وجودها[٤٤] في:

- سورة البقرة (٢:٣٠) بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قالوا أَتجعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيها وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنحنُ نُسَبِّحُ بِحمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعلَمُ مَا لا تَعلَمُونَ﴾.

- سورة الشورى (٤٢:٢٩): ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأرضِ وما بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وهو عَلَى **جَمْعِهِمْ** إذا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

(٤٤) انظر الفقرة التاسعة (الإسلام والإنسان الآخر) من الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا البحث.

بما أن المسلمين يؤمنون بأن الملائكة لا تعلم الغيب، فكيف عرفَ الملائكة أن الإنسان سيُفسِد في الأرض، لو أنهم لم يروا ذلك من قبلُ أو سمعوا به، في الكون خارج الأرض أو فيها؟ إن هذا يدل على أن آدم ليس بالضرورة المخلوقَ الوحيد العاقلَ الذي خلقه الله في هذا الكون يَدُبُّ في مشيه على الأرضِ، ويحتمل أنهم عرفوا تلكَ المخلوقات من حياة مشابهة سابقة[٤٥].

أما من الناحيـة العلمية والواقعية، فنتساءل هل جرى اتصال عملي لتلك الحضارات المتطورة مع سكان الأرض؟ هذه مسألة تحتاج إلى دراسة أعمق، إن ما يقوله العلم في هذا الصدد حتى الآن هو أن أصواتاً منتظمة يُظن أنها عاقلة تلتقطها أجهزة التنصُّت، لكنها مشوشة بشكل يستحيل معه حل رموزها، بسبب التداخلات المغناطيسية والإشعاعات الكونية، ولذلك فإن فكرة إرسال أجهزة تنصُّت خارج المجموعة الشمسية لاستراق السمع بتشويش أقل، موجودةٌ لدى العلماء الأمريكان في وكالة (ناسا .N.A.S.A)[٤٦]، ولقد أرسلوا أيضاً لوحة تعريف بسكان الأرض ضمن قمر صناعي يجوب الفضاء بغية أن تعثر عليه حضارة ما متطورة فتتصل بسكان الأرض، وحتى يتم لنا ذلك وتَثْبُتُ مساعدتهم للأنبياء من غير الله، سنؤمن بالوحيد الذي ادعى لنفسه الألوهية، وأتى بالبراهين المقنعة، مبتعدين عن الظن والاحتمال.

٤- عن وجود رسومات ضخمة على الأرض نقول:

إنَّ وجود هذه الرسومات التي تُرى بوضوح من الجو، والتي فُسِّرت على أنها مدارج هبوط سفن فضائيـة، أو نقاط عَلاّم، يحرك الفضول والقـدرة التفسيرية والتعليلية، لكنه حتماً لا يكفي لإثبات هذا الاتصال، فالغرباء لم يتركوا شيئاً

(٤٥) "تفسير الشعراوي" المجلد الأول ص٢٤٢، وأيضاً في كتاب "في ظلال القرآن"، للسيد قطب، تفسير الآية نفسها.
(٤٦) National Aeronautics & Space Administration إدارة الفضاء الأمريكية.

ملموساً يدل عليهم كبقايا مجموعات عُمَّالِ الصيانة لسفنهم الفضائية، أو بقايا أدوات متطورة.

ألا ترى معي أن الحضارة التي تستطيع قطع كل هذه المسافات الفضائية، يفترض أن تكون مدارج هبوطها مختلفة عن مدارج مطارات الأرض، وأنه يغلب عليها الهبوط العمودي؟ **وأن مثل هذه الحضارة لا تحتاج لرسم شكل سهم كبير جداً ليدلهم على أماكن الهبوط[٤٧]؟! بل هو من وظائف الحاسب العملاق الموجود في السفن الفضائية، أما مشابهتها لمهابطِ الطيران الأرضية التقليدية، فيدل على أنَّ القصَّة كلها من مخيلة فنان مبدع.**

كما أن وجودَ أشكال وتماثيلَ حجريةٍ كبيرةٍ في مناطق لا جبال فيها يثير التساؤل عن مصدرها، لكنَّه يستحيل أن يكفي لإثبات تَدَخُّلٍ مستوردٍ لكائنات متطورة جداً، بدليل ثبات نظرية بناء الأهرامات بواسطة العمالة المصرية القديمة، التي قدَّمت ملايين الضحايا خلال مئات السنين وهي تدفع الأحجار إلى مكان البناء على مستويات مائلة، متناسبة البعد والارتفاع حسب الطبقة التي وصل إليها البناء، وحتى الآن لم يَقُل أو يثبت باحثٌ علمي متخصصٌ بوجودِ قوى خارجية خارقة قامت ببناء الأهرامات.

تساءل: كيف صَدَقَتْ جميع تنبؤات الأنبياء عن المستقبل القريب أو البعيد، في الوقت الذي لا يمكن لأي حضارة معرفة الغيب الآتي في قادمات السنين، مهما تطورت؟... مما يلغي مقولة إنَّ حضارات فضائية قديمة ومتطورة جداً كانتِ السببَ في تطور وتقدم الحياة على الأرض.

(٤٧) هذا يذكرني بما عرَضَتْهُ محطاتُ التلفزيون عام ١٩٩٩م عن البقع الدائرية الضخمة الغريبة التي كان المزارعون يكتشفونها في الصباح وسط حقولهم، فاهتمت السلطات الحكومية بهذه الأشكال التي روعت السكان حيث عدُّوها أثراً لهبوط سفن فضائية، فأرسلت فريقاً للتحقيق، أخفوا آلات تصوير في أماكن مختلفة، ثم أظهر الفيلم صور أشخاص يقومون خلال الليل بدحل القمح الأخضر على شكل دوائر بوسائل بدائية (وتد وحبل ومدحلة خشبية)، فانكشف سبب الغموض وزال الذعر من بين السكان، نسأل ترى كيف ستفسَّر صور تلك البقع بعد مئة عام، إذا اختفى -لسبب ما- أمر أفلام آلات التصوير؟.

أما المؤمنون بقدرةٍ كاملةِ الصفاتِ، مطلقةِ الإرادةِ إطلاقاً يليقُ بكمال الخالقِ، خلقت الكونَ ووضعت القوانين، **ثم تَنَحَّتْ عن التدخل، فما هو غير هروب** (داروني) من مناقشة خاسرة!.

٥- عن اتهام الأنبياء نقول:

أ- إن اتهام الأنبياء بأنهم أشخاص كانوا يسعون إلى المُلك والسيطرة، ينقضه التاريخ ويثبت عكسه، إذ إن عيسى عليه السلام عندما وصل إلى القدس، استُقبل على أنه ملك يهود، وأنه مخلصهم المسيح المنتظر، ولما أرادوا تنصيبه ملكاً هرب إلى الجبل، حسب إنجيل يوحنا (١٥:٦): "وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده"، لماذا لم يُداهن المسيحُ اليهودَ ولم يُجارهم في أهوائهم؟ على الرغم من أنهم بعد ذلك حاولوا قتله عدة مرات.

وأما الرسول محمد ﷺ -نبي المسلمين- فقد عَرَضَت عليه قريش المُلكَ والجاه والغنى، ليكون سيد قريش إذا هو ترك ما يدعو إليه، فقال لعمه: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته إلا أن يُظهره الله أو أهلك دونه"[٤٨]، وفضَّل عذاب قريش وإهانتهم له، على ترك الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، وأيضاً قال: "ما أنا بأقدرَ على أن أدع ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة؛ يعني الشمس"[٤٩].

ب- أما وصف الأنبياء بأنهم الأذكياء ضمن مجموعة من الجهلة، فتكذبه أخبار أصحاب الأنبياء وأتباعه الأولين، ويكذبه الواقع الحالي لأَتْبَاعِ الأنبياءِ، إذ فيهم قادة العلم والثقافة في العالم، والأهم من ذلك كله، أنه حتى الآن لم يستطع العلم إثبات تناقض علمي واحدٍ بين القرآن وحقائق الكون[٥٠]؟

---

(٤٨) "السيرة النبوية": لابن كثير، ٤٧٤/١، قال الألباني: ليس له إسناد ثابت.

(٤٩) حديث الطبراني في المعجم عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

(٥٠) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا البحث.

البحث الرابع: فرضيات ونظريات التطور والنشوء[٥١]:

بداية سنقدم عرضاً مختصراً لتاريخ الداروينية وشكلها العام، لأنها أكثرُ الفرضيات التي تعرضت لخلق الإنسان مباشرة من الله، ثم سنناقش كلَّ فكرة مهمة فيها وننقضها بالدليل والبرهان.

١- شرح التطور وفرضياته:

إن نظريات التطور، وفرضيات النشوء والارتقاء، وبقاء الأصلح التي تبناها (داروين) ومن بعده تلامذته الذين كانوا أكثرَ منه تعصباً لنظريته، كانت السبب الرئيس في العصيان العلمي ضد الكنيسة.

فما (الداروينيَّة)؟ وكيف نشأت؟ وما علاقتها بالكنيسة؟

إن التفسير الافتراضي الدارويني للتطور ليس هو في الحقيقة من أفكار (داروين) وحده، وإنما (داروين) هو الذي أظهر بشكل أوضح ما كان يتناقله العلماء قبله عن التطور، الذي لم يكن غريباً في أوساط العلماء، في مجتمعات أوروبية أخرى، وأول من تكلم في موضوع التطور هو (بوفون Buffon)[٥٢] حيث قال: "إن كل حيوان هو نتيجة لتغيرات حدثت لحيوان سابق أقل منه رقياً وأبسط تركيباً"[٥٣]، وقد عَدَّ أن هذا التطور إلهيٌّ، ثم جاء (لامارك)[٥٤]، فعُدَّتْ آراؤه اكتشافاً جوهرياً للفكر العلمي في ذلك الوقت، إذ كان يقول: "إن تغيرات البيئة تخلق الاحتياجات الجديدة، وإنَّ عادات جديدة وقوى موجِهة موجودة في أعماق الكائن الحي، تتحكم في تطوره، وتُمكِّن من زيادة أو نقصان استعمال بعض الأعضاء، وهذا بدوره يؤدي إلى تطور العضو ليناسب الوظيفة الجديدة أو تقليصه

---

(٥١) إذا شعرت بالملل من قراءة هذه الفرضيات، فتوقف برهة أو انتقل إلى الفقرة التالية مؤقتاً.

(٥٢) (بوفون ١٧٠٧ - ١٧٨٨م): عالم نبات فرنسي، قال: إن الحيوانات تطورت بعضها من بعض.

(٥٣) "أصل الإنسان"، ص ٣٤.

(٥٤) (جان باتيست لامارك ١٧٤٤ - ١٨٢٩م): عالم طبيعة بيولوجي فرنسي، أسس علم البيولوجيا.

لدرجة التخلص منه"(٥٥)، ويوجد عند (لامارك) اعتقاد أساسي هو أن الكائنات الحية موزعة تبعا لسُلّم يتألف من ست درجات وأربعة عشر قسماً، يسير من البسيط إلى الأكثر تعقيداً(٥٦)، ولكنه ليس منتظماً تماماً، إذ توجد بعض التجمعات المتدرجة من الأشكال.

ويقول (لامارك): "هذا يعني أن الكائنات المتزايدة التعقيد، توجد في ظروف محدودة لبيئة معينة، حيث تؤثر هذه البيئة في الكائنات، فتُوجِدُ عندها ضرورات تجعل (القدرة البيولوجية) تَخلُقُ بعض الأعضاء أو تُغيرها، فيتطور الكائن ويزداد تعقيده"(٥٧).

كان (لامارك) **يقول بتوارث الصفات المكتسبة للكائن الحي أثناء حياته، وهي التي تسبب تطوره، وأن تكاثر هذه الصفات مع الزمن يُحدِث نوعاً جديداً من الحيوانات**(٥٨)، وجعل ذلك أساساً لفرضيته التطورية، على الرغم من عدم استطاعته إثباتَها، فقد وضع فرضيته التطورية في كتاب سماه (فلسفة علم الحيوان).

ثم تبنى (داروين) بعض أفكار (لامارك)، وأيد تحوليته **وفرضيته** بوراثة الصفات المكتسبة أثناء حياة الفرد، وبتأثير البيئة على التطور وتغيُّر الأعضاء حسب الحاجة إليها، ولكنه أضاف بأن التطور **قد** يبدأ ببعض الطفرات التي تطرأ على الخلايا، فتظهر نتيجتها عند تغير ظروف البيئة، وذلك ضمن اصطفاءات طبيعية تقوم بإزالة الضعفاء لصالح الأقوياء.

كما أن (داروين) **رفض فكرة (الطفرات العنيفة) وقال: إن مادة التطور هي طفرات صغيرة قابلة لإعطاء بعض الميِّزات الحسنة للأحياء التي تحصل لها،**

(٥٥) "أصل الإنسان"، ص٣٥.

(٥٦) "الداروينية اليوم"، ص ١٥.

(٥٧) "الداروينية اليوم"، ص ١٥.

(٥٨) - "مبادئ علم البيولوجيا"، ص ٣٨٠ - ٣٨٤ بتصرف.

بحيث تُبقي الأصلح منها"، ولكنه اعترف بأنه لا يعرف الكيفية التي حدثت بها هذه الطفرات، ويؤيد أيضاً الصراع بين الحيوانات، من أجل بقاء الأقوى والأصلح، مما يُحسّن النسل، فإما أن تتغلب الصفة النافعة على الصفة الضارة فتتلاشى الضارةُ، أو تتغلب الصفة الضارة فيتلاشى صاحبها بذاته وبنسله، وبذلك تكون الصفة النافعة هي الباقية.

ويقول (داروين) **أيضاً**: "إنه إذا تكدست الصفات الملائمة، فيمكن أن تظهر اختلافات في الجسم، مثل الأغشية بين الأصابع عند الطيور المائية، والفرو على جلود الحيوانات التي تغيرت بيئتها إلى الباردة، ومع الزمن **يمكن أن نتصور** تَشكُّل أنواع جديدة هي الأصلح...

ويقول: "إن الاختيارات الجنسية التي تقوم بها الإناث **لاختيار الذكور الأنسب يلعب دوراً في إسراع عملية التطور الطبيعي**".

إن فكرة الاصطفاء الطبيعي خطرت لـ(داروين) من ملاحظاته لمربي الحيوانات الذين كانوا يقومون بعملية (اصطفاء اصطناعي) للحيوانات الأنسب، وبالتهجين تنتج لديهم صفات مميزة، ونتيجة لاصطفاءات متكررة، أمكن الحصول على عائلات جديدة من الحَمام والغنم، والزنابق والأزهار، فقال (داروين): لماذا لا تقوم الطبيعة (باصطفاء طبيعي) مماثل ولكن بشكل أبطأ، **وتَصوَّرَ** أنه خلال زمن طويل، تنشأ أنواع مختلفة تماماً، جديدة ومتطورة، تتجه دائماً نحو التعقيد والتخصص، وقال: "إن العضويات الصغيرة في كل الأجيال، تنزع دائماً إلى أن تختلف اختلافاً طفيفاً إيجابياً عن آبائها في جميع الاتجاهات، بمعنى أن التَغيُّر إذا حصل باتجاه واحد (صفة واحدة)، فإن هذا لا يسبب تغيراً سيئاً في اتجاهات أخرى (صفات أخرى)، وأصدر كتاباً عام ١٨٥٩م سماه "أصل الأنواع"، شرح فيه فرضيته بالتفصيل بعد رحلة على متن سفينة الأبحاث (بيجل) دامت ست سنوات(٥٩).

(٥٩) "مبادئ علم البيولوجيا"، ص٣٨٠-٣٨٤، بتصرف.

بعد ثلاثين عاماً جاء العالم (مندل)[60] بقوانينه الوراثية، وأثبت فيها استحالة انتقال الصفات المكتسبة خلال الحياة، انتقالاً وراثياً ما لم تدخل إلى الخريطة الوراثية، **فانهار أحد أركان الفرضية اللاماركية، وتزعزعت الفرضية الداروينية**، لأن (داروين) كان قد أيَّدَ هذه الفرضية!

قال الأستاذ (ماكبريد): "إن الصفات المكتسبة أثناء الحياة، تُورَّثُ فقط إذا نتجت عن فواعل طبيعية تؤثر في الجراثيم المكَوِّنَةِ[61] لا الخلايا التي يتكون منها الجسم"، وهذا تأييد للداروينية ضد اللاماركية، [لأن (داروين) قال بضرورة وجود طفرات مسبقة تطرأ على الخلايا تظهر نتيجتها عند تغيير ظروف البيئة].

بعد ذلك قام العالم (وايزمان WEISMANN)[62] **بأخذ بقايا اللاماركية والداروينية** واستند إلى قوانين (مندل) الوراثية، **فاستبعد فكرة الانتقال الوراثي للصفات المكتسبة**[63]، وركَّز على علاقة العنصر بالبيئة بحيث تدفعه ليكون دائماً أكثر تعقيداً، وعلى الجهد البيولوجي الذي يبذله العنصر ليتكيَّف مع البيئة، فقدَّم بذلك إطاراً نظرياً جديداً سمي (الداروينية الحديثة) التي شرحها في كتابه (دراسة في الوراثة والاصطفاء الطبيعي)، الذي ظهر عام ١٨٩٢م حيث كان تصوره الوراثي أقرب إلى (مندل) منه إلى (داروين)، فكان:

أ- يميز بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية.

ب- يقول إن بعض الصفات المكتسبة فقط تنتقل بالوراثة.

هذا الدمج بين الماندلية والداروينية سماه (وايزمان) "نظرية التطور التركيبية"، التي تدعو إلى التسليم بأن الصفات تحددُها الجينات، وهذه بدورها تخضع

---

(٦٠) (يوهان مندل ١٨٢٢-١٨٨٤م): راهب وعالم نباتي نمساوي، اختبر توارث الصفات في تناسل النبات واستخرج منها القانون المعروف باسمه.

(٦١) حالياً تسمى الـ(D.N.A) الحمض الريبي النووي المنقوص الأكسجين.

(٦٢) "الداروينية اليوم"، ص٨-٩، بتصرف.

(٦٣) "الداروينية اليوم"، ص١٧.

لطفرات، تسبب ظهور بعض الفروق بين أفراد النوع الواحد، بالاصطفاء الطبيعي، إما أن يتطور العنصر أو يُقضى عليه، وهذا يفرض أن الطفرة سابقة للاصطفاء، الذي هو الفرق الأساس بين (لامارك) و(داروين).

مثال للتوضيح: إذا أضفنا مضاداً حيوياً إلى مزرعة جراثيم نلاحظ موت أكثرية الجراثيم وبقاء بعضها حياً ولهذا تفسيران:

١- الدارويني: إنه قد وجدت طفرات مسبقة في بعض الجراثيم جعلتها تقاوم هذا العدو (المضاد الحيوي).

٢- اللاماركي: إنه بعد دخول العدو يحصل عند بعض الجراثيم ردة فعل تجعلها تتكيف معه أو تقاومه.

إنَّ اكتشاف أنواع جديدة من المستحاثات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلال النهضة الصناعية، وتطور علم الإحاثة على يد مؤسسه (Cuvier كوفيير)[64]، -الذي كان يناهض (داروين) و(لامارك)-، وضع الكنيسة في حَرَجٍ كبير، فعادت فرضيات التطور للظهور بقوة كردة فعل ضد الكنيسة التي أساءت معاملة العلماء والناس، أثناء سيطرتها على دفَّةِ الحكم خلال عصور الانحطاط الأوروبي ومحاكم التفتيش.

إن هذه الفرضيات أخطأت في نقد فكرة "ثبات خلق الأحياء" الموجودة في التوراة في سفر التكوين، التي تقول بأن الله خلق الأنواع الحية مباشرة ومنفصلة كما نراها اليوم، ولم تكن قد تغيرت منذ بدء الكون، فرفض العلماء فكرة عدم تَغَيُّرِ الخلق **ونادوا بتطور الخلق بشكل عام.**

بهذا الإصرار من الطرفين، وجد بعض العلماء الفرصة مناسبة للتهجم على الكنيسة بما لديهم من إثباتات مستحاثاتية على أن التطور حقيقة ملموسة لا مفرَّ

---

(٦٤) كوفيير (Cuvier): مؤسس علم الإحاثة، عالم طبيعي من القرن التاسع عشر له كتاب "تاريخ العظام المتحجرة"، يعارض أفكار (بوفون Buffon) و(لامارك).

منها، وأخذوا يشككون بكل ما في (الكتاب المقدس)، **كنوع من الانتقام** لأن الكنيسة رفضت أي مصدر للمعرفة خارجاً عنها، فظهر الصراع بين رجال الكنيسة والعلماء، وتطور بصورة جعلت العامة يؤمنون بأن العلم والدين لا يمكن أن يجتمعا، لأن رهبان الكنيسة يُنكرون العلم، مما جعل رجالَ العلم ينكرون كلَّ ما في الدين، ومازالت هذه الفكرة سائدة حتى اليوم في كثير من المجتمعات، لهذا أخذت الكنيسة بتهيئة جيل من العلماء يعملون لصالحها، فكان كثير منهم رهباناً وعلماء في الوقت نفسه، لكن هذا لم يمنع بعضَ هؤلاء العلماء القسيسين مِنْ رفضِ سيطرة الكنيسة ومن الخروج عن رأيها، والإيمان بما كانوا يرونه حقيقة علمية بين أيديهم.

إن ظهور الداروينية الأولى القائمة على (الاصطفاء الطبيعي) وعلى (بقاء الأصلح) -بعد خمسين عاماً من اللاماركية- **جعل أغلبَ العلماء يرفضون الكنيسة علمياً وبالتالي دينياً**، ويؤيدون الداروينية ويحاولون إثباتها، أو تعديلها، بحيث تُثبِت خطأ الكنيسة، فظهر جيل من الداروينيين المتعصبين للنظريات المادية، كان أولَ من طرح فكرة أن أصل الإنسانِ قردٌ، ثم نشرها (داروين) في كتابه الثاني (أصل الإنسان) الذي ظهر بعد عشر سنوات من الكتاب الأول (أصل الأنواع)، حيث قال: "إن الفرق بين الإنسان والحيوان هو بالدرجة فقط"، وقال أيضاً: "إن فرضيته تستند على عدة علوم منها:

١- علم التشريح المقارن: وذلك لأن جميع الفقاريات تتشابه بالأجزاء الخارجية، كالرأس والجذع والأطراف، وبالأجزاء الداخلية كالأجهزة التنفسية والدموية والهضمية والتناسلية، ويقول: إن هذا التشابه ليس له تفسير آخر.

٢- علم الأجنة: يقول إن التشابه في المراحل المبكرة لكل الحيوانات، بشكل يصعب معه التمييز بين الأنواع، يدلنا على أصل الكائنات الحية الواحد وصحة نظرية التطور، وليس له تفسير آخر.

٣- علم الحفريات: يقول إن الحفريات دلّت على التعاقب الواضح للكائنات من البسيطة إلى الأكثر تعقيداً، وأنْ ليس لهذا أي تفسير غير التطور التسلسلي".

وهكذا تتابع ظهور تفاسير جديدة لهذه الفرضية، فظهرت فرضيات لا علاقة لـ(داروين) بها أصلاً، سميت **(بالداروينية الاجتماعية)** أو **(الداروينية الاقتصادية)**، أخذت من (فرضية داروين) فكرة بقاء الأصلح والتنازع للبقاء، واستخدمته في أواخر القرن التاسع عشر في تبرير شريعة الغاب الاجتماعية والاقتصادية، فتجنى الغني على الفقير، واضطُهدت الشعوب الضعيفة، وأُبيدت جماعات وعروق عُدَّت متدنية تؤخر التطور البشري، فظهرت نزاعات بشرية بين مؤيدي (الداروينية الاجتماعية) ومناهضيها، وظهرت الأفكار الشيوعية التي في ظاهرها أنها تدافع عن الضعفاء والفقراء، وعلى الرغم من أن الشيوعية -سنناقشها فيما بعد بمزيد من التفصيل- كانت تنادي بالداروينية، إلا أنها ترفض الاجتماعية منها، وتنادي بالتساوي لكنها فشلت في التطبيق العملي فظهر مناوئٌ جديد للكنيسة، وهي النظريات المادية، التاريخية منها والجدلية، التي تقوم على أساس الإلحاد المطلق، فاجتمع الفقراء ظناً منهم أنهم سيجدون حياة أفضل، وابتعدوا عن الكنيسة، فازداد النزاع، واتسم بالدموية والقسوة، إذ استخدمت الكنيسة سلطتها وقوتها في قمع طبقة الشعب، وكانت تؤيد طبقة النبلاء، فحصل الطلاق النهائي الذي لا رجعة فيه بين الطبقتين، وقامت الثورات الشعبية، وتراجعت سلطة الكنيسة.

خلال القرن العشرين استفادت الكنيسة من الحربين العالميتين، فأخذت تُحسِّنُ من صورتها، وقدمت مساعدات للمتضررين من الحروب والكوارث، ظاهرها إنساني وباطنها دعوةٌ لتحويلهم عن دينهم إلى المسيحية، وأخذت تهتم بالناحية الدينية الروحية فقط، وتغاضت عن التفسيرات العلمية القديمة للكتاب المقدس، فاستطاعت إعادة استقطاب كثيرٍ من الناس، بمختلف مستوياتهم، وقامت

بحملات تنصيرية[٦٥] بين الفقراء والمشردين، ودعّمَت الصليب الأحمر[٦٦]، وبنت المستشفيات والمدارس المجانية، فكانت هذه الطريقة وما زالت أذكى الأساليب التي استعملت في سبيل نشر الأفكار بطرق بطيئة مضمونة، وتقرباً من العلماء؛ قامت الكنيسة بإقرار وجود بعض الأخطاء في العهد القديم، وذلك في المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان عام (١٩٦٢-١٩٦٥م)[٦٧] بقولها: "...غير أن هذه الأسفار تحتوي على شوائب وشيء من البطلان..."، مخالفين لما جاء في (المجمع الفاتيكاني الأول - ١٨٦٩-١٨٧٠م) الذي أعلن: "بأنّ أسفار العهد الجديد، كُتبت بإلهام من الروح القدسِ، ومؤلفها الله، وأعطيت هكذا للكنيسة".

قام مؤيدو مبدأ المصادفة المطلقة -في تَشَكُّلِ الكون- بمحاولة لإضافة بعض الواقعية عليه، إذ حاول (جاك موند Jaques Monod)[٦٨] في كتابه (المصادفة والضرورة)، دمْج شيءٍ من الداروينية، بفرضية المصادفة وتبني **مصادفة الطفرات** وضرورة الاصطفاء مع إهمال أفكار (داروين)، حول وراثة الصفات المكتسبة، وتأثير البيئة اللاماركي، وضرب مثلاً فقال: "إن الصفات التي اكتسبها الإنسان بالتمرين، أو نتيجة حادثٍ قطعَ عضواً من أعضائه، لا تنتقل بالوراثة، كذلك إلغاء عيون أجيال متتالية من الفئران، لن ينتج جيلاً من الفئران العُمي"، وانتقد الداروينية بقوله: "إن فيها كثيراً من المصادفة وقليلاً جداً من الضرورة"[٦٩].

راحت الداروينية الحديثة كثيراً بين العلماء، حتى أنهم لم يفكروا بالبحث عن براهين لها أو عليها، فلقد كانت بالنسبة لكثيرين **الأسلوب الوحيد للهروب مما**

---

(٦٥) التنصير: نسبة إلى المسيح النصراني (من مدينة الناصرة) وهي دعوة الناس لدخول النصرانية.

(٦٦) الصليب الأحمر (Croix-Rouge): جمعية دولية أسسها (هنري دونان) في جنيف عام ١٨٦٣م، غايتها الظاهرية مساعدة جرحى الحروب، وإسداء المساعدات لهم ولعائلاتهم، والغاية الباطنية هي نشر تعليمات الكنيسة بينهم.

(٦٧) "اختلافات في تراجم الكتاب المقدس": لواء أحمد عبد الوهاب، ص ٦١.

(٦٨) (جاك موند): طبيب عالم حصل على جائزة (نوبل) في الطب، كتاب "الداروينية اليوم"، ص ٣٩.

(٦٩) "الداروينية اليوم"، ص ١٠٦.

عَدُوه تقييدَ الدِّينِ لحرياتهم الشخصية باتباع تعاليم الكنيسة دون اعتراض، وكثيرون منهم قالوا: **إنهم لا يؤمنون بالداروينية،** إلا أنه لا يوجد أي بديل لها سوى الإيمان بخالق مسيِّر للكون، وهذا لا يريدون مجرد التفكير فيه، لأنه سيعيدهم إلى سيطرة الكنيسة.

إن (داروين) نفسه كان يؤمنُ بوجود خالق، إلا أن له إدراكاً خاصاً للخالق، إذ إنه يؤمن بأن الله خلق المادة الأولى، وأنه أعطى الشرارة الأولى للكون، وأطلق الحركة الأولى، وخلق الحياة الأولى، ثم تراجع عن التدخل بكل خلقه، لتأخذ الحياة مسيرتها بالتطور حسب (نظرية النشوء والارتقاء)، ويقول: "إنه لا حاجة لنا بالإله بعد الخلق، إلا عندما يقرر أنه سوف ينهي الحياة كلها، فسوف يتدخل مرة أخرى ليجمع ما خلق ويفنيه وينتهي كل شيء"[٧٠]!.

أرى أنه إدراك غريب لوظيفة إله (داروين)، وهو وصفٌ لا يخلو من الذكاء المبطن، إذ إنه بذلك يوفر على نفسه الإجابة عن أسئلة كثيرة حول سبب وجود الكون الأول والحياة الأولى، **ولكنه يرفض فكرة الإله ما بين الحياة والموت،** ويعزي كل شيء إلى الطبيعة.

كان (نيوتن) يقول: "إن الكون يتحرك ضمن قوانين ثابتة للطبيعة، ولا حاجة إلى الإله بعد أن خلق القوانين".

وقال (لابلاس)[٧١]: "إن النظام الفلكي على شيء عال جداً من الدقة، ولا يحتاج إلى أسطورة الإله بين الوجود والعدم".

ويقول علماء النفس: ليس الإله سوى انعكاسٍ للشخصية الإنسانية على شاشة الكون.

---

(٧٠) "الداروينية اليوم"، ص٤٢.

(٧١) (لابلاس Laplace ١٧٤٩-١٨٢٧م): فلكي ورياضي فرنسي.

والشيوعية ترى الدينَ خدعة تاريخية، ترتكز على العوامل الاقتصادية، خلقها النظام الـ(برجوازي)[٧٢] لاستغلال الفقراء اقتصادياً.

ويقول (أنجلز)[٧٣] فيلسوف الشيوعية: "إن كل القيم الأخلاقية، هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية".

ونحن نقول: إن الظروف الاقتصادية **لها تأثير** على القيم الأخلاقية، وهذا أقرب إلى الواقعية، من حصر القيم الأخلاقية بالظروف الاقتصادية، وسوف نُفَصِّلُ شرح هذه الفكرة عند مناقشة الشيوعية.

٢- مناقشة مع الداروينية الحديثة:

بعدما أوردنا السردَ المختصرَ عن الداروينيةِ سنقوم بمناقشتها، فنقول:

إن أول من وضع إشارات استفهام حول الداروينية هو (داروين) نفسُه؛ إذ اعترف في رسالة إلى صديقه (آزا غراي Asa Gray)[٧٤] في عام ١٨٦٠م، فقال: "إن النقص الأهم في كتابي (أصل الأنواع)، باعتقادي[٧٥]، كان في عدم تفسير كيف يحصل بأن الأشكال **لا تتطور بالضرورة**، وأنه بوسع الأجسام البسيطة الاستمرار بالوجود"[٧٦]. **واضح أن هذا يلغي التطورَ التسلسلي الذي عدَّه (داروين) أحدَ أهمِ الدعائم التي قامت عليها فرضيته.**

حيث وُجِدت أنواع معروفة من قِبَلِ العلماء باسم (اللامتبدلة)، لأنها ثابتة الصورة منذ ملايين السنين مثل (خضراء الدمن)، وهو نوع من الطحالب، ومثل

(٧٢) البرجوازية: طبقة نشأت في عصر النهضة الأوروبية بين الأشراف وكبار المزارعين وأضحت دعامة النظام النيابي؛ ثم صارت في القرن التاسع عشر الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج في النظام الرأسمالي، وقابلت بهذا طبقة العمال.

(٧٣) (فريدريك إنجلز Engels ١٨٢٠-١٨٩٥م): فيلسوف ألماني من مؤسسي الاشتراكية.

(٧٤) (آزا غراي): عالم طبيعيات أمريكي دافع عن أفكار (داروين).

(٧٥) كلمة "باعتقادي" هي من أصلِ نص الرسالة المذكورة ومعطوفةً على كاتبها.

(٧٦) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية"، ص ٤٣، (موريس بوكاي).

بعض البكتريات والإسفنجيات والرخويات، والأسماك المعروفة علمياً باسم (الكالكتنا Coelacanthe)، الموجودة منذ ملايين السنين وحتى يومنا هذا دون تغيير[٧٧]، وهذه الصور الثابتة لا تتماشى مع قوانين فَرَضية التطور، إذ ليس في هذه القوانين أي ثغرة أو استثناء يسمح لبعض الصور أن تتوقف عن التغير والتطور.

هنا نتساءل:

ما تفسير وجود كائنات من بداية سلَّمِ التطور مثل الأميبيا، وكائن آخر من نهاية السُّلَّم مثل الإنسان بعضها مع بعض في وقت واحد؟، بينما يقول (داروين): "إن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسان من المفروض أن يُعْثر عليها في الطبقات السفلى من الأرض دائماً..."، وها هي نراها تعايشه زمنياً[٧٨].

وما تفسير وجود الحيوانات الكبيرة، مثل الديناصور قبل ثلاثين مليون عام، وما نجده بعده من فصيلة القرود في الوقت الحاضر، فهل أصل القرد ديناصوراً؟!.

لقد نشر (فيرنت Vernet)[٧٩] في كتابه (تطور العالم الحي) رسالة، من (داروين) إلى صديقه توماس ثورتون (Thomas Thorton) قال فيها: "غير أنني أؤمن بالاصطفاء الطبيعي، لأنه يفسر لي **على ما يبدو** مجمل الوقائع في التصنيف وعلم الأجنة وتحول الأعضاء، على الرغم من **أني لا أستطيع -بأي حال- البرهان على أنه بدّل نوعاً ما بنوع بآخر**"[٨٠].

نقول: إنَّ الأفضل والأصدق لو أنه قال: غير أنني **أؤمن بالله**، لأنه يفسر لي **حتماً**، مجمل الوقائع في التصنيف وعلم الأجنة وتحول الأعضاء؟.

(٧٧) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية": ص ٤٣، (موريس بوكاي).

(٧٨) "أصل الإنسان": ص ٤٥.

(٧٩) (فيرنت): عالم أحياء فرنسي، اهتم بنظرية التطور.

(٨٠) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية": ص ٤٥، (موريس بوكاي).

وأعلن العالم باتسون عام ١٩٢١م: "إن الجزء الذي يبحث أصل الأنواع، **لا يزال في حيز الآراء المستعصية على العلم، وإننا اليوم لا نشعر ذلك الشعور** الذي كنا نشعر به من قبل".

نلاحظ أنه ليس فقط أن (داروين) لم يستطع أن يثبت تحول نوع إلى نوع آخر فحسب، بل إنه توجد أدلة في الطبيعة تدين فرضيته وتدحضها، ومن ذلك بعض ظواهر التوازن الطبيعي بين الكائنات، منها ظاهرة الانتحار المستمر عند بعض الحيوانات وبعض النباتات، وهذا يخالف مبدأ التطور نحو الأفضل، فمثلاً:

أ- توجد بعض الصنوبريات!. التي تفرز مواد كيميائية تجذب إليها الحشرات التي تلتهم هذه الصنوبريات.

ب- وتوجد بعض أنواع الظباء، تفرز مادة خاصة تتركها على الأرض بطريقة تجعل الحيوانات المفترسة تتبع خطواتها.

جـ- كما أن النمو السريع للقرون الشجرية لبعض الظباء مثل (الأيل)، يعيق حركتها بين الأشجار حيث تعيش في الغابات الجبلية، وتضطر أحياناً، هي بنفسها لكسر بعض فروع قرونها، فلماذا لم تخلصها الطبيعة من هذا العائق وتُطوّرها نحو الأفضل؟

د- وأمثلة كثيرة غيرها...

فلماذا لا يتدخل الاصطفاء الطبيعي، وفرضيات (داروين) من أجل حماية هذه الكائنات؟!.

ولمّا كانت هذه الصفة الانتحارية مستمرة في الأجيال، فلماذا لم تنقرض بناءً على فرضيته ببقاء الصفات الصالحة؟

ألا يجب علينا أن نناقش فكرة **وجود معادلات توازن وضعها الله في الطبيعة،** تتحكم بها وفقاً لحكمة إلهية يُظهرها الله لنا مرّة ويخفيها مرات لتظهر في وقتها المناسب.

قال (داروين) في كتابه أصل الأنواع: "إذا سألني أحدكم، لماذا لم يتحول الحصان إلى جمل؟ فلا يتوقع أن يسمع مني إجابة مقنعة".

ما أكثر الأقلام التي تناولت الداروينية واعترضت على تفسيرها للتطور، وخَفّتْ حِدّةُ النقاش بين العلماء مع الزمن لصالح المعترضين، وما دامت الداروينية دون برهان قاطع، ودون الحلقة المفقودة، فهي تبقى في مجال الفرضيات، ولا ترتقي إلى مجال النظريات العلمية المثبتة التي يُعتمد عليها، ويبقى لدينا الإيمان بالخلق المباشر للإنسان وليس تطوراً من سلسلة القرود.

إنه من الطبيعي أن الكائنات الحية ذات العاهة، والمتروكة لذاتها ستزول، أما القول: إنها زالت حسب فرضية (بقاء الأصلح) في الحياة، فلنا في هذا رأي مخالف، إذ إن توازناتٍ كثيرة مختلفة، منها الاصطفاء الطبيعي حسب القوانين والإرادة الإلهية، تؤثر في التجمعات الحيوانية فيسيطر نوع ويزول آخر، كما ينبغي أن نلاحظ بعض التغيرات العنيفة كالفيضانات والزلازل في البيئة، يمكن أن تسبب بقاء الجماعات التي وجدت خلال ذلك في مناطق محمية، بغض النظر عن صلاحيتها ودون اصطفاء لها، حتى الصراعات بين الكائنات لا يشترط فيها الأقوى والأصلح، إذ تلعب الظروف دوراً هاماً في نسبة المنتصرين.

أما من ناحية اختيار الأنثى للذكر الأقوى، فليس واقعياً؛ لأن مصادفة اللقاءات تقوم بدورها أكثر من الرغبات والاصطفاءات الفردية[٨١] في كثير من الأحيان.

إن قانون الوراثة الذي اعتمد عليه (داروين) في إثبات تطور الإنسان وارتقائه من سلالة حيوانية أخرى، قد رفضه العلم بواسطة (مندل) قديماً، وبواسطة العلم الحديث، الذي أثبت أن لكل نوع من الأحياء خريطة وراثية ثابتة لا تتغيّر مع الزمن، وبذلك يحافظ كل صنف على استقلاليته، **فلن يلد الحصان كلباً ولا القرد إنساناً.**

---

(٨١) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية": دكتور (موريس بوكاي)، ص٤٢، بتصرف.

حتى في (الاصطفاء الاصطناعي) يمكن أن توجد فصيلة راقية من الكلاب، تختلف عن كلاب الشوارع، لكنها تبقى كلاباً يمكنها أن تتكاثر معها وليس مع القطط!.. وهذا نقض مهم جداً لفرضية التطور من نوع إلى نوع.

إن الاصطفاء الطبيعي، يكون لا إرادياً وغير منصف، أما إذا قلنا: إنه منتظم وإرادي، فإننا نحول الطبيعة إلى إله ذي إرادة منطقية، وهذا ما لا تتمتع به الطبيعة، ولا هو من خصائصها.

إن اكتشاف المورِّثات (الكروموسومات)، على أنها عوامل أساسية في انتقال الصفات الوراثية من جيل إلى جيل، جعلت كثيرين من العلماء المؤيدين للداروينية يغيّرون رأيهم، إذ إن (الكروموسومات) لا يمكن أن تتساوى بين الأنواع المختلفة للكائنات الحية، وبواسطتها يمكن التمييز بين الأنواع، وحتى الآن لم يَثْبُتْ أن هذا العدد قابلٌ للتغيير والانتقال.

يقول عالم الوراثة (وولتر إدوار لامبرتس)[٨٢]: "إن علم الوراثة لم يقدم لنا دليلاً واحداً على صحة الفرضية القائلة بأن تراكم نتائج التغيرات، تُبدل النوع إلى نوع آخر، أي نوع جديد يختلف عدد كروموسوماته عن عدد كروموسومات أجداده.

في الواقع، إن أقصى ما يمكن أن يتم من التغيرات الطبيعية في النباتات والحيوانات، يمكن تسريعه بالانتقاء الاصطناعي، ولكن لم يلاحَظ تغيرات في جميع الاتجاهات، إلا عندما أصابتها بعض الطفرات النادرة جداً، والغريب أن علماء الداروينية يبنون تفسيرهم لظاهرة التطور، على هذه الطفرات النادرة، ويطلبون من العالم إلغاء دور الخالق!..

---

(٨٢) (وولتر إدوارد لامبرتس): أخصائي علم وراثة، حاصل على درجة الدكتوراه، مدير البحوث بحدائق (ديسكانسو بكاليفورنيا)، متخصص بتربية الورود.

يتساءل الدكتور (جوستاف جولييه): "كيف تُفسِّر الداروينيةُ **بطفراتها الصغيرة، وبرفضها للطفرات العنيفة**، بعضَ التحولات الكلية الفجائية في بعض الأنواع كتحول دودة القز إلى فراشة؟"!!!.

وفي دراسة أُجريت على ذبابة (الدروسوفيلا)، تبينَ أن غالبية الطفرات هي من النوع المميت، أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي إلى التشويه، مع أن بعض الطفرات حَسَّنت جناح الذبابة، ولكنها جعلت حياتها أقصر بكثير من الذباب الذي لم يتعرض لهذه الطفرة، ولذلك من الصعب جداً إعلان أن تجمع هذه الطفرات الوراثية، يؤدي إلى التغيرات الإيجابية اللازمة في جميع الاتجاهات، لنشأةِ أنواعٍ جديدة أكثرَ تقدماً ورقياً من أسلافها.

لذلك نقول: إنَّ القول بحدوث طفرات نادرة، تصحبها تحسينات تتراكم وتنتج نوعاً جديداً، تَضعُنا أمام مشكلة الزمن، لأن الزمن اللازم لتعميم صفة واحدة فقط من الصفات، عن طريق الطفرة، يستغرق أكثر من مليون جيل حسب نظريات العالم الرياضي (باتو)[٨٣] في كتابه (التحليل الرياضي لنظرية التطور) حيث قال: "وإنه لمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان قد نشأ عن سلفه الذي كان له خمسة أصابع في قدمه في فترة قصيرة من العصر الحجري حتى الآن"[٨٤].

إن الأشكال الوسطية الستة، التي ابتدأت من (الهيراكوثيريوم)، وانتهت بالحصان الحالي، والتي قُدِّمت كأشكال وسطية للتسلسل عند الحصان، تبدو **وكأنها ظهرت فجأة**، ولا يوجد بينها روابط بسبب نقص المستحاثات، ولكن

---

(٨٣) (باتو): عالم رياضيات له كتاب (التحليل الرياضي لنظرية التطور)، أثبت الاستحالة الزمنية لتعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات.

(٨٤) "الله يتجلى في عصر العلم": ص ٧٦-٧٧ بتصرف، تأليف نخبة من العلماء.

حتى في حالة وجود هذه الروابط، لا يكون ذلك إثباتاً لفرضية (داروين)، إذ إن الحصان بقي حصاناً بينما المطلوب إثبات أن الحصانَ تطور من كلبٍ ثم تحول إلى جملٍ مثلاً!..

ونقول أيضاً: إن القول بأن التغيرات تتطلب ملايين السنين؛ ما هو إلا هروب فاشل، فإذا لم نلحظ أي جزء من تغير في النوع، خلال عشرات السنين، على الرغم من الأجهزة الدقيقة التي نستعملها، فلن يحدث شيء خلال ملايين السنين لأنه لا بُدَّ من نقطة بداية.

ويقول (ليكونت دي نوي) في كتابه (مصير البشرية): "إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سلف لشكل آخر، ولم يَثْبتْ أن الإنسان انحدر من القرد".

٣-علم الإحاثة والداروينية:(٨٥)

أ- الوجهة الأولى (للبشريات):

عُرِفَت باسم (إنسان الرامابيتيك)، إن علماء الإحاثة الداروينيين يقولون: "إنه قد أثبتت الحفريات، **أن أسلاف الإنسان الحالي** هي قرود (الانثروبويد) القديمة، التي انفصلت عنها جماعة شبيهة بالإنسان منذ حوالي (١٥) مليون سنة، وتطورت إلى أسلاف الإنسان، ثم إلى تكوين مخلوق جديد هو الإنسان، وذلك قبل مليون سنة".

نقول معلقين: إنه من الغريب أنَّ كلَّ هذا التصريح الخطير يستدلون عليه بتقديم أجزاء مختلفة من هياكل قديمة، أحياناً يكون فكّاً، أو جمجمةً يعطونها اسماً ويقدمونها على أنها أحد أجداد الإنسان الحالي، مثل إنسان الرامابيتيك Ramapitheque القديم (١٥) مليون سنة، الذي هو في الواقع من القرود الكبيرة، أما **الجد الآخر المفترض** أوريوبيتيك **Oreopitheque**، الذي هو قرد وهيكله يدل

(٨٥) "مبادئ علم البيولوجيا": (أرينا كاروزينا)، ص ٤٤٧-٤٦٠، بتصرف.

على أنه من ساكني الأشجار، وذراعاه طويلتان، ويعود تاريخه إلى (١٢) مليون سنة، وحجم جمجمته (٤٠٠)سم^{3}، لا يمكن عدُّه أحد قدامى البشريات السابقة، ثم اكتُشف ما سمي (برجل أستراليا القديم) أو (رجل جاوا)، حيث اكتُشف الهيكل وعمره من مليون إلى أربعة ملايين سنة، واكتُشف أنموذج آخر عمره (٦٠٠ ألف) سنة فقط، ولكن لا توجد دلائل قاطعة تُثبت أنه الجد الأول للإنسان.

حتى ولو ثبت وجودُ مخلوقٍ عاقلٍ غير الإنسان منذ مئات الآلاف من السنين، فلماذا نربطه بالإنسان الحالي، وما يدرينا أن الله لم يخلق على الأرض أباً آخر لمخلوقات أخرى قبل أبينا آدم(٨٦)، خاصة وأنه لا يوجد في الأديان ما ينكر ذلك صراحة(٨٧)، إذن لا داعي أن يخاف المؤمن من اكتشافاتٍ كهذه ولو صدَقَت(٨٨).

ب- الوجهة الثانية (للبشريات):

عُرِفَت باسم Pithecanthropes، اكتُشف بعضها في (جزيرة جاوا)، وبعضها في إحدى مغارات (بكين)، وكانت سعة جمجمته (٩٠٠)سم^{3}.

جـ- الوجهة الثالثة (للبشريات):

عُرِفَت باسم (إنسان نيندرتال) Neanderthaliens، ظهرت منذ حوالي (١٠٠) ألف عام، وعاشت ستين ألف سنة، وذلك نسبة إلى وادي **Neander** قرب دوسلدورف في ألمانيا، وظهرت عدة نماذج في بلاد مختلفة من أوربة، وجاوا والعراق، وكانت سعة جمجمته (١٣٠٠-١٦٠٠) سم^{3}، وحتى على هذه الجمجمة لم يتفق العلماء، وقالت عنها العالمة السوفيتية (إيرينا كاروزينا) في كتابها (مبادئ علم الجيولوجيا): "إن اكتشاف هذه الجمجمة أثار نقاشاً حاداً بين

(٨٦) انظر التفسير في الفصل الثالث من الباب الثالث فقرة ٩- الإسلام والمخلوق العاقل الآخر.

(٨٧) جاء في الإسلام أنَّ بني آدمَ هم آخر المخلوقات، ولم يذكر شيئاً عن مخلوقٍ عاقلٍ قبله لا نفياً ولا إيجاباً.

(٨٨) من المحاضرات المسجَّلة عن خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره القرآن.

العلماء، **حيث عدّها بعضهم جمجمة الإنسان القديم، بينما اعتقد بعضهم الآخر أنها جمجمة إنسان معاصر أصيب بمرض ما**".

يقول بعضُ علماء الإحاثة: ثم ظهر الرجل العاقل منذ (٣٥٠٠٠-٤٠٠٠٠) سنة وقد قطع الشجر ونصب الفخاخ وصنع الأدوات[٨٩].

ونلاحظ هنا أن لغة علماء الإحاثة عن الهياكل المكتشفة لا تتعدى مرحلة الظن، فيعبرون عن رأيهم بـ(**يمكن أن تنتسب إلى...**)، أو (**بوسعنا أن نربطها بـ...**)، أو (**يبدو أنها كانت سبباً** في ولادة هذا الشكل أو ذاك من الأشكال الحالية)، ولكن ليس لديهم أية براهين قاطعة.

يقول (بختر) المؤيد الشديد لـ(داروين): "إذا تذكرنا أن ثلثي الأرض تحجبها البحار، وأن قسماً كبيراً من الباقي تغطيه الجبال العالية، عَلِمنا أنه تمنعنا عن البحث العلمي موانع طبيعية".

ونحن بدورنا نتساءل، هل هذا عذر علمي مقبول لفقد الحلقات المتوسطة بين الأنواع، بشكل يجعلنا نؤمن بنظريةٍ ما زالت موضع نقاش؟!.

إن ميزة الإنسان هي الوقوف على قدميه، والإمكانات الهائلة لليدين، واللغة الواضحة، وتطور مضطرد للفكر وعلم النفس، **وهذا لم يثبت عند أي من الأجداد المزعومين من القرود التي سكنت الأشجار**، وتميزت بأطراف علوية قوية وطويلة، ولا يستقيم هذا النوع من القرود إلا للدفاع عن نفسه.

حتى إن (توماس هكسلي Thomas Huxley) المتحمس لـ(داروين) قال: "إنه في التكوين الحالي على الأقل، **ليس ثمة كائن وسط يسد الثغرة التي تفرق الإنسان الحالي عن الإنسان ساكن الكهف**"[٩٠].

---

(٨٩) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية": دكتور (موريس بوكاي)، ص ٩٥-١٠٢.

(٩٠) "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية": دكتور (موريس بوكاي)، ص ١١٦.

وقال ب. ب. غراسيه: "لا يمكن إعادة تكوين حيوان في بعض بقاياه، ولا تُعَدُّ هذه البقايا هي جدٌّ للإنسان".

إنَّ (الفرضية الداروينية) **تفترض** وجود (حلقةٍ مفقودة) بين الإنسان والقرد، ومؤيدو (الفرضية الدروينية) **يفترضون** أنَّ هذه الحلقة **ربما** هي محجوبة بالبحار والجبال، ويطلبون منّا أن نؤمن بتلك **الفرضية** لكي نظهر بمظهر علمي حضاري خادع، ونرى أنَّ هذا هو أبعدُ ما يكون عن المنطقية العلمية الحضارية.

ونحن نستغرب قائلين: إذا كان علماء المستحاثات، يستندون إلى وجود بعض الأدوات أمام الهياكل كدليل على انتمائها إلى السلالة البشرية، فإن كثيراً من الحيوانات تستعمل الأدوات لأسباب غريزية، وليس نتيجةً لتفكير، كالصقر الذي يلقي بحجر لكسر البيضة الكبيرة، فهل نقول: إن الصقر هو من السلالة البشرية؟ والقرود تقلد أغلب أفعال الإنسان، إما لمكافأة أو لإرضاء النفس، فهل هذا دليل كافٍ على أنها من أجدادنا؟ لقد ظهرت أخيراً بعض الهياكل التي تنتمي إلى عصور قديمة جداً، ولكن لم يكن أي منها لصالح النظرية القائلة: إن السُّلالة القردية هي أصل السُّلالة البشرية.

نضيف قائلين: إن المثبتَ علمياً أن البشرَ المعاصرينَ كلَّهم خرجوا من آدم واحد، ولم يتكلم أحد على الإطلاق عن عدد محدد أو غير محدد لأصلِ البشر غير آدم الواحد، فكيف تفسر الداروينية أن قرداً واحداً فقط تحول إلى آدم واحد فقط، وامتنعت بقية القبيلة القردية عن التحول إلى أصل يُعدُّ منابع السلالة البشرية، أليس هذا نقضاً مبسطاً علمياً وواقعياً -لتلك الفرضية المزعومة- يفهمه كلُّ الناس؟!.

لذلك فإن فرضية أن الإنسان انحدر من القرود، فرضية مستحيلة الإثبات، وما زال المؤيدون يبحثون عن الحلقة المفقودة، ونقول لهم: لقد فاتكم قطار العلم وأنتم ما زلتم تبحثون.

تتساءل: كيف يفسر الداروينيون أن بعض الهياكل الحيوانية الضخمة المعقدة التركيب، كانت ضمن آثار يبلغ عمرها حوالي (٣٠٠) مليون سنة؟ بينما حسب فرضياتهم ينبغي أن تكون حيوانات ذلك العصر السَّحيق، من النوع البسيط جداً، كما أنَّ عدم دقة الوثائق الموجودة بين أيدي علماء المستحاثات، جعلهم يعيدون بناء هذا العلم من جديد بعيداً عن الداروينية، ولقد قال في ذلك (جان بيفيتو)[٩١]، في مقابلة معه: "**إن علم الإحاثة البشرية بجملته يُبنى حالياً خارجاً عن النظريات الداروينية**، وهذا لا يزيل أفضال (داروين)، غير أن الأشياء تغيرت منذ ذلك الحين، وحالياً يتم كل عملنا خارجاً عن النظريات الداروينية، وعن اللاماركية أيضاً".

لقد استطاع العلم حتى الآن أن يجيب عن بعض أسئلة (كيف؟) لكنه لم يستطع الإجابة عن (لماذا؟)، العلم يفسر ما يحدث الشيء، لكن لا يفسر لماذا يحدث؟ وذلك لأن الطبيعة أصلاً هي حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له، فقد قال:

أ- العالم الأمريكي (سيسيل): "إن الطبيعة لا تفسر شيئاً من الكون، بل هي نفسُها بحاجة إلى تفسير".

جـ- يقول بعض العلماء: "إنهم يؤمنون بالداروينية لأنها أكثر النظريات تفسيراً **لأغلب الحقائق**".

ونحن نقول: لو أنهم تفكروا قليلاً لرأوا أن التفسير الديني هو أكمل، ويفسر كل الحقائق، إن مشكلتهم أنهم يربطون الاستدلال العلمي بنتائجه، **فإن أيدتْ أمراً طبيعياً قبلوا به، وإن أيدتْ أمراً إلهياً رفضوه**، وحاولوا وضع العثرات في طريقه، **انتقاماً من رجال الكنيسة** الذين فرقوا بين العلم والدِّين، وليس رفضاً للإله.

(٩١) (جان بيفيتو Jean Piveteau): عالم إحاثة وتشريح مقارن من أكاديمية العلوم الفرنسية.

إذا كان الانتخاب الاصطناعي **يؤدي إلى تفرعات في النوع الواحد**، فهو حتماً لا يصلح دليلاً على ظهور أنواع جديدة من أصل واحد، حتى مع الداروينية المستبعدة، ولا يمكن أن يلغي هذا الانتخاب الاصطناعي الحاجةَ إلى وجودِ خالقٍ للكون، ومؤسس قوانينه الطبيعية التي يسير عليها.

إن العلوم التي استند عليها (داروين)، ومنها علم التشريح الذي يُقر تشابه الفقريات بكل أجزائها وأجهزتها، وعلم الأجنة الذي يقر التشابه بين كل الحيوانات في المراحل المبكرة، يمكن أن تستخدم على أنها إعجازٌ إلهيٌّ للخلق، إذ إنَّه على الرغم من كل هذه التشابهات الشكلية النظرية في بداية مراحل الحمل، فإننا نرى الاختلاف واضحاً بينها خلال النمو، وهو موجودٌ حتى بين أفراد النوع نفسه من المخلوقات.

٤-نظرة الأديان إلى الداروينية:

الفطرةُ تقول: إن الخالق إن وُجِد فهو كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، ومن صفاته أنه يعلم الغيب، أي إنه يعلم ماذا ستكشف العلوم في المستقبل القريب والبعيد، لذلك لن يُنزِّل كتباً، أو يُرسِل رسلاً تقول بما سيعارض أيّاً من حقائق الكون الثابتة، حتى التي مازالت مجهولة، وإلا فسوف يَضَعُ رسُله في مواقف محرجة، ولهذا فإذا اجتهد مفسِّرٌ وأخطأ في تفسير بعض الآيات، فليس هذا حجة على الدِّين نفسهِ، وإذا ذُكرت آية في كتاب ديني، وأثبت العلم مخالفتها للحقائق العلمية التي ترقى في ثبوتها إلى مستوى البدهيات، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن الخالق غير موجود، بل يدل على أن الكتاب ليس كتاب الله، أو على الأقل أن تلك الآية ليست من عند الله، بل هي من أصلٍ بَشري، فيكون ذلك الكتاب الديني مُحَرَّفاً.

الرأي المسيحي يُعبِّر عنه رجال الكنيسة بقولهم: إن آدم أغضب الله لأنه أكل من **شجرة المعرفة** (أي صار يعرف عن طريق غير مسموح به)، ويستدلون بذلك

على تحريم البحث عن مصدر للعلم غير المصدر الديني، لأن زيادة المعرفة تزيد المعصية، وقالوا زمن (داروين): إن الله خلق مختلف الأنواع الحية مباشرة، وبشكل منفصل كما هي عليه اليوم، ولم تكن قد تغيرت منذ بدء الخلق... **وهذا الاعتقاد هو سبب ذروة النزاع بين رجال الكنيسة والعلماء.**

مهما كان موقف (داروين) من الدِّين، فإن فرضيته نَمَّت الشكوك بـ(الكتاب المقدس)، وبصحة كونه كتاباً سماوياً، إذ إنه لو صحت فرضية التطور لوجب رفض قصة الخلق حسب التوراة المعاصرة[٩٢]، لذلك قاومت الكنيسة هذه الفرضية وعدَّتها خطراً على الدِّين.

كان (داروين) ما يزال مؤمناً بوجود الإله حينما ألَّف كتابه (أصل الأنواع)، بدلالة قوله:

أ - "إنني متردد في عقيدتي الدينية، لكن لم أكن منكراً لوجود الله".

ب- "إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت عن جرثومة الحياة التي خلقها الله".

لكنه تَغيَّرَ بعد التفسيرات اللاحقة المتزايدة لفرضيته من قِبل مؤيديه، والتساؤلات عن أصل الإنسان، وأعلن أسفه لاستعمال لفظ (الخَلْق)، وصرَّح:

أ - "بأن الحياة لغز من الألغاز، وأن ما في العالم **من ألم**[٩٣] يَعدُل بنا عن

---

(٩٢) إنَّ قصَّةَ الخلق حسب التوراة المعاصرة مشكوك فيها، حتى من وجهة نظر العلم خارجاً عن (فرضية داروين)... انظر الباب الثالث/الفصل الأول... رواية الخلق التوراتية.

(٩٣) إنَّ الله سخَّر كلَّ ما في الطبيعة لخير الإنسان ولتسهيل حياته ومهمته الأساسية في الأرض، فإن كان (داروين) يقصدُ ألمَ الإنسان الذي يُصيبه من الكوارث الطبيعية، فنقول: إن هذه الكوارثَ هي من التوازنات التي وضعها الله في الطبيعة أيضاً، وهي أحد أسلحته لتنبيه العاصين والساكتين عن المعصية والمهملين لنشرِ مطلوبِ الله منا، ولترشدهم إلى طريق الصواب وتنبههم أنَّ الله قدير جبار رحيم، وإن كان يقصد ألم الفريسة حين صيدها من الحيوانات المفترسة، فنقول: وما يدريك أن الله عندما سخرها لذلك لم يُزِل عنها الألم

القول بالعناية الإلهية، وأن مسألة الخلق خارجة عن نطاق العقل، ولكن بوسع الإنسان أن يؤدي واجبه"..!.

ب - "إن المشابهة والتعاقب وأسباباً غيرها تدعونا إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلهم واحد[٩٤]، ولا فاصِلَ جوهريَ بين عالم النبات والحيوان[٩٥]".

نلاحظ من القراءات المختلفة، تَعدُّدَ التصريحات عن إيمان (داروين) بالخالق، وعدم إيمانه، وكل باحث يأخذ ما يناسبه ليستشهد به، حتى أصبح إثباتُ إيمانِ (داروين) من عدمه في آخر حياته صعباً جداً لأنه قولٌ ضد قول.

وفي ذلك نقول: إن إيمان (داروين) لا يُثبِتُ وجود الله، وعدم إيمانه لا يلغي الوجود الإلهي، ولست أرى ضرورة لتعليق إيماننا بالله على نتيجة مناقشة إيمان (داروين).

الرأي الإسلامي (حسب علمي ومعرفتي) يقول: إن الله تعالى خلق من كل نوع زوجين اثنين، هما أصل الأنواع، ومثلها للكائنات النباتية، وخلق آدم وحواء خلقاً مباشراً، ولا يمانع الإسلام تطور الإنسان، وتغير شكله وحجمه، ولا يعارض الاصطفاء الطبيعي الذي يغير الصفات والصورة، دون أن يبحث في أسباب التطور إن كان طفرة (داروينية) مسبقة، أم ردة فعل (لاماركية) على ظروف

= لحظة اصطيادها، بدليل أنها تستسلم أول ما يُقبضُ عليها من مَقتَلِها، ونقول أيضاً: ما هذا إلا من التوازنات التي وضعها الله في الطبيعة لاستمرارها في خدمة الإنسان، وابدأ من أي طرفٍ تريد من الفرائس أو من الأمراض والأوبئة و...إلخ. فإنكَ ستقف فقط عند الألم الذي يسببه الإنسان لنفسه وللطبيعة ولأخيه الإنسان، لذلك كنا نود لو أنه قال: وإن ما في الطبيعة من توازنات يعدل بنا إلى القول بالعناية الإلهية بالإنسان...إلخ.

(٩٤) الأجدر بنا أن نَعُدَّ هذا دليلاً على قدرة الله التي تجعل الأصول متشابهة في مراحل الخلق الجنيني بشكل يصعب تمييزها، ثمَّ يخلق من كلِّ أصلٍ كائناً مختلفاً.

(٩٥) لماذا لم نسمع أن بعض النباتات عاقلة مريدة بالرغم من أنها وجِدَتْ في الكون قبل الإنسان بكثير، وكذلك الحيوانات، أليس تصريحاً مثل هذا هو ضَرْبٌ من الخروج عن المنطقية.

خارجية، ولكنه يرفض رفضاً باتاً أن هذا التطور يمكن أن يغير النوع، كأن يتحول الكلب إلى حصان، والحصانُ إلى جملٍ والقردُ إلى إنسان.

(يُقصد بالنوع الواحد **مجموعة الأفراد التي يمكن أن تتكاثر ذكورها مع إناثها، وتُنتج مواليد قابلة للتكاثر أيضاً**).

البحث الخامس: العالِم (أوبارين) ونشأة الحياة:

١- تمهيد

في بداية القرن العشرين، أخذ (الكسندر أوبارين) يروج فكرته حول نشأة الحياة على الأرض، بأنها **من أحوال المادة**، ووضع آراءه في كتاب سماه (نشأة الحياة على الأرض)، كان له تأثير كبير بين علماء الداروينية، لأنَّ الإيمان بنشأة الحياة حسب الأوبارينية، وتطورها حسب الداروينية، يُلغي قسماً كبيراً من الحاجة إلى خالق بالإرادة والقدرة، **لذلك سوف نعرض مختصراً لفكرته، ثم نناقشها.**

فرضية (أوبارين) تَعدُّ أنَّ الخلق مرَّ عبر سلسلة من المراحل، تتلخص في تحول المواد غير العضوية إلى مواد عضوية، ثم تطورها إلى بروتينات تتجمع وتنشئ البروتوبلازما الحيَّة، ومنها تنشأ الخلية الحية.

٢- نظرة ملخّصة على فرضية (أوبارين)(٩٦)

أ- تَحَوُّل المواد غير العضوية إلى مواد عضوية.

افترضَ أن النجوم الملتهبة، كانت تحتوي على ذرات، ثم **افترض** أنَّ هذه الذرات اتّحدت بعضها مع بعض، لتشكل عناصر مترابطة مع بعضها، بواسطة

(٩٦) "مبادئ علم البيولوجيا": (إيرينا كاروزينا)، ص ٤٢٧-٤٣٠، بتصرف.

اتحاد الكربون مع الهيدروجين والأكسجين، وكونت مواد كربوهيدراتية، ونتروجيناً، وفوسفوراً.

ب- تحول المواد العضوية إلى بروتينات

ثم افترض استمرار عمليات التفاعل الكيميائية والتركيب **إلى أن** يتكون البروتين، وهو مادة عضوية معقدة التركيب، إذ لكل كائن بروتيناته الخاصة به.

جـ- التجمعات

لاحظ أن وجود بروتينات مختلفة، في محلول واحد، يجعل بعض النقاط تنفصل وتشكل نوعاً متميزاً من (النقاط التجمعية)، التي لها القدرة على امتصاص المواد العضوية المذابة في المحلول، فيزداد حجمها ووزنها؛ وبناء على ذلك **افترض** (أوبارين) أنه بالطريقة نفسها، تكونت المواد البروتينية المعقدة في البحار الأُولى، **فكونت لنفسها** أنظمة مستقلة نشأت بداخلها علاقات كيميائية طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة، وتقوم بعملية التمثيل الضوئي.

د- نشأة البروتوبلازما الحية

لاحظَ ظهور كتلة رمادية هلامية من البروتينات المختلفة، والماء، ومواد عضوية، وأملاح معدنية، ويقول (أوبارين): **إنه ليس تجمعاً عشوائياً، بل إن الضرورة جعلته على قدر هائل من التنظيم والترتيب** لجزيئاته، التي تخضع لقوانين خاصة بها.

هـ- ظهور الخلية الحية

بظهور الكائنات الحية الأولى (البروتوبلازم)، **حدثت القفزة الكبرى** في تطور المادة من **اللاحياة إلى الحياة**، ثم أخذت تعيش على المواد العضوية الأخرى الموجودة في الماء، وبمرور الوقت قلّت الحياة العضوية، وكان على الكائنات، إما أن تفنى أو **تخلق لنفسها** طريقة لبناء العضوية المعقدة من المواد البسيطة المتاحة

لها، وحدث أن امتصت بعض الكائنات الطاقة من الشمس، ومن **ثم حدث أن نشأت** عملية التمثيل الضوئي، فظهرت وحيدات الخلية!.

في ذلك نقول: إن متابعة **فرضيات (أوبارين) الكثيرة وطفراته الأكثر**، تجبرنا على أن نتوقف عندها طويلاً:

- فهو يقر بالتنظيم والترتيب الهائلين في البروتوبلازما، ولكنه يسنده إلى الضرورة، وأخضعه لقوانين خاصة بالبروتوبلازم، دون أن يحاول مناقشة من أين جاءت هذه القوانين؟... وهو أيضاً يناقض مقولته الأولى "... بأنها من أحوال المادة..."، إذ كيف يجمع بين عدم العشوائية وبين أحوال المادة، بينما التنظيمُ والتدبيرُ الهائلين ليسا من أحوال المادة بتأييد الغالبية العظمى من المفكرين والعلماء.

- **ثم افترض حدوث القفزة الكبرى للمادة**، من اللاحياة إلى الحياة، مع أن كل تجاربه تبحث في إمكانية انتقال اللاحياة إلى الحياة وكيفيتها، وبدل الإثبات المخبري لهذا التحول نراه **يفترض** حدوث التغير، وينتهي إلى أن يفسره **بالقفزة الكبرى**، متناسياً أن كلَّ تجاربه هي بهدفِ تفسير هذه القفزة الكبرى علمياً وسبب حصولها، فحوَّل الهدف الرئيس إلى مرحلة افتراضية لفشله في تفسيرها، ثم قوله: **إن على البروتوبلازما أن تخلق لنفسها طريقة لبناء تركيبتها المعقدة وإلا فهي عرضة للفناء.**

من العجيب أنَّ عالماً بمستواه في علوم الدنيا، يقر إضافة إلى كلِّ افتراضاته غير المدعَّمة بحجة، "أنه على المادة أن تخلقَ لنفسها طريقة لبناء تركيبها"، إذن فقد أعطى للمادةِ الإرادة في الاختيار بين الفناء أو الاستمرار، وهذا ليس من أحوال المادة، **ثم يقرر بكل بساطة أنه حدث أن ابتدأت عملية التمثيل الضوئي**، دون أن يفسر لماذا حدثت؟.

- في العشرينيات من هذا القرن العشرين، بيَّنَ (أوبارين) بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة، بطرق صناعية، ليس ممكناً فحسب، بل سيحققه في القريب العاجل، وامتد هذا القريب العاجل حتى عام ١٩٥٩م، حينما أعلن في (المؤتمر الدولي للبحار) أن جميع محاولاته باءت بالفشل، **وقال معتذراً عن فشله:** "إن الظروف الطبيعية والكيميائية التي سادت على الأرض في معمل الطبيعة العظيم، والتي تمت فيها التفاعلات التي أدت إلى ظهور تلك الحياة، تختلف تماماً عن الظروف السائدة الآن، ومن ثم، من غير المحتمل -إن لم يكن مستحيلاً[٩٧]- أن تتم هذه العمليات نفسها في المعمل".

ولم يكن ينكر إمكانية حدوث الحياة في أماكن أخرى من الكون، **ثم انتقالها إلينا بطريقة ما.**

تساءل: هل نسي (أوبارين) أنه في المختبر يستطيع أن يوجد كل الظروف، التي يَفترِضُ وجودها في بداية الخلق؟

ونقول: أليس الأسهل أن نأخذ بالتفسير الإلهي للخلق، إذ يفسر لنا كل المراحل، ولا يتركنا خاضعين لفرضيات دلَّت كل التجارب على استحالة حصولها؟

لقد وضع (أوبارين) فرضيته ثم نقضها بنفسه بعد أكثر من ربع قرن، لكن الماديين مُصرُّون على حمل النصف الأول من الرواية الأوبارينية، والنصف الأول من الرواية الداروينية، علَّهم يصطادون بها ضحايا تعلم أنصاف الحقائق فقط، وتغريهم الأسماء الكبيرة، وتنقصهم شمولية المعرفة.

---

(٩٧) هذه الجملة المعترضة هي من أصل تصريح (أوبارين) نفسه.

البحث السادس: عودة إلى المجموعات الأساسية:

بعد أن ناقشنا المصادفة والطبيعة والخلق الذاتي، والجرثومة المهاجرة والحضارة المستوردة والداروينية والأوبارينية، وأُثْبِتَ لنا استحالة كل هذه الفرضيات، نعود بالنقاش عن خلق الكون إلى التقسيم الأساسي المفترض للوجود، وهو: **المجموعة الخالية، والمجموعة المتكاملة، والمجموعة الأزلية.**

١ – عودة إلى المجموعة الخالية:

التي تبيَّنَ من تعريفها أنها مجموعة لا صفة لها ولا شكل ولا تخلق شيئاً من نفسها، وليست مصدراً لأية حالة أخرى دون تدخلٍ خارجي عنها قادرٍ على الخلقِ من عَدَم.

إذن ينحصر النقاش -كما ذكرنا سابقاً- حول خلق الكون بين المجموعة المتكاملة والمجموعة الأزلية.

٢– عودة إلى المجموعة المتكاملة:

هي المجموعة التي تحتوي على:

أ– جميع عناصرِ الكونِ من جماد وحيوان ونبات.

ب– جميعِ صفاتِ تلكَ العناصرِ.

جـ – جميعِ القوانين التي تحكم تلك العناصر.

إنه من السهل إثبات أن كل هذه العناصر وصفاتها وقوانينها **محتاجة إلى غيرها متكاملة فيما بينها**، فالحرارة مثلاً، تحتاج إلى جسم لكي تظهر، والنبات يحتاج إلى ضوء لكي ينمو، والضوء يحتاج إلى مادة لينعكس عليها فيظهر، والحيوان يحتاج إلى الغذاء ليعيش، والجماد يحتاج إلى قوى خارجية لتحركه، فكل عنصر من هذه المجموعة يحتاج على الأقل لعنصر واحد خارج عن ذاته، كأن نقول إن الكتاب

يحتاج لمن يضعه في المكتبة، بينما الإنسان لا يحتاج لمن ينقله من مكان إلى آخر، فالحركة من صفاته، ولكنه يحتاج إلى الكتاب للقراءة، وإلى الأوكسجين للتنفس مثلاً...إلخ.

وبما أن المحتاج إلى غيره يستحيل أن يَخلق غيرَه أو يخلق نفسَه، أي لا يمكن لأي من عناصر المجموعةالمتكاملة (مجموعة المحتاجين) أن يخلق نفسه، بل يحتاج إلى من يخلقه، إذن لا بُدَّ من خالق له لا ينتمي إلى المجموعة المحتاجة، بل إلى مجموعة الخالقين الأزلية لاستحالة انتمائه إلى المجموعة الخالية، مع العلم أن بعض عناصر المجموعة المتكاملة، يمكن أن يخلق عنصراً آخر موجوداً معه في المجموعة نفسها، كالنجار الذي يخلق[98] (يشكِّلُ) الكرسي، والطائر الذي يخلق (يبني) العش، والشاعر الذي يخلق (يؤلفُ) القصيدة، ولكن أيا منهم لم يخلق (يوجِد من العدم) المادة الأولية التي استعملها لخلقه!

٣– عودة إلى المجموعة الأزلية:

وهي المجموعة التي كل عنصر فيها هو (خالق) موجود منذ الأزل، وباق إلى الأبد، قادر على الخلقِ من العدم، وهو في الوقت نفسه، خالقٌ غير محتاج إلى عنصر أو أكثر من عناصر المجموعة المتكاملة، أو عناصر مجموعته، لتنفيذ أي من رغباته، بل هو خالق كاملُ الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله يقوم بكل أعماله بذاته، كما يليقُ بالخالق.

إن لهذه المجموعة ثلاثة احتمالات لا غير:

- أن تكون متعددة العناصر (أكثر من خالق للكون).
- أن تكون وحيدة العنصر (خالق واحد للكون).

---

(٩٨) ليس بمعنى الخلقِ من العدم، لأنَّ الإنسان لا يخلق المادة الأولية، بل يخلق منها.

- أن تكون فارغة (لا خالق للكون).

لنفرض بداية أن هذه المجموعة متعددة العناصر، أي أكثر من خالق واحد واجبُ الوجود لذاته، وعلينا مناقشة إمكانية هذا الافتراض، حيث يوجدُ كثير من الناس يؤمنون بتعدد عناصر المجموعة الأزلية، فعندهم خالق للجمال، وآخر للقوة، وخالق للرزق وآخر للحب أو خالقٌ مفكرٌ وخالقٌ منفذٌ للخلق وخالقٌ مهدمٌ للخلق، أو إله أب وإله ابنٌ وإله روحُ القُدُس وهكذا...إلخ.

لتبسيط مناقشة التعددية نختار أي اثنين من الخالقين المفترضين لتمثيل التعددية الإلهية، فإذا صحَّت التثنية صحَّت التعددية، وإذا فشلت تكونُ المجموعة الأزلية إما مكونة من عنصر واحد فقط، أو فارغة، فنقول:

أ - إن وجود خالقَيْن اثنين، يعني:

- إما أنهما يتساويان في كلِّ الصفات فيتطابقان في خالقٍ واحدٍ، **فتسقط التعددية.**

- أو يعني وجود صفة واحدة على الأقل موجودة في واحد وغير متوافرة للخالق الآخر، وهذا ينفي صفة الإطلاق عن الخالق الآخر، وبذلك يدخل في إطلاق الأول فيسقط، ويبقى الأول، **فتسقط التعددية.**

- يقول قائل: ماذا لو أنَّ في **كل منهما** على الأقل صفة واحدة غير موجودة في الآخر؟

نقول بكل بساطة: إذن فكل منهما محتاج لغيره لتغطية هذه الصفة الغائبة، وهذا ينقلهما معاً إلى مجموعة المحتاجين، ولا نَعُدُّ أياً منهما كاملَ الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، فيسقطان معاً من الاعتبار، وعلينا متابعة البحث عن الحقيقة الكبرى، عن إله كاملِ الصفات.

ب- بما أن صفة الكمالِ والإطلاقِ تحيط ولا يُحاط بها، لذا فإما أن:

- تتطابق (الإطلاقات) في إطلاق واحد، فيكون الخالق واحد **وتسقط التعددية.**

- أو تدخل كل (الإطلاقات) الناقصة في الإطلاق الكامل **فتسقط التعددية.**

- أو تنتقل (الإطلاقات المحتاجة) إلى المجموعة المتكاملة، لأنَّ نقصها يجعلها محتاجة إلى غيرها **فتسقط التعددية.** ويبقى إطلاق واحد فقط ينطبق على الخالق الواحد، كاملِ الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله.

وهنا يقول بعض الناس: لماذا تصر على أنَّ الخالق يجب أن يكون كاملَ الصفاتِ مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله في كل المجالات؟ إن هذا الشرط يجعل مجموعة الخالقين، مكونةٌ من عنصر واحد تعريفاً، ولا داعي للمراوغة، وينادون **بالإطلاق الجزئي للخالق**، إذ يقول بعضهم **(بالتعددية المكانية)** للخالقين، أي لكل مجرة إله مطلق الصلاحيات في مجرته يصنع بها ما يريد، وبعضهم الآخر يقول **(بالتعددية التخصصية)** للآلهة ضمن الوجود كله، كإلهٍ مطلقٍ للحب في الكون كله، وإلهٍ مطلق للحركة في الكون كله، وإله مطلق للطقس في الكون كله وهكذا...إلخ. ويضيفون: إنه بهذا نُرضي الذين ينادون بالكمالِ والإطلاق، والذين ينادون بالتعددية ونَحُلُّ المشكلة.

لهؤلاء نقول: إنكم قد طرحتم أفكاراً تحتاج إلى مناقشة:

أ - **أما كمال الصفات فيُقصدُ** بها الصفات التوقيفية التي أطلقها الله على نفسه، **منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه**، ولا يحق لنا إطلاق صفات لم يَصِف الله بها نفسه، كأن نقول: إن الله (عاقل) حتى لو أن في كلِّ أفعاله ما يدل على أنه يضع الأمور في نصابها في كلِّ أمور الخلق بكيفية تليق به، وذلك لأن العقل يتطلبُ المقارنة بين شيئين واختيار الأصح منهما، وهذا الأمر يحتاج إلى زمن والله يتنزَّه عن الزمان، ويتنزَّه عن ضرورةِ تمايزِ الأشياء لحصول إرادة الاختيار.

ب- وأما عن إطلاق الإرادة دون ذكر "إطلاقاً يليق بكماله" نقول: إن عدم ذكرها أو ذكر ما يشابهها يمكن أن يؤدي إلى طرح أسئلة لا تليق بكمال صفات الله ولا بكمال إطلاق إرادته، مثل:

- هل يستطيع اللهُ أن يخلق وزناً لا يستطيع حمله؟
- هل يستطيع الله أن يخلق ذنباً لا يستطيع مغفرته؟
- هل يستطيع الله أن يخلق إلهاً مساوياً له؟

وأسئلة مماثلة كثيرةٌ يمكن طرحها، وهي لا تليق بكمال صفات الله ولا بإطلاق إرادته، وليس لها هدف إلا الجدلَ العقيمَ من أجل الجدل فقط.

جـ - أما في التعددية المكانية فنقول: إنها تعني أن هذا الخالق له حدود معينة ليس لمكان سيطرته فحسب، بل لصفاته ذاتها، **فهو لا يستطيع تغيير خط سير** مجرته إلى الاتجاه المعاكس مثلاً،... **ونتساءل:** وماذا لو تعارض خط سيره مع خط سير مجرة أخرى؟ فهو **سيحتاج** إلى عقد اجتماع مع إله المجرة الأخرى والاتفاق على المسارات، وهذه الحاجة تنقله إلى **مجموعة المحتاجين** المتكاملة، إذن فهو لا يستطيع أن يغير أي شيء لمجرته بإرادته المطلقة، وبما أنه لا (ديمقراطية) في الألوهية، والكون يسير وفق أنظمة شاملة ثابتة، إذن هذا الإله الذي نتكلم عنه **محدودُ الإرادة** حتى على مكان حكمه وليس مُطلَقها، ويبدو كأنه قد جرى تعيينه مديراً لهذه المجرة **المسبقة الخلق والقوانين**، من قِبَلِ خالق آخر، مطلق الإرادة على كل هذا الكون، بعد أن وضع له نظاماً واحداً دقيقاً معقداً، تسير عليه كل عناصره... فيكون هذا الخالق المطلق هو الخالق الواحد الذي نبحث عنه، كاملَ الصفات مطلقَ الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، وبما أن من كمال صفات الخالق أنه لا يحتاج لأحد، فإنه لا يحتاج الخالقُ مدير لمجرته، فيسقط (الخالق المدير)، **وتسقط تعددية الخالقين المكانية إلى وهمٍ لا صحة له.**

د - وأما في التعددية التخصصية للإله فنقول: إن إله الحب، وإله الرزق، وإله الحرب...إلخ. يجب أن يكون له مطلق الصلاحيات في مجال تخصصه، في الكون كله، وإلا ما كان إلهاً.

لمناقشة ذلك نبدأ بمناقشة التثنية التي جعلناها مقياساً للتعددية، ونضرب لذلك مثلاً مُبسَّطاً بين إله الحب وإله الرزق، حيث نفترض أن **إله الحب** أطلق إرادته على أحد الأشخاص، لتنفيذ أمر من أمور الحب، بينما أطلق **إله الرزق** على الشخص نفسِه إرادتَه بالذهاب بنفسه وبالوقت نفسه لتنفيذ أمر من أمور اختصاصه، وبِما أن هذا الشخص **يستطيع القيام بعمل واحد فقط في الوقت نفسه**، فإن الإله الذي ستتحققُ إرادتُه يكون هو الإله الأقوى إرادة، ويسقط بذلك الإله الآخر لعدم إطلاق إرادتِه حتى في مجال اختصاصه، ويبقى إله واحد أحاطت إرادته بإرادة الآخر، وهكذا نقوم بتصفية مع بقية الخالقين المفترضين، إلى أن يبقى إله خالق واحد، مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله تحيط إرادتُه إرادةَ كلٍّ الآلهة الأقل إرادة، ولا يحيطُ إرادتَه شيءٌ، وبذلك تسقط فرضية التعددية التخصصية إلى وهمٍ لا صحة له، ومن ثم التعددية بشكلها الأوسع، **وينتج عن ذلك أنَّ المجموعة الأزلية، تتكون من عنصر واحد فقط، هو الله كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، الفرد الصمد.**

نقول: لو تخلى الذين يؤيدون التعددية عن عنادهم، وصرفوا الوقت الذي يقضونه في معارضتهم، وسَخّروا عقولَهم الفذةَ، في إثبات وجود الله خالقاً ومدبراً للكون، لتوصلوا إلى نتائج موافقة للفطرة، مريحة للتفكير ومقنعة للعقل، ولَبرَزَ لهم البرهان واضحاً قوياً على وجود الخالق الواحد، كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله.

الفصل الثاني

مناقشة منطقية مع الماديين الملحدين

أولاً: خالق غير مخلوق

الملحدون وغير الملحدين يقولون: لقد اتفق الجميع على أن وجود مصنوع يقتضي **بالضرورة** وجودَ صانع، والعكس غيرُ مُلزم بالضرورة، بمعنى أن وجود آلة يقتضي بالضرورة وجود مصمِم، ولكن وجود مصمِم لا يقتضي **بالضرورة** وجود آلة.

وبناءً على البدهية بأن العدم لا يخلق شيئاً، وعلى أن وجود العالم حقيقةٌ لا شك فيها، نتساءل: من أوجد هذا العالم؟

وعندما يعجز الماديون عن إثبات فرضية أزلية المادة وفرضية الخلق الذاتي، وفرضية المصادفة وغيرها من الفرضيات، التي تبحث في سواد الليل عن مادة أكثر سواداً، فيتلعثمون ويتخبطون ويعيدون ما سبق أن ناقشناه، نراهم يلجؤون إلى سؤالهم التقليدي **بغرضِ التعجيز**، وهو: إذا كنتم تقولون: إن الخالقَ خلقَ الكونَ، فمن خلقَ الخالقَ؟

فيجيب الماديون على أنفسهم: حتماً خالقٌ آخرُ أكثرُ إطلاقاً.

ثم يتساءلون: ومَن خلق الآخر؟

فيجيبون أيضاً: لا بُدَّ أنه خالقٌ آخرُ أكثرُ إطلاقاً من الثاني، وهكذا تنشأ سلسلة من خالقين مخلوقين، وظيفة أحدهم هي خلق الخالق التالي، ويقولون:

إنها سلسلة لانهائية، لا نصل بها إلى خالق لامتناهي الإطلاق كامل الصفات مطلق الإرادة بشكل يليق بكماله كالذي تنادون به، خَلَقَ ولم يُخلَق.

في هذا نقول: إذا قبلنا معكم جدلاً وجود السلسلة التي تفترضونها، فإنها لا بُدَّ أن تنتهي إلى خالق خَلَقَ ولم يُخلَق؛ أي يحمل صفات السابق -الخالق- وليست فيه صفات المسبوق -المخلوق- **وإلا لكانت السلسلة المفترضةُ غير متوازنةٍ**، ومخالفة للبدهية سابقة الذكر، ولتسهيل الأمر نفترض السلسلة التالية، ولنتابع شرحها خطوة خطوة مع المخطط التوضيحي المرفق:

نفترض سلسلة من الوحدات تحمل كلُّ وحدة منها صفات المسبوق لسابقٍ في الوحدة التي قَبلُ، وتحمل في الوقت نفسهِ صفاتِ السابق لمسبوق في الوحدة التي بَعد.

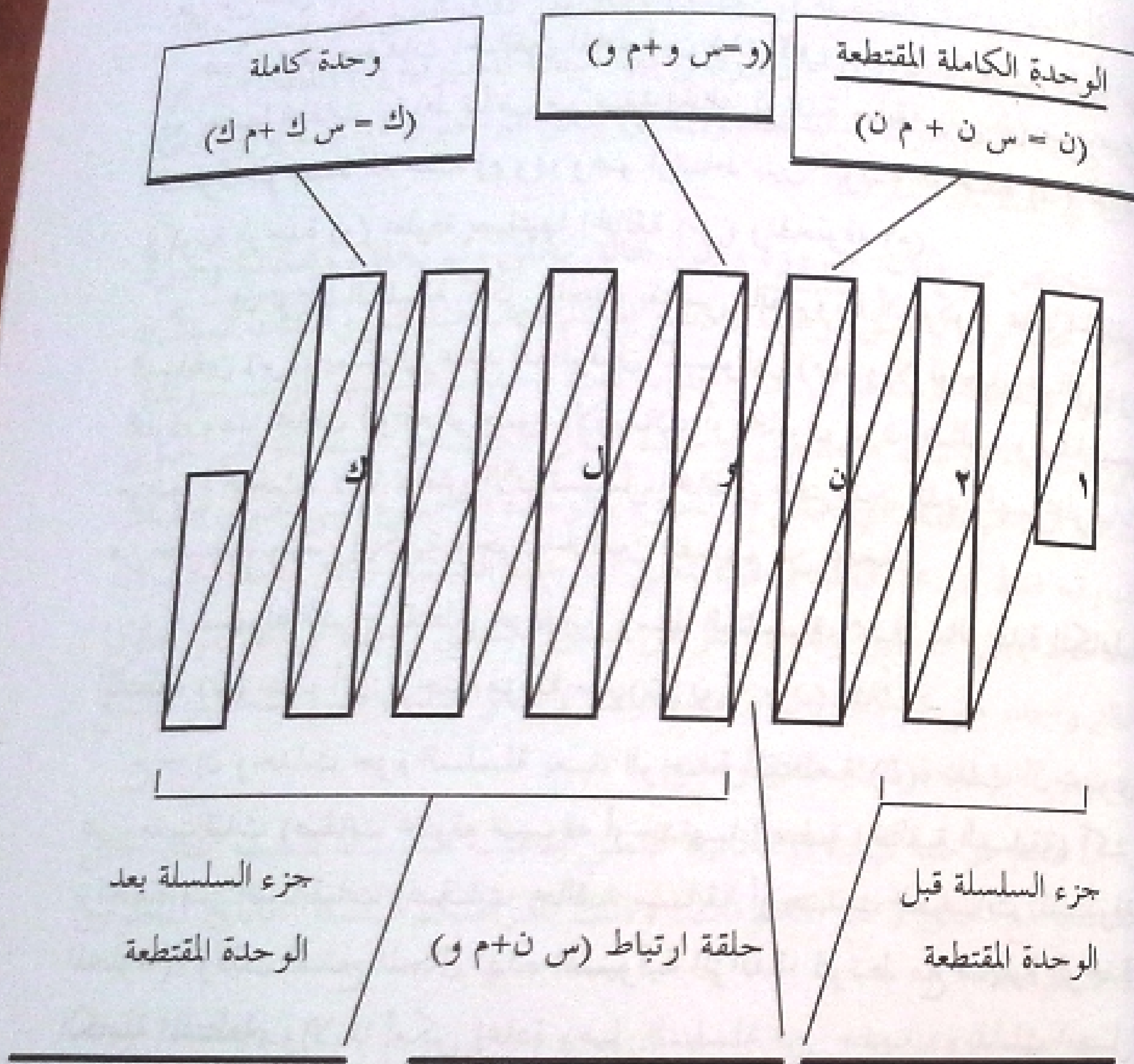
إنه حسب افتراضكم، يلزم أن كل وحدة لا بُدَّ أنها تحمل صفة السابقية، والمسبوقية، (أي صفات الخالق وصفات المخلوق) في آنٍ واحد، ومن ذلك تستنتجون أنَّ السلسلة لانهائية.

ونقول:

أ - إن لكل مخلوق خالقاً بالضرورة (كالمصنوعات بعد الصنع)، ولكل خالق مخلوقٌ **بالإمكان** (كالمهندس قبل التصميم، والخالق قبل الخلق...).

ب - إذا ابتدأنا بالسلسلة من حاضرنا هذا، وأخذنا الإنسان ممثلاً لكل المخلوقات لأنه أذكاها وأعقلها ومميَّزٌ بصفةِ الإرادةِ، ونحن نعلم أن الإنسان يمثل وحدة تحمل صفات المخلوق فقط، وليس لديه صفات الخالق بالمعنى المفهوم [مع أنه يخلق (يصنع) أشياء ليس لها صفات الخالق؛ كالكرسي والسيارة والكمبيوتر ...إلخ. دون أن يخلق المادة الأولية نفسها من العدم]، وعنده تنتهي السلسلة من الطرف الحاضر، والكل متفق على أن لهذا المخلوق خالقاً حسب الافتراض الذي وافقتم عليه.

(انظر المخطط التالي):



جـ - الخالق (ك أو ن...) المتفق عليه هو خالق لغيره ومخلوق من غيره، أي يحمل صفات الخالق والمخلوق [صفات السابق (س) والمسبوق (م)] أو بتعبير آخر [الصفة التي تخلق (س) من الخالق + الصفة المخلوقة (م) من الخالق] ونسميه هنا وحدة كاملة ك (س ك + م ك) للخالق (ك) أو (س ن + م ن) للخالق ن.

د – إن كل وحدة كاملة بسابقيتها ومسبوقيتها [سابق (س) + مسبوق (م)] هي من خلق صفة الخالق للوحدة التي قبلها.

هـ – ترتبط وحدات الخالقين المخلوقين (١، ٢، . . .، ن، و، ل، ...، ك...) مع بعضها بحلقات ارتباط تتألف من صفة الخالق لوحدة سابقة (س ن) مع صفة المخلوق للوحدة اللاحقة (م و)، وهو ارتباط بين كونية الوحدة (ن) خالقة وكونية الوحدة (و) مخلوقة بصفتيها الخالقة (س) والمخلوقة (م).

و – إن توازن السلسلة ككُلٍ واحد، يقتضي بالضرورة أن يكون عدد الخالقين السابقين (س)، يساوي عدد المخلوقين المسبوقين (م)، وإلا لوجد خالق دون مخلوق وهذا مخالف للواقع لوجود الإنسان، أو مخلوق دون خالق، وهذا ليس موضوع البحث، لأننا نناقش الآن تسلسل الخالقين المفترضين الذين لهم مخلوقات من جنسهم، وليس إمكانية وجود الخالقين أنفسهم من عدمه.

ز – لسهولة الشرحِ نقتطع جزءاً من وسط السلسلة، ممثلاً **بالوحدة الكاملة المقتطعة (ن)** مثلاً، أي: وحدة مؤلفة من (س ن + م ن) مثلاً.

ح – إن وحدات جزء السلسلة بعد الوحدة المقتطعة (ن)، يجب أن يحتوي على مسبوقيات (صفات مخلوقه مسبوقه أوجدتها الصفة الخالقة السابقة) أكثر بواحدة من السابقيات (صفات خالقة سابقة أوجدت الصفات المسبوقة المخلوقة)، وذلك لفسح المجال لهذه **المسبوقية الزائدة**؛ لترتبط مع **سابقية الوحدة الكاملة المقتطعة**، وإلا لما أمكن إعادة وصل السلسلة من جديد، وبذلك نحصل على **وحدة كاملة**، فيها صفة المسبوقية (م) (المخلوقية، التي خُلِقت من غيرها)، وليس فيها صفة السابقية (س) (الخالقية، التي تخلق غيرها)، أي صفة المخلوق الذي لا يَخلِق وهو الإنسانُ آخرُ وحدة كاملة في السلسلة المفترضة.

ط – وبالمثل إن وحدات جزء السلسلة قبل الوحدة المقتطعة (ن)، يجب أن يحتوي على سابقيات (خالقين) أكثر بواحد من المسبوقيات (المخلوقات)، وذلك

لفسح المجال لهذه السابقية الزائدة لترتبط مع مسبوقية حلقة الوحدة المقتطعة، وإلا لما أمكن وصل السلسلة من جديد، وبناء على ذلك نحصل على وحدة كاملة فيها صفة السابقية (س) (الخالق) وليس فيها صفة المسبوقية (م) (المخلوق)، أي فيها كونية الخالق دون كونية المخلوق، أي خالق غير مخلوق هو اللهُ أولُ وحدة كاملة في السلسلة المفترضة.

نستخلص من ذلك، **ضرورة وجود خالق يَخلُقُ ولم يُخلَقْ، وإمكانية وجود مخلوق خُلِقَ ولم يَخلُق**، وهذا لا يمنع إمكانية حذف كل وحدات السلسلة الداخلية (الخالقة المخلوقة في آن واحد)، كما يَحذِفُ السالبُ الموجبَ، وتمثل باقي السلسلة بارتباط واحد بين الوحدة الأولى الكاملة في السلسلة التي تحوي صفات السابقية فقط أي خالقٌ لم يُخلَقْ، والوحدة الأخيرة التي تحوي صفات المسبوقية فقط أي مخلوقٌ لم يَخلق، بمعنى أننا بدَّلنا السلسلة بخالق واحد ومخلوق، وهنا فقط يمكن أن نقبل وجود أكثر من مسبوق لسابق واحد، أو أكثر من مخلوق لخالق واحد، مثل قبولنا وجودَ عدةِ أولاد لأب واحد، وعدةِ منتجاتٍ لمصنعٍ واحدٍ، وكافةِ المخلوقاتِ لخالقٍ واحدٍ.

إنَّ عدمَ طرحنا لهذه الإمكانية ضمن مناقشة السلسلة نفسها كان لحل مشكلتنا مع الخالق لا مع المخلوقات، وذلك بافتراضكم سلسلة الخالقين المخلوقين اللامتناهية.

(إن القارئ الذي تعود استعمال لفظ العلةِ والمعلول، أو السَّببِ والمسَبَّبِ، يمكنه استخدام كلمةِ العلةِ أو السَّببِ أو المؤثر بدل السابقية، وكلمة المعلولِ أو المسَبَّبِ أو الأثرِ بدل المسبوقيةِ).

يتبادر إلى الذهن، أنَّ مَنْ يسأل: مَنْ خَلَقَ الخالقَ؟ كأنما يريد أن تسري القوانين على خالق القوانين، وهذا شرطٌ لا يجري حتى في حدود عالمنا البشري، فالنجار ينام والباب لا ينام، للمهندس رغبات وشهوات لا تتوافر في الآلات التي هي من

خلقه، فإن للخالقِ صفاتٌ وللمخلوقاتِ صفاتٌ أخرى، ولكلٍ خصائصه، فكيف نطالب بتطبيق صفات المخلوقات على الخالق؟!.

يقول أحدهم: بهذا توصلنا حتى الآن إلى أن المجموعة الأزلية، لا يمكن أن يمثلها أكثر من عنصر واحد، كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله غير محتاج، **فكيف تُثبتُ لي أن هذا العنصر الوحيد (الخالق) موجودٌ أصلاً،** وأن المجموعة الأزلية (مجموعة الخالقين) **لا تتطابق مع المجموعة الخالية؟!.**

فنقول: **إنه يستحيل إثبات وجود الخالق إثباتاً مِخبرياً، فالخالق ليس مادة قابلة لإجراء التجارب عليها،** كما أن الإثباتات الفلسفية المنطقية، يمكن أن توصلنا إلى جدلية لا تنتهي، لكن بالاستدلالات الفطرية والعقلية العلمية، التي ترتكز على حقائق علمية ثابتة دائمة، لا على افتراضات وهمية، يمكن أن نستدلَ على وجود الخالق بصفته عنصراً وحيداً في المجموعة الأزلية، مع الحذر بأن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتَي العلم القاطعتين، لأنهما تابعتان لدقة الآلات المستعملة في التجارب.

ثانياً: الإرادة أم الضرورة في الخلق:

فنقول له تعال نستعرض ما يلي:

سبق أن قلنا: إنَّ **الإلهين الطبيعيين يقولون:** إن المادة قديمة متساوية مع الله بالزمان، والله لم يخلقها، بل خلق منها.

وإن **الماديين** يقولون: إن المادة هي أساس الكون وهي أزلية أبدية، وما الله إلا من اختراع الإنسان ومن تصوراته العقلية!..

من هذا نرى أنه للإجابة على السؤال علينا التركيز في المناقشة، على إمكانية قِدَمِ المادة أم ضرورة حدوثها، فإذا استطعنا إثبات أن المجموعة المتكاملة لها بداية لم تكن قبلها موجودة؛ فنستدل بذلك استدلالاً قطعياً على وجود من أوجد هذه البداية لأنها لم تكن ثم كانت، وذاك هو خالقها في

مكانها الحالي، أو هو ناقلها من مكان آخر إلى مكان وجودها الحالي في الكون، ثم منحها الحركة الأولى، فإذا كان هو ناقلها فقط، فإن هذا يستوجبُ وجودَ من أصدرَ أمر النقل، فيكون هو الخالق الذي نبحث عنه، ونترك **(الخالق الناقل)** ونبحث عن **(الخالق الآمر)**، فإذا حصل أمر النقل بإرادة منه؛ فإما أن تكون هذه الإرادة ممنوحة أو ذاتية، فإذا كانت الإرادة ممنوحة، فنترك **(الخالق الممنوح الإرادة)** ونبحث عن **(الخالق الآمر مانح الإرادة)**، أما إذا كانت هذه الإرادة ذاتية، **فلا بُدَّ أن تكون مطلقة إطلاقاً يليق بكمال الخالقِ وتحتوي إرادة الخلق من العدم،** إذن لا داعي لادعاء نقل المادة الأساسية للكون، وذلك لإمكانية خلقها في مكانها الحالي، ونُقِرُّ بالخلق المباشر للمجموعة المتكاملة، وبأن الخالقَ واحدٌ، فردٌ صمدٌ، كاملُ الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، يشكل لوحده المجموعة الأزلية.

يمكن لبعض الطبيعيين أن يقولوا: مالك تنكر قدم المادة، وقد وضعتها ببرهان الارتباط في حلقة واحدة مع الله القديم؟

لهؤلاء نقول: إن حلقة الارتباط، لا تمنع التراخي[٩٩] الزمني في تطبيق وتفعيل إرادة الخالق القديمة بالخلق.

---

(٩٩) التراخي: يُقصَدُ به المسافة الزمنية مجهولة الماهية بين إرادة الله بالخلق وبين تنفيذ الإرادة بأمر "كن" لبداية الخلق من العدم وبداية الزمان الكوني، وهما قطبا التراخي، مع العلم بأنه لا يصحُ الكلام على الزمان في العدم بتصورنا البشري، لأن العدم ليس له صفة ولا شكل ولا يخضع للقياس الزمني، وهذه التسمية اعتمدت لتسهيل نقل فكرة التراخي بين إرادة الخلق وبين تنفيذها، حيث لا يصحُ أن نقول:

- إنَّ إرادة الخلق كانت عند تنفيذ الخلق فقط، لأننا سنضطر للإجابة على سؤال: ماذا حدث على الخالق حتى أراد الخلق حين نفَّذ الخلق؟ وعندها لن يكون لدينا جوابٌ مقنعٌ، لأن الله لا يقبلُ الحوادث عليه، مما يحتم الإرادة الإلهية الأزلية في الخلق.
- إنَّ تنفيذ الخلق حصل عند الإرادة القديمة دون تراخٍ في التنفيذ، لأننا سنضطر لقبول أزلية المادة، وهذا مرفوض من كل الجوانب لأنه سينفي الإرادة في الخلق ويؤكد الطبع فيه.

للأسباب المذكورة اضطررنا لاستخدام تعبير التراخي الزمني.

وتابع قائلين: العالم موجود **بالاتفاق**، وكل موجود له مؤثر بالضرورة، وهذا المؤثر إما أن يكون أزلياً أو حادثاً، وكونه حادثاً لا يصح؛ لأنه سيحتاج إلى مؤثر يحدثه، إذن إن المؤثر (السابقَ أو العلةَ أو السَّبَبَ أو الخالقَ) قديمٌ أزلي.

فيقول **الإلهيون الطبيعيون**: إما أن هذا المؤثر القديم لا أثر له أبداً، ويكون العالم ممتنع الوجود، أو يكون للمؤثر أثر قديم قِدم المؤثر، وبما أن الأثرَ موجودٌ اتفاقاً واقعاً، لذلك فالمادة قديمة لم يخلقها الله بل قام بصنع العالم منها، ليس كما يصنع النجار الباب بل بمعنى أنه هو العلة الفاعلة، والمصورة، والغائية فقط، وليس هو علته المادية[١٠٠] (أي لم يخلق المادة نفسَها)، وتَقدمُ الله على العالَم هو تقدمُ بالذات والرتبة لا بالزمان كتقدم الشيء على ظله، وتقدم حركة اليد على حركة الماء.

ويقولون أيضاً: بما أنه ليس للشيء إرادة في ظله، ولا للنار في إحراقها، لأن ذلك من صفات الأشياء أصلاً، إذن كذلك لا إرادة لله في خلقه، بل هو من طبعه وصفاته أنه الصانعُ الخالق، ومن ذلك يستنتجون أن الله لا إرادة له، وما يحدث عنه إنما يحدث بالضرورة والطبع والصفات، لا بالإرادة والقدرة ويستدلون على ذلك بقولهم: إن أحوال الله القديم متشابهة، فإذا لم يصدر عنه وجودُ عالمٍ قديمٍ مثلُه ومعه، بل حدث بعد فترة عدم!، عندها يتوجب على المؤمنين الإجابة عن السؤال الآتي: ما المُرجِّح الذي رجَّح الوجود في الوقت الذي وجد فيه، ومن الذي أحدث الترجيح؟!.

ويتابع الطبيعيون قائلين: بما أنه لا يجوز افتراض حادث حدث على القديم (الله) لترجيح الوجود على استمرار العدم، إذ بذلك يكون بعضُ الله -الذي وقع عليه الحادث- حادثاً، وهذا يتنافى مع كمال صفاته وإطلاق إرادتِه إطلاقاً يليق به، فيقولون: لا بُدَّ إذن من أن يكون الوجود والزمان قديمَيْن مع الله.

---

(١٠٠) عِلَل (أرسطو) الأربعة، انظر الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث.

لهؤلاء جميعاً نقول: ما إثباتكم أن الوجود لم يحصل بإرادة قديمة، اختار الخالق فيها الوقت المناسب للتنفيذ؟

فإذا كان احتمال التنفيذ العاجل (العالم قديم)، واحتمال التنفيذ الآجل (العالم بعد فترة عدم أو تراخي زمني)، يشكلان احتمالين متماثلين، أليس من الصفات الإلهية تمييز الشيء من مثله؟ وأنه من الخطأ مقارنة إرادة الإنسان بالاختيار بين المتماثلين مع إرادة الله، مع العلم بأن الأشياء التي تبدو للإنسان متماثلة تماماً، فإنها لن تكون متماثلة في المكان على الأقل، لأن كل شيء موجود في مكان مختلف!.

للتوضيح نقول: هناك كأسان متماثلتان فيهما ماء، وضعتا بشكل لا يجعل المكان هو المرجح للاختيار، (أقرب أو أبعد من العطشان) وقلنا للعطشان اختر إحدى الكأسين -**إذا استطعت التمييز بينهما**- فلن يستطيع الاختيار وسيكون اختياره بين الاحتمالات دون مُرجِّح بل بالمصادفة، **أما الاختيار الإلهي فيتم بالإرادة**.

إذا كان المعلول (الإنسان) يستطيع إرادة شيء في زمان ما، على أن ينفذه في زمان لاحق، كأن يقرر في الشتاء موعد إجازته الصيفية ومكانها، فلِمَ يُنكر الإلهيون الطبيعيون على علة الوجود هذه الإمكانية، ما الذي يمنع قبول أن الذات الإلهية، أرادت منذ القدم خلق العالم، على أن تُنفَّذ هذه الإرادة، بعد فترة تراخٍ زمني نجهل ماهيتها ومقياسها، فصدرت الإرادة الإلهية لِخَلق العالم، ولِوَضْعِ نظامِه الثابت، الذي لاحظه الإنسان وجعله مقياساً لزمانه، قاس به حركة الأشياء لغرضه هو، ثم يطالبُ اللهَ أن يستعمل الزمن نفسه لتحديد بداية تَنفيذِ الإرادة القديمة في الوقت الذي نُفِّذَت به.

في ذلك نقول: إنه **لا مجال لرفض مفهوم التراخي الزمني، بين اكتمال**

الإرادة ووقت تنفيذها، ويمكن إدراك حدوث العالم بإرادة قديمة، وتنفيذٍ لاحقٍ دون أن يطرأ حادثٌ على المريد لتنفيذ الممكن، **فتسقطُ أزلية المادة وأبديتها.**

ـ لِمَ لا نتصوَّرُ ما يلي فتُحَلَّ جميعُ مشاكلنا (ولله المثل الأعلى):

أمر الله القلمَ أن يرسمَ مخططاً كاملاً لخلقه لهذا الكون، وأن يكتب كلَّ ما فيه من تراخٍ زمني، ومراحلِ تطور، وسَجَّل القلمُ كل أوامر الله لتسيير الكون وعلمه المستقبلي عنه في لوحٍ سمَّاه "اللوح المحفوظ" لا يطَّلع عليه إلا الله، ولا يعلم ما كُتِبَ فيه للمخلوقات إلا هو، وما كلمة (كُنْ) الإلهية إلا أمرُ الله لأحداثِ الكون أنْ تبدأ، وهذا يوافقُ الفلاسفة والعلماء القائلين: إن الله أعطى كلمة (كُنْ)، ثم أخذَ يراقب تنفيذَ أحداثِ "اللوح المحفوظ" حسب القوانين الثابتة، ويوافقُ الإلهيينَ القائلين بالإرادة والمشيئة الإلهية في متابعة أحداثِ الخلقِ، لأن الله يعلم أنه في الوقت المناسب سوف يتدخل هو ليجعل النار لا تحرق إبراهيم، والحوت لا يهضم يونس.

وإذا قال أحدهم: إن إصدار الأوامر للإرادة يحدُّ من إطلاقها، وهذا غير مقبول عن الإرادة الإلهية.

فنقول: وما يمنع أن الصفات الإلهية التي منها الإرادة، والقوة، والحكمة، والرأفة، و... ...إلخ بالإضافة للذات الإلهية، وأنه لا يَصدُرُ أمرٌ عن الذات الإلهية، إلا فيه جميعُ الصِّفاتِ الإلهية، فتكون الأوامر الصادرة للإرادة الإلهية، إنما هي صادرة عن الإرادة نفسِها وعن الرأفة والحكمة و... و... إلخ، من ذلك تحريمُ الله الظلمَ على نفسه مثلاً، وهذا لا يمنع إطلاق الإرادة بشكل يليق بالخالق، ولا يَلزَمُ الله ضرورةَ حصول الفعل عند تمام شروطه، وتأخر المقصود ليس لمانع في قدرة القديم (الله) بل لإرادة قديمة تتضمن التأخير في التنفيذ، **وبذلك يكون رفض التراخي ليس له مبرر ولا برهان.**

وأما قولهم عن **قدم الزمان**، وكونه غير حادثٍ بل متساوٍ مع الله في القِدم كما يقولون، أي إنهم يصرون على أنه لا يمكننا قول: "كان الله ولا زمان"، بل دائماً علينا أن نقول: "كان الله والزمان"، وحيث أن إثبات قدم الزمان يعني عند الماديين والإلهيين الطبيعيين قدم الحركة التي يقاس بها، وبالتالي قدم المادة المتحركة، أي إن الله لم يخلقها.

لهؤلاء نقول: إن ربطكم للزمن مع الحركة ومع قِدَمِ المتحرِّكِ، هو من وحي ما تعايشونه وتتصورونه من أشياء حياتكم، ولا لزوم ولا ضرورة لربطِ الزمن مَعَ وجود حركةٍ ولا مع وجود متحركٍ، لأن الله لا يخضع لقياسات الزمان ولا يحتاج لوحدات قياس لتنفيذ إرادته.

إن تصورات البشر مهما توسعت فلن تحيط بقدرة الله، لأنَّ أدوات المعرفة لدينا محدودة مهما اتسعت، ويستحيل وصف ما عند الله غير المحدود بما عندنا من محدود، فإنه ليس كمثله شيء، فكيف تطلبون تصور الله؟.

لتوضيح الفكرة أكثر نورد المناقشة الآتية:

لنفرض أننا ابتدأنا من اللانهاية، وقطعنا أقصى (مسافة زمنية) يمكننا تصورها، بعدها نتساءل: هل قطعنا ربع المسافة من بداية فترة التراخي إلى الحاضر، أم نصفها، أم ثلاثة أرباعها؟... سيقول الذين يعلمون: "إننا مهما سِرنا فلن نبلغ الحد الفاصل بين النهاية واللانهاية".

وإذا نظرنا إلى الموضوع من جهة الحاضر، حيث إننا الآن في واقع ملموس متفق عليه، ولنتساءل كيف وصلنا إذن إلى الحاضر؟ فيجيبُ الذين يعلمون: إن هذا لا يحدث، إلا إذا انطلقنا من مسافة زمنية نهائية، لها نقطة ابتداء، هي بداية خلق الكون، فالزمان إذن ليس قديماً بل حادث له بداية!... إذن نستطيع القول: "كان الله ولا زمان ولا عالَم، ثم كان ومعه العالَم"، فالعالَمُ إذن معلولُه المخلوقُ بأمره.

من هذا كله نرى أنه: **لا العالَمُ قديمٌ، ولا الزمانُ قديمٌ، فهما حادثان** بإرادة قديمة مطلقة **نُفِّذت بعد تراخٍ معين –نجهل ماهيته– في الوقت الذي** اختاره الله، **وبإرادة لا يُعجزها تقديرُ لحظة خلق المعلول بغير طريقة قياس البشر** الزمنية.

إذا قالوا: نوافقك أن العالم الحالي حادثٌ، والزمانَ حادثٌ، وكله بعد أمر (كُنْ) الإلهي، ولكننا لا نوافقك أن المادة المصمتة التي هي أصل هذا الكون، هي من خلق الله، بل نقول: إن الله وجد المادة ولم يخلقها، بل صنع منها العالم بأمر (كن)، وإن هذه المادة متساوية مع الله بالزمان، أي نقول: "كان الله وكانت المادة"، ولم تكن هناك أبداً حالة ينطبق عليها القول: "كان الله ولم تكن المادة، ثم كانت بعد أمر (كن) الإلهي"، لأن العلم أثبتَ أن المادة يمكن أن تكون بلا حركة داخلية ولا ذرات (انظر "نظرية الثقوب السوداء" من هذا الفصل)، **فهل يمكنك إثبات أن المادة ممكنة الوجود؟ أي لم تكن ثم كانت.**

- لمثل هؤلاء نقول: سنعيد عليكم ما قلناه في الزمان فلا تَملُّوا منا: لنفترض وجود هذه المادة المصمتة، في اللانهاية (الزمنية)، لافتراضكم تساويها مع الله في الزمان كما تقولون!. فإذا كانت هذه المادة المصمتة تجري في الفضاء كوحدة متكاملة، فلها مسافة، وزمن –وإن كانا ليسا كزماننا ومسافاتنا– ولنُسمِّها وحدات زمنية مجهولة الماهية، ووحدات مسافة مجهولة الماهية، فلا بُدَّ من فترة زمانية مجهولة الماهية مرت عليها إلى أن حصلت نقطة بداية صفر الزمان الكوني، الذي نُعرِّفُه بـ(كن).

لنفترض أننا بدأنا السير من اللانهاية، حيث المادة المصمتة –حسب افتراضكم– وقطعنا مسافة زمنية تبلغ أقصى عددٍ يمكننا تصوره من الوحدات الزمنية مجهولة الماهية، ثم تساءلنا: كَم قطعنا من المسافة باتجاه نقطة صفر الزمان الكوني (أمر كن الإلهي)؟ فيجيب الذين يعلمون: إننا مهما سرنا فلن نبلغ الحد الفاصل بين اللانهاية والنهاية حسب مفهومنا.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من نقطة صفر الزمان الكوني (كن)، التي تمثل واقعاً ملموساً –إذ إنها هي الحاضر الذي نعيش فيه منقوص منه عدد تقريبي نهائي من مليارات السنين هو عمر الكون المفترض– وبدأنا السير من نقطة صفر الزمان والمكان متراجعين في عمق المكان باتجاه اللانهاية، وفق وحدات زمان ومسافة مجهولة الماهية، فلن نصل إلى اللانهاية حيث توجد المادة المصمتة –حسب افتراضكم–، وبما أنكم توافقون أن هذه المادة المصمتة، وصلت إلى مرحلة الحركة بعد (كُنْ)؛ فنسألكم: كيف وصلت من اللانهاية إلى نقطة بداية الحركة؟

فيجيب الذين يعلمون: **لا بُدَّ أنها لم تكن في اللانهاية الزمانية (بداية مرحلة التراخي) متساوية مع الله، بل ابتدأت من مسافة زمنية ومكانية نهائية، لها** نقطة ابتداء، **(نهاية مرحلة التراخي) هي لحظة خلقِ المادة في الوقت الذي خُلِقت فيه، ثم حدث فعل (كن)، أي إنه كان وقت يمكننا القول عنه: كان الله ولم تكن فيه هذه المادة المصمتة، إذن الله هو خالقها ومصورها.**

فإن قالوا: ولماذا لا نقوم بالرحلة نفسها، نطبقها على الله فيكون لله بداية أيضاً، وقبلها لم يكن الله؟. أي كان وقتٌ يمكننا القول عنه: كان العدمُ ولم يكن الله، ثم كان العدم وكان الله.

نقول: إننا اتفقنا على أن مقاييس المادة لا تنطبق على الله، وإلا لتساءلنا: **لماذا لم يقل أحد وجَدَتِ المادةُ اللهَ فخلقت منه الكونَ؟ بل قيل وَجَدَ اللهُ المادةَ فخَلَقَ منها الكون.**

ونقول: بما أنَّ أحداً لم يَدَّعِ خلقَ الكون غير الله، فله حق التملك حتى يظهر مُدَّعٍ آخر، يُدَعِّمُ أقواله بإثباتات دامغة، وحتى ذلك الوقت علينا أن نقول: إنَّ الله خلقَ المادةَ وخلقَ منها الكونَ وشكَّلَهُ بفعلِ "كُن"، وإنَّ ما يُطَبَّقُ على المادة لا يلزمُ تطبيقُه على الله.

ونتابع قائلين: أما عن قولك "كان العدم ولم يكن الله ثم كان" فإنك بذلك

تخالف بدهية كنتَ قد وافقتَ عليها، وهي أن العدم لا يستطيع أن يَخلُقَ شيئاً من نفسه بنفسه، إذ لا صفة له إطلاقاً ولا نفس، فكيف نمنحه صفة الخلق؟

اعتباراً من الآن علينا الاتفاق أنه عندما يصل النقاش إلى الذات الإلهية، يجب أن نتعامل معه على أساس أنه إن وجِدَ فليس كمثله شيء، لأننا لا نرضى ولن نكتفي بالبحث عن إله يوجد مثله شيء، وهي قاعدة أساسية لبحثنا عن الحقيقة الكبرى، وعلى من لم يقتنع بوجوده أن يعود للمناقشات السابقة التي أُثبتَ فيها أنه يوجد خالقٌ أحدٌ صمدٌ كاملُ الصفاتِ مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، لا تُطبَّقُ عليه قوانينُ مخلوقيه.

ثالثاً: إثباتات تدل على حدوث المادة وتنفي أزليتها

نقول لمن يدَّعي أزليةَ المادةِ وأبديتَها، ولمن يمثلهم من (الطبيعيين) و(الماديين): إنه ليس من الضروري أن نورد عشرات الأدلة العلمية، التي تثبت أن مادة الكون ليست أبدية، وبالتالي لم تكن أزلية، مما يحتم وجود خالق أوجدها، إذ يكفي مَنْ يتابع معنا بفطرةٍ ومنطقٍ سليمٍ وبُعدٍ عن المكابرة والمعاندة، إثباتٌ واحدٌ ليقتنعَ بما نقول:

١- الطاقة الشمسية:

إن الشمس هي المصدر الرئيس للطاقة فيمجموعتنا الشمسية، وهذه الطاقة تَصدرُ عن سلسلة طويلة من الانفجارات النووية الحرارية الهائلة التي تحصل داخلها، ومعروف أنَّ تحطم الذرة إنما هو تَحوُّلُ المادة إلى طاقة، فيصطدمُ جزءٌ منها بالمادة فتتحولُ الطاقةُ إلى حرارة، وجزءٌ منها لا يصطدمُ بمادة فيتلاشى في الكون الشاسع، بمعنى أن الشمس تفقد كل لحظة جزءاً صغيراً جداً من كتلتها[١٠١]، فلو كانت أزلية قديمة لم تُخلق، لكانت تلاشت وانتهت لانتهاء

---

(١٠١) من قياس الطاقة الناتجة عن الانفجارات النووية الحرارية لمادة الشمس أمكن حساب ما تفقده الشمس من مادتها بشكل تقريبي فتبين أنه يعادلُ آلاف الأطنان في كل ثانية تقريباً، فكم خسرت خلال ٥٠٠٠ مليون سنة من عمرها التقريبي المفترض حتى الآن؟

مادتها المتناقصة باستمرار منذ عمرها (الأزلي المفترض)، ولكن في الواقع الشمسُ موجودةٌ الآن ومادتها لم تنته بعد، وفي حال استمرار التناقص من كتلتها فلا بُدَّ من نهاية حتمية لها[١٠٢] إذا لم يشأ الله إنهاء العالم قبل ذلك أو تجديد خلق الشمس لحكمة إلهية، ومعروف علمياً أنَّ كلَّ مادةٍ لها نهاية لا بُدَّ أن لها بداية[١٠٣]، وإمكانية نهاية الشمس تلزم وجود بدايةٍ حتميةٍ لها، وتلزم ضرورة كون حجمها أصغر من حجم الكون بكثير لوجود مليارات الشموس الأخرى، أي إن الشمس التي تمثل مجموعة الشموس **حادثة**، وبالتالي **فالكون هو حادث، له** بداية لم يكن قبلها ولم تكن مادته، **وله** نهاية لن يكون بعدها ولن تكون مادته، إلا إذا شاء الله تكوين كون آخر من المادة المصمتة نفسها أو شاء تغيير القوانين الحالية للكون، **وله** سيرة حياة يمر بها، أي إنه قبل ذلك الحدث كانت المجموعة الخالية فقط، وبما أنها لا تخلق شيئاً، فلا بُدَّ أن الكون لم يتحول من وضع آخر كان قبل ذلك، بل حدث بخلق مباشر بأمر آمر، **فيسقط قدم المادة.**

فأية قدرة عظيمة أوجدت مادة الكون من العدم؟ ومن أصدر أمراً للكتلة المصمتة الأولى لتكونَ ولتتشكل؟

٢- الحركة الإلكترونية:

الكون يتألف من ذرات مختلفة متحدة مع بعضها، وكل ذرة تتألف من نواة تحتوي على بروتون (موجب الشحنة الكهربائية)، ونيترون (متعادل الشحنة)، وإلكترون (سالب الشحنة)، تدور الإلكترونات حول النواة بسرعة هائلة ضمن

---

(١٠٢) من معرفة وزن مادة الشمس وما تخسره منها بالانفجارات النووية الحرارية بقياس الطاقة الحرارية المنبعثة منها، ثم بإجراء حسابات رياضية تَبين للعلماء أنَّ الشمسَ ستبلغ نهايتَها وفناءها تقريباً سنة: ٤٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ميلادية بمشيئة الله، إذا لم يشأ الله إنهاء العالم قبل ذلك، أو تعديل قوانين العالم.

(١٠٣) لا يقل أحدكم إن الأعداد لها بداية وليس لها نهاية، فهي ليست مادة، ولسنا هنا بصدد مناقشة سوفسطائية.

فضاء شاسع الحجم النسبي، التفسير المادي لتوازنه في مداره هو تعادل القوة المركزية الطاردة له مع قوة جذب البروتون إليه(١٠٤)، إذ لو استطاع جذبه لتلاشى الفراغ الشاسع النسبي بينهما، ولأصبح حجم الأرض، بحجم برتقالة صغيرة مصمتة المادة، مع المحافظة على الوزن الإجمالي الحالي.

وبما أنه لا يوجد لدى العلماء دليل على أن الإلكترونات وصلت إلى هذه الحالة الحركية تطوراً من حالة حركية أخرى، **وليس لديهم أي تفسير لسبب حركتها**، إذن فقد وُجِدت هذه الحركة بشكل فجائي انطلاقاً من السكون، واستمرت على هذه الحالة حتى الآن، **مما يدل على أن لحركة هذه الذرات بداية زمنية، والذرات بشكلها الحالي ليست قديمة، فيسقط قِدَمُ المادة.**

فمن الذي أصدر أمر الحركة الأولى؟ ومن أعطى قوة الجذب بين البروتون والإلكترون؟

هل من يفسر لنا لماذا تتحرك الإلكترونات حول النواة تفسيراً علمياً؟ وأية طاقة تغذيها وتُسيِّرُها؟

٣ – الطاقة الحرارية:

يقول القانون الثاني في علم الحرارة (الثيرموديناميك): "إن الحرارة تنتقل من الوجود الحراري الأكبر، إلى الوجود الحراري الأصغر"، أي من الجسم الأكثر سخونة، إلى الجسم الأقل سخونة، وهو قانون غير قابل للانعكاس، ويُعَدُّ من بدهيات علم المادة.

يقول العالم الفيزيائي (بولتزمان): "إن التطور غير الحي وغير القابل

(١٠٤) إنَّ السبب الحقيقي لدوران الإلكترون السالب حول البروتون الموجب دون وجود قوى تحركه -كالبطارية مثلاً- ما هو إلا طاعة لأمر الله بعد أمر "كن"، وما يقوله العلم عن سبب التوازن ما هو إلا وصف لحالة يراها العلماء ولم يستطيعوا تفسيرها.

للانعكاس، سيصل إلى حالات فيها احتمالات التوازن بين مؤلفات هذا الكون، حيث ينفد منبع الطاقة، وتزول جميع الاختلافات الحرارية الموجودة حالياً، وتَقِفُ جَميعُ الحركات ويسودُ الظلامُ المطلق"(١٠٥).

فلو كان الكون أزلياً لا أول له في عمق الزمان، إذن لتفتتَ بناء الكون منذ أمد بعيد وانتهى، لأن انتقال الطاقة الحرارية من الأجسام الحارة يُفتتُ تركيبَها، ويُنقصُ من كتلتها باستمرار(١٠٦)، لكن مادة الكون موجودة حالياً ونحس بها وهذا يدل على خطأ الاعتقاد بأزلية هذا الكون، لأن الانتقال الحراري المستمر سيؤدي في النهاية إلى تساوٍ بين درجات الحرارة لجميع الأجسام، فتتوقف جميع العمليات الكيميائية والطبيعية، وبالتالي تتوقف الحياة في هذا الكون، **فلو كان الكون أزلياً لاستُهلِكَت طاقتُه منذ زمن بعيد ولتوقف كل نشاط فيه، لكننا نرى حالياً نشاط الكون الهائل، فهو إذن ليس قديماً بل له بداية!.. فتسقط أزلية المادة.**

٤- تحولات الطاقة المتبادلة:

هناك من يفترض: أن الكون المادي الحالي، يتحول إلى طاقة، ثم بعدها تتحول الطاقة إلى مادة، ثم المادة إلى طاقة، وهكذا!... ومن هذا الافتراض يستنتج أنَّ الكونَ أزليٌّ أبديٌّ دائم التحول؟

وفي هذا نقول: إنه مُثبت أن المادة تتحولُ إلى طاقة، وهو ما نعايشه كل يوم، لكننا لم نر أو نسمع أن الطاقةَ ظهرت على شكلِ طاقةٍ إلا بوجود مادة تؤثر فيها، والطاقة دون مادة ليس لها ظهور مُثْبَتٌ، فإذا وقعت المادةُ في طريق الطاقة الحرارية تسخنها، عندها فقط تظهر الطاقة الحرارية، وليس من سبيل آخر لظهورها، وعندما تقع المادة (القمر مثلاً) في طريق الضوء تعكسه فنراه، ولذلك لا تُنير الشمسُ كُلَّ الفضاء بين الأرض والشمس، ولا تُسخنُها.

(١٠٥) "الله يتجلى في عصر العلم": ص ٩٦.
(١٠٦) "الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل": محمد رشدي عبيد، ص ٢٣.

أما أن تتحول الطاقةُ إلى مادة، فهذا ما لم يَثْبُتْ علمياً حتى الآن، ومـا زال في مُخيلة مخرجي أفلام السينما، وحتى إن ثبتَ ذلك التحول مستقبلاً، فسيكون في الكون دائماً تحـولاتٌ متداخلة، مـادةٌ إلى طاقـةٍ وفي الوقت نفسه هنالك طاقة أخرى تتحول إلى مـادة حسب الافتراض، وسنرى أنه يوجد في الكون طاقة تصطدم بمادة، وطاقةٌ لا تصطدم بمادة؛ فتتحول الأولى إلى نوع آخر من الطاقة، وتتلاشى الأخرى بسبب اتساع الكون، وهـذا يعني أن جزءاً بسيطاً من المادة يتلاشى دائماً مع مرور الزمن، وإنه بعد ملايين السنين، سوف تتلاشى كل المادة وتتبدد على شكل طاقة ضائعة في الكون تتجاذبها الثقوب السوداء[١٠٧] المتناثرة في الكون في الوقت الذي يشاؤه الله، فتفقد خصائصها وتندمج مع مادة الثقب الأسود المصمتة، ولن تعود إلى مادة بمفهومها الحالي، فتنقطع سلسلة التحولات المتبادلة المفروضة، وتنتهي المادة.

يتبينُ لنا مما سبق أن أصل الكون مادةٌ لم تتحول من وضعٍ سابقٍ إلى آخرَ لاحقٍ، بل وجِدَتْ بأمرٍ إلهي، لم يكن قبلَه إلا (المجموعة الخالية) التي لا ينتج عنها حالة مادية دون قَبول إمكانيَّة الخلق من العدم، فتسقط أزلية المادة.

فهل من جواب على سؤال نطرحه هو: من أوجد المادة الأولى؟ ولماذا حصلت فيها الخبطة الكبرى؟

٥ – المواد المشعَّة:

يوجد العديد من العناصر المشعة في العالم، ونشاط هذه العناصر إما أن ينتهي بثوان، أو يستمر ملايين السنين حسب نوع العنصر، ويقول العلماء: إنَّ كل ذرة غير متحللة إشعاعياً، لها الاحتمال نفسه (?) للتحلل الإشعاعي في الثانية التالية، وحسب قوانين الاحتمالات يكون عدد الذرات التي ستتحلل خلال فترة زمنية dt هو:

(١٠٧) انظر "نظرية الثقوب السوداء" في الفقرة "ز" من هذا الفصل.

dN = - ë dt N

حيث N = عدد الذرات غير المتحللة إشعاعياً

? = احتمال التحلل (عدد ثابت لكل ذرة).

ويكون عدد الذرات الباقية بعد مرور زمن (t) هو (N=No e-λt) ويكون النشاط الإشعاعي (A) الصادر هو A = ë N

ويكون نصف العمر لأي عينة، معرَّف بالفترة الزمنية اللازمة للتحلل، نصف العدد من الذرات الباقية غير المتحللة، وينقص نشاطها الإشعاعي Ao إلى (Ao/2) أي (نصف Ao).

ويكون نصف العمر 0 = ë/693(½) ?

ووسطي الحياة للعينة بحسب من القانون ? /1= ?

بناءً على هذه القوانين يمكن حساب عمر الكون حساباً تقريبياً، قدره العلماء بين ١٠-١٥ مليار عام.

لنفرض أن حسابات العلماء تقريبية، **ولنضف إلى نتائجهم العدد النهائي الذي نريده من السنوات**، فسوف يبقى التقدير ضمن عمر نهائي محدود للعالم، يُثبتُ عدم قِدَمه، فتسقط أزلية المادة وتَثْبتُ بدايتها، فمن صاحبُها؟

٦– الكيمياء وفناء المادة:

يقول الدكتور (كوثران)[١٠٨]: "يدلنا علم الكيمياء أن المادة في سبيل الزوال أو الفناء، لكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فالمادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أنها ليست أزلية ولها بداية... **وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو**

(١٠٨) عالم في الكيمياء من جامعة (كورنل) الكندية.

تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية، **وعلى ذلك فإن العالَم المادي لا بُدَّ أن يكون مخلوقاً"**[١٠٩]، **فتسقط أزلية المادة.**

٧- نظرية الثقوب السود

يقول الماديون: "إن المادة قديمة لم يخلقها الله، **وإن حركة إلكتروناتها أزلية** لم يَخلُقها الله، وهي قابلة للتحول والتطور **وإنها أبدية لا تفنى".**

ونحن نقول: بما أننا لا نستطيع الإثبات الحسي أن المادة كانت دون حركة، وأن الحركة حادثٌ على المادة، فسوف نستدل عليها بما اكتشفته العلوم الحديثة عن بطلان أبدية الحركة، فتَبطل أزليتها، لأن ما له نهاية لا بُدَّ أن تكون له بداية.

[١١٠]لقد لاحظ العلماء وجود ملايين النقط السوداء في السماء، ولاحظوا أن كل ما يقترب من هذه النقط السوداء، يختفي داخلها تحت تأثير قوة جذب هائلة، وبمتابعة المراقبة التي لا تَمَلُّ ولا تنقطع، شاهدوا كيف تتشكل هذه الثقوب، وأعلنوا بأن النجوم التي يزيد حجمها تقريباً عن مرة ونصف عن حجم شمسنا، ستصل يوماً إلى مرحلة الكهولة، **حيث تَخِفُّ كثافتها الداخلية نتيجة لتحول المادة الحرارية إلى طاقة، بسبب الانفجارات النووية الحرارية، فيتهدم النجم على نفسه بفعل جاذبيته، وتبين أنه كلما تَهدَّم على نفسه تزداد جاذبيته فيزداد تهدمه، حتى تنطبق إلكترونات ذراته على بروتوناتها ونيتروناتها وفوتوناتها وميوناتها وبقية جزيئاتها، فيتحول النجم الضخم إلى حجم كرة قدم مع احتفاظه بالوزن الأصلي للنجم قبل التهدم، فيبلغ وزن السنتيمتر المكعب الواحد ألف مليون طن أرضي تقريباً، وتزداد جاذبيته إلى حد يمنع معه صدور أي إشعاع عنه، ويجذب إليه كل الأشعة المحيطة به إلى حدود معينة إلى داخله،**

(١٠٩) "الله يتجلى في عصر العلم": نخبة من العلماء، ص ٢٥.

(١١٠) "الثقوب الكونية السوداء": المهندس فائز فوق العادة، فقرات من الكتاب، بتصرف.

فتتحول البقعة حوله إلى بقعة سوداء يبلغ قطر أصغرها حوالي خمسة كيلو مترات، ويمكن أن يصل إلى ألف مرة أكبر من قطر شمسنا الحالي، تسمى (أفق الحدث)[١١١] التي عندها لن يفلت شيء؛ إلا إذا كان يهرب بسرعة الضوء، وأما داخل (أفق الحدث)، فلن تفيده حتى هذه السرعة.

سُمِّيت بالثقوب لأن كل ما يقترب منها يسقط فيها إلى غير رجعة، **وبعض العلماء عرَّفها بمقبرة الكون**، لأن مجموع الثقوب السوداء وكثرة عددها، سوف تُحَتِّمُ على ما بقي في الكون الانجذاب إليها في الوقت الذي يشاؤه الله؛ فتسقط فيها وتموت، ثم تنجذب الثقوب إلى بعضها لتتلاشى في ثقب واحد هو الطرف الأسود **لبوق أو ممر (آينشتاين – روزاين)**، الذي سوف نتحدث عنه لاحقاً.

إن الغازات الساقطة في الثقوب السوداء بفعل الجاذبية، تنضغط على نفسها وتنطلق منها الأشعة السينية، التي هي خير دليل على وجود الثقوب السوداء، كما أن خير الأوقات لرؤية الثقب الأسود، تكون عندما يمر خلفه نجم كبير، وبحسابات انحرافات أشعة ذلك النجم، يمكن معرفة حجم الثقب الأسود، وبعض مواصفات نواته، التي هي كتلة النجم المتهدم.

يتميز الثقب الأسود بجاذبية عالية جداً، لا متناهية في الكبر في المركز، حسب الأنموذج الرياضي الذي قدمه كل من (شفارزتشيلد) و(كير) كل على حدة، وتُبينُ هذه النماذجُ حالةَ الفضاءِ حول نقطةٍ ماديةٍ ذات كتلة ولكن لا أبعادَ تُذكَرُ لها.

كما أن النظرية النسبية العامة، تفترض وجود منطقة لا مادةَ فيها، وأن هناك نقطة تتجمع فيها المادة، لكن لا أبعاد لها، وهي مواصفات الثقوب السوداء نفسها.

(١١١) أفق الحدث: هو دائرة تحيط بمنطقة اللاعودة المسماة (منطقة الحدث).

إن (آينشتاين) و(روزاين)، قدّما نماذج رياضية لممرات تبدأ بالثقوب السوداء التي تتجمع فيها المادة، متهدمة بحيث تفقد هويتها الأصلية، فلا يُعرف أصلها إن كان إنساناً أو كوكباً، وتنتهي بثقوب بيضاء عبر ممرات افتراضية سميت (ممرات آينشتاين-روزاين)، تؤدي هذه الممرات إلى عوالم أخرى لا نعرف ماهيتها!.

قياس الزمن داخل الثقب الأسود، يقف بالنسبة لمراقب يقع خارج منطقة تأثير جاذبية الثقب التي تقدر بدائرة قطرها ١٢٠ كم]، انتهى النقل بتصرف من كتاب "الثقوب الكونية السوداء".

عندما قرأت عن هذا الموضوع كنت أود التعرف على ما أطلق عليه "مقبرة الكون" وعلى ما يقوله العلم عنها، فبدت لي تلك الثقوب السوداء كأروع إثبات حقيقي تأكد منه العلماء، ولا يمكن نقضه على أن الثقوب السوداء هي مادةٌ مصمتة لا حركة فيها، مما يدل على أن المادة ابتدأت مثلما ستنتهي إليه دون حركة، مادة مصمتة لا فراغات بينها، ثم ابتدأت الحركة فيها بأمر ما، فصدرت عنها طاقة أكبر من التصور، يمكن تشبيهها (بانفجار هائل)، تشكلت منها قطع الكون المختلفة، لم يستطع العلماء تفسير هذا الانفجار فسمُّوه (الخبطة الكبرى Big Bang).

إذن فالحركة داخل المادة ليست أبدية، ولذلك اعتمدت هذا الإثبات محوراً للنقاش العلمي ودليلاً على سقوط أزلية المادة، وعلى ضرورة وجود بادئ آمر قادر مريد، فمن هو يا من وعدت أن يكون عقلُك منفتحاً لتقبل كل ما هو علمي مثبت؟

لو كان علماء النظرية المادية علموا ما نعلمه الآن عن الثقوب السوداء، لامتنعوا حتماً عن التأكيد على أزلية المادة وأبديتها كما هي عليه الآن، ولآمنوا على الأقل بوجود من خلق هذه المادة، على المبدأ الذي ينادي به الإلهيون الطبيعيون!.

٨- نظرية نشوء الكون:

يؤمن جميع علماء الفلك، بأن الكون نشأ عن (انفجار) فوق العادة، منذ ١٠٫٥×١٠^٩ مليون سنة، لكتلة مادية وزنها يساوي وزن أجزاء الكون مجتمعة، ودليلهم في ذلك، أن أجزاء الكون في تباعد مستمر بعضها عن بعض حتى الآن، بسرعات عالية جداً[١١٢]، حيث شبه العلماء الكون (ببالون)، وأجزاءه ببقع عليه، كلما زاد (البالون) انتفاخاً، تباعدت النقاط بعضها عن بعض، وعن مركز البالون في الوقت نفسه، فالشمس مثلاً تدور بالمجموعة الشمسية على الحاشية الخارجية لمجرَّة [درب التبَّانة (اللبَّانة) ضخص ضزورة]، وتُكمل دورتها في ٢٠٠ مليون سنة ضوئية، وهي تتباعد عن هذه الحاشية مع مجموعتها بسرعة (١٨-٢٠) ميل/ثا، بينما الأرض تدور حول نفسها بسرعة ١٠٠٠ ميل/سا، وتدور بالوقت نفسه حول الشمس بسرعة ٦٥٠٠٠ ميل/سا، فإذا تصورنا وضع الكون بتراجع زمني سحيق، سنراه يتقلص إلى أن تتجمع أجزاؤه في كتلة بداية مصمتة ليس فيها ذرات وليس فيها حركة، هي مركز الكون، ثم بدأت فيها الحركة والحرارة لأسباب لم يستطع العلم إثباتها أو شرحها، **فتسقط أزلية المادة**، فمن أمَرَ أن تكون هذه الحركة في ذراتٍ كانَتْ إلكتروناتُها ساكنة ومنطبقة على بروتوناتها؟ ومن أوجد هذه الذرات أصلاً من العدم؟

٩ - الدليل المنطقي الفلسفي:

هو دليل استخدمه الفلاسفة في عصور القصور العلمي والتألق الفلسفي المنطقي، إذ يقول معارضو أزلية المادة: إن كل ما في الكون ينقسم إلى قسمين:

١- قسم يقوم بذاته وهو (الموصوف).

---

(١١٢) جاء في كتاب المسلمين القرآن الكريم في سورة الذاريات (٥١:٤٧): ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. نُرى كيف عَرَفَ محمدٌ ﷺ أن السماء في توسع في وقت سادت فيه فكرة ثبات السماء حتى القرن العشرين؟؟!!...

٢- قسم لا يقوم بذاته وهو (الصفة).

الجسم وحدةٌ تقوم بذاتها فهو (موصوف)، المرض والصحة لا تقومان دون جسم فهما (صفة)، المادة وحدة قائمة بذاتها فهي (موصوف)، أما الحرارة فلا تقوم دون مادة فهي (صفة)... وهكذا.

بما أن للصحة وللمرض وللحرارة...إلخ بداية ونهاية، فهذا يعني أنَّ كلَّ (صفة) هي حادث، وبما أن الجسم لا يمكن أن يكون لا صحيحاً ولا مريضاً، لا ساخناً ولا بارداً، فلا يكون (الموصوف) بلا (صفة)، وبما أن (للصفة) بداية ونهاية، إذن للموصوف أيضاً بداية ونهاية، وبما أن كل ما في الكون، إما (صفةٌ) أو (موصوفٌ)، إذن لكل مواد الكون بداية ونهاية، أي لم يكن الكون أزلياً ولن يكون أبدياً، **فتسقط أزلية المادة** فهو إذن حادث، فمن أحدثه من العدم؟

لِمن يحاول تطبيق هذا الدليل على صفات الله وذاتِه نقول: إن ما يجوز للمخلوق لا يلزم جوازه على الخالق، ونذكره بأننا أصلاً نبحث عن إله كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، تكون ذاته وصفاته بلا بداية ولانهاية، فإن وجدناه محدود الصفات؛ نتجاوزه لغيره لأنه ليس هو من نبحث عنه، وليس هو من يستحق عبادتنا، نبحث عن إله واجب الوجود، كامل الصفات، صفات مترابطة متكاتفة، إله في شدته عدل، وفي عدله حزمٌ وحكمة، وفي حكمته رأفةٌ، وفي رأفته قوة، وفي قوته رحمة... ...إلخ من الصفات التي تعمل كلها في آن واحد، إله واحد، أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

يقول علي بن حسن الأثري "يجب أن لا نسمح للعقل التدخل في شؤون الغيب"[113]، وهذا أمر تقبله الفطرة والعقل، وذلك بسبب قصور العقل المتفق عليه في تصور أمور الغيب.

---

(١١٣) "العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون": علي بن حسن الأثري، ص ٣١.

١٠ - البرهان العقلي:

يتفق الفلاسفة أن لكل معلول علّة، وعندما نصل إلى المادة الأصل يقول المؤمنون منهم: خلقها الله، ويقول الماديون منهم: "إن المادة الأصل معلول قديم، وحركتها قديمة، وإن استمرار الحركة أعطَى قوة للمادة، فتَجمَّعت بنسب معينة مصادَفةً خلال مليارات السنين نشأت منها التنوعات في العالم.

فنقول لهم: قولكم هذا يعني قِدَمَ هذه التنوعات، وأنتم متفقون معنا أن القديم لا يقبل التغير والتَنوع، وأيضاً يعني أن كلَّ هذه التنوعات القديمة نشأت عن المادة الأصل مباشرة وإلا ما كانت قديمة، فأين هو الجدل المادي بين المادة والمادة الذي جعلتموه أساساً لنظريتكم؟ وقِدَمُ المادةِ والتنوعات يعارض قولكم: "إن المخلوقات (وهي معلول) حدثت بعد أن لم تكن"، والذي استدللتم عليه بوجود طبقات متتالية خالية من المستحاثات، وهذا يضعُكم على مفترق طرق:

أ - فإما أن تقولوا بقِدَمِ التنوعات أيضاً، وهذا يخالف الاكتشافات المستحاثية التي تعتمدون عليها، **فتسقط أزلية المادة**.

ب- أو أن تقبلوا أن المادة وحركتها هما علة التنوعات بالاختيار والإرادة والقصد، وليس بالضرورة، وأنتم تعلمون أن هذا ليس من أحوال المادة فيلزم عليكم قبول وجود اللهِ الخالقِ المريد.

جـ - أو أن تقولوا: إن المادة وحركتها حادثة وليست قديمة **فتسقط أزليتها** وهو المطلوب.

ونقول أيضاً: بإمكان العقل أن يربط بين شيئين متلازمين، شيء محسوس وشيء غير محسوس، يربط بين صوت جرس الباب وشخص خلفه، وهذا الربط هو من أهم اختصاصات العقل، فلماذا لا يقبل بعض الناس الربط، بين ما يحسُّه الإنسان بكل حواسه ومداركه وطرق استدلاله، وبين وجود الله بصفته مؤثراً

وسبباً لازماً لظهور الوجود بالاختيار، والقصد والقدرة والعلم، وفي الوقت الذي أراد الله وجوده فيه بإرادةٍ قديمة رجّحت الوجودَ على العدم وحدوثَ زمانه؟

رابعاً: ما الذي يمنع الماديين من الإيمان؟

قد يقول قائل: إن العقول البشرية عاجزة عن تصور كُنْهِ الله، وكيفية الخلق من العدم، وتعجز عن إدراك القصد والحكمة من بعض المخلوقات والأوامر فيرى أن الضرورة في الخلقِ أقربُ للتفسير من القصد والحكمة والإرادة...إلخ.

في ذلك نقول:

١- إنَّ عَجْزَنا عن معرفةِ كنه الله، وكيفيةِ الخلق من العدم، والحكمةِ من الخلق، لا يَعني عدمَ وجود الخالق، ولا يَعني عدمَ إمكانيةِ الخلقِ من العدم، ولا عدمَ وجود القصدِ والحكمة من وجوده، إن عقولنا عاجزة عن فهم كُنْهِ أشياء كثيرة موجودة حولنا نعايشها، كالجاذبية، والنوم، والأحلام، والموت، والتمثيل الكلوروفيلي، وماهية حركة الإلكترونات، ودوران الكواكب، حتى التثاؤب لا نعرف للآن له سبباً علمياً...إلخ.

إن الماديين يطالبون بالإحاطة بكُنْهِ الله بحواسهم المحدودة ويجعلون ذلك شرطاً للإيمان بالله غير المحدود، بينما كل البشر عاجزون عن الإحاطة بالإنسان وبأسراره الكثيرة الحسية منها والنفسية، **وعاجزون عن الإحاطة بملايين معادلات التوازن اللازم تحقيقها في الجسم، ليكون الإنسان سوياً بكل أموره!.** إنه يجب علينا عدم قياس قدرة الله بقدرة الإنسان، هذا القياس **سيجعلنا عاجزين عن تصور إمكانية الخلق من العدم،** إننا أقمنا كثيراً من علومنا على الإيمان بما تقوله مصادر المعلومات، دونَ أن نشاهد برهانها، فكم عدد الذين قاسوا سرعة الضوء بأنفسهم، أو تحققوا من قانون (نيوتن) للجاذبية؟!. إننا آمنا إما بالثقة بالمصدر، أو بالاستدلال العلمي، فإذا كنا لا نثق بأخبار الأنبياء وبراهينهم على صحة رسالتهم

لأننا لم نعاصرهم، فلِمَ لا نقبلُ الاستدلالَ ليكون برهاناً على وجود الله وصفاته؟ وهناك آلاف الأدلة موجودة حولنا..!.

٢- عن الحكمة والقصد من الخلق: فإنه لحكمة إلهية لم يكشف لنا الله عن الحكمة من خلق كل هذه الكائنات مرة واحدة، بل جعلنا نكتشفها ونتعرف عليها بالتدريج في الوقت الذي يشاء ليكون لنا فيها دليلٌ عليه وعلى صفاته...

يقول علي بن حسن الأثري: "العقل عقلان، غريزي يولد مع الإنسان يتعلق بأمور البقاء، وعقل مكتسب من الدراسة والخبرة، لذلك فالعقل أضعف من العلم، وإن الدين لا يدرك بالعقل لضعفه وقلته، ويدرك بالعلم لقوته وكثرته"(١١٤).

ونحن نضيف عليه بأنَّ دعم إيمانِ الفطرةِ بالعلم والعقل سيصلُ بنا إلى بَرِّ الإيمان الكامل المسلح القوي بالله دون أدنى شك.

٣- عن الخلق من العدم: طالما ثَبتَ أنَّ العالَم ممكنُ الزوال **فإنه ممكنُ الوجود** (أي احتمالُ وجودِه ممكنٌ)، وليس واجبَ الوجود (أي لا بُدَّ من وجوده من الأزل دون إرادة إلهية)، وهو لم يُوجِد نفسَه لأنه بذلك **يصبحُ** واجبَ الوجود، وهذا محال لجمعه نقيضين في شيء واحد، هما الممكن والواجب الوجود، وبما أن العالَمَ لَمْ يوجد نفسَه، فلا بُدَّ من (علة كافية) لوقوعه ووجوده، وأنه قبل حدوثه لم يكن موجوداً، وهذا (القَبْلُ) هو العدم الذي سبق الوجود، **وفكرة الإيجاد من العدم من خالقٍ لديه القدرة على الإيجاد من العدم، غير مستحيلة الإدراك وقابلة للتعقل ولكنها صعبة التصور،** وهذه الصعوبة لا تمنعُ إمكانيةَ الخلقِ من العدم، وليس هذا العجز في التصور إلا دليلاً على قصور تصورات العقل البشري.

فيقول قائل: لكن قدرة العقل على التصور لا متناهية، وليس فيها قصور وعجز.

(١١٤) "العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون": علي بن حسن الأثري، ص ١٩، بتصرف.

فنقول: إنك تقصد القدرة على التعقل والإدراك، لا القدرة على التصور، والفرق كبير، وإليك مثال[١١٥] من الواقع العلمي عن الفرق بين التعقل والتصور:

خذ ورقة سمكها (١/١٠٠ملم) غير محدودة المساحة، واقطعها إلى قسمين، ضَعْ أحدهما فوق الآخر، ثم اقطعهما مرة ثانية، وضعهما بعضهما فوق بعض، فيصبح سُمْكُ المجموعة (٤/١٠٠ ملم)، استمر بالقطع ٤٨ مرة، فإذا سألناك قبل أن تقوم بالحساب أو يكون هذا المثال أو مثيله قد عُرِض عليك: كم تتوقع أن يكون سُمْكُ الأجزاء كلها وهي مُطَبَّقةٌ بعضها فوق بعض؟ فإنك لن تقول أكثر من عدة أمتار، وتحسب نفسك مبالغاً في تقديرك، لكنك ستُصْدَمُ إذا أجريت عليها قوانين الرياضيات، فوجدتَ أن السُمْكَ الفعلي هو ٣٨٤٠٠٠ كم تقريباً، وهو يقارب المسافة بين الأرض والقمر!!!.

فهل يمكن للعقل أن يتصور هذه الحقيقة التي أقام عليها البرهانَ العقلي بنفسه؟ أليس هذا **قصور العقل في تصور ما يعقله؟**..

قد تستطيعُ تعقُّلَ شيءٍ ولا تستطيعُ تصورَه، لأن التعقل يقوم على بدهيات أولية يُرتبها العقل ويركبها، فيَصل إلى حكم عقلي قاطع، قد لا يستطيع تصوره.

لهذا السبب، لا يبالي العلم الحديث بعجز العقل عن التصور، ويعتمد على التعقل والإدراك وحده، لأن كثيراً من الحقائق العلمية أصبحت فوق التصور، ولذلك يُحكم عليها عن طريق التعقل والإدراك، فهل يمكن للعقل تصور ذبذبات صوت قد تصل إلى نصف مليون موجة في الثانية الواحدة؟!.. وبعض ذبذبات الحركة التي قد تصل إلى ٤٠٠٠ مرة في الثانية، كجناح الذبابة!!...

(١١٥) فكرة المثال مأخوذة من كتاب "قصة الإيمان" للشيخ نديم الجسر، ص ٢٣٣.

من لا يصدق، فليغمض عينيه، وليحاول تصوُّرَ نصف مليون موجة صوتية تمر أمامه في الثانية الواحدة، **وسوف يعجز حتماً، بينما تعقُّل وإدراك هذا العدد ممكن، وكذلك يمكن تعقل وإدراك كنه الحقيقة الكبرى التي هي الله تعالى، ولكن يستحيل تصوره لعجز واضح في عقولنا!.**

قلت لصديقي اللامبالي الذي لم ينطق بحرف منذ بدأتُ معه مناقشة الإيمان والإلحاد: إن ما أوردته لك من مناقشات وأدلة كافٍ للإنسان غير المكابر، الفطري علميِّ المنطق، أن يبدأ بتوجيه تفكيره الوجهة الصحيحة، ربما لم تقتنع معي الآن، لكن لا بُدَّ لك أو لمن سمع المناقشة، من أن يصل يوماً إلى أنَّ الطبيعة المحتاجة، والمصادفة العشوائية، والتفاعلات الكيميائية، لا تملك تدبيراً ولا عقلاً لخلق كون يمثل هذا التعقيد والانتظام!... وأنه لا بُدَّ من وجودِ خالقٍ كاملِ الصفاتِ مطلقِ الإرادةِ والقدرة إطلاقاً يليق بكماله، إنه لحكمةٍ ما قرر أن يخلق الكون، ويخلق الإنسان، وأن يحدد له لوازم بقائه حياً ويُسخر الكون لخدمته، خالقٍ قرر أن هذا المخلوق يتغذى بالطعام، فوفَّر له مختلف أنواع النباتات ومصادر اللحوم، وخلق له الأجهزة اللازمة للهضم، وامتصاص الطعام لتحويله في جسمه إلى طاقة، وأوجد له طريقة لتلقي العنصر الأساس للاحتراق وهو الأوكسجين، فجعل في رئتيه تقريباً ٢٠٠ مليون كيس محاط بشعيرات، للقيام بعملية التبادل بين الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، وخلق له الحواس اللازمة التي ستخدمه في تنفيذ ما سيطلبه الخالق منه، فجعل سمعه -على سبيل المثال- يميِّز ١٦٠٠ ذبذبة مختلفة، وبصره يُميِّزُ ملايين الألوان، وسهل له ما يلزمه للسعي في الأرض وللنظرِ إلى مخلوقات الله تعالى، خلقه على الإيمان بالفطرة وأعطاه عقلاً لتحليل ما يراه، واستنتاج المؤشرات والإثباتات اللازمة على وجود الخالق، فيُدعِّم إيمانه الفطري ببراهين عقلية، أما مركز التعقل الذي هو المخ، فحدِّثْ عنه ولا حرج، فهو أدقُّ وأعقدُ جهازٍ على وجه الأرض، وهو يتحكم بالجسم من خلال جيوش من

المراسلين على شكل موجات كهربائية، إذ يكفي أن يريد الإنسان حركة ما، حتى يقوم المخ بإصدار الأوامر اللازمة لذلك، دون أي تدخل من الإنسان نفسه.

لتغذية مختلف خلايا الجسم، ونقل مخلفاتها، حمَّلَ الدم هذه الوظيفة، فجعل له في الجسم ٦٠ ألف مليون ميل من الأوردة والشرايين والشعيرات الدموية، وخلق له أكفأ جهاز ضخ على وجه الأرض وهو القلب، الذي يحتاج إلى ١٨ ثانية لتوصيل الدم إلى أبعد نقطة في الجسم، وهو يضخ يومياً ٢٠٠٠ جالون من الدم، أي حوالي ٥٥ مليون جالون خلال حياته.

قرر الخالق أن الإنسان سيعيش على الأرض، فجعلها صالحة لذلك، فعدَّل حرارتها لتناسبه ووضعها في مدار مناسب حول الشمس، وجعل جاذبيتها مناسبة لجسمه، تُمسكه عليها ولا تسحقه، وجعل دورتَها اليومية مناسبة لراحته في الليل ولعمله في النهار، وجعلها مصدراً لطعامه، ودورتها السنوية مناسبة لتعاقب الفصول وتنوع المحصول، وغلَّفها بطبقة مناسبة من الهواء فيه الأوكسجين لنَفَسِه، وسُمكها ومواصفاتها مناسبة لحماية الحياة على الأرض من الشهب الساقطة عليها، جعل حجم الأرض مناسباً، إذ لو زاد لتغيرت السرعةُ والزمنُ عليها، ولو نقصت لقلت جاذبيتها فطارت طبقة الهواء من حولها!. ولو بَطُؤَتْ حركة دورانها، لأصبح النهار طويلاً يحرق الزرع، ويَخِلُّ ميزان الراحة والعمل، ولأصبح الليل طويلاً ببرده القاتل للزرع، وانقطاع غذائه بتوقف التمثيل الضوئي (الكلوروفيلي) لمدة طويلة، شاء أن يجعل فصولاً أربعة فجعل محور الأرض مائلاً بزاوية ٢٣° درجة، لو قلَّت لتصحَّر الوسط ودُفنت النهايتان بالثلوج، ولو زادت لاقتربت مواصفات المناطق المعتدلة من مواصفات القطبين، ولأصبح في القطب إما ليل دائم أو نهار دائم!. جعل اعتماد الإنسان على الماء كاملاً، فسهل له دورة المطر التي تبدأ بالتبخر، فجعل البحر يغطي ثلثي سطح الأرض لتكون كمية التبخر كافية، ونظم عملية دورة المطر تنظيماً عظيماً جداً...

فلو لم يجعل البحر مالحاً لتأسَّن وماتت كائناته، ولَزِمَ خلطُ البحر مع الهواء لضرورة الأوكسجين لكائنات البحر، فحمَّل هذه الوظيفة للقمر، فوضعه في مكان مناسب، وبحجم مناسب، وجاذبية مناسبة، ليقوم بعملية المد والجزر!. فصارت للقمر وظيفةٌ ترتبط فيها الحياة على الأرض، ولم تعد وظيفتُه إنارة الأرض في الليل، ودليل المسافر ومحط أنظار العاشقين فقط!... والحكمة جعل دورتَه حول نفسه، وحول الأرض تكون مرة كل شهر قمري واحد، وجعله يتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة زاويَّة، ويقطع كل يوم ١٣ درجة، وهذا ما يَجعلُه يظهر لنا في مراحل مختلفة نستعين بها على قياس الشهور!... جعل الضوءَ ينتقل بلا وسيط، والصوتَ يحتاجُ إلى الهواء لينتقل، تصور ما يحدث لو كان العكس، إذن لما وصل إلينا ضوء أبداً، لعدم وجود هواء في الفضاء فتفنى الحياة، ولوصلت إلينا مباشرة جميع الأصوات الكونية البعيدة، وصمَّت آذانَنا، وشوشت أجهزة الاتصالات كلها.

هل من يفسر لنا لماذا تدور الأرض حول الشمس بمدار إهليلجي (بيضاوي) وليس بمدار دائري؟

ألا يلزم هذا المدار الإهليليجي تَغيُّرَ السرعة في أثناء الدوران، فتنخفض عند النهايتين المدبتين للإهليلج، ثم تعود للازدياد حتى تبلغ أقصى حد عند النهايتين المفلطحتين؟

فإذا كانت الجاذبية هي التي تمسك الأرض حول الشمس، والقوة الطاردة الناشئة عن الحركة تعادل هذه الجاذبية لحفظ توازن مسارِ الأرض، فلماذا تبتعد عنها والجاذبية ثابتة في كلِّ نقطة على الأرض؟ وما الذي يجعلها تعود وتقترب منها ثانية؟ نتساءل من الذي يقود الأرض حول الشمس فيغيِّر السرعة والاتجاه؟ أليست هذه الظاهرة هي سبب ظهور (الفيزياء الكونية) التي قالت: "إن حركة الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس هي ضمن أنفاقٍ كونيةٍ إهليليجية غيرِ مرئية".

فليست الجاذبية إذن للتوازن بل لحفظ المخلوقات مُلازمة للأرض، ولا دورانُ الأرض لخلق القوة الطاردة من أجل التوازن بل لتعدد الفصول لحفظ المخلوقات وحِكَمٍ أخرى، لأنه من أجل الإنسان خلق الله الكون.

أعطى الله تعالى الإنسان الفطرة والعقل والإحساس، وبالتدريج سهل له العلوم المختلفة، التي بها يميِّز الحق من الباطل، ومع ذلك ترى بعض الناس قد نسوا فضل الله تعالى عليهم، بأن خلقهم في أحسن تقويم، وأخذوا يدعون لغير الله تعالى، ويفسدون في الأرض، ويستغلون قوتهم أو عِلمَهم في غير ما دعا إليه رُسُل الله تعالى، ولو شاء الله تعالى لجعل كلَّ الناس مؤمنين كالملائكة، ولكن ليس هذا هو الغرض من خلق الإنسان.

كتب (أديسون) عندما زار (برج إيفل) بعد إتمامه: "إلى السيد (إيفل) من (أديسون) الذي يكنُّ له احتراماً، وأكبر الإعجاب بالمهندسين جميعاً وعلى رأسهم الله"(١١٦).

وقال اللورد (كالفن): "إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله".

وقال (جاليلو) مخترع التلسكوب: "لشد ما أنا مأخوذ بروعة ما أرى، ومدين لله بما وهبني على كشف هذا الإبداع العظيم، الذي لم يظهر لكل الأجيال السابقة".

وقال (نيوتن): "ما من شك في أن خالق العالم، محيط بأسرار عالم الميكانيك إحاطة تامة".

وقال (آينشتاين): "**الإيمان هو أقوى نتائج البحوث العلمية وأنبلها**، وإن

(١١٦) "كيف أرى الله": ص ١٧.

العلم بلا إيمان يمشي مشيةالأعرج، وإن الإيمان بلا علم يتلمس تلمس الأعمى"(١١٧).

وقال (داروين): "إنني متردد في عقيدتي الدينية، لكن لم أكن منكراً لوجود الله.

وقال أيضاً: إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع، تفرعت من جرثومة الحياة التي خلقها الله".

ليس غريباً أن نرى الآن نسبة كبيرة من رجال الدين وعلمائه الذين تمكّنوا من علوم الدنيا وتيقنوا من إيمانهم؛ يخرجون عن التقليد ولا يهابون مناقشة النظريات المادية، ويناقشون التطور وحقيقة الوجود في ضوء الإدراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية، لأن الملحد الحديث لم تَعُدْ تكفيه إثارة مواضيع دينية تقليدية عن تعاليم الإله الحميدة (لا تسرق، لا تزن،...)، ويطالب بالخوض في الموضوعات والأفكار والنظريات المعاصرة، ويطالب برأي الدِّين بها لمعرفة ما يقوله عن الحقائق العلمية غير القابلة للنقض، والتأكد من أن مُنزِلَ الدِّين هو نفسه خالق الحقيقة، مما يَلزم عدم التعارض، ويطالب بالإقناع العلمي ويرفض الاعتماد على الفطرةِ فقط.

من هذا كله نرى أن العلوم قد توصلت دون قصد، إلى إثبات أن للكون بداية، أي إنه حادث مخلوق، لا يمكن أن يبدأ بنفسه، ولا بُدَّ له من خالق!
فتسقط فرضية أزلية المادة إلى غير رجعة.

(١١٧) "إلى الذي سأل أين الله": عبد الرحمن السنجري، ص ١٠٣.

الفصـل الثـالث

بعض صفات الله تعالى

قال الصديق الذي أثرتُ فيه كثير اهتمام: إني لم أكن لا مبالياً كما تظن، لكني كنت أتابعك بكل تفكيري وعقلي ولم أشأ مقاطعتك، والآن بعد المرحلة الأولى من رحلتنا الجدلية في البحث عن الحقيقة الكبرى، يُفترَضُ أننا آمنا بالله خالقاً كاملَ الصفاتِ مريداً للكون، ويلزمنا في المرحلة الثانية التعرف على بعضِ صفات الله تعالى الذي آمنا به.

فقلت: إن أهم ما دعا إليه الرسل، هو التأكيد على وحدانية الله تعالى، وصمدِه، وإرادتِه، وعلمِه وقدرتِه...إلخ. وهذا ما سنعرضه من الصفات الإلهية، والباحث عن بقية الصفات، يكفيه النظر في نفسه -ولله المثلُ الأعلى- وفيما حوله، فيرى القدرة والحكمة والرأفة والعلم والإرادة والرحمة...إلخ. ، وبناءً على البدهية التي مفادها أن الصفات تدل على الموصوف، والفعل يحمل صفات الفاعل، سندرك مَنْ هو صاحب الفعل، ونتعرف على بعضٍ من صفاته.

لن نخوض في تفاصيل كل الصفات خوفاً من الخروج عن الموضوع، وأحيل القارئ الباحث إلى كتب أكثر تخصصاً في الصفات.

اخترتُ بعض الصفات التي كانت وما تزال موضع جدل بين مختلف الفلاسفة، بعضهم مع بعض من جهة، ومع المؤمنين الموحدين من جهة أخرى.

١- الواحد، الأحد:

إضافة إلى ما ذُكر سابقاً عن التعددية، نضيف مثالاً آخر، ولنبدأ بأي جزء من الإنسان، وليكن الفم فنرى كيف أنه مرتبط مع أعضاء جهاز الهضم كافة، بحيث إذا ألغينا وظيفة الفم، فلا حاجة لوظيفة المعدة، وبالتالي لا حاجة لوظيفة الأمعاء،

ثم لا حاجة للعناصر التي تقوم بامتصاص الغذاء من جدران الأمعاء، ومن ثم عدم حاجتها إلى الأوكسجين للاحتراق، وعدم الحاجة إلى الأوكسجين، يلغي الحاجة إلى الجهاز التنفسي، الذي يستنشق الهواء المرتبط بالجاذبية الأرضية، التي تمسك أن يتطاير عن الأرض، والأرض مرتبطة بالشمس، والشمس بالمجرة، وهي مرتبطة بدورها بأجزاء الكون لأنها من أصل واحد، تباعد بعضه عن بعض بما يشبه الانفجار وتكوَّن منه العالم.

لو كان يوجد أكثر من إله واحد لهذا العالم، وأحبَّ إله الشمس مثلاً تغيير وظيفة شمسه، وقال إله الجاذبية: أريد أن أُضاعفها عشر مرات، أو أن أُخفضها إلى الربع، فسيؤثر هذا في السلسلة التي ذكرناها، ويتبين لنا أن أي تغيير في الكون يؤدي إلى تغير في جسم الإنسان، وربما كان تغيراً مميتاً للإنسان والكائنات الحية.

ألا يدل هذا التكاتف والترابط في السلسلة، على وجود منظِّم وحيد لها، حكيم، مريد، يجري إرادَته وحدهُ على كل خلقه، وليس هناك إله غيره؟[118]

إذا أصر قائلٌ على التعددية معانداً، نقول له: تصور لو تصرف كل خالق بما خلق، فماذا سيحصل لك أيها المعاند؟ هل تبقى حياً إن فعلوا؟ إذ إن استحالة الاتفاق الدائم الذي يحد من إطلاق الآلهة مقبول عقلاً!!. والنظام الثابت الموجود من الذرة إلى المجرة، يدل على وحدة الرأي والقرار، وعلى استحالة وجود أكثر من خالق واحد أحد.

٢- الفرد، الصمد[119]: (أي الله تعالى هو مَحَطُّ قصدِ الكلِّ، والكل يحتاج إليه وهو لا يقصدُ أحداً ولا يحتاج إلى أحد).

---

(١١٨) من المحاضرات المسجلة عن الشيخ عبد المجيد الزنداني، بتصرف.

(١١٩) بعض معاني الصمد الأخرى: "هو مَنْ لا جوف له"، بمعنى أن لا أجهزة هضم لديه ولا تنفس ولا...الخ. لأنه لا يحتاج لها، لكننا نرى أن المعنى الذي اعتمدناه "...الذي يحتاجه الجميع..." وهو من التفاسير المعتمدة أيضاً أنه أعَمُّ وأكثر شمولية، بدليل أن الملائكة لا جوف لها لكننا لا نقول عنها أنها تتصف بالصمدية، إذ هي صفة تليق بالله فقط.

استطعنا تصور الكون وما فيه من مخلوقات، وإدراك وجود خالق له القدرة على الخلق من العَدَم، **واتفقنا** على أن المخلوقات محتاجة إلى شيءٍ ما ليكتمل وجودُها، وأن المجموعة الخالية (العَدَم) لا تُقدمُ شيئاً، فلا يمكن للمخلوقات المحتاجة أن تحتاج إلى المجموعة الخالية، ولا بُدَّ لها إذن أن تحتاج إلى الخالق، والخالق إذا **افترضناه محتاجاً** إلى شيء ما ليكتمل وجوده فسيحتاج إلى مجموعة المخلوقات وهذا محال، لأنها هي نفسها من خلقه، ومحتاجة إليه، فتسقط حاجته إليها، فلا يبقى إلا المجموعة الخالية ليحتاج إليها، وبما أنها لا تقدم إليه شيئاً، **إذن هو غير موجود** لافتقاره إلى حاجة ما ليكمل إطلاقه، ولا يوجد من يمنحها له، **وعدم وجوده يعني عدم وجود المخلوقات التي خلقها، لكن الواقع يقول: إن المخلوقات موجودة، إذن الخالق موجود، فتسقط حاجته للمجموعة الخالية، وهذا يعني أنه مَحَطُّ حاجةِ الجميع وقصدِهم، وأنه لا يمكن أن يكون محتاجاً إلى أحد فهو إذن الفردُ الصمد.**

٣- المريد:

لقد تكلمنا عنها حينما ناقشنا أنه بالإرادة الإلهية، التي تستطيع التمييز بين متكافئين، أراد الله تعالى الوجود بَعْدَ العدم، وفي الوقت الذي وُجِد فيه، وعلى الكيفية التي أراده فيها، وتأكدت لنا الإرادة الإلهية حينما ناقشنا استحالة الخلق بالضرورة الذي يعني قِدم المادة، وقدم التنوعات، بالإضافة إلى أنَّ التسلسلَ في الخلق يرفضه العقل، ولذلك فإنَّ كلَّ خلقٍ هو خلقٌ بالإرادة والقدرة المطلقتين إطلاقاً يليق بكمال الله، وأُضيفُ، إنه حسب بدهية فاقد الشيء لا يعطيه، نقول: الله تعالى خلقَ الإنسانَ، وأعطاه إرادةً محدودة في مجال اختياره، فلا بُدَّ إذن لمن أعطاه تلك الإرادةَ أن يكون صاحب إرادةٍ أوسع، وبما أننا نتكلَّمُ عن الله تعالى فنقول: هي إرادةٌ ليس كمثلها إرادة.

٤- العليم:

أما أنَّ الكون **وُجد عن علم وحكمة وقدرة و... وليس عن الحاجة والضرورة**، فالأمثلة كثيرة لا تحصى، نأخذ منها أقرب ما يكون إلينا وهو جسمنا، لقد خَلَقَنا الله تعالى في بطون أمهاتنا، والضرورة هناك لا تُلزم وجود العيون لعدم ضرورة الرؤية، ولا تُلزم وجود الجهاز الهضمي والتنفسي المعروفين، فلماذا وجدت حيث لا حاجة إليها ولا ضرورة؟

- أليس هذا دليل على أن من أوجدها يعلم أننا سنخرج إلى العالم!.. وسوف نستقل عن أمهاتنا، وسوف تلزمنا الرؤية فخلق لنا العيون!!.. وعَلِمَ أننا سنتغذى ونتنفس منفصلين عنهن، فخلق لنا الأجهزة اللازمة ونحن في بطون أمهاتنا!!.. ألا يدل هذا على أن الله تعالى عليم؟!..

عندما ألبس العلماءُ رجالَ الفضاء ألبسة خاصة، عن عِلْمٍ بأنهم سيحتاجون إليها هناك في مكان القصد... قال المعاندون: إنهم عُلماءُ يعلمون ما يفعلون، وإن فعلها الله تعالى، قالوا: الضرورة والمصادفة!!.

- أليست ملوحة ماء البحار، تدل على علم بأن هذه الكميات الكبيرة من المياه الراكدة، والمفيدة لملايين الكائنات ستتعفن لو كانت حلوة، وتموت غالبية الكائنات فيها؟ أليست البحار المالحة هي مَجمعُ الأنهار ذات المياه الحلوة؟ والعلم يبين أن أصل الملح هو من اليابسة، جُرف مع الأمطار والأنهار إلى البحر، وبقي فيه.

- أليس المد والجزر دليلاً على علم الله تعالى بأن الكائنات البحرية تحتاج إلى أوكسجين؟!. ولا بُدَّ من خلط ماء البحر بالهواء، فأوكل هذه الوظيفة إلى القمر ليقوم بالمد والجزر!.

- أليست حركة مياه البحر، والتيارات والأمواج السفلية، هي سبب بقاء الملح

ذائباً فيها وليس راسباً، وإلا لتحولت إلى مستنقعات كبيرة في قعرها طبقة من الملح.

- أليس عن علم جعل الله تعالى سُمكَ طبقة الهواء كافياً لحرق الشهب الساقطة على الأرض؟!. فلا تضر بالكائنات التي قَدَّر لها العيش على الأرض؟

- أليس عن علم وضع الله تعالى خطوط دفاع حول الكرة الأرضية، لتقي المخلوقات شر الأشعة الكونية القاتلة؟

إن ملايين الأدلة حولنا تتزاحم لتدل على أن الله تعالى عليم.

٥- الرشيد، القدير، المدبر:

رداً على الماديين الذين يقولون: إن العلة لا يُشترط كونها مدبرة عاقلة(١٢٠) رشيدة مريدة قادرة، ويستدلون بالنار التي تحرق والماء الذي يُغرق، فالنار علة غير رشيدة، ولا مدبرة، ولا عاقلة، والماء علة غير مدبِّرة، ولا عاقلة، ويقولون: إن علة العالم لا يشترط بها القدرة، والعقل، والإرادة، ويصرون على أنه يمكن أن تكون المادة هي العلة الفاعلة لهذا الكون.

لهؤلاء نقول: إنكم قلتم: إن السكين فاعلة، لأنكم شاهدتم السكين في فؤاد القتيل، وقلتم: إن الدواء يشفي، لأنكم شاهدتم المريض يتعافى بعد استعماله الدواء.

ونقول أيضاً: إن المشاهدة تدل على الحصول عند الملاقاة وليس بها، ولا يوجد لديكم دليل مادي، على عدم وجود علة مرافقة، ومغايرة للسكين والدواء، فربطتم هذا بذاك، وقلتم: إن سببَ القتل ماديٌّ، وسببَ الشفاء ماديٌّ، ثم غالطتم أنفسكم وشطحت بكم الأفكار، فعممتم ذلك على الكون، وقلتم: إن العلة الفاعلة للكون مادية بالضرورة!.

---

(١٢٠) العاقل: هو من يستخدم العقل، والعقل: هو القدرة على ربط الأمور بعضها ببعض.

نتساءل: هل يحصل الشبع عند الأكل فقط؟ والاختناق عند الغرق فقط؟

إن قلتم: نعم، غالطتم أنفسكم والأسباب كثيرة.

وإن قلتم: لا، وافقتم بذلك على وجود علة أخرى غير ماديّة لحصول الشبع (حالة نفسية، مثلاً) ولحصول الاختناق (تَشَنُّجٌ في الرئتين، مثلاً).

ألا نتساءل: لماذا دخلت السكين في قلب شخصين، بالطريقة ذاتها والمكان نفسه، فنجا الأول ومات الآخر؟ والسؤال نفسه نطرحه بالنسبة للدواء، أو لحادثِ سيارة طفيف قتل صاحبَه وآخر قوي لم يقتله؟..

القتل إذن ليس فعلَ السكين، بل فعل الفاعلِ المخطِطِ المتربصِ القادرِ المدبرِ، الذي جمعَ السكينَ مع الفؤاد، وكذلك الدواءُ ليس هو الشافي، بل القادر المدبر الرشيد الذي جعل في هذا الدواءِ المناسبِ شفاءً.

إنَّ كون الأشياء متلازمة وممكنة الوقوع، وإن استمرار وقوعها بالشكل نفسه، جعلَ اللاشعور يحسبها ضرورة متلازمة، جعلت الإنسان المعاند يقول: إنه يمكنُ لغيرِ القادر المدبر العاقل أن يكون هو العلة.

الحقيقة هي أن كل الحوادث المتتابعة، هي ضمن نظام إلهي وضعه فاعلٌ مدبِّرٌ قادرٌ على خرق هذا النظام متى شاء، فتحدث المعجزات، كالنار التي لم تحرق إبراهيم بعدم جمع صفة الحرق مع وجود النار، والحوت الذي لم يهضم يونس بفصل صفة المواد الهاضمة عن وجودها في معدة الحوت، أو بفصل ضرورة التنفس لاستمرار الحياة في معدة الحوت، وكالقليل الذي أشبع الكثير، واللمسة التي شفت المريض، وأحيت الميت، فلا ضرورة إذن للاقتران واللزوم، بل الإمكانية هي التي تجمع العلة والمعلول.

لا خلاف في أن كل خصائص الإنسان موجودة في النطفة، فهل نقول: إن الأب هو فاعلُ حياة ابنه، وسَمْعِه، وبصره؟ أم نقول بوساطة الأب حصل الفعلُ المرادُ من قِبَلِ القادرِ المدبرِ الفاعلِ؟ وكذلك بوساطة الطبيب حصل فعل الشفاء.

بهذا نرى أن الوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به بالإرادة الذاتية، بل بالعلةِ المكتسبةِ من الفاعلِ المدبرِ القادرِ كاملِ الصفاتِ مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله.

الفصل الرابع
ضرورة الرُسُل

إن متابعة قراءة هذا البحث تحتاج إلى اعتماد قاعدة جديدة، إضافة لما كنا قد اتفقنا عليه في بداية البحث، ألا وهي: **أننا الآن نؤمن بخالق كامل الصفات والإرادة، بها خَلقَ الكونَ ونظّمه، وخلق الإنسانَ خلقاً مباشراً وليس تطوراً من سلالة القرود**، وعلى الذي مازال يشك في وجود الخالق، إعادة مناقشة البحث السابق مرة أخرى، فإن عجز البحث عن إقناعه، فأرى أن يُجري قفزة في قراءة البحث حتى الباب الثالث حيث يوجد عَرضٌ لدينِ الإسلامِ وبعضاً من إعجاز القرآن العلمي، علَّ ذلك يساعد على إقناعه بضرورة وجود الله تعالى بصفاته الكاملة.

إن كمال صفات الخالق، تدل على أنه يترفع عن اللهو والعبث، إذ هي صفات لا تليق به، لذلك لن نفترض أنَّ خَلْقَ هذا الكون، إنما هو تسلية إلهية، بل لحكمة أرادها الخالق، يُطلعنا منها على ما يريد حينما يريد، ويخفي عنا منها ما يريد، إن ثقتنا بالله تعالى تجعلنا لا نطلب أكثر مما يَسمحُ لنا به، من الاطلاع على حكمة خلق الكون.

لكي يبين الله تعالى بعض الحكمة من خلقه، لذا كان من حكمته إرسال الرسل ليتصلوا بالبشر ويبينوا لهم أوامر الله عزَّ وجل ونواهيه ضمن منهاج "افعل ولا تفعل"، وينشروا مطلوب الله تعالى من خلقه، وحتى لا يدَّعي كلُّ من يريد أنه رسول، فقد أيد الله تعالى رسله بإثباتات ومعجزات مقنعة، ومناسبة لما هو

مشهور في ذلك العصر، فإذا تناقضت المعلومات المقدمة من الرسل مع الموجودات، والمكتشفات من الحقائق الثابتة غير القابلة للنقد، نستنتج أنه:

١- إما أن يكون المُرْسِل ليس الإله الخالق، فيكون الرسول مزيفاً والآيات المطروحة ليست من عند الخالق.

٢- أو أنها من عند الله تعالى وبواسطة الرسول ولكن أتباع الرسول حرّفوها مع النقل، بقصد أو بغير قصد.

لأنه لا يمكن للخالق كاملِ الصفات أن يرسل ما يخالف الحقائق العلمية الثابتة بأي حال، لأنه هو خالق تلك الحقائق، العليم بكل شيء، يعلم ما سيكون من العلوم، ولن يرسل كتباً سماوية فيها ما يناقض حقائق العلم الثابتة... طبعاً سيختلف الأمر إن خرقَ الله تعالى الحقائقَ الطبيعية على شكل معجزات إلهية يظهرها الله تعالى على يد رسلِه كوسيلة للإقناع.

ففي زمن موسى انتشر السحر، وأصبح معيار التفوُّق والغلبة، لذلك لم تكن معجزة موسى لغوية أو طبية، بل كانت من نوع التفوق نفسه، فحوَّل العصا بإذن الله تعالى إلى حية (أفعى) حقيقية، فكان السحرة أول من آمن به؛ لعلمِهم بأن هذا ليس سحراً كالذي يقومون به.

وفي زمن عيسى عليه السلام تقدَّم الطب وازدهر، فكانت معجزات عيسى عليه السلام ذات صبغة طبية، فلم يشفِ المرضى فقط كعادة الأطباء، بل أعاد الحياة إلى الميت بإذن ربه، وأبرأ الأكمه (الذي ولِدَ أعمى) بإذن ربه، مما جعل الناس لاحقاً؛ يقبلون بفكرة (بولس Paul) المستوحاة من البوذية والهندوسية، والتي تقول: إن الله نفسَهُ (الأبَ) تجسد في عيسى، أو إنه أرسل ابنه الإله (الابن) ليتجسد في جسد عيسى عليه السلام الإنسان -منهم من قال تجسد قبل ولادة

عيسى ومنهم من قال بعد ولادته[١٢١]-، ليمحو بـ(صَلبه وموته وصعوده) خطيئة آدم التي حمَلَها أبناؤه من بعده.

أما زمن محمد ﷺ فقد برع القوم باللغة، وتباهوا بفصاحتهم وبلاغتهم، فأنزل الله تعالى القرآن بلغة العرب، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فقال عباقرة الشعر واللغة في ذلك الزمن بعدما سمعوا بعض آيات القرآن: والله لقد سمعنا كلاماً عجباً ما هو بالشعر!!. وقالوا: إننا لم نعتد مثل هذا الأسلوب في الكلام البليغ.

ولأن الإسلام دين لكل البشر ولكل العصور -كما يقول المسلمون- فقد جاء في القرآن معجزات علميةٌ وغيبية تُفسَّرُ في عصور مختلفة ومنها ما لا نعلمه حتى الآن، لتكون إثباتات متجددة على أن القرآن من عند الله تعالى، وهذه الإعجازات مَيَّزت القرآن عن باقي الكتب السماوية التي احتوت بعضَ التنبؤات عن المستقبل، لتُمهد لما بعدها من شرائع.

فالفطرة والعقل والمنطق والعلم إذن لا ترفض (فكرة الرسول) الذي يحمل تعاليم السماء، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى أخذ العهد على نفسه ألا يعذب حتى يبعث رسولا، فكان ذلك من عظيم عدله وسعة رحمته بعباده حيث تكرَّم على عباده فحرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، لذلك لن يُلام مُذْنِبٌ على ذنبٍ لم يكن يعلم أصلاً أن الله تعالى حرَّمه عليه، وهو يدل على أن الله تعالى لم يترك جماعة أو أمة دون رسول يرشدهم لمراد الله تعالى منهم، وكلما ضلت الأمة وشوهت التعاليم لتناسب مصالحها، أرسل الله تعالى رسولاً آخر ليعيد الأمة إلى السبيل الصحيح.

(١٢١) كان هذا سبب لكثير من الاختلاف بين المسيحيين، ولظهور مذاهب جديدة.

الباب الثاني

الشرائع الوضعية

١- تمهيد:

إن الباحث معنا عن الحقيقة الكبرى، لا بُدَّ أنه توصل إلى ضرورة وجود الإله الواحد، كاملِ الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، ويتساءل **الآن ماذا بعد الإيمان؟ أية عقيدة أتّبِع؟ أي العقائد هي العقيدة الصحيحة وهناك عشرات العقائد والفلسفات التي ناقشت وجود الله تعالى وصفاته ومتطلباته من عباده؟**

لهذا الباحث نقول: هنا تبدأ المرحلة الثالثة في البحث عن الحقيقة، فتعال معنا نتابع البحث مبتدئين **بالفلسفات** ثم **بالعقائد الوضعية**، التي لم يَدَّعِ مؤسسوها الرسالةَ والنُّبوة، **ثمَّ الشرائع السماوية** الثلاث المعروفة حالياً، والتي آمن أصحابُها بالمصدر السماوي الإلهي لها: اليهودية والمسيحية ثم الإسلام، ونستعرض كلاً منها على حدة.

التَّديُّن فطرة إنسانية، وغريزة نفسية، يولدها الخوف من الموت، ومن مظاهر الطبيعة المخيفة، مثل العواصف والكسوف، والفيضانات والزلازل والبراكين، وهذا الخوف من الأقوى، يخلق الشعور بضرورة إرضائه، ولكن من هو ذلك القوي الذي يكمن وراء هذه المظاهر الطبيعية؟ وأين هو حتى نرضيه؟ وما الذي يرضيه؟.

كان البدائيون يقدمون الهدايا والقرابين، فتبقى في مكانها لا يقبلها ذلك القوي، الذي مثّلوه بما توصل إليه تفكيرُهم بالحيوانات القوية، وعَدُّوه مرة الشمس ومرة أخرى القمر، ولكن بعد أن توقف الإنسان عن ترحاله واستقر وعمل بالزراعة، وارتبط بالمكان وهدأت نفسهُ، أخذ يتأمل في الكون... فتطورَ فِكرهُ، وأوجَد لنفسه آلهةً كثيرة خوفاً على زرعه، وماشيته، وممتلكاته.

آمن الناس بوجود آلهة عظمى وراء هذه الكواكب، تُسَيِّرُ الكون وتُدبر أمره، فمنهم من جعل الآلهة في مجموعات كثيرة، لها سيرة حياة الإنسان نفسه، من ولادة وتزاوج وصراع وموت، ومنهم من أنكر على الآلهة هذه الكثرة، فآمن بإله

آمر، وبإلهٍ فاعلٍ، وبثالثٍ هادمٍ يُلملمُ عند الضرورة ما خلـق الإله الفاعل، فنشأ "التثليث"، ومنهم من كان أكثرَ تفهماً ورأى أن فكرة الإله الواحد أقرب إلى العقل، ومنهم من لم يستطع الاختيار بين التوحيد المطلق والتثليث المطلق، فقال بإله واحد له تجليات ثلاثة، فانتشرت فكرة الواحد في ثلاثة والثلاثة في واحد، خاصة في العقائد الآسيوية القديمة، وفي التشريع "المسيحي البولسي"(١٢٢).

وكانت لهذه الآلهة تماثيل متغايرة، حسب تصور الجماعات وتطورها واختلافها، وتعددت المعتقدات بتعدد الجماعات في القرى والمدن، منها من قدَّس قوى الطبيعة، ومنها من اعتمد على الخرافات والأساطير، وغَلَّبَ على هذه العقائد ادعاء الألوهية المباشرة، فلم يكن هناك داعٍ لوجود الرسل، لأنَّ الإنسان آمن بأن الإله نفسَه تجسد في إنسان مميَّز يختاره، كالعقائد الفرعونية والإغريقية...

ومن العقائد ما كان توحيدياً، يدعو إلى إله مجرد عن الكائنات الحية وظواهر الطبيعة، ومنها العقيدة الأخناتونية(١٢٣)، والسِّيخيَّة(١٢٤)، ويتوج ذلك... الشرائع السماوية التي آمن أصحابها بالمصدر السماوي الإلهي لها، ومنها الشريعة اليهودية والمسيحية والدين الإسلامي.

سوف نناقش العقائد والشرائع السائدة الآن في العالم تباعاً، **آملاً ألاّ يملّ القارئُ من السرد التاريخي المختصر** لبعض العقائد الوثنية –التي تقع في باب الملل والنحل– على الرغم من اندثارها الحالي، (مثل عقائد الرومان واليونان في أوروبة، وعقائد السومريين والآكاديين، والبابليين،... ...إلخ. في آسيا)، وخروجها عن صلب البحث وعمقه.

---

(١٢٢) المسيحية البولسية: نسبة إلى (بولس)، الذي ادعى أنه ينشر تعاليم المسيح عيسى (اليسوع)، سنناقش كل شريعة على حدة لاحقاً.

(١٢٣) الأخناتونية: نسبة إلى (أخناتون) أحد الفراعنة المصريين.

(١٢٤) السيخية: طائفة هندوسية اتبعت تعاليم (جورو ناناك ١٤٦٩-١٥٣٩م)، وكانت خليطاً من الفلسفة الهندوسية وبعض تعاليم الإسلام.

٢- الفلسفات والعقائد الوضعية:

وهي الفلسفات والعقائد التي ظهرت قبل المسيح عيسى بن مريم وبعده، ويتبعها ملايين الناس، ومؤسسوها لم يدَّعوا الرسالة ولا النبوة، وتحول بعضها إلى عقائد ومناهج؛ سيرت حياة كثير من الناس، في وقت تهافت فيه الناس على الأفكار الجديدة، التي رفضت احتكار الدين لمصادر المعرفة، والنظر إليه على أنه المصدر الوحيد لها.

كثير من شباب القرن العشرين أيضاً عَدُّوا تبني هذه الأفكار في مجالسهم وترديدها، هو مؤشراً أساسياً للثقافة والحداثة، دون أن يدركوا أنهم بذلك خرجوا عن أساسيات الدين، وأغلبهم لم يَسْبُر أعماقَ هذه الأفكار من الناحية الدينية الصحيحة، خاصة أثناء تراجع الأفكار الدينية من عقولهم، في أواسط القرن العشرين.

لقد تعرض بعض الفلاسفة لنشأة الكون والحياة، واختلفوا حول أولوية الحس، أم أولوية العقل كمصدرٍ للمعرفة، وأي منهما سابق للآخر؟. فمنهم من تبادل القول بتفرد أحدهما فقط كمصدر لها وأنكر المصدر الآخر كلياً، **وسوف نعرض ونناقش أفكارهم التي تتعلق بالدين والخالق فقط، تاركين أفكارهم الأخرى حول المفاهيم الدنيوية.**

انتشرت الفلسفة حيث كانت الحضارات قبل التاريخ متقدمة نسبياً، ومنها اليونان والصين والهند واليابان، ثم تطورت في أوروبة بشكل خاص بعد عصر التنوير في القرن الثامن عشر الميلادي، وكذلك في العصر الحديث، لذا سوف نناقش هذه العقائد الوضعية حسب التوزيع المكاني، واعتبار القارة وحدة متكاملة، مدركين بأن هذه (العقائد الوضعية)، هي أفكار أشخاص، استخدموا فقط العقلَ بشكل ممتاز، وأنه مهما كان النقد عميقاً، فلن يهدم الفلسفة المعنية بالكامل، لأن أصحابها استندوا في بعض مفاهيمهم إلى بعض الحقائق الثابتة والبدهيات.

معالجة تلك الفلسفات لأمور الحياة، كانت من زاوية واحدة ضيقة الأفق، إذ أهملت الزوايا الإنسانية الأخرى، وأنكرت الفلسفات الأخرى تماماً، وأما الجزء الذي يتعلق بالخلق والخالق، فقد خرج عن الإيمان بالله تعالى كاملِ الصفاتِ مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله، لذا أرى أن النقد يجب أن يكون نقداً علمياً، يُركِّز على **الطفرات غير العلمية فيها**، والتي تؤدي إلى نتائج غير مقبولة، وعلينا ألا ننسى أن الحقيقة واحدة لا تتغير، فهي نفسُها قبل اكتشافنا لها وبعده، لكن اختلاف طرق البحث عنها تخلق انعكاساتٍ، يظن معها الباحث أن الحقيقة متعددة الوجوه، فظهر مَن قال: إن الحقيقةَ وجهان لعملةٍ واحدةٍ.

الفصل الأول

العقائد الوضعية في أوربة

كل تلك العقائد تؤمن بالتعددية التخصصية، التي سبق مناقشتُها، لذلك سنكتفي **بسرد تاريخي مقتضب**، لغرض العلمِ بالشيء.

أولاً: العقيدة الوثنية عند الرومان

تعددت آلهة الرومان بشكل مخيف، حتى وصلت إلى أكثر من ثلاثين ألفاً ممثلة بكل ما يخطر على البال، من مظاهر الطبيعة والقوى المحركة لها، واختلطت مع العقائد التُوتَمِيَّة، كانوا يقدسون الوليد حتى يكبر، لأنه يمثل البراءة، والمرأة حتى تطهر من الطمث!. والمجرم إذا ثبتت إدانته!... لأنهم مُجبرون على أوضاع لا إرادة لهم فيها... كانوا يؤمنون بالطِّيرة، والفأل، والخوارق، والمعجزات، والمنجمين، كانوا يعبدون الآلهة دون أصنام، ثم صنعوا لها تماثيل من خشب، ثم من الرخام، ولما كانت آلهتهم لا تعاقب ولا تكافئ؛ فسَدت أخلاقُهم وانحلَّت، كانوا يؤمنون بأن القرابين تَغفر لهم عند الآلهة... وأشهر آلهتهم هي:

جوبيتر (المشتري) Jupiter: أهم الآلهة وكبيرها وسيدها، يمثل السماء وأشعة الشمس ونور القمر، ثم توحد مع الإله (ديانوس Dianus)، وصار يرافق الجيوش إلى المعارك، ويقاتل الآلهة المعادية... شيَّد له الرومان هيكلاً على (الكابيتول) في روما، وآخر في بعلبك في لبنان.

- **المريخ** **Mars**: إله الحرب، ابن جوبيتر، قال الرومان عنه: إنه أبو رومولوس مؤسس روما.
- **زحل** **Saturn**: إله الزرع والخصب.

- يونيو Juno: أو تموز وهي إلهة الأنوثة وملكة السماء.
- فينوس Venus: ربة الشهوة والزواج والجمال.
- ديانا Diana: آلهة القمر والنساء.
- مينيرفا Minerva: ربة الحكمة والذاكرة والصناعات اليدوية.
- عطارد Mercury: إله التجار واللصوص.
- هرقل Hercules: إله الخمر والأفراح.
- آبس Aps: آلهة الثروة.
- بيلونا Bellona: آلهة الحرب والدمار.

ثانياً: العقيدة الوثنية عند اليونان:

اعتقد الرومان أن الآلهة تسكن جبال (أولومبيا)[١٢٥]، وأن اختلاف الطقس مصدره إله السماء (زيوس Zeus)، وهو رئيس الآلهة وأبوها!. وعبدوا كثيراً من الآلهة، كانت آلهتهم تتزوج كالبشر، وفيها كل صفاتهم، وتمتاز عنهم فقط بالخلود!.

أشهر آلهتهم هي:

- **مانا** : آلهة القوة الخفية التي تسيطر على كل شيء، وتبعث الحياة في كل شيء.
- **زيوس** : رئيس مجموعة آلهة جبال (أُولومبيا) وأبوها، وله أسرة من ثلاثة أولاد وثلاث بنات وزوجة.
- **هيرا** : زوجة زيوس وأخته وهي إلهة القوى المنتجة في الطبيعة.

(١٢٥) جبل الأولمب Olympe جبل في اليونان ارتفاعه ٢٩١١م، يقع بين مكدونية وتساليا، عدّته أساطير اليونان مقر الآلهة، ومقام نعيمهم.

- **إريس** : ابن زيوس وإله الحرب وعشيق أفروديت.
- **هيفايستوس**: ابن زيوس وزوج أفروديت وإله النار.
- **أبولو** : إله الفنون والنور، ابن زفس وليتو.
- **أثينا** : ربة الحكمة والحساب، وابنة زيوس التي ولدت من رأسه.
- **أفروديت** : ربة الجمال والحب، وابنة زيوس، خُلقت من زبد البحر.
- **أرتيميس** : ربة نور الليل، وتمثل بالقمر، وابنة زيوس.
- **هيريز** : شقيق زيوس، إله جوف الأرض وعالم الأموات.
- **ديميز** : شقيقة زيوس وإلهة النار.

إن رواية صلب (الكراسيوس)، التي كتبها (أسيوس) في أثينا قبل المسيح بخمس مئة عام، هي أقدم شعر باقٍ إلى هذا الوقت بخصوص الصلب، وفيها وصف رائع لما عاناه **الإله (كراسيوس) من الآلام وهو معلق على الصليب، ويداه ممدودتان**[١٢٦]، حيث **كانت عقوبة صلب الآلهة شائعة** تلك الأيام وذلك فداء للناس من ذنوبهم!.

والإسكندنافيون عبدوا ثالوثاً كانوا يدعونه: "**(إدوين)** الأب-**(تورا)** الابن-**(فري)** مانح البركة والسلام"، وكانوا يقولون عنه: إنه إله واحد، وقد وجد صنم في مدينة (أوبسال)، وفيه (إدوين) بيده سيف و(تورا) واقفاً على شماله وعلى رأسه تاج وبيده صولجان و(فري) على يسار (تورا).

ثالثاً: فلاسفة ما قبل (سقراط)

بعد انتهاء الحرب الأثينية الإسبارطية[١٢٧] هدأت النفوس، وسجلت الفلسفة

(١٢٦) لاحظ أن فكرة صلب الآلهة هي فكرة وثنية، ظهرت قبل ظهور أفكار (بولس) بمئات السنين.
(١٢٧) عرفت أيضاً باسم (الحروب البيلوبونيزيّة)، عام ٤٠٤ ق.م..

بداياتها على مدى عدة أجيال من الفلاسفة، أُطلق عليهم لاحقا اسم (فلاسفة ما قبل سقراط)، وسمّاهم (سقراط): (الفلاسفة الطبيعيين)، لقد كفر مُجمل الفلاسفةِ بآلهة اليونان المتعددة، وحاولوا البحث عن إله واحد، فمنهم من اهتدى إلى الله تعالى الخالق، ومنهم من عجز عقلُه عن تصور كنه الله تعالى، فسلبه صفة الخلق، وأعطاه صفاتٍ تقلل من شأنه، فقاده عقلُه إلى الضلال، وأهم فلاسفة هذه المجموعة هم:

١- **(طاليس عام ٥٤٨ ق.م.)**: حيث بدأت به هذه المجموعة، وهو الذي قال: إن جميع الأشياء صدرت من الماء، وقسَّم العالم إلى جواهر متناقضة؛ الشتاء والصيف، الليل والنهار...إلخ.

٢- **(انكسيمانس عام ٥٣٥ ق.م.)**: الذي قال: إن جوهر العالم هو الهواء الذي تحول بالتكاثف إلى المواد المعروفة، وشبه الطبيعة بالنفس الإنسانية ذات قوة محركة في العالم.

٣- **(فيثاغورس القرن السّادس ق.م.)**: الذي قال بتناسخ الأرواح، ولذلك حرَّم أكل اللحوم، لأن الحيوانات ذات قربى بالبشر، ولتفوقه وعبقريته جعله أتباعُه إلهاً لهم.

٤- **(هرقليطس ٥١٠-٤٨٠ ق.م.)**: الذي قال: "إن وحدة الأشياء هي وحدة الجواهر، وليست وحدة المادة، لذلك لا داعي للبحث عن أصل الكون المادي"، ويُعَدُّ النار هي المادة المحركة الأولى، التي تتحول إلى هواء ثم إلى ماء ثم إلى يابسة، ثم تعود اليابسة ماءً، فهواءً، فناراً، وهذه الدورة هي صيرورة العالم، وإليها يرجع وجود الأشياء في الطبيعة.

٥- **(انكسيمندرس ٦١٠- ٥٤٧ ق.م.)**: الذي قَبِل فكرة الله، ورفض فكرة التجسيد البشري للإله (Anthropomorphisme)، وقال: إنه يستحيل علينا

إدراك[١٢٨] كنه الله، وسماه (اللامحدود)، الأزلي، اللانهائي، الذي انفصلت عنه كرة نارية تجمدت فأصبحت أرضاً، ثم انفجرت لتُكَوِّن الأجرام السماوية.

٦- **(بارمنديس ٥١٥ ق.م.)**، وتلميذه **(مليسوّس ٤٩٠ ق.م.)** قالا: إن الله أزلي أبدي لا يتحرك ولا يتجزأ، وهو كامن وليس وراءه وجود آخر، عاقل[١٢٩] وهو الحي العاقل.

٧- **(إمبيدوقليس ٤٥٠ ق.م.)**: وضع أربعة أصول للمادة وهي: **النار والماء والهواء والتراب**، وأضاف التجاذب بين الأحوال وسماه المحبة، والتنافر وسماه الكفاح، رفض انبثاق الكون من أصل ما، لأن ذلك حسب رأيه صيرورة غير مشروعة، وقال: إن الكون في دورة دائمة تمتزج فيها الأشياء برابطة الحب في كتلة متجانسة هي (كُرة الوجود)؛ تُسبب رسوب الكفاح إلى (أدنى الدوامة)، ثم إن الحب يَنْسَلُّ شيئاً فشيئاً، فتأخذ الأصول بالانفصال، وتتكون الأشياء، حتى ينتهي الحب، وتنعزل الأصول بعضها عن بعض، ودورات العالم تكون بين مرحلة سيادة الحب سيادة كاملة، وسيادة الكفاح سيادة كاملة، وخلال مراحل الانفصال يتطور الحيوان من كائنات بسيطة إلى كائنات مزدوجة الجنس.

٨- **(ديمقريطس القرن الخامس ق.م.)**: الذي يُعَدُّ مؤسس الفلسفة المادية، قال: إن الكائن يتكون من ذرات مادية لا تحصى، وإن السعادة تقوم بضبط أهواء النفس.

ثم تطورت هذه الفلسفة إلى (المادية الطبيعية) حيث وقف بعض الفلاسفة أمام الحرمات الدينية، وأخضعوا كل شيء لحكم العقل، **فظهرت فلسفة تقول: إن**

---

(١٢٨) ربما كان يقصد استحالة التصور، وليس الإدراك، والخطأ هو في الترجمة فقط.

(١٢٩) ربما يقصد بمجمل الصفات الإلهية التي تربط الأمور على نصابها، وتبعد عنه ضرورة الخلق وتركز على الإرادة والعقل (ربط الأمور على نصابها) فيه، ذلك لأن صفات الله توقيفية، ولم يرد بينها صفة أن الله "عاقل".

الناس متساوون بالطبيعة ولكن النظام قسمهم في طبقات مصطنعة، وإن الدين من اختراع الأقوياء لحكم الضعفاء منهم، وظهرت فلسفة تقول: **إن الناس غير متساوين بالطبيعة**، وأن الأخلاق هي من اختراع الضعفاء، لكبح جماح الأقوياء. استمر ذلك حتى ظهور (بروتاغوراس)، وهو من أشهر السفسطائيين الذين أنكروا المعرفة بالعقل، وقال: إن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة.

بكل هذا أصبحت وجوه الحقائق متعددة بتعدد آراء الأشخاص، ثم جاء (غورجياس) وأنكر وجود الأشياء دفعة واحدة، وقال باستحالة المعرفة، فكانت هناك مرحلة من الفوضى الفلسفية حول حقيقة مصادر المعرفة، حتى جاء (سقراط) و(أفلاطون) بالفلسفة المثالية.

رابعاً: من (سقراط) إلى ما قبل عصر التنوير

خلال دراسة أفكار الفلاسفة، حاولتُ التركيز الشديد على الشطحات غير المقبولة التي يقومون بها عند مناقشتهم الخلقَ عن قصدٍ أم عن غير قصدٍ، ومناقشتهم الخالقَ، هل هو كاملُ الصفاتِ المريدُ القادرُ على الخلق من العدم؟... أم القادرُ على تشكيلِ مادةٍ وجدَها فشكَّلَ منها فقط لكنه لم يخلقها؟... وأورد هنا الأسماء الأكثر شهرة وأعرض فلسفتهم باختصار، فإن كان فيها ما يخالف كمال صفات الله تعالى التي سبق مناقشتها أُحيلُ القارئَ إلى المناقشة السابقة، وإن كان فيها خلافٌ جديد ستجري مناقشته فيوقته.

١- (سقراط ٤٧٠-٣٩٩ ق.م)[١٣٠]:

قال (سقراط): إنه أولى أن يقوم الفلاسفة بدراسة أشياء أهم من المادة، وهي عقل الإنسان وماهيته، فكان (سقراط) أول من سعى إلى **الاستدلال القياسي**

(١٣٠) (سقراط): فيلسوف يوناني، أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره، جعل محورَ الفلسفةِ معرفةَ الإنسان لنفسه، أسس علم الأخلاق، وحارب السفسطة.

لاستنتاج براهين يقينية، وهو أول من أثار **مشكلة التعريف**، فإذا سمع حديثاً عن العدالة أو الموت أو الأخلاق أو ...إلخ، فأول ما يسأل عنه هو ماذا تقصدون بالعدالة أو الفضيلة أو ...إلخ، **فيتحول النقاش إلى سبر المعاني**، ذلك لأنه رأى أن أخلاق عصره في انهيار مستمر أمامَ تَدَخُّلِ السُّوفسطائية[١٣١]، التي أنكرت العقل والحق واليقين وفضائل الأخلاق، لذا اهتم بتعريف الأخلاق والفضيلة.

عاش (سقراط) خلال الحكم الديمقراطي في أثينا، وكان لا يؤمن بالديمقراطية، حيث يحكم البُسطاء حسب تعاقبهم الأبجدي كأعضاء في المحكمة العليا، وكان يقول: إنه قد يكون للرجل الذكي طابعُ العنفِ نفسِه أو الآمالُ نفسُها، لكنه ينفذها بطريقة أفضل من الجاهل، حيث سيقوم العقل بالحكم، ما كان (سقراط) يستغرب الفوضى التي كانت سائدة في دولة يحكمها الجهل، وتوضع قراراتها بلا حكمة، ويقول: إنه لا جدال أن الإدارة تحتاج إلى أعظم العقول وأحسنها، وأن الدولة لا تكون قوية إلا إذا تولى أمرها أحكم رجالها وأعقلهم.

يقول (سقراط): إن السُّوفِسْطائيين دمروا عقول الشباب بكثرة الآلهة، التي لا تعاقب المذنب الذي يخالف قوانين الدولة، مهما كانت أفعالُه مضرَّةً بالأخلاق، لذلك نادى (سقراط) بوجود إله واحد، وأنكر آلهة المدينة، ونادى بالتحرر من خرافات القرابين.

وقال: إن معارفَنا مؤلَّفَةٌ من (**إدراكات جزئية**)، تأتينا عن طريق الحواس وتختلف باختلاف الأفراد، ومن (**إدراكات كلية**) عامة لا نُحِسُّ بها، ليس لها وجود خارج العقل، تقوم بتحديد النوع الذي تدركه عقولنا بجَمْعِ الصفاتِ التي يشترك فيها كل أفراد النوع، وبإلغاء الصفات العارضة التي تظهر في بعض الأفراد، سمَّاها **الإدراكات العقلية الكلية** التي نؤسس عليها المعرفة، ولا يهم

(١٣١) (سَفْسَطَ): غالط وأتى بحكمة مضلِّلة (من اليونانية). "السوفِسْطائية": فرقة ينكرون الحِسِّيَّات والبدهيات وغيرها. المعجم الوسيط، ص ٤٣٣.

اختلاف الإدراكات الحسية باختلاف الأفراد، **فإذا كان العقل سليماً تكون الإدراكات العقلية الكلية متماثلة**، وبها نضع لكل شيء تعريفاً وحدوداً ومقاييس ثابتة للحقيقة.

وقال أيضاً: إن الموت لا يُفني روح الإنسان.

إن آراءه هذه سببت ثورة بين الشباب، لكنها لم تنجح، وعُدَّ هو قائدها، وحُكِمَ عليه بالموت بالسم، أو التراجع عن آرائه بآلهة المدينة، ففضل الموت قائلاً: "إني قد لا أموت إذا مُتُّ بهذه الطريقة"، وعند تنفيذ الحكم قال لتلاميذه: "افرحوا وقولوا إنكم توارون في التراب جسدي فقط".

كان (أفلاطون) أروع من وصف آخر لحظات (سقراط) الذي عُدَّ أول شهيد للعقل، وهو القائل: "لا أعرف إلا شيئاً واحداً وهو أنني لا أعرف شيئاً"، وقال: "إن الفلسفة تبدأ حينما يتعلم الإنسانُ الشكَّ".

٢- (أفلاطون ٤٢٧-٣٤٧ ق.م)[١٣٢]:

حمل (أفلاطون) لواء الفلسفة بعد أستاذه (سقراط)، حيث قدم أول فلسفة كاملة، وضعها في إطار جمهوريته الأفلاطونية المثالية المتطرفة، إلى حد يستحيل معه تطبيقها في المجتمعات الإنسانية، فقد **نادى بإلغاء الحياة الأسرية، وبشيوعية الأطفال والزوجات بين أفراد الطبقة الحاكمة والجيش، حتى لا تكون لهم أية اهتمامات أخرى**، ونادى بديموقراطية الشعب والمساواة في التعليم، ورفض الاعتماد على الحواس فقط لمعرفة الحقيقة، وعَدَّ أن هذا الاعتماد يُنْكِرُ الحقائقَ الواضحة عن العدالة والحكمة والروح، **ورفض اعتماد العقل فقط ليكون مصدراً للحقيقة**، وعَدَّه إنكاراً للمادة، وقال: إن الكائن الحقيقي يستطيع أن يحيا ويفكر ويتحرك ويتعامل مع المادة أيضاً (بمعنى عدم إلغاء المادة من حسابات العقل).

---

(١٣٢) (أفلاطون): من مشاهير فلاسفة اليونان.

اهتم أفلاطون بأُصول المعرفة، وقال: "إن الحواس لا تُدرِكُ الفضيلةَ والرذيلةَ، بل عقولنا التي تقارن الإدراكات الحسية بـ(المُثُل) الموجودة في عقولنا، والتي أخذتْها نفوسُنا حينما كانت عند الله في عالم (المُثُل)، لكن النفس نسيت هذه (المُثُل) عندما حلت في الجسد، وبذلك يكون العلم بالشيء هو تذكُّرٌ للمُثُل المنسية، والجهل هو نسيانُ تلكَ (المُثُل)" وعدم تذكرها.

كما اهتم أيضاً بماهية الأشياء، وقسمها إلى (الشيء ذاته) و(سوى الشيء)[١٣٣]، وقال: "حيث إن كُلَّ شيء هو الشيءُ نفسُه بالنسبة لذاته، وهو (سوى الشيء) بالنسبة لكلِّ شيء آخر، وحيث إن (سوى الشيء) بالنسبة (للشيء نفسه) معناه (عدم الشيء) فيكون (السوى) نوعاً من لا وجودِ الشيء (أي اللاوجود) أو (العدم)، وهذا النوع من اللاوجود، موجود في كل مكان، مادام كل شيء هو السوى بالنسبة إلى كل شيء آخر، فنكون بصدد نوع من اللاوجود الموجود (أي الإله الموجود غير المرئي)".

وقال: "إذن لا غرابة في أن يكون الشيء هو السوى بالنسبة إلى شيء آخر".

وقال: "إن هذا النوع من اللاوجودِ لا يضادُّ الوجودَ، ولكنه سواه فحسب، وعلى ذلك فلا وجود الكرسي موجود وهو كلُّ شيءٍ سوى الكرسي، أي اللاوجود موجود وجوداً ثابتاً".

في هذا نقول: إن (أفلاطون) قد وضع فرضية غير مقبولة، حيث يَعُدُّ أنه إذا كان الكرسي موجوداً، فاللاوجود للكرسي هو أي شيء موجود غير الكرسي، وليكن الشباك، وبما أن الشباك موجود فإن اللاوجود موجود، لاحظ كيف انتقل من التخصص من قوله (لاوجود الشيء موجود) إلى التعميم بقوله (اللاوجود موجود) ويَعدُّها إثباتاً لمقولته.

---

(١٣٣) أي ما هو "خلاف الشيء" نفسه.

على الرغم من أن (أفلاطون) يحاول إثبات وجود الله (الذي يعده بمثابة اللاوجود الموجود بالنسبة إلى مخلوقاته الموجودة) بطريقة فلسفية، إلا أنه أجرى مقارنة يسهل نقدها وأدت إلى مشكلة كبيرة، لأنه يحاول تطبيق قوانين المادة المحسوسة بحواس البشر، على الخالق غير المحسوس بها، كما يمكن الاستنتاج من محاولته هذه بأن اللاوجود له وجود مادي (لأن الشباك هو لاوجود الكرسي)، ثم يأتي من يستند إلى ذلك ويقول: إن الله مادي. فتكون بداية لقبول التجسد والتقمص.

أعدُّ هذه المقارنة من شطحات الفلاسفة، إذ يَصِلون إلى نتائج غريبة بوضع مقدمات أكثر غرابة، ثم يقومون بطفرات غير مقبولة باستخدام تعابير براقة.

أليس الأصح والأقرب للعقل والحسِّ والمنطق أن نقول: إن (لا وجود الشيء) هو (عدم الشيء) وحيث لا يمكن للعدم أن يكون شيئاً **فلا يصح** أن نقول: إن شيئاً ما هو لا وجود لأي شيء آخر موجود.

على أي حال إن ما يهمنا من فلسفة (أفلاطون)، هو محاولته إيجاد مكان للفكر العقلي المثالي، المؤمن بوجود خالق بين الفلسفات المادية الإلحادية، وأنه كان للملحدين حجرَ عثرةٍ، وسداً منيعاً أمام نشر أفكارهم.

إن معرفة رأي الفيلسوف عن بداية الكون، هي الدليل الأكبر على منهج الفيلسوف الإلحادي أو الإيماني.

قال (أفلاطون): اللهُ موجودٌ وهو خالقُ العالمِ ومدبرُه، وبرهانه هو النظام الدقيق في الكون الذي يدل على صفاتِ صانعه، لكنه لم يستطع تصور خلق مادة العالم من العدم، **فقال بقِدَمها**، وبأن الله خلق لها الصورة فقط، **حيث كانت لا شكل لها ولا صفة.**

لقد وصف (أفلاطون) المادَّة بصفات العدم نفسها، ولكنه عجز عن تَقَبُّلِ خلق العالم من عدم، فقال: إن الله وجد مادة لا شكل لها ولا صنعة؛ فشكَّلها على صورة (المُثل)، فصارت شيئاً مُعيناً يمثل ما عند الله من (مُثل).

ماذا لو قال: "إن الله تعالى خَلَقَ العالَمَ من العدم الذي لا شكل له ولا صفة"، أليس هذا هو ما يعنيه نفسُه؟ لكن محاولته الدخول في سر الله وكنهه جعلته يشذ عن الطريق الصحيح ويخرج بإله لا يخلق بل يشكِّل.

٣- (أرسطو ٣٨٤-٣٢٢ ق.م)[١٣٤]:

استلم سُدَّةَ الفلسفة بعد (أفلاطون) تلميذُه (أرسطو)، وقال: إن الإدراكات الحسية والتجارب التي تمر بالعقل في مرحلة المقارنة، والتأمل، والتعليل، والقياس، والاستنتاج، هي الأساسيات التي يقوم عليها الحُكم الذي يُعَدُّ الطريقَ الفطري والمنطقَ الفكري الذي تستند عليه المعرفة.

و(أرسطو) هو مؤسس (الفلسفة الحسية) و(علم المنطق)، ويفترض أن الفكر يبدأ بالمقدمات ويبحث عن النتائج، وليس العكس، **ولما أراد تفسير نشأة العالم** تعثر أيضاً بعقبة قدم المادة التي ورثها عن أستاذه، فقال باستحالةِ تصورِ وجودِ مادةٍ لا شكل لها ولا صورة، مخالفاً تَصوُّرَ أستاذه (أفلاطون)[١٣٥]، فانتهى إلى فكرة قال عنها **(قابلية التلقي)**[١٣٦] التي تلقت عِلاَّتها من الله الذي صوَّرها على هيئة معينة ولغرض معين، فكان (أرسطو) هو صاحب (فلسفة العلل الأربعة)[١٣٧] في نشأة الكون:

---

(١٣٤) (أرسطو Aristote): من كبار فلاسفة اليونان، تأثرت بوادر التفكير العربي بمؤلفاته.

(١٣٥) قال (أفلاطون): إنَّ المادة الأصل ليس لها شكلٌ ولا صفةٌ".

(١٣٦) يجب عدم فهم هذه القابلية على أنها صفة للعدم، وإلا سندخل في نقاش يعود بنا إلى "عَدَم" له مواصفات وهذا مرفوض، حتى إنه لا يصح من الناحية الفلسفية أن نقول إن صفة "العدمِ" الوحيدة أنه لا صفة لها، لذلك علينا أن نبقى ضمن التعريف بأن "العدم" لا صفة له ولا شكل.

١- العلة الفاعلة : (ما) أو(من) الذي أوجد الشيء؟

٢- العلة الصورية : ما هو بحكم الشيء.

٣- العلة المادية : ما صُنع منه الشيء.

٤- العلة الغائية : ما هي وظيفة الشيء والغاية منه؟

يقول أرسطو: "إنه يؤمنُ بوجود خالق، هو المحرك الأكبر للكون، ولكنه هو نفسه لا يتحرك، حيث هو كائن معنوي مهيمن لامادي غير مرئي لا مكان له ولا جنس أبدي أزلي، لم يَخلق العالم بل يُحركه كما يُحركُ المُحِبُ المحبوبَ، والأشياءَ يحركها شوقٌ، إلى محاكاة الفاعلية الأزلية للإله".

ويقول: "إن الخالق لا يفعل شيئاً، وليست له رغبات ولا إرادة ولا هدف، بل هو حيوية خالصة، **لدرجة أنه لا يعمل أبداً**، وله الكمال المطلق، لذلك لا يرغب في شيء، **وينحصر عمله بالتفكير في جوهر الأشياء التي هي الله نفسه، فعمله الوحيد إذن هو التفكير في نفسه**، ويقول: إن الكائنات لا تحتاج إليه، لأن البيضة تخلِّف دجاجة، والشجرةُ تخلِّف مثلَها، دون الحاجة إلى عناية إلهية لتنظيم سير الحوادث".

ويقول أيضاً: "إن نهاية العالم أمر داخلي ينسجم مع العناية الإلهية"(١٣٨).

هنا نلاحظ إلى أين ذهب عقل (أرسطو)، عندما أراد البحث في ماهية الله تعالى، في البداية رفض وجود مادة الكون من غير صورة ولا شكل، فتوقعنا أنه سيقول بأنَّ الله تعالى هو الذي خلق هذه المادة وشكّلها، فإذا به يقول بعد شرح طويل بأنَّ الله لم يخلق مادة الكون بل حركها، فعاد بنا إلى إله

---

(١٣٧) "قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن": الشيخ نديم الجسر، ص ٤٢.

(١٣٨) مجمل أقوال (أرسطو) هذه تشكل غالبية الأفكار التي يؤمن بها الأوربيون حتى الآن، وكثيرون من هؤلاء يذهبون إلى الكنيسة غيرَ فطنين إلى تضارب المعتقدات، وهنا نلاحظ أنَّ اختلاط الأفكار وتضاربها لا يشكل عندهم عقبة إيمانية، ويدلُّ على عدم تعمقهم في مفهوم هذه الأفكار، وأن زيارتهم للكنيسة من العادات الشكلية.

(أفلاطون) نفسه، **وأضاف إلى ذلك أنه نعته بصفات لا تليق بإله، فخرج بإله كسول لا هدف له ولا إرادة، يحصر عمله في التفكير بنفسه، لا تحتاج إليه كائناته، إله صُوريٌ ليس له عمل مفيد. ربما لو أنكر هذا الإلهَ لكان أقرب إلى الفهم من إله بهذه المواصفات.**

إن ما وُصف به (أرسطو) (قابلية التلقي) هي مواصفات العدم نفسها، فالعدم ليس مادة وليس له شكلٌ ولا صفة، وهو قابل لتلقي الخلقِ من إله لديه قدرة الخلق من هذا العدم، أليس الأجدر به لو أنه بنى على افتراضه الصحيح نتيجة صحيحة، **كان يقول:**[إن المادة بلا شكل ولا صورة"، ثم يضيف: وهذا يسوقنا إلى احتمالين:

أ- الأول: لا يمكن خلقُ الكون المادي دون شكلٍ ولا صفة، واعترافي -قول (أرسطو)- بأن الله أول من شكّل مادة العالم، يلزمه القول بأنه قد خلقها لأن الخلق والشكل والصفة متلازمة بعضها مع بعض، **فتسقط أزلية المادة.**

ب- والثاني: أنَّ ملازمة الشكل والصورة لخلق المادة، لكن عدم اعترافي (اعتراف أرسطو) بأن الله خلقها، يستوجب أنَّه لا يوجد شكل ولا صورة للمادة، أي الخالق غير موجود والمخلوق غير موجود، وهذا يخالف اعتقادي بوجود الخالق، ووجود المخلوقات، يدل على أن الذي شكّل المادة هو الذي خلقها ثم شكّل منها، **فتسقط أزلية المادة**، ويسقط الاحتمال الثاني].

إن (أرسطو) لا يتوانى عن نصيحة النفاق للحكام، بإقامة الشعائر الدينية، ليقلل من خوف الناس منهم، فتقل مؤامراتهم على حكامهم، وهذا هو المصدر الذي أخذ منه (فولتير) ضرورة أن يكون كل المتعاملين معه مؤمنين بالله، حتى لا

يسرقوه ولا يتآمروا عليه، وأيضاً أخذ منها (بولس) ما قاله في رسالته الأولى إلى تيمُوثَاوس[139] (٢:١-٣).

أما عن قوله بأن الفكر يبدأ بالمقدمات، ثم يبحث عن النتائج، فلست أدري أية فكرة أولية وضعها صانع الطائرة ليصل إلى الطائرة، أو مصمم السيارة، للوصول إليها، ألا ترى معي أنه ابتدأ بالنتيجة بأن تصور وظيفة الطائرة وشكلها من الطيور، ثم أخذ يضع المقدمات، ويستخدم البدهيات والحقائق العلمية الثابتة التي توصله إلى النتيجة التي يقصدها بدايةً؟ **وذلك بالانطلاق مما يعرف إلى ما لا يعرف، وبخطوات تدريجية جدلية، بين النتيجة والإبداع توصله إلى تحقيق هدف مسبق التصور!.**

بما أن الفلاسفة القدماء كانوا يتدخلون في كل شيء، ويفلسفون كل شيء، فقد قال (أرسطو) في الطب: إن الرجل لا يُخصِّب المرأة، بل يقوي فقط الجنين الموجود فيها أصلاً.

وقال: إن الدماغ هو عضو لتبريد الدم.

وكان أول من أوجد علم الأجنة معتمداً على المشاهدة بالعين المجردة، بأن كسَر بيض الدجاج في مراحل مختلفة من حضانة البيض، ووصَف حالة الجنين.

وقال إن الذكاء والعقل وتحرك النوع، وتزايد التخصص والتركيز المستمر، **جعل الحياة تخلق لنفسها** جهازاً عصبياً، فتَحَرك العقل لسيادة البيئة المحيطة به.

وقال: إن الإنسان استخدم يديه لأنه أصبح ذكياً، ولم يصبح ذكياً لأنه استخدم يديه.

(١٣٩) رسالة (بولس) الأولى إلى تيموثاوس (٢:١-٣): "فأطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات، لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب، لكي نقضي حياة مطمئنة في كل تقوى ووقار، لأن هذا حسن ومقبولٌ لدى مخلصنا الله".

وتساءلَ: لماذا تلدُ الزنجية أطفالاً بيضاً لأبٍ أبيض؟ فكان الجواب عند (مندل) بعد مئات السنين.

لكن على الرغم من النقاط التي لم يُصب فيها (أرسطو) الهدف، فإنه يُعَدُّ من أفضل فلاسفة ما قبل عصر التنوير، وبقي مالئ الدنيا وشاغل الناس طيلة مئات السنين، وكانت كتبه تدرس في جامعات إنجلترا وكأنها منزهة عن الخطأ، وأفكاره عن الله راسخة في عقول الأوروبيين بشكل عام حتى الآن!.

في ذلك الوقت، لم يفهم الناس هذه الفلسفات على أنها دعوة ضد الدين السائد المتعدد الآلهة، بل كانت نوعاً من الترف الفكري، لكن الفلاسفة اللاحقين، الذين فسروا أكثر، وعمقوا بحوثهم أكثر بعد ظهور المسيح، وحتى القرن الثامن عشر الميلادي، كانت فلسفتهم لا تخرج ظاهرياً عن الاعتراف بوجود الله، وخلافاتهم مع الكنيسة انحصرت ضمن الإيمان بالله خالق الكون مع تصورات مختلفة لصفات الخالق.

ومع ظهور الاكتشافات العلمية المتوالية، ومعارضة الكنيسة لها، ازدادت النقمة ضد الكنيسة المسيحية، التي كانت مسيطرة بشكل كامل على الحكم بيد من حديد.

٤- (مارتن لوثر)[140] و(كالفن)[141]:

إنَّ (مارتن لوثر) الألماني كان أول من اعترض على الكنيسة علنياً، وكان لاعتراضه تأثير كبير لأنه كان من رجال الكنيسة أنفسِهم، وكان كاتباً ومفكراً، انفصل عن الكنيسة وطالب بإلغاء صكوك الغفران، وسلطة البابا في تفسير

(١٤٠) (مارتن لوثر Luther, ١٤٨٣-١٥٤٦م): راهب ومفكر وكاتب ألماني، بدأ الإصلاح الديني ثم انفصل عن الكنيسة عام ١٥١٧م، نقل (التوراة) إلى الألمانية.

(١٤١) (جون كالفن ١٥٠٩-١٥٦٤م): مصلح فرنسي، نشر في فرنسا وسويسرا مذهباً حمل اسمه، اشتهر بكتابه "الأسس المسيحيّة".

(الكتاب المقدس) وتعديله، وطالب بزواج الرهبان، وإلغاء الرهبنة والعشاء الرباني، وأيده في ذلك الفيلسوف الفرنسي (كالفين)، الذي ألف كتاباً أسماه (الأسس المسيحية).

لم ينجح (لوثر) و(كالفين) بما طالبا به، لكنهما استطاعا فتح باب معارضة الكنيسة، مما مزَّق عنها ثوب المهابة، وخرجا بمؤيديهما عن خط كنيسة روما المسيحي، وظهرت فرقة عُرف معتنقوها بالبروتستانت (وتعني المحتجين).

كثرت المدارس الفلسفية وتفرعت، وصار لكل منها مؤيدون، واقتبس بعضهم أفكاراً من الفلسفات الشرقية، أدخلوها على المعتقدات الأوربية وعلى الدين المسيحي، مما أدى إلى هبوط المستوى الديني بين الناس، وشبهِ فقدانه بين العلماء والمفكرين، خاصة بعد محاربة الكنيسة للاكتشافات العلمية، واضطهاد العلماء، وهذه غلطة لا تغتفر للكنيسة، إذ أعطت الناس مبرراً قوياً للخروج على تعاليمها، **لذلك فإن تَجاهُل مثل هذه الأيديولوجيات، إنما يُلغي حلقة هامة من سلسلة البحث عن الحقيقة الكبرى.**

إن هذا الاضطهاد، كان ناتجاً عن تفسيرات خاطئة لما ورد في (الكتاب المقدس)، فقد رفض رجال الكنيسة اختراع مصباح يعمل بالزيت لمهندس ألماني، وحكموا عليه بالحرمان، وعللوا ذلك بتفسير خاطئ لما ورد في:

- سفر التّكوين (١: ٤-٥): "وفَصَلَ الله بين النُّورِ والظُّلْمَةِ، ودَعَا اللهُ النُّورَ نهاراً والظُّلْمَةَ دعَاها ليلاً".

وعدُّوا أي عمل يغير ذلك خروجاً عن التعاليم الإلهية وتدخلاً في إرادة الله، وبمثل ذلك حكمت على العالم الفلكي (غاليليو ١٥٦١-١٦٤٢م) بالسجن والحرمان[١٤٢]، إذا لم يسحب مقولته بدوران الأرض والاعتذار عن ذلك، فأنكر

(١٤٢) "عصر الإلحاد": محمد تقي الأميني، ص ٤٢.

قوله ظاهرياً واعتذر للكنيسة، وكذلك (كوبرنيكس ١٤٧٣-١٥٤٣م)[١٤٣]، و(جوردانو برونو ١٥٤٨-١٦٠٠م)[١٤٤] وكانت حجة الكنيسة في ثبات الأرض، أن المسيح ابن الله سكنها، ولا يليق له أن يسكن في غير مركز الكون، لذا يجب أن تكون المركز ، والمركزُ ثابتٌ والكل يدور حولها[١٤٥]!.

واتُهم (فرنسيس بيكون)[١٤٦] -أحد أعظم العقول الفلسفية- بالإلحاد، فدافع عن نفسه بقوله: "قد لا أعتقد بجميع القصص والأساطير التي جاءت في الكتب السماوية، ولكن لا يمكن أن أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم".

إنَّ القليل من الفلسفة قد يدفع عقل الإنسان إلى الضياع ثم الإلحاد، لكن التعمق الشمولي فيها سينتهي به إلى الإيمان، وإنَّ قلة الاكتراث بالدِّين تعود إلى كثرة المذاهب الفلسفية، والانقسامات الدينية التي تؤدي إلى التطرف، وهذا بدوره يؤدي إلى ابتعاد العامة عن الدِّين برمته.

(١٤٣) (كوبرنيكس): فلكي بولوني قال بدوران الأرض حول مركزها، وحول الشمس الثابتة، فلقب بالمنجم ثم قضي عليه.

(١٤٤) (جوردانو برونو): فيلسوف إيطالي أيد (كوبرنيكس)، فسجن سبع سنوات، ثم اتهم بالزندقة وأحرق في البندقية.

(١٤٥) أوردت صحيفة (الغارديان) البريطانية في حزيران (يونيه) ١٩٨٣ أن الكنيسة بالفاتيكان عقدت لجنة علمية دينية برئاسة البابا (جون بول الثاني) لرد اعتبار (جاليلو)، وتصحيح خطأ الكنيسة بشأنه، وبسبب تشكيل هذه اللجنة، وتبرئة (جاليلو) والاعتذار منه، أرسل الشيخ أحمد حسين ديدات رسائل إلى البابا يطلبه بها للحوار المباشر أمام عشرات الألوف للتراجع عن خطأ آخر، قال الشيخ ديدات: إن الكنيسة رفضت أيضاً في القرن السابع الميلادي ما جاء به الرسول (محمد) عليه الصلاة والسلام، والآن بعد ثبوت أخبار ما جاء به الإسلام في نواحي الحياة كافة، وخاصة الناحية العلمية التي افتتنت بها أوروبة، فإنني أدعو كل كِتابيٍّ سواء أكان مسيحياً أم يهودياً أن يتدبر معي هذه الآيات المعجزات من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل وتتحداكم أن تقولوا إن هذا إلا قول البشر. [انظر صحيفة (المسلمون) السنة السادسة، العدد٢٧٧، الجمعة ١٤١٠/١١/١هـ - ١٩٩٠/٥/٢٥م ص٣، تحت عنوان: بابا الفاتيكان يتهرب من مناظرة ديدات].

(١٤٦) (فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦م): ولد في البلاط الإنكليزي، اعتلى أعلى المناصب القضائية، اتهم بالرشوة فعزل من منصبه، وضع منهجاً جديداً للكشف العلمي في كتابه "فكر وانظر"، له مؤلفات كثيرة جداً، تمرد على الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية، حاول إحياء فلسفة (ديموقريطس) المادية، تكمن أهميته في تاريخ الفكر لأنه قد أكد أهمية إقامة العلم إلى أساس الملاحظة، عُدَّ الرائد الأول للبرغماتية القائلة: "إن المعرفة هي القوة".

٥- (ديكارت ١٥٩٠-١٦٥٠م)[١٤٧]:

ظهر الفرنسي (ديكارت) بفلسفة تعتمد على (الشك المنهجي)، بمعنى الشك بكل ما هو بدهي، ويبرر هذه الفلسفة بأننا في الحلم نرى أشياء نحسب أنها مادية، فكيف نثق بما نراه خارج الحلم؟ وأخذ يشُك حتى في جسمه المادي، الذي يشابه بقية الأشياء التي يحلم بها، فلِم لا يكون وهماً أيضاً؟ والثابت عنده أنه يشك وهذا دليل على وجود الفكر الذي يشك به، فأصبح صاحب المقولة المشهورة: "أنا أشك إذن أنا موجود"، لكنه لا يشك بأنه قد مرّ بخبرات شك متعددة، كانت تبدو فيها الأشياء وكأنها موجودة فعلاً، وهذا يثبت أنه (كائن مفكر).

من هذا استنتجَ (ديكارت) أنه لا بُدَّ من وجود (كائن كامل)، خارج ذات الإنسان هو الله الذي أعطى الدفعة الأُولى، وبما أن ما هو أكبر لا يمكن أن ينتج عما هو أقل، ولذلك فإن الله (الكائن الكامل) لا يمكن أن توجده قدرة ناقصة لذلك لا بدَّ لنا من القول بأزليته، ولأن هذا الكائنَ كاملٌ، فهو غير مخادع، لا يخدع الإنسان -الكائنَ المفكرَ- فتصل به الخديعة إلى أن يؤمن بالله، ويقول (ديكارت) أيضاً: إنَّ وجود (الكائن الكامل) هو الضمان على سلامة ذاكرة (الكائن المفكر).

المشكلة في أسلوب (ديكارت) لإثبات وجود الله، هي أنه استخدم استدلالات استنتج منها وجود (الكائن الكامل)، بينما يمكن أن نطبق عليها شكوكه المفترضة، فنخرج بكائن كامل موجودٍ، مشكوكٍ بوجودِه.

وفكرته عن الموت كان يُعبِّرُ عنها بتساؤل: "هل الجسم يموت لأن النفس تغادره، أم أن النفس تغادر الجسم لأنه مات"!؟. ويقول: إن النفس ترتبط بالجسم

(١٤٧) (ديكارت Descartes): فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي، قال بالتحرر من الفلسفة التقليدية المدرسية واعتمد طريقة الشك المنهجي، قال: إنه يمكن أن نستنتج وجودَ الله من مجرد تصورنا لكماله الإلهي.

أثناء حياته، على نحو يمكن معه للنفس أن تحدث بعض حركات الجسم، ويمكن لبعض تغييرات الجسم أن تُحْدِثَ بعض خبرات النفس، وعلاقة **الجسم** -الذي سماه بالجوهر الممتد- **بالنفس** -التي سماها **بالجوهر المفكر**- إنما هي علاقة ثنائية (أطلق عليها مذهب الثنائية[١٤٨])، وبها حاول (ديكارت) التوفيق بين الإيمان والعلم.

صَوَّر (ديكارت) (الميتافيزياء) بجذور شجرة المعرفة، تكون الفيزياء جذعها والعلوم الأخرى فروعها، والجذور هي التي تدعم الفروع، وهكذا كانت فلسفة (ديكارت) بمجملها فلسفة ميتافيزيائية[١٤٩] دينية كما كانت فلسفة علمية، فقد آمن بالعالم المادي، وبإله خارج العالم المادي، وبروح داخل الكائن المادي.

٦- (باسكال ١٦٢٣-١٦٦٢م)[١٥٠]:

نادى الفيلسوف الفرنسي (باسكال) بإيمان المراهنة، إذ قال: ليس ثمة أسس عقلية لا للإيمان ولا لعدم الإيمان، وعلى ذلك لا يكون الإيمان أقل معقولية من عدم الإيمان، ومادام الأمر كذلك فلنراهن على صحة الدين فنكسب إذا كان صحيحاً ولا نخسر إذا كان مزيفاً!.

أرجو من الباحث عن الحقيقة ألاّ يَملَّ التسلسل الفلسفي المختصر الذي أورده، وذلك لأنها حلقات توصِلُنا في النهاية إلى مناقشة الفلسفة المادّية (وتُمثلها الفلسفة الشيوعية)، التي هي الأكثر إنكاراً للخالق، والأكثر إصراراً على أزلية المادة.

(١٤٨) مذهب الثنائية: مذهب فكري يقسم كل شيء إلى مقولتين، أو يستمد محوره من تعارض ما، كالتعارض الذي نجده في فلسفة (أفلاطون) بين العالم الذي تدركه الحواس، وعالم الصور الذي يعرفه العقل، أو كالتفرقة التي يقيمها (كانْت) بين عالم الظواهر وعالم البواطن.

(١٤٩) الفلسفة الميتافيزيائية: هي فلسفة ما وراء الطبيعة من غيبيات لا تُدركُ بالحواس، مثل فكرة الله، والدين، والآخرة، والملائكة، والشياطين، وكل الأمور العقلية والروحية، وهي عكس "الفلسفة الواقعية".

(١٥٠) (بليز باسكال Pascal, ١٦٢٣-١٦٦٢م): فيلسوف ورياضي وأديب وفيزيائي فرنسي، له اكتشافات علمية، له كتاب "الخواطر" الذي يدافع فيه عن المسيحية.

٧-(سبينوزا ١٦٣٢-١٦٧٧م):

(سبينوزا) فيلسوف هولندي يهودي، حُكم عليه بالفصل من الشعب اليهودي بسبب أفكاره الإلحادية، إذ قال: إن الله له جسم مادي، والملائكة خلط وهذيان، والتوراة طافحة بالمتناقضات، ولم يعترف بألوهية المسيح، اعتمدت فلسفته على ثلاثة اصطلاحات:

أ- **الجوهر**: وهو الحقيقة الأساسية الثابتة، والنظام الأبدي الإلهي، وهو **القسم الفعّال من الله**.

ب- **الصفة**: وهي إحدى مظاهر الجوهر كالفكر.

ج- **العَرَضْ**: وهو شيء معين، أو شكل، أو حادث، أو فكرة منفعلة مخلوقة، وهي من إنتاج الجانب الفعال وخَلْقه.

أي إن **الجوهر** هو القسم الفاعلالخالق من الله، **والعَرَض** هو القسم المنفعل المخلوق من الله، ولذلك **كان يقول: إن الله والطبيعة أمر واحد**، وعندما اتُهِم بالإلحاد قال: "إني أعتقد أن الله هو الأصل وليس حادثاً طارئاً، وهو السبب لجميع الأشياء، وأن كل شيء كامن في الله، وكل شيء يحيا ويتحرك في الله".

فالله عنده هو السلسلة السببية الكامن وراء كل الأشياء، وهو قانون تركيب العالم.

من أقواله أيضاً:

أ- "إن إرادة الله وقوانين الطبيعة اسمان لحقيقة واحدة، والأحداث في العالم هي نتيجة آلية لهذه القوانين، وليست نزوة حاكم مطلق يجلس في النجوم، وهذه الآلية تشمل الله والعقل"، [بينما (ديكارت) قَصَرَ هذه الآلية على المادة فقط].

ب- "إن العالم جبري وليس مقصوداً بإرادة إلهية، وليس له غرض، وهو يسير في طريق لا مهرب له منه".

جـ- "الإنسانُ يقول: إن العالم وضِعَ لصالحه، وأن الله يحمل صفات الإنسان من سمع وبصر وتفكير و...، فلو استطاع المثلث التفكير لقال إن الله مثلث الأضلاع، ولقالت الدائرة إن الله دائري في سموه!. وهكذا يخلع كل شيء صفاته الخاصة على الله".

ويتابع فلسفته بأن يَعُدَّ أنه لا العقل، ولا الإرادة ينطبقان على طبيعة الله بالمعنى البشري، لكن إرادةَ الله هي مجموعُ الأسبابِ والقوانينِ كلها، وعقلَ اللهِ هو مجموعُ العقول كلها، ويقول (سبينوزا) أيضاً:

أ- "إنه يمكننا القول: إن الله هو الحقيقة الأبدية وراء تدفق الأشياء، وإن له عقلاً وجسماً، فلا العقل وحده، ولا المادة وحدها هي الله، لكنه (أي الله) هو العمليات العقلية التي تشكل تاريخ العالم المزدوج (أي العقل والمادة)، إن هذه العمليات وأسبابها وقوانينها هي الله".

نقول في هذا التعريف: إن (سبينوزا) قد حيرنا بموقفه من الله، فهو يقول: إن الله هو الحقيقة الأبدية وراء (خلقَ) الأشياء"، ونحن نؤيده في ذلك، أما ما ذكره عن أنَّ ..."له عقلاً وجسماً... وأنَّ المادة ليست وحدها هي الله..."، فنراه خروجاً عن كمال صفات الله، كما أن وضْعَ اللهِ ضمنَ إطارٍ مادي لا يليق بخالقِ المادة والكون، ونتساءل: كيف يكون الله هو العمليات العقليةُ التي تشكل تاريخ العالم المزدوج المادي والعقلي؟... نحن إن آمنا بالله، فيجب أن نؤمن بإله ليس هو مجموعَ أي شيء، وليس أيُّ شيء جزءاً منه، وما العمليات العقلية والمادية إلا خلقٌ من خلقه، وتدبير من تدبيره، ولا نقبل إلا بإله كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله.

ب- ويقول: "إن العقل ليس مادة كما يظن الجاهلون، والمادة ليست فكرة كما يظن الخياليون، والعمليات العقلية ليست سبباً ولا نتيجة، بل هي إرادة حرة، لأن ضرورة البقاء تقرر الغريزة، والغريزة تقرر الرغبة، والرغبة تقرر الفكر

والعمل، إن هناك سبباً يُسيِّرُ الفعل في اختيار إرادة هذا الشيء أو ذاك، وهذا السبب يُسيِّرُه سببٌ آخرُ، وهكذا بسلسلة لانهائية، يظن الناس أنهم أحرار في اختياراتهم، ويقارنون هذا الاختيار بالاختيار الذي يتمتع به حجر مقذوف في الهواء، إنه (أي الحجر) يظن أنه يحدد مساره بنفسه".

(سبينوزا) **إذن يؤمن بجبرية الاختيار** في حياة الإنسان، وهو لا يعتقد بالثواب والعقاب في الآخرة حيث يقول:

"إن الذين ينظرون إلى الفضيلة على أساس كونها إذلالاً للنفس، ويتوقعون أن يجزيهم الله على قدر إذلال نفوسهم، ويعتقدون بزيادة ثوابهم كلما ازدادوا إذلالاً لنفوسهم، إنهم أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة فهماً صحيحاً، لأنَّ عبادة الله والفضيلة هما السعادة نفسها والحرية الكبرى".

وهذا رفض كامل للعقائد الصُّوفيَّة المتطرفة.

أما قولنا في (سبينوزا):

أ - فإنه لاشكَّ، ذو عقل فلسفي محاور، بَهر الناس في كفره وفي إيمانه، في أثناء وجوده وبعد مماته، ولكن لنا على أفكاره بعض الملاحظات، إذ إننا نرى أنه قد قسَّم الله إلى قسمين: قِسم فعَّال أزلي أبدي، وقسم منفعل حادث له بداية ونهاية، يقوم قسمه الفعَّال بخلق جزئه المنفعل.

إن من سمو الله تعالى ألاّ ينقسم إلى أقسام، وأن نعدَّه مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله يخلق غيرَه، وأن غيره هذا ليس جزءاً منه بل مخلوق له فحسب، وإنه لمنْ تقليل شأن الله تعالى أن نقول: إن الله تعالى هو مجموعة قوانين تركيب العالم، وإن عقله هو مجموع العقول كلها؟ إننا نبحث عن إله لا تكون قوانين الكون إلا جزءاً لا يُنقِصُ من إمكاناته، إله كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله لا يكون الكون جسمه، فالمادة ليست جزءاً منه، ولا يقارَن عقله بمجموع عقول

مخلوقاته، لو قال: إن العمليات العقلية وأسبابها وقوانينها "**هي من الله**"، لكان أقرب للحقيقة من قوله "**هي الله**" لأن الله تعالى لا يُعرَّف بهذه الطريقة.

نقول: إنَّ أي تنازل في كمال الصفات الإلهية ولو كان يبدو طفيفاً جداً، سيغري أصحاب الأهواء لعمل تنازلات أخرى تَحُدُّ من كمال صفات الخالق، فيخرجون عن التوحيد.

مرةً يقول (سبينوزا): "الله هو الجوهر والأصل لكل الأشياء"، ثم يقول: "العالم جبري وليس مقصوداً بإرادة الله"، ونقول: إنَّ الجبرية تعني أن العالَمَ والله متساويان بالزمان، ولا يصحُ وجود واجبي وجود، ونحيل القارئ إلى المناقشات السابقة حول الموضوع نفسه.

ب - أما أنَّ العالمَ خُلق ليناسب حياة الإنسان وصالحَه، فليس أكثر من الدلائل على ذلك، ولقد أوردت بعضها في الجزء الأول من البحث، وأضيفُ أنني لست أدري لماذا سيظن الجماد -إن استطاع التفكير- أن الله تعالى خلق الأوكسجين له؟ ولماذا سيظن الحيوان أن الله تعالى خلق الحياء والفضيلة له؟ حتى هاتين الصفتين يختلف تعريفهما من جيل إلى جيل، ومن شعبٍ إلى آخر، وأما نعت الله تعالى بالصفات البشرية بأنه يسمع ويرى ويغضب ويعطف؛ فما ذلك إلا إعادة الصفات إلى أصلها وكمالها، وهذه الصفات التي تتمتع بها الكائنات هي من كمال صفات الله تعالى دون أن ينقصها وما تشابه اللفظ إلا لتقريب المعنى وفَهمِ القصد، وبعضُ الصفات لا توجد في الإنسان فقط، بل في كافة خلقِ الله، فالتوازن موجود في الطبيعة، والعطف والرأفة والقوة موجودة في الحيوان، وإن كان ما يقوله (سبينوزا) حول **إلقاء كل كائن صفاته على الله** صحيحاً، فلماذا لَمْ يُلقِ الإنسانُ المعاصر على الله تعالى بقية صفاته البشرية الأخرى التي يتنزه عنها كالتغذية والنوم والتعب والذرية؟

جـ - أما كون الإنسان مُسيَّراً في حياته كالحجر المقذوف في الهواء، فأرى أن المثال غير مطابق للحالة، فحتى لو فرضنا أن للحجر تفكيراً وأراد تغيير مجرى سيره لا يستطيع على الرغم من رغبته في ذلك، بينما الإنسان إذا أراد عمل شيء ضمن مجال اختياراته فالأمر له، يختار الخير أو الشر، فيسقط هذا التمثيل.

د - وأما كون الإنسان مُخيَّراً أو مُسيَّراً بشكل عام، فهذا حديث تطول مناقشته نختصره لهدف العلم بالشيء فقط، ولغرض عدم تجاوز نقطة هامة دون توضيح مبسط.

فنقول:

إنه من الواضح أن الإنسان لا يختار مكان ولادته وزمانها ولا أبويه، ولا يختار لونه ولا مستواه العقلي، ولا يختار كيفية حركة قلبه ورئتيه ونمو جسمه... ...إلخ، ولكنه فيما عدا ذلك فهو مخير يفعل ما يشاء بين الولادة والموت، بغض النظر عن الدافع الذي يدفعه إلى اختيار الخير أو الشر في عمله، وأما مجالُ إرادتِهِ التي هي لا شك ضمن المجال المطلق لإرادة الله تعالى، ولكنها تبقى إرادة الإنسان نفسه، فحينما يفعل الإنسان الشر؛ لا يكون قد خرج عن إرادة الله تعالى فيه، بل خرج عما يحبه الله تعالى منه، وعندما يقتل القاتل لا نقول: إن الله تعالى قتل، لأنه لم يمنع الفاعل عن فعلته، بل القاتل هو الذي فعل بإرادته التي منحها الله تعالى له، وبيَّن له الخير من الشر، فلو وَجَبَ تدخلُ الله تعالى عند كل شر لسقطت ضرورة الثواب والعقاب، ولسقطت الإرادة الحرة للإنسان، ولأصبح الإنسان مسيَّراً بشكل كلي، وهذا مخالفٌ للواقع، فلن يعاقبَ اللهُ الإنسانَ المجبرَ على فعل الشر لأن الله حرم الظلم على نفسه.

٨- (نيوتن ١٦٤٢-١٧٢٧ م)[١٥١]:

عندما ظهر الإنكليزي (نيوتن) واكتشف بالمصادفة قانون الجاذبية، **حاربته الكنيسة دونما سبب**، فهو لم يتدخل في ماهية الجاذبية نفسها، ولا في كيفية وجودها، ولا في سبب وجودها -والسبب لا يعرفه أحد حتى الآن- بل هو اكتشف فقط ما وضعه الله تعالى من علاقة الجاذبية بالأجسام.

كان (نيوتن) يؤمن بوجود الله تعالى بدليل قوله: "لا تشكّوا في الخالق، فإنه لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قاعدة الوجود، لأنها عمياء، متجانسة في كل مكان وزمان، ولا يتصور أن يصدر عنها هذا التنوع من الكائنات".

إن اضطهاد الكنيسة لـ(نيوتن) لأنه تجرأ -حسب قولهم- على تفسير قوة إلهية بقوانين مادية، جعل علماء الأجيال التالية يَعُدُّون نظرية الجاذبية هذه حجة لإلحادهم، وفي الوقت نفسه كان دوران الأرض قد تأكد بشكل لا يمكن إنكارُه بين العلماء، فازدادت الهوة بين الكنيسة والعلم، وأسهمت كثرة الاكتشافات المتتالية في خلق مصدر للمعرفة غير المصدر الكنسي.

٩- (فولتير ١٦٩٤-١٧٧٨ م)[١٥٢]:

لم يحيرني شخص مثلما حيرني (فولتير) الفرنسي بين كفره وإيمانه، فقد كان فيلسوفاً نشيطاً، ألَّف تسعة وتسعين كتاباً، وكان يقول: "إذا أردتَ ألاّ تنتحر، أوجد لنفسك عملاً، فكل الناس أخيار إلا الكسالى"، أيد الأفكار القائلة: إن العقل هو مصدر آخر للمعرفة، مع استمرار الإيمان بالله خالقاً للكون، **وانتشرت**

---

(١٥١) (السير إسحاق نيوتن Newton): فيلسوف وعالم ورياضي وفيزيائي وفلكي إنكليزي، له عدة اكتشافات أهمها قوانين الجاذبية، كما عمل في مجال الكهرباء هندسة الميكانيك.

(١٥٢) (فولتير Voltaire): مولف فرنسي ولد في باريس، من نوابغ فلاسفة زمانه، أقام في بروسيا وسويسرا، تزعم حركة الفلسفة العقلية المادية، ونَقَدَ رجالَ الكنيسة، تَطَرَّفَ في فلسفته وخرجَ عن الخط الديني عندما تعرَّض لأزلية المادة وللإرادة الإلهية.

على يده الفلسفة العقلية، وتطورت الفكرة، إلى أن تحولت إلى المناداة بأن العقل هو وحده(١٥٣) مصدر المعرفة اليقينية الصحيحة.

ثم تحول (فولتير) ونادى "بالإيمان الفلسفي" أي الإيمان بإلهٍ ليس خالقاً للعالم، له نبي هو العقل، وسماه أيضاً "دين الطبيعة"، وشبَّه الله بصانع الآلة ذاتية الحركة التي تخرج عن سلطة صاحبها بعد تركيبها، وإعطائها الحركة الأولى.

فيما سبق نقول:

كان هذا أول طريقه للكفر عندما قال: إنَّ الإله الذي خلق الكون لم يعد يستطيع التدخل به للسيطرة عليه، ويعلل ذلك بأن الكون يسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير، ولا حاجة للإله بعد الدفعة الأولى.

إنَّ **العامة من الناس** كانَت تعُدُّ عقول الفلاسفة غير قابلة للخطأ فتبعتها دون تفكير، وإني لست أدري ما الذي يجعل عظماء العقول الفلسفية ترفض الله بين الحياة والموت، وأرى في ذلك الرفضِ أكبرَ إثباتٍ على خطأ الاعتماد **فقط** على العقل في البحث عن الحقيقة.

ونقول عن الحاجة إلى الإله بعد الحركة الأولى: إنَّ أمْرَ الله تعالى القلمَ بكتابة تاريخ الكون كله، ووَضْعَ القوانينِ الثابتةِ للكون، لا يعني أبداً أنه لن يتدخل لتنفيذ ما كتبه بإرادته وبعلمه، ولإجراء معجزات تعاكس تلك القوانين، التي هي أصلاً دليلٌ على عظمة الله تعالى نفسه، أو لعملِ ما لم يضع له قوانين طبيعية قابلة للحسابات الرياضية، مثل استخدامِ جنودِهِ في عقابِ عباده كالكوارث والعواصف والأوبئة، إن مجريات الكون حُدِّدَت وأُريدَ لها ما أُريدَ بإرادة قديمة، ولكن التنفيذ يكون وقت حدوث الحدث، وحاجتنا للإله مستمرة ما استمرت الحياة والكون.

---

(١٥٣) هنا يظهر جلياً إنكار الفلسفات المتناحرة لأفكار بعضها إنكاراً كاملاً، ويتضح قصورها في معالجة الأمور الإنسانية من زوايا مختلفة الرؤية.

كما أني لست أدري ما السبب وراء إصراره على الخلق بالضرورة، وليس بالإرادة، ربما أستطيعُ تفَهُّمَ من يُنْكِرُ الله تعالى، أكثر من إدراكي لأفكار الذين يختبئون وراء اعترافهم بوجود الله تعالى، ثم يُعطونَه صفاتٍ لا تليق به، إنّ السببَ نفسَه الذي استخدمه (فولتير) للكفر بالله تعالى، يمكن استخدامه لإظهار عظمة الخالق، الذي أوجد هذه القوانين الثابتة للكون المنتظم، وهذا يبين أن التفسير إنما قُصِد به خدمة هدف في رأس صاحبه، كنور بعيد في الظلام، يريد الفيلسوف الوصول إليه لكنه لا يرى الطريق، فيتخبط في سيره ويرتكب طفرات غير مقبولة علمياً أحياناً، وغير منطقية أحياناً أخرى.

قال (فولتير): "إن الإيمان بالله مرتبط بالتسليم بحكم الفرد المطلق، وكلاهما ينهضان معاً ويسقطان معاً، ولن يتحرر الناس إطلاقاً إلى أن يُشنَق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، ولن تصحو الأرض على نفسها إلا عند تدمير السماء، وإنه من المستحيل فصل الوعي والشعور للمادة والحركة، **ولكن المادية سلاح ماضٍ ضد الكنيسة، ويجب أن نستخدمه ضدها إلى أن نجد شيئاً أفضل**".

لقد وجه (فولتير) نقدًا شديدًا إلى الكنيسة، وشكّك في صحة الإنجيل والوثوق به، وكان أول من حرك المشاعر ضد مظالم الكنيسة وقال: "إن أول كاهن هو أول محتال يقابل أول أحمق".

وفي هذا نقول: من أين أتى (فولتير) بضرورة الربط بين الإيمان باللهِ الواحد وبين حكم الفرد للشعب، هل نفهم أنه يطالب بنظام ديموقراطي لله؟ إنه يعلم جيداً أن لا ديموقراطية في الألوهية، ويعلم أن كرهه وحقده الأساسي ليس لنظام الفرد المطلق بل غضبه لأن الملك وطبقة النبلاء كانوا يدعمون الكنيسة **التي تعارض العلم والعلماء**، فصبَّ غضبه على رب السماء، ورمى تفسيراته الغريبة ووصفه بصفات أكثر غرابة، انتقاماً من الكنيسة مما أوقعه بالكفر بالله.

ويقول (فولتير): "نحن لا نعرف شيئاً عن العِلّة الأُولى، والحقيقة أنه لمن المغالاة

والتطرف تعريف الله والملائكة والعقول، وأن نَعرفَ لماذا خلق الله العالم؛ في الوقت الذي لا نَعرفُ فيه لماذا نحرك أذرعنا بإرادتنا، إن الشك ليس حالة مناسبة، ولكن اليقين حالة سخيفة، فأنا لا أعرف كيف وُجِدْتُ، إني طيلة حياتي أرى مادة ولا أعرف حقيقتها، إن الفلسفة الطبيعية هي أن نزن ونقيس ونلاحظ، وكل ما تبقى هو وهم وخيال".

هنا أيضاً لَنا اعتراضٌ على ما صرَّح به، فنقول: من قال إننا لا نعرف شيئاً عن الله؟ نحن نعرف كثيراً عن الله من الكتب السماوية وعديداً من صفاته وآلافاً من الأدلة على وجوده ابتداءً بالفطرة، وهذا يكفي العالِم الذي يستخدم والعقل والحواس لتقوية إيمانه الفطري بالله.

أما عن تعريف الملائكة وعن الحكمة من خلق العالم، فلا دخل للعقل في هذا المجال، إذ نكتفي بما جاء عن ذلك في ما لم يَثْبُتْ تحريفه من الكتب السماوية.

ونقول: إن عدم معرفتنا لماذا نحرك ذراعنا بإرادتنا، هو لطف من الله بعباده، إذ لو جعل عمل وظائف الجسم يلزمه معرفة خباياه، لوجب علينا إصدار أوامر منفصلة لكلِّ أداة على حدة، ولكل عضلة على حدة، ولكلِّ إفراز على حدة، ولكل شحنة تنقل معلومة من المخ إلى أنحاء الجسم على حدة، وهذا يستحيل على العالِمِ المتخصصِ فما بالكم بالإنسان البدائي الجاهل، وكيف سيقوم الحيوان بوظائف يستحيل عليه فهم ميكانيكيتها، إنه فقط يريد تحريك أطرافه فتتحرك دون ضرورة فهمه لماهية الحركة.

وأما عن المادة التي يراها ولا يعرف حقيقتها، فلا ألومه لأن علوم الدنيا في زمانه ما كانت متقدمة كما هي عليه اليوم وإلا لما قال ما قاله، مع أننا نعترف أننا لم نكتشف كلَّ خباياها، لكننا نعتب عليه أنه كان يستفيد من المادة دون معرفة كامل حقيقتها، ويستفيد من الشمس ولم يَكُنْ يعرف أي شيء عنها، ومع

ذلك لم يستخدم هذا للإشارة إلى عظمة الخالق وإلى عدمِ ضرورة **ربطِ كلِّ الاستفادة بكلِّ المعرفة.**

كان (فولتير) يرفض الركوع إلا لله وحده وكان يقول: "إن كان الإيمان بالله يخفف الجرائم فأنا أتمسك بالإيمان، وأدعو الجميع إليه، إني أريد من زوجتي وطباخي ومحاميَّ أن يؤمنوا بالله، وبذلك يقل غشُّهم لي وسرقاتهم لي، وإذا كان الله غير موجود، فيجب علينا أن نخترع إلهاً، **لأني بدأت أهتم بالسعادة والحياة أكثر من اهتمامي بالبحث عن الحقيقة".**

وأقول عن نفسي معقباً أيضاً: بما أني بدأتُ أهتم بالسعادة الأبدية، والحياة السرمدية أكثر من قبل، فإني أبحث عن الحقيقة الكبرى لاتِّباعِها بكل جوارحي، وأدعو كلَّ ذي عقلٍ إلى البحث عن الحقيقة.

وقبل موته عبر عن إيمانه بعد أن رفض غفرانَ راهبِ الكنيسةِ بقوله: "أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائي، وكراهية أعدائي، ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين".

وأنا أقول: ما أكبرَ ذنب الكنيسة إذ لم تستطع احتواء هذا الفيلسوف وأمثاله من العلماء، وما أعظم الدين الذي يحث على طلب العلم ويُبجِّلُ علماءَ الدين والدنيا.

إن إيمان (فولتير) و(فرنسيس بيكون) **بالعقل فقط، أدى إلى زيادة الإلحاد** وتقوية النزعة المادية بين الناس، حيث أخذ الدين يتراجع منذ (سبينوزا) وإلى (ديدرو)[١٥٤] الذي كان تجريبياً، من أتباع المفكر الإنكليزي (جون لوك)[١٥٥]،

(١٥٤) (دينيس ديدرو Diderot ١٧١٣-١٧٨٤م): فيلسوف فرنسي نشر مبادئ الإلحاد والفلسفة العقلانية.

(١٥٥) (جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤م): فيلسوف إنكليزي عُرف بتحرره وآرائه التقدمية، قاد (الفلسفة التجريبية) في عصره، قال: "إن الاختبار هو مصدر كل معرفة"، هو من أنصار فلسفة سيادة العقل في عصر التنوير، أخضع الدين للعقل بقوله: "من استبعد العقل يفسح للوحي مجالاً"، نبذ مذهب (الأفكار الفطرية)، له كتاب (محاولة في الفهم البشري).

الذي بدوره رفض جميع المذاهب الميتافيزيائية، ورفضَ الوحي المسيحي، وسلطان الكنيسة على العقلِ ومصدرِ المعرفةِ، وكان يؤمن (بدين الإنسانية).

استمرت هذه الحالة حتى سقط حكم الكنيسة بسقوط أسرة (البوربون)[156] عن العرش الفرنسي، عندها تحولَ كثيرٌ من المصطلحات الدينية ومنها الجنة، والنار، والله، والملائكة... إلى مجرد أسماءٍ تُذكَر بعصرٍ متخلفٍ، وأخذ كبار الملحدين أمثال (هولباخ)[157] ينشرون الإلحاد في المجتمع.

١٠- أصحاب الفلسفة التجريبية

إن الفلسفة التجريبية[158] تقول: "إن جميع أنواع المعرفة مستقاة من الخبرة"، وتبناها كل من (جون لوك)، و(باركلي)[159]، و(هيوم)[160]، بينما تستند الفلسفة العقلية[161] على ما أسماه فلاسفتها (ديكارت) و(سبينوزا) و(ليبنتز) بـ(الأفكار الفطرية) أو (القَبْلِيَّة)، حيث قالوا: إن المدركات غير مستمدة من الخبرة الحسية، لكن العقل ينشئها بمعزل عن الخبرة، ويسلمون بأن بعض المدركات هي تجريبية، وقالوا أيضاً: إننا نستمد فكرتنا عن الحُمرة من خبرتنا لأننا

---

(١٥٦) (البوربون Bourbon): أسرة ملوك فرنسا من سلالة (لويس) التاسع، تفرعت منها أسر ملوك إسبانية وصقلية وبارما. "المنجد في اللغة والأعلام" ص١٤٤

(١٥٧) (بول دو هولباخ Holbach ١٧٢٣-١٧٨٩م): فيلسوف فرنسي. ماديّ وملحد، من كتبه (نظام الطبيعة).

(١٥٨) الفلسفة التجريبية تقول: إن جميع أنواع المعرفة مستقاة من الخبرة، "الموسوعة الفلسفية المختصرة"، ص ١٥٠.

(١٥٩) (جورج باركلي ١٦٨٥-١٧٥٣م): فيلسوف أيرلندي يقول: إن كل الموجودات لتصورات ذهنية ولا شيء خارج الذهن.

(١٦٠) (دايفيد هيوم ١٧١١-١٧٧١م): فيلسوف ومؤرخ إنكليزي، منشئ (الفلسفة الظاهرية) التي انتشرت في بريطانيا، له كتاب "رسالة في الطبيعة الإنسانية"، وكتاب "محاولات في الإدراك البشري"، وكتاب "تاريخ إنكلترا"، كان خصماً لكافة الأديان.

(١٦١) الفلسفة العقلية: تزعم أنه عن طريق الاستدلال العقلي الخالص، يمكن أن نصل إلى معرفة جوهرية عن طبيعة العالم دون اللجوء إلى أية مقدمات تجريبية، ويقولون بعدم جواز الإيمان بخوارق الطبيعة، وضرورة اختبار الدين بمحك العقل، "الموسوعة الفلسفية المختصرة"، ص ٤١٨.

نبصر أشياء حمراء، وإن معرفتنا بالعالم تتضمن أيضاً مدركات قَبْلية منها العلة والجوهر.

تناقضت الفلسفات، فأنكر التجريبيون أفكار الفلسفة العقلية حول:

١- الأفكار القبلية: إذ كانوا يرون الأخذ بأحد الرأيين القائلين:

أ - إن المدركات القَبْلية المزعومة يمكن أن تُحلَّلَ وتُفتَّتَ إلى مجموعة من مدركات أبسط، مستمدة من الخبرة.

ب- إن هذه المدركات ليست مدركات حقيقية على الإطلاق.

٢- الجوهر (الله، العقل،...): إذ يرى التجريبيون أن الجوهر كلمة ميتافيزيائية (ما وراء الطبيعة)، من المحال أن نجد لها معنى!.

ونادى (جون لوك) بتطبيق (الاختبار الاستقرائي) على العقل نفسه، وبذلك بدأت الفلسفة في فحص الأداة التي وثِقَتْ بها فترة طويلة تطبيقاً لمبدأ الشك، فقد رفض (لوك) المصدر اللاهوتي للمعرفة، وقال: إن جميع أنواع المعرفة تأتينا من التجارب التي تستمد معلوماتها من الحواس، وأن العقل صفحة بيضاء، تخط فيها الحواس والتجارب معلوماتها، حتى تتكون الذاكرة، وهي بدورها تكوّن الآراء.

ويقول أيضاً: "بما أن المادة فقط هي التي تؤثر في حواسنا، إذن فنحن لا نعرف شيئاً غير المادة، ولا مفر لنا من قبول الفلسفة المادية التي تعتمد عليها، وبالتالي تكون المادة هي بالضرورة ينبوع الأفكار، والله هو المحرك لآلة العالم الكبرى، التي لم يخلقها هو... لأنها أزلية مثله!".

نقول لـ(جون لوك) وأتباعهِ: إنه من الخطأ تخصيص المادة فقط بالتأثير على الحواس، بمعنى الحواس الخمسة الرئيسة فقط، عندها عليكم الإجابة على من يسأل: هل ترى في المنام مادة وتسمع مادة وتحس مادة وكلها تؤثر بك خلال المنام وبعد الصحو منه إن كان تأثيراً نفسياً أم حسياً، ألا يعلم (جون لوك) وأتباعه أن الذي يرى ويسمعُ ويحِسُّ و...إلخ. هي الروح عن طريق العقل، وما

العين والأذن و...إلخ. إلا أدوات تعمل لصالح الروح، فإن قالوا: غير صحيح، وجب عليهم الإجابة على أسئلة وردت في هذا البحث، مثل:

- لماذا لا ترون ما تبحثون عنه إذا لم تكن صورتُه مستحضرةً في مخيلتكم حتى ولو كنتم تنظرون إليه؟ ولماذا لا تسمع من يكلمك إذا كنتَ تفكر بموضوع آخر؟
- لماذا تسمع بوضوح أكثر الشخصَ الذي تنظر إليه بين مجموعة من المتكلمين متساوي البعد عنك؟

فإن كان (جون لوك) يرفض وجود حواس غير الخمس الرئيسة، يتوجب عليه الإجابة عن أسئلة مثل:

-بأية حاسة تقيس سُمكَ الأشياء ووزنها...إلخ؟

عندها لا بُدَّ أن يُقِرَّ بأنَّ العاطفة والحبَّ والكراهية و...إلخ. ليست دائماً من تأثير المادة في حواسنا.

ما كنا توقفنا عند تصريحه هذا واعترضنا عليه لو لم يقل كلمة "فقط" مخصصاً المادة فقط بالتأثير على الحواس، وهذا أيضاً من الأدلة التي تُثبتُ أن الفلاسفة ينظرون لكل المواضيع من زوايا ضيقةٍ، فيسقط عندنا اعتماد الفلسفة المادية لوحدها أساساً للحياة.

يعارِض (باركلي) هذه النتيجة مع اقتناعه بمقدماتها، ويقول: بما أن معرفتنا ماديةُ المصدرِ عن طريق الحواس التي تخلق الآراء، إذن فالمادة هي مجموعة إحساسات: إحساس بصلابتها، وإحساس بلونها، وإحساس بطعمها، وإحساس بصوتها ورائحتها، وإحساس بالتألم منها أو لذتها... إن اجتماع هذه الحواس أو جزء منها يعطي صورة كاملة أو ناقصة للمادة.

يضربُ (باركلي) مثالاً على أفكاره فيقول: إن المطرقة غير موجودة بالنسبة لليد المشلولة لغياب الألم، ويستنتج من ذلك أن المادة ما هي إلا حالة من حالات

العقل، ولا نفترض وجود الجسيمات إلا لسبب كونها مفيدة لبعض النظريات العلمية، والحقيقة الوحيدة التي نعرفها هي العقل، ولولا الحواس والعقل لما كان للعالم الخارجي وجودٌ أبداً.

ونقول له: إن المطرقة موجودة حتى بالنسبة لليد المشلولة، لأنها وإن لم تحس بها نراها قد تشوه شكلها من جراء تأثيرها عليها، وهذا ندركه بحاسة النظر التي هي من أساسيات فلسفته التجريبية.

ويحضرني الآن الاقتراح المعروف الذي طُرح على أتباع (باركلي)، الذين لا يؤمنون بوجود المادة إلا عن طريق الحواس، بأن يعطى كلٌّ منهم حقنة مخدر ويستلقوا على بطونهم على سكة قطارٍ عديم الصوت، فلا يكون لهذا القطار وجود بالنسبة لهم، إذ لا يرونه ولا يسمعونه ولا يحسون به، وسوف نسألهم عن رأيهم بوجود هذا القطار أو عدم وجوده بعد أن يجتاز النقطة التي هم فيها!.

قال (هيوم): "إن النتائج تكون غير صحيحة، لأننا نَعْرف العقل كما نَعْرف المادة، عن طريق الإحساس بآرائه وذكرياته ومشاعره، ولذلك فالعقل ليس هو الجوهر، بل هو مجرد اسم يطلق لاختصار سلسلة من الآراء والذكريات، وهو تصورٌ لعالمٍ عجيبٍ غير مادي متمركزٍ حول الله، فيه تكون الكائنات البشرية العاقلة في حوار مباشر مع الله"!.

بذلك قضى (هيوم) على الفلسفة العقلية، كما قضى (باركلي) على الفلسفة المادية، فانهارت الفلسفتان، ووجدت الفلسفة نفسها وسط أنقاض فلسفات مختلفة متناحرة.

لو اعترفت كل فلسفة بجزء من الفلسفة الأخرى، وجاء مَنْ يأخذُ مِنْ كُلِّ فلسفةٍ الصحيحَ منها لما سقطت كل الفلسفات المتفردة، لأن الإنسان جملة إحساسات فطرية وعقلية ومادية وتجريبية و...إلخ. من المسميات الفلسفية، ولا بُدَّ لتفسير أمور الإنسان كلها من الاعتراف بكل المؤثرات التي يتعامل معها،

عندها نصل إلى ما يمكن تسميتُه (**فلسفةُ الحقيقة الكبرى**)[١٦٢]، الصادرة عمن لا يتغير ولا يخطئ.

١١- (جان جاك روسو ١٧١٢-١٧٧٨ م)[١٦٣]:

ما لبث (جان جاك روسو) أن أدلى بدلوه فقال: "إذا كان العقل هو الأمر الناهي، فلماذا ترفض فطرتُنا وشعورُنا الكثيرَ من النتائج العقلية؟ ولست أرى مبرراً لرفض قرارات الفطرة، والاستماع لقرارات العقل فقط".

بهذا المبدأ جابه (روسو) مادية عصر التنوير وإلحاده الذي ابتدأ بـ(فولتير)، يقول (روسو): "إن العقل يجعل الإنسان بارعاً في الاحتيال، لذا فالغريزة والمشاعر جديرة بالثقة أكثر من العقل".

وانفسح المجال لدخول الأدب العاطفي، وانتعش الشعور الديني المتأثر بـ(روسو)، المنادي بهجر العقل الذي يسوقنا بشكه في كل شيء إلى الفوضى، وتبنى (الشعور الفطري الإنساني).

يرى (روسو) أن الدين يقوم بدور خطير في حياة الإنسان، وينقله من الصفاء إلى الفوضى، وعَدَّ الدين أفيون الشعوب، وطالب بفصله عن الدولة، فكان ذلك سبباً في ظهور الولاء للدولة وليس للكنيسة، فظهرت الوطنية والقومية محل التدين، وقال: "إن الكنيسة تُسبب فساد الدولة".

ألهبت نظريته الحماسة عند الجماهير، فاختارت الكنيسةُ المجابهة العنيفة مع العلماء، والقمع بالقوة لمؤيديهم بدل الحوار معهم واستيعابهم، **وإقناعهم بأن القوانين التي اكتشفها العلماء هي أكبر دليل على وجود الله**، وبدل الاشتراك معهم بشكل يجعل نتائج اكتشافاتهم لا تُستَغَلُّ بالاتجاه الإلحادي، وحولوا الخلاف

---

(١٦٢) مصطلح غير معتمد في الكتب الفلسفية، ويعني مُجمل ما جاء في هذا البحث.

(١٦٣) (روسو Rousseau): كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي، ولد في جنيف، نادى بالعودة إلى الطبيعة، له كتاب "العقد الاجتماعي" و"اعترافات"، تأثرت بمبادئه الثورة الفرنسية والأدب الرومانسي.

إلى صدامات مسلحة، فقامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وعُدَّ (روسو) فيلسوف الثورة بعد مماته، هدفت الثورة إلى القضاء على النظام الإقطاعي الذي تؤيده الكنيسة، والقضاء على طغيان النظام الكنسي بكل أنواع تسلطه، وكان شعارها: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس"، فتخلصت أوربة تدريجياً من سلطة الكنيسة بعد فرنسة، وظهرت الحركة العلمانية المعادية للدِّين، والتي هدفت إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة البعيدة، إلى الدنيا القريبة، وفصَلت الدين عن الدولة، فتقوقعت السلطة الكنسية ضمن جدران الكنيسة.

١٢- (كانْتْ ١٧٢٤-١٨٩٤م)[١٦٤]:

في هذه الفترة، كان عبقريٌ آخر يتأهب لأخذ الدور المناسب في مجال الفلسفة، فظهر (كَانْتْ) الألماني الذي وَحَّد آراء (باركلي) و(هيوم) التجريبية، مع شعور (روسو الفطري)، وحاول إنقاذ الدين من العقل، وإنقاذ العلم من الشك العقلي، وأيقظ العالم من سباته العقائدي بكتابه (نقد العقل الخاص)، وهي فلسفة عميقة كانت المحرك الأكبر لفلسفة الألمانيين (شوبنهور)[١٦٥] و(نيتشه)[١٦٦].

نشأ (كانْتْ) في أسرة متدينة فقيرة، وعاصر آراء (فولتير)، فلم ينج من الشك، وقال بإمكانية انحدار الإنسان من الحيوان عبر مراحل طويلة لا نعرف ماهيتها، واستدل على فرضيته هذه بأنه لو كان صراخ الطفل عند ولادته في العصور

---

(١٦٤) (إمانويل كانْتْ): فيلسوف ألماني وضع العقل في صلب الوجود ومحوره، له كتاب "نقد العقل الخاص"، و"نقد العقل العملي"، و"نقد الحكم"، و"أسس ما وراء الأخلاق".

(١٦٥) (آرثر شوبنهور Schopenhauer ١٧٨٨-١٨٦٠م): فيلسوف ألماني صاحب مذهب التشاؤم، وتعليله وجود التناقض بين عالم الإرادة وعالم العقل، أهم كتبه "العالم إرادة وفكرة".

(١٦٦) (فريدريك نيتشه Nietzshe ١٨٤٤-١٩٠٠م): فيلسوف ألماني، أخذ بمذهب التطور، قال: إن الحياة ليست غير تنازع على البقاء وبقاء الأصلح، وإنّ الإنسان الأعلى هدف يجب الوصول إليه"، هو مؤسس العرقية الجرمانية، يتلخص مذهبه في كتابه "إرادة القوة"، من كتبه أيضاً "هكذا تكلم زرادشت"، و"المسافر وظله".

الأولى -حيث سيطرت الوحوش الضارية- كما يصرخ اليوم، فإن ذلك لن يجعله يعيش ساعة واحدة إذ سيدل عليه الوحوش.

أما رأينا في هذا الاستدلال فيبدأ بتساءلٍ هو:

هل تأييدُ (كانْتْ) انحدارَ الإنسان من الحيوان على مراحل، ثم اعترافُه أنه لا يعرف ماهية تلك المراحل، يجعل من الفرضية حقيقة مثبتة؟ فيلسوف مشهور يلقي تصريحاً، فيركض أنصافُ المثقفينَ خَلفَه، وخَلفَ غيرِه من القائلين، والمخمِّنين، والظانين، والمُعتَقِدين،...الخ، لماذا تبهرنا الأسماء البراقة؟ ويغلبنا الجهل؟ هل دليلٌ كالذي ساقه لنا (كانْتْ) عن صُراخِ الطفل كافٍ لدعم فكرة بهذه الخطورة؟..

إذ إنه لا يكفي الاستناد فقط على دليل ضعيف لا يصعب نقضه، لوضع فرضية بهذه الخطورة!. من قال لـ(كانْتْ) إن الوحوش لا تعتمد على حاسة الشم في البحث عن فريستها، ونُذكِّرُ أتباعَه أنه على الرغم من أن صغار الحيوانات الأخرى لا تصرخ فإن الوحوش المفترسة لم تفنَ، ومن قال له إن الإنسان البدائي لم يكن لديه من الذكاء الفطري ما يكفيه لحماية عائلته؟ أو لم تكن لديه من القوة ما يكفيه للدفاع عن نفسه وعن عائلته؟

لقد كان العقل في نظر (كانْتْ) هو المعرفة الخاصة بكل إنسان، والتي لا تأتي عن طريق الحواس، وأنه مستقل عن التجربة، لقد رفض:

- قول (لوك): "إن المعرفة مستمَدة من الحواس، وإن العقل صفحة بيضاء تُسجِّلُ فيها الحواسُ معلوماتها".

- وقول (هيوم): "إن العقل ليس سوى الأفكار المتتابعة، وذات قرارات قابلة للنقض في أي لحظة".

وقال (كانْتْ): "إن هذه النتائج الخاطئة هي المعرفة"، قاصداً أن المعرفة تأتي فقط عن طريق الإحساس القابل للخطأ أصلاً، إذن فلا بُدَّ من وجود مصادر أخرى موجودة في أنفسنا لا تستمد معلوماتها من التجربة الحسية، مصادرَ داخلية

تجزم بصحة التجربة، حتى قبل إجرائها، عندئذ... ألا تكون الحقيقة المطلقة، والعلم المطلق مُمْكِنَين؟

وقال: "إن التجربة ليست الميدان الوحيد الذي يحدد فهمنا، لذلك فالتجربة لا يمكن أن تقدم لنا حقائق مطلقة، إنما فقط تثير عقلنا بدل إقناعه، لذلك لا بُدَّ أن تكون الحقائق العامة التي تحمل طابع الضرورة الداخلية مستقلة عن التجربة، وتكون واضحةً ومؤكدةً في نفسها، إذ لا بُدَّ للحقيقة من أن تكون حقيقةً بغض النظر عن تجاربنا".

ويؤمن (كانْتْ)، بأن عقل الإنسان ليس لوحاً تَكتبُ عليه الحواسُ والتجربةُ إرادتَها المطلقةَ والمتبدلةَ؛ بل إنه عضو نشيط يَسبكُ ويُنسِّقُ الإحساسات على شكل أفكار، ويُحوِّلُ التجربةَ المشوشةَ إلى وحدةٍ من الفكر المنظم والمرتب، إن مادة الإحساس الآتية من الخارج تُنسَّق، ويضاف إليها قالب الإدراك الحسي الزماني والمكاني، الذي يحول الإحساس إلى إدراك حسي، وتُنسَّق هذه المدركات الحسية بتطبيق أنواع الرأي عليها، ثم تُخرَجُ منها إدراكات عقلية، فحينما تجتمع الإحساسات المختلفة، كاللون والشكل والرائحة والملمس، القادمة من شيء ما (كالتفاحة مثلاً) في المخ، فيوحدها العقلُ وينظمها ويَسبكُها في معنى يؤدي إلى إدراك الشيء (التفاحة).

كما أن العقل لا يأخذ كل المعلومات القادمة إليه، بل يختار المناسب للغرض موضوع البحث، كالأم التي تنام ضمن الضوضاء ولكنها تصحو من أول صرخة خفيفة لطفلها، فقد اختارت الأم الإحساسَ المناسب مع الغرض الذي يَلزمها في تلك اللحظة.

أعلن (كانْتْ) أنه لا يمكن للعقل إثبات الخالق، والدين، وحرية الروح وخلودها، وإقامة الدليل عليها، كما أنكر الدينَ القائم على العقل، وأنكر اللاهوت النظري، ونادى بالدين على أساس من الأخلاق المطلقة.

وقال: إن مظهر الكون الخارجي، وجماله ووحدته، ليس دليلاً قاطعاً على وجود الله، لأن في الطبيعة فوضى وإهمالاً وعبثاً وتكراراً وتكاثراً لا فائدة منه، وإن الطبيعة تحفظ الحياة على حساب كثير من الألم والموت، وطالب بإخضاع الكتب السماوية للأخلاق، والحكم عليها بما لها من قيمة أخلاقية، لا أن تُعدَّ هي المرجع الأخلاقي...

وأنا لا ألومه على ذلك لكثرة ما وَجَدَه في نسخة العهد القديم الحالية (التَّوراة) من قصص ملفقة عن الأنبياء، ومُخلة بالأخلاق(١٦٧)، ولكن كان عليه ألا يعمِّم الخاص ويطلب إخضاع كل الكتب الدينية للأخلاق، لأن الكتاب الديني إن كان من عند الله ولم يحرفه البشر لأغراض خاصة، فعليه أن يقيس تصرفات الناس على الكتاب الديني، الذي يفترض أن يكون مثالاً في الأخلاق العالية، وأما إذا ثَبَتَ تحريف الكتاب الديني فلا غضاضة في إخضاعه لمقاييس الأخلاق كأي كتاب من تأليف البشر.

نادى (كانْتْ) بأن قيمة الكنائس والمعتقدات الدينية، هي بمقدار ما تُعاونُ الجنس البشري على التطور والرقي الأخلاقي، أما إذا تحول الناسُ إلى الطقوس والمراسيم، وجعلوها امتحاناً للفضيلة، وتناسوا الناحية الأخلاقية التي جاء بها الدين، فهذا يعني انتهاء أمر الدين، وانقسامه إلى مذاهب يتجه أتباعها إلى الاعتقاد، بأن هذيان الورع هو نوع من العبادة، يسترضي فيها الإنسان حاكمَ السماءِ عن طريق الرياء والنفاق، كما رفض أيضاً المعجزات، لأنه يشك في شهادة مؤيديها.

إن (كانْتْ) يَعدُّ الزمان والمكان داخل العقل فقط.

بينما أرى أن الإنسان يتلقى إحساسات مكانية في الوقت نفسه الذي يدرك

(١٦٧) انظر مناقشة اليهودية.

فيه الأشياء، وأما الأشياء التي تتم دون أن ندرك مكانها بالإحساس، مثل مكان دورة الأرض حول الشمس، إنما يدركها العقل عندما يراجع المعلومات المكتسبة الخاصة بدوران الأرض في ملفات الذاكرة، فإن أحداً لم ير مكان هذا الدوران، كما أن الزمان ليس حقيقةً ذاتيةً داخل الشيء بل هو خارجه يقيس تبدلاته، أما ما يكون شعوراً زمنياً داخلياً لقياس لحظات السعادة، التي تمر بسرعة أكبر من لحظات الشقاء، ما هو إلا شعور فقط، بينما الحقيقة هي أن الزمنَ يقاس بسرعة ثابتة، بغض النظر عن إدراكنا إياهُ أو عدم إدراكنا.

كان (كانْتْ) مهتماً بإقامة الدليل على ذاتية المكان والزمان، خوفاً من المذاهب المادية، التي ربما، استناداً إلى كون الزمان خارج الأشياء، استطاعت أن تحدد مكاناً وزماناً لله، وذلك يعني ماديته.

وفي هذا أرى: أن (كانْتْ) كان غير واثق من نفسه، وأنَّ إيمانَه بالله تعالى مزعزعٌ، لأنه رفض ألوهية المسيح، ولكنه خاف أن يكون مخطئاً فيخرجَ مَنْ يحاول إثبات أن يكون الإله مادياً، وهذا يرفضه العقل والمنطق والإحساس والفطرة والغريزة والإدراكات العقلية الكلية.

نلاحظ أن بعض أفكاره كانت تميل إلى الإلحاد، وبعضها يميل إلى التوحيد، لكن لهجته الحماسية في مقاله "الدين في حدود العقل الخاص"، تدل على أنه يؤمن بالله بطريقته الخاصة، وأنه لم يكن شاكّاً، وأن تلك الأفكار التي تُرجح إلحاده ما هي إلا تدوين لمناقشةٍ مع ذاته بصوت مقروء.

تعرضت نظرية (كانْتْ) في الأخلاق إلى نقد شديد، فأنكر الناقدون تمجيدها للأخلاق والفطرة، ورفضوا كَوْنَ شعور الإنسان صادراً عن أخلاقه الفطرية، وقالوا: إن الشعور مستَمَدٌّ مما أودعه المجتمع في الفرد من قواعد وسلوك، وأن الضميرَ مُكتَسَبٌ، والإنسانَ الاجتماعي هو نتيجةُ تطورٍ استغرق فترة طويلة من الزمانِ، وأن الأخلاقَ تتطورُ حسبما هو ملائم للحياة الجماعية، وهي متغيرة بتغير

طبيعة الجماعة وظروفها، فليس هناك عمل خير في ذاته كما يقول (كانْتْ)، فأي عمل يمكن أن يحملَ الخير لجماعة يمكن أن يحمل الشر لجماعة أخرى.

خامساً: من عصر التنوير إلى العصر الحاضر

أكرر اعتذاري من القارئ، ورجائي له أن يتحمل المناقشات اللاحقة، لأنه حتماً سوف يواجهها أثناء المناقشة مع أي مثقف، يحاول التأثيرَ عليه بأفكارٍ زائفةِ البريقِ وبأقوال مغرية وتصريحات طنانة.

في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، ظهر من قال: إن (الفلسفة العقلية) وحدها لم تفسر الكون، حتى ولو أضيف إليها المصدر الديني، لأن هَمَّ الفلسفة العقلية كان محاربة الكنيسة، وإبعادَها عن توجيه حياة الإنسان.

وقالوا بضرورة الملاحظة والتجربة حتى لأشياءَ يرفضُها العقل من الوهلة الأولى، فظهرت (الفلسفة الحسية) على حساب تراجع كبير للفلسفة العقلية - التي ستعود في بداية القرن التاسع عشر الميلادي على يد (هيجل)[168] -، اعتمدت الفلسفةُ الحسيةُ الماديةُ المادةَ وخصائصها كأساسٍ، واستخدمت الحواس الخمس كأدوات لها، وكان دليلُها التجربة والملاحظة، أيدها الفيلسوف الفرنسي (أوجست كونت)[169]، ونادى بعدم الإيمان بكل ما لا يمكنه الخضوع للتجربة، ولَمَّح إلى أن الله لا يخضع للتجربة، لذلك فهو غير موجود.

وقبل ذلك كان الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) يحارب تسلط الكنيسة على حياة الناس.

---

(١٦٨) (جورج فريدريك هيجل Hegel ١٧٧٠-١٨٣١م): فيلسوف ألماني، من أعظم الفلاسفة تأثيراً في كل العصور، قال: "إن الكائن والفكر شيء واحد هو الفكرة، والفكرة تتطور على مراحل: الإثبات ثم النقض ثم الخلاصة، له كتاب "المنطق الكبير" و"مبادئ فلسفة الحق"، أيد الوحي والدين من جديد بعد تراجعه خلال ازدهار (الفلسفة المادية).

(١٦٩) (أوجست كونت Conte ١٧٩٨-١٨٥٧م): فيلسوف فرنسي، أسس المذهب الوضعي القائل: "إنه لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة والخبرة"، وهو من مؤسسي علم الاجتماع.

وأشهر فلاسفة هذه الحقبة من عصر التنوير هم:

١- (فيخته ١٧٦٢-١٨١٤م)[170]:

بعد منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ظهر (فيخته Fichte) صاحب فلسفة الـ(أنا) التي تقوم على مبدأ النقيض، وخلاصتها تقول: إنه إذا أردت أن تفهم العالم فابدأ بنفسك، تصور أن العالم قسمان، الأول هو (أنت)، والثاني هو (خارج أنت)، وعندها يمكنك القول: إذا (أنا) تصورت (أنا) فينتج عن ذلك معنيان:

أ - (منطوق الكلام): وهو أن (أنا) هو (أنا).

ب- (مفهوم الكلام): وهو أن ما هو (خارج أنا) هو (غير أنا).

فإذا قيل لك: لا تأكل التفاح الملوث، فيعني **منطوق الكلام** النهيَ عن أكل التفاح الملوث، **ومفهوم الكلام** يعني جواز (أكل التفاح غير الملوث) وبالتعميم يعني منع أكل الطعام الملوث وجواز أكل الطعام غير الملوث.

وبتعميم أكبر يقول: بما أن (أنا) تُحتِّم وجودَ (غير أنا)، إذن (أنا) تجمع معنى الشيء ومقابله (سماه: اجتماع الأضداد أو مبدأ النقيض)، **وبعد ذلك يقوم (فيخته) بنقلة فرضية خطيرة غير مثبتة وغير سليمة**، وهي قوله: إنه بما أن (العالم الخارجي) عن (أنا) موجود أصلاً في معنى (أنا)، إذن فهذا يعني أن العالم الخارجي هو من عَمَل (أنا) ومن خَلْقِ (أنا)، وبما أن عقل (أنا) يمثل (أنا) إذن عقل (أنا) هو خالق العالم الخارجي عن (أنا)، وهو سيد نفسه، وسيد العالم الخارج عنه، ولا سلطة على العقل من خارج العقل[171].

---

(١٧٠) (جون فيخته Fichte): فيلسوف ألماني تأثر أول الأمر بتعاليم الفيلسوف (كانْتْ)، ثم مال إلى فلسفة مثالية محورها الـ(أنا).

(١٧١) يرجى التعمق في قراءة هذه الفقرة لأنها دليل واضح على شطحات الفلاسفة، وعلى القفزات غير المقبولة التي يقومون بها.

وإذا خرجنا من النظرة الفلسفية البحتة (لفيختة) إلى النظرة الواقعية، فنفهم أن فلسفته تدعو إلى أن العقل وحده وسيلة للمعرفة، وهو الذي خلق الطبيعة، ولذلك يحق فقط للعقل المبدع (الحاكم) أن يسود العقول الأقل إبداعاً (الجماهير)، وذلك على شكل (حكومة العقلاء)، تكون غايتها رقي الإنسانية وليس إرضاء الله، وتقول فلسفته أيضاً أن الـ(أنا) الذي ينطوي على وجود (أنا) و(غير أنا) يدل على أن الشيء يحتوي على نقيضه ويخلقه.

هنا يجدر بنا التنويه إلى القفزة الأخرى غير المقبولة التي قام بها (فيخته) بعد أن جعل (أنا) يخلق (غير أنا) -كما في القفزة الأولى-، واستنتج منها بشطحة أخرى أنه بما أن الله (غير أنا)، إذن الله هو مِنْ خَلْقِ (أنا)، أي من خَلْقِ فكرِ الإنسان، أي **الله موجود في فكر الإنسان فقط وليس له وجود فعلي.**

فنقول لأتباعه ونردُّ عليهم بطريقتهم نفسها:

إن وجود المعنيين في شيء واحد يعطيهما الصلاحيات نفسها، فلماذا لا يكون (غير أنا) هو الذي خلق (أنا)؟

فيقول قائل: لأن (أنا) عاقل و(غير أنا) غير عاقل، ولا يتمتع بإمكانية الإبداع والخلق.

فنقول: وقَبْلَ أن (أنا) يخلق (غير أنا)، هل كان (أنا) عاقلاً؟

فإن قال: لا. يسقط (مبدأ النقيض) ويتيح الفرصة (لغير أنا) أن يخلق (أنا).

وإذا قال: إن (أنا) أزليٌّ لم يخلقه أحد، يكون قد ناقض أساس فلسفته التي تقوم على تصور الإنسان لنفسه، أي إن الإنسان أزلي، وهذا غير واقعي.

وإن قال: أنا لا أقصد بـ(أنا) الإنسان بل العقل بشكل عام، الذي يمثل الله.

فنقول: إنك آمنت بالله -الأنا، يقولها الله عن نفسه- الخالق، وأطلقت عليه اسم العقل الأزلي الخالق، فلماذا كل هذا اللف والدوران؟ ولماذا تبدأ

بـ(أنا) الإنسان ثم يشطح فكرك بطفرة وتجعل الـ(أنا) هو العقلُ تقصدُ به الله، بل قُل مباشرة: إنَّ الـ(أنا) الذي هو الله خلق (غيرَ أنا) وهي المخلوقات، وقل الـ(أنا) الذي هو الإنسان شكَّلَ (غيرَ أنا) وهي المصنوعات.

٢- (هيجل ١٧٧٠-١٨٣٢م) وجدليته المادية:

ثم ظهر (هيجل) الألماني معتمداً على أفكار (فيخته)، وأضاف بعض التعديلات التي زادت من وضوحها، وجعلت منها فلسفة مثالية تجريدية محضة تعترف بالله.

تتميز فلسفة (هيجل) في تصور الوجود بثلاثة عقول:

أ- **العقل المطلق:** وهو الفكرة المطلقة الأزلية، وهو الله الواحد.

ب- **العقل المقيد:** وهو الطبيعة التي انبثقت عن (العقل المطلق)، وتغايره تماماً، فهي مقيدة، ومتعددة، ومتناثرة، انتقلت إليها الفكرة من (العقل المطلق)، أي إن الطبيعة هي تحقيق للفكرة على أرض الواقع بالضرورة، وليس بالإرادة، وهي سبب نفي موجودات العقل المطلق.

جـ- **العقل المجرد:** وهو المرحلة التي وصل إليها العقل المقيد (الطبيعة)، بعد سعيه إلى اكتساب الوحدة، التي كانت له في العقل المطلق (الفكرة)، والتي تفرقت إلى أجزاء الكون، ويتمثل العقل المجرد، في القانون والأخلاق، والفن والدين، والدولة والفلسفة والنظام ... إلخ. (التي هي سبب نفي موجودات العقل المقيد النافية أصلاً لفكر العقل المطلق)، وهو الذي يحاول جمع ما بين (العقل المطلق) و(العقل المقيد)، **فهو مجرد من الإطلاق؛ لأنه مقيد بالنسبة للعقل المطلق (الله)، ومجرد من التقيد، لأنه مطلق بالنسبة للعقل المقيد (الطبيعة).**

من فلسفة (هيجل) استنتجَ أتباعُه أن العقل المطلق (الله) احتوى نقيضه (العقل المقيد- الطبيعة)، الذي بدوره احتوى على نقيضه (العقل المجرد -القوانين، الدين، الأخلاق،...-).

يقول (هيجل) في كتابه (علم المنطق): إن حقيقة صيرورة الأشياء ليست في الوجود ولا في العدم، بل هي كون الوجود قد **انتقل** إلى العدم، والعدم **انتقل** إلى الوجود، بمعنى أن العقل المطلق **انتقل** إلى نقيضه (العقل المقيد)، وهو بدوره **انتقل** إلى (العقل المجرد)، ثم يعاد الجدل بشكل ترددي.

في هذا نقول:

إذا كان (هيجل) يقصد بصيرورةِ الأشياء الخلقَ من العدم، فنحن نرفض مبدأ الجدلية في الخلق من العدم، لأن الله الخالق كامل الصفات قادرٌ على الخلق من العدم بالطريقة التي يريدها **من أول خلقٍ**، ولا يحتاج إلى الجدلية لتحسين خلقه، أما إذا كان يقصد صيرورة أشياء الإنسان فلا مانع من تحسين أدائها وشكلها ضمن حوار جدلي بين العقل الإنساني والمادة بتطبيق القوانين عليها.

وإن قالوا: وماذا تقول في التغيرات التي تحصل على الإنسان والحيوان تحت تأثير الظروف المناخية التي يعيش فيها؟ أليس هذا جَدَلٌ في الخلق؟

نقول لهم: إن هذا ليس خلقاً من العدم، ورفضنا جاء على الجدَلِ في الخلق من العدم، وإن ما تقوله هو تكيُّفٌ للمخلوقات بعد الخلق الأول، حسب الظروف التي تعيش بها، قائمٌ على خصائص وضعها الله في مخلوقاته عند الخلق الأول لاستمرار حياتها، ويمكنه إلغاء هذه الخصائص متى شاء ليفنى نوع معين ويستمر آخر.

ونتساءل أيضاً، لماذا استعمل (هيجل) فجأة كلمة (انتقل) دون سابق تعريف أو إشارة؟ إنه كان في البداية يتكلم عن الانبثاق، ثم فجأة تحول إلى الكلام عن الانتقال، والانتقال يعني التحول الكامل (للعقل المطلق) إلى العقل المقيد، ومنه إلى (العقل المجرد)، وهذا يعني أنه دائماً وخلال زمن قصير جداً، **يوجد فقط عقل** واحد من العقول الثلاثة، أي عقل واحد في ثلاثة مظاهر، وهذا يدور حول فكرة

الواحد في ثلاثة، والثلاثة في واحد الوثنية، (وجدت هذه الفكرة عند الشعوب القديمة قبل المسيحية في الفلسفات الشرقية والإغريقية).

الأفضل هو قول: إنَّ **الفكرة** نفسها هي التي تنتقل بين التصميم والتطبيق والإبداع في جدل يفترض فيه تحسين الفكرة.

أما في افتراض النمو الإيجابي للنقيض وليس السلبي فإنه لا يتعدى الفرضَ أبداً، فلِمَ نفترض وجوب تغلب النقيض دائماً على الأصل، وليس تغلبَ الشيء على نقيضه فيجمده أو يلغيه؟ خاصة وأن العقل المطلق الأزلي هو الله.

وأما (الانبثاق) فيُقصد به في فلسفة (هيجل) أن (إرادة العقل)، التي صممها فكر العقل المطلق (أطروحة)، ثم انبثقت بإرادة العقل المطلق من الفكر وأصبحت (طباقاً) في العقل المقيد.

وفي حال كان استعمال (الانتقال)، لا يعني انتقال العقل المطلق **بشكل كامل** إلى العقل المقيد، بل هو انتقال لمحتويات فكر العقل المطلق عن فكرة معينة (الأطروحة الموجودة في ذاكرة العقل المطلق)، ودخول الأطروحة إلى العقل المقيد لتصبح (طباقاً) أو (نفياً)، فإن هذا الانتقال لا ينفي العقل المقيد، بل ينفي ما كان في ذاكرته فقط عن الفكرة المعينة موضوع الجدل، عندها أرى أنه لا مانع من استعمال كلمة (انبثاق) أو انتقال، طالما أنه سينحصر في هذا المعنى فقط.

نعود إلى متابعة سرد فلسفة (هيجل)، بعد أن علمنا أنه قسَّم الوجود إلى ثلاثة أقسام:

١- العقل المطلق (الله)، وسُمي أيضاً (الدعوى)، أو (الشيء).

٢- العقل المقيد (الطبيعة)، وسُمي أيضاً (نقيض الدعوى)، أو (نقيض الشيء).

٣- العقل المجرد (القوانين، الدِّين، ...) وسُمي أيضاً (الجامع بين الدعوى ونقيض الدعوى)، أو (الجامع بين الشيء ونقيض الشيء)، كأن تقول الماء

(شيء)، أو (دعوى)، فيكونُ (لا ماءَ) هو (نقيض الدعوى)، أو (نقيـض الشيء) وبخار الماء (الجامع بين النقيضين).

العلم الذي يتعلق بالعقل المطلق، سماه (هيجل) (علم المنطق)، أو (علم الوجود)، أو (علم الميتافيزياء)، أو (علم ما وراء الطبيعة).

وفيما يتعلق بالعقل المقيد سماه (فلسفة الطبيعة)، لأنها مخلوقة دون تأثير لها على خَلقها، وما يتعلق (بجامع النقيضين)، بـ(فلسفة العقل) لأنها تطبقُ العقل والقوانين والعلم على الأطروحة لتحسينها، إن (هيجل) خالف (فيخته) في شيء واحد ولكنه أساسي، **حيث يرى (هيجل)** أن سيادة العقل مقصورة فقط على الطبيعة وحدها، دون السيادة على الدين والوحي، إذ كان يحترم الدِّين ويؤمن بوجود الإله الخالق، لكنه إيمان على طريقته الخاصة، بحيث يلغي الفرق بين الملحد والمؤمن، فهو عندما يتكلم عن العقل أحياناً، يقصد به الإرادة الإلهية، وأحياناً عقل الإنسان، مما يضعنا في حيرة من معرفة صفات الله لديه.

بينما **يرى (فيخته)** أن سيادةَ العقل هي سيادةٌ مطلقةٌ على كل شيء سواه، حتى الدين والوحي، ويَعُدُّ أن تطبيق مبدأ النقيض على (جامع الشيء ونقيضه) يجعل الجامع ونقيض الجامع، يجتمعان في جامع واحد، ويتولد نقيض آخر لجامع الجامع، وهكذا بحركة جدلية (ديالكتيكية) في دورات لا حصر لها تكون هي سبب التطور.

إن الفلسفة المادية تقوم على أساس إنكار وجود الخالق، وتَعُدُّ المادة أساساً للكون، وحتى لا يُسأل فلاسفتُها من أوجد المادة وحركتها، انطلقوا من فرضية أن المادة أزلية أبدية في وجودها وحركتها، وأنها قادرة على إيجاد العقل، وتختلف تسمية هذه الفلسفة، **حسب زاوية الرؤية التي ننظر منها فنقول عنها:**

١- المادية الجدلية: وهي خلاصة النظريات المادية من المنظور الفلسفي، وهي حالياً العقيدة الرسمية للحزب الشيوعي[١٧٢].

٢- المادية التاريخية: وهي تفسر تطور الشعوب من المشاع إلى الشيوعية عبر التاريخ.

٣- الاشتراكية العلمية: وهي النظرة الاقتصادية للفلسفة المادية.

٤- النظريات الإلحادية: وهي المنظور الديني للفلسفة المادية.

٥- الشيوعية: وهي الناحية السياسية من النظريات المادية.

اجتمعت كل هذه المسميات -لاحقاً- تحت اسم "الشيوعية"، ويهمنا منها المنظور الفلسفي والتاريخي، الذي **يناقش نظرة الفلسفات المادية لنشأة الكون**، وهو ما يدخل في موضوع الحقيقة الكبرى التي نبحث عنها، مما يضطرنا إلى مناقشة المادية الجدلية والمادية التاريخية، وأيضاً إلقاء الضوء على أهم فلاسفة الشيوعية الذين هم أشد أعداء الدين إنكاراً لوجود الله، علماً بأن هذه الموضوعات يتداخل بعضها مع بعض.

سادساً: المادية الجدلية

إن الطبيعة في حركة دائبة، بما يشبه الجدل المستمر بين أجزاء المادة فيها، وهي تعترف بالمحسوس من الموجود خارج العقل، لقد أضاف (هيجل) كثيراً إلى الجدلية، وحاول تفسير الوجود بالجدلية، إذ عَدَّها الصلة بين فكر العقل المطلق والعقل المقيد بفرعيه المادي والروحي، والجدلية عنده تَعُدُّ الفكر هو المبدع الذي يتخيل مادة ما ثم يخرجها عنه، ويَعُدُّ أنّ كل موجودات العقل المطلق، الطبيعة والروح كانتا في وحدة متكاملة، في حدود المعنى الكلي لفكر العقل المطلق، الذي هو التدبير الإلهي (وهي النظرة الصوفية البوذية لسائر الكائنات المسماة وحدة

(١٧٢) الحزب الشيوعي: حزب تقوم كلُّ أفكاره على الكفر بالله خالقاً للكونِ ومدبراً له.

الوجود)، وبعد انبثاقها إلى العقل المقيد تظهر بينها التناقضات، ومن ذلك الليل والنهار، والسالب والموجب، والحركة والسكون... إلخ.

ويقول (هيجل) في جدليته: إن العقل المطلق، وفكرَه مرتبطان بشكل تختفي فيهما التناقضات لاختفاء الظواهر السلبية والإيجابية التي تشكل الحواجز، ومثل هذه الظواهر المطلقة، وهذه الوحدة، لا توجد إلا في الفكر الذي هو روح العقل المطلق، والعقل المطلق هو سبب ظهور موجودات العقل المقيد (الطبيعة)، حيث في بداية الوجود يقرر العقل المطلق طرح شيء، (يسميه أطروحة) من أشياء العقل المقيد، فيقوم فكر العقل المطلق بعمل رسمٍ وتصميمٍ مطابقين للأطروحة، ثم يقوم العقل المطلق بإخراج الشيء إلى العقل المقيد (ويسميه طباقاً)، لأنه يطابق لأطروحة العقل المطلق في العقل المقيد، وفي الوقت نفسه ينفيها من العقل المطلق)، الذي لا يشتمل على أصلٍ لهذه الفكرة، وهذا يمثل العدم المطلق بالنسبة لهذه الفكرة، وهذا الطباق ما هو إلا خروج الأطروحة من فكر العقل المطلق، **أي إن الطباق هو نفي للأطروحة في العقل المطلق**، ولذلك يمكن تسمية موجودات العقل المقيد (النفي)، بالإضافة إلى (الطباق)، ثم ينتقل (النفي) الذي يسمى أيضاً (الطباق) إلى العقل المجرد ضمن الحركة الجدلية، حيث تُطبَّق القوانين الموجودة في جامع النقيضين (العقل المجرد)، فتنشأ بداية فكرة تركيب جديد، من هذا نسمي موجودات العقل المجرد (تركيباً)، أو (نفي النفي)، لأنها تنفي النفي من العقل المقيد)، فيثير هذا التركيب الجديد في العقل المطلق إبداعات جديدة على التركيب، تخلق مفهوماً جديداً في فكر العقل المطلق، لعمل تصميم مطور (للتركيب) السابق، ويُكوِّن أطروحة جديدة تنتقل إلى طباق جديد ثم إلى تركيب جديد، ويقول :إن هذا الجدل الإبداعي بين العقل المطلق والمقيد ما هو إلا حركة جدلية من الفكر إلى الطبيعة، ثم من الطبيعة إلى الفكر، وكل شوط في هذه الحركة الترددية الجدلية **يؤدي إلى تركيب أكثر تطوراً.**

يمكن تلخيص العملية السابقة كما يأتي:

أ- العقل المطلق يقرر أطروحة ما فيرسمها فِكرُه، ويُخرجها إلى العقل المقيد للمطابقة (طباقاً)، وهو بدوره يخرجها إلى العقل المجرد لإجراء القوانين عليها، فتنشأ فكرةٌ جديدةٌ (تركيب)، تثير أطروحةً جديدةً في فكر العقل المطلق.

ب- أو نقول: إن العقل المطلق يقرر أطروحة ما، فيرسمها فكرُهُ ويُخرجها العقلُ المطلقُ كاملةً، إلى العقل المقيد، هذا الخروج ينفي الأطروحةَ من فكر العقل المطلق، ولذلك تسمى (نفياً) (أي نفي الأطروحة)، وعندما ينتقل (النفي) انتقالاً كاملاً إلى العقل المجرد، ينفي العقلُ المجردُ بدوره النفي الأول، لذلك يسمى (نفي النفي).

أُقدِّم مثالاً مبسطاً لفهم جدلية (هيجل):

لنمثل العقل المطلق بعقل الإنسان، فيكون فكر العقل المطلق هو الجزء المسؤول عن الإبداع في عقلِ الإنسان، فإذا أراد عقلُ الإنسان طرح مشروع اختراع الطائرة، فتكون فكرةُ الطائرة هي الأطروحة، ثم يقوم الفكر بتصميم نموذج للطائرة، وبعد الانتهاء يكون هذا التصميم مطابقاً للأطروحة فيسميه (الطباق)، أي **الأطروحة** هي فكرة الطائرة **والطباق** هو التصميم المطابق لها، إن ظهور هذا التصميم يُلغي الفكرة، إذ إنها انتقلت من كونها فكرة فقط إلى الواقع على شكل تصميم (طباق)، ولذلك يقول (هيجل): إن التصميم ألغى الفكرة من العقل المطلق ولم يلغ العقل المطلق نفسَهُ، ومن ثم ينتقل التصميم (الطباق) إلى العقل المجرد، الذي يتعامل مع القوانين والتجارب، ويطبق العقل المجرد معلوماته على الطباق، ولذلك يقول: إن تراكب المعلومات الجديدة على الطباق، ينتج عنه (التركيب) وهو محاولة لإظهار العيوب في تصميم الطائرة أي (نفي النفي).

كل هذا والعقل المطلق يراقب (التركيب)، فيُثير فيه فكرةَ تعديلٍ على الطباق (التصميم الأول)، فيعود التركيب بعد أن أُجريَت عليه **طفرة تحسينٍ** وتطورٍ إلى

العقل المطلق على شكل -فكرة جديدة- أطروحة جديدة، ويقوم العقل المطلق بعمل تصميم جديد يسمى (طباقاً جديداً)، ويقدمها إلى العقل المقيد الذي فيه ينفي الطباقُ الجديدُ الأطروحةَ الجديدةَ، ويحولُها بدوره إلى العقل المجرد، حيث يعاد تركيب كل القوانين الجديدة مرة أخرى، وينشأ (تركيب جديد) يشير ويحرض العقل المطلق لإجراء تعديلات أخرى (طفرات تطويرية) على الطائرة، وذلك بحركة ترددية جدلية (ديالكتيكية) ذات طفرات تقدمية تتحاكى فيها العقول الثلاثة، وتكون الطائرة عرضة لتعديلات مستمرة حسب تطور العلم على مرِّ الزمان.

وهكذا بالنسبة لبقية الموجودات المادية للعقل المقيد (الطبيعة)، وغير المادية كالقيم والأخلاق والمعتقدات التي تتغير أيضاً بتغير القوانين المطبقة عليها في العقل المجرد، والخاصة بالعرف والعادات والتقاليد.

يمكننا مما سبق ملاحظة أن موجودات العقل المقيد (الطبيعة)، ما هي إلا ظواهر سطحية متناثرة، لكن جوهرها يوجد في أعماق روح العقل المطلق، وفي ذلك يقول (هيجل): "إن أي تجارب تقوم على ظواهر الأشياء لا قيمة لها، ما دامت لا تمس جوهر الأشياء الموجودة في العقل المطلق".

نلاحظ أن هذا يدل على الإيمان بالإله الخالق، لأن هذه التجارب ستكون سبباً في تناقض الآراء، وخلق الفوضى، لذلك فهو ينادي بوجود عالم منتظم غير هذا العالم الحسي، عالم يكمن وراء المادة سماه (عالم ما وراء الطبيعة) أو (الميتافيزياء).

نقول: إن (هيجل) آمن بالإله الخالق، ولكنه لم يعطه الصفات الكاملة، إذ أخضعه لقانون الجدلية (الديالكتيكية) وجعله عاجزاً عن الخلق الكامل من أول أطروحة، وهذا ما لا نقبله لأن الخالق الذي نبحث عنه، هو الله المريد القادر العليم العزيز... كامل الصفات مطلق الإرادة إطلاقاً يليق بكماله.

سابعاً: فلاسفة الشيوعية

ظهر الفيلسوفان (كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م) و(أنجلز ١٨٢٠-١٨٩٥م)، وأسَّسا الماركسية التي طورها لاحقاً (لينين ١٨٧٠-١٩٢٤م).

ادعى الفلاسفة الثلاثة تَبني جميع النظريات المادية السابقة، **ولكننا نراهم قد أخذوا منها ما ناسبهم فقط، وأجروا عليها تعديلات قاسية قلبت مفهوم المبدأ المعروف عند السابقين فحوّلوها من إيمانٍ باللهِ مشوشٍ إلى إلحادٍ مطلقٍ وإنكارٍ لله**، فقد:

١- أخذوا مبدأ النقيض من (هيجل) الذي يرفض اجتماع النقيضين، واستعملوا الاسم فقط، **وأقروا اجتماع النقيضين**، فعكسوا تعريفه تماماً.

٢- أخذوا مبدأ العقول الثلاثة الجدلي من (هيجل)، فألغوا العقلَ المطلق ذا الإرادة، وفكرَ العقلِ المطلق ذي الإبداع، وقالوا: "إن العقل المقيد -الطبيعة- هو سابق للفكرة وصانعها"، وافترضوا أن المادة قادرة على كل شيء، وأنها أزلية في وجودها، وهي التي خلقت عند الصانع (الإنسان) الفكرة الجديدة للتطوير، وجعلوا الجدل بين (العقل المقيد) المادة و(العقل المجرد) المادة.

٣- كان (هيجل) يقول: "إن تطور الأشياء هو انعكاسٌ لما يجري في الفكر أو الروح، فقال (ماركس): "المادةُ هي الأصل وليست انعكاساً، وعنها يخرج الفكر والروح".

٤- لقد أخذ ماركس كل ما قاله (هيجل) عن العقل المطلق (الله)، من صفات ووصف به الطبيعة، وأرجع كل تطور في البشرية إلى العامل الاقتصادي.

٥- يرى (هيجل) (الأطروحة) و(نفيها) و(نفي نفيها)، يتم بين الفكر والمادة، بينما يفترض ماركس أنه يتم ضمن المادة ذاتها دون علاقة للفكر، ويقول: "إن هذا هو سر التطور، الذي يتم في **حركة لولبية متصاعدة، وليست ترددية**

بطفرات تطورية[١٧٣]، وهذا التطور لا يخلو من التناقضات، التي تظهر في مختلف العلوم على شكل فعل ورد فعل، أو على شكل سالب وموجب، أو على شكل اتحاد الذرات وتفككها، أو بصراع الطبقات أو...إلخ".

يضرب الماديون مثالاً عن الحركة الثلاثية فيقولون:

أ- الخلية (أطروحة) تحمل بذور نفيها، وعندما تبدأ الخلية الجديدة بالظهور فهي (الطباق) أو (النفي)، وإذا انبثقت الخلية الجديدة بَدَلَ سابقتها، فذلك هو التركيب أو (نفي النفي)، وهو جدل بين المادة والمادة التي تحمل بذور نقيضها، ويستدلون به لإثبات قولهم باجتماع النقيضين.

ب- حبة القمح (أطروحة)، ينبت عنها الساق الأخضر (الطباق) أو (النفي)، وظهور الحبات البديلة هو (التركيب) أو (نفي النفي)، ويستدلون به لإثبات قولهم باجتماع النقيضين.

وهم يحاولون تعميم هذا على كل الوجود!. بأنه جدل بين المادة والمادة.

في القانون الجدلي الثلاثي يفترض (هيجل) أن الأطروحة تنطلق من فكر العقل المطلق، حيث برنامج التفاعلات الذي تتبعه المادة، ويفترض (ماركس) أن الحركة تبدأ من المادة وتنتهي بالمادة ذاتها، وليس للفكر أو الوعي أي دور قيادي.

٦- يقول (هيجل): إن الحركة الجدلية الثلاثية تنبعث من منطلق واحد وهو الفكر، إلى كل من الروح الممثلة في حقائق الدين، والفن، والقيم الإنسانية والجمالية، وإلى الطبيعة، حيث المشاهدات المادية، ويفترض (ماركس) أن الحركة الجدلية، هي نتيجة لصراع الأضداد ضمن المادة، وأن دور الفكر والشعور ثانوي، حتى أنه يعُدُّ ولادةَ الأم لطفلها هو نتيجة لصراع بينهما.

---

(١٧٣) انظر التعليق على هذه الحركة عند عرضنا للأساس السادس (مرحلة نفي النفي)، من أسس النظرية المادية الشيوعية.

٧- نرى أن (هيجل) قد بنى جَدَلِيته على وجود الخالق، بينما نرى (ماركس) قد ألَّهَ المادةَ وحدها وعدَّ الروحَ والعقل أثراً من آثار المادة، حيث قال (ماركس): "الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروحُ عالَمٍ لم تَبقَ فيه روح، وفكرُ عالَمٍ لم يبقَ فيه فكر، إنه أفيون الشعوب".

أما نحن فنقول: إنه لو أمعنا النظر إلى المثالَين اللذين أوردهما الماديون لتفسير القانون الديالكتيكي للتطور، سنرى بينهما اختلافاً يشوش الفكرة التي طرحها، حيث إن المثالين مختلفان، وهذا ما جعل إيمان (هيجل) بالخالق، يتأرجح بين الكفر والإيمان، ففي المثال الأول يقول: إن خلية جديدة (تنبثق) عن القديمة على ثلاث مراحل، وهذا لا يوافق (النفي) و(نفي النفي)، إذ إن الانبثاق لا يعني بالضرورة نفي الأصل، فولادة الطفل لا تنفي الأم ولا تدمرها ليخرج على أشلائها، كما في مثال الحبة الأطروحة، التي تحمل صفات تكاثر مدمر لها، عندما تنتقل كاملة إلى (طباق)، بشكل ساق أخضر للنبتة، فهنا نفتقد الأطروحة كلياً، ونرى أنها انتقلت بالكامل، والنفي الكلي هنا واضح جداً، فالساق الأخضر (نفي كلي) للحبة الأطروحة، وهنا يصح استعمال تعبير (انتقال) الأطروحة إلى طباق، ومع ذلك يمكن أن نقبل تفسيراً للانتقال، بأنه انتقال لمحتويات ذاكرة العقل **عن فكرة ما** إلى العقل المقيد، وليس انتقالاً لكل العقل المطلق إلى المقيد، ويكون الانبثاق هنا نافياً فقط لموجودات الذاكرة (الأطروحة) عن فكرة معينة إلى العقل المقيد (الطباق)، فيتساوى تعبير الانبثاق والانتقال في المفهوم، على الرغم من اختلافهما في المنطوق، ولا نعتقد أن (هيجل) يعني بالانتقال تحول كامل العقل المطلق إلى العقل المقيد، إذ بذلك سوف يفقد العقل المطلق إطلاقه بدخوله العقل المقيد.

ثامناً: نظرية المادية الجدلية الشيوعية

١ – تعريف المادية الجدلية الشيوعية:

لفظ المادية مأخوذ من مادة الطبيعة، التي يعتبرها (ماركس) و(أنجلز) المبدأ الأولي لكل شيء، ولا يتوقف وجودها على أي شيء آخر، وأن ما هو عقلي

يتطور عما هو مادي بتأثير المادة على العقل، وأما تعبير الجدلية، فقد أخذاه من (هيجل)، الذي قال بالجدل بين الفكر والمادة كأساس لتطورها، وقَلَبَاهُ رأساً على عقب، بأن اعتبرا أن النمو والتطور، هو جدلٌ بين المادة بداية والمادة نهاية ينشأ عنه ما هو جديد وأكثر تعقيداً، لكن في الوقت الحاضر يجري تفسير المادية الجدلية في ضوء أهداف سياسية أكثر مما تُفسر بوصفها موضوعاً للدراسة العلمية، فقد وضعت الإلحاد أساساً وفرضت فرضيات مخالفة للعلوم خوفاً من أن تصل في النهاية إلى إثبات وجود الله.

٢- أسس نظرية المادية الجدلية الشيوعية:

قامت على أسس أهمها:

أ- الأساس الأول: المادة أساس للوجود ونبع للحقيقة:

يقول (ماركس): إن كل الموجودات هي ثمرة المادة، ومنها الروح والفكر والإحساس وغير ذلك.

ولستُ أرى أي برهان قاطع لهذه الفرضية، على الرغم مما يقوله الماديون من أن الحياة هي الحركة والحرارة، فأنا لا أرى حياة في قطار يسير... وفي بركان ثائر... هم يتكلمون عن الحياة بتعريفها المشترك بين المثاليين والماديين، ولكن بطفرات غير علمية فيدرجون أمثلة من حركة الجماد.

فإن قالوا: إن حياة القطار في حركته وحياة البركان في ثورته.

نقول: وأين التطور الجدلي المتصاعد للقطار في سيره، إن كل حركة يقوم بها هي مسمار جديد في نعشه، وهل في ثورة البركان غير العد التنازلي لحياته، فأين التطورات المتصاعدة في ثورته؟

نحن لا ننكر أن الحركة والحرارة هما أبرز خصائص الحياة الضرورية، ولكنها غير كافية لتعريف الحياة، فإذا كانت الروح فرعاً من المادة الأصل -كما يقول الماديون-، فكيف تكون لنا قدرة على تفسير الأصل، ونعجز عن تفسير الفرع.

إن أقلَّ ما يمكن قوله عن هذا الأساس المادي لنشأة الكون، هو أنه فرضيات غير علمية وغير مثبتة، وأنه قول تغيب عنه الحقيقة.

يقولون: "إن الحياة من ثمرات المادة"، ولكنهم لا يعطون تفسيراً مقنعاً عن مصدر المادة نفسها، بل يقولون: "إنها أزلية أبدية **وليس وراءها إلا الوهم والعدم**، ومن شاء أن يتكلم عن إله وراء الطبيعة، فهو يتكلم عن وهم".

فنقول لهم: إن أي فكرة لا تقبل النقد، تكون نافيةً لأهم أسس المادية والجدلية التي ينادون بها، وكيف تقولون بأزلية المادة؟ ثم تقولون: قبل المادة كان الوهم والعدم، فهل يعني هذا أن للمادة بداية، فهل أوجدها الوهم والعدم؟.

فإن قالوا: نعم. سقطت أزليتُها، بغض النظر عمن أوجدها.

وإن قالوا: لا. ناقضوا إقرارهم بأن لا مصنوع بلا صانع، فإذا كان القَبْلُ (الوهم والعدم) لم يصنع ما هو بَعْدُ (المادة)، فيسقط (البَعْدُ)، ولكننا نرى أن المادة (البَعْدَ) موجودة، إذن لا بُدَّ من (القَبْلِ) الذي صنعها لها، بغضِّ النظر عن ماهية القَبْلِ هذا.

فإن قالوا: وما (قَبْلُ) الله؟

نقول: نحن لم نقل وأنتم لم تثبتوا أن اللهَ (بَعْد) حتى نبحثَ له عن (القَبْلِ)، ونعيد قائلين: إنَّ الله هو واجب الوجود الوحيد الموجود، وأن الله ليس كمثله شيء، ولا داعي للتكرار.

يقولون: "إن الكلام الذي نقرؤه والورق المكتوب عليه هو مادة تثير الفكرة وتخلقها".

فنقول: إذن تقصدون أن المادة هي خالقة للفكرة، وتتناسون وأنتم تعلمون من المادية الجدلية التي تبنون عليها قولكم: إن الكلام الموجود على الورقة، هو طباق لأُطروحةٍ سابقة، وجدت في فكر الكاتب قبل أن تكون طباقاً منفعلاً على الورق،

وقبل أن تكون تركيباً مثيراً للفكر لأطروحة جديدة، وإن الكلام الذي على الورق ما هو إلا ظل الـ(أنا) خارج (أنا) وهذا إثبات أن الكلامَ يحيطُ به فكرٌ فاعلٌ مبدعٌ أوجده، وفكرٌ منفعلٌ بالكلام عند قراءته، وهذان النوعان من الفكر لهما صلة بالمادة، ولكن يبقى الفكر الفاعل الأول هو السبب في وجود المادة المكتوبة وفي وجود الفكر اللاحق، ولولاه لما كانَت مادةٌ مكتوبةٌ ولا فكرٌ لاحقٌ، كذلك فإن اللوحة الجميلة الأولى للكون التي تثير الفكر الإنساني وتسعد النفس الإنسانية، كانَت أُطروحة عند الفاعل الأول (الله) الذي خلقها، وأحسن خلقها من أول مرةٍ ولا حاجة له لتحسين جدلي لخلقه الأول من العدم، فتسقط الجدلية في الخلق الأول.

وأتابع التعليق قائلاً: إذن إن الأزلي هو الفاعل، الذي لا ينفَعلُ، يؤثر في غيره ولا يتأثر هو بغيره، هو العلة التي يُفسَّر بها غيرُها، ولا تحتاج إلى تفسير لاستغنائها بذاتها عن غيرها، إن هذه الصفات لا تنطبق على المادة، فهي منفعلة، متأثرة، مُحرَّكة، مَعلولة... وهذه كلها من صفات الحوادث، وحوادث الكون المادية تنقسم إلى عدة أقسام:

الجماد : لا يحس ولا ينمو ولا يتأثر ولا يتحرك ولا يعقل.

النبات : يحس وينمو ويتأثر ولا يتحرك (حركته الظاهرة هي نُمو إلا في بعض النباتات آكلة الحشرات) ولا يعقل.

الحيوان : يحس وينمو ويتأثر ويتحرك ولا يعقل (حركاته غريزية وانفعالية).

الإنسان: يحس وينمو ويتحرك بإرادة حرة ضمن إمكانات محدودة ويعقل ويتأثر.

والغريب!. إن الماديين يربطون خلق كل أنواع الحوادث بأدناها مرتبة وهو الجماد، فيصعب على العاقل الاقتناع بأن فاقد الحياة يعطي الحياة، وفاقدَ الحركة يعطي الحركة... إلخ. كيف اقتنع الماديون بأن فاقد الشيء يعطيه، وهي من البدهيات التي كانوا أول من قال بها؟

إن الحواس التي يقدسها الماديون ويعدونها مصدر المعرفة الوحيد، لا تقوم بعملها وحدها؛ فالعين التي ترى، لا ترى إلا بواسطة العقل والروح، واللَّمْس الذي يستشعر النعومة والحرارة، لا يقرر نعومتها وحرارتها، بل العقل الذي يقرر بعد أن يقارنها بحرارة ونعومة أُخرى، أو بصورةٍ موجودةٍ في ملفاته، ألم يحدث لك مرة أنك بحثت عن شيء وهو أمام عينيك دون أن تراه؟ أو تراه ولكن لا تعيه؟... ألا يدل ذلك على أن الرؤية هي (مطابَقةٌ) للمعلومات التي ترسلها العين إلى العقل والعقل إلى الروح مع صورة الشيء الذي تبحث عنه، والذي سبق أن جهز العقل صورته من ملفاته، فإذا حصل التطابق فإنك ترى الشيء؟!.

ألم يحدث لك أن كلمك شخص ولم تسمعه على الرغم من قربه منك ومن حتمية دخول الموجات الصوتية الصادرة عنه إلى أُذنيك، لأن عقلك مشغول بشيء آخر؟... ألم تلاحظ وأنت في مجلس يتكلم فيه أكثر من شخص في آن واحد، أنك تسمع بوضوح أكثر، ذلك الشخصَ الذي تنظر إليه، فهل العين هي التي تسمع؟ أم هي الروح بواسطة العقل، الذي يركز الحواس حيث يريد، فإذا كان هذا دليلاً على وجود العقل والروح، فهل من يحدد أين يكمن العقل والروح؟

إذا قالوا: هو المخ فقط.

فنقول: فما الفرق بين العاقل والمجنون؟ وكيف يسمع المجنون وقد غاب عقله؟

إذا قال أحدهم: إن قولك عن ضرورة المطابقة، حتى تتم المشاهدة غير صحيح، لأنني عندما أذهب في نزهة، أرى طبيعة جديدة بشكل كامل، وليس لديَّ ما أطابقه معها في عقلي، فكيف أراها حسب قولك؟

نقول: المطابقة ليست لازمة لرؤية الأشياء، لكنها ضرورية للبحث عنها، وما تراه في النزهة ما هو إلا تسجيل في ملف جديد، فتحه أنت بغية التسجيل فيه والاستمتاع، اسأل نفسك عن الطبيعة التي شاهدتها، إذا فتحتَ أيضاً خلال النزهةِ مع نفسِكَ، أحد ملفات مشاكلك المستعصية، فتسجل ذاكرتك عن النزهة ملفاً مشوشاً متقطعَ الذكريات، بالرغم من أنك لم تُغمضْ عينك أثناءها.

هل من يتساءل عن الحاسة التي تقرر أن هذا القماشَ أسمَكُ من ذاك دون النظر إليه، مع أن لهما النعومة نفسها؟ أو هذا الجسم أثقل من ذاك مع تساويهما في الحجم؟ ألا يدل هذا على وجود حواس، وإدراكات عقلية أكثر من الحواس الخمس المتعارف عليها؟

إن المقبول هو وجود تفاعل مستمر بين الفكر الإنساني والمادة، ولكن ليس أيٌّ منهما أثراً مطلقاً للآخر، فالمادة وجِدَتْ قبلَ الفكر الإنساني طبعاً، وإذا كان مقصود الكلام عن الفكر هو الله فهو أزلي وحدَهُ، وهو الذي خلقَ المادة من عدم، وإن وعي الإنسانِ هو الذي يطور المادة.

إن الفلاسفة المثاليين المتطرفين يَشكّون في وجود المادة أصلاً، وخاصة بعد اكتشاف ذرات المادة وعِلْمِهم أن لها طاقة سالبة وطاقة موجبة[١٧٤]، فيتساءلون هل ما نراه من أشياء محسوسة هو مادة أم طاقة؟ العاقلون يرون التطرف واضحاً في كلا الفلسفتين المثالية والمادية.

---

(١٧٤) المادة تختلف عن الطاقة بأنها قابلة للتشكيل عليها، وبأنها تتعامل مع الحواس، إنه لم يثبت علمياً حتى الآن تحول الطاقة إلى مادة بشكل تجريبي، لكن تحول المادة إلى طاقة ثبت نظرياً وواقعياً وتجريبياً، وإذا نظرنا إلى الموضوع بشكل فلسفي ممزوج بمسحة إيمان بالخالق، نقول: إنَّ تحول المادة إلى طاقة، ثم ضياع الطاقة في الكون، لا يمنع الله من خلق مادة جديدة لكون جديد، وإذا ثبت مستقبلاً إمكانية تحول الطاقة إلى مادة أيضاً، فهذا لا يمنع سقوط الطاقة غير الضائعة والمادة في الثقب الأسود الواحد الجامع لكل الثقوب السوداء في الكون، وذلك عندما تتجاذب بعضها إلى بعض عند نهاية الكون، وتتحول إلى المادة المصمتة التي تكلمنا عنها سابقاً، إذن حتى الآن يمكن القول: إنَّ الطاقة هي شكل من أشكال المادة، أما المادة فليست شكلاً من أشكال الطاقة، ونشير إلى أنَّ إثبات ذلك أو عدم إثباته، ليس له أي تأثير على الناحية الإيمانية في الخالق، إذ لم تناقشه أي من الديانات السماوية.

ب- الأساس الثاني: المادة دائبة الحركة والتغيُّر:

إن جوهر المادة في حركة دائبة، الإلكترونات تتحرك في الذرة، والذرات في السوائل، والتيار الكهربائي دليل على حركة الإلكترونات مع أن الأسلاك ساكنة، واستناداً إلى ذلك يقول الماديون: إن هذا دليل على أن المادة لم تكن في حالة كانَت فيها دون حركة، أي إن إلكترونات الذرة كانَت منذ الأزل تتحرك حول بروتوناتها، وأنه لم تكن، ولن تكون هناك حالة تكون فيها المادة ساكنة.

يوم قال (ماركس) و(لينين) ذلك لم يكن لديهما علم بالثقوب السوداء في الفضاء، التي هي تَهَدُّمُ نجومٍ أكبر من الشمس على نفسها، وانطباق إلكتروناتها على بروتوناتها فتقف فيها الحركة، الأمر الذي يجعل نجماً أكبر من شمسنا، تتحول بقاياه إلى كتلة بحجم كرة القدم، مع بقاء الوزن الإجمالي وزن كتلة النجم نفسه قبل تهدمه!. وهذا دليلٌ قويٌ على إمكانية وجود مادة دون حركة.

المشكلة الحقيقية، هي مع الذين مازالوا يؤيدون هذه الفرضيات في عصر الانفجار العلمي، وهم يعلمون خطأها لكنهم لا يعلنونه أمام أتباعهم الأقل ثقافة.

إن إصرار (لينين) على أن الحركة في المادة ملازمة للتغيُّر بقوله: "إن كل أشياء المادة تتسم بالحركة الباعثة على التغيُّر"، يجعلني أتساءل: ما الذي تغير في تكوين الذرات من جراء حركتها بعد الخبطة الكبرى منذ أقدم العصور؟. إن أنواع الذرات في الكون محدودة، ويتشكل منها أنواع لا يمكن حصرها من الأشياء التي تميِّزها بماهيتها المختلفة، مع تشابه في الجوهر بنسب تركيب مختلفة، كالإنسان والحجر والشجر، وإن أي تغيير يطرأ على الماهية ليس نتيجة للحركة بل لعوامل خارجية وداخلية كثيرة، لا يُنكر عاقلٌ أن المادة موجودة بصورة مستقلة عن الذهن قبل الإنسان وفكره وعقله، ولكن أستَبْعِدُ أن يُقِرَّ عاقلٌ غيرُ معاندٍ بأن المادة هي التي خلقت الإنسان.

جـ- الأساس الثالث: أزلية المادة وأبديتها:

يقول الماديون: إن المكان بلا أطراف، والزمان بلا نهايات، لذا يجب أن تكون المادة أزلية أبدية لارتباطهما بها.

فنقول لهم: إنكم لو لم تقولوا ذلك لكان اعترافاً منكم بوجود الله تعالى الذي خلَقَ المادة أو خلَقَ منها، والمشكلة هنا أنكم رُبطتم المادة بالمكان والزمان، بينما تدَّعون أن المادة هي الأصل، والمكان والزمان ليسا إلا شكلين للمادة المتحركة، ونحن نتساءل: أين الأصل؟ وأين التابع والمتبوع؟ وكيف يكون الأصل عندكم مربوطاً بالتابع ولا يقوم إلا به؟ وأنتم تعلمون أن الدورَ مرفوض"[175].

ونقول: إن الزمان ما هو إلا البعد الذي يرصد الحركة، وما المكان إلا البعد الذي يحدد الجسم، وما المادة إلا من أشياء الكون التي لها بداية ونهاية، حسب ما أوردناه من إثباتات العلم الحديثة.

د- الأساس الرابع: تحول الكَمِّ إلى الكَيفِ[176]:

تَهدف الماركسية إلى سيطرة الطبقة العاملة، وتؤمن بالثورات ضد الرأسمالية، وتقول إن الضغط الذي تقوم به على البروليتاريا (الطبقة العاملة) لا بُدَّ أن يؤدي إلى تغيير فجائي على شكل ثورة شعبية، وبغرض تعميم المبدأ وفلسفته قالوا: **إن أي كَمٍّ لا بُدَّ له من أن يتحول إلى كَيفٍ جديد بشكل فجائي، ودون وجود أسباب إضافية**؛ كالولادة بعد الحمل، وكالتبخر بعد الغليان.

لكن الماركسيين لم يُفَصِّلوا هذا المبدأ، لأن التفصيل سيؤدي إلى نقضه، ذلك أنه يجب أن نفرق بين كَمٍّ متصل كالسائل، وكَمٍّ منفصل ككومة الحجارة

---

(١٧٥) الدور: هو تعبير فلسفي يعني أنَّ وجود المسبِّبِ مرتبط بالمسَبَّبِ ولا تقوم إلا به، ولذلك رفَضَه الفلاسفة واعتبروا الخوض به ضَرْباً من السوفسطائية.

(١٧٦) "نقض أوهام المادية الجدلية"، ص ٤٢، بتصرف، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

الكبيرة، إن زيادة عدة حبات رمل ناعم إلى كومة كبيرة، هو زيادة في الكم ولا تودي إلى كيفية جديدة للكومة إلا إذا كانَت على كفة الميزان (نلاحظ دخول سبب إضافي لاعتبار الكيفية الجديدة، وهذا مرفوض لديهم)، وإن دخول الطعام الفجائي (الذي هو السبب الرئيس لحصول الجسم على حرارة)، لا يسبب زيادة فجائية لدرجة حرارة الجسم، بل هناك سبب آخر هو ميزانُ ضبطِ حرارة الجسم الذي يحافظ على كيفية حرارية ثابتة، وأي خلل في هذا الميزان يؤدي إلى كيفية حرارية جديدة يمكن أن تودي إلى الموت.

إن الماركسيين يستعيرون تعبير الطفرة الداروينية التي يسبق وجودُها سببَ ظهورها، ويأخذون منها التسمية العلمية فقط، ويستخدمونها في أمثلة يُقصد منها الانتقال الفجائي من حالة إلى أخرى، ولتوضيح أكثر نقول: إن طفرة (داروين) التي اعتمدها ماركس، **والتي تحدث دون سبب**، وتبقى في الخلية مدة غير معروفة، حتى إذا تطلبتها الظروف الخارجية، كهجوم المضادات الحيوية على مزرعة فيروسات، عندها تظهر الطفرة كخطوط دفاع داخلية تسبب الحفاظ على الخلية، وطفرة (ماركس) هي قيام الثورة بسبب تراكم الضغط على الطبقة المقهورة، وتطبيق الطفرة الداروينية على الطفرة الماركسية، يعني حصول طفرة في الإنسان، كالكرامة أو لقمة العيش، وأول هجوم خارجي على هذه الطفرات الكامنة يجب أن يسبب الثورة، وليس تراكم الأسباب.

تناسى الماركسيون كما تناسى (داروين) سابقاً أن الطفرة يمكن أن تكون سلبية، حيث الكرامة الصارمة، والحساسية الزائدة يمكن أن تكون سبباً في إعدام حاملها، والثورة في غير وقتها يمكن أن تسبب القضاء على الطبقة الثائرة لأجيال متعددة، [كثورة العبيد المشهورة (ثورة سبارتاكوس) في إيطاليا، قبل الميلاد]، من ذلك نرى أنَّ الطفرةَ لا تكون، بالضرورة، سبباً للتطور الإيجابي، وليس بالضرورة

أن أي تغير في الكم يؤدي حتماً إلى تغير في الكيف ودون أسباب إضافية، وهو نقضٌ لتعميم علاقة الكمّ بالكيف.

هـ- الأساس الخامس: وحدة الأضداد وصراعها:

رفضَ (هيجل) مبدأ اجتماع النقيضين في وحدة واحدة، وفي زمن واحد مهما كان قصيراً، ودليله أن الجسم لا يكون ساكناً ومتحركاً، أو سالباً وموجباً في الوقت نفسه، وأي افتراض للالتقاء إما أن يكون وهماً، أو أن يدل على عدم التضاد، ولكن (ماركس) الذي يهدف إلى ترسيخ فكرة الصراع بين الطبقات، أخذ من المبدأ الاسم فقط، وقال: "إنني أُقِرُّ اجتماع النقيضين وعلل ذلك بأن الكون مليء بالمتناقضات، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، فيوجد الساكنُ في **الكونِ**، ويوجد المتحرك، ويوجد البياض الناصع والسواد الداكن، ويوجد الكفر والإيمان... ...إلخ"، حتى الآن لا مشكلة، لكنها تأتي عندما يقوم بالافتراض غير العلمي، إذ يفترض أن ما يصح في الوحدة الكبيرة يصح في الوحدة الصغيرة، ويطبقه على موجودات الكون، فيقول: "إن الوحدة مهما صغرت يمكن أن تحتوي الأضداد وهي في صراع دائم".

وهنا لا بُدَّ لنا من وقفة لنقول: إذا ما اجتمع الليل المظلم والنهار الساطع على الكرة الأرضية، فلا يمكن أن يجتمعا في وحدة صغيرة كقرية على الكرة الأرضية، وإذا اجتمع في الذرة بروتون موجب وإلكترون سالب، فلا يعني هذا أن يجتمع السالب والموجب في الإلكترون نفسه، وإذا أمكن للجسم نفسه أن يتحرك أو يسكن، فهذا لا بُدَّ له من أن يكون قد حصل في زمنين مختلفين، ولا أدري كيف أتصور جسماً ساكناً ومتحركاً بكله في الوقت نفسه[١٧٧]، ولتفسير حركة الجسم يقول (إنجلز) في كتابه (ضد دوهرنغ) الذي يرد فيه على الفيلسوف

(١٧٧) حركة الماهية وليست حركة الجوهر.

دوهرنغ)[١٧٨] بما معناه: إنه لرؤية المتناقضات في الأشياء يجب أن نلاحظها في حالة الحركة فقط، وليس في حالة السكون، إذ إن الحركة ذاتها هي تناقض، لأن تغيير المكان، لا يتحقق إلا لأن الجسم الواحد في موضعين في الوقت نفسه، فهو في الوضع الثاني دون أن يكون فيه، وليس في الموضع الأول مع كونه فيه، وإذا قلنا: إنه بين المكانين، فكأننا لم نقل شيئاً، ويقول (إنجلز) أيضاً: إن هذا التناقض المستمر هو الحركة. (انتهى معنى كلام إنجلز).

نقول: إن في هذا المثال تناقضاً واضحاً، حيث عُدَّ (مبدأ النقيض) مكاناً واحداً وزماناً واحداً، والمثال يناقش الوجود وعدم الوجود في مكانين مختلفين، ولو تناهيا عملياً إلى الصفر، لأن تكامل الحركة بالقوى الدافعة يؤدي إلى فرق مكاني وزماني كبير، عندها يستحيل الكلام عن وجود الشيء في مكانين مختلفين في وقت واحد، لأن الانتقال يحصل على مسافة مكانية متناهية في الصغر وبشكل مستمر خلال فترة زمنية متناهية في الصغر.

وهذا المثال لا يدل على وجود متضادَين في مكان واحد وزمان واحد، بل يدل على وجود فكرة يحاول صاحبُها إثباتَها باستخدام النقيض الذي عند (هيجل)، والمرتبط بشكل أو بآخر بالعقل المطلق الذي هو الله، بينما أخذ (إنجلز) و(ماركس) جزءاً من فلسفة مترابطة لـ(هيجل)، يبين فيها أننا لا نفهم الشيء إلا ضمن معرفة ضده، ولكن يستحيل اجتماع الأضداد في مكان واحد وزمن واحد، وأجريا الطفرات غير العلمية التي ذكرناها.

أما عن الصراع بين الأضداد الذي رآه الماركسيون بين الساكن والمتحرك، والليل والنهار، وحاولوا جره إلى هدفهم بأنه هو صراع الطبقات بين الشعب الواحد لتثبيت المادية التاريخية، وتبرير الثورة على الطبقة الديكتاتورية الحاكمة،

(١٧٨) دوهرنغ أوجين (Duhring ١٨٣٣-١٩٢١): فيلسوف ألماني، ولد في برلين، دعا إلى فلسفة مادية، فانتقده (إنجلز) بشدة في كتابه "ضد دوهرينغ".

(ونراهم أنفسهم يدعون إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة، وسحق الطبقة غير العاملة، والغريب أنهم نَسوا أنّ أسباب ثورتهم هي الديكتاتورية والسحق اللذان مارستهما طبقة النبلاء عليهم)، إن التضاد الذي يفترضه الماركسيون، ما هو إلا تفاعل متبادل لا علاقة له بمبدأ النقيض، وهو هنا تضاد نسبي لأن الطبقات متأثرة ببعضها، ومتكاملة فيما بينها، وهو نوع من الارتباط، إذ إنه من التفاعل الطبقي، يمكن أن تَنتج طبقة تجمع بين الطبقتين.

نسأل الماركسيين: لماذا تفترضون الصراع ولا تفترضون التكامل؟ ولماذا تدعون إلى نصرة إحدى الطبقات، وليس إلى التعاون بينها؟ ونقول: إن وجود بعض أمثلة الاستغلال لا يعني أن تَبنوا نظرية تعممونها على أفراد الطبقات كلهم، لأنكم بذلك تصفون واقعة في منطقة محددة، ثم تستغلونها لإثبات فكرة تؤمنون بها، ولا تسعون إلى الأصلح للمجتمع بالمناداة بالتكامل بين الطبقات، الذي يصب في مصلحة الطبقات كلها دون استثناء، وأمثلة كثيرة من التاريخ عن التعاون الطبقي، جمعت تلك الطبقات في وحدة واحدة هي المجتمع، فلا يمكن الكلام عن النقيض، ولا يحق لنا أن نفسر الفروق بين الطبقات على أنه نقيض، إن الطبقة المالكة للقوة الاقتصادية، لن تكون قوية بمعزل عن الطبقة العاملة، والطبقة العاملة ليست قوية بمعزل عن الطبقة الحاكمة، والتعاون بينهما ضمن مبادئ وقوانين عادلة تحفظ حق الطرفين، هو السبيل الوحيد لتطور الطبقتين معاً، ونحن نرفض اضطهادَ أي طبقة منهما للأخرى واستغلالها.

إن الطبقات التي يتكلم عنها الماركسيون، يمكن اندماجها وتشكيل ماهية جديدة، وبينما يستحيل اندماج الساكن بالمتحرك وحمله للصفتين معاً، فإما أن يوقِفَ الساكنُ المتحركَ أو يحركَ المتحركُ الساكنَ، وكذلك السالب والموجب، حيث الناتج يحمل صفة السلبية أو الإيجابية، لا يقل أحدكم: يمكن أن يكون الناتج صفراً.

فنقول له: الصفر هو العدم، والعدم أصلاً لا صفة له.

و- الأساس السادس: مرحلة (نفي النفي)[179]:

إن هذه المرحلة هي الحلقة الثالثة في جدلية (هيجل)، حيث تُنفى مرحلة (الطباق) أو (النفي) فيكون (نفي النفي)، وتكون في الوقت نفسه الفاعل المثير لأطروحة جدلية جديدة، تنشأ في مخزن فكر العقل المطلق ووعيه، وذلك ضمن جدل مادي ترددي ذي قفزات تطورية، غالباً ما تكون صغيرة، والماركسيون الذين يقومون على فكرة رفض وجود الإله ألغوا المرحلة الإبداعية للعقل المطلق، وفرضوا عدم وجوده أصلاً، وقالوا: إن الجدل يبدأ بين المادة والمادة، وهذا الجدل هو أساس التطور.

السؤال هنا: كيف يمكن للمادة التطور نحو الأفضل وهي غير قادرة على التمييز بين السيئ والحسن؟ لقد تجاهل الماركسيون كيف يدور الحوار الثلاثي، وتجاهلوا (هيجلَ) الذي وضع فِكرةَ الحوار أصلاً، وقالوا: إن الجدل المادي ليس على شكل ترددي ذي قفزات متصاعدة، بل هو ضمن حركة لولبية متصاعدة تعطي تركيباً متطوراً بشكل تصاعدي، وهنا تناسى الماركسيون -وهم أعلم- بأن الحركة اللولبية المستمرة تفرض تطوراً مستمراً، وليس تطوراً ذا طفرات، أي إن على الأطروحة أن تتطور قبل أن تصل إلى مرحلة الطباق، والطباق عليه أن يتطور قبل أن يصل إلى مرحلة التركيب، و(نفي النفي) يتطور قبل أن تُطبق عليه القوانين التي تثير مشروع التطور، إن على التركيب التطور حتى قبل الوصول إلى مرحلة الأطروحة الجديدة!.

إن هذا المنطق الجدلي، الذي يفترض تصميم الأطروحة وطِباقها، ثم يفترض تركيب الطباق، ثم يجري القوانين عليه، ويفترض أنه بين الأطروحة والتركيب لا

(١٧٩) "نقض أوهام المادية الجدلية"، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٤٥، بتصرف.

يوجد تطور فتسقط الحركة اللولبية، وأنه بين انبثاق فكرة الأطروحة الجديدة في مرحلة التركيب، وبين تنفيذ فكرة الأطروحة الجديدة لا يوجد تطوير، فتسقط لولبية الحركة، ويقول إن التطوير يحصل فقط عند تنفيذ فكرة الأطروحة الجديدة، وعندها فقط تحصل القفزة، **إذن من الخطأ القول بحركة لولبية مستمرة التعديل والتغيير، بل ترددية ذات قفزات تغيُّرية.**

وأما مناقشة تصاعد اللولبية أو الترددية فلقد أشرنا إليه سابقاً، ونورد هنا المزيد من الشرح والأمثلة، حيث تناسى الماديون إمكانية القفزات السلبية، التي تسبب كيفية جديدة في غير صالح التركيب وما أكثرها!!. فالمرض قفزة صحية سلبية، وإشعاع الشمس قفزة سلبية للشمس، إذ إن كل إشعاع يخرج عنها يكون مسماراً في نعشها، وتحولات الطاقة من كيفية إلى كيفية هو تطور سلبي للطاقة، حيث دائماً توجد طاقة ضائعة ومهدورة، ولولا ذلك لوصلنا إلى اختراع الـ(بربتوم موبيلي)[180]، كما أن تطور الإنسان في المنتصف الثاني من العمر هو تطور سلبي يسير نحو السكون، فأين فرضية التطور التصاعدي المستمر في الجدلية إن كانَت هيجلية أم ماركسية؟ وأين التطور في حبة القمح وحبة الأرز؟ فمنذ آلاف السنين كانتا وما تزالان حبة قمح وحبة أرز.

لقد اعتمدوا فرضيةَ (داروين) في التطور الحيواني، مع أنهم يعلمون أن (داروين) نفسه عاجز عن تفسير وجود كائنات من أول سلم التطور، وكائنات في آخر سلم التطور، في مكان واحد وزمان واحد، وهذا يدل على أن فرضية (داروين) التي تبناها الماركسيون مبدأً أساسياً هي السبب الرئيس في نقض الجدلية المادية نفسها، والقانون الثلاثي للتطور، وأستغرب تمسك مؤيديهم بها حتى الآن، مع العلم أن بعض الجامعات الأوربية والأمريكية، توقفت عن تدريس فرضية (داروين)، على أنها تفسير علمي مفروغ منه للنشوء والتطور.

---

(١٨٠) وهي تعني الجهاز دائم الحركة بعد الدفعة الأولى.

تاسعاً: المادية التاريخية

١ – تعريف المادية التاريخية:

هي تفسير ماركسي للتطور، مبني على مراحل تاريخية، تَحكَّم بها العنصر الاقتصادي الذي عَدَّهُ ماركس الرابطة الأولى بين الكائنات، ابتداء من أول أحفاد للقرود، وعَدَّ أن وسائل الإنتاج هي السبب الرئيس لتطور المجتمعات، وأن القيم السائدة فيها، والأخلاق والمشاعر، هي نتيجة حتمية لرفاهيتها الاقتصادية المرتبطة بتطور وسائل الإنتاج تطوراً جدلياً، بعوامل تحمل داخلها بذور نقيضها، إن ازدهار وسائل الإنتاج، يسبب زيادة في رأس المال، وهذا يحمل في أثنائه بذور نقيضه بالثورة عليه من الطبقة العاملة، فتنتقل إليها وسائل الإنتاج، ويستمر الصراع نحو الأفضل حيث تنمحي الطبقية، وتدخل مرحلة الشيوعية العالمية، وينتهي عندها الصراع.

هذا ما يقوله الماركسيون، ويضيفون، بأن كل مرحلة من مراحل التطور تنفي ما قبلها، لأنها أصلح وأرقى منها، وتنفيها ما بعدها لأنها لا بُدَّ لها من أن تكون أرقى وأصلح، ويقولون: إنه من هذا المنظار نرى أن الرِّق نفى المشاعية البدائية لأنه أفضل، والإقطاع نفى الرِّق لأنه أفضل، والرأسمالية نفت الإقطاع لأنه نظام أرقى، والشيوعية تنفي الاشتراكية لأنها أفضل وأرقى.

ويقولون أيضاً: إن تاريخ المعرفة بدأ بالدين، فكان المصدر الأول للمعرفة، ثم ظهرت الفلسفة العقلية محل الدين على يد (سقراط) و(أفلاطون)، ثم حلت الفلسفة الحسية المادية على يد (أرسطو)، وإذا أرادوا تطبيق مبدأ (نفي النفي) على هذا التقسيم، يتبين لهم أن الفلسفة العقلية أفضل من الدين، والفلسفة المادية أفضل من العقلية ومن الدينية، ويستنتجون أن الدين هو أقل درجات مصادر المعرفة، ويقولون: إن تطبيق فرضية (داروين) عن بقاء الأصلح، يشير إلى أن

الشيوعية ستبقى لأنها الأصلح في التطور الاقتصادي، ولن ينفيها نظام آخر، وأن المعرفة المادية ستبقى لأنها أرقى المعارف.

كما أن نظر الماركسيين إلى الاقتصاد على أنه أساس للتفسير المادي للتاريخ، والسببَ الرئيسَ في تكوين المجتمعات -متناسين أن للإنسان مطالب تختلف عن الحيوان وتبتعد عن الجنس ولقمة العيش- لا يقترب من الصواب أبداً.

حتماً لا أحد ينكر أهمية المال في الحياة، ولكن ماذا عن الحرية؟ ألم تقم حروب لم يكن سببها المصالح الاقتصادية، ابتداءً من ثورة العبيد المشهورة قبل الميلاد، وحتى تمرد العلماء ضد اضطهاد الكنيسة في أوربة، والثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٧٩٩م) التي قامت بسبب أفكار (جان جاك روسو)، الذي جعل الحرية والواجب شيئاً واحداً وجعل القانون والحق والعدالة شيئاً واحداً، ونادى بحكم الشعب بالشعب ولصالح الشعب، لَمْ تقم هذه الثورة بسبب الجوع بل بسبب الاضطهاد والاعتداء على الكرامة، وهضم الحقوق من قبل طبقة النبلاء والكنيسة باسم الرب.

ألم نسمع باضطرابات سببها إهانة كرامة فرد في جماعة، أليس القتل بسبب الاعتداء على الحرمات ثورة فردية يمكن أن تصل إلى حرب أُمم؟!.

إن المبادئ الشيوعية تَعُدُّ الإنسان جزءاً من آلة يحق له سكن وطعام وجنس فقط، أما حرية العقيدة والرأي والعمل والتملك والتصرف بالملك، فهي مقيدة ومحدودة تصل إلى درجة المنع أحياناً، بينما هي مطالب بشرية ضحى كثيرون بالمال والروح في سبيلها.

إن الفلسفة الماركسية وضِعَتْ من وجهة نظر طبقة واحدة، ونادت بديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة)، وقامت على أشلاء الطبقة البرجوازية

(طبقة الأغنياء والنبلاء) تنفيذاً لتعاليم (لينين)[١٨١] في قوله: "إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، إنما الشيء الهام هو أن يصبح الربع الباقي شيوعياً"، ويقول زعماء الماركسية: "إن الدين هو أفيون الشعوب، وهو من اختراع النظام الإقطاعي لإقناع العامة، بأن ما هم فيه هو من مشيئة الله، ولسوف يثابون في الجنة".

إن الماديين بذلك قد تناسوا (العقائد التوتمية) للشعوب البدائية التي وجدت قبل مرحلة الإقطاع، حيث كان المُلك مشاعاً والِملكية لم تتعدَّ السلاح وغطاء العورات.

أما قولهم إن كل مرحلة تحمل بذور نقيضها، التي تنمو وتنفي مضيفها عن طريق صراع الطبقات؛ حيث هكذا يكون التطور البشري، فقد نقده التاريخ في كثير من حوادثه، فقد طغى الإقطاع، ولم تقم البروليتاريا أو البرجوازية بالقضاء على الإقطاع، بل قام مصلحون من الإقطاعيين استطاعوا تعديل النظام الإقطاعي، مثل ليكورغوس (قرن ١٩ ق.م.) عند اليونان، والإقطاع عند الفرس لم يَثُرْ عليه أحد، ولم تحل مشكلتُه إلا عند الفتح الإسلامي.

- هل الفتوحات الإسلامية قامت بدوافع اقتصادية؟
- هل الحروب الصليبية قامت بدوافع اقتصادية؟
- هل التغيّر الذي حصل لدى الشعوب التي دخلت الإسلام، هو بسبب نمو بذور النقيض؟

هل تساءل الشيوعيون لماذا قامت الثورة البلشفية في روسية، حيث وسائل الإنتاج المتأخرة، ولم تقم في إنكلترا حيث كانَت قمة النهضة الصناعية، وتطور وسائل الإنتاج؟

---

(١٨١) (فلاديمير لينين ١٨٧٠-١٩٢٤م): زعيم الثورة الروسية ومؤسس الحزب الشيوعي في روسيا، من كبار منظري الماركسية، من كتبه "الدولة والثورة".

إن هذين المثالين يمثلان نقضاً صريحاً لما اعتمد عليه الشيوعيون، إذ قالوا: إنَّ تطور وسائل الإنتاج هو السبب الرئيس لتطور المجتمعات، وإن هذه بدورها تحمل بذور نقيضها بالثورة عليها من الطبقة العاملة.

أليس من الأفضل أن نقول: إن تطور وسائل الإنتاج يحمل بذور مرحلة أرقى، وتعاون أوثق بين مختلف الطبقات؟.

وقولهم: إن قيم الشعوب وأفكارها ومشاعرها مرهونة بتطور وسائل الإنتاج، فنقول فيه: إنه يصدق في بعض المجالات فقط، لأن الجائع، والعامل المنهك بالعمل، لا يسمع موسيقا، ولا يزور معارض، ولا متاحف، ولكن كيف يكون حب الأم لوليدها خاضعاً لتطور وسائل الإنتاج؟ وأين مكان الحب في الجدل المادي؟

ألم نسمع أنه بينما كان (ماركس) ينادي أن المهم هو تلبية الحاجة الجنسية، ولا يهم مع مَنْ، نراه يصر على الزواج من حفيدة الدوق (دي بروتشويك).

ألم نسمع بـ(أنجلز) الذي كان يؤكد بأن جميع مشاعر الإنسان، ليست إلا آثاراً مباشرةً لصراع الطبقات الدائر حول وسائل الإنتاج؟ نراه يحزن على موت زوجته، وينقطع عن نشر تعاليمه لفترة حزن طويلة... فلماذا كان يدعو لتجريد الإنسان عن مشاعره ويسمح لنفسه بالحزن على زوجته؟.

إن تقسيم (أوغست كونت)[182] للتسلسل التاريخي لمصادر المعرفة، ينطبق فقط على أورُبة، فقد سادت المعرفة الدينية حتى منتصف القرن الثامن عشر، حين بدأ (عصر التنوير)، وعُرفت سيادة المصادر العقلية، ثم سادت بعدها فلسفة المصادر الحسية المادية والخضوع للتجارب، أما أن تُحصر كل الإنسانية بهذا

---

(١٨٢) (أوغست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧م): استقر على بدء "المذهب التجريبي"، الذي أصبح يُعرف بـ "المذهب المادي".

التسلسل فهذا ما لا يؤيده علماء الإنسانيات، حيث قسموا تاريخ المعرفة إلى عدة مراحل.

٢- مراحل المادية التاريخية:

أ- مرحلة العقائد (التَّوْتَمِيَّة) البدائية: التي قدست الطبيعة وظواهرها، وانتشرت بين الحضارات القديمة في اليابان والصين والهند وفارس ومصر واليونان، حيث مثّلوا الإله بأصنام وعبدوها، أو تقربوا بها من إله مجهول لا يرونه، أو أشخاص كفرعون والملوك.

ب- مرحلة الفلسفات العقلية الأولية: مثل فلسفة (كونفوشيوس) و(أخناتون) و(زرادشت).

جـ- مرحلة الشرائع السماوية : كاليهودية والمسيحية والإسلام.

د- مرحلة الفلسفات العقلية للشرائع السماوية: فظهر موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤م) لدى اليهود، و(كانتْ) (١٧٢٤-١٨٠٤م)، و(ديكارت) (١٥٩٦-١٦٥٠م)، و(هيجل) لدى المسيحية (١٧٧٠-١٨٣١م)، والغزالي لدى المسلمين (١٠٥٩-١١١١م) وأيضاً ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) وابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م).

هـ- مرحلة الفلسفات المادية: ابتداءً من (فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦م)، و(أوجست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧م).

نحن نقول في هذا الشأن: إن الملاحظ أن مبدأ (نفي النفي) وبقاء الأصلح لم يقم بمفعوله السحري هنا، إذ إنَّ كل الفلسفات، وكل الشرائع السماوية والعقائد الوضعية، وحتى البدائية من عبدة النار والشمس والأعضاء الجنسية، كلها ما تزال قائمة حتى الآن، ولها أتباعها المتحمسون لها بشدة، بل إن هذه المعتقدات المختلفة تتحالف مرة وتتنافر أخرى، ولم ينف بعضها بعضاً حسب تاريخ ظهورها.

وأما قول الماركسيين: إن التطور يقف عند الشيوعية لأنها الأصلح، فهذا ينسخ (مبدأ النقيض) الذي قامت عليه ماديتهم التاريخية، وإذا أجروا عليها (مبدأ النقيض) يكون اعترافاً منهم بأنها ليست الأصلح، وفي الحالتين هم الخاسرون.

إن النظام الشيوعي، يمكنه فرض وجود طبقة واحدة في المجتمع متساوية الدخل، حسب مبدئهم القائل: "من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته"، ولكن كيف سيمكنه التساوي بين طبقة الخدمات الدنيا وطبقة الخدمات العليا، أو طبقة الصلاحيات الدنيا وطبقة الصلاحيات العليا؟ إذ لا بُدَّ من أن يظهر بعض المستغلين في طبقة الخدمات العليا والصلاحيات العليا، ويستغلون إمكاناتهم المتفوقة لتحقيق مكاسب مادية إضافية، حتى ولو على مستوى هدية يقدمها المريض للدكتور، فتتحول الهدية إلى وفر مادي إضافي، ونمو هذه الفروق بين الطبقات سيشكل مع الزمن الوجود الطبقي للمجتمع، وبالتالي ستتحول الطبقة الأقوى إلى طبقة ظالمة (كما هم يفترضون)، فيعود التقسيم الطبقي من جديد ولكن بأسماء جديدة، إن أحد تعريفات الماركسيين للشيوعية هي أنها **ديكتاتورية الطبقة العاملة**، ما هو إلا اعتراف بوجود أكثر من طبقة واحدة في المجتمع.

وفي حال أن الطبقة الواحدة (الشيوعية) بقيت مستمرة، فسوف يدل هذا على أنها لا تحمل بذور نقيضها، مما سيهدم المبدأ الديالكتيكي للنظرية المادية الذي هو أساسها.

إننا نرى أن التناقض في الماركسية، أوضح من أن يُجهد الإنسان نفسه في البحث عنه، إذ تَحْرِمُ الإنسانَ من فطرة التملك، وأرى أن الشعوب التي مارست الشيوعية، كانت أول من لبى نداء التخلص من الشيوعية، لأنهم اكتشفوا سراب الجنة الموعودة، لقد قيل للجيل الشيوعي الأول تَحمَّل أعباء العناء من أجل مستقبل أفضل لأبنائك، وقيل للجيل الثاني كذلك، وللأجيال التالية القول نفسه، حتى ملَّ الشعب الانتظار، وجنة الله عندهم مرفوضة، فازدادت الهوة بين

الشعوب المحكومة بالشيوعية وجيرانها، على جميع الأصعدة... ورأت أن حياتها صراع مع لقمة العيش يزيد دخل الدولة والقائمين عليها فقط، وفي الوقت نفسه لم يُوعَدوا بجنة إلهية بعد الموت، فنظامهم مبني أصلاً على المادية والإلحاد، وبذلك تهدمت نفسيات الشعوب الشيوعية، وفقدت الأمل بجنة الدنيا وجنة الآخرة، فأصابهم إحباط من أفكار زرعت لهم البحر... وبَنَتْ لهم قصوراً من ورق... فلا الزرع نبت، ولا القصور سُكِنَت!.

عاشراً: بعضُ فلاسفةِ عصرِ التنويرِ المهمون

في هذه الأثناء ظهر (نيتشه ١٨٤٤-١٩٠٠) في بروسية (الألمانية) فيلسوفاً يؤمن بالفلسفة الطبيعية، إذ يعتقد أن العالم ينبغي أن يُفسر على أساس العلة الكافية، بحيث لا يلجأ إلى أية عناصر أولية ميتافيزيائية، ويؤمِنُ (نيتشه) بإرادة القوة التي هي أكثر الدوافع الإنسانية أساسية، ويعدُّ المسيحيةَ تعبيراً عن إرادة القوة التي يضمرها الضعفاء، الذين يدفعهم حقدهم، إلى عداوة كل امتياز جسمي وعقلي، وهذا يميل بهم نحو كراهية الجنس، وتحقير الجسم والعقل وتعذيبه بالعبادة المتواصلة، للرفع من شأن الروح، ونحو ازدراء الدنيا من أجل الآخرة، له كتاب عنوانه (عدو المسيح)، اهتم بفلسفة الأخلاق، ويَعتقد أن الأخلاق نشأت من تولد القوة الفائضة، ومن ذلك أن يساعد الغنيُّ الفقيرَ ولكن ليس بدافع الشفقة، وأن يحترمَ الضعيفُ القويَّ ولكن ليس بدافع الخوف، وإنما بفعل دافع تُولده القوة الفائضة.

ثم ظهر (فرويد ١٨٥٦-١٩٣٩م) كردّة فعل على ازدراء الرهبان المسيحيين للجنس، وفلسف تصرفات الإنسان، مركزاً على (اللاشعور) الذي عدّه مخزناً للانفعالات التي لم تجد الفرصة لإشباعها، لذلك فهي تتحكم في كثير من تصرفات الإنسان بدافع من الغريزة الجنسية فقط، بدءاً من الرضاعة من الثدي إلى إخراج الفضلات، ويقول: "إن الأولاد يقتلون آباءهم ليعاشروا أمهاتهم، وبعد

ذلك يندمون على قتل الأب فيحيون ذكراه ويقدسونه"... بذلك فَسَّر (فرويد) نشأة فكرة تقديس الإله الذي يعده حالة مَرَضِيَّة...

الغريب أن (فرويد) لم يدعم فلسفته بأدلة مقنعة، فمن هم الأولاد الذين قتلوا آباءهم لهدف جنسي مع أمهاتهم؟! ولماذا لم يفعل هو أو معارفه ذلك؟ هل سأل رضيعاً فأجابه أنه يتعلق بثدي أمه لإشباع حاجة جنسية؟!.

ألم يسأل (فرويد) نفسه لماذا يتعلق الرضيع بالنهم نفسه بزجاجة الحليب أو ثدي اصطناعي عند جوعه، ويرفض ثدي أمه عند الشبع؟.

ألم يخطر بباله أن الطفل إنما يبحث عن الأمان بالتصاقه بأمه؟ لماذا لا يفسره بأنه حنين إلى الماضي الذي شعر فيه بالأمان عندما كان في بطن أمه؟.

وعندما سئل (فرويد) لماذا لا يفعل الصبي ذلك بعد العاشرةمن عمره؟ قال: إن الجنس يتراجع بين مرحلة الطفولة والبلوغ.

ألا ترى معي أن الجواب الصحيح هو أن الجنس بدأ بالظهور فأخذ الطفل يشعر بالخجل فابتعد عن أمه لأنه بالفطرة يعرف حدوده؟!.

إذن فحسب رأي (فرويد)؛ على الشاب بعد البلوغ أن يعود إلى أمه باحثاً عن الجنس، هل فعل (فرويد) ذلك؟!.

ربما يقول قائل إنما تحدث (فرويد) عن الشعور وليس عن التنفيذ.

فنقول: ولكنه فرض قَتْلَ الآباء بالشعور، وجَعَلَ أساسَ الدين هو الشعور بالحاجة لقتل الأب، وبعدها يفترض أن الابن سوف يندم على قتل أبيه لحاجة جنسية مع أمه، ولذلك قدسه، ثم اخترع الدِّين... لقد أقام (فرويد) فلسفة كاملة على أساس افتراض الحاجة الجنسية القائدة وعقدة الذنب الوهمية.

ونقول: إن الدين الوضعي في أساسه قد نشأ لحاجة الإنسان لشيء كبير، ولو كان وهماً يلجأ إليه وقت الضيق، ويفسر به الظواهر المبهمة فينسبها إلى إله من

تصوره وحسب تطوره، فأخذ يختار من عناصر الطبيعة كبيرها من شمس وقمر، أو قويها من رياح وعواصف، ثم يختار غيرها عندما لا تثبت فعاليتها.

أما تحريم الزواج من الأقارب الذي نسبه (فرويد) لتفادي الصراع بين الأولاد على الأم... فهو أبعد ما يكون عن الصحة، ما هذا التحريم إلا الحكمة وجدت في فطرة الإنسان، بغض النظر عن فوائدها الجمة التي منها إفساح المجال لتقوية العلاقات الاجتماعية، وتجنب الأمراض الوراثية التي لم تكن معروفة قديماً، وغيرها من اختلاط الأنساب، والتأثير السيئ على توزيع التركات، فتعود الإنسان على خطوط حمراء لا يسمح تجاوزها.

أما الفلسفة البراجماتية[١٨٣] التي قامت على يد (فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦م)، ونشرها (وليم جيمس[١٨٤] ١٨٤٢-١٩١٠م)، و(جون ديوي[١٨٥] ١٨٥٦-١٩٥٢م) التي تقول: إن الحقائق ليست ثابتة وهي من اختراع البشر، فلا هي مبادئ ضرورية كما يقول العقليون، ولا هي ناشئة عن تأثير البيئة كما يقول الداروينيون، فلا يوجد خيرٌ مطلقٌ، ولا شر مطلق، ولا باطل بذاته ولا حق بذاته، فما هو جيد هنا، سيئ هناك وما هو حق هنا، باطل في مكان آخر، ويقولون: إن المادة لانهائية، **وإن الحياة قادرة على استرداد نفسها، ذلك حتى لا تُعرَض عليهم أية قوة إلهية،** على أنها سبب لقدوم الحياة أو خروجها.

ويقول (وليم جيمس): "إنما الأعمال بنتائجها"، فكل عمل تَحقق منه خيرٌ فهو

---

(١٨٣) البراغماتية: فلسفة تعتمد المبدأ القائل: "المعرفة هي القوة"، وتقول: "إن الحقيقة لا قيمة لها ما لم تؤثر في الواقع"، والشخص البرغماتي هو الذي يتعامل فقط مع الواقع، وليس للأخلاق عنده أي معنى إلا من خلال المصلحة.

(١٨٤) (وليم جيمس ١٨٤٢-١٩١٠م): فيلسوف وطبيب أمريكي، أهم مؤلفاته "مبادئ علم النفس" و"إرادة الاعتقاد" هو من مؤسسي البراغماتية.

(١٨٥) (جون ديوي ١٨٥٦-١٩٥٢م): فيلسوف أمريكي تربوي، احتقر الفلسفة الميتافيزيائية، هاجم الدين بشدة.

خير، وإن لم يكن فيه منفعة فهو شر، وهو بذلك يشابه المذهب الميكيافيللي[186]، وهو لا يعطي لله أي نوع من السلطات على الإنسان، فيفعل ما يريد دون رادع إلا المصلحة.

لست أرى دعوة أقرب من العودة إلى شريعة الغاب التي تعافها النفس، ويرفضها العقل، من البراجماتية والميكيافيلية التي لا ترى للأخلاق مكاناً في التعامل.

بعد ذلك ظهر الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر)[187]، وهو ينتمي إلى (هيجل) و(كيركجارد)[188]، لكنه أقرب إلى (فيختة)، فهو يعالج الحرية الإنسانية بطريقة (فيختة) بعيداً عن تعقيدات كرامة الفعل التي كانت تقيد (كانْت)، ويقول: إن واجب الفيلسوف هو أن يساعد الناس بوساطة الفكر على تحرير أنفسهم.

يميل سارتر إلى مذهب (الأنا وحدية) وهي نظرية انحصار الذات بمسحة تشاؤمية، كان يقدس الحرية، لذلك انسحب من الحزب الشيوعي، بعد حادثة احتلال روسية للمجر واستعمالها العنف عام ١٩٥٦م.

من كل ما ورد في هذه العقائد الوضعية الأوربية، نرى أن العلمانيين يحصرون وسيلة المعرفة بالحواس الخمس، وبما أنهم لم يتحسسوا الله بها، ولم يستطيعوا تصوره أعلنوا عدم وجوده، رافضين تعقلهم له، وقالوا: إن كل ما في الكون تسيره قوانين ثابتة أزلية لا واضع لها، وأنه لا صانع للكون.

---

(١٨٦) الميكيافيلية: فلسفة تعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

(١٨٧) (جان بول سارتر ١٩٠٥-١٩٨٠م): فيلسوف وكاتب وناقد فرنسي، من رواد الوجودية المتشائمة، له كتب منها "الكائن والعدم"، و"الجدار"، رفض جائزة نوبل عام ١٩٦٤م.

(١٨٨) (كركجارد ١٨١٣-١٨٥٥م): فيلسوف وجودي لم يهبه مذهبه الأمن فاضطر إلى الاستغاثة بالله خاشعاً قائلاً: "إن حزني لعظيم لا يحده حد، وما لأحد علم به سوى الله جل جلاله... ...إن أحداً لا يستطيع أن يهبني العزاء إلا الله سبحانه علو سمائه". من كتاب "من الكفر إلى الإيمان"، ص ٧، تأليف جواد الخالص.

إنهم يقولون: لا وجود لما لا يدرك بالحواس، فإذا سئلوا: وهل هناك ما لا تدركه الحواس؟

فإن قالوا: نعم، سقط مذهبهم.

وإن قالوا: لا، فسوف يتوجب عليهم تعريف الروح.

فإن قالوا: لا توجد أصلاً، عندها يتوجب عليهم أن يفرقوا بين حالة الموت وحالة الحياة، عندها سيخوضون في متاهة، هل الموت هو موت الدماغ أم توقف النبض؟ متناسين أنه توجد حالات غيبوبة، وشلل دماغي مع بقاء الحياة في بقية الأعضاء اللاإرادية الداخلية للجسم، وحالات توقف فيها القلب، ثم عُوِّضَ بمضخة خاصة وبقي الجسم بلا حراك، ولكن تقوم أعضاؤه الداخلية بعملها ومن ذلك حالة الأم الحامل التي توفيت قبل موعد الولادة، وقام الأطباء بتبديل القلب بمضخة لضمان وصول الغذاء إلى أنحاء الجسم كافة، ونما الجنين، وأُجريت للأم ولادة قيصرية!... بعدها أوقف الأطباء القلب الاصطناعي عن الأم، ففي الحالة الأولى مات الدماغ ولم يمت الإنسان، وفي الحالة الثانية مات القلب ولم يمت الإنسان!.

والأمثلة كثيرة على أشخاص ماتت قلوبهم وعاشوا بقلب اصطناعي ولفترات متفاوتة، إذن لا موت الدماغ ولا موت القلب هو سبب الوفاة، ولا بُدَّ من وجود شيء آخر بنقصه تحصل الوفاة ألا وهو الروح!. فإن أنكروها فهم يكابرون، وإن أقروا بوجودها، وجب عليهم تفسير كيفية التعرف عليها بالحواس.

فإن قالوا: نعم، تعرفنا عليها بالحواس، فقد كذبوا على أنفسهم.

وإن قالوا: أدركناها بآثارها وهي الحياة والموت.

قلنا: إذن توجد مصادر معرفة غير حسية تُدرك بآثارها واستدلالاتها فقط، كذلك هو الله.

وإن كابروا وأنكروا، قلنا: فَرِّقوا بين العاقل والمجنون.

فإن قالوا: لا فرق، كذبوا على أنفسهم.

وإن قالوا: إن العاقل فيه عقل، والمجنون قد اختفى عقله.

قلنا: وهل العقل موجود؟ وأين مكانه في الجسم؟ وأنتم لم تدركوه بحاسة من الحواس، فكيف أدركتموه؟

فسوف يضطرون للقول: بآثاره وهي منطقية التَعرُّف.

قلنا: وكذلك هو الله تعالى يدرك بآثاره. فلِم لا تصرون على رؤية العقل بالحواس، وتصرون على رؤية الخالق شرطاً للإيمان به؟ فهل من مُبرر؟.

تعرفنا على نظريات مغلوطة علمياً وفلسفات مُترفة متناقضة، تَضافَر بعضُها مع بعض بهدف إزالة الدِّين، وتضافرت نظريات أخرى لتجعل الخالق موجوداً، ولكنه في إجازة لا عمل له سوى أنانية التفكير بنفسه!. إن العلماء الذين اخترعوا واكتشفوا لم ينفوا وجود الله تعالى، لكن الفلاسفة أساؤوا استخدام هذه النتائج.

ولو نظرنا إلى كل هذه النظريات الفلسفية المادية نظرة شاملة متجردة، نلاحظُ أنها إن خرجت عن دين التوحيد دُعِّمت وانتشرت، وإن بقيت ضمنه حاربوها وحرفوها حتى تسير وفق خطة مدروسة بشكل عميق وخبيث، لمنع الناس عن الدِّين والأخلاق، وإثارة فوضى فكريةٍ، وذلك تحقيقاً لهدفٍ سيكون ذكره أنسب في مكان آخر من هذا البحث.

الفصل الثاني

العقائد الوضعية في آسية

غلب الإيمان بتعدد الآلهة على الشعوب القديمة، ولذلك سنستعرض آراءهم ولن نتعرض لمناقشتها بل نُذَكِّرُ فقط بمناقشة التعددية التي أجريناها سابقاً، ومناقشة التثليث التي سنتعرض لها في مناقشة الديانة (المسيحية البولسية) لاحقاً.

المنطقة الأولى: بلاد الرافدين:

تعاقبت عدة حضارات ابتدأت بالسومريين ثم الآكاديين، وتكونت الحضارة البابلية (نسبة إلى مدينة بابل)، والحضارة الآشورية نسبة إلى الإله (آشور)، وكان لها تأثيرٌ كبيرٌ في الحضارة اليونانية، وكان الدين هو خلاصة الأخلاق الإنسانية.

أولاً: السومريون[(١٨٩)] (٣٤٠٠-٢٤٠٠ ق.م.)[(١٩٠)]:

سكنوا بلاد الرافدين منذ أكثر من أربعين قرناً قبل الميلاد، كوَّنوا حضارة نسبية عظيمة، تأثرت بالحضارات الهندية والصينية بحكم الجوار والتجارة.

عَبَدَ السومريون الظواهر الطبيعية كما فعلت الشعوب البدائية، ثم عبدوا القوى

(١٨٩) يقول بعض المؤرخين: إن السومريين أتوا من أواسط آسية، وبعضهم جعل من أصلهم لغزاً، ونتساءل: لِمَ يَعدُّون أن هذه الأرض المِخْصَاب يجب أن تكون خالية من سكان المنطقة الأصلاء؟ لقد قُرئت الرُّقُم السومرية، فلو جاؤوا من منطقة أخرى لذكروا ذلك ولو لمرة واحدة على الأقل، ذَكَرَ الكنعانيون أن أصل السومريين من جزيرة العرب، وأنهم يؤمنون بالجنة بعد الموت، ويعُدُّون هذا من الحنين إلى الوطن الأصلي، والتشابه بين الحضارات أمر طبيعي، فرضته التجارة والجوار، فتشابه حضارة بلاد الرافدين وحضارة مصر القديمة أو مصر وكريت لا يعني أن سكان مصر أصلهم من بلاد الرافدين أو (كريت).

(١٩٠) "عالم الأديان بين الأسطورة والحياة"، فوزي محمد حميد، ص ١١٣.

المحركة لهذه الظواهر، وجسدوها على صور بشرية وحيوانية، فتعددت الآلهة بتعدد عناصر الطبيعة الرئيسة، واختلفت الأسماء باختلاف الجماعات البشرية.

اشتهرت عند السومريين الآلهة (نيمو Nimo) و(إنيل Enil) و(أوتو Auto) و(أنانا Anana) و(ديموزي Dimosy).

ثانياً: الآكاديون[191]: (٢٣٦٠-٢١٨٠ ق.م.)

تعددت آلهة الآكاديين أيضاً، وتجسدت بالبشر، وأخذت عاداتهم من زواج وطلاق وقتال وموت، ولكنهم كانوا أكثر كمالاً، **وكان لهم الثالوث** (أنو Anw الإله الأكبر، و(إنليل Enlil) إله الهواء، و(آيا Ea) إله الأرض، وكان لهم ثالوث آخر اشتهر في جماعة أخرى يتكون من: (شماس Shamas) وهو إله العدل وتمثله الشمس، والإله (سن Son) وهو إله الزمن ويتمثل في القمر، والإله (عشتار Ashtar) ويتمثل بالزهرة، وهو إله الحرب في النهار، ويتحول إلى أنثى في الليل، كإله للإغراء، مهمته إغواء الناس وحثهم على الرذيلة.

ثالثاً: البابليون: (١٨٣٩-١٥٩٤ ق.م.)

وجدت عندهم **آلهة كثيرة** كإله العاصفة (أداد Adad) ، وإله النار (نوسكو Nusko)، وإله الخصب (عشتر) الذي يرمز للأرض الأم، وإله الحرب (تموز Tamos الذي يموت ويولد من جديد كل عام فهو دائم الشباب، حُبكت الكثير من الأساطير عن الآلهة، وخاصة حب (تموز) و(عشتار)، وأسطورة إله الطب (باو Baw) و(نينا Nina) آلهة الماء، وكان (مردوك Merdok) عندهم هو خالق البشر، له شكل إنسان بآذان طويلة تدل على الحكمة، وبيده سلاح يدل على القوة.

جَعَلَ بعض الملوك من أنفسهم آلهة مثل (حمورابي) الذي لَقَّب نفسه (بإله الملوك).

(١٩١) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ١١٤.

أهم الآلهة البابلية (إبسو Epso)، و(إنكي Enki)، و(أبرا Abra)، و(تعامة Tama)، و(شمس Shamsh)، و(سن Son)، و(عشتار Ashtar)، و(مردوك Merdok)، و(ننمرساح Ninmersah)، و(نرجيل Narjil).

رابعاً: الآشوريون: (١٩٠٠- ٦١٢ ق.م.)

هم من أقدم الشعوب العربية القديمة في بلاد الرافدين، هاجروا من جزيرة العرب سنة ٣٠٠٠ ق.م. إلى شمالي بلاد الرافدين، ولم يَعرفوا الطمأنينة والاستقرار قرابة ألف سنة بسبب الحروب والغارات، نُسِبوا إلى إلههم (آشور)، تشابهت معتقداتهم مع معتقدات أسلافهم البابليين، مضافاً إليها بعض التطور الذي يناسب المجتمع العسكري.

أقدمُ الآلهةِ عندهم (آشور Ashore) إلهُ الحرب، ثم (عشتار) زوجتُه وهي أكبرُ الآلهة، وكان الملك عندهم يمثل الإله ويحكم باسمه.

كانت عقائد بلاد الرافدين تؤمن بالآخرة، بدليل المؤنِ المدفونةِ مع الميت، والحاشيةِ مع الملوكِ لكي ترافقَه إلى الحياة الآخرة، وكانت تدفن الزوجة مع زوجها!... يعتقد الآشوريون أن الروح بعد الموت تنزل إلى العالم السفلي في مدينة الموتى (أرولو Arollo) حيث العذاب الذي يُخفَّف بالقرابين، وتَصعَدُ أرواحُ أخيار الناس إلى السماء حيث الخلود.

خامساً: الكنعانيون والفينيقيون

عَرَفَ التاريخ عن الكنعانيين في فلسطين والفينيقيين في الساحل السوري، بعد اكتشاف مدينة أوغاريت (رأس شمرا) شمالي الساحل السوري قرب اللاذقية، كانت آلهتهم قابلة للموت، ومتبدلة الصفات والجنس، أخذوا بعضها عن المصريين، وكانت عقيدتهم أقل تطوراً من عقيدة بلاد الرافدين.

أهم آلهتهم:

(بعل Bael) رب المطر والرزق، تغلب على الإله (يم Yim) الذي يمثل المياه الأولى، كان في صراع مع (مُوْت) انهزم فيه لولا مساعدة حبيبته (عناة) **فَبُعِثَ من الأموات** وقهر الإله (موت Mot)، ويعاد الصراع كل سبع سنوات.

(إيل) كبير الآلهة ورب السماء، وعرشه في السماء السابعة، كان كثير التأثر بزوجته الآلهة.

(موت) إله الظلام والعالم الأسفل، يتبادل (بعل الحكَمَ مع (عناة) رب الحب والجنس والخصب، حبيبته الإله (بعل إيلات) وهي الأم الكبرى وزوجة (إيل) وهي سيدة البحر.

(أدونيس) إله المطر والخصب -سماه البابليون (تموز)- قتلَه خنزيرٌ بري في غابات لبنان، ثم وجدَته حبيبتُه (عشتاروت) **وأعادته من عالم الأموات** ضمن احتفالات عظيمة!!.

إنَّ كثرة تعداد الآلهة عند تلك الحضارات المذكورة وصفاتها، تجعلُنا نكتفي بالسرد التاريخي فقط، لأننا كنا قد ناقشنا فكرة تعدد الآلهة سابقاً، وأهم ما لاحظناه هو أنَّ الآلهة عندهم تُبعثُ من الموت مرات عديدة.

المنطقة الثانية: الهند:

أولاً: الهندوسية[١٩٢]

١- تمهيد:

كانت العقيدة الهندية القديمة (توتمية)، تعبد رموز القبيلة وعناصر الطبيعة، ثم شخصوها فجعلوا السماءَ الإلهَ الأبَ، والأرضَ الإلهَ الأم، ومثلوا بعضها بأشكال حيوانية أهمها البقرة، [لأنها أول من عرَف (كرشنا) وسجدت له[١٩٣]]، وآمن

(١٩٢) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة": ص ١٧١-١٩٢، بتصرف.

(١٩٣) أو حفاظاً على الزراعة وحيوان الجر، ليسد حاجة السكان الذين يتكاثرون بنسبة كبيرة، حتى بلغ عدد البقر اليوم ربع عدد السكان: قصة الحضارة ٣/٢٠٢).

قدامى الهنود بعالم الأموات، وبأن الصالحين يشاركون الآلهة في تصريف أمور العالم، وأطلقوا على هذه المرحلة (وحدة الوجود).

بعد الغزو (الآري) حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد، امتزجت العقيدة الآرية بالعقيدة الهندية القديمة، وظهر الأسلوب الهندوسي في الحياة، **وتحول لاحقاً إلى عقيدة لم تدَّعِ المصدرَ السماوي لتعاليمها**، ثم تطورت هذه العقيدة في القرن الثامن قبل الميلاد، على يد كهنة الـ(براهما) الذين زعموا أنهم عنصر إلهي، وتطورت مرة أخرى في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين (مينوشاستر Minoshaster).

العقيدة الهندوسية ليس لها نبي مرسل، لأنها **قالت بتجسد الآلهة نفسها** في أشخاص تنقلُ إلى البَشَر التعاليم الإلهية بشكل مباشر، تقومُ الهندوسية على فكرة خلود الروح وحرية الفرد، كما جمعت بين الفلسفة الصوفية والزهد الصادق مع الوثنية البدائية، متخذة فكرة تعددِ الآلهة، وهي تضم قيماً أخلاقية ذات مثالية عالية تقوم على نكران الذات وإهانة الجسد.

جُمعت مبادئ الهندوسية في كتاب يسمى الـ(غيدا Geetha)، وتعني المعرفة لكسب رضى الخالق، ظهرت فيها أفكارٌ توحيدية ليست دقيقة الوضوح، فالكل يخاطب ربه برب الأرباب، وتَذكُر الـ(غيدا) بلسان الإله الأكبر قوله: "إني أنا الله نور الشمس وضوء القمر وبريق اللهب، أنا الأصل الأزلي لجسم الكائنات، أنا الأول والأخير والحياة والموت لكل كائن".

يقول (براهما Brahma): "أنا أقوى من السماء، وأعظم من الأرض، وأرفع من كل الأجرام، أنا الكل في الكل، أفعل ما أريد وأخلق كل ما يخطر لي، أنا جوهر العالم الواحد الشامل، لست بالذكر ولا بالأنثى إنما أنا روح غير مُشخَّص في صفاته، أحتوي كل شيء، وأكمن في كل شيء، لا تدركني الحواس، لأني أنا حقيقة الحقيقة أنا (براهما)".

كما يظهر فيها التثليث (Tree moorthy)[١٩٤]، ويتمثل بالرب خالق الوجود (براهما)، الذي عندما أراد الخلق تحول إلى صفة الفعل وصار شخصاً ذكراً هو (براهما الخالق)، الذي يمثل مبادئ التكوين، وهو الأب الذي خلق كل شيء، ولما أراد الحفاظ على خلقه انقلب إلى (فشنو Vishno) الإله الحافظ الذي يمثل مبادئ الحماية والحفظ، **وهو الابن ذو الصفة اللاهوتية الناسوتية**، ولما كان لا بُدَّ من الفناء لبعض خلقه، لذا انقلب إلى الصفة المهلكة الفانية القابضة المعيدة !.. فكان (براهما هو شيفا) و(شيفا هو أيضاً كرشنا Krishna) الرب المخلص وهو (الروح العظيم المنبثق من (فشنو).

يقول (ألن Allen) في كتابه (تاريخ الهند قديماً وحديثاً)[١٩٥]: يقول البراهميون في كتبهم الدينية: "إن أحد الأتقياء واسمه (أغنيس Agnys)، رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد، **فتوسل بـ(براهما) و(فشنو) و(شيفا) قائلاً يا أيها الأرباب الثلاثة! اعلموا أني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرِّب له نذري وصلاتي؟ فظهرت الآلهة الثلاثة، وقالوا له: اعلم أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة، فما هو إلا الشبه أو الشكل والكائن الواحد الظاهر هو واحد بالذات، ثلاثة بالصورة**".

ونحن نقول: ما أقرب هذا من الاعتقاد المسيحي!!.

وقال (فابر Faber) في كتابه (أصل عبادة الأوثان Origin of heathen idolatry): "**كما وجدنا ثالوثاً مؤلفاً من (براهما وفشنو وشيفا)، من يَعبُد أحدها كأنما عبدها كلها**، وجاء في الـ(غيدا)، أن (كرشنا) قال: لم يأت زمان لم أكن فيه

(١٩٤) العقائد الوثنية، ص ١٤.

(١٩٥) "العقائد الوثنية"، ص ١٦.

موجوداً، أنا صنعت كل شيء، أنا الباقي الأبدي والمُبدِىء والكائن قبل كل شيء، أنا الحاكم القوي على الكون، أنا أول ووسط وآخر كل شيء"[١٩٦].

كما آمن الهندوس (بالإضافة إلى آلهة التثليث)، بوجود آلهة أخرى كثيرة أقل مرتبة، مثل إله الأرض، وإله المطر، وإله الحرب...إلخ، وكانوا يعبدون ما يحبونه وما يخافون، وينكرون يوم القيامة، ويقولون: إن الجزاء يكون في الدنيا[١٩٧].

وتقول شرائع (مينو Mino): إنه لصالح العالم خلَقَ (براهما الأعظم) الناس في أربع طبقات[١٩٨] (تسمى Chadurvarni) على أساس اللون، وهي صفة تنتقل إلى الأحفاد، ولا يمكن الخروج من الطبقة مهما كان السبب وهي:

أ - طبقة الـ(براهمان Brahman)[١٩٩]: وهم رجال الدين (الكهنة) خلقهم (براهما) من رأسه وفمه، وهم خلاصة البشر، عملهم العبادة وقراءة الكتب المقدسة، والعمل اليدوي لا يليق بمكانتهم!. والـ(براهمي) مغفور ذنبه مهما فعل، وعقوبته لا تتجاوز حلق شعر رأسه حينما تكون عقوبة غيره القتل!.

ب - طبقة الـ(كاشتريا Kashthirya): وهي طبقة الجند المحاربين، خلقهم (براهما) من مَنكِبيه ويديه، يُسمح لهم بقراءة الكتب المقدسة.

جـ - طبقة الـ(ويشيا Vysya): وهي طبقة المزارعين والتجار وأصحاب الحرف، خلقهم (براهما) من ركبتيه وفخذيه وعليهم إطعام كل المخلوقات.

د - طبقة الـ(شودرا Shoodra): وهي طبقة الخدم، خلقهم (براهما) من قدميه لتقوم بالخدمة فقط.

(١٩٦) لَمْ يَصدر عن المسيح عيسى أي تصريح مشابه، ومع ذلك عَدَّه (بولس) ابن الله.

(١٩٧) "الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة"، ص ٨٤.

(١٩٨) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ١٨١-١٨٢، بتصرف.

(١٩٩) نسبة إلى (براهما) أحدُ مسميات إله الهندوس، وليس نسبة إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، كما يمكن أن يفهمها بعض الناس.

وكل ما تبقى ينضم إلى طبقة المنبوذين، ومنهم الهنود الأصليون الذين ليس فيهم الدم الآري[200]، لكن أخيراً تحسنت أوضاعهم خوفاً من دخولهم في عقائد أخرى، وأثّرت الحضارةُ تأثيراً إيجابياً على كافة الطبقات فخفّت حدَّة الفوارق بين الطبقات، خاصة في مجتمعات المدن الكبيرة.

من أهم العادات الهندوسية حرق الأجسام بعد الوفاة، لأنهم يعتقدون أنَّ شعلة النار تعلو إلى السماء بأقصر طريق، فتصل إلى ربها، وهذه الطريقة تخلص الروح من غلاف الجسم تخليصاً تاماً، وقد تَسْمو الروح إلى درجة الملائكة، فإما أن تبقى معهم، أو تعود إلى جسم كائن آخر، أعلى أو أقل مرتبة حسب أعمالها في المرحلة السابقة، والهندوس يؤمنون ببعثِ الروح لا الجسد.

٢ – الكتب الهندوسية المقدسة[201]:

أ – الـ(غيدا Geetha) –وتعني المعرفة– أو الـ(فيدا Veda): فيها تَدَرُّجٌ من السذاجة إلى الفلسفة الراقية، وهي أربعة أسفار:

أ/١ – (إيرغو فيدا Ergu Veda): وهي أناشيد تقال عند تقديم القرابين للنار ومنها ترنيمة الخليقة: "**لم يكن وقت لا وجود له، ولم يكن هناك هواء ولا سماء**، لم تكن علامة تفصل بين الليل والنهار، وكان ظلام، بقوة الدفء ولِدَتْ تلك الوحدةُ، ومن ثم نشأت الرغبة البدئية والبذرة الأولى ونطفة الروح، وجاء الوالدان، ووجدت الطاقات العظمى تعمل حرة على الأرض وقوية في السماء، إن الآلهة جاءت بعد أن أوجَدت هذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود؟ هو الأصل للخليقة، الذي عَينُه تحكم العالم من السماء".

أ/٢ – (ساما فيدا Sama Veda): وهي نغمات تقال في الصلاة.

(٢٠٠) نسبة للشعوب الآرية السابق ذكرهم.

(٢٠١) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ١٨٣.

أ/٣ – (ياجور فيدا Yajur Veda): وهي أناشيد تقال عند تقديم القرابين ولكن بلحن مختلف عن (إيرغو فيدا).

أ/٤ – (ادرفا فيدا Aderva Veda): وهي مقالات لدفع السحر.

ب – الـ(براهميات): وهي كتب نثرية يرددها النساك في الغابات والكهوف، حيث يَهيمون على وجوههم من التصوف، ليتخلصوا من المادة ويتنعموا بحُرية الروح، ذُكر فيها نشأة العالم وخَلْقُ الإنسان والمخلوقات بواسطة (براهما) الخالق.

جـ – (يوباتشاد Yobatchad): وهي أسفار مقدسة فيها الأسرار والمشاهدات النفسية، وقد ورد فيها أن جوهر النفس الإنسانية، ليس الجسم ولا العقل ولا الذات، بل الجوهر هو الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له، والكائن في أنفسنا واسمه (أتما Atma)، وهي روح أزلية أبدية غير مخلوقة، وجزء من روح (براهما)، أما جوهر العالم الواحد الشامل فاسمه (براهما).

د – قوانين (ميغو Migo) وُضِعت في عصر انتصار الهندوسية على الإلحاد، وهي شرح لكل الـ(غيدا) التي سبق ذكرها، تُبين معالم الهندوسية ومبادئها.

و – كتب أخرى أقل شأناً:

و/١ – (مها بهارتا Maha Bharatha): وهي مَلحَمَةٌ تصف حرباً بين أمراء الأسر المالكة، وقد اشتركت الآلهة معهم في الحرب.

و/٢ – (بها كافاد–كيتا Bhagavad - Geetha): مَلحمة تصف حرباً بين أفراد من أسرة ملكية واحدة، وتُنسَب الملحمة إلى (كرشنا)، وفيها نظرات فلسفية واجتماعية.

و/٣ – (رامايانام Ramayanam): فيها خُطب للملك (راما) تحتوي أفكاراً سياسية ودستورية، **وتصف مغامرات (راما) الذي تجسد فيه الإله (فشنو) بوصفه أميراً جاء لينقذ العالم من الخطيئة والشرور.**

٣- أهم المعتقدات الهندوسية[٢٠٢]:

تظهر معتقدات الهندوس في (الكارمام)، و(تناسخ الأرواح)، و(وحدة الوجود).

أ – (الكارمام Karmam): وهو قانون الجزاء، يقول بأن نظام الكون إلهي قائم على العدل الكامل.

ب – تناسخ الأرواح والانطلاق: وهو أساس العقيدة البراهميَّة، كالشهادة في الإسلام، والتثليث في النصرانية، ولقد نشأت فكرة التناسخ عن قولهم: إن الإله يتجسد في الإنسان، والإنسان قابل للموت، وضرورة ظهور الإله تلزم ضرورة تجسده، فلا بُدَّ من أن يتجسد في شخص آخر يموت أيضاً، وهكذا...

يقولون: بما أن (الروح) (أتما Atma) التي منها روح الإنسان، هي جزء من روح الـ(براهما)، فلا يمنع من أن تتناسخ روح الإنسان أيضاً، كما أنهم يؤمنون بأن التناسخ هو نوع من العقوبة أو المكافأة الدنيوية على عمل المرحلة السابقة، فإن كان صالحاً (إنساناً أو حيواناً) تظهر روحه في درجة أرقى حتى يصل إلى الكمال المطلق حيث الملائكة، واستمراره على ذلك يجعله في مرتبة الـ(براهما) الذي لا يولد مرة أخرى، بل تتحد روحه مع الـ(براهما) نفسه، وتسمى مرحلة الـ(نيرفانا Nirvana)، وإن كان شراً، فتهبط الروح إلى جسد أقل مستوى، ويمكن أن تتجسد روح الإنسان في حيوان، أو إنسان معتوه أو مشوه، وإذا بقي شريراً فيتدرج في الهبوط حتى يصل إلى أقل مستوى مثل البرغوث، وإذا عاد حيواناً جيداً فيتدرج صعوداً حتى يصل إلى مرتبة الإنسان العادي ثم إلى مرتبة الملائكة، وباستمرار صلاحه وتحرره من أهوائه وشهواته فإنه لا يعاد إلى التجسد وتتحد روحه مع الـ(براهما).

(٢٠٢) "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة"، ص ٥٣٥.

يقول (بوذا): "إن الحياة في وجود مستمر، وأن الأرواح في تناسخ مستمر إلى ما لا نهاية، والموت هو نهاية مؤقتة لظاهرة مؤقتة"[٢٠٣].

يؤخذ على هذا التناسخ وشروطه، بأنه يجعل السلبية والتقشف الطريقَ الوحيد إلى الـ(نيرفانا) وليس العمل الصالح.

جـ – وحدة الوجود[٢٠٤]: بسبب الإيمان بالتناسخ، وأن كل الكائنات تتحد بالوجود عن طريق الروح، التي تعود في نهاية المطاف إلى المصدر الأول وهو الله، بعد أن كانت انفصلت عنه إلى أجل محدود، حتى تُنهي تجوالها بين الأجساد.

٤- بعض التعاليم الهندوسية:

نورد بعض التعاليم للتعرف على الكتاب المقدس (إيرغو فيدا Erou Veda)، وهي جزء يسير من كم هائل من الحكم والمواعظ، التي تُهذب النفس وتُفلسف الحياة[٢٠٥]، نلاحظ أن فيها الحث على المعرفة، وزجر النفس، وفضيلة العمل، والمغالاة في تمجيد الروح، وتحقير الجسد وتعذيبه بافتعال التقشف والزهد، ودعوة مبالغ بها إلى الانفصال عن الشهوات الجسدية، التي تكبل الروح وتؤدي إلى إلغاء رُكْني المسؤولية وهما العقل وحرية الاختيار.

ومن بعض تعاليمها الآتي:

- ساهم بتدوير عجلة الكون بالعقل.
- يبلغُ المرءُ ذروةَ السعادةِ في أداء أبسط واجب.
- العالم قوي، وأقوى منه ما يميزه، وأعظم من ذلك العقل، وأعظم هؤلاء الروح.

(٢٠٣) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ١٩٧.

(٢٠٤) هذه الفكرة ترفضها جميع الشرائع السماوية.

(٢٠٥) كتاب "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، فوزي محمد حميد.

- يصفو من الناس من يؤمن بنور المعرفة.

- من يرى الراحة في العمل، والعمل في الراحة فهو السديدُ رأياً؛ لأنه امتلك الحقيقة.

- إذا أذنبتَ فتطهرْ بالعمل.

- من خلصتْ روحُه للحقيقة كان عملُه قرباناً.

- الصدق ينقل أسوأ المخطئين إلى بر السلام.

- المعرفةُ تلتهمُ الخبائثَ.

- لا أمل ولا سعادة لذي شك.

- اقطعْ قيود الشكِ بسيف الحكمة، وفك وثاقه بالعلم.

- الورعُ يمحو الأوجاعَ الدنيوية والآلام.

- واحد من بين آلاف البشر يجاهد في سبيل الحقيقة.

- الذين يصدقونني يخترقون ما وراء الحجاب، فأنا لا أتجلى للأشرار.

- النفس لا تولد ولا تموت ولا تتبدل.

- تَستبدلُ الأرواحُ أجسادها كما يستبدل المرء ثوبه.

- لا شيء يقضي على الروح، لا النار ولا المياه، فهي الروح الأزلية التي لا تفنى.

- إذا عرفتَ واجبك وأهملتَه فذلك هو الإثم.

- العار على النبلاء أشد وقعاً من الموت.

- جزاء الخير في الخير نفسه، فاعمل الخير للخير لا لثمار الخير.

- ذوو القلوب الواعية يتحررون من قيود الجسد، ويرتقون تدريجياً إلى درجة السعادة.

- الإنسان الحكيم لا تصرعه الأحزان، ولا تَستَخِفُّه المسرات، ولا تقيده الشهوات.

- التأمل في المحسوسات يبعث على الميل، ومن الميل تنمو الرغبة، ثم تتحول الرغبة إلى شهوة، والشهوة تلد الطيش والتهور، ويتبدد القصد النبيل، ويتقوض العقل حتى يعم الفناء.

- الطمأنينة هي ألا تحب ولا تكره، فهذه هي محسوسات الروح.

- من ينفض عنه عبودية الجسد يحيا سيداً لشهواته لا خادماً لها.

- لن يفلت أحد من العمل بالعزوف عنه.

- الفكرة هي عمل في الخيال.

- المؤمن يموت آمناً سعيداً.

- اجعلوا كل ما تعملونه خالصاً لأجلي.

- **أحب من يعبدونني عن محبة، فإنهم فيَّ وأنا فيهم.** [قارن هذا مع إنجيل يوحنا (١٤:١٠)][٢٠٦].

- من يتكل عليَّ لا يهلك.

- تشبث بي واجعلني في قلبك وعقلك فتقيم معي في الله.

- الطبيعة والروح كلاهما لا بداية لهما.

- ثمرة الشهوة ألم وعناء، وثمرة الجهل ظلام حالك.

- الجهل سبب الظلام والغباء والكسل والغفلة.

- أبواب الجحيم التي يجتازها الناس إلى الهلاك ثلاثة: باب الشهوة، وباب الغضب، وباب البخل، وضروب الإيمان ثلاثة: الطهر، والاستقامة، ومنع الأذى.

---

(٢٠٦) يوحنا (١٤:١٠): "صدقوني أني في الأب والأب فيَّ".

- التظاهر الباذخ في ممارسة الدين طيش وعبث.

- فضائل الـ(براهمي) المنبعثة من طبيعته هي: الهدوء، والنضج النفسي، والدين، والطهر، والصبر، والاستقامة، والتعلم، ومعرفة حقيقة الأمور.

- من يؤدي واجبَه المُناط به مهما يكن نوعه مثابرٌ وقانعٌ، يمسك بناصية الكمال.

٥- قصة (الإله) كرشنا[207]:

تُصرِّح التعاليم الهندوسية:

- أن (كرشنا) ابن الإله من العذراء (ديفاكي Devaki)[208].

- وأن الإله (فشنو) تجسد في رحمها، وعندما ولدت أصبح (كرشنا)[209].

- وأنه الأقنوم الثاني في الثالوث المقدس (براهما، فشنو، شيفا)[210].

- يقول (كرشنا) في الكتاب المقدس (غيدا): "أنا رب المخلوقات جميعها، أنا (براهما وفشنو وشيفا)".

- يعتقدون أن **(كرشنا) هو المخَلِّص الفادي**[211].

- عرف الناسُ بولادته من نجمه الذي ظهر في السماء[212].

- وفي الكتاب المقدس قال (كرشنا):"سأتجسد في (متوار) بيت (يادوا)، وأخرج من رحم (ديفاكي) أولد وأموت، وقد حان الوقت لإظهار قوتي وتخليص الأرض من حملها".

(٢٠٧) "العقائد الوثنية"، ص ١٣١-١٣٩، بتصرف.
(٢٠٨) "الهند قديماً وحديثاً"، مجلد ٢/ ص ٣٢٩ .
(٢٠٩) يطابق اعتقاد بعض الكنائس المسيحية (الكاثوليك) القائلة بتجسد الابن في المسيح.
(٢١٠) "العقائد الدينية الوضعية"، ص ١٠.
(٢١١) كتاب دوان، ص ٢٧٨.
(٢١٢) "الهند قديماً وحديثاً"، مجلد ٢/ص ٣١٧.

- ويعتقدون بأن (كرشنا) هو نفسه (فشنو) الذي تحرك عطفاً ليخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها **وخلص الإنسان بتقديم نفسه فداءً عنه مصلوباً على الشجرة**[213].

- ولما ولد (كرشنا)، سبَّحت الأرض وأنارها القمر، وهامت ملائكة السماء فرحاً[214].

- ولد (كرشنا) في غار، ثم وضع في حظيرة بقر، **وعَرَفت البقرة أنه إله** فسجدت له[215].

- وسمع المنجم العظيم (ناريد) بمولد (كرشنا)، فذهب وزاره في (كولول) وفحص النجوم وتبين له من فحصها أنه مولود إلهي[216].

- ولما ولد (كرشنا) **كان (ناندا) خطيب أمه غائباً** عن البيت، حيث أتى المدينة ليدفع الخراج للملك[217].

- وسمع حاكم البلاد بولادة (كرشنا) وطلب قتل كل الأولاد الذكور الذين ولدوا في نفس الليلة التي ولد بها (كرشنا)[218].

- واسم المدينة التي ولد فيها (كرشنا) (مطُرا)، ولاحقاً عمل فيها آيات عجيبة[219].

(٢١٣) يطابق اعتقاد بعض الكنائس المسيحية (الأقباط الأرثوذكس المصريون)، القائلة بتجسد الله نفسُه وليس الابن.
(٢١٤) "فشنو بورانا Vishno Puranam" : ص٥٠٢. مترجم عن الإنكليزية بواسطة (ويلسون).
(٢١٥) "دوان": ص ٢٧٩.
(٢١٦) "تاريخ الهند": (موريس)، ٢/٣١٧.
(٢١٧) "فشنو بورانا": الفصل الثاني في الكتاب الخامس.
(٢١٨) "دوان": ص٢٨٠.
(٢١٩) "تاريخ الهند": المجلد الثاني ص ٣١٧.

- كانت ولادة القديس (راما) قبلَ ظهور (كرشنا) بزمن قليل، وقد سعى (قانا) الملك إلى إهلاك القديس (راما) وإهلاك (كرشنا)[220].

- وفي أحد الأيام كان (كرشنا) سائراً مع قطيع من البقر، فاختاروه ملكاً عليهم، وذهبت كلُّ بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك[221].

- وفي أحد الأيام لسعت الحيةُ بعض أصحابو (كرشنا) الذين يلعب معهم فماتوا، فأشفقَ لموتهم الباكر، ونظر إليهم بعين ألوهيته، **فقاموا سريعاً من بين الأمواتِ وعادوا للحياة**[222].

- وأولُ الآيات والعجائب التي عملها (كرشنا) **شفاء الأبرص**[223].

- وأُتي إلى (كرشنا) بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل، فدهنت منه جبين (كرشنا) بعلامة خاصة، وسكبت الباقي على رأسه[224].

- (كرشنا) صُلب ومات مصلوباً على الشجرة، ولما مات حدثت مصائب وعلامات شرٍ عظيم.

- وثُقب جنبُ (كرشنا) بحربة[225].

- ومات (كرشنا) ثم قام من بين الأموات[226].

- ونزل (كرشنا) إلى الجحيم[227].

---

(٢٢٠) "تاريخ الهند": المجلد الثاني ص٣١٦ .
(٢٢١) "تاريخ الهند": المجلد الثاني ص٣١٢.
(٢٢٢) "تاريخ الهند": المجلد الثاني، ص٣٤٣.
(٢٢٣) "تاريخ الهند": المجلد الثاني، ص ٣١٩.
(٢٢٤) "تاريخ الهند": المجلد الثاني، ص ٣٢٠.
(٢٢٥) "دوان": ص ٢٨٢.
(٢٢٦) "دوان": ص٢٨٢.
(٢٢٧) "دوان": ص٢٨٢.

- ثم صَعد (كرشنا) بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً[228].

- وقالوا لسوف يأتي (كرشنا) إلى الأرض في اليوم الأخير، ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح على جواد أشهب، عندها تظلم الشمس والقمر، وتزلزل الأرض، وتتساقط النجوم من السماء[229].

ونحن نقول: **ما أقربَ قصة حياة (كرشنا) الذي سبق المسيحَ عيسى بخمسة قرون؛ من القصة التي رويت عن حياة المسيح حسب الإنجيل** !.. (كما سنرى لاحقاً في مناقشة المسيحية).

ثانياً: السيخية

١- تمهيد

كلمة السيخ (Sikh) تعني (النظام) وهي ديانة أسسها (جورو ناناك ١٤٦٩-١٥٣٩م)[230] في البنجاب، تولى (ناناك) وخلفاؤه الثمانية الرئاسة، ولقبوا بـ(الكور)، ومعناها (المعلم)، وتُعدُّ هذه أول معارضة داخلية للهندوسية، فقد رفض (ناناك) الثروة ووزعها على الفقراء، وأحب العزلة.

وفي الخامسة والثلاثين من عمره قال: إن الله تجلى له في المنام، وقال له: "اذهب وردِّد اسمي، واجعل الناس يرددونه"، **فأقام عقيدة اعتمدت التوحيد كمبدأ** والـ(غيدا) كمفهوم روحي يرمز إلى الله.

تعلم (ناناك Nanak) على يد رجل صوفي، ودرَس كل العقائد، بما فيها السماوية، وتأثر بالدين الإسلامي، **فكانت ديانة السيخ خليطاً غير متجانس من الهندوسية والإسلام**، فقد:

---

(٢٢٨) "دوان": ص٢٨٢.
(٢٢٩) "دوان": ص٢٨٢.
(٢٣٠) عدد السيخ اليوم حوالي ١٢ مليون نسمة.

– رفضَ تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة إلهٍ واحد، لكنه قال: إنه الـ(براهما)، وآمن بالتناسخ، ووحدة الكون، والوصول إلى الـ(نيرفانا).

– رفضَ التصوف والزهد والتقشف المتطرف، الذي عُرفت به الهندوسية، ودعا إلى التوسط في الأمور، دون أن ينسب ذلك إلى الإسلام.

– رفضَ التقسيم الطبقي الهندوسي متأثراً بمظهر المساواة بين المسلمين.

– أخذَ صفات الله من الإسلام.

– حثَّ على كثرة الصلاة فقال: "نعم يرث الجنة من حافظ على الصلوات الخمس، وثلاثين صوماً، وأقر بكلمة الشهادة، أولئك يُرزقون في الجنة رزقاً حسناً". وقال: "إنما يدخل جهنم من أعرض عن ثلاثين صوماً وخمس صلوات والكلمة الطيبة".

– رفضَ حرق الأموات ودفن الزوجات أحياء مع جثث أزواجهن.

– رفضَ فكرة الاغتسال في الأنهار المقدَّسة.

– حلَّل أكل اللحوم ومنها لحم البقر بشرط، عدم التعذيب عند الذبح.

– حرَّم الخمر والتدخين.

– الصلاةُ هي تأمل ودعاء.

عند موت (ناناك) اختلف أتباعه من الهندوس والمسلمين وكل أراد دفنه، ولما كشفوا الغطاء عنه لم يجدوا جثته، فأخذت كل جماعة نصف الغطاء ودفنته على طريقتها.

٢ – أركان العقيدة السيخية[٢٣١]:

أ – الـ(كيسا Kesa) : وهي عدم قص الشعر لأنه رمز للقوة.

(٢٣١) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ٢١٢.

ب – الـ(كانغا Kanga) : جدل الضفائر ليكون على أهبة الاستعداد للفداء.

ج – الـ(كاتش Katch) : السراويل البيضاء تحت الملابس.

د – الـ(كارا Kara) : السوار الحديدي في اليد اليمنى يُذكرهم بالله.

و – الـ(كابريان Kabrian): السيف ذو الحدَّين الذي يحملونه.

بعد (ناناك) توالى الأئمة على العقيدة السيخيَّة، وأُضيفَ إليها كثيرٌ من التعاليم، فالإمام الثالث (أمر داس ١٤٧٩-١٥٧٤م) أضاف كثيراً من التعاليم التي فصلت السيخ عن الهندوس، فأقام طقوساً خاصة بالمواليد والوفيات، وأبطل عُزلة المرأة في المجلس والطعام أثناء الحيض، وشجَّع على الاتصال بين الطبقات والتزاوج بينها، وحضَّ على زواج الأرامل.

والإمام الخامس (آرجان Argan) جمع أقوال (ناناك)، وأشعار (كبير) و(أمانانذا) في كتاب سماه (صاحب المواهب) الذي تحوَّل فيما بعد إلى كتاب مقدس.

أما الإمام العاشر (كوفيندر سينغ ١٦٦٦-١٧٠٨م) فقد صرف همَّه إلى توحيد السيخ، وتشكيل قوة عسكرية، وبث روح العداء ضد المسلمين، وأضاف إلى اسمه لقب (سينغ) وتعني (الأسد)، وجعل قتال المسلمين شرفاً وواجباً على كل (سيخي)، وأن على الـ(سيخي) أن يقتل مسلماً قبل أن يموت، بعدها انقسم السيخ إلى طائفتين:

١– الطائفة المتعصبة لقتال المسلمين وهي (نرن كاري):

وهي لا تعترف بانتهاء الإمامة عند الإمام العاشر، وتقول باستمرارها حتى الآن، ولا تحرم حمل السلاح، هاجم (البنجاب) واستولى على (لاهور) و(أمر نيسار)، وأقام المعبد الذهبي، وشكل دولة السيخ عام ١٧٩٢م بزعامة (رانجيت سينغ Ranjit Sing) وعقد صلحاً مع الإنكليز عام ١٧٩٢م، تحالف معهم لقتال الأفغان عام ١٨٣٨م.

٢- الطائفة المسالمة وهي (أكالي خالصة):

ترفض حمل السلاح إلا بأمر من الحكومة وعند الضرورة، وتقول: إن الإمامة انتهت بالإمام العاشر، وأن الـ(سيخي) هو ناسك متعبد (سنتا)، وليس جندياً (سياهي).

ثالثاً: البوذية(٢٣٢)

١- تمهيد:

وهي عقيدة نُسبت إلى (بوذا ٥٦٤-٤٨٣ ق.م.) المولود من العذراء (مايا Maya) دون مضاجعة رجل(٢٣٣)، بتجسد روح القدس فيها(٢٣٤)، واسمه الأصلي (جوتاما Gautama) فقد قال (دوان) في كتابه: "**إن الإله (بوذا) المولود من العذراء (مايا)، ترك الفردوس ونزل إلى الأرض بالناسوت رحمة للناس كي ينقذهم من الآثام ويفديهم مما يستحقونه من العذاب**".

ويقول (بيل) في كتابه (تاريخ بوذا the romantic legend of saki buddha) قال (بوذا): "سأتخذ جسداً ناسوتياً، وأنزل فأولد بين الناس لأمنحهم السلام وراحة الجسد وأزيل أحزان العالم".

ودلَّ على ولادته ظهور نجم في السماء، عندها فرحت السماء، وعرف الحكماء (بوذا)، وأدركوا أسرار لاهوته، ودعاه الناس إله الآلهة بعد يوم من ولادته(٢٣٥)، وقال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً(٢٣٦)، سعى الملك (بمبسمار

---

(٢٣٢) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ١٩٣-٢١٠، فوزي محمد حميد.

(٢٣٣) "الحكمة الهندية Indian Wisdom"، لـ(ويليام)، ص ٨٢.

(٢٣٤) "خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى"، لـ(دوان) ص٢٨٩.
Bible myths and their parllels in other religions;(Doan).

(٢٣٥) "خرافات التوراة"، لـ(دوان) ص ٢٩٠.

(٢٣٦) "خرافات البوذية"، لـ(هاري) ١٤٥ و١٤٦.
The lrgrnfd snf theorico the kuddhism Harry.

Bimbismar) إلى قتله لأنه سوف يَنزع منه الملك(٢٣٧)، ولما صار عمر (بوذا) اثنتي عشرة سنة دخل الهياكل، وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة، ثم يوضحها لهم حتى فاق مُناظريه كافة(٢٣٨)، ودخل مرة الهياكل، فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له(٢٣٩).

عاش (بوذا) في قصره حتى سن الشباب، وكان يَظن أن كل الناس يعيشون في رغد من العيش، حتى خرج يوماً من القصر وتعرَّف على حياة البؤساء، فأحسَّ بالتشاؤم للتعرف على عالم الحقيقة، وأخذ يتساءل عن حل لمشكلات الشقاء الذي يملأُ الدنيا، فتوجه إلى الغابات والكهوف يبحث عن الحقيقة على طريقة الـ(براهما) بالتقشف والزهد، وقضى ست سنوات تائهاً في البلاد وذاع صيته، وبلغ مرحلة من إذلال جسده كاد معها أن يموت، فوصل إلى اقتناع بأن العقل السليم في الجسم السليم، وعاد من جديد إلى الأكل دون إسراف، وجلس مرة تحت شجرة فانكشفت له أسرار العلم وغاب عن نفسه وسما بها حتى بلغ الـ(نيرفانا).

أخذ (بوذا) يدعو إلى أفكاره التي تميل إلى الرهبنة والتقشف والبعد عن الملذات، ولكن دون إسراف في تعذيب الجسد، بالجلوس على المسامير والنوم على الزجاج المكسر، **لم يقل (بوذا) إنه يدعو إلى عقيدة سماوية، حتى إنه لم يتحدث عن الإله، ولم يناقش الخلق والتكوين، بل سعى إلى تهذيب النفس، ودعا إلى فضائل الأخلاق، إذ قال إنه لا أصل لـ(براهما) ولا للثالوث**، وأقر بأن العالم أزلي أبدي، لذلك لا داعي لعبادة الآلهة التي لا تُغيِّر شيئاً في الكون، وقال: إن تقسيم الطبقات الهندوسي لا عدل فيه، ومع ذلك فقد **جعله أتباعه إلهاً وعبدوه**.

---

(٢٣٧) "تاريخ بوذا"، لـ(بيل)، ص ١٠٣ و١٠٤.

(٢٣٨) "الملاك المسيح"، لـ(بونسن)، ص ٦٧ و٦٩. The angel messiah,Bunsen.

إن الأخلاق العالية واضحة في الفلسفة البوذية، في حثها على الفضائل ونبذها الرذائل، فعاد أتباع (بوذا) إلى التقشف المبالغ فيه، وعدُّوه الطريق إلى مايسمى الـ(نيرفانا)، فقد حُكي أن أحد أتباع (بوذا)، قيل له وهو يهم بالذهاب لدعوة جماعة من الأشرار: إنهم قوم أشرار قد يشتمونك، فما أنت فاعل؟ فقال: أقول: إنهم طيبون لأنهم لم يرموني بالحجارة، وإن رجموني أقول: إنهم طيبون لأنهم لم يضربوني بالعصي، وإن ضربوني بالعصي، أقول: إنهم طيِّبون إذ لم يستعملوا السيوف في ضَربي، وإن استعملوها أقول: إنهم طيبون إذ لم يقتلوني، وإن قتلوني أقول: إنهم طيبون ومشكورون لأنهم خلَّصوا روحي من سجن الجسد دون ألم شديد.

إن إنكار الذات، وكبح العواطف، واللامبالاة بالألم واللذة، والتركيز على التربية الروحية العالية في البوذية، يهدف إلى تحقيق الطمأنينة والاقتناع وبلوغ السلام النفسي والذهني والعقلي.

جُمعت تعاليم (بوذا) في كتاب يقدسه البوذيون اسمه (تيتباكا) وتعني: (سلال الحكمة الثلاث) و(الدمايا)، وهي من الكتب الهامة التي جمعت الفلسفة البوذية التقشفية، والأخلاق العالية على شكل أمثال شعرية.

٢ – سلسلة الأحزان:

تقوم الفلسفة البوذية على المنطق البعيد عن الميتافيزياء، وأساسها هو أن الحياة شر وألم، والتخلص من الشر هو الطريق إلى الـ(نيرفانا)، ويكون ذلك بفهم ما يسمونه: سلسلة أسباب بداية الأحزان ونهاية الأحزان، وقد أطلق عليها أيضاً اسم: "الروابط الاثنتا عشرة"، ورد تفصيل لها في كتاب "حكمة الأديان الحية"، ألخصها -كيلا أطيل- بالآتي:

(٢٣٩) "الملاك المسيح"، ص ٣٧. وأيضاً "تاريخ بوذا": ص٦٧-٦٩.

أما بداية الأحزان فتقول: إن الجهل هو سبب الفردية التي تسبب الإدراك، فيتباين الاسم والهيئة، فتكون الحواس التي تسبب الإحساس، فالتلهف، ثم الوعي الذي يشكل الكيان، الذي هو سبب الوجود الدنيوي، والوجود بدوره سبب الموت والفناء الذي ينهي الفردية.

أما سلسلة أسباب نهاية الأحزان، فإنها تبدأ بالعلم فينتهي الإدراك، وينتهي الإحساس والتلهف والوعي، وينتهي الكيان، وينتهي الوجود الدنيوي، فينتهي الموت والفناء فلا توجد أحزان.

نلاحظ أنهم عدوا الجهلَ سببَ الأحزان، والعلمَ سببَ زوال تلك الأحزان.

٣ – أسس الأخلاق:

أسُسُ الأخلاقِ عند البوذيين أربعة هي:

أ – الاعتراف بالألم والفناء، ومصادره سبعة: التخاذل، ومصاحبة العدو، ومفارقة الصديق، والإخفاق فيما تطلبه النفس، والمرض، والشيخوخة، والموت، وفي هذا يقول (بوذا): "إن سرَّ هذه المتاعب كلها هو رغبتنا في الحياة، وسِرُّ الراحة هو قتل هذه الرغبة".

ب – التسليم بوجود مصدر للألم، وهو الرغبة في الكينونة والصيرورة التي هي ينابيع العناء، ومن ذلك السعي خلف الثراء والجمال والقوة والسعادة... كل هذا يسبب أنانية الشهوات.

جـ – معرفة مصدر الألم وإمكانية القضاء عليه بإبادة الشهوات والكف عن التعلق بالحياة.

د – العمل على تحقيق إزالة الألم، ويتم ذلك على ثمان مراحل: هي مرحلة الاتجاه الصحيح الخالص من الشهوات، وهذا يُوَلِّدُ مرحلة الإشراق الصحيح التي توصل إلى النورانيَّة التي تسبب مرحلة التفكير الصحيح لخلو العقل من شوائب

الشهوات، ويجب أن تصاحب هذه المراحل الثلاث مرحلة اطمئنان القلب، الذي يعبر عنه اللسان ويتحول إلى مرحلة التطبيق، فيصبح سلوكاً مستقيماً يعين على الوصول إلى مرحلة الحياة الصحيحة، التي عمادها هجر الملذات كلياً، ثم مرحلة الاستمرار في التطبيق مع اعتماد الوصايا العشر لـ(بوذا)[٢٤٠] وهي: لا تقتل ولا تكذب، ولا تزنِ، لا تأخذ مالاً مُحَرَّماً، لا تسكر، لا تأكل طعاماً نضج في غير وقته، ولا تشهد حفلاً راقصاً، ولا تتزين، لا تتخذ فراشاً وثيراً، ولا تقبل هدية ذهبية أو فضية، عندها تصل إلى الـ(نيرفانا)، وهي جنة البوذيين، لذلك نرى البوذيين لا يدخرون طعاماً إلى الغد وينظرون إلى النساء على أنهن مصدر فساد الأخلاق.

٤ – عقائد البوذية:

أ – التَّناسخ: يقولون: إن (بوذا) هو أحد تجسدات الآلهة، ويعدُّون التقمُّصَ شراً لأنه مهما كان فهو عذاب، ويُعرِّف البوذيون الموتَ بأنه نهاية مؤقتة لظاهرة، ويقول (بوذا): "إن الحياة في وجود مستمر وأن الأرواح في تناسخ مستمر إلى ما لا نهاية".

ب– الرُّوحانية: أقام أتباع (بوذا) بعد موته معابد صاروا يعبدونه فيها، مع أنه قال لأتباعه: "لا تؤمنوا بي كممثل للإله على الأرض، **ولا تعتبروني إلهاً فأنا إنسان مثلكم أنشد الحقيقة الأبدية**، فإذا كان كلامي موافقاً للعقل والمنطق فاتبعوني"، ومع ذلك عدُّوه تجسداً للإله العظيم في الناسوت[٢٤١] ليخلص العالم من خطاياه.

ينكر البوذيون يوم القيامة والجنة والنار، ويؤمنون بالثواب والعقاب في الحياة

(٢٤٠) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة": ص ١٩٩.

(٢٤١) بين الناس في شكل البشر.

الدنيا فقط، ويرفضون التقسيم الطبقي، وتوصي البوذية بالتخلي عن الأموال والممتلكات وكسب العيش بالتسول.

٥ – الكتب البوذية المقدسة[٢٤٢]:

انقسمت الكتب التي يقدسها البوذيون إلى قسمين:

أ – المهايانا (Mahayana):

وتعني العجلة الكبيرة، كتبت باللغة السنسكريتية، ألّهت (بوذا) تأليهاً مطلقاً، وآمنت بالملائكة والشياطين، والجنة والجحيم على أنها مراحل لا بُدَّ منها للوصول إلى الـ(نيرفانا)، اعتمدت هذه الكتب من أهل الـ(تيبت) في الصين وبعض أهل اليابان.

ب – (الهينايانا Hinaiana):

وتعني العجلة الصغيرة، وهي التعاليم الأقرب إلى تعاليم (بوذا) الأصلية، والأبعد عن الأوهام، يرتدي أصحابها الثوب الأصفر، ويحلقون رؤوسهم، ولا يسمح لهم بالأكل بعد منتصف الليل، ولا حمل النقود أو ملكيتها ولا يعدُّون (بوذا) إلهاً.

انتشرت البوذية زمن الملك (أسوكا) وابنه (ماهيندرا)، وذلك بعد ٣٠٠ عام من وفاة (بوذا)، وامتدت إلى الدول المجاورة للهند، ثم انحسرت في الهند لصالح الهندوسية، وطرأ عليها الكثير من التعديلات لتواكب العصر.

قال (ماكس مولر): "البوذيون يزعمون أن (بوذا) قال: **"دعوا كل الآثام التي ارتكبت في هذا العالم تقع عليَّ كي يخلّص العالم"**، ولما مات (بوذا) ودفن

(٢٤٢) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص٢٠٠-٢٠١، بتصرف.

انحلت الأكفان، وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية[٢٤٣]، فصعد (بوذا) إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض، ولسوف يعود مرة ثانية ويعيد السلام إليها، وسوف يُدين (بوذا) الأموات[٢٤٤]، وقال فلتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا عليَّ **ليَخلُصَ العالمُ من الخطيئة**[٢٤٥]"، وقال (بوذا): **إنه لم يأت لينقض الناموس**، كلا بل أتى ليكمله[٢٤٦].

كانت هذه لمحة سريعة عن (الديانة) البوذية، التي ابتدأت بعدم مناقشة وجود الإله، وانتهت بتأليه فيلسوفها، لكنها تشترك بأنها آمنت بأن الله هو الذي خَلَقَ مادَّة العالم وصورها، ولم تدخل متاهة المناقشات الفلسفية.

المنطقة الثالثة: بلاد الصين

١ – العقائد القديمة:

كان الصينيون وما يزالون أكثر الناس تعلقاً بالخرافات ذات التعاليم الوثنية، فعبدوا الطبيعة خوفاً منها، وأدخل حكماؤهم الكثير من الفلسفات الإنسانية، التي قامت على الأخلاق الفاضلة الممزوجة بالعقيدة.

قام دينهم بداية على الإلحاد ورفض كل الآلهة، ومن ثم قدسوا مظاهر الطبيعة، وبالتدريج عبدوا القوى التي تحرك هذه المظاهر، لكنهم لم يؤمنوا بالآخرة، وربطوا العدل في الأرض بعدل السماء، وآمنوا بأن الزلازل والكوارث والقحط إنما هي بسبب فساد أخلاق البشر، واعتقدوا أن الفضيلة والأخلاق الحسنة تُجبرُ مظاهر الطبيعة على أن تعمل لخير الإنسان.

---

(٢٤٣) "الملاك المسيح"، لـ(بونسن)، ص ٢٩٣.

(٢٤٤) "خرافات التوراة"، لـ(دوان)، ص ٢٩٣.

(٢٤٥) "تاريخ الآداب السنسكريتية القديمة"، لـ(ماكس مولر)، ص٨٠.

(٢٤٦) "الملاك المسيح"، ٤٧و٤٨، وكتاب "تحليل الأديان" لـ(أمبرلي)، ص٢٨٥.
Analysis of Relegious Belief,Anberly.

قدسوا حكماءهم إلى حد العبادة، وتفانوا في تطبيق التعاليم، فسَمت أخلاقهم إلى درجة مدهشة.

آمنوا بأن السماء والأرض كانتا وحدة كونية واحدة، انشطرت إلى قسمين، فعبدوا السماء رمزاً للقوى المسيطرة، وعدُّوها الإله العظيم، وعدُّوا الإمبراطور هو ابن السماء ويحكم بأمرها، وبالإضافة إلى ذلك، عبدوا أرواح أجدادهم وآبائهم، وأبطالهم وفلاسفتهم، ليست لديهم طقوس عبادة سوى الرقص والموسيقا، وظل هذا حالهم حتى ظهر (لاوتسو Laotzu) في القرن السادس قبل الميلاد (٦٠٤ ق.م.)، وأسس (الديانة) الطاوية (Toism)، ثم ظهر (كونفوشيوس) في عام ٥٥١ ق.م. وأسس (الديانة) الكونفوشيوسية.

٢ – الطّاويَّة Toism[٢٤٧]

ركز (لاوتسو) مؤسس الديانة في فلسفته، على تحقيق السلام الذاتي في الحياة، وادعى أتباعه أنهم وجدوا إكسير الحياة، الذي يهَب الخلود للنفس، فدخل في دينه كثيرٌ من الطامعين بالخلود، وصار (لاوتسو) إلهاً يعبده أتباعه.

قال (لاوتسو): "إن تحقيق السلام يكون بالتمييز بين الخير والشر، وكونهما أساسيين في الصراع".

كما قسم النفس البشرية تقسيماً فلسفياً إلى ثلاثة أقسام:

أ – النفس العاقلة: ومقرها الرأس، ترتفع بعد الموت إلى السماء، بين الأرواح.

ب– النفس الحساسة: ومقرها الصدر، تنزل بعد الموت إلى القبر مع الجسد.

ج – النفس المادية: ومقرها المعدة، تتقمص بعد الموت جسماً آخر.

يقول (دوان): "إن التثليث في الطاوية، حيث (طاو) هو العقل الأزلي الأول، انبثق منه واحد، ومن هذا انبثق ثالث كان مصدر كل شيء"[٢٤٨].

---

(٢٤٧) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة": ص ٢٣٧-٢٤٣.

(٢٤٨) "خرافات التوراة": ص ١٧٢.

آمن الطاويون بالسحر والتنجيم، واحتقروا العادات القديمة، وامتنعوا عن الدراسة والتحصيل العلمي، ورفضوا العقل مصدراً للمعرفة، هدفهم الأعلى هو التحرر من الشهوات الحسية، وذلك بالتأمل الذي يعدُّونه مصدر المعرفة الوحيد، وشعارهم: "كن كالماء سهل الانسياب لا يقاوم، لكنه يفتت أقسى الصخور مع الزمن"، ومبادئهم الاحترام والإخلاص، وحسن المعاملة، والصبر والتضحية، وغرس الشجر ودراسة الكتب المقدسة.

وضع (لاوتسو) مبادئه في كتاب سماه (طاوتي كنغ)، دعا فيه إلى التسامح المطلق ورفض العقل إذ قال: "دعوا العقلانية وتخلصوا من الحكمة ففي تركها سعادة البشرية"، وقامت فلسفته على المقارنة بين المتناقضات من الصفات، وكان يدعو إلى التطرف في التأمل والتقشف، على عكس كونفوشيوس الذي ظهر بعده بخمسين عاماً.

٣ – الكونفوشيوسية(٢٤٩)

نسبة إلى (كونفوشيوس ٥٥١-٤٧٩ ق.م.) وهو من أسرة عريقة حاكمة، عاش بعد وفاة والده حياة الفقر، وعمل راعياً ولم يَعُدَّ الفقرَ سبباً للتعاسة، ولا الثروةَ سبباً للسعادة، قيل عنه كثير من الأساطير، فتحت له دراسته، أثناء حياة أبيه آفاق الفلسفة والتأمل، فبرع فيها وعمل مدرساً لأصول الفلسفة، ثم افتتح مدرسة لتعليم الفلسفة والشعائر الدينية، تدرّجَ في الوظائف الحكومية حتى وصل إلى رئيس للوزراء في ولاية (لوْ) التي ولد فيها، فَسَادَ العدل والأمن في أيامه، وقضى على السيِّئين من رجال الدولة، ومنع الغش والاحتكار، فصار له أعداء كثيرون ووشوا به زوراً، فطُرد من الوظيفة وعاد إلى التدريس شاعراً بالأسى لحالة الفساد بين الحكام، وأُطلِق عليه لقب (معلم الجنس البشري)، لم يَدَّعِ (كونفوشيوس) النبوةَ، وقدم الكثير من الآراء الفلسفية القائمة على فضائل

(٢٤٩) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ٢٢٥-٢٣٦، بتصرف.

الأخلاق، فكانت من أولى تعاليمه الطاعة العمياء للوالدين، والولاء لهما لتماسك الأسرة، وركز على العدالة بين الحاكم والرعية، وبين الزوج والزوجة، وبين الأخ وأخته، وبين الصديق وصديقه، كما ركَّز أيضاً على آداب اللياقة في تعامل أفراد المجتمع، وركَّز على العطف الإنساني وحسن النية، وقال: "إذا كلفت إنساناً بعمل فثق به، وإذا كنت لا تثق به فلا تكلفه"، ودعا الناس إلى الفضيلة بالتدرج والرفق، وكان أول من يطبق ما يدعو إليه، فقال: "عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به"، وسمى المنافقين بـ(لصوص الفضيلة) وقال: "إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظيماً وليس الصدق الذي يجعل الإنسان عظيماً".

كان (كونفوشيوس) أول من نادى بإله واحد في الصين، فصادف الكثير من المتاعب، ولكنه رفض الإيمان باليوم الآخر والحياة بعد الموت، ورفض الدعاء إلى الله لتحقيق مطلب ما وقال: "إن الأخطاء ضد السماء لا تغتفر"، وقال: "نحن لم نقدر على خدمة الأحياء، فكيف نقدر على خدمة الأموات؟ نحن لم نعلم الحياة، فكيف نعلم الموت؟"، رفض أن يعبده تابعوه، وكان يقدم القرابين مثلهم.

٤ – من أقوال (كونفوشيوس):

- إذا كان سلوك المسؤول مستقيماً، أطاعه مرؤوسوه من غير أن يأمرهم، وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم.
- لا يكن همك أن تتولى المنصب، بل ما يؤهلك لهذا المنصب.
- إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم بل بأفعالهم، ففي العالم المتحضر نجد المجتمع زاخراً بالأعمال السَّامية، وفي العالم المتخلف؛ نجد المجتمع زاخراً بالخطب الرنَّانة.
- قلما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلاً فاضلاً.

أمر الإمبراطور (شي هوانغ) بحرق كتبه، لكن تعاليمه بقيت في قلوب العلماء، وقد أعاد الأباطرة اللاحقون مكانته له، وبنوا الهياكل وأخذوا يعبدونه فيها.

المنطقة الرابعة: بلاد الفرس (الزرادشتية)[٢٥٠]

رغبة في عدم التوسع في شرح مختلف العقائد التي توالت على بلاد الفرس، وعدم خروجنا عن الهدف الأساس، سنأخذ آخرَها وأشهرَها قبل الفتح الإسلامي وهي (الزرادشتية)، التي ما زال يُعمل بها خفية في جيوب قليلة من بلاد فارس، وبعض المناطق المجاورة.

أسس هذه الديانة (زرادشت ٦٦٠-٥٨٠ ق.م.)، وقد رويت عنه كثيرٌ من القصص والمعجزات، ابتداء من ولادته في (دوران سرون) في إيران، حيث عَلِم السحَرةُ أن شأناً عظيماً سيكون له، وأنه سوف يدعو لما يخالف عقيدة الملك، فأحضره الملك ووضعه في النار المقدسة التي كانوا يعبدونها، وعندما علمت أمه بخطفه جاءت إلى المذبح -حيث شعلة النار- لتُصلي لها وترجوها تخليص ابنها، فوجدته يلعب في النار بسرور، فأخرجه الملك وحاول قتله تحت أرجل قطيع من الأبقار، فما كان من أول بقرة إلا أن وقفت أمامه تحميه من القطيع بجسمها، فأخذه الملك ووضعه في وكر للذئاب فامتنعت الذئاب عن الدخول، ودخلت الوكر عنزتان أرضعتاه.

وعندما كبر درس على يد الحكماء، ثم تزوج من (هافوية Hafoia)، وخدم في الجيش مدة عشر سنوات، كان يساعد على علاج المرضى والجرحى، بعدها قرر الذهاب وحيداً إلى الجبال للبحث عن الحقيقة والتفكير، حتى توصَّل إلى السر الذي يقوم عليه العالم، وهو الشر واسم إلهه (أهريمان Ahriman) والخيرُ واسم إلهه (أهورا مزدا).

وعكف على التفكير في كيفية امتزاج الخير مُمَثلاً بالنور مع الشر المُمَثِّل بالليل، وعن كيفية خلاص النور من الظلمة، وكيف تحكم هاتان القوتان العالم،

(٢٥٠) "عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة"، ص ٢٥٥-٢٧٠.

وقال: إن لهما مساعدين من الملائكة، أشهرها ملائكة العقل والخير، وملائكة النور، وملائكة الحكمة، وملائكة الخير، وملائكة التقوى، وملائكة الخلود.

وأخذ يدعو الناس إلى ترك عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنار..إلخ، وأرواح السلف، وعبادة الثالوث الآري وهو (مترا -نيتا-هوما Mitra – Anita– Hama)، الذين يمثلون **آلهة الشمس والأرض والثور** المقدس، الذي مات ثم بُعث حيّاً، ووهب دمه شراباً للبشر للحصول على الخلود.

وقال (زرادشت): إنه جاءه عمود من نور يحمل عصاً من اللهب، حلّق فوق رأسه وأخبره أنه كبير الملائكة (فاهومانا Fahamana)، جاء ليعرج به إلى السماء، وهناك تلقى كلمات الحق والحقيقة، وتعلم الأسرار المقدسة، أمر بعدها أن ينزل إلى الناس ليقودهم من ظلمات الشر إلى نور الخير، قاسى في دعوته، وتجنبه الناس، وسافر في البلاد، وكان ينام في حظائر الحيوانات، ومرة نزلت عليه الملائكة الستة الكبار وهم: **التفكير الطيب، والإحسان، والحل الأسمى، والفداء، والخلود، والتقوى.**

نصحه ابن عمه أن يدعو عِلْية القوم أولاً، فاتجه إلى الملك (كاشتاسب Kashtaseb)، وتغلب على حكمائه في مناظرة أمام الملك، فآمن الملك ودخل كثيرٌ من الناس في دين (زرادشت)، لكن السحرة اتهموه بالسحر فسجنه الملك، وأمر الناس بالعودة عن دينه إلى العقيدة السابقة، وبعد فترة مَرِضَ حصان الملك وعجز الأطباء والسحرة عن شفائه، فعرض (زرادشت) على الملك أن يشفي حصانه بشرط أن يؤمن بتعاليمه، هو وابنه وزوجته الملكة، وألا يهجروها أبداً، وأن يعاقب الذين مكروا به، فوافق الملك، فعل (زرادشت) وفعل الملك وعادت الزرادشتية إلى الانتشار، وصار (زرادشت) كبير الكهنة، لكنه قُتل داخل معبده.

يجب التمييز بين عقيدة (زرادشت) الأصلية، التي قالت: إن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما فيه، سماها(أهو-را-مزدا) وتعني (أنا الوجود الخالق)، والتي

آمنت بالحساب والبعث بالأجسام، وعقيدة أتباع (زرادشت) الذين تحوّلوا تدريجياً إلى عبادة النار، بحجة أنها جوهر علوي لأنها لم تحرق (زرادشت)، فلعلها لا تحرقهم يوم القيامة إن هم عبدوها.

والتحريف الآخر، هو إدخال رمز سماوي للإله هو الشمس ذات النور العلوي، والرمز الأرضي هو النار، فانتهت الزرادشتية إلى عبادة النار نفسها، بعد أن كانت رمزاً للإله مدبر الكون.

ليس للزرادشتية طقوس ومراسم ومعابد وتماثيل، كل ما لديهم هو مذبح حجري تضرم فيه النار، ويناسب طبيعتهم الصحراوية، والزرادشتية اختصت بالتثنية، فلديهم إله للخير وآخر للشر، وعدّت سائر الآلهة أرواحاً وملائكة دائمة الصراع.

جمع (زرادشت) ما قال: إنه أُوحي إليه، في كتاب سماه الـ(أفستا Afesta)، وكلّف الناس بالاعتقاد الطيب، والكلمة الطيبة والأعمال الطيبة على أنها وسيلة وحيدة للوصول إلى الله الواحد، وحمّل الإنسان مسؤولية أعماله، لأنه مخيّر بإرادته بين فعل الخير أو فعل الشر.

انتعشت الزرادشتية في عهد الأسرة الساسانية (٢٢٤-٦٥٢ م) التي أسّسها (أردشير الأول)، الذي جعل الزرادشتية العقيدة الرّسميَّة للدولة، حتى جاء الفتح الإسلامي مع معركة القادسية عام ٦٣٦م ومعركة نهاوند عام ٦٤١م.

البَابُ الثَّالِثُ

الشرائع السماوية

الفصـل الأول

اليهـودية

أولاً: تاريخ اليهودية

اليهودية هي عقيدة سماويَّة تقوم على التوحيد، وتتميز بعطلة يوم السبت، نزَّلها الله على موسى عليه السلام حسب ما جاء في **التوراة (العهد القديم)**:

- خروج (١٢:٢٤): "قال الرب لموسى اصعد إليَّ إلى الجبل وكن هناك، فأُعطيك لوحَيّ الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتُها لتعليمهم، وقرأ موسى عليه السلام عهد الرب على قومه".

كتاب اليهود المقدس مختَلف عليه، فمنهم من يعترف فقط بالتوراة (وتعني الهداية أو الشريعة)، وهي الأسفار الخمسة الأولى[٢٥١] وتسمى (بنتاتوك Pentateuch) وتعني (الشريعة الخماسية)، ومنهم من يضيف السِفْر السادس وهو (أسفار الأنبياء الكبار)، ويسمون المجموعة الـ(هكزاتوك Hexateuch) وتعني (الشريعة السداسية)، بينما يقول آخرون: إن كل ما كتب قبل عيسى هو أسفار يهودية، ويطلقون عليها (العهد القديم)، بغض النظر عن الأسفار المرفوضة من جماعة، والمقبولة من جماعة أخرى.

---

(٢٥١) يقول (موريس بوكاي) في كتابه "دراسة الكتب المقدسة"، ص ٢٩: "يمتد تحرير نص أسفار موسى إلى ثلاثة قرون بأقل تقدير"، بمعنى أن ما هو بين أيدينا ليست الألواح التي استلمها من ربه جاهزة مكتوبة، بل هي ما (تذكره) أو ما حرَّفه أحبار اليهود على مدى ثلاثة قرون.

العهد القديم يحكي التاريخ من زمن إبراهيم الخليل، مروراً بالأنبياء الذين سبقوا موسى عليه السلام، ثم الأنبياء بعد موسى، وحتى ظهور المسيح عليه السلام، معظم القصص قبل موسى وبعده أُخِذت من الأساطير البابلية، حَوَّرها الفريسيون -هم المنشقون، تخصصوا في كتابة العهد القديم- لتوافق التاريخ اليهودي، إن هذا التحوير بالإضافة إلى التناقضات الأخرى، والتحريفات، أدى إلى الشك في صحة التوراة، خاصة لمخالفته حقائق علمية لم تكن معلومة زمن التحريف، مثل قصة التكوين والطوفان (التفصيل لاحقاً).

الروايات اليهودية الأصل لم تُكتب في حينها، بل بعد الحدث بسنوات، لم يتفق عليها الباحثون، يمكن أن تصل مئات السنين، خاصة وأنه لم تكن توجد الأبجديات في عصر إبراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إن إطلاق تسمية (يهود) على قوم إبراهيم وأحفاده هو خطأ مجازي، إذ إنه قبل موسى لم يرد ذكر لكلمة اليهود، فلا نَعدُّ كل الفرنسيين ديغوليين[٢٥٢]، أو التاتشريين[٢٥٣] هم كل الإنكليز، من هنا أرى ضرورة توضيح المراحل التي مر بها الشعب (اليهودي)، والأسماء التي توالت عليهم عبر التاريخ:

١ – **العَبرانيون:** وهو أول اسم معروف أُطلق على أحفاد إبراهيم الخليل، إما نسبة إلى (عابر) أحد أجداد إبراهيم الخليل، أو نسبة إلى أجداد (الشعب اليهودي) الذين عبروا نهر الفرات باتجاه بلاد الشام، فأَطلَق عليهم الكنعانيون لقب (العَبرانيين)، وسموا إبراهيم بـ(أبرام العَبراني) (أي إبراهيم الذي عبر نهر الفرات).

٢ – **بنو إسرائيل:** استمر استعمال لقب (العَبرانيين) حتى زمن النبي يعقوب، حفيد إبراهيم الذي لقبه الله بـ(إسرائيل)، حسب:

---

(٢٥٢) نسبة إلى (ديغول)، أحد أبرز رؤساء الجمهورية الفرنسية في القرن العشرين.

(٢٥٣) نسبة إلى (الليدي مارغرت تاتشر) رئيسة وزراء المملكة المتحدة في نهاية القرن العشرين، الملقبة "السيدة الحديدية".

- تكوين (٣٥:٩-١٠): "وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من (فدّان أرام) وباركه، وقال له الله اسمك يعقوب، لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل".

- تكوين (٣٢:٢٨): "فقال لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل،...".

كان لإسرائيل اثنا عشر ولداً -سبطاً- كوّنوا اثنتي عشرة قبيلة.

٣ – **اليهود:** اختلف أصل هذه التسمية أيضاً، فهناكَ رأيان:

أ ـ **الرأي الأول:** هي نسبة إلى مملكة يهوذا رابع أبناء إسرائيل، التي تشكلت بعد موت سليمان الحكيم عليه السلام، وخلفه ابنه (رحبعام)، ولكن بعض اليهود بايع أخاه (يربعام) فانقسمت مملكة بني إسرائيل إلى مملكتين:

أ/١ ـ **شمالية اسمها إسرائيل**، وعاصمتها (شكيم)، ووقعت في قبضة الآشوريين في عهد الملك (سرجون الثاني) ملك آشور عام ٧٢١ ق.م.

أ/٢ ـ **مملكة جنوبية اسمها (يهوذا)** لتميزهم عن مملكة بني إسرائيل، وعاصمتها (أورشليم)، ووقعت في عام ٥٨٦ ق.م. تحت قبضة البابليين، ودمر (نبوخذ نصر) (أورشليم) والمعبد، وسَبى اليهودَ إلى بابل، وهذا ما سُمّي (السَّبي الأول) أو (السَّبي البابلي).

ولما احتل (كورش) ملك الفرس بلاد بابل وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٣٩ ق.م. **سُميّ العائدون يهوداً دون تفريق بين أتباع المملكتين الشمالية والجنوبية**، وشمل بعد ذلك الاسم كل بني إسرائيل.

ب ـ **الرأي الثاني:** في التسمية يقول: إنه بعد أن عبد بنو إسرائيل العجل الذهبي في غياب موسى لتلقي الشريعة من الله، عاد موسى وغضب غضباً شديداً من أخيه هارون ومن اليهود، وعاقب اللهُ من لم يتب، وعفا عمن هاد (أي تاب) ولذلك سُموا التائبين أو (اليهود).

إن ما ذكرناه له أهمية تاريخية فقط، ولا علاقة له بالمعتقدات الدينية والشخصية اليهودية التي تشابهت بين كل قبائل الأسباط الاثنتي عشرة.

كان العَبرانيون رعاة غنم رُحّل، ما عرفوا الاستقرار، وبنو إسرائيل -كذلك- كانوا يجوبون أرض فلسطين، حسب:

- تكوين (٤٧:٣): "فقال فرعون لإخوته -إخوة يوسف- ما صناعتكم، فقالوا لفرعون: عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعاً".

حيث كان يوسف قد دعا إخوتَه إلى مصر، وأعطاهم أرضاً خصبة، ومكنهم في الأرض، وصارت لهم مصالح وفيرة... بعد ثلاثة قرون ازداد فسادُهم في الأرض، فاضطهدهم فرعون؛ أرسل الله موسى عليه السلام نبياً إليهم،لهدايتهم وإخراجهم من أرض مصر.

ولد **موسى** في عهد (رمسيس الثاني) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وتربى في قصره تحت رعاية زوجة فرعون (آسيا)، ولما شب قَتَل رجلاً مصرياً فهرب إلى (مدين) خوفاً من فرعون، وهناك قابل النبي شُعيب، (اسمه في التوراة رعوئيل) حسب خروج (١٨:٢)، وتزوج إحدى ابنتيه، وفي طريق عودته كلمه الله ووكله وأخاه هارون أن يدعوا فرعون إلى الإيمان، رفض فرعون الدعوة وطارد موسى وقومَه ليبطش بهم، فخرج موسى بهم وشق بعصاه البحر، فعبر بنو إسرائيل، وغرق (منفتاح) فرعون وجنودُه عام ١٢١٣ ق.م.

وفي طريقهم رأوا أقواماً يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها، فرفض، ولاقى موسى ربَّه واستلم ألواح العهد، عاد إلى قومه فوجدهم يعبدون العجل الذهبي، فعاتبهم وعاقب من لم يتب، وسار باليهود التائبين، وطلب منهم دخول القدس، فقالوا: إن فيها قوماً جبارين، فاذهب أنت وربك فقاتلا، فغضب عليهم الرب وكتب عليهم التَّوْه أربعين عاماً في صحراء سيناء، أرسل الله إليهم كثيراً من المعجزات، فلم تزدهم إلا غروراً وفساداً.

مات موسى عليه السلام في سيناء، وكذلك أخوه هارون، واستلم (يوشع بن نون) القيادة بعد موسى ودخل فلسطين، ثم مات عام ١١٣٠ ق.م.، وقُسِّمت الأرض بين الأسباط الاثني عشر (أبناء يعقوب -إسرائيل-) واستمر الوضع قرابة قرن حتى ظهر (صموئيل شاؤل)، (يسميه القرآن طالوت)، وكان النبي (داود) من جنده، وانتصر على (جالوت) بعد أن قتل (داودُ) جالوتَ وأصبح هو الملك الثاني، واتخذ من أورشليم عاصمة، وبنى الهيكل المقدس، ووضع فيه التابوت.

حكم (داود) أربعين عاماً وخلفه ابنه سليمان، لكن المملكة اليهودية ضعفت في أواخر عهده، وانقسمت بعدَ موته إلى مملكة بني إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب، وحصل السبي الأول عام ٥٨٦ ق.م. ودام حوالي سبعة وأربعين عاماً، قام خلالها الفريسيون (المنشقون) بتنظيم ما يلزم لعزل اليهود عن غيرهم صيانة لعقيدة (يهود)، ولتهيئة اليهود لاستقبال المسيح المنتظر المخلص، وُضِعت تعاليم تحدد السلوك اليومي لكل فرد، وتحولت العقيدة الأرثوذكسية اليهودية (أرثوذكس تعني باليونانية العقيدة القويمة) إلى منظمة قتالية تحت شعار العقيدة الدينية، غرضها الحفاظ على نقاوة الشعب اليهودي بالقوة، وبعد العودة إلى فلسطين والاستقرار، أخذ اليهود بتدوين الكتاب المقدس، وفي عام ٣٢٠ق.م. خلال حُكمِ (الإسكندر الكبير) لفلسطين، **قرر اليهود إنهاء تأليف التوراة**[٢٥٤]، وكل ما كُتب وأضيف بعد ذلك يُعَدُّ من الأسفار المرفوضة لديهم، ويسمونها الـ(أبوكريفا).

وفي عام ٦٣ ق.م. اكتسح الرومان القدس بقيادة (بامبيوس)، وفي عام ٢٠ ق.م. بنى (هيرودوس) هيكل سليمان من جديد، وظل حتى عام ٧٠ ميلادية، حيث دمره الإمبراطور (تيطس)، وعام ١٣٥م جاء (أوريانوس) وأزال معالم المدينة كلّياً، وشرَّدَ اليهود، وبنى هيكلاً وثنياً مكان هيكل سليمان سماه

(٢٥٤) ألا يجدر بنا الوقوف لحظة عند هذا القرار... اليهود قرروا التوقف عن تأليف كتاب الله التوراة!!!!

المسيحيون في عهد الإمبراطور (جوبيتار)، واستمر هذا الهيكل حتى دمره المسيحيون في عهد الإمبراطور (قسطنطين).

بعد الخروج من مصر توالى كثيرٌ من الأنبياء على اليهود، فكان اليهود:

١- يكذبونهم ويعذبونهم ويفترون عليهم من القصص ما يندى له الجبين، فهذا الرسول حزقيال يقول في:

حزقيال (٢:٣-٦): "وقال لي يا بن آدم... أنا مُرسلكَ إلى بني إسرائيل؛ إلى أُمَّةٍ متمردة قد تمردت عليَّ، هم وآباؤهم عصوا عليَّ إلى ذات هذا اليوم... لأنهم بيت متمرد، فإنهم يعلمون أن نبياً كان بينهم... وأنت ساكن بين العقارب... لأنهم بيت متمرد...".

٢- يقتلونهم[٢٥٥]، فقد:

- نشروا زكريّا بالمنشار.
- أغرقوا (اليشع) بالطين.
- قطعوا رأس يحيى.
- صلبوا المسيح (حسب ظنهم).

حاولوا قبل ذلك قتله عدة مرات، واتهموا أمه العذراء بالرذيلة، وحرَّفوا ما استطاعوا من الأناجيل، وشجعوا تنوُّعَ الأناجيل، وحاولوا هدم المسيحية من الداخل -كما سنرى لاحقاً- بعد أن عجزوا عن إرغام (المسيحيين اليسوعيين)[٢٥٦] على التخلي عن دينهم، وذلك بتقديمهم أحياء للأسود الجائعة، وربطهم على الأعمدة وإغراقهم بالقار، وإشعالهم في الليل لإنارة الطرقات،

(٢٥٥) قتل اليهود ثلاثة وأربعين نبياً. من محاضرات الشيخ متولي الشعراوي المسجلة، الشريط رقم ٥٥/أ.

(٢٥٦) لتمييزهم عن (المسيحيين البولسيين)، نسبة إلى بولس، الذي دعا لشريعة تخالف ما جاء به عيسى المسيح، كما سنرى أثناء مناقشة المسيحية.

فحقدت عليهم الشعوب، وشُرِّدوا في البلاد عند أول فرصة، وأينما حلوا كانوا يشيعون الفساد والرذيلة والربا والتفرقة، ولما جاء الإسلام اعتنقه بعضهم نفاقاً، فاستطاعوا خلق مشاكل كبيرة للمسلمين، وأدخلوا أفكاراً فرَّقت المسلمين إلى طوائف خرجت عن الكتاب والسنة، ظاهرها إسلامي وباطنها مخالف له.

ثانياً: التوحيد والتعدد عند اليهود

إن مسألة التوحيد والتعدد عند اليهود، قد تعرضت لنقاشات حادة بين مختلف المفكرين، منهم قساوسة كنيسة، وحاخامات معابد يهودية، كل منهم لديه ما يَستند إليه من العهد القديم.

إن المعتقد اليهودي الموسوي[٢٥٧] في أصله هو دين توحيد بلا أدنى شك، لأنه شريعة سماويَّة، لكن اليهود لم يستطيعوا الخروج من إطار التعددية إلا بعد انتهاء السبي البابلي، وعودتهم إلى فلسطين وظهور الملوك الأنبياء (عزرا) و(نحميا)، **فلم يعودوا مضطرين لخوف أو لمصلحة إلى عبادة آلهة الأقوام الذين استضافوهم من آشوريين وبابليين**، ومع ذلك فقد ظهرت بعض النَّزْعات التعددية، حيث ابتدأت وثنيات اليهود بعبادة العجل بعدِ الخروج من مصر، وبعد موت موسى عليه السلام قالوا: (عزرا) ابن الله، وقالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وإنهم شعب الله المختار الذي لا يحقُ لغيرهم من الشعوب أن تصعد أرواحهم إلى السماء، ليعودوا مع المسيح المنتظر لنشر المعتقد اليهودي، ولذلك سمحوا لكثير من التحريف أن يصل إلى العهد القديم بتأييد مبطن من قِبَلِ الـ(فريسيين)، بينما كانوا هم يؤلفون التلمود ذا التعاليم السرية التي لا يطَّلعُ عليها اليهودي العادي.

يقول (فرويد): "إن فكرة التوحيد انطلقت من تطور معين في تاريخ اليهود، ويقول: إن اسم إله اليهود (أدوناي) كما ذكرت التوراة، مأخوذة من اسم الإله (آتون) الفرعوني".

(٢٥٧) نسبة إلى الرسول موسى عليه السلام.

مرة نرى استعمال اسم (يَهْوَه) في التوراة، ومرة اسم (إيلوهيم)، مفردها (إيل)[٢٥٨]، ويمكن أن نُرجِعَ ذلك إلى اختلاف اللغات واللهجات التي مروا بها، ولكن كيف نفسر النص العربي؟:

- للمزمور (١١٠:١): "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك"، والمزمور نفسه بالعبرية يقول: "وقال (يهوه) لـ(أدونـاي) اجلس على يميني..." وهذا المزمور عن لسان النبي (داود) يُبيِّنُ أن لـ(داود) ربـاً، والرب له رب آخر يجلسان بجوار بعضهما، فإما أن يكون (داود) مشـركاً، وهـذا مستحيل، أو أن هذا المزمور ليس من كلام الرب بل هو محرف ومدسوس، أو أن الرب هنا لا تعني الإله بل السيد أو المعلم، وهنا نتساءل: من هو سيد (داود)؟ و(داود) نفسه الملك.

يقول الدكتور (رافائيل باتاي Raphael Patai. Dr)[٢٥٩]: "الأمر المدهش حقـاً أن الاعتقاد بالآلهة (ليليت Lilit) قد استمر حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الميلاد".

وقال في الكتاب نفسه:"إذا تَسَلَّح المرء بالمنطق فقط، وَجَدَ نفسه أمام إحراجٍ ذي شقين، التوفيق بين عقيدة الإله الواحد وعقائد تعدد الآلهة"، وهذه الآلهة هي:

(الإلهة عشيرة Asherah): عبدها اليهود حتى النفي البابلي عام ٥٨٦ ق.م.

(الإلهة عشتروت-آناة Astare-Anat): وهي ابنة الآلهة (عشيرة) عبدها اليهود حتى عهد الملك يوشيا عام ٦٢١ق.م.

الـ(كروبيم Cherubim): وهي منحوتات ذات أشكال بشرية مُجنحة كانت

---

(٢٥٨) إيلوهيم: تسمية كنعانية الأصل ذات معنى يدل على الجمع، أخذها عنهم العبرانيون الأوائل، واستخدموها بالمعنى الإفرادي، ويظهر مصطلح (إيلوهيم) ٢٦٠٠٠ مرة تقريباً في التوراة.

(٢٥٩) "آلهة اليهود": ص ٢٢١، الدكتور (رافائيل باتاي).

تشكل جزءاً من الهيكل قبل تحريم عبادتها، (الآلهة ماترونيت Matronit) وهي آلهة الطهارة والجنس والأمومة والحرب.

ثالثاً: فِرق اليهود

١- الفريسيون: وتعني المنشقين، ظهروا أثناء السبي البابلي، وهم رهبان متصوفون لا يتزوجون يؤمنون بالحياة بعد الموت للصالحين فقط، ليشتركوا مع المسيح المنتظر القادم في إنقاذ الناس وإدخالهم في عقيدة موسى، وهم مشهورون بإنكار البعث لغير الصالحين، وإنكار الحساب والجنة والنار والملائكة وحتى التلمود.

٢ - المتعصبون: أُطلق عليهم أيضاً (اسم السفاكين) وهم قريبون من الفريسيين لكنهم أكثر عدوانية.

٣ - الكتَبة أو النُساخ: يُسمَّون بالحكماء، نسخوا ودونوا الكتاب المقدس، وحرفوا فيه حسبما رأوه مناسباً، ولَقَبُ أحدهم (أب).

٤ - القرّاؤون: يعترفون بالعهد القديم، وينكرون التلمود على أنه شرح للعهد القديم، لأنهم يريدون شرحه بِحُرِّيَّة.

٥ - السامريون: طائفة من المتهودين الذين دخلوا اليهودية من غير بني إسرائيل، سكنوا جبال القدس، وقالوا: إن (عزرا) هو كاتب الأسفار الخمسة.

٦ - السبئية: وهم أتباع المنافق عبد الله بن سبأ، الذين دخلوا الإسلام لتحطيمه من الداخل، كما فعلوا بالمسيحية، فكانوا رائدين للفتن في تاريخ الإسلام، ابتداءً من (موقعة الجمل)، بين جيش الخليفة علي بن أبي طالب وجيش طلحة والزبير الذي كانت فيه عائشة، و(معركة صِفّين) بين علي ومعاوية بن أبي سفيان.

بشكل عام: إن اعتقاد اليهود عن الثواب والعقاب والخلود والبعث والحساب يوم القيامة، فيه اختلاف كبير، ولا يناقشونه، وفكرتهم عنه يسيرة غير واضحة.

رابعاً – مخطوطات العهد القديم

في مقدمة التوراة مكتوب أن الرب هو مؤلف هذه الكتب، بينما اتفق علماء المسيحية واليهودية، على عدم وجود كتابة مباشرة عند نزول الوحي على موسى، سوى الألواح التي أنزلها الله عليه، واتفقوا على أن ما كُتب إنما هو نقلٌ عن روايات شفهية متداولة **مرجعها الرئيس هو الذاكرة**، منها نصوص مُغناة، وأساطير مَرويَّة، ومنها سَرْدٌ لتاريخ اليهود بتفاصيل تجعل منها موضع اليقين بأن المصدر ليس إلهياً، ابتدأ اليهود بالكتابة بعد أن عادوا من السبي الأول واستقروا في فلسطين، حيث وُجدت الفرصة لكتابة التراث اليهودي.

١ – **مخطوطات البحر الميت**: وتسمى لفائف (مُغر قُمران)، وهي أقدم نص عبري وجد لبعض الأجزاء فقط، يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

٢ – **النص الـ(ماسوري) الرسمي العبري**: اكتُشف في المعبد اليهودي في القاهرة عام ٨٩٥م، ويعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي، وهي مخطوطات غير كاملة.

٣ – **النص الـ(ماسوري) التقليدي العبري: هو** أقدم نص عِبري ماسوري تقليدي كامل يشبه ما نعرفه اليوم، ويعود تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي.

٤ – **بردية الوصايا العشر**: تعود إلى القرن الخامس الميلادي، عُثِر عليها في كنيسة في القاهرة، وهي مدونة في سفر الخروج (٢٠:١-١٧) وسفر التثنية (٦:٥-٢١)، روح النصَّين واحدة، ولكن الاختلافات النصية واضحة **وتَدُلُّ على الأصل الشفهي**.

خامساً: نُسخ المخطوطات العبرية المترجمة

أما النُسَخ المترجمة إلى لغات أخرى غير العبرية، فهي إما أن تدل على وجود نسخ أصلية عبرية، أو أن تكون قد كتبت مباشرة بتلك اللغات عن النصوص الشفهية، ولم يستطع أحد إثبات أي من الاحتمالين، وهي:

١ – **النص العربي**: الرسمي المترجم يعود إلى أواخر القرن الأول الميلادي، وأما النص كما هو عليه الآن فيعود تاريخه إلى أواخر القرن الثامن الميلادي.

٢– **النص اليوناني**: ويسمى الترجمة السبعينية Septuagint قام بها اثنان وسبعون عالماً دينياً، يمثلون مختلف أسباط اليهود الاثني عشر، واستمرت كتابتها حوالي مئة عام خلال القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، وهي مأخوذة عن مخطوطات عبرية ويونانية ولاتينية غير كاملة.

٣– **النص اللاتيني**: وهو توراة القديس (ايروتيمس) المسمى (Vulgate)، ويعني المُبسَّط الذي هو في متناول الجماهير، لانتشاره الواسع، ويعود إلى القرن الخامس الميلادي.

٤– **النص السرياني**: ويسمى Peschitta وهو توراة جزئية غير كاملة.

٥– **النص الآرامي**: ويسمى (ترغوم يوناثان) أي ترجمة يوناثان.

٦– **الترجمة المسكونية الجارية حالياً**: (نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين)، حيث اجتمع علماء اليهودية والمسيحية، للخروج بترجمة جديدة توفق بين التناقضات الشديدة في النصوص، إن خرجت هذه الترجمة **فستكون أحدثَ برهان على أن الكتاب المقدس ليس كلام الله كما يقال.**

سادساً: مصادر التوراة[٢٦٠]

إن الاختلاف الكبير حول مؤلفي أسفار العهد القديم، أجبر رجال الدين على اعتماد مدارس مختلفة في الكتابة لتكون مصادر له، وهذه المدارس هي:

١– **المدرسة اليهوية**: نسبة إلى اسم الله (يَهْوَه Jehovah) ويُشار إليها بالحرف (J)، لغتها غير مؤدبة وغير منمقة، تصف الجنس وصفاً غير لائق (تكوين ٣٨)،

(٢٦٠) "التوراة بين الوثنية والتوحيد": سهيل ديب، ص ١٣-١٥، بتصرف.

هدفها إثبات أن شعب إسرائيل هو شعب الله المختار في أرض كنعان، وهي تعود إلى عام ٨٥٠ق.م. أيام مملكة يهوذا جنوب فلسطين.

٢- المدرسة الإيلوهية: نسبة إلى (إيل Eil ويعني الإله، وجمعها بالعبرية (إيلوهيم) ورمزها (E)، وهي تعتمد لغة أكثر تهذيباً وعمقاً، تعود إلى عام ٧٧٠ق.م.، ظهرت في مملكة بني إسرائيل شمال فلسطين، ولقد دُمج هذان المصدران اليَهْوي والإيلوهي، في مجموعة واحدة منذ عام ٦٥٠ قبل الميلاد.

٣- المدرسة الكهنوتية: رمزها (P) من (الكهنة Priests) ويعود إليها تحرير (سفر العدد)، اهتمت بالطقوس وكيفية تطبيق التعاليم، وهي مدرسة صادرة عن كهنة المعبد في أورشليم، وتُرجِعُ "سفر العدد" إلى عزرا (عُزَيْر) المتوفى عام ٤٤٤ق.م.، وهو أكبر معلم بعد موسى عليه السلام، وهذه المدرسة تستعمل لفظ (إيلوهيم) وليس (يهوه).

٤- مدرسة التثنية: رمزها (D) نسبة إلى (Deuteronomy)، وهي خطابية اللهجة، تدعو اليهود لاتباع الشريعة، تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وتستعمل كلمة (إيلوهيم) مع أن هذه الكلمة تعني الآلهة بصيغة الجمع، لذلك قال بعض الباحثين: إنها تسمية أطلقها التعدديون، الذين نظروا إلى التوحيد على أنه انصهار جميع الآلهة مع بعضها لتشكل إلهاً واحداً!. وقال بعضهم الآخر: إن صيغة الجمع للفظ الإله (أيل)، ما هي إلا للتبجيل والتعظيم للإله الواحد، وهو مرفوض لغوياً.

سابعاً: الكتب اليهودية المقدسة

استناداً إلى المصادر والمدارس السابقة ظهرت عدة كتب اختلفت درجة تقديسها بين اليهود، وهي:

١- التوراة (أسفار الشريعة):

وهي الأسفار الخمسة الأولى (بنتاتوك Pentateuch) المنسوبة إلى موسى عليه

السلام، بينما انتقد كثيرٌ من المعلقين ورجال الكنيسة الذين دققوا في الأسفار أن يكون موسى هو كاتبها، ويقول (موريس بوكاي):

"ويعطي كتاب أسفار موسى الخمسة على مستوى نقد النصوص، أكثر الأمثلة وضوحاً عن التعديلات التي قام بها بشر في فترات مختلفة، من تاريخ الشعب اليهودي"(٢٦١).

ويقول أيضاً: "إن تحدير نصوص الأسفار الخمسة امتد على ثلاثة قرون بأقل تقدير، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أصل الأسفار، مكتوباً من موسى ولكن التحريف نالها حتماً وقد كان كبيراً"(٢٦٢).

وقال بعضهم: إن كتابة العهد القديم انتهت زمن (إسكندر الكبير)، أي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، ومن قائل: إن كل الأسفار التي كُتبت قبل ظهور المسيح عليه السلام، تُعدُّ توراتية، وتنسب إلى الديانة اليهودية ضمن العهد القديم.

٢- الـ(مشناه) (أي شرح الشريعة):

وهي مجموعة تفاسير شفهية للنصوص، استدعتها المشاكل التي مرَّ بها اليهود، من سبي وتشرد ومؤامرات خلال قرون عديدة، جُمعت في ستة مجلدات بلغت (٦٣) رسالة، كما وجدت بعض الملاحق للـ(مشناه) سميت: (طوسفتا tosefta).

٣- الـ(جماراه) (فقه الشريعة):

وهي تفاسير للتوراة وجدت باللغة الآرامية التي تعلمها اليهود، ودرسوا فيها، وتكلموها في إحدى مراحل حياتهم.

٤- الـ(تلمود) (فيه التعاليم السرية):

وهو كتاب من نصوص الـ(مشناه) والـ(جماراه)، ويتألف من أربعين مجلداً طبع

(٢٦١) "دراسة الكتب المقدسة"، دكتور (موريس بوكاي)، ص ٣٠.
(٢٦٢) "دراسة الكتب المقدسة"، دكتور (موريس بوكاي)، ص ٢٩.

في البندقية (١٥٢٠-١٥٢٣م)، ويوجد منه حالياً ثلاث نسخ أصلية فقط، وجدت بعض الملاحق للتلمود سميت: (الشرح العظيم) أو (مدارش رباه)، تحتوي شروحاً وتعليقاتٍ مختلفة.

بشكل عام يمكن تقسيم الكتب المقدسة اليهودية إلى قسم يطّلع عليه رجال الدين اللاهوتيون فقط، وقسم يطّلع عليه عامة اليهود.

الوصايا العشر هي من ضمن الأسفار الخمسة ومذكورة في سفر الخروج (٢٠:١-١٧)، وسفر التثنية (٥:٦-٢١).

ثامناً: أسفار العهد القديم

يختلف عدد أسفار العهد القديم باختلاف الكنائس بين (بروتستانت) و(كاثوليك)، وتسمى الأسفار (تاناخ Tanakh)، وهي مختصر لكلمات تعني: (كتب شريعة الأنبياء) (TA: Tateuch=شريعة، NA=أنبياء، KH: Khetuvim=كتب) استمر تحرير هذه الأسفار أكثر من سبعة قرون وهي من مدارس متنوعة.

قَبِلَ الـ(بروتستانت) منها ٣٩ سفراً، بينما اعترف الـ(كاثوليك) فقط بـ٤٦ سفراً، وتنقسم إلى مجموعات رئيسة هي:

١- الـ(توراة): وهي خمسة أسفار تسمى: (بنتاتوك Pentateuch)، حررت في القرن العاشر قبل الميلاد، ونسبت إلى موسى، ولذلك سميت باسم (أسفار موسى) وهي: التكوين، والخروج، واللاويّون، والعدد، والتثنية.

٢- أسفار الأنبياء: وهي ثمانية أسفار توزع إلى مجموعتين:

أ- الأنبياء الكبار: وهي أسفار تميزت بالتعاليم، وهي سفر (صموئيل الأول والثاني، وسفر الأنبياء المتأخرين أشعياء وأرمياء وحزقيال وسفر دانيال وسفر يشوع، وسفر القضاء، وسفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني).

ب- الأنبياء الصغار: ويجمع (هوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجاي، وزكريا، وملاخي).

في القرن الثاني قبل الميلاد، ظهرت كتب (عاموس) الذي أدان الفساد الديني، و(أشعياء) الذي كان نبي العَظَمَة ومستشار الملوك، ثم ظهرت كتب (هوشع)، و(ميخا)، وفي القرن السابع قبل الميلاد برز (صفنيا) و(ناحوم) و(حبقوق).

وأثناء النفي البابلي برز (حزقيال) مواسياً وناشراً الأمل بالمسيح المخلص، وأما (عوبيديا) فارتبطت كتاباته بالقدس المقهورة، وبعد انتهاء السبي عام ٥٣٨ ق.م. ظهر كل من (حجاي وزكريا، ويونان -يونس-، ودانيال).

٣- أسفار الكتب التاريخية والحكمة والشعر: (كالمزامير، والأمثال، وأيوب، ونشيد الأناشيد، وراعوث، والمراثي، والجامعة وإستير، ودانيال، وعزرا، ونحميا، والأخبار الأول، والأخبار الثاني).

٤- الأسفار المرفوضة المسماة Apocrypha: وهي أسفار لا تشكل جزءاً من الشريعة، اختلفت عليها الطوائف المسيحية فرفضتها الكنيسة البروتستانتية، وقبلتها الكنيسة الـ(كاثوليكية) على أنها كلام الرب، منها (طوبيت، ويهوديت، وحكمة سليمان، والمكابيين الأول والثاني وسارة وباروخ)، وهي كتب فيها تصرف شديد بالتاريخ.

تتعرض أسفار العهد القديم لنقد واسع من رجال الاختصاص، من حيث تأليفها وتحديد مصادرها وقيمتها التاريخية، ولذلك ترى بعض ترجمات الكتاب المقدس تتعرض لهذا وتذكر في مقدمتها: إن الأسماء المقرونة بالأسفار لا تعني اسم الكاتب، بل هي عناوين للاستدلال عليها لا أكثر[٢٦٣].

(٢٦٣) الإنجيل المترجم إلى اللغة التشيكية، ص ٢١.

تاسعاً: التحريف والتناقض في العهد القديم

سوف أتعرض فقط لجزء يسير من التحريف والتناقض وذلك على سبيل الإشارة لا الحصر، وهذا الدليل يكفي العاقل غير المكابر للشك بالعهد القديم ككل، ورفض مقولة إنه كلام الله غير المحرف.

منذ البداية أعتذر عما سوف أورده من أدلة فيها المنحط من الكلام الذي يستحيل أن يصدر عن إله.

طبعاً هذا لا يمنع أن في العهد القديم بعض التعاليم الإلهية، أو تعاليم ذات أصول إلهية، ولكن كيف نحكم عليها؟. معلوم أن إثبات أي تحريف في كتاب يلغي مصداقيته كلياً!...

يقول بعض رجال (الدين المسيحي البولسي) عن هذه التحريفات: "**إن كل تعديل يصبح مشروعاً طالما كان هناك مرمى ديني**"(٢٦٤).

وإني أرى في ذلك عذراً، الذنبُ أهونُ منه.

يقول الأب (ديغو) في مقدمته لسفر التكوين لتبرير المتناقضات العلمية فيه: "إنه علينا ألا ننظر إلى التاريخ في الـ(توراة) حسب قواعد النوع التاريخي الذي يمارسه المحدثون، فإن الـ(توراة) لا تنتمي إلى أي من الدراسات العلمية، ومقابلتها مع معطيات العلوم لن تنتهي إلاّ إلى تعارض غير حقيقي أو إلى توافق مصطنع"(٢٦٥)، ولكننا نرى الأب (ديغو) نفسه لم يتوانَ عن تبني أي إثبات علمي، يمكن أن يجد له تفسيراً في التوراة.

نقول في ذلك للأب (ديغو): إن العلم والدِّين لا يتعارضان أبداً إلا لنقص في أحدهما، فإن تحولت أي نظرية علمية إلى حقيقة علمية مثبتة قابلة للقياسات،

(٢٦٤) إن تصريحاً كهذا يحول الدين من تعليمات إلهية إلى فلسفة وضعية، تميل مع هوى النفس ومصلحتها، وتحوله إلى دين حسبَ الطلب.

(٢٦٥) "دراسة الكتب المقدسة": دكتور (موريس بوكاي)،ص ٥٨.

بحيث مهما تطور العلم فلن ينقضها بل يعمق تفسيرها، ثم تعارضت هذه الحقيقة العلمية مع أي كتاب إلهي، فيكون لذلك أسباب هي:

١- ألا يكون هذا الكتاب إلهياً.

٢- أن يكون إلهياً لكن جرى تحريفه.

٣- أن يكون تفسير الكتاب الإلهي خاطئاً.

نستطيع بدراسة سبب التناقض أن نُحدِّد الفئة التي ينتمي إليها، **فيزول أي تعارض مصطنع، ويبقى إما توافق حقيقي، أو تعارض حقيقي.**

أما عن التوافق المصطنع فأنا أوافق الأب (ديغو) أنه يوجد في كثير من الأحيان توافق مصطنع بين العلم والكتاب الإلهي، وذلك عندما تكون النظرية العلمية تحت مستوى الحقيقة العلمية، فتكون قابلة للتعديل والتبديل أو حتى النقض، وهذا ما يسمى (التفسير العلمي) لبعض موجودات الكتاب الإلهي، الذي يلجأ إليه بعضُ الغيورين على العقيدة بنيَّة حسنة، فيسيئون إليه أكثر مما يحسنون، وهو يختلف كثيراً عن (الإعجاز العلمي) في حقائق غير قابلة للنقض في الكتاب الإلهي.

إن الدراسة الدقيقة للعهد القديم تكشف عن أشياء لا يعرفها الشخص العادي، الذي يزور الكنيس اليهودي يوم السبت، أو الكنيسة المسيحية يوم الأحد، حيث تُقرأ عليه مختارات من (الكتاب المقدس)!. ولا يعرفها أيضاً الشخص الذي تعوَّد ترديد بعض الصلوات قبل النوم.

لِيَسأل اليهودُ والمسيحيون أنفسهم، كم واحداً منهم قرأ الكتاب المقدس كاملاً؟ إن الجواب سيكون محرجاً لمن لم يقرأه، وأكثر إحراجاً لمن قرأه وتدبره، لأنه حتماً قابَل أشياء يرفضها العقل، ويرفضها الدين ويرفضها العلم، فكيف يقتنع أنه كلام الله الذي خلق العقل والعلم وأنزل الدين، وهو محيط بكل صغيرة وكبيرة فكيف يجعلهم في تناقض؟.

لكن كما ذكرتُ سابقاً، أنه لا بُدَّ من وجود أصول إلهية **لبعض** تعاليم الكتاب المقدس.

سوف أقدم بعض نماذج التحريف، والراغب في مزيد من التعمق والبحث عن الحقيقة، عليه أن يقرأ الكتاب المقدس قراءة باحثٍ عن الخطأ والصواب، وسيجد كثيراً من الإثباتات، بأن تعديلات بشرية أدخلت عليه بغض النظر عن أهداف هذه التعديلات، التي خلقت تناقضات يستحيل قبولها، فقد صورت بعضَ الحقائق العلمية بما يخالف هذه الحقائق العلمية، وصورت الأنبياء بصورٍ بشعة، ووصفتهم بصفات لا تليق بهم!.

إن هذه التناقضات الواضحة، شجعت الباحثين من رجال الدين اليهودي والمسيحي البولسي أنفسهم، ومن غير رجال الدين في العصر الحديث، على الخوض العميق في الكتاب المقدس، منهم بغرض تبرير التناقضات، ومنهم بغرض الكشف عنها، ويُعَدُّ المسيحيون الحاليون أيضاً موضع اتهام، لأنهم على الرغم من استبعاد بعض الأناجيل على أنها مزورة، فقد قبلوا ما يحتويه العهد القديم كله تقريباً، ولم يعترض أحد على المرحلة الانتقالية بين (المسيحية اليسوعية) الأصلية المنزَّلة من السماء (التي يؤمن بها المسلمون)، وبين (المسيحية البولسية)، التي حرفت التعاليم الأصلية ليسوع عليه السلام -وسوف نبحث هذا الأمر لاحقاً-.

بدأ الاعتراض في القرون الوسطى، حينما أخذت بعض الاكتشافات العلمية في الظهور، فحاربتها الكنيسة لأنها تعارض تفسيرهم لما ورد في الكتاب المقدس، فامتنعت الطبقة المثقفة، ومنها رجالات كنسيون عن الامتثال الأعمى لتفسيرات الكنيسة البابوية، التي أعطت لنفسها فقط حق تعديل نصوص الكتاب المقدس وتفسيره، فقد شُكلت (محاكم التفتيش)[266]، وقامت بالتعذيب والحرق والطرد،

(٢٦٦) محاكم التفتيش، شكلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨م، ثم عمّت أوروبة كلها.

وحرمان كل داعية إصلاح، أو صاحب مكتشفات علمية تعارضت مع ما جاء في العهدين القديم و الجديد[267].

من الغريب أن كثيرين من رجال الكنيسة، يؤكدون أن العلم الحديث مهما تقدم فلن يستطيع إثبات أي خطأ في الكتاب المقدس، وهؤلاء نسأل ماذا يقولون في التناقض العلمي الصارخ والمنطقي في رواية خلق العالم الواردة في سفر التكوين، ورواية الطوفان في السفر نفسه؟ وقد ناقش هاتين الروايتين كثيرٌ من الباحثين.

١ - رواية الخلق التوراتية[268]

- سفر التكوين (١:١-٢): "في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغَمْرِ ظلمة وروح الله يرُفُّ على وجه المياه".

تفهم من هذا أنه قد كان ظلام وماء في البدء، ثم تتابع في:

- سفر التكوين (١:٣-٥): "وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساءٌ وكان صباحٌ، يوماً واحداً"، منها نفهم أن الله أخرج النور في اليوم الثاني.

بينما لو ذهبنا لليوم الرابع لقرأنا في:

- تكوين (١:١٤-١٩): "وقال الله لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً في جلد السماء

(٢٦٧) حكمت محاكم التفتيش في مدة ثماني عشرة سنة، من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا، وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمان مئة وستين بالشنق بعد التشهير، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة، (الهلال والصليب ص٣٤، خليل خالد أفندي، طبع في مطبعة الهداية بالقاهرة، سنة ١٣٢٨هـ -١٩١٠م).

(٢٦٨) دراسة الكتب المقدسة، ص ٤١-٤٥، دكتور (موريس بوكاي)، بتصرف.

لتنير على الأرض، وكان كذلك، فعمل الله النورَيْن العظيمَيْن، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم، وجعلها الله في جَلَد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً رابعاً".

هنا نتساءل هل خلق الله النور في اليوم الأول أم في اليوم الرابع؟

نعود إلى اليوم الثاني من الخلق فنرى في:

- تكوين (١:٦-٨): "وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلدَ وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماءً، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً ثانياً".

إذاً في اليوم الأول خلق الله الأرض والسموات وفي اليوم الثاني فصلهما عن بعض وهذا التسلسل مقبول علمياً ومنطقياً.

عن اليوم الثالث نقرأ:

- تكوين (١: ٩-١٣): "وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يُبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بذره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً ثالثاً".

أما هنا فلم نستطع تفسير، وجود النبات الأخضر دون الشمس، التي ستظهر في اليوم الرابع؟

فإذا قبلنا أن النور صار في اليوم الثاني، فكيف نفسر ما في اليوم الرابع؟

تتابع لليوم الخامس فنرى:

- تكوين (١:٢٠-٢٣): "وقال الله لِتَفِضِ المياه زحَّافات ذات نفس حيَّة، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء، فخلق الله التَّنانين العظامَ وكل ذوات الأنفس الحية الدَّبَّابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن، وباركها الله قائلاً أثمري وأكثري واملأي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً خامساً".

ولقد أثبت علم الإحاثة أن الحيوانات البرية هي أقدم بكثير من الحيوانات البحرية والطيور، وهذا يخالف ما ورد عن اليوم الخامس.

وفي اليوم السادس نرى حسب:

- تكوين (١:٢٤-٣١) و(٢:١-٤): "وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حيَّة كجنسها، بهائم ودبَّابات ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كلِّ الأرض وعلى جميع الدَّبَّابات التي تدبُّ على الأرض، فخلق اللهُ الإنسانَ على صورته، وعلى صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضِعُوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدبُّ على الأرض، وقال الله إني قد أعطيتكم كل بَقْلٍ يُبزر بزراً على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يُبزر بزراً، لكم يكون طعاماً، ولكل حيوان الأرض، وكل طير السماء وكل دبَّابةٍ على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً، وكان كذلك، ورأى الله كلَّ ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً سادساً".

"فأُكملت السماوات والأرض كل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً".

قد لاحظنا أن الرواية الكهنوتية السابقة لخلق الكون فيها أخطاء علمية، أما النص اليهودي الذي يرجع إلى مخطوطات أقدم، فنراه يقول في:

- سفر التكوين (٢:٤-٧): "يوم عمل الرب الإله (يهوه) الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله (يهوه) لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، وجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ آدمَ تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية".

هنا نقول: إنه من غير المعقول أن يظهر الإنسان مع ظهور النبات، بينما أصبح من الحقائق العلمية أن الإنسان ظهر بعد النبات بزمن طويل جداً يقدر بملايين السنين"، هنا أيضاً نتساءل ماذا كان غذاء الإنسان قبل ظهور النبات؟

حسب التاريخ العبري فقد حُدِّدَ خَلْق آدم بحوالي ٣٧ قرناً قبل الميلاد، وآدم قد خُلِق في اليوم السادس في بداية خلق الكون، أما العلم الحديث فيثبت أن عمر النظام الشمسي ٤,٥ مليار سنة تقريباً فكيف نفسر هذا التباعد في خلق آدم؟ فإذا قال أحدهم إن آدم خُلِقَ في الجنة وليس على الأرض، لكنه أُنزِلَ إلى الأرض في القرن ٣٨ قبل الميلاد، فنقول: إن هذا يعني أن إبليس احتاج إلى حوالي ٤ مليار سنة تقريباً لإغواء آدم للأكل من الشجرة، وهذا مستبعد جداً إثباته أو نقده، لكن الفطرة ترفضه!. ولا نرى حاجة لربط وقت خلق الكون مع خلق آدم، كلٌّ كان له وقته وزمانه حسب الإرادة الإلهية.

٢ – الطوفان

تناقضت رواية الطوفان بين الرواية اليهوية والرواية الكهنوتية، فأشارت الكهنوتية، أن نوحاً أخذ زوجاً من كل نوع حسب:

- تكوين (٦:١٩): "ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين، من كلٍ تُدخِلُ إلى الفُلكِ لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى".

والرواية اليَهْوية تقول حسب:

- تكوين (٧:٢-٣): "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة وسبعة ذكراً وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى، ومن طيور السماء سبعة وسبعةً ذكراً وأنثى".

ونرى:

- تكوين (٧:٢١): "فمات كلُّ ذي جسد كان يدب على الأرض... وجميع الناس...".

- وتكوين (٦:١٧): "فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأُهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء، كل ما في الأرض يموت".

أي إن كل الجنس البشري قد ابتدأ مرة ثانية من نوح وأهله وكانوا ثمانية فقط، فكيف تفسر أنه بعد ثلاثة قرون فقط، كانت مجتمعات متكاملة ومنظمة في عهد إبراهيم، استطاعت بناء نفسها في فترة قصيرة كهذه؟ **خاصة وأن التاريخ لا يشير إلى أي انقطاع حضاري في مصر وبابل**، أي إن ما تقوله التوراة منافٍ للحقيقة، فهل أنزل الله شيئاً غير الحقيقة؟ طبعاً مستحيل ولا يُفَسَّرُ ذلك إلا بالتحريف حسب الأهواء، الذي حصل للتوراة.

٣ – إضافات وتحريفات أخرى

أ – شك في سند الرواية:

كما في الأسفار التي نُسبت إلى موسى عليه السلام، نرى أن الراوي ليس هو الله، وليست الرواية بلسان موسى بل لشخص ثالث، إذ كثيراً ما نقرأ: "قال موسى للرب... ..."، و"قال الرب لموسى..."، ونرى في:

- تثنية (٣٤:٥): "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض (مؤاب) حسب قول الرب".

- تثنية (٣٤:٧): "وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات...".

فكيف كتب موسى عن مكان موته وعمره عند الموت؟ إذا قال قائل: إن الله قد أوحى إليه متى وأين سيموت!... فنقول والحال هذه لكان كتب: "سأموت في أرض (مؤاب)...". و"وسأكون ابن مئة وعشرين سنة حين أموت...".

وإذا كان الكلام بلسان الله نفسه فيقول: "سيموت موسى في أرض (مؤاب) ...وسيكون ابنَ مئة وعشرين سنة حين يموت...".

المناقشة نفسها تصلح لما ورد في:

- تثنية (٣١:٩): "كتب موسى هذه التوراة وسلّمها للكهنة (بني لاوي) حاملي تابوت عهد الرب...".

لو أن موسى كَتَبَ، لقال:"...كَتَبْتُ... وسلّمتُ...".

الواضح أن الكاتب شخص ثالث، وأنه كَتَبَ بعد فترة طويلة من الزمن.

- في سفر صموئيل الأول (٢٥:١): "مات (صموئيل) فاجتمع إسرائيل وندبوه ودفنوه...".

يفهم من هذا أن (صموئيل) مات قبل انتهاء الجزء الأول من سفره، **فمن أكمل الإصحاحات الستة الباقية؟ ومن كتب سفر صموئيل الثاني ذا الأربعة والعشرين إصحاحاً؟**

وهنا لا أرى للتعليق ضرورة.

إن الاعتراف بالتحريف جاء مُوَثَّقاً في العهد القديم نفسه، إذ نقرأ في:

- سفر إرْمِيَا (٨:٤-١٢): "وتقول لهم هكذا قال الرب هل يسقطون ولا يقومون أو يرتد أحد ولا يرجع، فلماذا ارتد هذا الشعب في أورشليم ارتداداً دائماً؟ تَمَسَّكوا بالمكر، أَبَوا أن يرجعوا... بغير المستقيم يتكلمون، ليس أحد يتوب عن شره قائلاً: ماذا عملتُ؟... **كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا، حقاً إنه إلى الكذب حَوَّلها قلم الكَتَبةِ الكاذب**...".

ب ـ تحريف غير مقصود:

طبعاً أنا لا أقصد أن كل تناقض حصل بنية التحريف المقصود، إذ يمكن لبعض التناقضات أن نقبلها على أنها خطأ في النسخ، أو لسقوط كلمة أو حرف، وهذا تحريف غير مقصود قابل للتفهم، كما في:

- الملوك الثاني (٢٤:٨): "كان (يَهُويَاكِين) **ابن ثماني عشرة سنة** حين مَلَكَ، ومَلَكَ **ثلاثة أشهر** في أورشليم".

بينما نرى:

- أخبار الأيام الثاني (٣٦:٩): "كان (يهوياكين) ابن **ثماني سنين** حين ملك **وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام** في (أورشليم)".

جـ ـ تحريف حسب الاقتناع:

كما في إشعياء (٧:١٤): "ولكن يعطيكم السيد نفسه آية، **ها العذراء تحبل** وتلد ابناً وتدعو اسمه (عمانوئيل)".

لكن الإنكليز لم يقتنعوا بأن عذراء يمكن أن تلد فبدلوها بلفظ **"امرأة شابة"** - في طبعة الملك (جيمس) ١٩٧١- فأصبحت:

- إشعياء (٧:١٤): "...وها المرأة الشابة تحبل وتلد...".

د ـ تحريف متعمد في الترجمة:

بشَّر أشعياء بنبي عظيم ينتظره العالم، أول صفاته أنه عبد الله ورسوله، حسب:

- أشعياء (٤٢:١): "هو ذا عبدي الذي أعضُدُه...".

لكن مترجم إنجيل متى بالعربية جعلها (فتاي)، حسب:

- متى (١٢:١٨): "هو ذا فتاي الذي اخترته ...".

مع أنها جاءت باللغة الإنكليزية Servant.

٤ – تناقض في صفات إله اليهود

أ – مرة يقولون: إنه **يتعب**: ويريد بيتاً للراحة فترى:

- إشعياء (٦٦:١): "هكذا قال الرب... أين البيت الذي تبنون لي وأين مكان راحتي".

ومرة يقولون: إنه **لا يتعب** كما في:

- إشعياء (٤٠:٢٨): "...خالق أطراف الأرض لا يَكِلُ ولا يَعْيا...".

ب – مرة **يندم** كما في:

- أرميا (٢٦:١٩): "...فندم الرب عن الشر الذي تكلم به عليهم...".
- صموئيل الأول (١٥:٢٥): "والرب ندم لأنه ملّك شاؤل على إسرائيل".
- قضاة (٢:١٨): "...لأن الرب ندم من أجل أنينهم...".
- خروج (٣٢:١٤): "فندم الرب على الشر الذي إنه يفعله بشعبه".

ومرة **لا يندم** حسب:

- العدد (٢٣:١٩): "ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم".

- إرميا (٤:٢٨-٢٩): "لأنه هكذا قال الرب... ولا أندم ولا أرجع عنه".
- حزقيال (٢٤:١٤): "أنا الرب تكلمت... لا أطلِقُ ولا أشفق ولا أندم...".

جـ – مرة يعاقب كل إنسان بذنبه: كما في:

- إرميا (٣١:٣٠): "بل كلُّ واحد يموت بذنبه".

د – ومرة يعاقب الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء كما في:

- خروج (٢٠:٥): "...لأني أنا الربُّ إلهكَ إله غيور، أفتقِدُ ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع...".

٥ – كثير من الخرافات والأساطير

غالباً أُخذت عن أساطير الفرس والشعوب الشرق آسيوية، فها هم كَتَبَةُ الأسفار يصفون الأبطال كما في:

– صموئيل الثاني (٢٣:٨) يصف (يُوشَيْبَ) أحدَ أبطال (داود): "هو هَزَّ رمحه على ثمان مئة قتلهم دفعة واحدة".

– صموئيل الثاني يصف (أبيشاي) في (٢٣:١٨): "...هذا هَزَّ رمحه على ثلاث مئة قتلهم... ...".

– قضاة (١٥:١٥) يصف (شمشون): "ووجدَ لَحْيَ حمارٍ طرياً فمدَّ يده وأخذه وضرب به ألف رجلٍ".

علماً بأن (شمشون) هو أحد أبطال الـ(سيخ) الخرافيين، ولذلك فهم يطيلون شعورهم اقتداء به، ويعدُّون ذلك رمزاً للقوة.

– حزقيال (١:٥-٢٧) يحدثنا عن حيوانات لم يخطر على بال أحد ولم يُسمع بها من قبل، منها حيوان يشبه الإنسان له أربعة وجوه، وجه إنسان، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر، ولكل وجه أربعة أجنحة يوجد تحتها أيدي إنسانية،...

أجنحتها متصلة الواحد بأخيه...، ...كل واحد يسير إلى جهة وجهه..."، إلخ من التخيلات.

٦ – تعاليم مخالفة لصفة الألوهية

أ – إله اليهود يخالف عدله:

إن الله خالق البشر جميعاً، فلا يفضل أحداً على أحد إلا لأسباب تقع في إرادة المخلوق، أو لحكمة لدى الخالق، وإذا كان قد خلق بعض البشر المشوهين فهذا لا يعني أنهم نجسون يدنسون الأماكن المقدسة، وإلا فسوف يخالف ذلك صفة العدل عند الله ولكن:

– سفر اللاويين (٢١:١٦-٢٣) له رأي آخر إذ يقول: "وكلّم الرب موسى قائلاً: كلم هارون قائلاً: إذا كان الرجل من نسلك في أجيالهم فيه عيب فلا يتقدم ليقربَ خبزَ إلهه... لا رجل أعمى ولا أعرج ولا أفطس ولا زوائدي ولا رجل فيه كسر رِجْلٍ أو كسرُ يَدٍ... ولا أحدب ولا أكشم ولا من في عينه بياض ولا أجرب ولا أكلف... إلى الحجاب لا يأتي وإلى المذبح لا يقترب لأنَّ فيه عيباً لئلا يُدنس مَقْدِسِي لأني أنا الله مُقَدِسُهُم".

إن هذا يُذكّرني بالديانة الهندوسية، التي تؤمن بالتناسخ والتقمص، فيقولون: إن الروح تتقمص جسداً آخر بعد موت الجسد الأول، فإذا كان الميت شريراً في الحياة الأولى، فيتقمص جسداً أقل مرتبة من الأول مشوّهاً أو عليلاً، ويمكن أن يتدنى في تقمصه حتى يصل إلى أجسادِ الحيوانات.

انتقلت هذه الفكرة إلى اليهود خلال اختلاطهم بالشعوب الأخرى في أثناء السبي البابلي، فآمنوا أن كل عليل ومشوه هو من روح شريرة، واستنتجوا أن

مثل هذه الروح تدنس المعبد، فأدخلوا هذه الفكرة إلى التوراة ونسبوها إلى الله وإلى موسى، وهذا هو من التحريف المقصود للتوراة.

ب– إله اليهود يخالف وحدانيته:

نرى في سفر الخروج (٧:١): "فقال الرب لموسى انظر، أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهارونُ أخوك يكون نبيَّكَ".

كيف يعين الله إلهاً آخر غيرَه، ويعين لذلك الإله نبياً ويخالف بذلك وحدانيته؟!. وورد أيضاً في:

– سفر المزامير (٨٢:١-٧): "الله قائم في مجمع الله، في **وسط الآلهة** يقضي،... أنا قلت **إنكم آلهة** وبنو العلي كلكم...".

إنَّ في هذا شِركاً لا يحتاج إلى تعليق، وإنه يذكرني بالأديان القديمة التي سبقت اليهودية، والتي قامت على التعدد أو على الثالوث فإما (الأب، الابن، الروح)، أو (الأب، الأم، الابن)، أو (إله الشمس، إله الأرض، إله القمر)، أو (الخالق – الحافظ – القابض)، بالإضافة إلى حب اليهود للتقليد في العبادات ابتداء من العجل، إذ وجدوا أقواماً يعبدونه، إلى استيقاظ التعددية الإلهية لديهم، حسب:

– تكوين (٣:٢٢): "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار **كواحدٍ منّا** عارفاً الخير والشرَّ...".

إن هذا يدل على ميل إلى التعددية، ألا يعني قولهم: "كواحد منا"، الجمعَ وليس التعظيم الذي احترنا به عند تفسير (إيلوهيم) ومفردها (إيل)، كما أن مرحلة وصول الإنسان إلى مستوى الإله تذكرني بمرحلة الـ(نيرفانا) في الديانات الشرق آسيوية، وهي مرحلة التحام روح الإنسان مع روح الإله ومشاركته في تسيير العالم!.

ج ـ إلهُ اليهود جعل من الكتاب المقدس كتابَ مذكرات وسجل مواليد، وتحديد حدود عقارات بني إسرائيل:

– سفر العدد، الإصحاح ٣٣ هو شرح تفصيلي لرحلات بني إسرائيل في سيناء أربعين عاماً.

– سفر يوشع من الإصحاح (١٥) حتى الإصحاح (١٩) هو شرح لتوزيع الأراضي على عشائر اليهود وحدود كلِّ عشيرة.

– سفر صموئيل الأول، كله تقريباً سلسلة من الحروب والمعارك.

– سفر الملوك الأول (الإصحاح الرابع) يسرد أسماءَ ولاةِ سليمان، ووكلائه على جميع الأقاليم.

– سفر أخبار الأيام الأول من الإصحاح (١) حتى الإصحاح (٨) يسرد أنساب آدم وأحفاده وملوك إسرائيل.

– سفر أخبار اليوم الأول (الإصحاح الخامس والعشرون) يتناول **توزيع قُرَعِ الحراسة.**

– سفر عزرا (الإصحاح الثاني) قائمة بأسماء اليهود الذين عادوا من بابل إلى أورشليم بعد السبي البابلي.

– سفر عزرا (الإصحاح الثامن) فيه سرد لأسماء الذين صعدوا مع (عزرا) في مُلكِ الملكِ من بابل.

هل يُعقل أن يكون هذا كلام الله؟ أم هو سجل عقاري وعائلي ومذكرات الأسباط؟!. هل هذه الأسماء وحي سماوي؟!.

من هذا نرى أن أفكاراً وفلسفات بشرية، أدخلت على دين موسى التوحيدي، والسؤال الذي يبقى دون جواب صريح، لماذا كل هذا التحريف؟ ولمصلحة من؟

٧ – نبوءات إلهية لم تتحقق !

إحدى النبوءات الكثيرة نراها في:

– سفر التكوين (٤٨:٣-٤): "...وأُعطي نسلَكَ هذه الأرض من بعدك **ملكاً أبدياً**...".

لو كانت هذه النبوءة إلهية فعلاً لتحققت، ولما تَشتتَ بنو إسرائيل في الأرض عدة مرات بعد ذلك، خاصة وأنه قد مرَّ بهم عدة مراحل من القوة والعظمة يمكن أن تعدَّ بداية لهذه النبوءة، كما في أيام حُكْم نبي الله (داود) وبداية عهد ابنه سليمان الحكيم.

٨ – اتهام الأنبياء

لا أنصح بقراءة هذه الفقرة ممن هم تحت سن النضج، لأن فيها من الكلام ما لا يمكن ذِكره لو لم أكن مضطراً إلى ذلك.

من المفروض أن الأنبياء والرسل هم من أفضل أهل عصرهم أخلاقاً، اختارهم الله ليكونوا مثلاً أعلى لأمتهم، ومع ذلك نرى أن بني إسرائيل قد ألقوا على أنبيائهم صفات لا تليق بهم، وهذه بعض الأمثلة، بأقل ما يمكن من التعليق **فالنص (التوراتي) يشرح نفسه:**

أ – اتهام النبي لوط وابنتيه بالزنا:

– تكوين (١٩:٣١-٣٦): "وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رَجُلٌ ليدخل علينا كعادة أهل الأرض، هَلُمَّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنُحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أنَّ البكر قالت للصغيرة إنّي قد اضطجعتُ البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي واضطجعي معه، فنُحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة

أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعتْ معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوطٍ من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (مـؤاب)، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بَنْ عَمّي) وهو أبو (بني عَمُّون) إلى اليوم".

أي إن ذرية لوط –حسب التوراة الحالية– هي ذريةٌ من زنا المحارم!.

ب – نبي الله (داود) يخطف ويزني ويقتل ويخالف تعاليم الرب:

حسب صموئيل الثاني (١١:٢-١٥): "وكان في وقت المساء أن (داود) قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السّطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل (داود) وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه (بثشبع بنت أليعام) امرأة (أُوريّا الحِثّي)، فأرسل (داود) رُسُلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهَّرةٌ من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت (داود) وقالت إني حبلى، فأرسل (داود) إلى (يُوآب) يقول أرسل لي (أُوريّا الحثي)، فأرسل (يوآبُ) (أُوريّا) إلى (داود)، فأتى (أُوريّا) إليه، فسأل (داود) عن سلامة (يوآب) وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال (داود) لـ(أُوريّا) انزل إلى بيتك واغسل رجليك (كانت تعني ذلك الوقت أن يضاجع زوجته)، فخرج (أُوريّا) من بيت الملك وخرجت وراءه حِصَّةٌ من عند الملك، ونام (أُوريّا) على باب الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته... ودعاه (داود) فأكل أمامه وشرب وأسكره، وخرج عند المساء..." ولم يذهب إلى بيته ونام أيضاً مع خدم القصر، لأنه لا يريد التنعم بينما جنوده يقاتلون.

[ولما عجز (داود) عن جعل الزوج يغطي له جريمته مع الزوجة –تلخيص جزء من القصة – ... ...].

كتب (داود) كتاباً إلى (يوآب) وأرسله بيد (أوريا) يقول فيه: "اجعلوا

(أُوريّا) في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيُضْرَب ويموت... أرسلَ (داود) وضمَّها إلى بيته وصارت له امرأةً وولدت له ابناً ... ومات الابن...".

ونقرأ المعنى نفسه في:

– صموئيل الثاني (١٢:٢٤): "وعزّى (داود) (بثشبع) امرأته ودخل إليها، واضطجع معها فولدت له ابناً فدعا اسمه سليمان...".

بذلك خالف (داود) تعاليم الله التي تقول في:

– التثنية (٢٢:٢٢): "إذا وُجِدَ رجلٌ مضطجعاً مع امرأة زوجة بعلٍ يُقتَل الاثنان".

ومن الغريب أنهم جعلوا نبي الله سليمان الحكيم ابناً شرعياً لأم زانية لم تُعاقَب، وأب زانٍ لم يُعاقَب أيضاً!.

جـ – نبي الله سليمان متهم بالشرك بالله:

الملوك الأول (١١:١-٩): "وأحبَّ الملكُ سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات، وعمُّونيَّات، وأدوميات، وصيدونيات، وحثّيات، من الأمم الذين قال عنهم الرَّبُّ لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أنَّ نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب (داود) أبيه، فذهب سليمان وراء (عشتورت) إلهة الصيدونيين و(مَلكوم) رِجْسِ العمونيين، وعمل سليمان الشَّر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كـ(داود) أبيه، حينئذٍ بنى سليمان مرتفعةً لـ(كموش) رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه (أورشليم) ولـ(ملكوم) رجس (بني عمون)، وهكذا

فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كُنَّ يوقدن ويَذْبَحن لآلهتهن، فغضب الربُّ على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين".

بدورنا نتساءل: هل يعقل أن يدخل الشرك على نبي اختاره الله ليكون قدوة وداعية للناس؟ هل أشرك النبي حقاً؟ مستحيل طبعاً، إذاً لا بُدَّ أنَّ الكلام هو افتراء فاضح وواضح.

د – اتهام النبي (داود) بالسكوت عن زنا المحارم في أهل بيته:

والقصة في صموئيل الثاني (١٣:١-٣٤): "كان لـ(أبشالوم بن داود) أختٌ جميلة اسمها (ثامار)، فأحبها (أمنون بن داود) وأُحصِرَ (أمنون) للسقم من أجل (ثامار) أخته لأنها كانت عذراء... ...وكان لـ(أمنون) صاحبٌ اسمه (يوناداب ابن شِمْعَي) أخي (داود)، وكان (يوناداب) رجلاً حكيماً جداً، فقال له لماذا يابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح، أَمَا تُخبرني، فقال له (أمنون) إني أحب (ثامار)... ...فقال (يوناداب) اضطجع على سريرك وتمارض، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع (ثامار) أختي فتأتي وتطعمني... ...فأرسلَ (داود) إلى (ثامار)... ...ثم قال (أمنون) لـ(ثامار) آتني بالطعام إلى المخدع... ...فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي... ...تمكن منها وقهرها واضطجع معها، ثم ابغضها (أمنون) بغضة شديدة جداً... ...فأقامت (ثامار) مستوحشة في بيت (أبشالوم) أخيها... ...وبعد سنتين من الزمان... ...دعا (أبشالوم) جميع بني الملك... ...فأوصى (أبشالوم) غلمانه قائلاً انظروا، متى طاب قلب (أمنون) بالخمر... ...اقتلوه ولا تخافوا... ...ففعل غلمان (أبشالوم) بـ(أمنون) كما أمر... ...وعلم الملك فقام ومزق ثيابه... ...وهرب (أبشالوم)... ...".

وتقول القصة بأن (داود) عفا عن ابنه (أبشالوم) بعد ثلاث سنوات حسب:

– صموئيل الثاني (١٤:٣٣): "ودعا (أبشالوم) إلى الملك وسجد على وجهه إلى الأرض قدام الملك فقبل الملك (أبشالوم)".

إن في هذه القصة تشويهاً كاملاً لسيرة (داود)، فهو يسكت عن زنا المحارم لأنهم أولاده، وتصف الرجل الماكر (يوناداب) بأنه حكيم جداً !. كيف علم (داود) بالقصة ولم يأمر بالرجم والقتل حسبما جاء في:

– لاويين (٢٠:١٧): "وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار، يقطعان أمام أعين بني شعبهما".

يتابع الافتراء في حياة النبي (داود) عليه السلام، فبدلاً من أن يعاقب (أبشالومَ) القاتل أخاه عن تخطيط وترصد بعد سنين بسبب الانتقام، نراه يعفو عنه دون القصاص الذي أمر به الله.

هـ – روبين بن يعقوب (إسرائيل) يزني بسرية أبيه (بلهة):

ولا يعاقِبُ يعقوبُ أحداً منهما ولم يطبق الشريعة، كما جاءت في:

– تكوين (٣٥:٢٢): "...وحدث أن كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أنَّ (رَأوبين) ذهب واضطجع مع (بلهة) سرية أبيه، وسمع إسرائيل".

و – يهوذا أيضاً لم يسلم من الاتهام:

اتهموه بالزنا بأرملة ابنه (عير)، بعد أن منعها من الزواج بابنه الصغير (شيلة)، فأرادت الانتقام وخططت لذلك والقصة يرويها:

– سفر التكوين (٣٨:٦-٣٠): "وأخذ (يهوذا) لِـ(عير) بكْرِهِ زوجةً اسمها (ثامار)، وكان (عير) بكر (يهوذا) شريراً في عيني الرب، فأماته الرب، ...فقال: (يهوذا) لـ(ثامار) كنته: اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر (شِيلَةُ) ابني... ...فأُخبرت (ثامار) وقيل لها حَمُوكِ صاعدٌ...، فخلعت عنها ثيابَ ترمُّلها وتغطت ببرقع... فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك، لأنه لم يعلم أنها كنته، فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل عليَّ؟ فقال: إني أُرسل جَدْيَ مِعْزَى من الغنم، فقالت:

هل تعطيني رهناً حتى ترسله، فقال: ما الرهن الذي أُعطيكِ؟ فقالت: خاتَمك وعَصابَتك وعَصاك التي في يدك، فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه، ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها... وقيل له زنت (ثامارُ) كَنّتك، وها هي حبلى من الزنا، فقال: (يهوذا) أخرجوها فتحرق، أما هي فلما أُخرجت أرسلت إلى حميها قائلة من الرجل الذي هذه له، أنا حبلى، وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه... فولدت توأمان... (فارص) و(زارح)".

من الغريب أننا نجد أن ابن الزنى (فارص) موجود في سلسلة نسب المسيح عليه السلام، أي افتراء أكثر من هذا؟!.

نعود إلى التساؤل ما الغرض من هذا الافتراء والتحريف؟ لا بُدَّ من أن لهم مصالح دنيوية غير واضحة، ولا غرابة!... فقد عُرِف بنو إسرائيل، بأنهم أول من عمل بمبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، وذلك قبل أن يُنسب هذا المبدأ خطأ إلى (ميكيافيللي).

ز ـ اتهام النبي إبراهيم ببيع شرفه:

حسب تكوين (١٢:١٢-٢٠): "وحدث لما قَرُبَ أن يدخل (إبراهيم) مصر أن قال لـ(ساراي) امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر... قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك... فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى (أبرام) خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير...".

ح ـ اتهام (داود) بصفات تستحيل على نبي:

صموئيل الثاني (١٢:١٩-٣١): "فجمع (داود) كل الشعب وذهب إلى (ربَّة) (عاصمة بني عمون) وحاربها وأخذها، وأخذ تاج ملكهم عن رأسه... وأخرج

الشعب، الذي فيها ووضعهم تحت مناشير وفؤوس حديد، **وأمرهم في أتون آجر**[٢٦٩]، وهكذا صنع بجميع مدن (بني عمون)...".

يحضرني احتمال وجود سبب لهذا التشويه، ينطلق من عنصريتهم البالغة الشديدة، ومن اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، وأنه لا يحق لغير الشعب اليهودي الإيمان بالله وعبادته، ولا يحق لأحد دخول الدين اليهودي بالاعتقاد، بل لا بُدَّ من أن تكون أمه يهودية، ألا يحتمل أن اليهود الـ(فريسيين) المتشددين قد شوهوا الدين عمداً حتى يرفضه الناس ولا يعتنقه أحد، بذلك يتحقق لهم ما يعتقدونه -حسب زعمهم- من أن الجنة هي لـ١٤٤٠٠٠ شخص، ويريدون الاستئثار بهذا العدد.

حتى العداوة غير المسبوقة التي يظهرها اليهود للمسلمين، ما أظنها إلا لأن المسلمين قد اهتدوا لمفتاح الجنة، بعبادة إله يهود نفسه، الإله الواحد الذي ليس له ولد، هذا احتمال ليس له برهان غير الاستنباط من الواقع الملموس.

٩ – صفات إله بني إسرائيل

مما ورد في التناقضات التي وصف بها اليهود إلههم نرى أن إله اليهود:

أ – يتعب:

كما في:

- إشعياء (٦٦:١): "... ...أين مكان راحتي".
- تكوين (٢:٢): " فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل".

ب – يندم:

كما في:

(٢٦٩) الحرق في الأفران هي إحدى الطرق التي كان قدماء اليهود يتخلصون بها من أعدائهم، ولكننا نستبعد أن يصدر عن نبي الله.

- إرميا (١٠:٤٢): "لأني ندمتُ عن الشرّ الذي صنعته بكم".

- خروج (١٤:٣٢): "فندم الرَّبُّ على الشرّ الذي قال إنّه يفعله بشعبه".

ج – تنام قواه:

كما في:

- إشعياء (٩:٥١): "استيقظي، استيقظي، البَسي قوّةً يا ذراع الرب".

د – ينام:

كما في:

- مزمور (٦٥:٧٨): "فاستيقظ الرَّبُّ كنائم كجبّار مُعَيِّطٍ من الخمر".

و – لا يرحم وغير عادل:

يشوع (٢١:٦): "وحَرَّموا كلَّ ما في المدينة من رجلٍ وامرأةٍ من طفلٍ وشيخٍ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف".

ز – غير منطقي:

خروج (٥:٢٠): "...لا تسجد لهن ولا تعبدهن (يقصد التماثيل والصور) لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الجيل الثالث والرابع".

ح – مخادع:

إرميا (١٠:٤): "فقلتُ آهِ يا سيد الرب حقاً إنك خِداعاً خادَعتَ هذا الشعبَ وأورشليم قائلاً يكون لكم سلام وقد بلغ السيف النَّفْسَ".

ط – يأمر بالزنى:

هوشع (٢:١): "أول ما كلّم الربُّ (هوشعَ) قال الرب لـ(هوشع) اذهب خذ لنفسك امرأةَ زنى وأولاد زنى لأن الأرض زنت تاركة الرب".

هوشع (١٥-١٤:٤): "لا أُعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كناتكم لأنهن يفسقن... ...إن كنتَ أنتَ زانياً يا إسرائيل، فلا يأثم (يهوذا)".

ي – ينسى:

خروج (٢٤:٢): "فسمع الله أنينهم فتذكر اللهُ ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب".

ك – مصارع ضعيف:

تكوين (٣٠-٢٢:٣٢): وفيه يروي كيف صارع يعقوبُ الربَّ حتى طلوع الفجر، **وأن الله لم يقدر عليه وطَلَب من يعقوب أن يتركه فرفض**، إلا إذا الربُّ باركه ففعل الربُّ ذلك"...فقال لا أُطلقك إن لم تباركني، فقال له ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت".

هل يمكن تصديق مثل هذه الافتراءات؟!.

١٠ – لغة فاحشة

بعض أجزاء العهد القديم استعملت لغة غزلية فاحشة لا تليق أن ينطق بها الرب، يخجل المرء أن يتلوها أمام أولاده أو في الكنيسة، هي أشبه بشعر كتبه شاعر ماجن، فقد ورد في:

- سفر نشيد الأنشاد (١٣:١): "حبيبي لي، بين ثدييَّ يبيت".

- نشيد الأنشاد (٢:١): "ليقبلني بقبلات فمه لأن حُبَّكَ أطيب من الخمر...".

- نشيد الأنشاد (٥-٤:٤): "عنقك كبرج (داود) المبني للأسلحة... ثدياك كخشفتي ظبية، توأمين يرعيان بين السوسن".

- سفر نشيد الأنشاد (٤-١:٧): "ما أجمل رجلَيْك بالنعلين يا بنت الكريم، دوائر فخذيك مثل الحلي صنعةِ يدي صناعٍ، سُرَّتك كأس مدوَّرةٌ لا يعوزها شراب ممزوج، بطنك صُبْرَةُ حنطةٍ مُسَيَّجَةٌ بالسوسن، ثدياك كخشفتي توأمي ظبية، عنقك كبرج من عاج...".

ونقرأ أيضاً في السفر نفسه (٨:١٠): "أنا سُور وثدياي كبرجين...".

ربما يقول أحدهم: إنه شعر جميل.

فنقول: ولكنه لا يليق أن يصدر عن الله.

هذا قليل من كثير، ومن أراد أدلة أكثر، فليلق نظرة أكثر عمقاً في العهد القديم.

أما قمة اللغة الفاحشة نقرأها في سفر حزقيال (٢٣:٢-١٢): "وكان إليّ كلام الرب قائلاً يابن آدم كان امرأتان ابنتا أُمٍ واحدة، وزنتا بمصر، في صباهما زنتا، هناك دُغدغت ثديهما وهناك تزغزغت ترائب عذرتهما، واسمهما (أهولة) الكبيرة و(أهوليبة) أختها، وكانتا لي وولدتا بنين وبنات... ...وزنت (أهولة) من تحتي وعشقت محبيها بني أشور الأبطال اللابسين الأسمانجونيّ ولاة وشِحناً كلهم شبانُ شهوةٍ فرسان راكبو الخيل، فدفعت لهم عُقرها لمختاري بني آشور كلهم وتنجَّسَت بكل من عشقتهم بكل أصنامهم، ولم تترك زناها من مصر أيضاً لأنهم ضاجعوها في صباها وزغزغوا ترائب عذرتها وسكبوا عليها زناهم... فلما رأت أختها (أهوليبة) ذلك أفسدت في عشقها أكثر منها وفي زناها أكثر من زنى أختها، عشقت بني آشور... ...شُبَّان شهوة... ...وأرسلت إليهم رُسُلاً... فأتاها (بنو بابل) في مضجع الحب ونجسوها بزناهم... وكشفت زناها وكشفت عورتها فجفتها نفسي... ...وأكثرت زناها بذكرها أيام صباها التي زنت بأرض مصر، وعشقت معشوقيهم الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل، وافتقدتِ رذيلةَ صباكِ بزغزغة المصريين ترائبكِ لأجل ثدي صباكِ".

نقول: لا تعليق، وأتساءل، هل يوجد مَنْ يَقبلُ عبادة قائل هذه الكلمات؟

١١ – حكايات وحكايات

يحتوي أيضاً كثيراً من الحكايات على مبدأ (كان يا ما كان...) و(يُحكى أن...): ومثال على ذلك نراه في:

- نَحَمْيا (١:١-٣): "كلام (نحميا بن حكليا)، حدث في شهر (كَسْلُو) في السنة العشرين بينما كنت في شوشن القصر، أنه جاء حناني واحدٌ من إخوتي هو ورجالٌ من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين نجوا من السبي...".

هل هذا كلام صادر من الله، أم رواية من (نَحَمْيا) يرويها بتصرف في سهرة صيف؟

١٢ – مخالفات أخرى

يقولون: إن إسماعيل ونسله ليس لهم نصيب من الأرض الموعودة في فلسطين وممنوعون من الميراث لأن إسماعيل ليس مباركاً، بينما الكتاب المقدس يقول في:

- تكوين (٢٠:١٧): "وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه، ها أنا أباركه وأُثمره وأُكثِّره كثيراً جداً... ...".

عاشراً: نظرة مختصرة إلى التلمود

إن العهد القديم هو من أصول إلهية على الرغم من التحريفات الكثيرة التي نالته، لكن التلمود من تأليف الرابيين[٢٧٠] أنفسهم، حيث استمر تأليفه حوالي ألف عام، وشارك فيه آلاف الرابيين والعلماء، ويُعدُّ تفسيراً شفهياً للتوراة – حسب قولهم- أساس التلمود ابتدأ به (الرابي جيهودا Jehuda) فجمع التفاسير الشفهية التي ينسبها بعضهم إلى موسى عليه السلام في كتاب اسمه (سِفر ميشنا أوت Sepher Mischnaioth)، وتعني (القانون المساعد)، ولما كثُرت التفسيرات حول الـ(مشناه) دونت هذه التفاسير في كتاب عرف باسم الـ(جماراه Gemarah)، ومجموع الـ(مشناه) والـ(جماراه) كوَّن الـ(تلمود)، الذي جُمع في ثلاثة وستين كتاباً عالجت مختلف القضايا الدينية والدنيوية، بالإضافة إلى الملاحق "توسيفوت

(٢٧٠) رجال الدين اليهودي.

"Tosephoth". والتلمود بإجماله يُعدُّ كتاباً سرياً لا يقع بيد العامة من اليهود والتعليمات التي فيه يتلقونها شفهياً.

لقد احتوى العهد القديم كثيراً من تعاليم (اللاّ) الحميدة (لا تقتل، لا تكذب.. ...إلخ)، واشترك في ذلك مع كل الديانات الأخرى والفلسفات الوضعية الدنيوية، ابتداءً بالوصايا العشر وانتهاءً بما سنورده أدناه، لو اتبع اليهود ما جاء في التوراة من وصايا حميدة لاختلفوا عما هم عليه الآن[٢٧١]:

- لأنك ترابٌ وإلى ترابٍ تعود. تكوين (١٩:٣)
- لا تضطهد الغريب ولا تضايقه، لأنك كنت غريباً في أرض مصر. خروج (٢١:٢٢)
- لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحبُّ قريبك كنفسك. لاويين (١٨:١٩)
- افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك. تثنية (١١:١٥)
- الرشوة تعمي أعين الحكماء وتعوج كلام الصِّدِّيقين. تثنية (١٩:١٦)
- كل إنسان بخَطِيَّتِهِ يُقْتَل. تثنية (١٦:٢٤)
- ليس بالقوة يَغْلِبُ الإنسانُ. صموئيل الأول (٢:٩)
- الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً. أيوب (٢١:١)
- تحصيل الحكمة خير من اللآلئ. أيوب (١٨:٢٨)
- أَلْقِ على الرب همَّكَ فهو يعولُك. مزامير (٢٢:٥٥)
- ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معاً. مزامير (١:١٢٣)

(٢٧١) "حكمة الأديان الحية": ص ١٥٨-١٧٤، بتصرف.

- مخافة الربِّ رأسُ المعرفة. أمثال (٧:١)
- لا تكن حكيماً في عيني نفسِكَ. أمثال (٧:٣)
- الشِّرِّير تأخذه آثامه وبحبال خطيئته يُمْسَك. أمثال (٢٢:٥)
- موازين غش مكرهة الرب والوزن الصحيح رضاه. أمثال (١:١١)
- السَّريع الغضب يعملُ بالحُمْق. أمثال (١٧:١٤)
- المتراخي في عمله هو أخو المُسْرِف. أمثال (٩:١٨)
- في أُذُنَيّ جاهل لا تتكلم لأنه يحتقر حكمة كلامك. أمثال (٩:٢٣)
- عينا الإنسان لا تشبعان. أمثال (٢٠:٢٧)
- الصِّيتُ خيرٌ من الدُّهن الطَّيِّب. جامعة (١:٧)
- ويل للباني مدينة بالدماء،والمؤسِّس قرية بالإثم. حبقوق (١٢:٢)

في كتاب الحكمة توجد أمثال رائعة، ولكن هل يوجد من يطبقها من اليهود؟

بإلقاء نظرة سريعة إلى التلمود، نرى التناقض المشين لتعاليم يستحيل أن تكون من إله عادل، خالق لكل البشر، بل نابعة من عنصرية متطرفة إلى أبعد حدود التطرف، تَعُدُّ الكائن غير اليهودي حيواناً على هيئة البشر أوجده الله لخدمة (شعب الله المختار).

نورد بعض تعاليمهم حول المسيح والمسيحيين والمسلمين:

- عن المسيح يقول:

- إنه ابن غير شرعي، حملته أمه خلال فترة الحيض، هربت من زوجها واقترفت الزنى[٢٧٢].

(٢٧٢) "فضح التلمود"، (الأب آي. بي. براناتيس)، ص ٥٧.

- وإنه مجنون: "ولقد كان مجنوناً ولا أحد يهتم بالمجانين"(٢٧٣).

- وإنه وثني ومضلّل"(٢٧٤).

- وإنه مدفون في جهنم: "... إن يسوع مات كبهيمة ودفن في كومة قذر حيث تطرح الكلاب والحمير...".

- **عن العذراء مريم يقول:** في (بومباديثا) إنها العاهرة أُمُّ ذاك الذي شُنق، هربت من زوجها واقترفت الزنا (في Sznehdrin Chop VII).

- **عن معاملة اليهود للمسيحيين يقول:**

يقول (ايهوداه زاراه) ١٥ب: "يجب ألا تترك إناث الحيوانات مع رجال الأغيار (غير اليهود أو الغويم)، ولا ذكور الحيوانات مع نسائهم، ولا الخراف مع رعيانهم، ولا يجب فسح المجال لإقامة أي علاقات جنسية بين الأغيار والحيوانات، كما يجب ألا تدع الأطفال في رعاية أولئك الأغيار لتعليمهم القراءة والتجارة".

لأنه حين يأتي الرجال غير اليهود إلى بيوت جيرانهم لاقتراف الزنا مع زوجاتهم (إذ إن اليهود لا يعترفون بزواج شرعي بين غير اليهود فالحيوانات ليس بينها زواج شرعي) ولا يجد هؤلاء زوجاتِهم في البيت، فإنهم يزنون بدلاً من ذلك مع الخرفان في حظائرها، وأحياناً تكون الزوجات في البيت، ولكنهم يؤثرون اقتراف الزنا مع الحيوانات، لأنهم يحبون الخرفان الإسرائيلية أكثر من نسائهم".

ويقول (أيورديا) (198,48) هاغاه Hagah: "حين تخرج النسوة اليهوديات من الحمام فمن واجبهن الحرص على الالتقاء بصديق أولاً، لا بأي شيء نَجِس أو مسيحي، إذ إنَّ المرأة إنْ فعلت ذلك -التقت بغير اليهودي- وتريد أن تبقى مُقدسة فعليها أن تعود وتستحم مرة أخرى"(٢٧٥).

---

(٢٧٣) "فضح التلمود"، ص ٦٤.

(٢٧٤) "فضح التلمود"، ص ٦٢.

(٢٧٥) "فضح التلمود"، ص ٩١.

يقول (ميدراش تاليبوت Midrasch Talpioth،Fol225d): "**خلقهم الله في أشكال آدمية لتمجيد إسرائيل**، إلا أن الأكوام (غير اليهود) خلقوا لغاية وحيدة، هم لخدمتهم (خدمة بني إسرائيل) ليل نهار... ...**حيوانات بأشكال طبيعية**".

وفي زوهار (II64b) نقرأ: "يقول الرابي آبا Abba: إذا اقتصر الجماع الجنسي على الوثنيِّين فقط، فإنه لا يمكن للعالم أن يستمر في الحياة، من هنا نتعلم أن على اليهودي ألا يفسح مجالاً لهؤلاء السيِّئي السمعة السارقين، لأنهم إن تناسلوا بأعداد ضخمة يستحيل علينا الاستمرار في الحياة...".

- عن المسيحيين يقولون: "...عبَدَة الذي شُنِق، هم أيضاً ساقطون".

- يدعون الكنائس بيت الباطل Beth Tiflah وبيت الوثنية بيت (ايهوداه زاراه).

- لا يجوز ليهودي أن يسكن قرب الكنيسة (142,15) يقول (أيور ديا).

- وعن الإنجيل يقولون مجلدات الشر Aaven Gilaion.

- إنه على اليهودي ألا يَمْثُلَ أمام قاضٍ مسيحي (شوشين هاميشيات 26,1).

- لا تقبل شهادة غير اليهودي (شوشين هاميشيات 34,19).

- على اليهودي ألا يحيي مسيحياً، وأن يرد عليه بفظاظة.

- لا يجوز أكل طعام المسيحي كما في (أيورديا 112,1): "حرم الشيوخ أكل خبز الأكوام خشية أن نبدو وكأننا مثلهم".

بعد هذه المقتطفات من تعاليم التلمود لا نستغرب أنه أُحرِقَ عدداً من المرات:

- مرة في عهد (لويس) التاسع (١٢١٤-١٢٧٠م) في فرنسة، وذلك لما فيه من الطعن والإهانة ضد المسيحيين بوجه خاص.

- ومرة أخرى في عام ١٢٤٨ م بأمر الكاردينال (لو كانت أودو).

- وأحرق عام ١٢٩٩ م بأمر الملك فيليب الذي طرد اليهود من فرنسة.

- وفي عام ١٣٢٢ م بأمر البابا جون الثاني والعشرين أحرق في كل أوربة.
- وفي عام ١٥٥٣ م بأمر البابا (يوليوس) الثالث.

كل ذلك بسبب العبارات غير الأخلاقية التي تمس يسوع عليه السلام، وأمه، والدين المسيحي بشكل عام، بعد ذلك تَنَبَّه اليهود فحذفوا الكلمات النابية التي تنال المسيح، وتركوا مكانها فارغاً للتنبيه عليها وتداولوها شفهياً فيما بينهم.

الحادي عشر: يهودية جديدة بثوب مسيحي

ظهرت جماعات جديدة يهودية الأهداف مسيحية المظهر، تدعو إلى مسيحية هي خليط بين الشريعتين، أطلقت على نفسها "شهود (يهوه)"[٢٧٦]، أهم ما تدعو إليه يتلخص بالآتي:

- إنكار لاهوت المسيح.
- إنكار عقيدة الثالوث.
- نفي قيامة المسيح بالجسد.
- وجود فرصة للتوبة بعد الموت.
- الأشرار لن يتعذبوا.
- الدين هو عمل الشيطان.
- الملائكة تتزوج من بني البشر.
- موت المسيح هو أبدي نهائي.
- المسيح هو الملاك ميخائيل.

(٢٧٦) "شهود يَهوه": حسين عمر حماده.

- إنكار وجود جهنم.
- نفي قيامة الأموات بالجسد.
- المختارون للحياة الأبدية هم مئة وأربعة وأربعون ألفَ شخصٍ فحسب.
- منع التبرع بالدم أو قبوله ولو أدى المنع إلى الموت.

هذا ما طالته يدي من معلومات عن الديانة اليهودية المغلقة.

أسفار العهد القديم للبروتستانت (The old Testament)

١ - التكوين	GENESIS
٢ - الخروج	EXODUS
٣ - اللاوين	LEVITICUS
٤ - العدد	NUMBERS
٥ - التثنية	DEUTORONOMY
٦ - يُوشَع	JOSHUA
٧ - القُضاة	JUDGES
٨ - راعوث	RUTH
٩ - صموئيل الأول	1-st SAMUEL
١٠ - صموئل الثاني	2-nd SAMUEL
١١ - الملوك الأول	1-st KINGS
١٢ - الملوك الثاني	2-nd KINGS
١٣ - أخبار الأيام الأول	1-st CHRONICIES
١٤ - أخبار الأيام الثاني	2-nd CHRONICIES

١٥- عزرا EZRA

١٦- نحميا NEHEMIAH

١٧- أستير ESTER

١٨- أيوب JOB

١٩- المزامير PSALMS

٢٠- الأمثال PROVERBS

٢١- الجامعة ECDECIASTES

٢٢- نشيد الأناشيد SONG OF SONGS

٢٣- إشعياء ESAIAH

٢٤- إرمياء JEREMIAH

٢٥- مراثي إرمياء LAMENTATIONS

٢٦- حزقيال EZEKIEL

٢٧- دانيال DANIEL

٢٨- هوشع HOSEA

٢٩- يوئيل JOEL

٣٠- عاموس AMOS

٣١- عوبديا OBADIA

٣٢- يونان JONAN

٣٣- ميخا MICAH

٣٤- ناحوم NAHUM

٣٥- حبقوق HABKKUK

٣٦- صفنيا ZPHANIA

٣٧- حجاي HAGGAI

٣٨- زكريا ZECHARIA

٣٩- ملاخي MALACHI

(إجمالي عدد أسفار البروتستانت تسعة وثلاثون سفراً، وجملة إصحاحاته ٩٢٩ إصحاحاً)

ويضيف الكاثوليك والأرثوذكس الأسفار الآتية التي رفضها البروتستانت وتسمى (الأبوكريفا)، وهي:

١- طوبيت (طوبيا) TOBIT

٢- يهوديت JUDITH

٣- المكابيين الأول 1-st MACCABEES

٤- المكابيين الثاني 2-nd MACCABEES

٥- الحكمة WISDOM

٦- سارة SIRACH

٧- باروخ BARUCH

الفصل الثاني

المسيحية

العهد الجديد

الاسم	عدد الإصحاحات
١ - إنجيل متّى	٢٨
٢ - إنجيل مرقس	١٦
٣ - إنجيل لوقا	٢٤
٤ - إنجيل يوحنا	٢١
٥ - أعمال الرسل	١٦
٦- رسائل (بولس) الأربعة عشر:	
- رسالة إلى أهل رومية	١٦
- الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس	١٦
- الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس	١٣
- رسالة إلى أهل غلاطية	٦
- رسالة إلى أهل إفسس	٦
- رسالة إلى أهل فيليبي	٤
- رسالة إلى أهل كولوسي	٤
- الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي	٥
- الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي	٣
- الرسالة الأولى إلى تيموثاوس	٦
- الرسالة الثانية إلى تيموثاوس	٤
- الرسالة إلى تيطس	٣
- الرسالة إلى فيليمون	١
- الرسالة إلى العبرانيين	٣
٧ - رسالة يعقوب	٥
٨ - رسالة بطرس الأولى	٥
٩ - رسالة بطرس الثانية	٣
١٠ - رسالة يوحنا الأولى	٥
١١ - رسالة يوحنا الثانية	١
١٢ - رسالة يوحنا الثالثة	١
١٣ - رسالة يهوذا	١
١٤ - رؤيا يوحنا	٢٢

وهي الأسفار المعتمدة من كلِّ الطوائف المسيحيَّة، وقد اتفقت كل الطَّوائف على عدم الاعتراف بإنجيل (برنابا) وغيره من الأناجيل الكثيرة، لسبب سنناقشه لاحقاً.

كيفية تعين موضع الآية في الإنجيل:

يتعين موضع الآية في الإنجيل على الشكل التالي:

اسم الإنجيل (رقم الإصحاح:رقم آية البداية-رقم آية النهاية)

مثلاً: كورنثوس الأولى (١٠:٥-٧)، أي: انظر رسالة (بولس) إلى أهل كورنثوس الأولى الإصحاح العاشر من الآية الخامسة إلى الآية السابعة.

اعتمد البحث الأناجيل الآتية:

النص باللغة الإنجليزية:

- من إصدار طائفة البروتستانت:

- New King James Bible - 1982 Thomas Nelson, Inc.

- ومن إصدار طائفة الكاثوليك:

- The New American Bible (The New Catholic Translation)
By Thomas Nelson, Inc.

- وطبعة:

- Good News For Modern Man -The New Testament
- Today`s English Version /Third Edition 1979
- American Bible Society /New York

النص باللغة العربية:

- بعنوان (الكتاب المقدس)، الصَّادر عن "دار الكتاب المقدس"، ص.ب ٧٢٤ القاهرة، والتي ترجمت عن اللغة العبرانية والكلدانية واليونانية.

- البحث الأول: تساؤلات أساسية في المسيحية

في إحدى محطات البحث عن الحقيقة درستُ الشريعة المسيحية[٢٧٧]، فقرأت كل ما وقع تحت يدي من كتب في مقارنة الأديان، وقرأت العهدين القديم والجديد من (الكتاب المقدس) عدة مرات، حاولت أن أتقمصَ شخصية الإنسان المسيحي المنطقي الباحث عن الحقيقة، فاصطدمت بعدة عقبات تغلبت على بعضها لصالح المسيحية، ومنها ما افترضتُ أنه لا ضرر من وجوده، ما دام أنه لا يتعلق بالعقيدة، لكني وجدت عقبات لم أستطع التغلب عليها وفَهمَها وحدي، فأخذت أبحث عمن يفسرها لي من المسيحيين، تكلمت مع عديدين، اضطر أغلبهم للاعتراف -بعد المحاولة- بأنهم لا يستطيعون المساعدة لعدم اتصالهم بعمق العقيدة، إلى أن ساق القدرُ إليَّ (دايفيد) شخصاً إنكليزياً، علِمتُ لاحقاً أنه كان في بلاده دارساً متعمقاً للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ما كان ليقول لي ذُلك لو لا اقتناعه بأنني دارسٌ يبحث عن الحقيقة الكبرى لذاتها، وذلك من طبيعة الاستفسارات التي طرحتها بنيَّةٍ صادقةٍ، سائلاً الله أن يجعل الحقيقة تهتدي إليَّ.

قلت لـ(دايفيد): إني قرأت (الكتاب المقدس) كلَّه، ولم أستطع أن أتبين المقصود الواحد لمعنى (**ابن الله**)، لقد فهمت من العهد القديم أن التعبير (**ابن الله**) لا يمكن تجزئته إلى كلمتين (**ابن**) و(**الله**)، بل هو معنى لكلمة واحدة هي (**ابن الله**) وتعني **المؤمن بالله**[٢٧٨]، ولم أفهم أن أياً من أنبياء اليهود ولا أحبارهم

---

(٢٧٧) نسبة إلى المسيح عيسى (يسوع الناصري)، وأطلق عليها أيضاً (النصرانية) نسبة إلى (الناصرة) مدينة يسوع المسيح الناصري.

(٢٧٨) حسبما ورد في يوحنا (١:١٢-١٣): "...يصيروا أولاد الله أي المؤمنين باسمه...".

قد فَهِم هذا التعبير بالمعنى الحرفي له، بمعنى أن الله له ابن منبثقٌ عنه بالطبع[٢٧٩] بغير خلق، كما تنبثق الحرارة عن النار،أو أنه ابن الله المولود.

إن ما ورد في:

- تكوين (٦:٢): "إنَّ أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حَسَنَاتٌ...".

- أشعياء (١٦:٦٣): "...أنت يا ربُّ أبونا وليُّنا منذ الأبد اسمك".

لم يُفسِر أحدٌ (**أبناء الله**) بغير (**المؤمنين بالله**) و(**أبونا**) بغير (**إلهنا**)، وأيضاً في عهد المسيح يسوع عليه السلام استُعملتْ كلمة (**ابن الله**) بالمعنى نفسه المتعارف عليه بين اليهود، فقال يسوع عليه السلام حسب:

- متّى (٩:٦) : "فَصلُّوا أنتم هكذا. أبانا الذي في السموات...".

- متّى (٤٨:٥): "...كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل".

- متّى (٩:٥) : "طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناءَ الله يُدعون".

- متّى (٩:٢٣): "ولا تدعوا لكم أباً **على الأرض** لأنَّ أباكم واحدٌ الذي في السموات".

كل استعمالات لفظ الأب مفهومة على أنها تعني (الإله)، وخاصة متّى (٩:٢٣) **لأنها ترفضُ وجود أي (أب) على الأرض**، ومنها يتّضحُ أن معنى (أب) **لا يمكن أن تُفهم إلا بمعنى** (إله)، حسب:

- متّى (٣٩:٢٦): "...وخرَّ على وجهه وكان يصلي قائلاً. يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس...".

وحتى لمّا قالها يسوع عليه السلام لم يكن يقصد سوى (يا الله).

وعندما تابعت القراءة لاحظت في إنجيل (يوحنا)، وأعمال الرسل، وخاصة في

(٢٧٩) بمعنى: إن طَبْعَ الله هو الخلق، وأنه لا يستطيع ألا يخلق، والخلق عنده دون إرادة منه.

رسائل (بولس) الأربع عشرة، أن القصد من (الابن) و(الأب) قد اقترن أحياناً بكلمة (الرب)، فقلت في نفسي: لعله يعني (الرب) كما في معنى (رب الأسرة) و(رب العشيرة)، **فيكون المقصود من الكلام أن يسوع عليه السلام المؤمن بالله الذي يُربي نفوسَنا ويرعاها.**

لكنني لم أستطع تفسير كيف أن الأناجيل :

١- جعلت من يسوع عليه السلام إلهاً يحاسب الناس يوم القيامة، كما في:

- يوحنا (٢٢:٥): "لأن الأب لا يُدينُ أحداً بل قد أعطَى الدينونة للابن".

٢- جعلَتْهُ يغفر للناس ذنوبهم، حسب:

- لوقا (٢٠:٥): "...أيها الإنسان مغفورةٌ لك خطاياك".

٣- جعلتْ طبيعةَ يسوع عليه السلام من طبيعة الله، حسب:

- يوحنا (١١:١٤): "صدقوني أني في الأب والأب فيَّ...".

- يوحنا (٢٩:١٦): "...لهذا نؤمن أنك من الله خرجت".

- رسالة بولس إلى أهل كولوسي (٩:٢): "فإنه فيه يَحُلُّ كُلُّ مِلءِ اللاهوت جسدياً".

- رسالة بولس إلى أهل كولوسي (١٩:١)[٣٨٠]: "لأنـه كـان **بمشيئةِ الله** أن الابن يملك في ذاته **طبيعة إلهية كاملة**".

وعندما خاطب يسوع عليه السلام اللهَ قال حسب:

- يوحنا (٢٢:١٧): "...ليكونوا واحداً كما أنّنا واحد"[٣٨١].

(٣٨٠) مأخوذة من العهد الجديد Today's English Edition الأمريكية/نيويورك، Third Edition "For it was by God's own decision that the Son has in himself the full nature off God".

(٣٨١) فسرها أتباع كنيسة الإسكندرية لاحقاً بمعنى الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للأب والابن، (السريان الأرثوذكس).

- يوحنا (٦:٣٨): "لأنّي قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني"[٢٨٢].

- يوحنا (١٠:٣٠): "أنا والأب واحد".

- بطرس في رسالته الثانية (١:١١): "لأنه هكذا يُقدَّمُ لكم بسعةٍ دُخُولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي".

- يوحنا (٣:١٦): "لأنه هكذا أحبَّ الله العالم حتى **بذل**[٢٨٣] **ابنه الوحيد** لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية".

- يوحنا في رسالته الأولى (٥:٧): "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد".

فيتوج (يوحنا) بهذا كلَّ الأفكار المتضاربة عن يسوع عليه السلام **مِنْ يسوع ابن الإنسان** (كما أحبَّ أن يصف نفسه دائماً[٢٨٤]) **إلى يسوع الإله المساوي للأب** في كل شيء، كما في:

- رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (٣:١٦): "...الله ظهر في الجسد.."[٢٨٥].

---

(٢٨٢) فَسَّرتها لاحقاً كنيسة روما، بأنه توجد مشيئتان مختلفتان، (الكاثوليك).

(٢٨٣) قدمه ذبيحة على الصليب، حسب رسالة بولس إلى أهل أفسس (٥:٢): "...وأسلم نفسه لأجلنا وذبيحة لله...".

(٢٨٤) متّى (٨:٢): "وأما ابن **الإنسان** فليس له أين يسند رأسه".

- متّى (١٠:٢٣): "... الحق أقول لكم لا تكملوا مدن إسرائيل حتى يأتي **ابن الإنسان**".

- متّى (١٢:٨): "فإن ابن **الإنسان** هو رب السبت أيضاً".

- ...وغيرها عشرات المرات سيرد بعضها لاحقاً!.

(٢٨٥) لاحقاً صارت حجة القائلين: إن **الله نفسه هو الذي تجسد** في يسوع عليه السلام.

- إنجيل يوحنا (١:١-١٤): "في البدء كان الكلمة... وكان الكلمةُ الله... والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا..."[٢٨٦].

- رسالة يوحنا الأولى (٤:٩): "...أنَّ الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به".

وتابعت قولي لـ(دايفيد) لقد أطلتُ عليكَ السؤالَ، وشرحت لك ما أقلقني، فماذا ترى؟

ابتسم وأجاب بكل هدوء الأعصاب الإنكليزية قائلاً: إن فيما يقلقك كثيراً من الصِّحة، ولقد احتارت عقولُ رهبانٍ وأساقفةٍ، واشتد النقاش بينهم في المجامع المختلفة ابتداءً بمجمع نيقية عام ٣٢٥ م وحتى مجامع الفاتيكان المعاصرة، وكثيراً ما اشتركت الأيدي بالنقاش، وتدخّلت السيوف لفرض الرأي، وإنه كما هو عندكم في الإسلام توجد خلافات أساسية و..!.

اضطررت لمقاطعته قائلاً: لحظة أرجوك،... أنا لا أدافع هنا عن الإسلام، فلا تبرر به أي تناقض آخر لديكم، ما أنا إلا باحث عن الحقيقة، وما زلت غير متعصب لأي دين.

فأعاد كلامه وقال: وكما في كل الأديان والفلسفات والأحزاب، ترى اختلافاتٍ حول مسألة معينة، تكون سبباً في انقسام الدين الواحد، والحزب الواحد إلى جماعتين، والجماعتين إلى أربع... وهكذا مع مرور الزمن ينسى الناس الأصل القديم، ويتعلقون بالفرع الجديد، فتتعمق خلافاتهم ويظن الأعضاء أنهم أعداء فيما بينهم، فانقسم المسيحيون عشرات الشُّعب وكذلك المسلمون، إن بُنُوَّة المسيح وطبيعته ومشيئته هي أهم أسباب الانقسام في المسيحية؟ وإليك ما أتذكره عن كل ذلك:

---

(٢٨٦) لاحقاً صارت من حجج القائلين: إن المسيح هو الله نفسه.

استُخدم تعبير (ابن) و(أب) في (الكتاب المقدس)، إما للدلالة على القرابة البيولوجية كقولنا (بني إسرائيل) و(أبناء نوح) و(سليمان بن داود)، واستخدم في معان رمزية مجازية، فقيل (يسوع ابن المحبة) و(قيل أبناء الشيطان)، وكانت الاستعمالات الرمزية شائعة بين اليهود خارج (الكتاب المقدس)، فقيل (الأب الروحي) لكل إنسان يستطيع أن يُكلمَ عُمْقَ النفس الإنسانية، ويغير دَفة توجيهها إلى ما يريد من خير أو شر، ونادى الصغيرُ بها معلمَه كدليل على الاحترام الزائد الذي يمثل احترام الابن لأبيه، ونادى الكبيرُ الصغيرَ (يا بُني)، كدليل على الرعاية والحنان والاعتناء، كما لو كان ابنه حقيقة، ونادى رب العشيرة أو البلدة شعبه بقوله (يا أبنائي)، ونادوه بكلمة (أبانا) خاصة إذا كانت له صفة دينية، واستعملت في (الكتاب المقدس) بشكل مشابه، ولكن المنسوب إليه كان أحياناً:

١ ـ اللهُ:

فقيل (ابن الله) لكل رجل صالح يتبع تعاليم الله، كما يتبع الابن تعاليم أبيه وأوامره كما في:

- يوحنا (١:٤٩): "أجاب نَثَنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله. أنت مَلِكُ إسرائيل".
- مرقس (١:١): "بَدْءُ إنجيل يسوع المسيح ابن الله".
- متّى (٦:١٤): "...يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي".

٢ ـ إنساناً رمزياً:

كما في:

- رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٤:١٧): "لذلك أرسلتُ إليكم تيموثاوس الذي هو ابني الحبيب".

فجاءت هنا بمعنى تلميذي المخلص.

٣ ـ إبليس:

كما في:

- رسالة يوحنا الأولى (٣:١٠): "بهذا أولاد الله ظاهرين وأولاد إبليس...".
- إنجيل يوحنا (٨:٤٤): "أنتم من أبٍ هو إبليسُ...".

نرى أن مستعملي اللغة في ذلك الوقت لم يقصدوا ولم يفهموا أكثر من المعنى الرمزي السائد للكلام[٢٨٧]، ولم يؤمن أحد أن الله:

أ ـ هو الأب البيولوجي لإسرائيل، لأنه جاء في:

- سفر الخروج (٤:٢٢)[٢٨٨]: "فتقول لفرعون هكذا يقول الرَّبُّ. إسرائيل ابني البكر"[٢٨٩].

ب ـ كثيرٌ أولاده لأنه جاء في:

- سفر التثنية (١٤:١): "أنتم أولاد الرب إلهكم...".

لو كان المقصود هو المعنى الحرفي المنطوق للكلام، فلا يمكن تفسير التناقضات التالية كما جاءت في:

- سفر إرميا (٣١:٧-٩): "لأنه هكذا قال الرب... لأني صِرتُ لإسرائيل أباً وأفرايم هو بكري...". **(أي إسرائيل ابن الله، وأفرايم بكر الله).**

---

(٢٨٧) بعضهم داخله الشك فسأل المسيح، مثل (فيليبس)، و(بطرس)، وغيرهما أيضاً..، فقد ورد في إنجيل الحواري (برنابا) -غير المعترف به من الكنائس الحالية- (١٧:١٩-٢٠): "أجاب فيليبس: ماذا تقول يا سيد حقاً... لقد كُتِبَ في سفر أشعيا أنَّ الله أبونا... فكيف لا يكون له بنُون؟. أجاب يسوع أنه في **الأنبياء مكتوب أمثالٌ كثيرة لا يجب أن تأخذها بالحرف، بل بالمعنى...**".
حصل هذا الشك بسبب ما كانوا يرونه من معجزات لها علاقة بولادته الخارقة، وبشفاء أصحاب العلل، وما له علاقة بالخلق وبإعادة الحياة، فصَعُبَ عليهم تصور ذلك من بشر مثلهم، والشكُ لا يعيب أحداً ما دام أن صاحبه يسأل ويبحثُ عن جواب شاف لشكه.

(٢٨٨) أرسل الله موسى إلى فرعون، وأمره أن يقول ما ورد أعلاه.

(٢٨٩) موسى ابن رجل من بيت لاوي، [لاوي هو أحد أبناء يعقوب (إسرائيل) الاثنا عشر]، ويعقوب بن إسحاق، وإسحاق بن إبراهيم.

- مع رسالة يوحنا الأولى (٤:٩): "بهذا أُظهِرَت محبَّة الله فينا أنَّ الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به".

(أي يسوع عليه السلام الابن الوحيد لله).

- ومع سفر التكوين (٦:٢): "أنَّ أبناء الله رأوا بنات الناس...".

(أي لله أبناء وبنات كثيرون)!.

- ومع ما جاء على لسان داود في مزمور (٢:٧): "... قال لي أنت ابني، أنا اليوم ولدتك".

(أي داود ابن الله المولود).

- ومع ما جاء عن النبي سليمان بن داود في أخبار الأيام الأولى (٢٢:١٠): "هو يبني بيتاً لاسمي وهو يكون لي ابناً وأنا له أب...".

(أي سليمان ابن الله).

- ومع يوحنا (٣:١٨): "... لأنَّه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد".

(أي يسوع عليه السلام ابن الله الوحيد).

فأي بكرٍ وأي وحيدٍ وأي ابن حقيقي وأي أبناء لله نصدق؟!! التناقض واضح ولا حاجة إلى مزيد من الشرح.

فلو وضعنا في أذهاننا معنى (ابن الله) المقصود، وهو (المؤمن بالله)، كما ورد في:

- يوحنا (١:١٢-١٣): "وأما كل الذين قَبِلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا **أولاد الله أي المؤمنون باسمه**[٢٩٠]، الذين ولدوا ليس من دمٍ ولا من مشيئة جسد ولا مشيئة رجل بل من الله".

---

(٢٩٠) لاحظ أن الله يأبى إلا أن يُبقي بعض الأدلة من أفواههم، تكشف وتناقض ما يحرفونه من كلام عيسى المسيح، فلم يحرف المغرضون المعنى الحقيقي لـ(أولاد الله).

لأصبح المعنى واضحاً ومقبولاً، ولو بدلنا أيضاً كلمة (أبي) بكلمة (إلهي) لما صَعُب علينا حينذاك فهم جُمَلٍ منها:

- متّى (٥:٤٥): "لكي تكونوا أبناء **أبيكم** الذي في السموات".

فنفهمها لكي تكونوا مؤمنين **بإلهكم** الذي في السموات.

- ومتّى(٥:٤٨): "كونوا أنتم كاملين كما أنَّ **أباكم** (**أي إلهكم**) الذي في السموات هو كامل".

- ومتّى (٦:٩): "... فصلُّوا أنتم هكذا، **أبانا** (**أي إلهنا**) الذي في السموات...".

- ويوحنا (١١:٤١): "... ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال **أيها الأب** (**أي يا الله**) أشكرك لأنك سمعت لي".

- ومتّى (٦:١٤): "**... يغفر لكم أبوكم** (**أي إلهكم**) السماوي".

وغير ذلك كثيرٌ جداً، والدليل على ما أقول هو من (الكتابِ المقدس) نفسه، الذي يشير إلى أن **معنى أبناء الله لا يمكن أن يعني إلا لقباً للمؤمنين بالله**، كما في:

- رسالة يوحنا الأولى (٣:١-٢): "انظروا أيَّة محبَّةٍ أعطانا **الأب** (تعني الله) حتى نُدعى **أولادَ** (**أي أحباءَ**) الله... أيها الأحباء الآن نحن **أولاد الله** (**أي نحن المؤمنون حقاً بالله والمقربون إليه**)".

- وفي رسالة يوحنا الأولى (٤:٧): "...وكلُّ من يحبُّ (المؤمنين) **فقد وُلدَ من الله...**". (**أي دخل في رعاية الله وأصبح من المقربين**).

- وفي قوله أيضاً في (٥:١): "كلُّ من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِدَ من الله وكل **من يحب الوالد يحب المولود**" (**أي سيَعُدُّه الله كما يعد الأبُ مولودَه**).

– وفي متّى (٥:٩): "طوبى لصانعي السلام. لأنهم **أبناء الله –أي المؤمنون بالله–** يُدعون".

– وفي متّى (٢٣:٩): "ولا تدعوا لكم **أباً (أي إلهاً)** على الأرض لأن **أباكم (أي إلهكم)** واحد الذي في السموات".

من كل هذا ترى أن تعبير (ابن الله) ومشتقاته، ما هي إلا لقب يُمنح لكل مؤمن بالله ومتّبعٍ لأوامره.

هل لاحظت ما جاء في:

– إنجيل يوحنا (٣:١٧): "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك **أنت الإله الحقيقي وحدَكَ ويسوع المسيح الذي أرسلته**".

إنَّ هذا بكل بساطة يعني **أنه لا إله إلا الله ويسوع المسيح رسول الله**، فلماذا هذا التحريف الوثني لتعاليم المسيح.

ألا يكفي ما جاء في:

– إرميا (١:٣١): "في ذلك الزمان يقول الرب أكون **إلهاً لكلِ عشائر** إسرائيل وهم يكونون لي شعباً".

ليُثبِتَ أن الله هو إله يسوع عليه السلام، الذي ينتمي إلى شعب إسرائيل، وليس أباً له.

فقلت: إن الذي قلتَه يطابق ما قاله آرثر فندلاي: "لا يعتبر عيسى إلهاً أو مخلصاً (بمعنى تخليص البشر من خطيئة آدم)، إنما هو رسول من الله...".

ـ البحث الثاني: المسيحية اليسوعية، والمسيحية البولسية

أولاً: (بولس) وتحريف المسيحية اليسوعية

قلت لـ(دايفيد): ولكن كيف تَحوَّل هذا المعنى إلى ما يؤمن به غالبية المسيحيين اليوم، بأن يسوع عليه السلام هو ابن الله ومن طبيعته اللاهوتية؟

فقال: إن الإجابة الصريحة على هذا السؤال فيها إحراج كبير لي، لأني أنتمي إلى إحدى هذه الفرق، ولكني أعُدُّ نفسي أكثر تحرراً، لأني رفضت كثيراً من الأفكار التي نظرتُ إليها على أنها مدسوسة على المسيحية بشكل متعمد، بغرض تحويلها عن الأُصول اليسوعية، لذلك توقفت عن التحري، خوفاً من التحول من الدين إلى اللادين، وأحبُ أن أؤكد لك أن كثيرين جداً من المسيحيين الآن يرفضون فكرة البنوّة الحقيقية ليسوع المسيح.

فقلت له: لقد شوقتني لسماع كلامك، إذ أرى فيك بركاناً يثور، وكم أودُ حضور ساعة الانفجار، لأنها ستكون الفرصة الوحيدة لي لمعرفة الحقيقة من الشخص العالِمِ المتخصص، ودون تستّر، وهذا ما أبحث عنه، وسوف تجدني آذاناً صاغية لك.

أخذ (دايفيد) نفساً عميقاً عبر (سيجاره) الخانق ورفع رأسه للأعلى، وأخذ يتابع خروج الدخان البطيء من فمه، فبدا لي وكأنه يسترجع ملفات قديمة من عميق ذاكرته، وقال: إن ما سأقوله لك الآن كنت قرأتُه في بعض الكتب، وكنت من أشد المتحمسين لنقده، وها أنا الآن أدافع عنه، لقد علمني المدرِّسون في المدرسة الكنسية كيف أُجيب عن مثل هذا النقد، وليتَهم ما علموني، لأني وجدت أنهم لم يكونوا نزيهين في النقد، فكان همهم الأكبر هو كسب القضية ولو كان المُتَّهمُ مذنباً، لاحظتُ أنهم لا يبحثون عن الحقيقة لذاتها، بل لكسب جولةِ النقاشِ، ربما لو تركوني أُجابه النقد بطريقتي لكان أفضل لي ولهم، فما

كنت لأطّلع على خبايا كانت غائبة عني، وما كنت توقفت عن دراستي الكَنَسية.

قلت له: ماذا تعني بهذا؟ إنك تقول كلاماً خطيراً لا يصح أن تتّهم رجالاً يقومون على خدمة الله.

كأن (دايفيد) لم يسمع ما قلته له، وبدا لي وكأنه دخل مرحلةَ صفاء مع ذاته، كما لو كان على كرسي الاعتراف أمام يسوع المسيح عليه السلام نفسِه، وتابع قائلاً: المشكلة تبدأ بعدم تقبل اليهودِ يسوعَ على أنه المسيح المنتظر، بغض النظر عن الأسباب، وعلى الرغم من وجود البراهين المصاحبة له، والنبوءات الموجودة في العهد القديم، فقد حاربوا تعاليمه، وحاولوا قتله عدة مرات، إلى أن نجحوا بإصدار الحكم عليه بالصلب من قبل الحاكم الروماني بيلاطيس، **(فَصُلِبَ)** و**(مات)** و**(قام من بين الأموات)**، وذلك حسب ما جاء في:

- إنجيل مرقس (٢٥:١٥): "وكانت الساعة الثالثة فصلبوه".
- إنجيل مرقس (٣٧:١٥): "فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح".
- إنجيل متّى (٢١:١٦): "...ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم".

لقد وعد يسوع عليه السلام تلاميذه أنه سيعود قبل أن يفنى بعض الحاضرين منهم، وذلك حسب:

- إنجيل متّى (٢٨:١٦): "الحقَّ أقول لكم إن من القيام هَهنا لا يذوقون الموت حتى يروا **ابن الإنسان** آتياً في ملكوته".

وكان الجميع في انتظار العودة، فلم يجدوا سبباً ملحاً لتدوين تعاليم يسوع المسيح ابن الإنسان، ما دام أنه سيعود وسيستمر حكمه إلى الأبد، حسب نبوءة في العهد القديم حسب صموئيل الثاني (١٣-١٢:٧): "... **أُقيمُ بَعدكَ نَسلكَ** الذي

يَخرجُ مِنْ أحشائكَ وأثبّتُ مَملكتَه. هـو يَـبني بَيتاً لاسمي وأنا أثبّتُ كرسي مَملكتِهِ إلى الأَبد".

خلال تلك الفترة، حاول اليهود جاهدين القضاء على كل من آمن بأن يسوع عليه السلام هو المسيح المنتظر، فقتلوا كثيرين، وسجنوا كثيرين دون جدوى، وكان هناك شاب اسمه شاؤل (Saul) يقوم بمثل هذه الأعمال حسب:

- أعمال الرسل (٣:٨): "أما شاؤل فكان يسطو على الكنيسة، وهو يدخل البيوت ويجرُّ رجالاً ونساءً ويسلمهم إلى السجن".
- كان شاؤل يهودياً فريسياً[٢٩١] حسب:
- رسالة بولس لأهل روميه (١:١١): "...لأنّي أنا إسرائيليٌّ من نسل إبراهيم من سبط بنيامين".
- أعمال الرسل (٦:٢٣): "ولمّا علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون[٢٩٢] والآخر فريسيون صرخ في المجمع أيها الرجال الإخوة أنا فريسيٌّ ابن فريسيٍّ... ولما قال هذا حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وانشقت الجماعة".
- كان متعصباً جداً ليهوديته حسب:
- رسالته إلى أهل غلاطيّة (١٤:١): "وكنت أتقدَّم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت **أوْفَرَ غَيرَةً في تقليدات آبائي**".
- كان شاؤل ذكياً جداً، ونشيطاً جداً، دائم الحركة بارع الحيلة، قوي الفكر، يدير الأمور كما يريد بدهاء ألمعي، وكان خطيباً مفوهاً، واسع الاطلاع على

---

(٢٩١) الفريسيون: هم اليهود الذين يؤمنون بالناموس ويطبقونه بشدة.

(٢٩٢) الصدوقيون: هم اليهود الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالروح القدس ولا بالملائكة.

الفلسفات الإغريقية، والديانات الآسيوية في الهند والصين، حيث كانت دراسته في بداية حياته في موطن أبيه الروماني[٢٩٣]، ولقد عبَّر عن ذكائه في:

- رسالته لأهل كورنثوس الثانية (١١:١٦): "أقول أيضاً لا يظن أحدٌ أني غبي...".

بهذه الصفات استطاع أن يجعل من نفسه محور الدعاة، فتيسر له التحكُّم بدفة السفينة المسيحية، والإبحار بها حسب خططه.

إن سيرة حياة شاؤل ونتائج أعماله، تدل وتؤكد على أن **اعتناقه المسيحية، ما كان إلا ضمن خطة مدروسة من قبل رجالِ المعبدِ اليهودي، أو أنه عزم وخطط منفرداً، وضحى بنفسه صادقاً في سبيل يهوديته ونقاء شعبه،** بهدف القضاء على المسيحية الحديثة من الداخل، بعد العجز عن ذلك بالقوة والاضطهاد.

قلت لـ(دايفيد): ولكن لماذا أرادوا القضاء على هذا الدين الذي هو أصلاً مكملٌ لدينهم؟

فأجاب: لأنهم ولأسباب عديدة لم يقتنعوا، أولم يشأ أحبارهم أن يُقِروا بأن يسوع عليه السلام هو المسيح المنتظر، وسوف يكون لنا مع هذا وقفة مفصَّلة.

وتابع قائلاً: نظراً إلى موقف شاؤل العدائي الشديد من المسيحيين، لذا كان من المستحسن دخوله المسيحية بحادثة متميزة، يكون عليها شهود من المضطهدين أنفسهم، يستفيدون منها وينشرونها، فيسهل تصديق الانقلاب غير المتوقع في إيمانه، فكانت الحادثة أن ادعى أنه تلقى دعوة (إلهية يسوعية)، حسب:

- غلاطية (١:١٦): "أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشِّر به بين الأمم...".

والحادثة وردت حسب:

---

(٢٩٣) أعمال الرسل (٢٢:٢٥-٢٩): "فلما مدّوه للسياط قال بولس لقائد المئة الواقف أيجوز أن تجلدوا إنساناً رومانياً...".

- أعمال الرسل (٩:١-٩): "أما شاؤل فكان لم يزل ينفث تهدُّدا وقتلا على تلاميذ الرَّبِّ، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجَد أُناساً في الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أُورشليم، وفي ذهابه حدث أنّه اقترب من دمشق فبغتةً أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤل، شاؤل لم تضطهدني. فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، صعْبٌ عليك أن ترفس مناخس[٢٩٤]. فقال: وهو مرتعدٌ ومتحير يا ربُّ ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل، وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين **يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً**، فنهض شاؤل عن الأرض، وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق، وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب".

قلت لـ(دايفيد): لماذا تظن أنه غير صادق وأن الحادثة مختلقة؟

فقال بعد أن زالت عنه رهبةُ الدخول في الحديث: لقد قلتُ لك إن من يتابع مسيرة شاؤل، بعد هذه الحادثة، يعلم أنها لا بُدَّ أن تكون مختلقة، كما أنه حسب:

- أعمال الرسل (٢٢:٩) "...والذين كانوا معي **نظروا النور** وارتعبوا ولكنهم **لم يسمعوا صوت الذي كلَّمني**".

لن أناقش بتركيز مخالفة هذا لما قاله شاؤل عن وصف الحادثة هذه، ولكني أتساءل: كيف علم أنهم نظروا ولم يسمعوا وهو في هذا اللقاء الإلهي برهبته التي سقط بعدها خائر القوى وفاقد البصر؟

ألم يؤثر هذا النور الإلهي في غيره ممن نظروا ولم يسمعوا؟

إن قالوا: النور كان في القلب.

---

(٢٩٤) أي: تضرب برجلك المهماز المدبب. "It is hard to kick against the goads."

نقول: ولماذا فقد بولس البصرَ إذن؟ وكيف نظر من كان معه النور؟

وأضيف أيضاً أن التناقض بين "...**يسمعون الصوت ولا ينظرون...**"، **وبين** "...**نظروا ولم يسمعوا...**" ليس هو الدليل الأساسي، لأن اختلاق تفسير له ليس بصعب، ولكن الدليل القاطع على عدم صحة هذه الحادثة، هو ما جاء بعد الحادثة من أقوال (بولس) وأعماله، وحتى مقتله بقطع رأسه في عام ٦٧م -مصادر أخرى عام ٦٢م- من قِبَلِ (نيرون) الإمبراطور، الذي أحرق روما بتحريض من اليهود، واتَّهم المسيحيين.

قلت: ألا يمكن أن يكون موتُهُ بهذا الشكل دليلاً على صدقه، وبالتالي صِدْق حادثة ظهور يسوع عليه السلام له؟

فأجاب: إن موته بالفعل دليل على صِدقِهِ، ولكن ليس صدقه بحادثة الظهور، إنما هو صدق الإيمان بيهوديته، وصِدْقِ العملِ على بقائها نقية من اليهود الذين آمنوا بالمسيح، إنه طَلَبُ الشهادةِ في سبيل ما آمن به، ومع ذلك فهل تظن أن **نيرون الوثني**، كان يصدقه أو يعفو عنه إذا قال له (بولس) إنه يفعل هذا عمداً في سبيل اليهودية؟

كما أن (بولس) أذكى من أن يَفقد كل خططه ونجاحاته ويفقد أتباعه لإنقاذ حياته، وهو يَعدُّ نفسه شهيداً، إني أرى أنه من الأفضل أن نتابع حوادث حصلتْ، من أن ندخل بمجالات التخمين والتمني.

لو كان شاؤل صادقاً في مسيحيته، لكان أول ما فعله على الأقل هو تلقي تعاليم المسيح من تلاميذ المسيح ذاتهم، لكن شاؤل الذي أصبح اسمه (بولس) حسب:

- أعمال الرسل (٩:١٣): "أما شاؤل الذي هو بولس...".

نراه يقول حسب:

- غلاطية (١:١٦-١٩): "أن يعلن -اللهُ- ابنَه فيَّ لأبشِّر به الأمم، للوقت لم

أستشر لحماً ودماً. ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضاً إلى دمشق، ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف بـ(بطرس) فمكثت عنده خمسة عشر يوماً. ولكنني لم أر غيره من الرسل إلا يعقوبَ أخا الرب".

- غلاطية (١:٢): "ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم مع برنابا...".

من هذا ترى أنه بعد حادثة الظهور المزعومة، ذهب لمدة ثلاث سنوات، إلى مكان بعيد عن تلاميذ المسيح، ليدعو إلى تعاليم كان يراها من الجانب المناهض، ثم التقى في أورشليم بـ(بطرس)، الذي هو راعي التلاميذ و(يعقوب أخو الرب)، بعد يسوع عليه السلام، حسب:

- يوحنا (٢١:١٥-١٧): "...قال له (...لبطرس...) ارعَ خرافي... ارعَ غنمي... ارعَ غنمي...".

- متّى (١٦:١٩): "**وأعطيك** (مخاطباً بطرس) **مفاتيح ملكوت السموات**، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحلهُ على الأرض يكون محلولاً في السموات".

ويبقى عنده مدة قصيرة ثم يغيب أربعة عشر عاماً يتنقل بين الأمم، داعياً إلى (تعاليم المسيح)، **الذي لم يلتق به ولا مرة**.

ونتساءل أين هي هذه التعاليم؟ أين هو إنجيل يسوع عليه السلام الذي كان يحمله ويدعو إليه؟ من أين استقى (بولس) هذه التعاليم؟ إذا كان أول ما فعله (بولس) هو مخالفة يسوع عليه السلام بأن ذهب يبشر الأمم، حسب:

- رسالة بولس إلى أهل غلاطية (١:١٦): "...لأُبَشِّر به بين الأمم...".

بينما قال يسوع عليه السلام نفسُه حسب:

- متّى (٢٤:١٥) "فأجاب -يسوع عليه السلام- وقال لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة".

فقلت له: لكنك تعلم ما جاء في:

- سفر الأعمال (٤٧:١٣) بناءً على كلام بولس: "لأنْ هكذا أوصانا الرب. وقد أقمتك نوراً للأمم لتكون أنت خلاصاً إلى أقصى الأرض".

- متّى (١٩:٢٨): "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم...".

- وفي لوقا (٤٧:٢٤): "وأن يُكرَز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم".

- وفي مرقس (١٥:١٦): "وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمعْ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها".

فقال: نعم قرأت هذا، ولاحظتُ أن هذه الأقوال نُسبت إلى يسوع عليه السلام، ووردت في نهاية الأناجيل، كما لاحظتُ أن (يوحنا) لم يذكر أي شيء عن دعوة الأمم كافة، أليس غريباً أن يذكرها (لوقا) و(متّى) بعد القيامة من الأموات، بينما طوال أيام دعوته كان يسوع عليه السلام:

أ – يركز على بني إسرائيل ابتداء من (خراف بيت إسرائيل الضالة)، حسب:

- متّى (٢٤:١٥): "لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة".

إلى دعوته بعدم رمي الدرر للخنازير، حسب:

- متّى (٦:٧): "لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا درركم قُدّام الخنازير...".

ب – بالإضافة إلى قوله للمرأة الكنعانية التي طلبت منه شفاء ابنها، حسب:

- متّى (٢٦:١٥): "...وقال (أي يسوع عليه السلام) ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب".

واستطردَ قائلاً لعلك قرأت ما جاء في:

- متّى (١٠:٥-٧): "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً. **إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري[٢٩٥] إلى خراف بيت إسرائيل الضالة**".

- في أعمال الرسل (٣٦:١٠): "الكلمة التي أرسلها إلى بني إسرائيل يُبشّر بالسلام بيسوع المسيح...".فهو يخص بني إسرائيل بالتبشير.

- في متّى (١٧:٥): "لا تظنُّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأُكمّل".

وهنا نتساءل هل كان الناموس لكل الأمم، أم لبني إسرائيل فقط؟

فقلت له: من الغريب أنك تُنكر على (بولس) أنه خالف يسوع عليه السلام ودعا كل الأمم؟ فلو لم يفعل ذلك لما كان الدين المسيحي منتشراً في كل العالم الآن، ولاقتصر على جزء من بني إسرائيل، أو لربما كان قُضي عليه في مهده.

فأطلق (دايفيد) زفرة عميقة مع دخان سيجاره في وجهي، كاد أن يُغمى عليّ، وقال: عن أي دين تتكلم؟ وهل تظن أن ما هو الآن في العالم، هو الدين الذي دعا إليه يسوع عليه السلام؟ واستطرد قائلاً: طبعاً لا، إنها (المسيحية البولُسية) التي أنشأها (بولس) على أنقاض المسيحية اليسوعية.

فقلت له: وهل هناك مسيحية يسوعية، ومسيحية بولُسية؟

فأجاب: طبعاً، طبعاً، إن يسوع المسيح لم يغيّر من أساسيات الدين اليهودي، حتى إنه ما كان يعمل يوم السبت غير شفاء بعض المرضى والأعمال الخيرية، إن أهم ما حاربه يسوع عليه السلام في اليهود هو ماديتهم المتطرفة، التي كانت وراء ترددهم بين الكفر والإيمان، فابتعدوا عن الروحانيات والمُثل العليا، وأرهقوا موسى

(٢٩٥) تعني: بالأحرى أو بدلاً عن ذلك. (Instead of) .في بعض الطبعات وردت Rather

ويسوع عليهما السلام بكثرة طلباتهم للمعجزات، وأنكر بعضهم الروح لأنه لم يستطع رؤيتها، وأنكر آخرون الحساب واليوم الآخر والملائكة (الصَّدوقيون).

لذا كان من الحكمة والرحمة الإلهية، أن يرسل رسولاً يقوِّم ما اعوج من أخلاق الشعب اليهودي، ويُكمِّل لهم الناحية الروحية، فكان يسوع المسيح خارقاً بولادته كل القوانين المادية، التي تقوم على الأسباب والمسبَّبات التي يتعامل بها اليهود، فكانت صدمة لهم، فكأنما يقول الله بهذا: إني أنا خالق القوانين، وأنا الذي أخرقها، وهو إعلانٌ رائعٌ لعالَم الروح بين قوم غلبت عليهم المادية، وسادتهم الآراء الفلسفية التي أنكرت الخَلق بالإرادة ونسبته إلى العلةِ، حتى إن أشهر معجزات يسوع عليه السلام كانت من نوع له علاقة بالروحانيات، فإحياء الموتى إثبات لليهود أن الجثة الهامدة أمامهم قد غاب عنها شيء غير مادي لا يرونه.

إن قال قائل: إن الروح لم تخرج من الجسد، بل كانت في حالة إغماء نادرة، أفاق صاحبها على يد المسيح.

فنقول: إنه كرر عملية إحياء الموتى، ولا مجال لتعدد اللقاءات بين وجود المسيح والصحو من الإغماء!. كما أنه قد عمل من الطين شكلَ الطيرِ، ونفخ فيه فصار حياً[296]، وهذا تجلٍ أعلى يُظهر الله فيه قدرته، إذ إنه لم يحصر ضرورة الخلق بذاته، بل يؤكد أن لَديه القدرة على جعل غيره يَخلُق بإذنه، بدليل صلاة يسوع عليه السلام ومناجاته ربَّهُ ورفْعِ نظره إلى السماء، كما في:

- يوحنا (١١:٤١-٤٢): "فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي".

إن الدين اليهودي دين توحيد، على الرغم من كثرة سقطات الشعب

(٢٩٦) مأخوذة من القرآن الكريم سورة المائدة (٥:١١٠): ﴿...وإذ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كهيئةِ الطَّيرِ بإذني فتنفخُ فيها فتكونُ طيراً بإذني...﴾.

اليهودي؛ ابتداء من عبادة العجل أيام موسى، إلى عبادة الأصنام وبعض آلهة الشعوب الأخرى... لكنهم كانوا يعودون إلى الصراط المستقيم بمساعدة نبي من الله، ولمثل هذا أُرسِلَ يسوع عليه السلام أيضاً، فهو لم يَنْسب لنفسه مشاركةَ الله في لاهوته، بل كان يُصِرُّ على أنه ابن الإنسان في عشرات الروايات عنه مثل:

- مَتّى (١٢:٣٢): "من قال كلمة على **ابن الإنسان** (أي المسيح) يُغفرُ له، وأما من قال على روح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي".

- مَتّى (٢٠:٢٨): "كما أن **ابن الإنسان** لم يأتِ ليُخدمَ بل ليَخدِمَ...".

- مرقس (١٤:٤١): "...قد أتت الساعة، هو ذا **ابن الإنسان** يُسَلَّمُ إلى أيدي الخُطَاةِ".

- لوقا (٩:٥٦): "لأن **ابن الإنسان** لم يأت ليُهلِكَ أنفسَ الناس بل ليُخلِّص..".

- لوقا (١٧:٢٢-٢٦): "وقال للتلاميذ ستأتي أيام فيها تشتهون أن تروا يوماً واحداً من أيام **ابن الإنسان** ولا ترون... كذلك أيضاً يكون **ابن الإنسان** في يومه... كذلك يكون أيضاً في أيام **ابن الإنسان**".

- لوقا (٢٤:١٩): "فقال لهما وما هي (يعني الأيام) فقالا المُختَصَّة بيسوع الناصري الذي كان **إنساناً** نبيًّا مقتدراً بالفعل والقول...".

- يوحنا (١:٥١): "...الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على **ابن الإنسان**".

- يوحنا (٥:٢٧): "وأعطاه سلطاناً أن يَدِينَ لأنه **ابن الإنسان**".

.... وغير ذلك كثير جداً.

إنه مدعاةٌ للشك ألا يَرِدَ على لسان (بولس) كلمة (ابن الإنسان) ولا مرة واحدة في رسائله!.

وإنه مدعاةٌ للريبة أن تخفي الأناجيل كلام المسيح في المهد[٢٩٧]، الذي كان الأساس في إيمان كثيرين به، وتبرئة لأمه البتول الطاهرة، الكلام الذي دلَّ على عبوديته لله، إذ قال: ﴿إني عَبدُ اللهِ آتاني الكِتَابَ وجَعَلَني نَبيّاً[٢٩٨]﴾..

أما المسيحية البولُسية فلقد بدأت شبه يسوعية، وأخذت تتحول بالتدريج البطيء والذكي، والمخطط له، إلى دين من نوع جديد!!. قام على بقايا (المسيحية اليسوعية)، واستمر اكتمال هذا التحول عدة مئات من السنين حتى تمكنت بذور أفكار (بولس) التي زرعها، من الانتصار في القرن الثالث بعد الميلاد، بعدها استقرت المسيحية على ما هي عليه الآن بمختلف شيعها وفرقها وكنائسها.

فقلت لـ(دايفيد): وكيف ذلك؟

فأجاب إن هذا الكيف يحتاج إلى جلسة خاصة خارج أوقات العمل، كما أني أحتاج إلى فترة من الوقت لاستعادة معلوماتي القديمة، فتواعدنا لنلتقي مساءَ الجمعة في أحد الفنادق الهادئة.

في اليوم الموعود كان اشتياقي بالغاً لمتابعة الحديث فذهبت مبكراً، وكانت دهشتي كبيرة إذ رأيت (دايفيد) جالساً يعيد النظر في بعض أوراق كانت لديه، وكأنه يراجع معلوماته في اللحظات الأخيرة التي تسبق الامتحان.

ابتسم قائلاً: لقد أيقظتَ عندي الآلام القديمة، وأنا أُلملِم ذكرياتي عن تاريخ (بولس) وعلاقته بالمسيحية، أنت تعلم أن اسمه قد ورد سادساً في لائحة (المئة الأوائل) في التاريخ لـ(مايكل هارت) والتي تَصدَّرها نبيُّ الإسلام محمد.

وتابع قائلاً: إن (بولس) حقيقة يستحق هذه المكانة، لأنه ضحى بكل عمره في سبيل يهوديته ونقاء شعب إسرائيل، وتحريف تعاليم يسوع المسيح، ونجح في

(٢٩٧) من القرآن الكريم، من سورة مريم (١١٠:٥): ﴿...تُكلِّمُ النَّاسَ في المهدِ وكهلاً...﴾.
(٢٩٨) سورة مريم (٢٩:١٩).

ذلك، لقد استطاع تقمص شخصية المدافع عن تعاليمه على كل المستويات، إذ كان لا يدع فرصة تساعده لإضافة خطوةٍ على طريق تحويل المسيحية عن المسار الصحيح إلا اغتنمها، ونجحت أفكاره في جعل المسيحيين الحاليين أكبر طائفة من حيث العدد في العالم، وسوف أبدأ معك قصة حياته، وخطته البالغة الدقةِ، وتأثيره في المسيحية من البداية.

إنه بعد أن أجاد تمثيل دوره في حادثة ظهور المسيح له...

استأذنت (دايفيد) أن أقاطعه في أول الكلام، لضرورة السؤال، فأشار بالموافقة، فقلت بكل استغراب: هل يعني ذلك أنه على الرغم من ورود الحادثة بالتفصيل مرتين في العهد الجديد من (الكتاب المقدس)، حسب أعمال الرسل (٩:١-٩) وحسب أعمال الرسل (٢٢:٦-٩)، فإنك لا تعترف بها؟ فكيف تقولون إذن: إن (الكتاب المقدس) هو كلام الرب ثم لا تصدقون ما فيه؟

فقال: أي رب منهم؟ هل هو (متّى) أم (مرقس) أم (لوقا) أم (يوحنا) أم مؤلفو الرسائل والأعمال ومنهم (بولس) نفسه؟؟.

إني طبعاً لا أنكر وجود بعض الأصول الإلهية في (الكتاب المقدس)، ولكن الكلام والتأليف هو للمؤلفين أنفسهم مما شاهدوا وسمعوا أو نقلوا أو ظنوا أو أضافوا سواء كان ذلك عن حسن نيَّة أم عن سوء نيَّة.

يكفيك دليلاً على عدم صحة اتصاله مع يسوع المسيح ولا حتى برؤيا الليل، حسب ما كان يقوله دائماً من أن يسوع عليه السلام قال له حسب:

- أعمال الرسل (٩:١٨): "فقال الرب لبولس برؤيا في الليل لا تخف بل تكلم ولا تسكت، لأني أنا معك فلا يقع بك أحدٌ ليؤذيك...".

إذا علمتَ عن موته المأساوي حيث قُطِعَ رأسه، بأمر من (نيرون) في روما عام ٦٧م.

ويكفيك دليلاً على التدخل البشري في التأليف، افتتاحية إنجيل (لوقا) التي تقول:

- لوقا (١:١-٣): "إذا كان كثيرون قد أخذوا **بتأليف قصة في** الأمور المتيقنة عندنا... رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس...".

ولقد قال بهذا كبار المحققين المسيحيين، ومنهم آباء كنيسة، وذكرت في المجامع الفاتيكانية الأخيرة خاصة مجمع الفاتيكان الثاني ١٩٦٢-١٩٦٥م، حيث قالت الوثيقة المسكونية الرابعة: "...غير أن هذه الكتب تحتوي على نقائص وأباطيل، ومع ذلك ففيها شهادة من تعليم إلهي".

لو طالعتَ الترجمات الحديثة لكنتَ لاحظت أن صيغ التثليث إما حُذِفت أو وضعت بين قوسين دليلاً على الشك فيها.

إذا أردت أن تعلم أكثر عن (الكتاب المقدس) ومؤلفيه، وكيف أن الفاتيكان في العصر الحديث أخذ ينظر بشكل مختلف إلى (الكتاب المقدس)، فسوف أخصص لك جلسة خاصة لذلك، وأرجو منك ألا تقاطعني بعد الآن.

فشعرت بالحرج، وقررت تحويل المناقشة -قدر الإمكان- إلى محاضرة لتلقي المعلومات، وتدوين الملاحظات والاستفسار في نهاية الجلسة.

وتابع قائلاً: بعد هذه الحادثة ابتدأ (بولس) الدعوةَ إلى المسيحية، وخصص نفسه للدعوة إلى غير بني إسرائيل بحجة أنهم قاوموه في كورنثوس فقال لهم حسب:

- أعمال الرسل (١٨:٦): "وإذ كانوا يقاومون ويجدّفون[٢٩٩] نفض ثيابه

(٢٩٩) يفهم من الكلام أنه يقصد اليهود الذين آمنوا بالمسيح، وأنهم كانوا يقاومون أفكار بولس التثليثية الوثنية، بدليل ما ورد في أعمال الرسل (٢١:٢١): "وقد أخبروا عنك -عن بولس- أنك تُعلم جميع اليهود الذين بين الأمم (اليهود الذين دخلوا المسيحية) الارتداد عن موسى **قائلاً أنْ لا يختنوا أولادهم** ولا يسلكوا حسب العوائد".

وقال لهم دمكم على رؤوسكم، أنا بريءٌ، **من الآن أذهبُ إلى الأمم**[٣٠٠]".

بينما حسب:

- أعمال الرسل (٢٢:٢١): "فقال لي -يسوع عليه السلام عند الظهور له- **اذهب فإنّي سأُرسلك إلى الأمم بعيداً**".

وهنا يحق لنا أن نتساءل:

- **هل أمْرُ دعوة الأمم صادرٌ من يسوع عليه السلام**، ثم عصاه (بولس) وأخذ يدعو بني إسرائيل حتى نفد صبره، فقرر إطاعة أمر يسوع عليه السلام بالذهاب إلى الأمم لدعوتهم؟

- أمْ أن **أمر الدعوة صادر من (بولس) نفسه** بعد أن نفد صبره من دعوة بني إسرائيل، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا نسب الأمر إلى يسوع عليه السلام ثم عصاه؟

لقد استطاع (بولس) بذكائه، وقوة شخصيته، وقدرته الخطابية، ونشاطه الدؤوب، **أن يستقطب كثيراً من الأمّيين المتعطشين إلى ترك تعدد الآلهة، وعبادة ما ظنوه أنه إله اليهود نفسه**، حيث لم يكن ذلك مسموحاً لهم، وأقنعهم بسهولة بآرائه، وأعلن نفسه رسولاً لله مباشرة بأمر الله عن طريق يسوع عليه السلام فقال في:

- غلاطية (١:١٥-١٦): "ولكن لما سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشر به بين الأمم".

أخذ يروج لنفسه كما في:

- رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١:١١): "كونوا متمثلين بي، كما أنا أيضاً بالمسيح".

وهنا أيضاً نتساءل لماذا لَمْ يدعُ أهل غلاطية إلى أن يكونوا متمثلين بالمسيح،

(٣٠٠) أي: **إلى غير** خراف بيت إسرائيل الضالة، أي غير اليهود.

كما هو متمثل بالمسيح؟ بل ركز على جلب الأنظار إليه شخصياً، ليكونوا متمثلين به هو، حتى تَسْهُلَ عليه قيادتهم.

ويَستغربُ أن يُطلبَ منه برهان على أنه رسول، فقال في:

– رسالته لأهل كورنثيوس الثانية (٣:١٣): "إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فيَّ".

ويقول لهم مادحاً نفسه في:

– رسالة بولس إلى أهل غلاطية (١٧:٦): "...لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع...".

طبعاً يقصد غير الصفات البشرية.

ونتيجة لكل ما سبق يطلب من مستمعيه أن يطيعوه فيما يقول، دون تردد حسب:

– رسالة بولس لأهل فيلبي (١٤:٢): "افعلوا كلَّ شيء بلا دمدمة ولا مجادلة".

وقد وضع نفسه حامياً للإنجيل فقال في:

– فيلبي (١٧:١): "وأولئك عن محبةٍ عالمين أني موضوعٌ لحماية الإنجيل".

والغريب أنه لم يقل أين هو الإنجيل الذي كان يحميه؟! لأنه في أثناء ذلك لم يكن أحدٌ من كَتَبَةِ الإنجيل قد بدأ بالكتابة[٣٠١].

إن أغلب أفكار (بولس) تلخصت في إنجيل (يوحنا)[٣٠٢] الذي كان قد التقاه، بينما يَقِلُّ تأثيره في كتبةِ الأناجيل الثلاثة الآخرين، (مرقس) و(متّى) و(لوقا).

(٣٠١) هل يمكن أن نفهم من ذلك أنه دليل على وجود إنجيل يسوع المسيح، ثم اختفى؟

(٣٠٢) كتاب "نظرات في إنجيل برنابا": محمد علي قطب، ص ٣٤، يقول: جاء في دائرة المعارف الفرنسية: "ويذهب بعض علماء الأفرنج إلى أن إنجيل (مرقس) وإنجيل (يوحنا)، هما من وضع بولس الرسول نفسه".

ثانياً: خطة (بولس) في التحريف:

في بداية الدعوة وخلال وجود المسيح بين أتباعه انقسم اليهود إلى قسمين:

قسم لم يؤمن بيسوع المسيح المخلص، والآخر آمن به فأُطلق عليهم اسم: (اليهود المسيحيون)، وذلك للتفريق بينهم وبين (الأمميين المسيحيين) الذين دعاهم (بولس)؛ فكانوا أول محطة تحريف لـ(بولس)[٣٠٣]، **الهدف من هذه المخالفة، هو ترجيحٌ عددي كبيرٌ لكفة غير اليهود بين المؤمنين بيسوع عليه السلام، تمهيداً لفصل كل المسيحيين (يهوداً وأمميين) عن بني إسرائيل**، وهو الهدف الرئيس لـ(بولس)، فكانت خطته من ثلاث مراحل كما استنبطتُه من رسائله، إذ تقمصت شخصيته وقرأتها من خلال رسائله الأربع عشرة، ومراحل الخطة ظهرت تدريجياً على الشكل التالي:

١ – الفصل الجسدي للمسيحيين.

٢ – الفصل الكتابي للمسيحيين.

٣ – الفصل الإلهي للمسيحيين.

١ ـ الفصل الجسدي

إن الختان (الذي هو جزء من العهد بين الله وإبراهيم أبي الأنبياء)، يُميِّز سلالة إبراهيم جسدياً عن غيرهم، وهذا الفصلُ بمنع الختان لم يحصل دفعة واحدة، بل بشكل تدريجي خوفاً من أن يرفضه **الأمميون المسيحيون**، لأنهم كانوا يريدون السير على خطا اليهود نفسها، فكان الفصل الجسدي حسب الخطوات التالية:

أ ـ المحرمات أربعة فقط: أباح لهم كل شيء عدا المحرمات الأربعة الكبار، دون ذكر الختان بالاسم، بحجة التخفيف على الداخلين في الدين ممن جاوزوا مرحلة الطفولة، فقال حسب:

(٣٠٣) انظر ص ٣٨٧/٣٨٦ من هذا البحث، الهامش رقم ٣٢١/ب.

- أعمال الرسل على لسان يعقوب (١٥: ١٩-٢٠): "لذلك أنا أرى ألا يُثقل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يُرسل إليهم أن يمتنعوا من نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم".

ناسياً أن أتباع إبراهيم قد اختتنوا كباراً وصغاراً، ومنهم إبراهيم نفسُه، فلو كانت مرحلة (تخفيف) لا (تحريف) لتساهل مع الداخلين البالغين منعاً للحرج، ولأمَرَهم بختان المواليد والأطفال فقط.

قلت: كيف تقول على لسان (يعقوب)، إذن القائل هو (يعقوب)، فما ذنب (بولس)؟

فقال: إن عودة (بولس) من رحلته الأولى بعد ثلاث سنوات، إلى القدس للقاء (بطرس) بشكل خاص، وصادف وجود (يعقوب) أخو يسوع المسيح، وتأثيرَه فيهما بشخصيته القوية، فأقنعهما بأن يسوع عليه السلام أرسله إلى الأمم، فتبنى (بطرس الذي هو سمعان) ذلك، وجاء في:

- أعمال الرسل (١٥: ٦ –٢٠): "فاجتمع الرسل والمشايخ لينظروا في هذا الأمر (الختان)، **فبعدما حصلت مباحثة كثيرة**[٣٠٤] قام (بطرس) وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يَسمعُ الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون... ولم يميز بيننا (أي اليهود) وبينهم (أي الأمميون) بشيءٍ إذ طَهَّر بالإيمان قلوبهم، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن تحمله؟ لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نَخْلُص كما أولئك أيضاً، فسكت الجمهور كله، وكانوا يسمعون (برنابا) و**(بولس)** يحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواسطتهم، وبعد ما سكتا أجاب يعقوب قائلاً: أيها الرجال الإخوة اسمعوني، سمعان (بطرس) قد

(٣٠٤) كان بولس مشاركاً أساسياً فيها.

أخبر كيف افتقد اللهُ أولاً الأممَ ليأخذ منهم شعباً على اسمه... لذلك أنا أرى ألا يُثقَل على الراجعين إلى الله من الأمم...".

ألا ترى أن هذه الأفكار، هي أفكار (بولس) التي بثها خلال اجتماع الرسل والمشايخ وبقوة شخصيته المعروفة أقنعهم (بطرسَ ويعقوبَ) فقالوا ما قالوه، إضافة لما جرى بينهم عند زيارته الخاصة لهما لمدة خمسة عشر يوماً؟

أما الدليل على أن موضوع الختان أول ما طرح على الأمميين كان من أفكار (بولس)، فهو:

١- قوله في رسالته إلى أهل غلاطية (٢: ٧): "...إذ رأوا أني اؤتمنت على إنجيل الغرلة[٣٠٥] كما بطرس على إنجيل الختان".

٢- ما ورد في أعمال الرسل (٢١: ٢١): "وقد أخبروا عنك أنك تُعَلِّمُ جميع اليهود الذين بين الأمم (اليهود الذين دخلوا المسيحية) الارتداد عن **موسى قائلاً أنْ لا يختِنوا أولادهم** ولا يسلكوا حسب العوائد".

إن الهدف من ذلك واضحٌ، وهو إبعاد كل الذين آمنوا بالمسيح عن اليهود الذين رفضوا الإيمان به، وتابع (دايفيد) حديثه قائلاً:

ب ـ عدم أهمية الختان بل العمل بالناموس:

عندما بدأ (بولس) بذِكر الختان، تناوله بطريقةٍ ذكية لا يرفضها أحدٌ ولو كان من المتعصبين (اليهود المسيحيين)، **حيث قلَّلَ من أهمية الختان إذا لم يُقترن بالعمل بالناموس**، فقال في:

- رسالته الأولى لأهل كورنثوس الأولى (٧: ١٩): "ليس الختان شيئاً وليست الغُرلة شيئاً **بل حفظ الناموس**".

(٣٠٥) الغرلة: هي عكس الختان.

ج ـ العمل بالناموس أهم من الختان:

حيث قال في:

- رسالته إلى أهل رومية (٢:٢٥-٢٦): "**فإن الختان ينفع إذا عملت بالناموس**، ولكن إن كنت متعدياً الناموسَ فقد صار ختانك غرلة، **إذ إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تُحسب غرلته ختاناً**".

جاعلاً العمل بالناموس يقوم مقام الختان، فمن شاء اختتن، ومن شاء بقي على غُرلته، والمهم في الحالتين العمل بالناموس.

د ـ ختان المسيح يعوض عن ختان المؤمنين به:

ربطَ الختانَ بالإيمان بالمسيح إذ قال في:

- رسالته إلى أهل كولوسي (٢:١١): "وبه أيضاً (أي بالإيمان بالمسيح) ختاناً غير مصنوع بيدٍ، بخَلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح".

أي إن ختان المسيح هو ختان لكل المؤمنين به.

هـ ـ ختان المسيحيين دليل على عدم إيمانهم بالمسيح:

في هذه المرحلة **انتقل من التقليل من شأن الختان إلى منعه وتحريمه** فقال في:

- غلاطية (٥:٢): "ها أنا بولس أقول لكم إنّه **إن اختتنتم لا ينفعكم المسيحُ شيئاً**".

فتوقف كل المترددين من المؤمنين الجدد عن الختان، وبذلك نجح (بولس) في تكريس الفصل الجسدي بين اليهود و(الأمميين المسيحيين).

بالرغم من ذلك طلب من تيموثاوس أن يختتن عندما قرر اصطحابه معه، حسب:

- أعمال الرسل (١٦:٣): "فأراد بولس أن يَخرُج هذا (أي تيموثاوس) معه فأخذه وختنه...".

التفتُّ حولي دون قصد، فرأيت عدة أشخاص يقفون قرب مجلسنا، يستمعون لما يقوله (دايفيد)، إذ يبدو أن حماسته قد أثارت فضولهم، ولما التقت نظراتنا قال أحدهم: حديث شيق، هل تسمحون لنا بالمشاركة؟ فأشرت بيدي إلى (دايفيد) أُحيل الأمر إليه، فرحب بهم ... عدَّلنا جلستنا ... طلبت لهم الضيافة لأخفف عنهم حرجَ المرة الأولى، ولسبب آخر في نفسي؛ علّي أجدُ فيهم من يضيف إلى معلوماتي شيئاً ما، في بحثي عن الحقيقة الكبرى، وتعرفنا على الخبراء الأمريكيين (مايكل) و(جورج) و(ليفي).

تابع (دايفيد) قائلاً:

٢ ـ الفصل الكتابي:

أيضاً وبالطريقة التدريجية نفسها، استطاع (بولس) جعل المسيحيين يتّبعون تعاليم غير تعاليم التوراة وذلك على النحو الآتي:

أ ـ أكّد أهمية العمل بالناموس:

كان في البداية يدعو إلى العمل بالناموس (العهد القديم)، ويحث عليه لتحقيق هدف الداخلين الجدد في الدين المسيحي، فجعل الناموس أساسَ الدين، وقال في:

- رسالته إلى أهل رومية (٢:١٣)[٣٠٦]: "لأن ليس الذين يَسمَعون الناموس هم أبرار عند الله **بل الذين يعملون بالناموس هم يُبرَّرونَ**".

- ومثله قال في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (٧:١٩): "ليس الختان شيئاً وليست الغُرلة شيئاً **بل حفظ الناموس**". **مما يؤكد على اهتمامه بالعمل بالناموس.**

- رسالته إلى أهل غلاطية (٥:٣): "لكن أشهدُ أيضاً لكل إنسان مختتن أنه يعمل بكلِّ الناموس".

(٣٠٦) "For it is not by hearing the Law that men Are put right with God, But by doing what the Law commands".

- رسالته إلى أهل رومية (٣١:٣): "أفنبطل الناموس بالإيمان. حاشا. بل نثبّتُ الناموس".

وهذا رفض واضح لإلغاء العمل بالناموس بسبب الإيمان بالمسيح.

ب - بداية التشكيك:

يبدأ خطته الانفصالية بقوله في:

- رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٨:١): "ولكننا نعلم أن الناموس صالحٌ إن كان أحدٌ يستعمله ناموسياً".

بينما أرى أنه من المنطق ألا نحكمَ على صلاح كتاب فنقول: إنه سماوي من تصرفات أهله، بل نحكم على أهله بالصلاح إذا هم عملوا بالكتاب الذي ثُبتَ أنه من السماء.

جـ - ادعى أن الإيمان بالمسيح يعادل العمل بالناموس:

يقول ما دام **أن الهدف من الناموس هو البر** أمام الله للعاملين به، ويفترض أن **الإبرار يمكن أن يكون بالإيمان بالمسيح أيضاً**، حيث قال في:

رسالته إلى أهل رومية (٢١:٣-٢٣)[٣٠٧]: "وأما الآن **فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس** مشهوداً له من الناموس والأنبياء. برُّ الله بالإيمان بيسوع إلى كلٍّ وعلى كلِّ الذين يؤمنون، لأنه لا فرقَ إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله".

فلمَّح إلى أن **الإيمان بالمسيح يساوي العمل بالناموس**، وبذلك بدأ ينحرف عما ذكره في رسالته إلى أهل رومية (٣١:٣) سابقة الذكر.

د - أكّد كفايةَ الإيمان بالمسيح وعدم لزوم الناموس:

---

(٣٠٧) "But now God's way of putting men right with himself has been revealed, but it **has nothing to do with Law. The Law and prophets gave their witness to it. God puts men right through their faith in Jesus Christ**".

يُنكر البرَّ بالناموس، وينقل البرَّ إلى الإيمان بالفداء الذي (قام به المسيح) على الصليب فيقول في:

- رسالته إلى أهل رومية (٢٤:٣-٢٨)[٣٠٨]: "متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار برِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة... فأين الافتخار؟ قد انتفى. بأي ناموس. أبناموس الأعمال. كلا. بل بناموس الإيمان. **إذن نحسب أن الإنسان يتبرَّر بالإيمان بدون أعمال الناموس**".

وهنا أنكر التبرر بالناموس وأقرَّ التبرر بالإيمان، فأخرج المؤمنين به عن العمل بالناموس.

ليته قرن العمل بالإيمان لتحقيق البرِّ كما فعل (يعقوب) في رسالته[٣٠٩]:

- رسالة يعقوب (١٤:٢)[٣١٠]: "ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحدٌ إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يُخلِّصه".

- رسالة يعقوب (١٧:٢)[٣١١]: "هكذا الإيمانُ أيضاً إن لم يكن له أعمال ميِّت في ذاته".

لكن غاية (بولس) من التركيز على الإيمان دون عمل واضحة، وهي تسهيل الفرائض الواجبة على المؤمنين به، بغرض إبعاد النفس عن الاتصال المستمر

---

(٣٠٨) "God offered him so that by his death he should become the means by which men's sins are forgiven' Through their faith in him ..... in the past ,he was patient and overlooked men's sin's ..... in this way, God shows that he himself is righteous and that he puts right every one who believes in Jesus. what then can we boast about? Nothing ! And what is the reason for it? **Is it that we obey the Law? No. But that we believe. For we conclude that a man is put right with God only through faith and not by doing what the Law commands."**

(٣٠٩) لاحظ التناقض بين قول بولس وقول يعقوب، وهي من الأقوال التي ربما لم يطلها التحريف.

(٣١٠) "What is good? is for someone to say: "I have faith." If his actions do not prove it Can that faith save him?

(٣١١) " So it is with faith: if it is alone and has no action with it. Then it is dead."

بالدين الأصلي، الذي نادى به يسوع عليه السلام،وهو دين موسى، علماً بأن هذه النقلة هي من نتاج الأديان الآسيوية الصوفية الوثنية التي أوردناها سابقاً مثل البوذية والهندوسية التي تنكر الجسد، وتعمل للروح والإيمان فقط.

هـ ـ بالناموس لا يتبرَّرُ الإنسان:

يؤكد أنه حتى لو عملت بالناموس فإنك لن تَبَرَّ ، فيقول في:

– رسالته إلى أهل غلاطية (١٦:٢): "إذ نعلم **أنَّ الإنسان لا يتبرَّر بأعمال الناموس بل بإيمان بيسوع المسيح**. آمنَّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. **لأنه بأعمال الناموس لا يتبرَّر جسدٌ ما**".

هنا يصرح بأن الإيمان بيسوع عليه السلام يفوق العمل بالناموس لغرض التبرر.

و ـ رفَضَ (بولس) بتاتاً البرَّ بالناموس:

قام بنقلة حماسية ذكية أثارت غيرةَ المسيحيين على المسيح حيث قال في:

– غلاطية (٢١:٢): "...**لأنه إن كان بالناموس بِرٌ فالمسيح إذن مات بلا سبب**".

– غلاطية (٤:٥-٥): "قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة. فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء برٍ".

وبذلك ابتعد المسيحيون عن الناموس الذي أقره يسوع المسيح في دعوته، على الرغم من اعتراضاته الكثيرة على اليهود أنفسهم، فقال حسب:

– مَتَّى (١٧:٥): "لا تظنُّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل".

ز ـ التبرر فقط بالإيمان بالمسيح الفادي:

يَدَّعي (بولس) أن المسيح قد أبطل ناموس الوصايا بتقديم نفسه للصلب فقال وبكل جرأة في:

– رسالته إلى أهل أفسس (١٥:٢): "...**مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في** فرائض لكي يخلق الاثنان في نفسه إنساناً واحداً جديداً...".

أي: المختون وغير المختون، وفي المعنى نفسه، يقول في:

– رسالته إلى أهل كولوسي (١٤:٢-١٦): "وإذا محا الصَّكَّ الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمِّراً إياه بالصليب... فلا يحكم عليكم أحدٌ في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت".

وبذلك ألغى مُحرَّماتِ الناموس الموسوي في التوراة.

إن (بولس) لم ينس قوله في:

– غلاطية (٤:٤-٥): "...أرسل الله ابنه مولوداً من امرأةٍ مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين **تحت الناموس لننال التبني**".

الذي فيه اعتراف أن يسوع أُرسل لبني إسرائيل الذين هم تحت الناموس وليس للأميين، فسارع إلى إصلاح هذه الهفوة، بجعل كل الأميين من أبناء إبراهيم إذا هم آمنوا بالمسيح، فقال حسب:

– رسالته لأهل غلاطية (٢٨:٣-٢٩): "...لأنكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع، فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثةٌ".

وبهذا إذا قال أحد: إن المسيح جاء لبني إسرائيل فقط.

فيقولون: ونحن أيضاً بالإيمان بالمسيح أصبحنا من نسل إبراهيم ومعنيين بالأمر.

نظر إليَّ (دايفيد) وابتسم قائلاً: ما لي أراك مشدوهاً هكذا؟ ألم تقرأ الإنجيل باحثاً عن الحقيقة الكبرى؟ أليس كل ما أقوله هو من الإنجيل نفسه؟

فأجبت وأنا أُغيِّرُ شريط التسجيل: بلى، بلى، قد قرأت ما بين الجلدتين عدة مرات، ولكنني أرى وكأنني لم أقرأ شيئاً، إذ أسمع ما تقوله، وكيف تربط الأشياء والأحداث بعضها مع بعض.

فقال: لا تحزن إن غالبيتنا يقرأ الإنجيل قراءة سطحية، ومنا من يقرأ صفحاتٍ معينة فيها الصلوات، ويكرر هذا كل صلاة أو كل يوم أحَد. أما أنا فقد درست الإنجيل دراسةً كما قلت لك، وكان المفروض أن أكون قسيساً.

ح ـ الناموس للفُجّار فقط:

تابع (دايفيد) قائلاً: على كل حال، لم أنته بعدُ من قضية الناموس، فقد ازدادتْ جُرأةُ (بولس) على الناموس، بقوله في:

– تيموثاوس (١:٩): "...أن الناموس لم يوضع للبار بل للأثمين والمتمردين للفجار والخطأة للدنسين والمستبيحين. لقاتلي الآباء وقاتلي الأمهات لقاتلي الناس للزُناة لمضاجعي الذكور...".

ويُطمئن (بولس) الذين ليسوا تحت الناموس بأن الخطيئة لن تسودهم، بقوله في:

– رومية (٦:١٤): **"فإن الخطيَّة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة".**

أي نعمة الإيمان بالمسيح، **وبهذا حثهم على عدم اتباع الناموس، وأبقاهم خارج دائرته**، واختتم (دايفيد) حديثه لهذا اليوم بقوله: هذا هو جزء من رحلتي مع (بولس)، وغداً سأتابع معك فقرةً أخرى من أسلوبه في الإبحار بالمسيحية بعيداً عن تعاليم يسوع المسيح.

على هذا افترقنا، وسارعتُ أعد نفسي لحلقةٍ أخرى من الجلسات التي تحولت من النقاش إلى دروس ومحاضرات.

في اليوم التالي قلت لـ(دايفيد): أرجو منك أن تسمح لي بالنقاش لتكون الفائدة أكثر، فإن كانت لي بعض الملاحظات ولم أطرحها في حينها، فإما أن أنساها، أو لا يتسع وقتك لمناقشتها في نهاية الجلسة.

فقال: لا مانع، ولكن لا تَكثر، لأن أغلب الاستفسارات ستتلاشى بعد سماع كامل الحديث، ثم تابع الحديث عن الفصل الإلهي.

٣ ـ الفصل الإلهي:

إن الهدف البعيد لـ(بولس) هو تحويل المسيحيين اليسوعيين عن عبادة إله اليهود نفسه، **حتى يبقى (شعب الله المختار)، هو الوحيد الذي يعبد إله إبراهيم**، ولذلك كان لا يمانع دخول بعض الأفكار الوثنية مع الوثنيين، وبعض الفلسفة مع الفلاسفة الذين آمنوا بيسوع، فاستغل فكرة (ابن الله) **ليكرسها ويحوّل يسوع المسيح عليه السلام من ابن الله المخلوق**، كما ورد في العهد القديم، وبداية المسيحية ومفهومها **التوحيدي إلى ابن مولود لله، وبذلك أصبح المسيحيون يعبدون إلهاً له ابن حقيقي وهو يختلف عن إله يهود الذي لا ابن له**، مما نتج عنه الفصل الكنسي أيضاً، فبنى المسيحيون أماكن عبادة خاصة بهم.

كانت الجماهير المسيحية تقدس المسيح تقديساً عظيماً، وخاصة الذين شاهدوا معجزاته، وعلى هذا تركزت مهارة (بولس) في الدعوة، وذلك بزيادة تقديس يسوع المسيح شيئاً فشيئاً، فازداد تصديق العامة لما يقوله (بولس)، والإيمان به، حتى انتقل التقديس إلى التأليه، والمسيحيون مأخوذون في غمرة الحماسة والإيمان، ففسدت عقيدتهم... وضاعوا بين التوحيد الذي ترافقه الواجبات، وبين تأليه المسيح والتعاليم التي تُرضي الشهوات بشكل أكثر، وتأرجحوا بين التفسير القديم والتفسير الحديث للإنجيل.

ومع انقضاء الزمن، اتبعت غالبية العامة مذهب (بولس) المؤله ليسوع، فاختفت تعاليم يسوع عليه السلام، وقامت تعاليم (بولس) ورجالِ الكنيسةِ.

أ ـ يسوع عليه السلام يفدي الذين هم تحت الناموس:

هذه المرحلة بدأها (بولس) بقوله: إن الله أرسل يسوع ليفدي الذين هم تحت الناموس (أي اليهود)، وذلك في:

- رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٤:٤-٧): "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس **ليفتدي الذين تحت الناموس** لننال التبني (أي نصبح أبناء الله)، ثم بما أنكم أبناءً أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الأب، إذن لستَ بعدُ عبداً بل ابناً، وإن كنت ابناً فوارثٌ لله بالمسيح".

ب ـ جعَلَ الأمميين من نسل إبراهيم:

ثم بذكاء يحول دعوة يسوع عليه السلام إلى الأمميين، حيث يجعلهم من نسل إبراهيم، ليدخلوا ضمن الفداء، فيقول لهم في:

- رسالته إلى أهل غلاطية (٣:٢٨-٢٩): "لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن من نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة".

ويتابع (دايفيد) قائلاً: إذن نحن -الأمميون- جعل (بولس) منا إسرائيليين من نسل إبراهيم وورثة للمسيح، ولعطشٍ ديني لدى أجدادنا صدقوه وظنوا أنفسهم يعبدون الله الواحد الأحد رب إسرائيل، الذي مُنعوا من عبادته لأنهم ليسوا من نسل إسرائيل.

جـ ـ الخطيئة تسود من هم تحت الناموس:

يقول لنا: إن الخطيئة لن تسودنا، لأننا لسنا تحت الناموس، بل ورثة المسيح، كما في:

- رومية (٦:١٤): "فإنَّ الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس (أي تحت تعاليم الناموس)...".

- غلاطية (٤:٥): "...ليفتدي (أي يسوع) الذين تحت الناموس لننال التبني...".

أي إن الذين هم تحت الناموس، هم فقط الذين يحتاجون إلى أن يفديهم يسوع عليه السلام، والذين هم خارج الناموس لن تسودهم الخطيئة أصلاً.

وهنا نتساءل إذا كان الذين هم خارج الناموس هم أتباع يسوع عليه السلام وهم المؤمنون به، والذين هم تحت الناموس (اليهود)، ليسوا أتباع يسوع، أليس من المنطق أن يفدي يسوعُ أتباعه بدل فداء غيرهم.

بهذا نرى أن مسيحيي اليوم فُصِلوا عن اليهود جسدياً بعدم الختان، وكتابياً بإبعادهم عن الناموس، وخُتِمَ الفَصلُ بجعلهم يعبدون إلهاً لا علاقة له بإله بني إسرائيل، إلهاً له ابنٌ وروح قدس.. ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة.

ـ البحث الثالث: الطبيعة والمشيئة في المسيحية

أولاً ـ تأثير الطبيعة والمشيئة على المجامع المسيحية

تمهيداً لزرع بذور الفرقة التي ظهرت لاحقاً بين صفوف المسيحيين، أخذ (بولس) يطرح ألفاظاً استغلتها بعض الأفكار الفلسفية والوثنية، فأخذت تصول وتجول.

فقد طرح:

١- فكرة (المشيئة) التي اختلف عليها المسيحيون الفلاسفة فيما بعد:

- هل هي مشيئة واحدة للأب والابن.
- أم هما مشيئتان منفصلتان؟

٢- فكرة (الطبيعة) التي ثار حولها الجدل أيضاً:

- هل الابن من طبيعة الأب اللاهوتية؟

- أم له طبيعة ناسوتية[٣١٢] من أمه؟
- أم طبيعة مشتركة؟
- هل حصل التجسد قبل الولادة أم بعدها ؟
- هل مريم العذراء ولدت إلهاً أم بشراً؟
- هل يلد البشر إلهاً؟ هل مريم العذراء إلهةٌ أم من البشر؟ كيف تكون بشراً إذا كانت قد ولدت إلهاً...إلخ.

تطوُّر الجدل حول (المشيئة والطبيعة) عبر السنين، **فَطُرِحتْ أفكار جديدة مشابهة**، فاختلفنا حول **طبيعة روح القدس:**

- هل هو منبثق عن الأب وحده؟
- أم منبثق عن الأب والابن؟
- هل تجسد الله نفسُه في يسوع؟
- أم أرسل ابنه ليتجسد؟

واستند كل المدافعين إلى أقوالٍ من (بولس) و(يوحنا) الذي تأثر به كثيراً[٣١٣]، وانقسم المسيحيون إلى الفرق التي تعرفها من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، وروم، وروم كاثوليك و...إلخ.

وتابع (دايفيد) قائلاً: طبعاً أنا لا أناقش طبيعة الله ومشيئته، فهذا أمر مفروغ منه، ولكن أناقش طبيعة يسوع المسيح ومشيئته، ففي:

- رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (٢:٥): "لأنَّه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، **الإنسان** يسوع المسيح".

(٣١٢) الناسوتية: أصلها من الناس، ويقصد بها الطبيعة الإنسانية ليسوع.

(٣١٣) انظر البحث الثاني عشر، إنجيل (يوحنا)، ص ٤٧٢ من هذا البحث، الهامش رقم ٣٤١.

نرى هنا أن (بولس) لم يخرج عما كان مألوفاً في فترة المسيح، أي إن الله واحد والوسيط بينه وبين الناس، هو رسول الله يسوع الإنسان، دون أن يضيف عليه أية صفة غير عادية، فيسوع المسيح إنسان (طبيعة ناسوتية) تأييداً لما كرَّره يسوع نفسه عشرات المرات، وهو يقول عن نفسه (ابن الإنسان).

لكن (بولس) يقول في:

- رسالته إلى أهل كولوسي (١:١٩)[٣١٤]: "لأنَّه كان **بمشيئةِ الله** أن الابن يملك في ذاته **طبيعة إلهية كاملة**".
- رسالته إلى أهل كولوسي (٢:٩): "فإنه فيه يحل كل مِلءِ اللاهوت جسدياً".
- رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٣:١٦): "...اللهُ ظهر في الجسد..."

بذلك قد أعطى (بولس) **الطبيعة الإلهية الكاملة** ليسوع ليصبح إلهاً كاملاً.

كما قرر (بولس) أن هذا **ليس بمشيئة يسوع، بل بمشيئة الله** وقراره، حسب:

- رسالته إلى أهل تسالونيكي (٥:١٨): "...لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع...".

وهذا يعني أن ليسوع طبيعة لاهوتية كاملة لكن بغير مشيئته، **أي الأب والابن من طبيعة واحدة ومشيئة مختلفة!**

- ثم أحبَّ (بولس) أن يربط بين الناسوتية التي أقرها، وبين اللاهوتية التي منحها (بولس) ليسوعَ، فقال في:

(٣١٤) مأخوذة من العهد الجديد Today's English Edition الأمريكية/نيويورك، Third Edition "For it was by God's own decision that the Son has in himself the full nature off God".

- رسالته إلى أهل فيلبي (٢:٦-٨)[٣١٥]: "دائماً كانت لـه **نفس طبيعة الله** ولكنه لم يفكر أن يُصبح مساوياً لله بواسطة القوة **لكنه تخلى عن كل مشيئته الحرة** وأخذ طبيعة الخادم **فأصبح إنساناً** وتجسد في شكل بشر".

وهكذا بإدخال تعديل يبدو بسيطاً، لكنه سيكونُ من بذور الشقاق التي زرعها بين المسيحيين حول المشيئة، بشكل تلميح مستتر جعل فيه المسيح يتخلى عن **"مشيئته الحرة"** ويتجسد **بمشيئته هو في شكل البشر**.

فقال (مايكل) بكل أدب هنا أرى أن أُنوه إلى ما ورد في:

- يوحنا (٥:٣٠): "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً... لأني لا أطلب **مشيئتي** بل **مشيئة الأب** الذي أرسلني".

- يوحنا (٦:٣٨): "لأنني نزلت من السماء **ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني**".

- رسالة بولس إلى العبرانيين (١٠:٩): "ثم قال (أي المسيح) ها أنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله".

فنستخلص من هذا أن يسوع المسيح، كانت له **مشيئة (حرة) غير مشيئة الله**، تخلى عنها **بإرادته**، وتجسد بشراً بكامل الناسوتية، **أي كان لاهوتياً كاملاً فأصبح ناسوتياً كاملاً**.

كل هذا الذي حصل في كولوسي (١:١٩) آنفة الذكر **كان بمشيئة الله**، والذي حصل في فيلبي (٢:٦-٨)، **كان بمشيئة يسوع نفسه**.

---

(٣١٥) مأخوذة من العهد الجديد Today's English Edition الأمريكية/نيويورك،
"He Always had the very nature of God, but he did not think that by force he should try to become equal with God Instead of his own free will he gave it all up, and took nature of a servant ".

وهذا يعني أن الأب والابن **لهما طبيعتان مختلفتان، ومشيئتان منفصلتان**، ولا مانع من تطابق المشيئتين أحياناً.

كما أنه لم يتوانَ عن جعل المسيح مساوياً لله بأن أعطاه اسمه، كما في:

- رسالته إلى أهل رومية (٥:١١): "...بـل نفتخر أيضاً **بالله ربنا يسوع** المسيح الذي نلنا به الآن المصالحة".

- رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٣:١٦): "...اللهُ ظهر في الجسد..."

نلاحظ أن (بولس) وبذكاء حاد، لم يقل "...**بالله وبربنا يسوع**..." فكان هذا لاحقاً أساساً لمبدأ الأرثوذكس الذي يَعُدُّ المسيح هو الله نفسه.

يدل هذا على أن مشيئة يسوع، هي من مشيئة الله، وأن لهما مشيئة واحدة.

فقال (ليفي): "طبعاً لا، لأن مشيئة الله ليست من مشيئة يسوع، ولكل منهما مشيئة، مشيئة الله ذاتية واجبة الوجود، أما مشيئة يسوع فهي بمجال ممكن الوجود، يقع ضمن مجال مشيئة الله، ممنوح من الله ليسوع ليتصرف ضمنه حسب مشيئة يسوع نفسه وإرادته، أما ما ورد في بعض مقاطع العهد الجديد، فهو يعني أن يسوع بمشيئته واختياره ينفذ مشيئة الله بمحبة وإيمان، والكلام عن **مشيئةٍ واحدة** يعني التساوي الكامل بالإرادة بين الله ويسوع وهذا مرفوض.

من كلام (ليفي) واسمه توقعت أن يكون من الديانة اليهودية، وتمنيت أن يكون مثقفاً دينياً حتى تشتد المناقشة بحثاً عن الحقيقة.

وتابع (ليفي) قائلاً ورد في:

- رسالة بولس إلى أهل كولوسي (١:١٥)[٣١٦]: "المسيح هو التجسد المرئي لله غير المرئي، هو البكر متقدماً على كل المخلوقات".

---

(٣١٦) مأخوذة من العهد الجديد Today's English Edition الأمريكية/نيويورك، Third Edition
"Christ is the visible likeness of the invisible God. He is the firstborn Son, superior to all created things".
في نسخة أخرى ورد النص كالآتي: "الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة".

والتي فسرها كثيرون على أنها تدل على تجسد الله نفسه في يسوع، كالشعلة من مثلها، لذلك فإن انفصالهما واتحادهما لا يغير من طبيعتهما ومشيئتهما، إلا بقدر ضرورة ظهور الله غير المرئي في تشبيه مرئي، مستندين في تفسيرهم إلى:

- سفر التكوين (١:٢٦): "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا...".

ولكن التفسير الحقيقي له ليس التشبيه التصويري، بل التشبيه الغائي (الوظيفي)، لأن الله غير المرئي، لا يمكن تشبيهه بالشيء المرئي، إلا من ناحية الصفات غير المرئية (العطف، القوة،...). إذن خَلَقَ اللهُ البشرَ ولهم بعض الصفات الإلهية التي أرادها الله، ولكن بنسبة متناهية في الصغر -ولله المَثَلُ الأعلى-، فالله قوي ورؤوف ورحيم وقادر وجبار وحليم وغفور...إلخ. والإنسان كذلك على صورة الله في الصفات، ولكن بنسبة أصغر من أن تذكر!. وما هذا إلا ليستطيع عقل الإنسان المحدود أن يفهم ويعقل ويدرك جزءاً من صفات الله، ولكن ضمن إطار ليس كمثل الله شيء، ولذلك أي قول عن مشيئة واحدة متساوية هو إنقاص لإطلاق صفات الله وهذا مرفوض، ولا أدري لماذا فسر المؤلهون "...نعمل...." بالانبثاق والتجسد وليس بالخلق!..

سادت بعد ذلك فترة صمت، قطعتها بسؤال كيلا أصبح على هامش الجلسة، فقلت لـ(دايفيد): لقد تكرر ذكر الله الأب مقروناً بالرب يسوع في كثير من رسائل (بولس) كما في:

- رومية (١:٧): "...نعمةٌ لكم وسلامٌ من اللهِ أبينا والربِّ يسوعَ المسيح".
- أفسس (١:٣)[٣١٧]: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح".
- كولوسي (١:٣): "نشكر الله وأبا ربنا يسوع المسيح...".

(٣١٧) مأخوذة من العهد الجديد Today's English Edition الأمريكية/نيويورك، Third Edition
"Let us give thanks to the God and Father of our Lord Jesus Christ".

- أفسس (١:١٧): "كي يعطيكم إلهُ ربِّنا يسوعَ المسيحِ أبو المجد روح الحكمة".
- رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي (٢:١٦-١٧): "وربُّنا نفسُه يسوعُ المسيحُ واللهُ أبونا الذي أحبنا وبنعمته أعطانا عزاءً أبدياً ورجاءً صالحاً يعزي قلوبكم ويثبتكم في كل كلام وعمل صالح".

إن الإمعان في الجمل السابقة، ومناقشتها، يكشف عن صورة غامضة لمعنى كلمة (رب)، تضطرنا أن نتصور العلاقة بين الله ويسوع إذ حسب ما سبق:

- في إفسس (١:٣) نفهم أننا نشكر **اللهَ الذي هو أبو يسوع الرب** بمعنى أن الله هو أبو الإله يسوع.
- وفي إفسس (١:١٧) نفهم أن الله **هو إلهُ يسوع الرب وليس أباهُ**، ونفهم أيضاً أن يسوع إنسان لأنه ليس للإله إله أعلى منه إلا في الوثنية، أما المسيحية فتقول: الله إله واحد.

بينما رومية (١:٧) فهي واضحة المعنى تدل على أن هناك الله، وهناك الرب يسوعاً، وكل منهما منفصل عن الآخر ومن كليهما يصلنا سلام.

المشكلة الكبرى هي في تسالونيكي الثانية (٢:١٦): "وربُّنا نفسُه يسوعُ المسيحُ واللهُ أبونا الذي أحبنا...". فإذا فهمنا من بداية النص، أن الله ويسوعاً منفصلان، وكلاهما أحبانا وأعطيانا عزاءً أبدياً...إلخ. نصطدم بتعبير (من نعمته his grace) الذي يعني أن الاثنين واحد، **أي الله هو يسوع نفسه طبيعة ومشيئة.**

فإذا قالوا: إن كلمة (أحبنا) و(أعطانا) عائدة فقط على الله وحده ولذلك استُعمل المفرد في (نعمته).

نقول: ولماذا جاء باسم يسوع في البداية، وما هو دوره في الأفعال التي وردت في الجملة نفسها؟

ما كل هذا إلا دلائل على أن (بولس) فتح المجال لمن قال لاحقاً: إن الله ويسوع لهما طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة، ودعمها بقوله في:

– رسالته إلى أهل غلاطية (١:١): "بولس رسول لا من الناس **ولا بإنسان** بل بيسوع المسيح والله الأب الذي أقامه من الأموات".

فنفى كون يسوع إنساناً، بل بالإله يسوع الابن، وبالله الأب.

فقال بعضهم: إذن يسوعُ إلهٌ.

وقال آخرون: إن النفي يدل على أن الأمر جاء من لاهوت المسيح، وليس من ناسوته.

فنقول: ولكن (بولس) قال: إن يسوع ظهر له بشخصه فرآه، وبذلك يسقط احتمال الدعوى إلى كون يسوع من طبيعة لاهوتية فقط.

ونتساءل: هل يمكن لمنْ له طبيعة لاهوتية وناسوتية، ولمن له طبيعة لاهوتية فقط أن يكونا في ذاتٍ واحدة؟.

فإن قالوا: نعم. فقد أعطوا الله صفات مادية وهذا مرفوض، فتسقط الطبيعة الواحدة.

وإن قالوا: لا. سقط التثليث.

وتابعتُ قائلاً: إن هذه الأمثلة قليل من كثير من البذور التي زرعها (بولس) في البداية لتثمر نتائجها تباعاً، ولتفرق المسيحيين إلى مذاهب مختلفة!.

عقّب (ليفي) قائلاً: إن هناك بعض المجموعات وإن اختلفت أسماؤها، إلا أنها تحاول العودة إلى التعاليم اليسوعية الأصلية، فيَعُدُّونه بشراً رسولاً فقط، مدعماً بمعجزات خارقة، ولم يعترض أي من هذه المجموعات على فكرة صعوده إلى السماء، ومنهم من رفض قصة الفداء من الخطيئة لمخالفتها للعهد

القديم مستشهدين بإنجيل (برنابا) الذي يثبتُ الصعود قبلَ الصلبِ[٣١٨]، علماً بأن هذا الإنجيل هو من الأناجيل غير المعترف بها من الفاتيكان، على الرغم من اكتشافها أول مرة في مكتبة سرية في كنيسة القديس (بطرس) في الفاتيكان قبل ظهور الإسلام بقرنين.

ثانياً – تفاصيل أكثر عن تأثير الطبيعة على المسيحية

قلت لـ(دايفيد): هل لديك تفاصيل أخرى عن تأثير الطبيعة في المسيحيين، وكيف أدت إلى انقسامهم؟

فقال (دايفيد): في المسيحية –كما في الأديان الأخرى– تختلف الآراء وتحصل انقسامات، وأركز على الانقسامات لأننا لم نسمع أن مذهبين دينيين قد اتحدا عقائدياً بل العكس، الجماعة لاثنتين، والمذهبان لأربعة، وهذه الأربعة إلى متطرفين ومعتدلين،وإن متابعة الانقسامات يحتاج إلى وقت أطول من الوقت المتوافر الآن، ويحتاج إلى تحضير أكثر دقة، لذا أقترح الاتفاق على موعدٍ ولقاء آخر وآمل أن يشارك فيه أصدقاؤنا الجدد أيضاً.

اتفقنا على الاجتماع في الأسبوع القادم في الفندق نفسه، لأن مسؤولي الخدمة فيه تعودوا أن يقدموا لنا ما يرطب الجلسة إذا ارتفعت حرارتها.

لملمتُ أوراقي وأغلقتُ مسجلتي الصغيرة التي ساعدتني إلى حدٍّ كبير على استعادة الحوار.

ودَّعنا الأصدقاء الجدد الذين ينزلون في الفندق نفسه، وذهب (دايفيد) إلى منزله الكائن في مجمع سكني فخم، وتعمدت أنا بعض التأخير خجلاً من سيارتي التي لا يقل عمرها كثيراً عن عمري.

قضيت الأسبوع كله، وأنا أعيد قراءة ما كنت قد طالعته مراراً حول الموضوع

(٣١٨) انظر ص ٣٦٤/٣٦٥، الهامش رقم ٢٧١/ز.

نفسه، ولكن بتعمق أكثر، لأني لاحظت أني أعرف كثيراً من المعلومات التي وردت في الجلسات، ولكنني أفتقر إلى ربط بعضها ببعض، واستنتاج اللازم منها كما يفعل (دايفيد)، وأدركت أنه يتفوق عليَّ في هذا المجال مما جعلني أبدو كتلميذ يستمع لأستاذه، وهذا أسعدني كثيراً.

لم ننتظر أصدقاءنا كثيراً، واكتمل العدد، ابتدأ (دايفيد) قائلاً: إن الموضوع الذي سنناقشه اليوم، هو كبحر واسع تصعب الإحاطة به في جلسة واحدة، لأنه يعني التاريخ المسيحي كلّه، منذ يسوع المسيح وحتى يومنا هذا، إذ لم تهدأ حركة التغيرات والانقسامات، ولذلك سأبدأ من فترة ما بعد الصعود، دون الدخول في تفاصيل مملة.

إن أيَّ كتابٍ تحقيقٍ، سواء كان مؤيداً أو معارضاً للمسيحية، لم يذكر وجود أي اختلال في العقيدة قبل ظهور (بولس) ودعوته الأُمميين إلى تعاليم المسيح!. التي قَبِلَها كثيرون، بعضهم امتنع عن الختان لأسباب غير عقدية، وأراد بعضهم الارتداد إلى الوثنية، بسبب هذا الشرط، فعقد رجال الكنائس مجمعاً في أورشليم عام ٥٥ م وأقروا فيه عدم ضرورة الختان[٣١٩]، وأضافوا إليها عدم ضرورة التمسك بالناموس فيما يتعلق بالتحريم، إلا الذنوب الأربعة الكبار، حسب:

- أعمال الرسل (١٥:١٩-٢٠): "لذلك أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله بين الأمم. بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم"، وبذلك سَنّوا سُنّة المجامع المسكونية لحل المشاكل الدينية.

كان هذا المجمع، هو الانتصار الرسمي الأول لـ(بولس)، في التأثير على السفينة المسيحية، وأول إبحار بعيدٍ عن شاطئ اليهودية في بحر التحريف، فرست

(٣١٩) انظر أعمال الرسل (١٥:٦-٢٠).

هذه السفينة في ميناء تحريم الختان، مما أدى إلى انفصال المسيحيين جسدياً عن اليهود، ثم رست في ميناء تحريم الناموس التي تعدُّ مرحلة أولى في الانفصال العقدي، وأثناء الرحلة كان لا بُدَّ لـ(بولس) الربان الماهر من أن يستعين بطاقم بحارة من الوثنيين والفلاسفة، فقابل بعضهم حسب:

- أعمال الرسل (١٧:١٨): "فقابله قوم من الفلاسفة الأبيكوريين والرواقيين...".

ويعترف (بولس) أنه كان يتّبعُ النفاق مع كل مِلّةٍ يدعوها، حسب رسالته:

- كورنثوس الأولى (٩:١٩-٢٣): "فإنّي إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع **لأربح الأكثرين**. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود[٣٢٠]، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس. مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموسٍ المسيح لأربح الذين بلا ناموس، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكلِّ كلَّ شيء لأُخَلِّصَ على كل حالٍ قوماً، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه".

نرى مما سبق أن المهم عند (بولس) ليس إكثار العدد لغرض زيادة نشر التعاليم، بل بغرض **الغَلَبَةِ العدديةِ لجماعته** على جماعة (اليهود المسيحيين)، المؤمنين برسالة المسيح وبشريته الكاملة.

فعلاً حقق (بولس) الهدف الأساسي الأخير، بالرسو في ميناء الإله الجديد الذي أوجده لأسلافنا، إله لا علاقة له بإله اليهود، **فالإله الجديد هو إله معدَّل شبيه بالآلهة الإغريقية والرومانية والهندية، إله له ابن أرسله لفداء الناس من**

(٣٢٠) كيف يصير لليهود كيهودي ليربح اليهود، والمسيح -حسب قوله- متمثلٌ به حسب رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١:١١)، بينما المسيح نفسه لم ينافق اليهود ليربحهم، بل كان يجادلهم ويسمعهم ما لا يرضونه منه.

خطيئة آدم والخطايا الأخرى، **بتقديم نفسه ذبيحة على الصليب،** وذلك حسب رسائله:

- تيموثاوس الأولى (٦:٢): "الذي بذل نفسه فديةً لأجل الجميع...".

- إلى أهل إفسس (٢:٥): "...وأَسْلَمَ نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة".

- إلى أهل غلاطية (٤:١): "الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا".

أنا لن أناقش الفداء والصلب الآن، سأتركه لجلسة أخرى، المهم أن تلاحظ التأثير الكبير لـ(بولس) في انحراف المسيحية عن التعاليم اليسوعية، طبعاً لا يمكن تعليق كل أسباب الخلاف المسيحي، حتى يومنا هذا على أقوال (بولس)، لكنه كان الأول الذي أوجد الأرض الخصبة لمناقشة الدين مناقشةً فلسفيةً وفَتَح الأبواب لكل صاحب مذهب أن يدلو بدلوه، ولكل صاحب فكرة أن يناقش الدين على أساسها، لا أن يناقش الفكرة على أساس الدين، فكثرت الأفكار ابتداءً بـ: "ماذا لو..." و"إني أرى أن يسوع..." و"إن روح القدس انبثق عن...".

حتى إن فكرة تناسخ الأرواح الوثنية سرَتْ في بعض أجدادنا من رجال الدين، فعُقِدَ لذلك مجمع ورفَضَها في الوقت المناسب.

لقد تباين تأثير (بولس) في كاتبي الأناجيل الأربعة المعتمدين، فقَلَّ عند (مَتّى) و(مرقس) و(لوقا)، وزاد عند (يوحنا)، لذلك تضاربت أفكارهم بين تثليث واضح، وتوحيد واضح، أو الجمع بين الاثنين.

ونرى أن الجُمل في الأناجيل تحتمل تفاسير متعارضة متضاربة، على الرغم من أن فكرة التثليث (هي محور الدعوة البولْسية) قد ظهرت في آخر إنجيل (مَتّى)، حسب:

- مَتّى (١٩:٢٨): "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس".

إلا أن التثليث، لم يدخل بشكل رسمي إلى المسيحية بالمفهوم الذي هو عليه الآن دفعة واحدة، بل على مراحل متتابعة، بموجب قرارات من المجامع المسكونية أو الإقليمية، فقد كانت الفكرة حتى القرن الرابع الميلادي، خاضعة لصراعات فكرية عقدية فلسفية بين جماعتين مسيحيتين:

١ـ الموحِّدين لله:

القائلين: إن الله قائم بذاته، أزلي أبدي لا يعادله أحد، لا يخرج عن جوهره إلى جوهر من خَلَقَ، لا بولادة كالشعلة من الشعلة، ولا بتجسد ليس فيه اختلاف وامتزاج بين الطبيعتين.

وإن الابن لو كان من جوهر الأب لكان هناك إلهان، وهذا مرفوض في كل المذاهب، لذلك فالابن ليس إلهاً، بل هو بشرٌ مدعمٌ بجوهر منفصلٍ مختلفٍ هو الملاكُ روحُ القدس، ويَعُدُّون أنفسهم امتداداً للدين اليهودي.

٢ـ المؤلهين ليسوع:

القائلين: إن المسيح هو (ابن اللهِ) أرسله أبوه ليتجسد بيسوع أو (اللهُ نفسُهُ) أظهر محبته للناس، فَقَبِلَ أن ينزل إلى الأرض، ويتجسد بيسوعَ، ليفدي الناس من خطيئة آدم بأن يُذبح مصلوباً.

عدَّل (دايفيد) جلسته وأخرج سيجاره الرهيب، بينما كان (مايكل) ينتقي غليوناً من ضمن مجموعة غلايين وضعها على الطاولة وراح يحشو الغليون المعكوف، فتذكرت جدتي التي كانت ترفض تدخين ما تسميه (سجائر الماكينة)، وتفضل سيجارة تلفها بإتقان شديد، حتى جعلتني -ذلك الوقت- أظن أنها تستمتع بلف السيجارة أكثر من تدخينها، كان (مايكل) يستمتع بحشو الغليون ثم يَرصُّه، ثم يثقبه بمسمار خاص للتهوية، ثم يختبر تمريره الهواء، وبما أن هذه العملية

تأخذ وقتاً طويلاً، فقد أخذت أسبُر ما حولي، من رفاهية الفندق، وروعة تصميمه وزخارفه، ونظرت عبر الزجاج القريب فرأيت حوض السباحة بزواره القليلين، الذين يُضْفون على منظر الحديقة روعة على روعة، وقلت في سري ما أكثرَ من هذا أريدُ في جنتي!. وقلت لنفسي إذن هذه هي جَنّتكِ، فاستمتعي بها، بَدَلَ اللهاثِ وراءَ الحقيقة، ها هي أمامك فاغتنميها، فقالت لي نفسي: ومن يضمن لي حتى الوصول إلى ما أرى؟ أليست الحياة فانية؟ فلا مانع إذن أن تعمل لِجَنّةٍ مثل هذه، ولكن بشرط الوصول إليها والدوام فيها، واعلمْ أنك لن تصلَ إلى جنة الخلد إن لم تكتشف الحقيقة.

تشابكت أفكاري بشكل عشوائي، ولم أستطع مسك بداية الخيط لترتيبها، لأن رائحة التبغ الهافاني أخذت تعلن انتصار (مايكل) على غليونه المعطر الخانق بعد عدة محاولات، واستعداده لمتابعة الحديث.

وقال: كانت تلك الصراعات بين الفرق المسيحية، تثور وتهدأ حسب الاضطهاد الروماني للمسيحيين بشكل عام، إذ كانت تختفي مظاهر الصراع العلني عند زيادة الاضطهاد، وكانت مناطق المسيحية أيام الإمبراطور قسطنطين، تشكل جزءاً كبيراً من إمبراطوريته، وأحب الإمبراطور الدخول في المسيحية فأمر بعقد **مجمع مسكوني في نيقية عام ٣٢٥ م**، حضره حوالي ألفي رجل من رجال الدين.

– تزعم (آريوس) رجل الدين المصري القوي الحجةِ جناحَ الموحِّدينَ ذا الأغلبيةِ العددية.

– وتزعم (أثناسيوس) بطريرك الإسكندرية جناح المؤلهين.

طلب الإمبراطور من الجميع المناظرة ليختار المذهب المناسب فيدخل فيه، تطور النقاش إلى العنف في بعض الأحيان، وتركز الخلاف حول شخص المسيح:

أ – هل هو إنسان رسول كما يقول (آريوس)، ويؤكده (ميلتوس) رأس كنيسة أسيوط أيضاً، ويساندهما أسقف مقدونية؟.

ب– أم هو إله متجسد في بشر كما يقول (أثناسيوس)؟.

إلى أن تدخل الإمبراطور قسطنطين لصالح المؤلّهين، لأن أفكارهم ليست بعيدة عن الديانات الرومانية الوثنية المألوفة عنده، وهي في الوقت نفسه تجمع بين الدين والوثنية، فلا يثير القلاقل بين الوثنيين من شعبه، ويكسب تأييد المسيحيين!.

ضغط الإمبراطور على المجمع، ليصدر قراراً يؤكدُ بنوة المسيح الحقيقية لله، ويَلعنُ كل من قال عكس ذلك، وأقر الآتي: "**إن الجامعة المقدسة، والكنيسة الرسولية، تَحْرُمُ كلَّ قائلٍ بوجودِ زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وُجِد من لا شيء، أو من يقول إن الابن وُجِدَ من مادةٍ أو جوهر غير الله الأب، وكل من يؤمن بأنه خُلق أو من يقول إنه قابل للتغيير...**".

ومن أهم قراراته الأخرى هي:

أ – حبس الإنجيل عن العامة.

ب– فرض تلقي التعاليم شفهياً من الكنيسة.

جـ – إعلانُ الخطيئة الأصلية، بناءً على:

– رسالة بولس إلى أهل رومية (٥:١٢): "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيَّةُ إلى العالم وبالخَطيةِ الموتُ وهكذا اجتاز الموتُ إلى جميع النّاس إذ أخطأ الجميعُ".

د – إعلان الفداء على الصليب،حسب:

– رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس (٢:٢): "لأني لم أعْزِمْ أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً".

- رسالة بولس إلى أهل كولوسي (١٤:١): "الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا".

لكن جماعة (آريوس) لم يستسلموا، بل تظاهروا بالقبول حتى يُعادوا إلى كنائسهم، ومناصبهم القريبة من الإمبراطور، والطبقةِ الحاكمةِ بُغيةَ التأثيرِ عليها.

وفعلاً استطاع (أوسابيوس) إقناع الإمبراطور بأن التوحيد هو الأصل في الديانة المسيحية اليسوعية، فعُقِدَ **مجمع أنطاكية عام ٣٢٩ م.**، وبعد مجابهة شديدة بينه وبين (أثناسيوس) بطريرك الإسكندرية، قرر المَجمع تثبيتَ التوحيد، فغادر (أثناسيوس) المَجمع.

وفي عام ٣٣٥ م عُقد (**مجمع صور**)، وقرر طرد (أثناسيوس)، ثم عاد عام ٣٣٨م بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين، فعُقد (**مجمع إنطاكية**) عام ٣٤٠م. وعُزل (أثناسيوس) من كنيسة الإسكندرية، وفي عام ٣٤١م. أقرَّ (مجمع أنطاكية) تعاليم (آريوس)، وفي عام ٣٤٦ م عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد أن عفا عنه (قسطنطينيوس) ابن الإمبراطور، ومرة ثانية خلعه **مَجمع ميلانو عام ٣٥٥ م.**

أنكر (**مَجمع سرميوم**) في فرنسة مساواة الابن لأبيه في الجوهر، وفي (**مَجمع ريميني**) عام ٣٥٩م، أُقِرَّتْ الآريوسية الموحِّدة، ونُقِضَتْ قراراتُ (مجمع نيقية من عام ٣٢٥م)، أما (**مجمع إنطاكية**) عام ٣٦١م، فقد وضَّح في مقرراته الصيغة التوحيدية للإيمان بأن الأب والابن مختلفان في الجوهر والمشيئة.

لقد كان (آريوس) هو أول تصد فعلي وفعَّال ضد تعاليم (بولس) التأليهية، كما كان للإمبراطور (قسطنطين) أكبر الأثر في أول تثبيت رسمي لتأليه عيسى.

لاحظنا كيف تناحر رؤساء الكنائس لتقرير ألوهية أو إنسانية المسيح، وكان مسألة الوحدانية والتعددية تخضع لقانون التصويت الديموقراطي.

إن تعاقب الأباطرة في نهاية القرن الرابع، وخوفهم من ضياع حكمهم، جعلهم يتبعون سياسة فرق تسد، فشجعوا مذهب المؤلهين المتراجع في ذلك

الوقت، وأيدوهم بشكل أثر على مكانة الآريوسيين تدريجياً على الصعيد الرسمي، حتى تلاشوا تقريباً تحت ضغط الدولة لصالح المؤلِّهين، وعادت مقررات (مجمع نيقية ٣٢٥م.) تُدَرَّسُ في الكنائس، أما على الصعيد الشعبي، فكانت الآريوسية قوية، وما تزال لها حتى الآن الكثيرُ من الكنائس الرافضة لتأليه يسوع المسيح، وهي في ازدياد مستمر.

المهم هو أن مذهب (بولس) المؤلّه ليسوع المسيح، عاد إلى الساحة المسيحية بقوة، ناشراً فكرة أن الأقنوم الأول والأُقنوم الثاني هما من جوهر واحد.

لم يتطرق أحد إلى مناقشة ما سُمي لاحقاً الأقنوم الثالث إلى أن جهر (مقدونيوس) بمقولة:

"إن الروح القدس ملاكٌ من الملائكة، مخلوقٌ كسائر المخلوقات، وأنه ليس إلهاً أو منبثقاً عن إله"...وانتشرت فكرته بين العامة، لأن هذا لا يَمَسُّ المسيح مباشرةً، بل ربما لأنه يُفضل الابن على الروح القدس.

فعارضه (فوسيوس) بطريرك القسطنطينية، وقال: كيف ذلك وقد قلنا إن الابن قد انبثق عن الروح القدس؟ وأيد انبثاق الروح القدس عن الأب فقط.

لكن ما أن وصلت هذه الأخبار إلى مَسْمَع بطريرك الإسكندرية التي هي مهد الأفلاطونية الحديثة، وخوفاً من عودة تدريجية إلى التوحيد، حتى دعا إلى مجمع مسكوني (عالمي) عُقد في القسطنطينية عام ٣٨١م، سُمي (**مجمع القسطنطينية الأول**) قال فيه: ليس الروح القدس سوى روح الله نفسها وحياته، فإن قُلنا: روحُ اللهِ مخلوق، يلزم أن يكون الله حادثاً... وهذا مستحيل، فلا بُدَّ إذن من أن الروح القدس إله منبثق من الأب كالابن غير مخلوق.

قال بطريرك روما: بما أننا نساوي بين الأب والابن، فالروح القدس يجب أن يكون منبثقاً عن الأب وعن الابن معاً.

فقرر المَجمع:

أ – أن الروح القدس، هو الـرب المحيي المنبثق من الأب كـالابن مسجود لهم.

ب– أن الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم في واحد، إله واحـد، **جوهر واحد، وطبيعةٌ ومشيئة واحدة.**

وبذلك أُقِر التثليث رسمياً بأقانيمه الثلاثة، ذات الجوهر الواحد، تأكيداً لما جاء في:

– إنجيل مَتّى (١٩:٢٨): "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسـم الأب والابن والروح القدس".

قلتُ: كم يذكرني هذا بأفلاطون القائل إن المسيطر على العالم ثلاث: الكلمة والعقل والروح، والحقيقة أنه يتأكد لنا أن البـذرة التي زرعهـا (بولـس) أثمرت، وأنَّ جهده لم يَضِعْ عبثاً.

وأجاب (دايفيد) هذا ما سنناقشه في جلسة مقبلة.

وتابع قائلاً: وتوالت الأحداث والخلافات، وظهر تـأثير التيار الفلسـفي الـذي أجازه (بولس)، فظهرت آراء تقول:

أ – ما دام الابن قد تَجَسَّد في يسوع، واتَّخذَ مظهرَ البشر، حسب:

– رسالة بولس إلى أهل رومية (٣:٨): "... فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية...".

فلا بُدَّ أنَّ لَهُ:

أ/١– طبيعةٌ ناسوتية (بشرية) مِنْ أُمِّهِ مريم.

أ/٢– طبيعة لاهوتية من جوهر الأب.

ب– إنَّ مريم العذراء قد ولَدَتْ إنساناً بخلق إعجازي، ولم تلد إلهاً، والتجسد حصل بعد الولادة، لأنه لا يمكن لبشر أن يلد إلهاً.

جـ– إن البُنوَّةَ هي بُنُوَّةُ محبةٍ مَجازية لا بُنوة فِعلية، أي إن للابن أقنوماً إلهيـاً من الأب وطبيعةً بشريةً منفصلةً عن الأقنوم.

تَبَنى (نسطورس) بطريرك القسطنطينية الطبيعة الناسوتية فقـط ليسوع، وأنكر الطبيعة اللاهوتية.

بطبيعة الحال، ما إن وصلت هذه الآراء إلى الإسكندرية حتى سارع بطريركها (ديسقورس) إلى الدعوة لعقد مجمع لمناقشة مذهـب (نسطورس)، فـانعَقد (**مجمع أفسس**) عام ٤٣١ م، واضطر المَجمع إلى قبولِ الناسوتية، وبما أنهم لم يستطيعوا إضافة أقنوم رابع، فقد أضافوا فكرة تَعدُّد مصادر الطبيعة عند الابن، فقالوا: إن **الابن ذو طبيعتين متحدتين في أقنوم واحد**، اتحاداً لا اختلاط فيه، ولا تمازج، ولا استحالة[٣٢١].

وصدر أيضاً قرار يقول:

أ – إن مريم العذراء والدة اللهِ.

ب– إن المسيح إله حق، وإنسان معروف بطبيعتين متحدتين في أُقنوم واحد.

جـ – رُفِعَتْ مريمُ إلى مرتبة الآلهة، لأن البَشَرَ لا تلد إلهاً.

هـرب (نسطورس) بطريرك القسطنطينية إلى سورية والعراق ونشر مذهبه (أقنوم إلهي وطبيعة ناسوتية فقط) فيهما.

ورفض (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية قرارات مجمع أفسس، وقال إنه بناء على:

– رسالة بولس لأهل كولوسي (١٥:١): "الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقةٍ".

---

(٣٢١) يقصد به التحول من طبيعة إلى أخرى.

- رسالة بولس الأولى لتموثاوس (١٦:٣): "...الله ظهرَ في الجسد...".
- رسالة بولس للعبرانيين (١:١-٢): "الله بعد ما كَلَّمَ الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين".
- وعلى يوحنا (٣٠:١٠): "أنا والأب واحد".

فإن أُقنوم الابن لا بُدَّ من أن يكون **ذا طبيعة واحدة هي من جوهر الله،** اجتمع فيها اللاهوتُ بالناسوتِ، وعُقد لذلك مجمع إقليمي سُمي (**مجمع إفسس الثاني**)، وأقر مقولة (ديسقورس) بالطبيعة اللاهوتية الواحدة للابن، أي إن يسوع إله نزل إلى الأرض، فانسحب من هذا المجمع (نسطورس) بطريرك القسطنطينية، القائل بالطبيعة الناسوتية، واستمر الخلاف حتى أمرت الإمبراطورةُ الجديدة للرومان بعقد (**مجمع في خلقدونية**) عام ٤٥١م، وكانت المناقشات كالعادة عنيفة جداً أقر في نهايتها المجمع أن:

- **المسيح فيه طبيعتان لاهوتية وناسوتية التقتا في يسوع، وهو أُقنوم واحد.**
- لعنوا (نسطورس) بطريرك القسطنطينية (أقنوم لاهوتي وطبيعة إنسانية فقط، والتجسد بعد الولادة) وأتباعه.
- لعنوا ديسقورس بطريرك الإسكندرية (أقنوم إلهي وطبيعة إلهية فقط والتجسد حصل قبل الولادة، ورفضوا الاعتراف بالناسوتية) وأتباعه.

فأعلن (ديسقورس) انفصال كنيسته عن الكنيسة في روما، وعُرفتْ باسم كنيسة السريان الأرثوذكس، (وتعني كنيسة ذوي العقيدة الصحيحة)، وهم ذوو الطبيعة الإلهية الواحدة ليسوع.

وأعلن (نسطورس) انفصال كنيسته أيضاً عن الكنيسة في روما، وعُرفتْ باسم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية (الروم الأرثوذكس)، (وتعني كنيسة ذوي العقيدة الصحيحة)، وهم ذوو الطبيعة الناسوتية الواحدة ليسوع.

بينما عرف أتباعُ كنيسةِ روما بالكاثوليك (أي أصحاب الفكر الحر) وهم ذوو الطبيعتين في أُقنوم واحد، أي التجسد حاصل بعد الولادة، ويعترفون باللاهوت والناسوت ليسوع.

ونتيجة لذلك قام السريان الأرثوذكس المصريون، بإرسال مبشرين إلى بلاد الكاثوليك، وحققوا نتائج كبيرة، خاصة بواسطة الداعية النشيط (يعقوب البرادعي)[٣٢٢] في القرن السادس، الذي كان يدعو إلى أن الله هو ذات واحدة مثلثة الأقانيم، منها أُقنوم الابن، تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، فصار هذا الجسد، وحدة ذاتية جوهرية، منزهة عن الامتزاج والاختلاط والتحول، غير قابلة للانفصال، وبهذا فإن للابن طبيعةً إلهية واحدةً، ومشيئةً واحدةً (السريان الأُرثوذكس).

نظرت إلى الحاضرين فلاحظت وكأنهم لم يستوعبوا تماماً ما قيل، فقال لي السيد (ليفي)، إذ استَضْعَفَني من بين الموجودين: هل فَهمتَ شيئاً؟

فأومأت برأسي أن ليس تماماً، فأعاد (دايفيد) شرح مجمع خلقدونية مرة أخرى، وقال معقباً: لقد قلت لكم إن الباب الذي فتحه (بولس) للفلاسفة لن يغلق أبداً إلا بعودة المسيح إلى الأرض ودعوة المسيحيين إلى الدِّين الحق.

فقال (جورج): صدقت.

وقبل أن يتابع (دايفيد) الحديث قلت له: هل تسمح لي أن أعيد عليك ترتيب الأحداث التي قلتَها باختصار، لأني أود تثبيت بناء سلسلة التغيرات التي حصلت في هذه الفترة؟

فأشار برأسه بالموافقة، وبعينه أنْ اختصر الكلام.

---

(٣٢٢) راهب مصري (٥٤١-٥٧٨): غادر إلى أوروبة للدعوة لما آمن به الأقباط المصريين (السريان الأرثوذكس)، سُميت جماعته في أوروبة (اليعقوبيين).

فقلت: حسب ما فهمته منك، إن المسيحية ابتدأت بالتوحيد، ثم أُوجِدت تفسيراتٌ جديدةٌ لتعبير (ابن الله)، وتحولت بتأثير العقائد الوثنية إلى تثليث، ولكن الفلسفة ناقشت التثليث ابتداء بشخص يسوع المسيح الابن، فأقر مجمع نيقية أُلوهية الابن وأزليته وأنه من جوهر الأب، وبعد توالي الأحداث عاد التوحيد وثُبِّتَ بقرارِ مجمع سرميوم ومجمع أنطاكية عام ٣٦١م، وفيهما تقرر أن الأب والابن مختلفان في الجوهر والمشيئة، أي إن يسوع ليس إلهاً بل هو إنسان مبارك صَاحَبَتْه معجزاتٌ خاصةٌ، ثم عادت كفةُ التأليه ورَجَحَتْ بدعمٍ من الرومان.

ثم جهر مقدونيوس بأن الروح القدس مخلوق لله، وليس إلهاً، فعُقِدَ مَجمع القسطنطينية الأول الذي أقر أن الروح القدس إلهٌ منبثق عن الأب، فاكتمل التثليث.

ثم ظهرت آراء (نسطورس) بطريرك القسطنطينية القائلة: إن للابن أُقنوماً لاهوتياً له **طبيعةٌ ناسوتيةٌ واحدة** من مريم العذراء، وعليه فإنَّ مريم العذراء ولَدت إنساناً، **والتجسد حصل بعد الولادة**، فعُقِد مجمع أفسس الأول الذي أقر الناسوتية، ولكنه **جعل التجسد قبل الولادة**،وعليه فإن مريم **ولدت إلهاً فصارت بمرتبة الآلهة**، لأن البشر لا تلد آلهة، فقالوا **بالطبيعتين المتحدتين في أُقنوم واحد (كاثوليك)**، فلم يُرضوا (نسطورس-القسطنطينية) لإقرارهم بالتجسد قبل الولادة وضرورة الطبيعتين، ولا ديسقورس (الاسكندرية) لأنهم أقروا بالناسوتية، ولكن ديسقورس رفض قرارات مجمع أفسس الأول، وقال: إن الابن ذو طبيعة واحدة، وأقره مجمع إفسس الثاني، فانسحب بطريرك القسطنطينية.

استمر الوضع حتى مجمع خليقدونيه ٤٥١ م. الذي أقر بأن للابن طبيعتين منفصلتين، التقتا في يسوع، وهما متحدتان في أُقنوم واحد، ولعنوا (نسطورس) (بطريرك القسطنطينية) وجماعته القائلين بالطبيعة الناسوتية فقط، ولعنوا (ديسقورس- بطريرك الإسكندرية) وأتباعه القائلين بالطبيعة الإلهية فقط.ونتج عن

هذا المجمع: خروج كنيسة الإسكندرية وسموا أنفسهم (السريان أرثوذكس)، وخروج كنيسة القسطنطينية وسموا أنفسهم (الأرثوذكس الشرقيين أو الروم الأرثوذكس) وصار أتباع كنيسة روما يعرفون بـ(الكاثوليك)، ثم خرج من مصر داعيةٌ إلى أُوروبة اسمه (يعقوب البرادعي)، دعا لمذهب الأقباط الأرثوذكسي (السريان الأرثوذكس) المؤله تماماً لأقنوم الابن بالطبيعة وبالمشيئة، فسُمي أتباعه هناك اليعقوبيين الذين يقولون بطبيعة إلهية واحدة ومشيئة إلهية واحدة.

ما إن انتهيت من السرد حتى أخذت نفساً عميقاً واسترخيت على مقعد الفندق الوثير.

قال (جورج): ما كنت أستطيع الإعادة والإيجاز بشكل أفضل، وأُحب أن أضيف الآن معترفاً، بأني كنت أجهل أغلب المعلومات التي وردت هنا، وما كنت أعلم أن الهوة بين المذاهب هي بهذا العمق، فهي كما سمعت منكم تتراوح بين التأليه الكامل للابن، وبين الخلق الكامل، وكذلك الروح القدس بين التأليهِ الكامل والخلقِ الكامل له، بينما كنت أظن أن الاختلاف يسيرٌ ينحصر في كيفية تطبيق بعض الشرائع، ومواقيت الأعياد، لا في جوهر العقيدة، ومِثلي حال ملايين المسيحيين.

التفتَ (ليفي) موجهاً الكلام إليَّ، ربما لأنه لاحظ أني الأكثر اهتماماً بالبحث عن الحقيقة، وقال: تصور، إن تأثير الأفكار الوثنية وصل إلى درجة أن بعض الأساقفة آمنوا بفكرتيّ التناسخ والتقمص الموجودتين بعمق في الفلسفات الآسيوية، فسارع رجال الكنيسة الآخرون، إلى عقد المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية الذي عُرف بمجمع قسطنطينية الثاني عام ٥٥٣ م وأنكروا فيه فكرة التناسخ، ولعن المجمع وحَرَم كل من أصر عليها.فسقطت الفكرة في الوقت المناسب.

ثالثاً: تفاصيل أكثر عن تأثير المشيئة على المسيحية

تحرك (مايكل) وكأنه يريد الكلام وهو يشعل غليونه ذو العطر المميز من جديد، الأكثر خنقاً لي من سيكار (دايفيد)، لحساسيتي المفرطة ضد الدخان بشكل عام، خاصة وأنهم لا يُكلّفون أنفسهم عناء نفث دخانه إلى الأعلى، بل كانت الرائحة والدخان أشبهَ بالقنابل المُسِّيلةِ للدموع، مع الفرق بأن قنابل (مايكل) كانت قاطعة للأنفاس أيضاً، لكنني في سبيل الحقيقة، اضطررتُ إلى مراقبته لتنظيم تنفسي مع تواتر تدخينه.

قال (مايكل): لا تنسوا أنه بعد أن اِستَنفذت طبيعةُ الابنِ وأُقنومُه كل الاحتمالات، جاء دور المشيئة، حيث قال (يوحنا مارون) في القرن السابع (٦٦٧م): إِن المسيح ذو طبيعتين في أُقنوم واحدٍ حسب المجمع الرابع، ولكنه ذو مشيئة إلهية واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد، واستحالة خروج مشيئتين من أقنوم واحد.

فدُعي إلى مجمع في القسطنطينية عام ٦٨٠م سُمي (مجمع القسطنطينية الثالث) **وقرر الطبيعتين والمشيئتين** (الكاثوليك الحاليين)، وهما تعملان متوافقتين غير متضاربتين في أقنوم واحد، حسب:

- لوقا (٢٢:٤٢): "...ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك".

لكن السوريين (سورية والأردن ولبنان وفلسطين حسب الحدود الحالية) ذلك الوقت رفضوا وانفصلوا مكونين الكنيسة المارونية[٣٢٣] (نسبة إلى مارون)، وخرجوا من كنيسة روما، كما انسحبت كنيستا القسطنطينية[٣٢٤] والإسكندرية[٣٢٥]، اللتان قالتا قول مارون نفسه.

(٣٢٣) الكنيسة المارونية (بلاد الشام): طبيعتان ومشيئة واحدة ليسوع عليه السلام.

(٣٢٤) الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية أو الروم الأرثوذكس (القسطنطينية): طبيعة ناسوتية واحدة ومشيئة واحدة ليسوع عليه السلام، وانبثاق الروح القدس عن الأب فقط.

(٣٢٥) كنيسة السريان الأرثوذكس/الأقباط للمصريون (الإسكندرية): طبيعة إلهية واحدة ومشيئة واحدة ليسوع عليه السلام.

لم تهدأ الأوضاع طويلاً بعد أن قرر مَجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١م أن الروح القدس إله من جوهر الأب، حتى أُعيدت مناقشة الروح القدس:

فقال بطريرك روما: بما أننا نساوي بين الأب والابن، لذا فإن الروح القدس انبثق من الأب والابن معاً.

- فعارضه فوسيوس بطريرك القسطنطينية، مستنداً إلى قرار المجمع القسطنطيني الأول، بأنَّ الابن هو من الروح القدس، فكيف ينبثق الروح القدس عن الابن؟

فقال (ليفي) مقاطعاً: ما دمتم تقولون: إن الابنَ انبثق من الأب، كالشعلة عن أصلها، فما الفرق أن تصدر شعلةُ الروح القدس عن أحدهما أو كليهما؟ وأين الاختلاف العقدي في ذلك؟

لكن (مايكل) تابع متجاهلاً وقال: ومع ذلك كان هذا هو أحد الأسباب التي أدت إلى انقسام آخر للكنيسة، فبعد عزل بطريرك القسطنطينية فوسيوس، بقرار من **المجمع القسطنطيني** عام ٨٦٩م لقوله: إن الروح القدس انبثق من الأب فقط، استطاع العودة إلى المنصب، وعقد مجمعاً إقليمياً سُمي **المجمع الشرقي** عام ٨٧٩م، وقرر الانفصال عن روما، وبهذا تشكلت **الكنيسة الشرقية** (الكنيسة اليونانية أو الروم الأرثوذكس)، برئاسة القسطنطينية، وهي منتشرة في روسية واليونان، وشرق أوروبة وبلاد العرب.

شَكَّل ما تبقى من موالين لكنيسة روما، **الكنيسةَ الغربيةَ**[٣٢٦] (الروم الكاثوليك أو الكنيسة اللاتينية أو الكنيسة البطرسية)، برئاسة روما ويتبعها إيطالية وبلجيكة وفرنسة وإسبانية والبرتغال.

(٣٢٦) الكاثوليك: طبيعتان ومشيئتان ليسوع عليه السلام، والروح القدس انبثق عن الأب والابن معاً لأنهم يساوون بين الأب والابن.

تشترك الكنيستان الشرقية والغربيـة، في التثليث وتختلفان في الطبيعة والمشيئة وانبثاق الروح القدس، ولكن مع الزمن اعترفت الكنيسـة الشرقية للبابا في روما بالتقدم (البروتوكولي) فقط، لا بالسلطان الكَنَسي.

أما **المجمع الثاني عشر** عام ١٢١٥م. فقد:

١- أقرَّ بحق الكنيسة في منح **الغفران**، بناءً على مـا قالـه المسيح بعد الظهور حسب:

- يوحنا (٢٠:٢٣): "من غفرتـم خطاياه تُغفر لـه ومـن أمْسَكتُم خطايـاه أُمْسِكَت".

٢- أقرَّ **التحول** (تحول الخبز والخمر في جسـم الإنسان يوم الفصح إلى لحم ودم المسيح نفسه).وهذا ما اتفقتْ عليه كل الكنائس.

ولكن ما قُرر في المجمع العشرين عام ١٨٦٩م، بأن **البابا معصـوم** عـن الخطأ أدى إلى انقسام آخر للطوائف الكاثوليكية، وسُمِّيَ الرافضـون لحقِ عصمـة البابا (**الكاثوليك القدماء**)[٣٢٧].

- البحث الرابع: البروتستانت[٣٢٨]

وضع (دايفيد) سيجاره بعد أن انطفـأت جذوتـه وقـال: علينـا ألاَّ ننسى أهـم انقسامٍ عن الكنيسة، وهو الانقسام الذي عرف بـ(كنـائس البروتستانت)، الذين احتجوا على محاولة تنفيذ قرار البابـا، بحرمـان (مـارتن لوثـر) وحرقـه، لأنـه كـان يطالب بإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ولهذا قصة مختصرها على النحو الآتي:

(٣٢٧) آمنوا بكل ما آمنت به الكنيسة الكاثوليكية في روما، عدا حق عصمة البابا.

(٣٢٨) البروتستانت: من الناحية الإيمانية (الطبيعة والمشيئة وانبثاق الـروح)، هـم مثل الكـاثوليك في رومـا، لكن كانت لهم مطالب إصلاحية، كإلغاء عصمة البابا، وسر الاعتراف، وإلغاء حبس الإنجيل، ورفض التحول وصكوك الغفران...إلخ.

بسـبب حبـس الإنجيـل عـن العامـة -حسـب قـرار مجمـع نيقيـة عـام ٣٢٥م، وبالتدريج حتى القرن الثـالث عشر- ظهرت آراء كثيرة أدت إلى الانقسـامات التي سـمعنا عنهـا، فمـا كـان للمَجْمَعِ الثاني عشر عـام ١٢١٥م، إلا أنْ أبـاحَ استخدامَ العنف مع المعارضين، وقرر إنشاء ما سُمي (محاكم التفتيش) التي تمادت في أحكام التعذيب، والسجن، والحرق لكل مخالف، ولكل صاحب رأي، حتى لو كان علمياً بحتاً، فيـه أي ملامحَ تكـون مخالفـةً لتفسير رجـال الكنيسـة للكتـاب المقدس، دون أن يطَّلع أحد من العامة على أصل النص، واشتهرت قصص محـاكم التفتيش، منها أنها حكمت علـى (جـون هـوس) ورفيقـه (جيروم)، من كنيسـة بوهيميا عام ١٤١٨م بالحرق حسب القوانين المدنيـة، لكونهما مخربين ومسيئين للأمن، لأنهما طالبا الكنيسة بإلغاء **سر الاعتراف**، وقـالا: إنـه لـيس للكنيسـة صلاحية محو الإثم.

كما أن العالم (جاليليو) لم يَسْلَم من هذه المحاكم وقصته عـن دوران الأرض أشهر من أن تكرر، فاشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية علـى المسيحيين، وكَثُرت الاستفهامات والاستنكارات، وتركزت على مسألة التَّحَول (تحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح)!. إذ إن الكنيسـة رفضت التحول الرمزي، وأكـدت علـى التحول الحقيقي إلى لحم المسيح ودمه، حسب:

- مرقس (١٤:٢٢-٢٤): "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكَسَّر وأعطاهم وقال خذوا كُلوا هذا هو جسدي، ثـم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم، وقال لهم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين".

رفضتْ الكنيسةُ أية مناقشة للتحول، لأنها نظرت إليها على أنهـا مـن أسـرار الكنيسة، ولوحت بالحرمان والطرد لكل رافض.

تركزت الاجتماعات أيضاً على مسألة الغفران، وحـق الكنيسـة في منحـه لأي

مُسيء يأتي إليها للاعتراف، فلم يقبل كثيرون أن يكون الاعتراف بالخطيئة شرطاً كافياً للغفران، وكان لانتشار بعض الأفكار الإسلامية التي ترفض الوساطة بين الإنسان وربه أثر في ذلك، بينما يصر (بولس) على ضرورة الوسيط حسب:

– رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٢:٥): "لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح".

وفي هذا الخضم من التساؤلات ظهر (مارتن لوثر)، وكان إنساناً رقيقاً درس اللاهوت، وتلقى مساعدة رجال الكنيسة، أراد أن يحج إلى روما مركز العالم المسيحي الكاثوليكي، حيث كان يتوقع أن يَرى مجتمعاً زاهداً عابداً مطبقاً لشرائع الله، لكنه شاهد مدينةً لاهية، وشعباً عابثاً، ورجال دين غزاهم الفسادُ المادي، فصُعق وهو ذو الحس الرقيق المرهف، وعندما كان يوجه اللوم للفاسدين من رجال الدين كان جوابهم: إن الكنيسة تغفر لنا بالاعتراف بين الحين والآخر.

عاد (مارتن لوثر) إلى ألمانية مليئاً بالرفض والغضب والاحتجاج، وأخذ يدعو إلى عدم فائدة الحج إلى روما، وأن الكنيسة لا تملك حق غفران الذنوب، وتحولت دعوته إلى ثورة فكرية عندما أصدرت الكنيسة صكوك الغفران.

عندما تنبه لوثر لمعنى قول (بولس) في:

– رسالته إلى أهل رومية (١٧:١): "...أمّا البار فبالإيمان يحيا".

رفض أن يكون البِرُّ بالإيمان وحده دون العمل، ونادى بما جاء في:

– رسالة يعقوب (١٤:٢): "ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحدٌ إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال، هل يَقدر الإيمان أن يُخلّصه".

– رسالة يعقوب (١٧:٢): "هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال، ميّتٌ في ذاته".

طلبته الكنيسة في روما لمحاكمته، فلم يذهب تنفيذاً لنصيحة أصدقائه من الأمراء، فأصدر البابا قراراً بحرمانه، وحاول الإمبراطور تنفيذ القرار، فاحتج أنصار

(لوثر)، وعندها علّق (لوثر) وثيقة الاحتجاج على باب الكنيسة، وأهم ما جاء فيها:

١– رفض صكوك الغفران.

٢– رفض العصمة البابوية.

٣– رفض الرهبنة.

٤– إنكار التحول.

٥– المطالبة بتحرير (الكتاب المقدس) ووضْعِه بين أيدي العامة.

٦– منع اتخاذ الصور والتماثيل والسجود لها.

انعقد لهذا مجمع (ورمز) في ألمانية عام ١٥٢١م، وقرر حرمان (مارتن لوثر) وحرقه مع كتبه، عندها انشق هو وأتباعه وعرفوا بالمحتجين (البروتستانت)، وشكلوا كنيسة خاصة بهم.

انتشر مذهب البروتستانت، في ألمانيا والدانمرك، والنرويج وهولندا، وإنكلترا وأمريكا الشمالية وسويسرا.

وهكذا نرى أن مسيرة الإصلاح بدأت بـ(آريوس)، ثم عادت من جديد بـ(نسطورس)، ثم بـ(مارتن لوثر) و(كالفن).

قلت للسيد (جورج): لقد لاحظت صك الغفران بيدك فما هو نصه؟ فأخرج من بين أوراقه نسخة مكتوب فيها ما يأتي:

"ربُنا يسوعُ المسيحُ رحِمَك يا.............. ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي، أُحِلّكَ من جميع القَصاصات والأحكام والطائلات الكَنَسيةِ التي استوجبْتَها.وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبْتَها على نفسك في هذه الفرصة.

وأرفعُ القَصاصات التي كنتَ تلتزمُ بمكابدتها، وأُرِدُّكَ حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأُقرنك في شركة القديسين وأردك ثانية إلى الطهارة والبر، اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يُغلقُ أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويُفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن والروح القدس".

فسألت: وكيف الحصول على هذا الصك؟

فأجاب: بالتبرعات السخية وبالاعتراف في الكنيسة.

فقلت: وهل يشتري الغني خطاياه بالتبرعات المادية فقط؟

فقال: وبالاعتراف أيضاً.

فقلت: وما ذنب الفقير؟

فقال مبتسماً: عليه أن يتأكد ألا تتجاوز خطاياه إمكاناته المادية!!.

ثم عقب قائلاً: طبعاً لا، لأن الاعتراف يكفي، ولكن الاعتراف فقط لا يخولها امتلاك (صك الغفران)، **الذي يضمن غفران ما سيأتي من الذنوب**.وكان صك الغفران من الموارد المالية الرئيسة للكنيسة.

قلت: لقد سمعت عن ظهور جماعات مسيحية صغيرة متعددة في أمريكة وأُوربة، وهي تنظر إلى الدين من منطلق التوحيد الكامل، وعدم تأليه الابن، ودون مناقشة الطبيعة والمشيئة، مناقشة فلسفية يصعب فهمها وتصورها على الإنسان العصري، الذي يحاكم الأشياء بالمنطق والعلم، ولذلك رفض تفسيرات الكنيسة عن شرح التثليث في التوحيد، والواحد في تجليات ثلاثة، ورفض كون التثليث من أسرار الكنيسة التي يجب الإيمان بها دون مناقشة، كما رفض تفسير التحول غير المنطقي والعلمي، وكذلك صكوك الغفران، وصارت تعاليم هذه الجماعات خليطاً غير متجانس من اليهودية والمسيحية.

فأجاب (جورج) الذي كان مثلي يفضل الاستماع قائلاً:

عندما عقد **المجمع التاسع عشر** في (تريدنتو) -ودام انعقاده أكثر من عشرين عاماً بين (١٥٤٢-١٥٦٣م)، للرد على البروتستانت، ورَفْضِ مطالبهم التصحيحية- ثارت تساؤلات حول صحة العهد الجديد برمته، والتحريفات التي طالته.رَدَّ فعلٍ على ذلك أعلن **المجمع الفاتيكاني الأول** عام ١٨٦٩-١٨٧٠م: **"بأن أسفار العهد الجديد، كتبت بإلهام من الروح القدسِ، ومؤلفها الله، وأعطيت هكذا للكنيسة"**.

وطبعاً مثل هذا الإقرار **صَعَّد المشكلة** أكثر ولم يحلها، إذ قام المعارضون من المسيحيين أنفسهم بالتحقيق والتدقيق، وتقديم الأدلة التي لا يمكن لمجتمع في العصر الحديث أن يرفضها، حتى عُقد **المجمع الفاتيكاني الثاني** عام ١٩٦٢-١٩٦٥م وقال في الوثيقة المسكونية الرابعة صفحة ٥٣ : "...غير أن هذه الأسفار تحتوي على نقائض وأباطيل ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي".

وفي المؤتمر التبشيري الثالث لطائفة الأنجليكانيين الذي عُقد في كندا تقرر: "أنه قد تجلى الله بطرق مختلفة، ومن الواجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لِنُصِرَّ على القول: إن الله كان يتكلم في ذلك الغار الذي يقع في تلك التلال خارج مكة".

وتابع قائلاً: إن رفض البروتستانت لسبعة أسفار، أُطلق عليها اسم الـ(أبوكريفا)، كان الكاثوليك قد قبلوها، والأرثوذكس أيضاً، هو دليل خطوة أولى على صحوة دينية للعودة تدريجياً إلى الأصل؟.

فقلت له: طبعاً ما قام به البروتستانت، هو دليل على المرحلة الأولى من النظر إلى أسفار (الكتاب المقدس) بعين الشك والدراسة، والمرحلة الثانية قام بها علماء الفاتيكان أنفسهم، وتوصلوا إلى أن تحريفاً كبيراً قد طرأ على الأسفار، ولكن

لا ننسى أن المرحلة الأولى هي الأكثر أهمية، وذلك عندما اختيرت أربعة أناجيل من بين عشرات الأناجيل، والأسئلة التي يجب أن تُطرح هي:

١- أي ميزان استعمل في ذلك الوقت لقبول إنجيل ما أو رفضه؟

٢- لماذا رُفض إنجيل الحواري المعروف (برنابا)، الذي يختلف عن الأناجيل الأربعة بأنه يدعو إلى التوحيد الخالص، ويرفض قصة رفع المسيح عيسى إلى السماء؟

الإجابة الوحيدة التي نراها هي: إن الميزان المستعمل في ذلك الوقت، هو ميزان (بولس الرسول)، الداعي إلى التثليث وتأليه يسوع.

٣- هل الذين قبلوا أو رفضوا -قديماً أو حديثاً- أسفاراً أو جملاً من العهدين كانوا منزهين عن الخطأ أكثر من كاتب الإنجيل نفسه؟

والإجابة: طبعاً لا، فكلهم بشر.

فنقول: إذن أين الصح وأين الخطأ؟

وانطلاقاً من أنه لم يُعثر على إنجيلٍ اسمه (إنجيل يسوع)، الذي ذكره (بولس) في:

- رسالته إلى أهل رومية (١٩:١٥) : "...قد أكملْتُ التبشير بإنجيل المسيح".

فعلينا النظر بعين الشك إلى كل ما كُتِبَ من أناجيل.

فقال (ليفي): من حسن الحظ أن المصلحين الجدد، لم يدرسوا الإسلام القادم من الصحراء عن طريق إسبانية دراسةً عميقةً كافية بمعزلٍ عن أوضاعِ المسلمين، **بل كل ما كانوا يعلمونه عن الإسلام هو:**

- صورة تلك المرأة المغطاة باللباس الأسود من رأسها إلى أخمصِ قدميها.

- الزوجات الأربع للرجل الواحد.

- أن للذكرِ مثل حظ الأنثيين.

- اتهام الإسلام بأنه دين الرجل فقط.

- ما يرونه من تَمَسُّكِ المسلمينَ المعاصرين الواهي بالإسلام الذي يَدْعونَ إليه.

- من خلال نظرة غير المسلمين الفوقية إلى دين خرج من البادية المتخلفة.

- من خلال الانقسامات والخلافات بين المسلمين أنفسهم، والدسائس والمؤامرات والخيانات بينهم حتى عندما كانوا في أوجِ عظمتهم.

لو لا هذا لتوجهت أغلب هذه الفرق الإصلاحية إلى دين التوحيد ذي التعاليم السّامية، والدستور الكامل للحياة، والبراهين العلمية على كونه سماوياً.

فقلت له: ولماذا لم تقل الدين اليهودي، فأنتم أيضاً موحدون أليس كذلك؟

فقال: اتركني وديني، فأنا لا أدعو إليه، ولا يهمني أن يقبل أحد اليهودية أو يرفضها، هل تظن أننا نَقْبَلُ أي طارق يطرق باب اليهودية؟ أقولها صراحة وهذا ليس بسر عليكم جميعاً، إذ سمعتُ ما يثبت اطلاعكم الجيد على الأديان، إننا شعب الله المختار، ولا نشارك في ذلك أحداً، فالعبرة ليست بالدين بل بالذُّرِّية نفسها، لذلك انظر إلى أقوال (بولس) في:

- رسالته إلى غلاطية (٧:٣): "اعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم".

- رسالته إلى غلاطية (٢٩:٣): "فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثةٌ".

لقد حاول (بولس) أن يوهم الأمميين بأنهم عندما يؤمنون بيسوع يصبحون من ذرية إبراهيم، فيشاركوننا هذا الشرف، ولكن الحقيقة أبعد من هذا، إننا لا نَعُدّ الشخص يهودياً إلا إذا كانت أُمه يهودية وليس أبوه، وهذا ما يعانيه كثير من

المتهودين الموجودين في إسرائيل الآن أمام المحاكم مطالبين بانتسابهم إلى اليهودية، وهم من أب يهودي وأم أممية، هذا هو ما أُسميه نقاء العرق!.

السامريون أيضاً يشهدون بذلك، إذ إنهم أيضاً متهودون، ولذلك قال يسوع في ذلك الوقت لتلاميذه حسب:

- مَتّى (١٠:٥-٦): "...إلى طريق أممٍ لا تمضوا وإلى مدينة للسَّامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة".

وتابع قائلاً: فإذا كان ما فَهِمْتُهُ من المناقشة صحيحاً، من أن أجدادنا أرسلوا (شاؤل) الذي هو (بولس) في مهمة انتحارية الغرضُ منها إبعاد المسيحيينَ عن اليهودية، فإن هذا أعظم إنجاز قام به اليهود خلال ألفي عام، وإنْ كان (بولس) قد قرر ذلك من نفسه، فهو أعظم شهداءِ اليهود وأشرف أنبيائهم، وأنا منذ الآن أفتخر به وأعتز.

فقال (دايفيد): هذا عظيم... هذا عظيم، عنصرية مُميَّزة، لكننا لسنا بصدد تحويل النقاش إلى نقاش عنصري، لذلك أقترح العودة إلى ما كنا فيه.

فبدأت الحديث مرة ثانية قائلاً: إذن من التاريخ المسيحي نرى أن المسيحيين انقسموا إلى ثلاث فرق رئيسة هي:

١ـ الكاثوليك: مركزهم روما، التي تعني (جامع الفكر الحر)، وهي أكبر الطوائف، ومركزها روما، يقولون بالتثليث وتأليه الابن ذي الطبيعتين والمشيئتين، وانبثاق روح القدس عن الأب والابن.

٢ـ السريان الأرثوذكس: مركزهم الاسكندرية، والتي تعني (صحيح العقيدة) وهم المنشقون عن الكاثوليك، لأنهم رفضوا أي تعديل على مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وقسطنطينية الأول عام ٣٨١م. القائل بالتثليث الكامل، وتأليه الابن ذي الطبيعة الإلهية الواحدة، والمشيئة الواحدة، ويقولون الروح القدس انبثق عن الأب

فقط. واليعقوبيون (نسبة إلى المبشر المصري يعقوب البرادعي) هو اسم آخر للسريان الأرثوذكس (الأقباط المصريين).

٣ـ الروم الأرثوذكس: مركزهم القسطنطينية، يقولون بالطبيعة الناسوتية والمشيئة الواحدة ليسوع، وانبثاق الروح القدس عن الأب فقط.

٤ـ البروتستانت: وتعني المحتجين، وهي الجماعة الكبيرة الإصلاحية الوحيدة حالياً، يقولون **بالطبيعتين والمشيئتين للابن، وبانبثاق الروح القدس عن الأب والابن** وهم في ذلك مثل الكاثوليك، لكنهم يرفضون صكوك الغفران، والرهبنة، وعصمة البابا، وتقديس رجال الكنيسة، والإيمان بالتحول.

قال (جورج): أحب أن أشير إلى أن الكنائس اختلفت أيضاً حول الصور والتماثيل في الكنيسة، وانقسمت بين مُحَرِّم لها، حسب قرار المجمع الإقليمي السادس عام ٧٥٤م، وبين مُحِلٍ لها حسب المجمع السابع في نيقية عام ٧٨٧م والذي سُمي **مَجمع نيقية الثاني**، الذي أمر بتعليق الصور في كل مكان، وليس في الكنيسة فقط.

ـ البحث الخامس:

عودة إلى (بولس)

قلت لـ(دايفيد): تعال ننظر في الموضوع من الجهة الأخرى، إن ما سردته عن خطة (بولس) مُبرهَنٌ ومُقنِعٌ، ولكن ألا ترى معي أنك قد تحاملت عليه أكثر من اللازم؟ لقد قرأتُ في أعمال الرسل، عن المصاعب الكثيرة التي لاقاها (بولس) في سبيل الدعوة إلى المسيح، لقد ضُربَ وسُجن وأُهين ورُجم من قِبَلِ اليهود، ألا يدل هذا على صدق نواياه، **وأن المسيح ظهر له مؤنباً على ما كان يقوم به ضد المسيحيين، وباعثاً إياه رسولاً ليدعو إلى تعاليمه، وأنَّ ما تقوله عن إرسال اليهود له بمهمة سرية غير صحيح؟**

قال (دايفيد): لقد كان (بولس) نشيطاً جداً ودائم الحركة، وفعلاً إنه عانى كثيراً، ولكن هذا ليس غريباً على شخص يتمتع بمثل صفاته، قرر أن يتحمَّل كل ما يلزم، والمضي في الطريق التي رسمها لنفسه، متوقعاً كل تضحية في سبيل نقاء شعبه (شعب الله المختار)، وطبعاً من غير المتوقع أن يَعترف لكل من يُعذبه من اليهود أو غيرهم، أنه إنما يُمثِّلُ دور البطولة، بل إنه قد وظف هذا الاضطهاد لصالح ما يدعو إليه.

وأما قولك عن عدم معرفة اليهود بمهمته فعذبوه، فالجواب هو ضمن سؤالك نفسه، فالمهمة سرية للغاية، ويَعْلَمُها من أرسله فقط، و(بولس) قَبِلَ المهمةَ بشروطها وخطورتها، أو أنه كما قُلْتُ لكَ: إنه قرر ذلك خدمةً لدينه، دون علم أحدٍ، والاحتمالان مقبولان.

فقلت: لنفترض جدلاً، أن حادثة ظهور المسيح الأُولى له كانت صحيحة، وليس تمثيلاً كما قلتَ، وأنه من كثرة محبته للمسيح، وحرصه على نشر تعاليمه على أوسع نطاق، سمح لنفسه أن يدعو الأميين ليكثر عدد المؤمنين به، وأنه تصور أن اعتماد دعوته على تغيير معنى تعبير (ابن الله) إلى ما قد علمنا، وتساميه في المديح حتى تَصوَّرَه ابناً حقيقياً يدين الناس، ويحكم كل العالم ويجلس عن يمين أبيه، إنما بهذا يُفيد الدعوة، ولكنه لم يكن يتصور أن اللاحقين سوف يُصعِّدون تصوره هذا، إلى مناقشة المشيئة والطبيعة اليسوعية وانبثاق الروح، ألا يمكن القول إنه فعل ذلك عن حسن نيَّة؟

فقال: إنك تذكرني بمحامٍ يدافع عن قضية لا يؤمن بها!. إن افتراضاً كهذا يعني أن (بولس) كان غبياً، شطحت به أفكارُه، وسبب عن غير قصد تدمير دين وتحريفه... بينما هو بنفسه ينبهُ عن ذكائه في:

– كورنثوس الثانية (١١:١٦): "أقول أيضاً لا يظنُّ أحدٌ أني غبي...".

كما أن تفوقه على أقرانه في اليهودية، حسب:

– رسالته إلى أهل غلاطية (١:١٤): "وكنتُ أتقدَّم في الدِّيانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت أَوْفَرَ غَيرةً على تقليدات آبائي".

وإتقانه خمس لغات، ودراسته في المدارس الإغريقية، وتعلمه في القدس، كل هذا يدل على أنه ليس الشخص الذي يجري خلف أوهامه، بل الذي يسحب رغباته، ويُطوع أسلوبَ حياته حسب أفكارٍ آمن بها، ونفذها وفق خططٍ مسبقةِ التصميمِ... إنه ضحى بنفسه بكلِ رضىً، في سبيل تنفيذ ما آمن به من التوراة وهو يأمل أن ثوابه سيكونُ عظيماً من الله.

وأما قبول فرضية حادثة الظهور، فهي ستجرك إلى قبول كل ما يقوله، لأنه يقول: إن ما يدعو إليه ليس من تعليم إنسان، بل من تعليم يسوع المسيح بمشيئة الله... حسب غلاطية (١:١)، ولقد أسند كل ما دعا إليه إلى يسوع، ولكن مناقشة ما دعا إليه مناقشة موضوعية تُظهر الاختلاف الشديد عن تعاليم المسيح نفسه. وهنا نتساءل: يا ترى، هل غيَّر المسيحُ (أو الله) خطة دعوته بعد أن رُفع إلى السماء وقال: ادعوا الأمم حسب غلاطية (١:١٥-١٦)؟! ثم نادى بإله له ابن، فكانت بداية التثليث الذي ورد في متَّى (٢٨:١٩)، وكما في رسالة يوحنا الأولى (٥:٧)؟.

حتى إن حادثة الظهور لـ(بولس) فيها تناقض ذُكِرَ في جلسة سابقة، ثم لماذا لم يصدر عن يسوع نفسِهِ في أثناء وجوده أن له صفاتٍ لاهوتيةً كاملة، وأنه جاء للفداء على الصليب تكفيراً لخطيئةِ آدم؟.

حتى إن يسوع لم يتعرض لخطيئة آدم أبداً، لقد قال في عدة أماكن إنه سيصعد إلى أبيه وصعد فعلاً، ولكنه لم يقل إنه سيصلب قبل ذلك. كما أن أكثر ما قاله يسوع المسيح عن نفسه، هو إنه (ابن الله)، ووصف كل المؤمنين بأنهم أبناء الله!!. وعندما تكلم عن الله ذكر أحياناً تعبير (أبي)، بالمعنى الذي ورد في يوحنا (١:١٢)، ولكنه في الوقت نفسه عندما علَّم تلامذته الصلاة، قال لهم:

قولوا أبانا الذي في السموات. لماذا ننسى أنه كان يركز دائماً على تعبير (ابن الإنسان) عندما يتكلم عن نفسه، إنَّ تحريف هذا المعنى كان من الذكاء بحيث إنه وافق أكثرية الأمميين، الذين ألِفوا الديانات الإغريقية الوثنية، التي كان لديها تثليث من الأب والابن والروح، والذين ألفوا الفلسفات التي تقول: إن العالم يحكمه العقل المفكر، والعقل الخالق، والعقل المُدَمِّر، فكانت دعوة (بولس) تجسيداً لما ألفوه أو آمنوا به، حيث كان كثيرون يتذكرون المسيح، ويتناقلون معجزاته التي تليق بإله أو ابن إله، ودخولهم المسيحية كان تحقيقاً لذلك.

ليست المشكلة مشكلة مشيئة وطبيعة فقط، بل مشكلة بنوة لله بالمفهوم والمقصود، والتي هي أساس ظهور مشكلةُ الطبيعة والمشيئة، لقد نطق يسوع المسيح بمعنى البنوة لله، ولكن المقصود منها والمفهوم عند عامة السامعين، كان مفهوماً بريئاً لا يجعل لله ابناً، ولكن (بولس) حَوَّل المقصود من البنوة، وجعل مفهومها يشير إلى ابن الله من طبيعته، وأضاف إلى البنوة سلسلة الفداء المأخوذة من الديانات الإغريقية واليونانية القديمة، التي كان قد أتقن دراستها.

مهما كان السبب الذي دفع (بولس) إلى تحريفات من هذا النوع، إلا أنه يجب الاعتراف، بأنه نجح في ترويج الأفكار الغربية، غير التوحيدية التي رفضها اليهود المسيحيون، وكثيرٌ من (الأمميين المسيحيين) الذين سُمُّوا فيما بعد الآريوسيين.

إذن... لا تظن أنه بمجرد أن دعا (بولس) إلى أفكاره هرع الناس إليها، بل كان هناك رفضٌ دائم، والدليل على ذلك أن بعض المؤمنين بما يقوله قد تخلوا عنه، وقبلوا دعاة آخرين مسيحيين موحدين، فقد ذكر في رسائله عن تراجع أهل آسيا عن تعاليمه حسب:

- تيموثاوس الثانية (١٥:١): "أنت تعلم هذا أنَّ جميع من في آسيا ارتدوا عني..."(٣٢٩).

---

(٣٢٩) انظر ص ٣٦٤/٣٦٥، من هذا البحث، الهامش رقم ٢٧١/ب.

واضح أن تراجعهم هو بسبب الأفكار التثليثية، التي كان يروج لها.

قلت متحيراً: وماذا تقول في (برنابا) الذي رافق (بولس) في بعثاته، وكما تعلم لـ(برنابا) مكانة جيدة بين تلاميذ يسوع، وهو أول من رافق (بولس) إلى التلاميذ، وأقنعهم به، علماً أن لـ(برنابا) إنجيلاً باسمه، اكتُشفت أول نسخةٍ منه في مكتبة الفاتيكان في القرن الخامس الميلادي -أي قبل ظهور الإسلام بقرنين- وهو إنجيل توحيدي، فكيف وافق (برنابا) (بولسَ) ولم يعارضه؟

فقال (دايفيد): إنها ملاحظة جيدة تستحق المناقشة، تأمل معي أولاً أن بداية (بولس) في الدعوة كانت ثلاث سنوات دون أن يقابل أحداً من تلاميذ المسيح، ثم عاد إلى القدس ليتعرف بـ(بطرس) خمسة عشر يوماً، لم يقابل فيها من التلاميذ سوى (بطرس) و(يعقوب) ثم سافر، وبعد أربعة عشر عاماً لم يقابل بها أحداً من التلاميذ، ثم عاد مع (برنابا) إلى القدس، حيث عرَّفه (برنابا) بالتلاميذ الذين كانوا حتى ذلك الوقت يخافون (بولس)!. تصور بعد أربعة عشر عاماً من دعوة (بولس) والتلاميذ لم يقتنعوا بصدق (بولس)، وكانوا يخافونه... استمر (برنابا) مع (بولس) حتى عام ٤٩م. ولكن الغريب أننا لم نسمع لـ(برنابا) أي صوت، بل كان يظهر كتابع لـ(بولس)، وهذا غريب على شخص له إنجيل يسمى باسمه، وكان (بولس) هو المتكلم دائماً في أثناء وجودهما معاً، حسب:

- أعمال الرُّسل (١٢:١٤): "...إذْ كان هو المتقدِّم في الكلام".

الملاحظ أنه لم يعد لـ(برنابا) ذكر بعد خلافه مع (بولس)، ألا تثير هذه الملاحظاتُ الشكوكَ حول صدق العلاقة بين (بولس) و(برنابا)؟

فقلت: كأنك تحاول القول إنَّ (بولس) استطاع تحجيم نشاط (برنابا)[٣٣٠] الذي رفض تغطية أفكاره، كما رفض صلب المسيح؟ **وإنَّ هذا هو سبب صحبته له ليكون تحت التأثير المستمر لشخصية (بولس) القوية.**

قال (دايفيد) منفعلاً: بالضبط، كما أنه استطاع التأثير في (بطرس)، ذي الجسم القوي والإرادة المزعزعة، بدليل إنكاره للمسيح ثلاث مرات، حسب تنبؤات المسيح له قبل القبض عليه حسب:

(٣٣٠) – من كتاب "نظرات في إنجيل برنابا" للكاتب محمد علي قطب، أخذتُ بعض المعلومات بغرض العلم بالشيء، وهي كما يلي:

أ – برنابا حواري من أنصار المسيح،لم نقف على ذكر لإنجيل "برنابا" في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا "جلاسيوس الأول" في بيان الكتب التي تحرُمُ قراءتُها، فقد جاء في ضمنها إنجيل "برنابا" وكان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد. الكتاب أعلاه، ص٣٥،

ب – في مقدمة إنجيل "برنابا" ورد: "أيها الأعزاء ... إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة. للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان **لتضليل كثيرين بدعوى التقوى.** مبشرين بتعليم شديد الكفر، **داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أقره الله دائماً،** مجوزين كل لحم نجس، **الذين ضَلَّ في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته.** الكتاب أعلاه، ص ٥٢-٥٣.

ج – "قال يسوع: إني أشهد أمام السماء. وأشهد كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر... لأني بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله". آخر الفصل الثالث والتسعين من الإنجيل. الكتاب أعلاه، ص٥٣.

د – "الحق أقول لكم: إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه المؤمنون أنه يسوع،كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً، لأن يسوع لا يموت إلى وشك انقضاء العالم، لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم". الكتاب أعلاه، ص ٦٨.

و – يسوع لم يصلب ولم يمت، بل رفع، الكتاب أعلاه، ص ٧١.

ز – النسخة الإيطالية لإنجيل برنابا تقول: "إنه لما جاء يهوذا الخائن مع الجند الرومان ليسلم يسوع على أيديهم كان يسوع يصلي في البستان، بجانب الغرفة التي كان التلاميذ فيها نياماً، فلما أحس بالجنود خاف فدخل الغرفة، **فلما رأى الله الخطر المحدق به أرسل ملائكته الأربعة فاحتملوه في النافذة إلى السماء الثالثة،** فلما دخل يهوذا الخائن الغرفة غيَّر الله بآية مَنظَره وصوته، **فصار نظير يسوع تماماً،** فلما استيقظ التلاميذ ورأوه لم يشكوا في أنه هو يسوع". الكتاب أعلاه، ص ١٢.

ط – النسخة الإسبانية تنطبق تماماً على الإيطالية، إلا أن الأولى تقول: "...إلا (بطرس)...". أي إنها استثنت بطرس من عداد التلاميذ، الذين لم يشكوا في أن يهوذا هو يسوع. الكتاب أعلاه، ص ١٢.

– متّى (٢٦:٣٤): "قال له يسوع الحق أقول لك إنك في هذه الليلة قبل أن يصيحَ دِيكٌ تنكرني ثلاث مرات".

وما زيارة (بولس) لأورشليم للمرة الأولى، إلا للتعرف على (بطرس) الذي آلت إليه قيادة التلاميذ، حسب:

– يوحنا (٢١:١٥-١٧): "...ارع خرافي... ارع غنمي... ارع غنمي".

بُغية التأثير عليه معتمداً على قوة شخصيته، وضعف شخصية (بطرس)[٣٣١]، فقابله خمسة عشر يوماً ملأ فيها قلبه بتسامي يسوع المسيح، وتميزه عن البشر بالولادة المعجزة، وأنه لا بُدَّ له من أن يكون ابناً حقيقياً لله، **فيه الإلهُ الكاملُ والإنسان الكامل.**

ولكن بعد الانتهاء من الاستفادة منه، سرعان ما اغتنم (بولس) فرصة وجود (بطرس) مع الأمميين يأكل معهم حسب:

– غلاطية (٢:١٢): "...كان يأكل مع الأممِ... خائفاً من الذين هم بالختان".

فجزع (بولس) أن يحاول (بطرس) بث بعض الأفكار المخالفة لما يدعو إليه هو، فأنبه علناً متهماً إياه بأنه يعيش أممياً، ويدعو الناس أن يتهودوا، كما جاء في:

– رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٢:١٤-١٥): "...قلتُ لبطرس قُدَّام الجميع إن كنتَ وأنت يهوديٌّ تعيشُ أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟ نحن بالطبيعة يهودٌ ولسنا من الأمم خطاةً".

(٣٣١) حاول الربط ولو من بعيد بين اختيار بولس لبطرس من بين التلاميذ لزيارته، وبين ما جاء في النسخة الإسبانية من إنجيل برنابا، حيث كان بطرس الوحيد من بين التلاميذ، الذي شك أن يكون المقبوض عليه هو يسوع عليه السلام، بالرغم من الشبه الكبير الذي صار عليه يهوذا، وبين تأثير هذا على مُحمل خطة بولس لتحريف المسيحية، **فتخلُصُ إلى نتيجة بأن هدف الزيارة الحقيقي هو لإقناع بطرس بأن المصلوب هو المسيح نفسه، وإزالة الشك الذي كان يعتريه،** والذي يؤكد نجاح هذا الهدف من الزيارة هو اختفاء أي حديث أو ذكر لبطرس، بعد افتعال بولس مشكلة مع بطرس، حسب رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٢:١٢-١٥)، وذلك بغرض إزاحته وإبعاده عن طريق المسيحية الصحيحة.

من بعدها لم نسمع عن (بطرس) أيضاً، وبذلك يكون (بولس) قد أقصى (بطرس) رئيس التلاميذ، كما أقصى الحواري الموحِّدَ (برنابا)[٣٣٢] (الذي روى في إنجيله قصة مختلفة للقبض على يسوع يدل فيها، على أن يسوع رُفع إلى السماء ليلة محاولة القبض عليه، وكيف تحول (يهوذا) إلى (شَبَهٍ ليسوع)، وأقصى أيضاً رئيس التلاميذ (بطرس).

ـ البحث السادس: (يهوذا)...؟ أم يسوع على الصليب؟

قال (ليفي): إنه ليس من الحكمة الاستشهادُ بإنجيلٍ يعدُّه المسيحيون مرفوضاً، كما أنك تعلمُ أن الشخص المعتَقَلَ الذي كان حسب (برنابا) هو (يهوذا)، لم يصر خلال المحاكمة على قوله إنه ليس يسوعَ، حتى ولا أثناء الصلب، أليس هذا اعترافاً منه بأنه يسوعُ فعلاً؟ أليس من الأفضل أنه لو كان يكرر قائلاً: "أنا لست يسوعَ أنا (يهوذا)"؟

قال (دايفيد): هناك عدة احتمالات، إما أنه قالها في أثناء القبض عليه، ولم يصدقه أحد حسب ما ورد في (برنابا)، خاصة الذين يعرفون وجه يسوع، فمَلَّ وتوقف عن ذلك وقد عرف الحقيقة، وتأكدت له خيانته فاقتنع بالقصاص؛ أو أن الله جعله لا ينطق بها عقوبة له على خيانته ليسوع، وهذا ليس صعباً على الله، ثم هل لاحظت جوابه للحاكم عندما سأله هل أنت المسيح؟ حسب:

- متّى (٢٦:٦٣-٦٤): "...هل أنت المسيح ابن الله. قال له يسوع **أنت قلت... وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة...**".

(٣٣٢) قارن أيضاً بين إقصاء بولس لبرنابا بعد أن استغله لتعريفه على التلاميذ، وبين مقدمة إنجيل برنابا، التي ذكر فيها سبب كتابته لإنجيله فقال: "...بأن الذين ضَلَّ في عدادهم بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته". انظر الشرح في الهامش رقم ٢٢٤.

نتساءل: لماذا لم يُجب بنعم أنا هو؟

وأيضاً انظر إلى ما ورد في:

- لوقا (٢٢:٦٦-٧٠): "...اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين إن كنت أنت المسيح فقل لنا، فقال لهم **إنْ قلتُ لكم لا تصدِّقون**، وإن سألتُ لا تجيبونني ولا تطلقونني، **منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله**، فقال الجميع أفأنت ابن الله فقال لهم: **أنتم تقولون إني أنا هو**".

ألا يدل هذا على أنه ملَّ قول الحقيقة دون أن يصدقه أحد، فقال لهم: إن قلتُ لكم لا تصدقوني **-لأنهم يرون فيه صورة المسيح-**، ثم نتساءل كيف يكون ابن الإنسان الآن أمامهم يُحاكم؟ وفي الوقت نفسه "...ومنذ الآن..." يكون عن يمين الله؟ **إنَّ الأقرب للمنطق أن تُفسر بأن الذي يقول هذا الكلام هو غير الذي يجلس على يمين الله؟** وأنه يئس من تصديقهم له بأنه ليس يسوع فأخذ يجيب بـ**(أنتم تقولون إني أنا هو!)** في حين أنه في تلك اللحظة كان يسوع بالفعل في السماء و(يهوذا) هو الذي يُستجوب.

أما إذا لم تشأ أن تصدق كلام (برنابا)، عن مشاهدته لصعود يسوع من الشباك فهل يمكن أن تفسر لي **لماذا سقط الجنود أرضاً عندما قَدِموا للقبض على يسوع؟** حسب:

- يوحنا (١٨:٣-٦): "فأخذ يهوذا الجند وخدّاماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين، وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون؟ أجابوه يسوعَ النّاصري. **قال لهم يسوعُ أنا هو، وكان يهوذا مُسلِّمه أيضاً واقفاً معهم، فلما قال لهم إني أنا هو. رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض**".

تعال معي نحلل الموقف: إن الجنود يعلمون أنهم قادمون للقبض على إنسان متّهم بالتحريض ضد الإمبراطور حسب اتهام اليهود له، وهم قد تعودوا مثل هذا العمل، فما هو تبرير أن يسقطوا أرضاً عند سماع اسمه ورؤيته؟ **هل كانوا يسقطون في كل مرة يلقون فيها القبض على مجرم؟** أم هي قدرة الله ومشيئته التي أسْقَطتْهم (مغشياً عليهم) في هذه المرة بالذات لتنفيذ عملية رفع يسوع وتبديله بـ(يهوذا)؟ إنَّ هذا دليلٌ إضافيٌ مقبولٌ من إنجيل (يوحنا) المعترف به؟.

هل تساءل أحدٌ لماذا برّأ البابا اليهودَ من دم المسيح؟ هل هي تبرئة اقتناع أم تبرئة تواطؤ؟

وتابع (دايفيد) قائلاً: إنني شخصياً أبرئ البابا من تهمة التواطؤ مع اليهود، فهل هنالك جواب مقنع غير أنه **اقتنع** بطريقة ما، **بأن اليهود بالفعل، ما صلبوا شخصَ المسيحِ نفسه، بل صلبوا شخصاً غيره؟**

فقال (ليفي): حسناً، إذا كان (يهوذا) هو المصلوب وهو المدفون **فمن الذي شنق نفسه؟** أظن أنك لن تجد جواباً لهذا.

فابتسم قائلاً: لو قرأتَ العهد الجديد بتمعنٍ لما سألت هذا السؤال وذلك لسببين:

١ – قصة الشنق:

مشكوك فيها أصلاً لأنها وردت على شكلين متناقضين:

أ – مرة أنه **خنق نفسه** حسب:

– متّى (٥:٢٧): "...ثم مضى وخنق نفسه".

ب– ومرة وردت أنه **سقط وانشق بطنه** حسب:

– أعمال الرسل (١٨:١): "فإنَّ هذا اقتنى حقلاً من أُجرة الظلم وإذ سقط على وجهه وانشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها".

٢ـ قصة الدفن:

إن بقاءه في القبر كان من مساء الجمعة إلى ما قبل صباح الأحد، حيث جاءت مريم المجدلية ولم تجده في القبر وذلك حسب:

– متّى (٤٥:٢٧–٥٠): "ومن الساعة السادسة[٣٣٣] كانت ظلمةٌ على كل الأرض إلى الساعة التاسعة. ونحو الساعة التاسعة صرخ بصوت عظيم قائلاً: إيلي... إيلي لِمَ شبقتني؟ أي إلهي... إلهي لماذا تركتني؟ وأسلم الروح".

– متّى (١:٢٨– ٦): "وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدليه ومريم الأخرى لتنظرا القبر. وإذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه... فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا، فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب، ليس هو هَهنا لأنه قام كما قال..."

– يوحنا (١:٢٠–٢): "وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً والظلام باق فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر. فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه وقالت لهما أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه"[٣٣٤].

نعلم أن أول أسبوع اليهود هو صباح الأحد، وإذا لاحظنا أن العهد الجديد لم يُحدد موعداً مؤكداً لموت (يهوذا) قَبْل صبيحةِ الأحد، **فَلِمَ لا يكون قد خرج من القبر في وقت ما بين مساء السبت بعد الدفن وصباح الأحد وقتل نفسه شنقاً، لأنه لم يتحمل تيقنه من خيانته ليسوع.**

(٣٣٣) من يوم الجمعة بدليل ما جاء في مرقس (٤٢:١٥–٤٦): "ولما كان المساء إذ كان الاستعداد، أي ما قبل السبت. جاء يوسف...".

(٣٣٤) لاحظ أن يوحنا لم يذكر الزلزلة ولا وجود الملاك عند القبر، وهذا إن صح يُعَدُّ حدثاً هاماً لا يصحُّ تجاهله.

قلتُ: إن هذا مجرد استدلال قائم على احتمال، والاحتمال يفسد الاستدلال، في حين نجد أن القول الآخر وارد في الإنجيل وذلك أقوى.

فقال (دايفيد): إن الإنجيل لم يقل ما يناقض ذلك زمنياً، وهذا يقوي الاستدلال، كما أن قصة موته لم يتعرض لها (مرقس) ولا (لوقا) ولا حتى (يوحنا) في أناجيلهم، فهل علم بقصة الشنق صاحب إنجيل متىً فقط؟ وهل قصة الشنق صحيحة أصلاً؟

إن قصة موت (يهوذا) في الحقل، تحتاج إلى وقت أطول من صباح الأحد لإنجازه، كشراء الحقل والذهاب إليه، حيث سقط فيه وانشق بطنه، فالموت بناءً على ذلك حصل على الأقل بعد (الظهور)، **ولا يوجد دليل على تلاقي المسيح و(يهوذا) بعد الدفن، وهذا يُعَدُّ برهاناً قوياً على صحة صعود يسوع قبل عملية الصلب، وعلى صلبِ (يهوذا) نفسه.**

إن التناقضات التي وجدت في (الكتاب المقدس)، قد قَتَلَتْ مصداقيته الحرفية، وبذلك يمكنك محاكمة كل نص فيه والشك فيه، دون أن يدخلك خوف من أنك إنما تناقش كلاماً إلهياً خالصاً، وسوف أوضح لك ملابسات الصلب وإمكانية موت المصلوب أم لا، وإمكانية بقاء المدفون حياً في القبر أم لا، وملابسات الظهور وذلك عندما نناقش سلسلة الفداء.

ـ البحث السابع:

هل المسيح ابن الله حقاً؟

ومع آخر نفَسٍ عبر السيجار الخانق قرأت في عينيه سؤالاً يقول هل لديك استفسار آخر؟

فقلت له بتردد: أرجو ألا تغضب إذا سألتك هذا السؤال.

فقال: لا بأس.

قلت: لِتَنسَ (بولس) قليلاً وتأثيره الساحر في مستمعيه، وأريدك أن تناقش لي سؤالاً هاماً مناقشة عامة، هل يمكن أن يكون المسيح ابن الله حقاً؟.

فاحمر وجهه غضباً، وعجِبْتُ لمن قال بأن الإنكليز من ذوي الهدوء المعهود والدم البارد، فسارعتُ قائلاً: تذكر وعدك.

سادت فترة صمت طويلة، قطعتُها بقولي لستَ مضطراً إلى الإجابة، سأحاول أن أُلملم المعلومات التي أخذتُها منك مع بعض الشواهد من العهد الجديد، وربما أخلص إلى نتيجةٍ ما، وفي أثناء ذلك طلبت له كأساً من عصير الفواكه الطازجة الباردة لأخفف من احمرار وجهه.

أخذ (دايفيد) يكرر بصوت منخفض ما قلته له، هل المسيح ابن الله حقاً؟... عدة مرات... ثم قال: طبعاً لا... لا يسوعُ ولا غيرُه ابنٌ لله بالمعنى الحرفي للكلمة.

إنها مواضيع شائكة جداً!. ولكن باتباع التسلسل المنطقي للحوادث الواردة في الإنجيل، ومناقشتها بصدر رحب دون مكابرةٍ، يوصلنا إلى الحقيقة الواضحة، التي يمكن إثباتها من الإنجيل نفسه.

أولاً: أدلة مؤلِّهي المسيح التي أدَّت إلى عَدِّه ابن الله تنحصر في:

١ ـ الدليل الأول: الوجود الخارق، بولادة من غير أب.

٢ ـ الدليل الثاني: إحياء الموتى، وشفاء المرضى.

٣ ـ الدليل الثالث: القيام من الأموات، والصعود إلى السماء.

لنناقش هذه الأدلة كلا على حدة:

ثانياً: نقض أدلة المؤلهين:

ـ نقض الدليل الأول:

الولادة البشرية من غير أب، كانت الحجة الأساسية التي استخدمها؛ ويستخدمها المؤلّهون في إثبات بنوّة المسيح، وفي ذلك يقولون:

أ – إنّ يسوع هو ابن الله الحقيقي، أنزله إلى الأرض لفداء المؤمنين به من الخطيئة.

ب– إن للمسيح طبيعة لاهوتية، وأنه كالشعلة من الشعلة انبثقت عنها دون أن تؤثر على الأصل، لذلك فهما اثنان في واحد!.

جـ– كان الله يرسل بشراً رسلاً، أما الآن فأرسل ابنه حسب:

– غلاطية (٤:٤–٥): "ولكن لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس".

فنقول: إذا كنتم تعنون أن يسوع هو ابن الله الحقيقي، وتقصدون به منطوقَ الكلام، فلماذا كان يقوم بالأعمال البشرية كالأكل والشرب والنوم؟ ولماذا كان يشعر بالجوع والألم والتعب؟ حسب:

– متّى (١١:١٩): "...أكول وشرِّيب[٣٣٥] خمر...".

– متّى (٢١:١٨): "...وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع...".

– ومتّى (٢٦:٣٧–٣٨): "...يأكل...".

– ولوقا (٢٢:٤٤): "...يصلي ويعرق...".

(٣٣٥) لاحظ الصيغة التي وردت، والتي تعني "**أنه كثير شرب الخمر**"، وهذا يخالف صفات الأنبياء.

فإن قالوا: ما دام أنه يعيش **بين الناس** فلا بُدَّ له من أن يتصرف مثلهم ويتقمص حاجاتهم ولذلك نؤمن بأن له أيضاً طبيعة ناسوتية.

نقول: ولكنه كان **يعتزل الناس** ويصلي ليلاً والتلاميذ نائمون حسب:

– حسب متّى (٢٦:٣٩): "ثم تقدّم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي قائلاً يا أبتاه فلتعبر عني هذه الكأس...".

– حسب لوقا (٥:١٦): "وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلي".

– حسب لوقا (٦:١٢): "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي. وقضى الليل كلّه في الصلاة لله".

كل ذلك في غياب الناس ولا داعي لمسايرة أحد.

ونضيف قائلين: إذا كان قد قال إنه ابن الله حقيقة، وإن له طبيعة إلهية، فإنهم لن يستغربوا منه ألا يتصرف كالبشر، بل سيستغربون من أن إلهاً ابن إله يتصرف كالبشر، وهذا سيُضعف من برهانه أنه إلهيُ الجوهر.

فإن قالوا: إنه كان يتخفى خلف الصفات البشرية.

نقول: وكيف اكتشفتم أنتم حقيقته، إذا لم يؤكدها؟ فإما أنه لم يتخف خلف الصفات البشرية، بل هي طبيعته البشرية الأصلية، إذن فهو ليس إلهاً، لأن التقمص هو من الديانات التعددية البوذية والهندوسية وغيرها... وهو مرفوضٌ مسيحياً في مجمع القسطنطينية الثاني عام ٥٥٣م، أم إنه فعلاً تخفى لكنه فشل في التخفي، إذن هو ليس إلهاً، لأن الإله لا يفشل في إخفاء شيء عن مخلوقاته والحفاظ على سره؟ وخاصة أنكم تقولون إنه بيسوع خلقَ الله الأشياء، حسب:

– كورنثوس الأولى (٨:٦–٧): "لكنْ لنا **إلهٌ واحدٌ الأب** الذي منه جميعُ الأشياء ونحن له، وربٌّ واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به".

فإذا لم يستطع المُثلِّثون تصور يسوع دون أب فنسبوه إلى الله، فكيف استطاعوا تصور حواء التي وجدت دون امرأة؟ وكيف استطاعوا تصور آدم وهو دون أب ولا أم وهم يؤمنون بذلك؟

إذا كانت الولادة الخارقة سبباً للألوهية فلماذا لا يكون (ملكي صادق (Melchizedek) ملك ساليم كاهن الله الذي ورد ذكره في:

– رسالة بولس إلى العبرانيين (٧:١-٣): "لأن ملكي صادق هذا ملك ساليم (أي ملك السلام) كاهن الله العلي الذي استقبل إبراهيم... راجعاً من كَسْرَةِ الملوك وباركه... بلا أبٍ بلا أُمٍّ بلا نَسَبٍ. لا بداءة أيامٍ له ولا نهاية حياة بل هو مشبَّه بابن الله هذا يبقى كاهناً إلى الأبد".

أحق بالألوهية من يسوع الذي له بداية ونهاية وله أُم؟

قال (مايكل): لقد قرأت مقالة[٣٣٦] بعنوان: (تقرير الأساقفة الأنجليكان الذي صدم الناس)، جاء فيه: "إنَّ أكثر من نصف أساقفة بريطانيا يقولون إن المسيحيين ليسوا مضطرين إلى أن يؤمنوا بأن المسيح كان إلهاً، وأن التصويت كان بين (٣١) أسقفاً، قال (١٩) أسقفاً منهم إنه يكفي عَدُّ المسيح رسولاً عظيماً، و(١١) أسقفاً قالوا إنه على المسيحيين أن يعدوا المسيح إلهاً وإنساناً، وامتنع واحد فقط عن التصويت".

هذه المقالة تدل على وجود صحوة تصحيحية لبعض مفاهيم المسيحية الأساسية.

إذن فالوجود الخارق ليس دليلاً كافياً على البنوّة، وهذا دحض للدليل الأول.

---

(٣٣٦) في الصحيفة البريطانية (الديلي نيوز) في عددها بتاريخ ١٩٨٤/٦/٢٥.

- نقض الدليل الثاني:

قلت: لكنَّ إحياءَ الموتى هو من اختصاص الله وحده، فإن قام به يسوعُ المسيح أفلا يدعم هذا الدليلُ ألوهيته، وبنوَّته لله؟

فقال: اعلم أن الله يمنح هذه القدرة لرسوله عندما تَسودُ الماديةُ المجتمعَ، كما حصل زمن المسيح، **ومعجزةُ إعادةِ الروح هو أقوى دليل على وجودها**، ولا يُعدُّ هذا دليل ألوهية النبي وذلك لأنه:

١- إن هناك أنبياء ورسلاً قبله وبعده أحيوا الموتى حسب ما ورد في العهد القديم:

أ- حزقيال يحيي جيشاً كاملاً حسب:

– حزقيال (٣٧:١-١١): "...فقال لي يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت يا سيدُ الربُّ... أنت تعلم. فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب... ها أنذا أُدْخِلُ فيكم روحاً فتحيون... فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه، ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبُسِطَ الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي تنبأ للروح... فتنبأتُ كما أمرني فدَخَلَ فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً. ثم قال لي يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل...".

ب- إيليا يُحيي:

أحيا ابن صاحبة المنزل الذي ينزل فيه حسب:

– ملوك الأول (١٧:١٧-٢٢): "...فسمع الربُّ لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش...".

ج ـ أليشع يحيي صبياً حسب:

- الملوك الثاني (٤:٣٢-٣٥): "ودخل أليشع البيت وإذا بالصبي ميت ومضطجع على سريره... وصعد وتمدد عليه فعطس الصبيُ سبع مرات ثم فتح عينيه...".

د ـ أليشع يُحيي الميتَ وهو نفسُه ميتٌ:

دُفن ميت في قبر أليشع ولما لمس الميت عظامه قام يمشي حسب:

- الملوك الثاني (١٣:٢٠-٢١): "ومات أليشع فدفنوه وكان غُزاةُ موآب تدخلُ على الأرض عند دخول السنة.وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر أليشع فلما نزل الرجلُ ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه".

لم يقل عنهم أحد إنهم أبناء الله حقيقة، **إذن إحياء الموتى أيضاً ليس دليلاً على البنوّة** ، وهو دحض للدليل الثاني.

و ـ (بطرس) يُحيي حسب:

- حسب أعمال الرسل (٩:٤٠): "فأخرج بطرس الجميع... وصلى ثم التفت إلى الجسد وقال يا طابيثا[٣٣٧] قومي. ففتحت عينيها...".

٢ـ أعطيت قدرةُ إعادة الحياة لغير الإنسان:

كما أن إعطاء اللهِ صلاحيةَ إحياءِ الموتى، لبعض أنبيائه، إنما هي إحدى المعجزات المرافقة لهم، ودليل على قدرةِ الله المطلقة في اختراق قانون الأسباب، وحتى لا يَغْتَرَّ الإنسانُ بنفسه، فقد منح الله مثل هذه القدرة للحيوانات، وقصة البقرة عند اليهود معروفة، إذ طلب الله منهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا ببعضها القتيل، فقام من موته ودلَّ على قاتله.

(٣٣٧) اسم أنثوي يهودي يعني "غزالة" في اللغة العربية

٣ـ معجزات أقوى من إعادة الحياة:

معجزة الرسول موسى فيها قدرة أكبر، فالكل أعادوا حياة كانت لأحياء، في حين نجد أن موسى قد حوّلَ عصاه -بإذن الله- التي لا حياة فيها إلى حيّةٍ حقيقيةٍ تسعى.

مثل هذه المعجزات لا تدل أبداً على قدرة فاعلها، بل تدل على قدرة الله المانح لهذه القدرة.

معجزة النبي صالح: حيث أخرج الله له الناقة من الصخرة، كانت معجزة له في مواجهة شعبه.

ـ نقض الدليل الثالث:

فقلت لـ(دايفيد): ماذا لو صح قيام المسيح من الأموات؟ ألا يدل هذا على أنه ابن الله حقيقة، لم يشأ الله له البقاء في الأرض فأتى به عائداً إلى موطنه الأصلي؟

فقال: إن كنتَ تعني القيامة من الموت أي:

١ـ عودة الحياة إلى الميت:

فإن الذين أعيدت إليهم الحياة بعد الموت كثيرون جداً، حسب (الكتاب المقدس) كما قلنا، وإن الصحف اليومية أيضاً، مليئة بقصص أُناس عُدُّوا في عِداد الأموات من دقائق إلى أربعة أيام، وأي دار نشر عندها ما يؤكد ذلك، وحتى في الإنجيل عندما أحيا يسوعُ ابنة رئيس الجند، وقال إنها لم تمت، حسب:

- متّى (٩:٢٤): "قال لهم تنحَّوا فإن الصَّبيَّةَ لم تمت لكنها نائمة. فضحكوا عليه".

ولم نقرأ أنه قال ذلك عندما أحيا أخا مريم المجدلية، حسب يوحنا (١١:٤١-٤٤).

٢ـ الصعود إلى السماء:

أما إذا كنت تعني الصعود إلى السماء، فإنه حسب العهد القديم لم يكن المسيح أول الصاعدين، فقد صعد قبله:

أ ـ إيليا يُصْعَدُ به حسب:

– الملوك الثاني (٢:١١-١٢): "وفيما هما يسيران –إيليا وأليشع– ويتكلمان إذا مركبة من نار، وخيل من نار، ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء، وكان أليشع يرى وهو يصرخ يا أبي يا أبي مركبة إسرائيل وفرسانها، ولم يره بعد".

اليهود إلى الآن ينتظرون عودة إيليا، بدليل ما نراه في:

– يوحنا (١:١٩-٢١): "وهذه هي شهادة يوحنّا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أنه ليس المسيح، فسألوه: إذن ماذا؟. أإيليا أنت؟ فقال إيليا: لست أنا. أالنبي أنت؟ فأجاب: لا ".

– وفي يوحنا (١:٢٥): "وقالوا له فما بالك تُعمِّدُ إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي"، ولم يقل أحد: إنه ابن الله.

ب ـ أخنوخ يُصْعَدُ به حسب:

– تكوين (٥:٢٤): "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه"، **ولم يقل أحد إنه بسبب ذلك يكون ابن الله المولود.**

وهذا يدحض الدليل الثالث.

بشكل عام إنك إذا آمنتَ بالله ذي الصفات المطلقة، فلن تستغرب أن يقوم هو نفسه بالمعجزة كرفع الجبل فوق اليهود في سيناء، أو منح البشر معجزات

خارقة لفصل البحر في أثناء الهروب، أو حتى إعادة الحياة إلى الموتى، ومنها معجزات منحت لبعض العظام البشرية أو للحيوانات، كقصة البقرة التي ضُرِبَ بعضها القتيل فعادت إليه الحياة لبرهة ودلَّ على قاتله.

إذن فإن الأدلة الثلاثة التي اعتمدها المسيحيون المولهون، بُغية إثبات بنوّة المسيح الحقيقية لله **كالولادة الخارقة، وإحياء الموتى، والصعود إلى السماء** غير كافية ولا وافية لإنسان منطقي علمي يبحث عن الحقيقة دون مكابرة ولا تعصب.

فإن قال بعضهم: إن يسوع موجود منذ الأزل مع الله بلاهوته.

نقول له: هذا شرك بالله ومناقض للمنطق إذ يستحيل وجود واجبَيْ وجود.

وإن قالوا: قد خلقه.

فنقول: إذن هو مخلوق وليس إلهاً أو من صنف الإله.

وإن قالوا: مولود عن الله كالشعلة عن أصلها.

قلنا: وما حاجة الله لابن معادل له كالشعلة لأصلها؟ فيسقط الدليل لغياب المنفعة والحافز (Motive).

فإن قالوا: ليخلق به الأشياء.

قلنا: هذا يشير إلى عدم قدرة الله على الخلق المباشر، وهذا مستحيل، إذ إن أي حاجة لله لابن له يشير إلى نقصان في إطلاق الألوهية، وهذا مرفوض.

نحن نسعى في البحث عن إله لا يحتاج إلى أحد، وتحتاج إليه كل المخلوقات، إله مطلق الإرادة كامل الصفات إطلاقاً يليق بكماله. **يكون هو الحقيقة الكبرى.**

أما الأدلة التي تثبت عدم البنوة، ومذكورة في الإنجيل نفسه، فهي كثيرةٌ ومكررةٌ في أكثر من موضع لتأكيدها، أولها تأكيد يسوع في أكثر من خمسين موضعاً –أوردنا بعضها سابقاً– بقوله عن نفسه (ابن الإنسان).

وكما أشرت لك سابقاً، فإنه في بعض الأحيان يستعمل تعبير (أبي) مشيراً إلى الله، ولكن مفهوم كلامه كان يعني (إلهي)، بدليل قوله حسب:

- يوحنا (١٧:٢٠): "...ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم".

- يوحنا (١:١٢): "وأما الذين قبلوه، فأعطاهم سلطاناً أن يصروا أنهم أولاد الله، أي المؤمنون باسمه".

هنا نرى المساواة واضحة بين المسيح والمؤمنين في البنوة والأبوة، وهي تعني بنوة العقيدة وليست بنوة النسب، ويفسرها بوضوح بقوله: "أي المؤمنون باسمه".

تَدَخَّلَ (مايكل) قائلاً: إذا كنت ترفض تعبير (المولود لله) و(ابن الله)، وترفض القول "أنا ذاهب إلى أبي"، فبأي كلام يمكن ليسوع عن أن يُعبر أنه ابن الله المولود له فعلاً ليُقنِع سامعيه؟!.

سررت بهذا السؤال، لأنه كان يجول في خاطري ولم أسأله خوفاً من احمرار وجه (دايفيد) ثانية.

قال (دايفيد): إن يسوع ذكي وعاقل، فلو أراد التوضيح والشرح لما أعجزه الكلام، كما أنه لن يعجزك أنت نفسك، فإن لم تستطع نقل أفكارك بكلمة فسوف تستعمل جملة، وإن لم تكفِ الجملة فستستعمل الشرح الكافي، إن المسيح كلّم الكهنة فبهتوا من علمه وفصاحته، ولم يُفهم من كلامه أنه كان يقصد بنوة النسب.

ثالثاً: الأدلة القاطعة على عدم البنوة حسب مقصود (بولس)

التفت (دايفيد) إليَّ مخاطباً، لعل أقوى الأدلة على عدم البنوة هي:

١ ـ امتحانُ إبليس لـ(ابن الله) المسيح حسب:

- حسب لوقا (٤:١-٢): "...وكان /يسوع/ يقتاد بالرُّوح في البرية أربعين يوماً يُجَرَّبُ من إبليس...".

- حسب متّى (٤:١): "ثم أُصعِدَ يسوع إلى البرية من الروح ليُجَرَّبَ من إبليس".

هل تظن أن إبليس لا يعرف إنْ كان يسوع ابن الله حقاً أم لا، وهو الذي كان في حضرة الله قَبلَ خلق آدم.

هل تظن أنه كان يجرؤ على محاولة إغواء ابن الله الحقيقي -إن وجد-، إن عداوته هي مع بني آدم، وليست مع الله نفسه، إن إبليس مُعترفٌ بأن الله خالق كل شيء، وأنه هو نفسُه من ضمن ذلك الخلق.ويعلم أن أثره لا يمكن أن يتعدى إلى الله أو إلى ابن الله فيما لو وجد.

هل حاول إبليس إغواء الملائكة؟ طبعاً لا. لأنه يعلم أن الملائكة تعرف الله حقّ اليقين، فكيف يحاول إغواء ابن الله نفسه -إن وجد-؟

٢ ـ (بطرس) يُنكر ابن الله:

وتدخل (جورج) بوقار عمره الذي يناهز السبعين عاماً قائلاً: أود أن أضيف دليلاً آخر، حتماً لم يخفَ عن السيد (دايفيد)، ولكن بغرض المشاركة، وهو (بطرس) راعي الخراف بعد المسيح، **لو كان مقتنعاً بأن يسوع هو ابن الله بمعنى الكلمة**، فهل تظن أنه كان:

أ- سينكر يسوع ثلاث مرات في ليلة واحدة، قبل أن يصيح الديك، كما تنبأ يسوع له، حسب:

- متّى (٢٦:٣٤): "قال له يسوع الحق أقول لك إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات".

ب- نَهرَ يسوعَ عندما أراد يسوع الذهاب لأورشليم، حسب:

- متّى (٢٢:١٦): "فَأخذه بطرس إليه وابتدأ **ينتهره قائلاً** حاشاك يا رب،...".

٣ ـ التلاميذ يتخلون عن ابن الله:

لو كان تلاميذ يسوع فهموا من كلامه أنه إله ابن إله، فهل كانوا تخلوا عنه وهربوا عند محاولة القبض عليه، حسب:

- متّى (٥٦:٢٦): "...حينئذٍ تركه التلاميذ كلهم وهربوا".

خاصةً بعد المعجزات الخارقة التي كان يقوم بها يسوع.

٤ ـ الناس يؤمنون بأنه نبي الله:

لو كان يقول للناس ما يقنعهم أنه إله ابن إله، لَمَا قالوا حسب:

- لوقا (١٦:٧): "...قائلين قد قام فينا **نبيٌّ عظيم** وافتقد الله شعبه".

٥ ـ يسوع نفسه يطلب العون من الله:

لو كان إلهاً ابن إلهٍ، هل كان بحاجة أن ينظر إلى السماء عندما يقوم بمعجزة إحياء (لِعازر) -أخي مريم ومرثا- الميت في القبر منذ أربعة أيام، وكأنه يرجو المساعدة حسب:

- يوحنا (١١:٤١-٤٤): "...ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلتُ. **ليؤمنوا أنك أرسلتني**. ولّما قال هذا صرخ بصوت عظيم لِعازر هلُمَّ خارجاً. فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب".

٦ ـ الوثنيون الرومان:

لو كان الوثنيون الرومان، قد فهموا من كلام يسوع أنه ابن الله فعلاً، فهل كانوا ساعدوا في القبض عليه و(صلبه)؟

٧ ـ نقض أدلة أخرى للبنوة:

قال (دايفيد): حقاً، وهناك أمثلة مماثلة كثيرة.

فقلت: وماذا تقول في:

أ- يوحنا (١٠:٣٠-٣٨): "أنا والأب واحد. فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه... لأجل تجديفٍ. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً، أجابهم يسوع أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلت إنكم آلهة. إن قال آلهةٌ لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله... فالذي قدّسه الأب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدِّف لأني قلت إني ابن الله. إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي... فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الأب فيَّ وأنا فيه".

ب- يوحنا (١٤:٩): "...الذي رآني فقد رأى الأب..."

ج- رسالة يوحنا الأولى (٥:٧): "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد"[٣٣٨].

أليس في هذا اعتراف صريح من يسوع أنه ابن الله ومن طبيعته؟ أرجو ألا تَقُل لي إن كل هذا مُحرف ولا أصل له، لتتجنب المناقشة والشرح، فكيف تفسر هذا كله؟

فقال (دايفيد) بصوت الواثق من نفسه: اطمئن، لن أقول، ولكن تعال معي في رحلة قصيرة لنفسر ما قلتَه، ففي:

أ ـ أما ما قلتَه عن يوحنا (١٠:٣٠-٣٨)، فقد صحح يسوع نَفسُه لليهود

---

(٣٣٨) موجودة في: "الكتاب المقدَّس" -دار الكتاب المقدس المترجم.

- موجودة بالمعنى نفسه أيضاً في: "New King James Bible" للبروتستانت.

- أما في The Living Bible- "The Way" للبروتستانت أيضاً فقد وردت كما يلي:

"So we have these three witnesses: the voice of the Holy spirit in our hearts, the voice from heaven at Christ's baptism, and the voice of before he died. And they all say the same thing".

خطأ تفسيرهم لقوله إنه ابن الله، بقوله ما معناه **إذا كانت التوراة تُطلقُ على رجال المعبد الذين هم بشر لقبَ آلهة، فهل أكون قد جدَّفت إذ قلت إني ابن الله وأنا مثل رجال المعبد أدعو إلى الله؟** وهل فهم أحدكم يا معشر اليهود، أن رجال المعبد وعلماء اليهود الدينيين هم آلهة يستحقون العبادة؟ فلماذا تفهمون قولي خطأ؟ هل قلت لأحد إني أنا يسوع إله فاعبدوني، إني أعمل حسب أوامر **أبي وإني والأب واحد في القصد والغرض لا في الجوهر.**

لاحظْ أنه لو كان يسوع المسيح يقصد بكلامه أنه ابن الله حقاً ومن جوهره؛ لكانت هذه أفضل الفرص لإثبات ذلك وشرح بُنوَّته بتفصيل أكثر.

حتى في الحياة اليومية، كلنا يستعمل تعابير مثل "أنا وفلان واحد"، هل نفهم من ذلك غير أن أحدنا ينوب عن الآخر ويمثله؟.

ب ـ وأما ما قُصد به في يوحنا (٩:١٤)، فيجب أن تفهمه مقروناً مع بقية الآيات المرافقة لها، فنرى يسوع يقول حسب:

- يوحنا (٢:١٤-٦) : "...أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً،... قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين نذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق، قال لهم يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة".

هنا المعنى رمزي، فيسوع هو طريق الرحلة الروحية إلى الله، وقول توما: "أرنا الأب وكفانا"،كان يقصد الرؤية الحسية، كما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه جهرة، وبعدها أجابه يسوع بما معناه: ألا تعرف يا فيلبس لكونك يهودياً أن الله يستحيل رؤيته بالعين، والمقصود بالرؤية التي عناها المسيح بقوله: من رآني فقد رأى الله، هي رؤية المسيح من خلال تعاليمه التي هي تعاليم الله.

ونتساءل كيف نطابق ما سبق مع قول:

- يوحنا (١٨:١): "الله لم يره أحد قط...".

- يوحنا (٣٧:٥): "والأب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته".

ج ـ وأما عن رسالة يوحنا الأولى (٧:٥) التي ذكرتها، فإنك حتماً قرأتها في إنجيل الملك جيمس الجديد للبروتستانت، وليس في الطبعة المعدلة R.S.V أو New American testament للإنجيل، لأنها حُذِفت منها بأيدي العلماء المسيحيين المنطقيين، فقد اكتشفوا أنها مزورة، وليس لها أصل في المخطوطات الرئيسة، فجعلوها حسب:

- رسالة يوحنا الأولى (٥:٨-٩): "والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد"[٣٣٩].

تلاحظ أن الثلاثة تتجمع في الإنسان الذي يسكن الأرض.

وتابع (دايفيد) قائلاً: ليس أحلى ولا أدق من وصف (بطرس) ليسوع، حسب:

- أعمال الرسل (٢٢:٢): "أيها الرِّجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصريُّ **رجلٌ** قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده -أي بيد يسوع- في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون".

لاحظ أنه قال: "**رجل** قد تبرهن لكم من الله "، ولم يقل **إله** قد تبرهن من قِبَلِ الله.

---

(٣٣٩) لقد أعطوا الجملة نفسها رقمين، للمحافظة على التسلسل اللاحق للحمل.

- انظر كيف وردت في إنجيل الكاثوليك The Holy Bible -The New Revised Standard Version, "Three are there that testify: the spirit and the water and the blood and these three agree".

- أما في نسخة "الكتاب المقدس" -دار الكتاب المقدس، النسخة العربية، فقد وردت الجملتان كلتاهما، وجعلوا الأب والكلمة والروح القدس يشهدون في السماء، أما الروح والماء والدم فجعلوها تشهد في الأرض.

- البحث الثامن: التّثليث

أولاً: دلائل التثليث

فقلت لـ(دايفيد): وما قولك في ثلاثيات الطبيعة، التي سمعتها عن رجل دين مسيحي، عرضها عليَّ مُستَدِلاً بها على التثليث، حيث قال:

- المادة غازية وسائلة وصلبة، المادة واحدة والموجود ثلاثة أحوال.
- الشمس واحدة، تعطي ضوءاً ودفئاً وحرارة.
- للإنسان عقل وروح وجسد.
- الزمن واحد ولكن بثلاثة أحوال، ماض وحاضر ومستقبل.
- مراحل العمر ثلاثة: طفولة وشباب وشيخوخة.
- عظام الإصبع ثلاثة والإصبع واحد.
- إِن (بطرس) أعلن حبه لله ثلاث مرات، وأنكر يسوع ثلاث مرات.
- شهد الصعود ثلاثة حواريين.
- بقي يسوع في الأرض ثلاثة أيام
- استمر وجود يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام.
- بقي يسوع على الأرض ثلاث سنوات يدعو لله.
- أعاد يسوع الحياة لثلاثة أشخاص بمراحل ثلاث من الحياة.
- المصلوبون كانوا ثلاثة، وغيرها كثير.

أليست هذه الثلاثيات المتكررة دليلاً على ثالوث الله الواحد متمثلاً في الطبيعة؟

فقال (دايفيد):

- الأسبوع سبعة أيام.
- مدارات الذرة سبعة.
- البحور سبعة.
- السموات سبع.
- الكواكب سبعة.
- السنون العجاف زمن يوسف سبع.
- السنون الخصبة سبع.
- ألوان الطيف سبعة.
- عظام الرقبة سبعة، وغيرها كثير.

هل يدل هذا على أن الله الواحد ذو سبعة أقانيم؟

هل يُعقل أن نفكر بمثل هذا المستوى، عندما نناقش مسألة بهذه الأهمية؟

على كل حال:

- ليست مواد الطبيعة كلها ثلاثية الأحوال، فالشمس تعطي ضوءاً ودفئاً فقط، والحرارة ما هي إلا مقياس لدرجة الدفء، ثم ألم يخطر ببالك لماذا لا تضيء الشمس الكون ما بين الشمس والأرض، ولماذا الحرارة في مناطق أقرب للشمس من الأرض تكون تحت تجمد الماء بخمسين درجة، أين فعالية الشمس هناك؟ إن الموضوع ليس بهذه البساطة المطروحة.

- عن تقسيمك للزمن، أما سمعت عن أشخاص يعيشون حاضرهم فقط، وليس في حسبانهم ماضٍ ولا مستقبل، أو يعيشون الماضي فقط، فهل لدى هؤلاء ثلاث مراحل للزمن.

حتى إِن بعض الفلاسفة ينكرون الزمن الحاضر، ويفسرون ذلك بقولهم إننا عندما نقول: إِننا نفعل الآن شيئاً ما، نكون في الحقيقة متكلمين عن فعل إما انتهى

زمنه منذ زمن قصير جداً، أو إننا ستتابع فعله بعد الانتهاء من الكلام، لذلك نَعُدُّ الزمن المستقبل، ملتقياً بالزمن الماضي في لحظة طولها يتناهى إلى الصفر، نسميها جدلاً الزمن الحاضر.

– هل تجتمع الطفولة والشباب والشيخوخة **في شخص واحد في آن معاً؟**

فكيف يُضرب هذا مثلاً ليكون برهاناً على قولهم إِن الأقانيم الثلاثة موجودة في آن واحد، في وحدة توحيدية واحدة؟

– هل الماء نفسه صلب وسائل وبخار، في آنٍ واحدٍ كما يقولون عن الأب والابن والروح القدس؟.

– مثال الإصبع والعظام الثلاثة، العظام أجزاء الإصبع الواحد، فهل الأب والابن والروح القدس أجزاء للجوهر الواحد كما يقولون؟.

– ألا ترى في ذلك محاولة للتلاعب بالكلام فقط لاجتذاب العاطفيين من المؤمنين؟

– ألم تبدأ (سيمفونية بيتهوفن) الخامسة (القدر) بثلاث ضربات وصدى؟

هل هذا دليل تثليث موحَّدٌ بالصدى؟

– ألا يقول المثل: "الثالثة ثابتة".

هل هذا دليل تثليث أقانيم الله؟

أليست مثل هذه الأدلة والأدلة المعاكسة أبعد ما تكون عن العلم والمنطق؟

ثم عدَّل (دايفيد) من جلسته قائلاً: أظن أننا تكلمنا على جميع الأساسيات في خطة (بولس)، للابتعاد بسفينة المسيحية عن الأصل التوحيدي لتعاليم يسوع المسيح، وتكلمنا على بعض الشبهات حول مسألة البنوة الفعلية، ثم وجه حديثه إليَّ سائلاً: ماذا تقترح علينا أن نناقش في الجلسة القادمة؟

فقلت وأنا مثل تلميذ نهم متعطش إلى المعرفة: إننا بعد لم نناقش التثليث نفسه، أعني هل التثليث ممكن الوجود، أم واجب الوجود أم مستحيل الوجود؟ وذلك من وجهة نظر الأديان بشكل عام وليس من زاوية رؤيا (بولس) فقط.

فوافق الجميع بحركة إيمائية أكدها (دايفيد) بقوله: فليعمل كل منا في البحث والتحقيق حتى الأسبوع القادم.

ها هو ذا العشاء في طريقه إلينا.أطفأ (جورج) سيجارته، و(مايكل) غليونه القاتل، وأما (دايفيد) فتجاهل ذلك مؤقتاً وأبقى سيكاره الخانق المعطر ليعكر عليَّ الجو الرومانسي لعشاء على ضوء الشموع.

ثانياً: التّثليث من الناحية المنطقية

للمرة الأُولى أتيت آخر المجموعة، اعتذرت مُرتبكاً وأنا ألتقط بعض أوراقي التي سقطت مني تحت الكرسي، جلست، وقبل أن أستجمع أنفاسي ضغطت المسجل، وابتدأتُ الحديث خشية أن يسبقني إليه أحد، فتضيع الفكرة التي كنت أناقشها مع نفسي طيلة الأسبوع الماضي.

قلت: أرى أن نعالج فكرة التثليث بشكل عام أولاً.قبل مناقشتها من خلال الدين المسيحي، واسمحوا لي أن أبدأ بذلك:

١– مفهوم التثليث الأساسي:

يقول المثلِّثون: إن المسيطر على الكون هو واحد يتكون من ثلاثة أقانيم، هي أُقنوم الأب وأُقنوم الابن وأُقنوم الروح القدس، إله واحد من جوهر واحد، وطبيعة واحدة أزلية أبدية.

وبما أن الأب أُقنوم أزلي واجب الوجود، ما وجِدَ زمانٌ لم يكن فيه الأب، ولن يكون زمان لن يكون فيه الأب، ولهذا يلزم قبولَ الصفاتِ نفسِها للابن،

ومثلها للروح القدس، ويلزم قبول القول بأن الأقانيم الثلاثة واجبة الوجود، أزلية، ما وجد زمان لم تكن فيه، ولن يكون زمان لن تكون فيه.

ونسألكم: كيف استطعتم تمييز الأب عن الابن وعن الروح القدس.

فيقول أحدهم: بالصفات، فالأب هو المفكر، والابن هو المنفذ الخالق، والروح القدس هو الجامع الهادم.

فنقول: ولكن أية صفة موجودة في الابن والروح القدس، وغير موجودة في الأب، هي انتقاص لإطلاقِ صفات الأب، وهذا مرفوض فتسقط التجزئة.

فيقول القائل: ولكنهم في الوقت نفسِه مجتمعون ببعض، يشكلون وحدة واحدة هو الله الواحد.

فنقول: أي إن الأب هو جزء من الواحد.

فإن قال: لا، هو الكل. يكون قد ناقض نفسَه.

وإن قال: نعم. يكون قد ناقض إطلاق الصفات الإلهية، **فيسقط التثليث**.

ويصل بنا إلى طريق مسدود، فتسقط التجزئة أيضاً ويبقى الله الواحد، ويكون ما سُمِّي الابن (الخالق)، وما سمي الروح القدس (الجامع الهادم) ما هي إلا صفة من الصفات الإلهية، فالله الأول المفكر والله المنفذ الخالق والله الحافظ والله الجامع والهادم والله القادر المبدع والعليم والله الغفور...إلخ

٢- الانبثاق والمساواة:

نطرح المناقشةَ بطريقةٍ أخرى فنقول: إن إطلاق الأب لا نقاش فيه فيبقى الابن والروح القدس، ولنناقش الابن:

أ - إما أن يكون الابن مساوياً للأب.

فنقول: لكن هذا يُلزم وجوب وجوده، فينتج عنه أكثر من واجب وجود واحد وهذا مرفوض، **فتسقط المساواة**.

ب- أو يكون منبثقاً عن الأب كما تنبثق الشعلة عن الشعلة فلا ينقصه.

فنقول: وهذا يلزم تَخلُّفَ الابن عن الأب بالرتبة. **فيسقط التساوي**.

ونسأله: ما أدراك أيهما الأصل بعد الانبثاق، إذا كانت الشعلة كالشعلة؟ **فيسقط التمييز**.

ونسأله: كيف تعرف أيهما الأب وأيهما الابن، إذا كانت الشعلة كالشعلة.**فيسقط التعدد**.

إذن سقط التساوي الزمني، وسقطت المساواة، وسقط الانبثاق، وسقط التمييز، وسقط التعدد، فسوف يسقط (**مُسمَّى الابن**)، ويبقى (**معنى الابن**) بصفته، حيث قيلَ إن به خُلقت الأشياء، فتكون صفة الخلق هي إحدى صفات الله، وتعدد الصفات لا يَلزمُه تعدد الأقانيم، وإلا كانت الأقانيم بعدد الصفات وليست ثلاثةٌ فقط.

فتبقى الذات الإلهية الواحدة، بصفات إلهيَّة متعددة متحدة اتحاداً لا امتزاج فيه، ولا خلط، فالخلق يصدر عن حكمة ورأفة وقدرة وتقدير...إلخ، والحكمة تصدر عن خبرة وعلم ورأفة وشدة...إلخ، والشدة إن صدرت فعن رحمة وحكمة..إلخ، وهكذا، فمجموع الصفات الإلهية مع الذات الإلهية: هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

٣- المشيئة والتثليث:

كما يمكننا مناقشة إمكانية التثليث من ناحية المشيئة أيضاً.فنقول:

أ- إما أن يكون الانبثاق عِلّةً بالطبع (أي دون إرادة)، فيكون الابن مساوياً

زمنياً للأب ومن جوهره أيضاً، وهذا ينفي صفة الإرادة والمشيئة عن الله، وهو أمر مرفوض.**فيسقط الانبثاق بعِلّة الطبع**، ويسقط الثليث.

ب- أو أن يكون الانبثاق عن مشيئةٍ وإرادةٍ، عندها يكون الابن ممكن الوجود وليس واجب الوجود، أي وُجِدَ زمانٌ لم يكن فيه الابن ثم كان.أي إن الابن مخلوق، ومنه لا يمكن أن يتساوى المخلوق والخالق، **فيسقط الانبثاق عن مشيئة وإرادة**، ويسقط التثليث.

٤- الروح القدس والتثليث:

أ - يقولون: الروح القدس مساوٍ للأب ومنبثق عنه.

فنقول: نُحيلُك إلى مناقشة مساوية لمناقشة الابن، ونضيف: إن هذا الانبثاق يجعله في رتبة الابن، الذي (انبثق) أيضاً عن الأب -كما يقولون- وهناك احتمالان:

أ/١ - إما أن الانبثاق عن الأبِ حصل بعد **تراخٍ زمني**، فيكون الأب متقدماً بالرتبة، وهذا مرفوض على واجبي الوجود، فيسقط التساوي، ويسقط الانبثاق مع التراخي الزمني.فيسقط التثليث.

أ/٢ - أو أن انبثاق الروح عن الأب حصل **دون تراخٍ زمني**، عندها تكون المشكلة أكبر، إذ يلزم من ذلك وجود واجِبَيْ وجود، وهذا مرفوض.فيسقط الانبثاق دون تراخٍ زمني، ويسقط التثليث.

ب- ويقولون: إن الروح القدس انبثق عن الأب والابن معاً.

فنقول: وهل الروح القدس أجزاء، انبثق بعضها عن الأب وبعضها عن الابن؟

فإن قالوا: نعم. تسقط عنه الألوهية، لأن الإله لا يتجزأ.

وإن قالوا: لا.

نتساءل كيف ينبثقُ الواحدُ الكلُ عن مصدرين؟ فيسقط الانبثاق.

فإذا أضفنا إلى ما سبق سقوط التساوي الزمني للروح القدس، حسب مناقشةٍ مماثلةٍ للابن، فتسقط ألوهية الروح القدس، وتبقى المخلوقية، فيسقط التثليث.

وإن قالوا: لا.لم ينبثق عن الاثنين.

نقول: ناقضتم أنفسكم إذ تقولون إن الابن انبثق من الأقنوم الثالث (الروح القدس) فيسقط التثليث، وينتصر التوحيد.

٥- الجوهر والأقنوم في التثليث:

قال (ليفي): اسمحوا لي أن أورد هذه المناقشة أيضاً.

يقولون في التثليث: الأب والابن والروح القدس جوهر واحد وثلاثة أقانيم.

فنقول: هذا يعني أن الجوهر غير الأقنوم، وفيه ما ليس في الأقنوم، وهذا يعني تجزئة الواحد إلى أجزاء متغايرة، وهو يعارض إطلاق الألوهية، وتوحدها، فيسقط التثليث.

إن قال أحدهم: إن الجوهر هو الأقنوم.

فنقول إذن سيكون التثليث:

- إما ثلاثة جواهر وثلاثة أقانيم، وهذا مخالف للتعريف، وبالتالي فهو مرفوض، لأنكم تقولون: الله جوهر واحد.
- أو جوهر واحد وأقنوم واحد، فيسقط التثليث.

٦- العلة والمعلول في التثليث:

مقولة إن الأب هو علة الابن والروح القدس، هي مقولة مرفوضة.لأنه معلوم أن العلة تظهر بمعلولها (فلا مرض دون مريض، ولا حرارة دون مادة)، أي إن المعلولين هما المُظْهِران للعلة.كما أن تلازم العلة والمعلول يلزم قِدَمَ الأب والابن والروح القدس، أي ثلاثة واجبو الوجود.وهذا مرفوض لأسباب ناقشناها سابقاً.

وإن قالوا: كان واجب وجود واحد هو الله، ولم يكن الابن ولا الروح القدس، ثم انبثقا عن الأب القديم مباشرة.

نقول: إذن يسقط التساوي، ويسقط التثليث.

ونقول أيضاً: إنَّ ما تقولونه يعني أن القديم قابل للحدوث عليه، وهذا مرفوض، فيسقط التثليث.

٧- الانبثاق على سبيل الفعلية أو على غير سبب الفعلية

لا بُدَّ من أن يكون الانبثاق:

أ- إما على سبيل الفعلية (أي إنهما فعلان)، وهذا يثبت كونهما حادثين من جملة حوادث العالم، أي هما مخلوقان.فيسقط التثليث.

ب- أو على غير سبب الفعلية، وهذا يعني القول بالأزلية، فنعود لثلاثة كلٌّ منهم واجبُ الوجود، وهذا سبق مناقشته وهو مرفوض، فيسقط التثليث.

عندما عجز فلاسفة المسيحية القدماء المؤلهين ليسوع، عن حل المشكلة بين ثلاثة وواحد، اضطروا لقبول فكرة الثلاثة في الواحد الوثنية.

سرحت قليلاً مع نفسي قائلاً لها: إني قد مَلَلْتُ الدوران ضمن حلقة التثليث، وضِعتُ بين ممكن الوجود وواجب الوجود، وفقدت التركيز متنقلاً من انبثاق عن واحد إلى انبثاق عن اثنين، ولو لا أهميةُ البحثِ عن الحقيقة بالنسبة لي، لكنتُ أغلقت مسجلتي ومزقت أوراقي وغادرت الجلسة إلى غير رجعة. صحوت من الغفوة الفكرية على نظرات الحاضرين المشفقة، واعتذرت وسارعت إلى القول:

ثالثاً: التَّثليث قبل المسيحية

تعالوا نلقِ نظرة سريعةً على التَّثليث قبل المسيحية، الذي هو أصل التثليث المسيحي، حيث استقى (بولس) أفكاره منه.

فقال (ليفي) وهو ينتقي بعضاً من أوراقه: اسمحوا لي أن أبدأ، حيث إني قد استجمعت بعض المعلومات عن هذا الموضوع، ألخصها في الآتي:

نشأت المعتقدات الوثنية مع الإنسان البدائي، الذي كان يعبد كل ما لا يستطيع فَهمه إلى قدرةٍ كبيرة، خلقت الكونَ سماها الخالق، الذي اختلفت مواصفاته من حيث الحجم، والقدرة، والماهية، حسب التطور العقلي للإنسان، فكان مرئياً شمساً، وكان قمراً، وكان ناراً، ثم كان مختفياً لا يُرى ولا يُحاط به، ومع زيادة التقدير لهذا الإله، وتتابع الأجيال، ظهر من قال إن اللهَ الخالق، هو **أكبر وأسمى من أن يُضيِّعَ وقته في عملية الخلق بنفسه**، ولذلك انبثق عنه إله اتخذ صفة الفعل، واختلفت أسماؤه حسب اختلاف المجتمعات، فكان (الإله الفاعل) الذي نُسب إليه العطاء فقط، ثم قالوا: إن الإله الذي صَنْعَتُهُ العطاءُ لا يمكن أن يأخذ، إذن كان لا بُدَّ من وجود (الإله الآخذ)، الذي يجمع الأرواح والعطايا، ويعيدها إلى السماء، ويقوم بكلِّ العمليات الآخذةِ، ومنها الكوارث والفيضانات والزلازل والعواصف.

من هذا كله، تراكمت فكرة وجود (الإله العاقل)، و(الإله الفاعل)، و(الإله الآخذ)، وتجنباً لأي اختلافٍ فيما بينهم كانت فكرةُ التوحيد؛ **فصار الثلاثة في واحد، والواحد من ثلاثة**.كل هذا تَطَوَّرَ عند الإنسان القديم.

ثم قال بعضُهم: إن دوام التوحيد يوجبُ أن يكونَ (الإله الفاعل)، هو ابن الإله الخالق الوحيد، ومنهم من قال الابن البكر، وذلك لوجود عدة آلهة أخرى فاعلة، منها إله الحرب وإله الحب وإله الطقس...إلخ. أما (الإله الآخذ) الذي يلملم الخلق؛ فقد سُمِّي لاحقاً الروح؛ لأنه يقبض الأرواح ويعيدها إلى الإله العاقل.

كانت للأقانيم الثلاثة أسماء تختلف باختلاف الشعوب كما نرى في:

١- الهندوس: ثالوثهم (براهما وفشنو وشيفا)، أقانيم ثلاثة في إله واحد، براهما هو الخالق لا يمكن رؤيته، وعندما أراد فعل الخلقِ اتخذ صفة (براهما الخالق) أو الأب، ثم بعد الخلق رأى أنه لا بُدَّ له من الحفاظ على هذا الخلق،

فانقلب هو نفسه إلى (فشنو) الحافظ لخَلقِه، وهو الابن.وعندما رأى أنه لا بُدَّ من إهلاك بعض الخلق، وإعادته إلى الخالق، انقلب إلى (روح القدس) المُهلك المُعيد، **وهكذا هو في رحلة مستمرة بين التجليات الثلاثة.**

من الهنود من يقول: إن (فشنو) تجسد بين الناسِ بجسد (كرشنا) ابن (ديفاكي)، التي تسمى والدة الإله، وجاء في الكتاب الهندي (بها كافاد كيتا) على لسان (كرشنا): "سأتجسد في متوار بيت يادوا وأخرج من رحم ديفاكي، أُولد وأموتُ. وقد حان الوقت لإظهار قوتي وتخليص البشرية من حملها".

وهنا نرى أصول فكرة الفداء الوثنية لتخليص البشرية من ذنوبها، التي استخدمها (بولس) بعد مئات السنين.

ومن الهنود من قال: ما يسوع إلا تجسد آخر (لكرشنا)، بدليل موت (كرشنا) في الثلاثين من عمره، وبداية دعوة يسوع في الثلاثين من عمره، انطلاقاً من إيمانهم بأن التجسد حصل في يسوع في سن الثلاثين، وليس عند أو قبل الولادة، ناسين أن معجزات يسوع بدأت منذ صغره وليس بعد الثلاثين.

وفي كتاب الهند المقدس (الغيدا) قال كرشنا: "أنا رب المخلوقات جميعها، أنا براهما وفشنو وشيفا التي هي ثلاثة آلهة، إله واحد".

ويختصرون هذا بقولهم الثالوث: (الخالق والحافظ والمهلك)، وعند الصلاة ينادون باسم الإله الذي يطلبون خدماته، كلٌّ حسب اختصاصه.

٢ـ البوذيون يقولون: إن بوذا إله بأقانيمه الثلاثة، ويقولون في صلاتهم: "يا مالك كل شيء يا حيّ، أنت براهما وفشنو وشيفا إني أعبدك. تميزتَ بأسمائك الألف وأشكالك المختلفة وشكل بوذا إله الرحمة".

وبوذيو الصين واليابان، يسمون إلههم (فو) وهو ذو الأقانيم الثلاثة، وفلسفة الفيلسوف الصيني (لاوكو منذا) ٦٠٤ق.م تقوم على أن (تادوا) هو العقل الأبدي، انبثق عنه الأقنوم الأول، وعن الأول، انبثق الأقنوم الثاني، وعن الثاني

انبثق الأقنوم الثالث.وفلاسفة آخرون قالوا: **إن الأقنوم الثالث انبثق عن الأول والثاني** (٣٤٠).

ويقولون أيضاً: إن (بوذا) ولد من (مايا)، ترك الفردوس وظهر بالناسوت لينقذ الناس من الآثام، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح، وفي الكتاب الصيني (فوتيهتك) ما نصه: "ولما عزم الإله بوذا على النزول من السماء إلى الأرض ليولد عليها، نادى الملائكةَ والناسَ قائلاً: "يا أيها الأموات زينوا أرضكم لأن (بوذا-يشو-مهتو) العظيم سينزل عما قريب من (نوسيا) ويولد بينكم".

وبوذيو الصين يعتقدون أن (روح القدس) هو (شينك شين)، نزل على العذراء (مايا)، وأن نائب بوذا على الأرض يسمى (اللاما العظيم).

٣ـ قدماء المصريين يقولون: إن (حورس) المخلص ولد من العذراء (إيزيس)، وإنه المنبثق الثاني من (عامون)، ويقولون الابن المولود، وقد ترجم العلاّمَة (شمبليون) بعض ما كُتب من الهيروغليفية، منها: أنت الإله المنتقم (ابن الإله)، أنت (حورس) المنتقم، أنت الذي أُعلَن عنك (أوزوريس)، أنك المولود من الآلهة (إيزيس).

- "إن قساوسة (هيكل ممفيس) في مصر، يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بقولهم: إن الأول خلق الثاني، والأول مع الثاني خلقا الثالث"(٣٤١).

في الكتاب نفسه يقول: "إن ملك مصر (تُولِيد)، سأل الكاهن (تنيشوكي): هل كان قبلي مَلك؟ وهل سيأتي بعدي مِلكٌ أعظم مني؟ فقال له الكاهن: "نعم يوجد من هو أعظم، وهو أولاً الله، ثم الكلمة ومعها روح القدس، ولهم طبيعة واحدة، وهم ذات واحدة، وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يا صاحب الحياة القصيرة".

---

(٣٤٠) وهذه هي بذور الاختلاف بين بعض الفرق المسيحية القائلة بانبثاق روح القدس من الأب، أو من الأب والابن معاً.

(٣٤١) المؤرخ (دوان) في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل).

٤- **الفرس** كان لديهم ثالوث هو أورمازدا (الخلاق)، ومتراس (ابن الله المخلص الوسيط)، وأهرمان (المهلك) ويقول (ومبرتسون): "كان مولد متراس في كهف، وفي **الخامس والعشرين من ديسمبر، وله اثنا عشر حوارياً، مات** لتخليص البشر، ثم **عاد من الأموات وصعد في السماء** أمام تلاميذه، **وكان يدعى مُخَلَّصاً ومنقذاً**، وفي ذكراه **كل عام يقام العشاء الرباني، ومن شعائره التعميد، ويوم الأحد هو يوم العبادة المقدس**". وهذه هي بذور سلسلة الفداء التي ظهرت عند المسيحيين.

والشيء نفسُه كان للآشوريين في بلاد الرافدين وللفينيقيين في سورية، إلهٌ بثلاثة أقانيم، والشرح مماثل لما سبق، ولكن بأسماء مختلفة.

ثالوث الإسكندنافين القدماء كان (إدوين) الأب و(تورا) الابن البكر، و(فري) مانح البركة والنسل والسلام والغنى.

يلاحظ أن كثرة وجود معنى الابن الوحيد أو الابن البكر بين مختلف الشعوب القديمة، هو أكبر دليل على أن المقصود بذلك، هو رسول بَشَرٌ من الله لتلك الشعوب، فقالوا عنه الابن الوحيد يقصدون به الرسول الوحيد، ومرة قالوا عنه الابن البكر ويقصدون به المؤمن الأول، لأن الله لا يترك شعباً دون رسول نذير، ودليل هداية إلى طريق الجنة، ثم يعاقبهم على عدم اتباع ما يحبه الله من عباده.

٥ - الفلسفات الوثنية الأوروبية الأصل أيام المسيح كانت كثيرة جداً، من أشهرها:

أ - **الفيثاغورثية**: من القرن السادس قبل الميلاد، يعتقدون أن فيثاغورس الفيلسوف الرياضي العبقري، هو (ابن الإله أبولو) وأنه حي وسيظهر بعد حين، والناس عندهم آلهة وأنصاف آلهة وبشر.

ب - **الأبيقورية** نسبة إلى (أبيقور)، ظهرت بين القرن الثالث والرابع قبل

الميلاد، وهو الذي قال: إن الآلهة مشغولة عن الناس، والإله ذو مادة لطيفة نقية التركيب.

ج - **الرواقية**: فيها يلتقي الإنسان مع الإله في العقل، ومع الحيوان في الجسد، وبالفضيلة يطيعُ العقلَ بطلبِ المعرفة، ويعصي الجسدَ بمقاومة شهواته، وهي أقرب إلى التصوف وإهمال الجسد.

إن المعتقدات الوثنية، ما زالتْ حتى الآن قائمة في لا شعور كثيرين من أهل الديانات السماوية المعروفة، وغالبا دون أن يعلموا أنهم بتصرفاتهم هذه يقعون تحت تأثير الوثنية النائمة في اللاشعور، كأن يتصلوا مع ربهم عن طريق (الوسيط)، سواء أَقَلَّ شأنُه أم علا.

لذلك نلاحظ أن أي انحراف في الديانات السماوية، يتجه أولاً نحو الوثنيةِ قبل الشركِ الأكبر، فاليهود في إحدى مراحلهم عبدوا الله مُمَثَّلاً في العجْلِ، والعربُ عبدوه مُمَثَّلاً في أصنامهم المشهورة (مناة) و(هُبَل) و(اللاّت) و(العُزّى).

رابعاً: التَّثليث في المسيحيَّة

ابتدأ (دايفيد) قائلاً: أما مناقشة التثليث في المسيحية، فيجب أن تتم على أساس أنه حلقةٌ من سلسلة معتقدات أخرى كالفداء، ابتداءً من التجسد، إلى القيامة من الأموات، مروراً بالصلب والموت.

وتابع قائلاً: أما كيف انتقل التثليث إلى المسيحية؟ فقد ابتدأ بتحريض فكري بولسي، حيث كان ضليعاً في الفلسفة ودراسة الديانات بعدة لغات، وهو اليهودي المتفوق على زملائه في اليهودية، فقد انتقى بعضاً من آيات العهد القديم التي يمكن فهمهما على أكثر من وجه، وأخذ منها التفسير المناسب له، لإثبات أن التثليث له أصول وجذور في التوراة، منها ما ورد في:

١ - سفر التكوين (١: ٢٦): "وقال الله نعمل الإنسانَ على صورتنا كشبهنا". التي كان تفسيرها حتى ظهور (بولس)، أن الله خلق آدم وذريته على

صورة الله بمعنى أن له وجهاً، ولكن ليس مثل وجهِ الله، وله يد ليست مثل يد الله وهكذا... وجعله يتمتع ببعض الصفات الإلهية التي شاء الله أن يسمح بها للإنسان، فله عقل، ولكن ليس مثل عقل الله، وقدرة وحكمة وقوة وحنان و....الخ. ولكن ليس كما لله.

لكن تفسير (بولس) لهذه الآية أن حرف النون في (نعمل) يدل على الجمع، وأقل الجمع ثلاثة وهو التثليث، وأن المقصود بالإنسان هو يسوع الذي تجسد فيه الابن، فهو إنسانٌ تامٌ من إنسان تام، و(الشَبَه) هو الابن، إلهٌ تامٌ من إلهٍ تام، وبعض المسيحيين يقولون يسوعُ ليس هو الابن بل هو مَنْ تجسد فيه الابن، واختلفوا إن كان التجسد قبل الولادة أم بعدها، وبناءً عليه اختلفوا حول ألوهية أو ناسوتية مريم التي ولدت إلهاً.

٢ – تفسير (بولس) لما ورد في:

– تكوين (١٨:١–٥): "وظهر له –لإبراهيم– الربُّ عند بلُوطات (مَمْرا)، وهو جالس في باب الخيمة وقْتَ حَرِّ النهار. فرفع عينيه ونظر وإذ ثلاثةُ رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال يا سيدُ إن كنتُ قد وجدتُ نعمةً في عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليلُ ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة... لأنكم قد مررتم على عبدكم، فقالوا هكذا تَفعل كما تكلمتَ".

فقال (بولس): إن إبراهيم سجد للثلاثة عند باب الخيمة، وكلّم الواحد بقوله: يا سيدُ، وهذا دليل على الأقانيم الثلاثة في واحد.

٣ – أما أدلة التثليث من العهد الجديد فهي في:

أ – رسالة يوحنا الأولى (٥:٨): "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والرُّوح القدس وهؤلاء الثلاثة هم في واحد".

ب – متّى (٢٨:١٩): "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والرُّوح القدس".

وتابع (دايفيد) بحماسة قائلاً: أود تفسير ما ورد أعلاه لكل المؤمنينَ بتفسير (بولس):

ـ من (١) عن سفر التكوين (١:٢٦)، أقول:

إننا نعلم أن صيغة الجمع في كل اللغات تُستعمل أيضاً لاحترام المخاطَب، وفي صيغة المتكلم للتفخيم، فإذا أباحها الناسُ لأنفسهم فِلمَ لا يُبيحها اللهُ لبيانِ عظمته؟ وهذا وارد في كل الكتب السماوية.

وأما التشبيه فهو تشبيه الصفات مع الفارق الهائل... وليس تشبيهاً جسدياً مادياً، والإصرار على التشبيه المادي يحوّل الله إلى مُنفَعِلٍ للصفات الحسية، وهذا مرفوض، فإن قال (وجهنا)، أو (بيدنا) فهي تعبيرات دونها ما كنا سنفهم مقصودَ الله من كلامه، ولما كانت صلة التخاطب واضحةً بين الله وعباده، وفَهمُنا لصفاتِ الله يجب ألا يتعدى إطار (ليس كمثله شيء)، فلو لم يستعمل كلمة (بيدنا) مثلاً، وأراد التعبير عن الواسطة التي يستعملها لعمل شيء ما، فسوف يستحيل على عقل الإنسان المحدود فهم المقصود لأن الإنسان يصنع بيده، تماماً كما يصعب على الدجاجة فهم مقاصد الإنسان، ويصعب على الرضيع فهم كيفية التفاعلات النَّوويَّة!!.

وإن أصر الإنسان على تصور الواسطة التي يستخدمها الله في العمل فهماً كاملاً، فسوف يعني هذا أنه أحاط ببعض صفات الله، وهذا مستحيل ومرفوض.

ـ من (٢) وأما عن تكوين (١٨:١–٥)، فأقول:

إن بداية الآية تُثبتُ التحريف والبطلان في تفسير (بولس)، إذ تقول: "وتبين كرم إبراهيم"، فهو إذن كريم يقري الضيف كما هي عادته، وبما أن الكرم هو

أحد أسس حسن الخلق، والاحترام دليله، وكان للاحترام طرقه المختلفة باختلاف الأزمان والبلاد، والسجود ليس أدل منه على قمة الاحترام، ولا تنفرد به العبادةُ فقط، فقد:

أ – سجد الملك نبوخذنصر لدانيال حسب:

– سفر دانيال (٢:٤٦): "حينئذٍ خرَّ نبوخذنصَّر على وجهه وسجد لدانيال...".

ب– وسجد سليمان نبي الله لِبَثْشبع حسب:

– الملوك الأول (٢:١٩): "فدخلت بَثْشَبَعُ(٣٤٢) إلى الملك سليمان لتكلمه عن أدُونِيَّا. فقام الملك للقائها وسجد لها وجلس على كرسيه".

ج – سجد شخصٌ لداود نبي الله، حسب:

– صموئيل الثاني (٩:٦): " فجاء مَفِيبُوشَتُ بن يوناثان بن شاؤل إلى داود وخر على وجهه وسجد...".

د – سجد شخصٌ لسليمان حسب:

– الملوك الأول (١:٥٣): "...فأتى وسجد للملكِ سليمان...".

هـ – سجدت امرأة للملك حسب:

– صموئيل الثاني (١٤:٤): "وكَلَّمَتِ المرأة التَّقُوعيَّة(٣٤٣) الملك وخرَّت على وجهها إلى الأرض وسجدت وقالت أعنِّي أيها الملك".

كل ما سبق فيه سجود للاحترام، وغير ما أوردناه كثير جداً في العهد القديم، ولم يقل أحد إنه سجود عبادة، فلماذا تفسير سجود إبراهيم لضيوفه سجود عبادة؟

(٣٤٢) بَثْشَبَع: هي أم النبي سليمان، دخلت إليه لتكلمه بشأن أخيه أدُونِيَّا، واضح أن هذا هو مجرد احترام لأمه.

(٣٤٣) امرأة حكيمة من (تقوع).

أما كونه سجد للثلاثة وكلّم واحداً، فتصور لو أنه أراد أن يحترم واحداً فقط، ويسجد له فقط، فهل يقول لرفيقيه: قفا جانباً فسوف أسجد لواحد فقط لأن الله واحد؟

وكونه كلّم واحداً ألا يعني ذلك أنه وجّه كلامه إلى من ظنّه أهمهم، أو كان أقربهم إليه !.

ثم لو أنه قصد أن يكلم واحداً فقط مُهْمِلاً الاثنين الآخرين، فلماذا نقرأ في آخر الآية (فقالوا) وليس (فقال)، ألا يدل هذا على أنهم فعلاً فهموا أنه يخاطب الجميع؟.

ـ من (٣) أما أدلة العهد الجديد، فمشكوك فيها، لأن الأناجيل كلها كُتبت بعد فترة تأثير (بولس) في المسيحية بشكل عام، وخاصة تأثيره على (يوحنا)، حيث تظهر أفكار (بولس) في إنجيله، بشكل أوضح من باقي الأناجيل، مما جعل بعض التراجم الحديثة تنظر إلى رسالة يوحنا الأولى (٥:٨) عن الذين يشهدون في السماء، بعين الشك، فإما أن التراجم حذفتها كلياً لعدم وجود أصل لها في المخطوطات اليونانية، ومنها ترجمة (حريصا) باللغة العربية، أو أنها وضعتها ضمن قوسين.

– نرى أنه في الترجمة القياسية الإنكليزية (Revised standard version)، اختفى التثليث في رسالة يوحنا الأولى (٥:٨) فنراها أصبحت كما يلي:

"There are three witnesses.the spirit,the water,and the blood, and all three agree".

والترجمة نفسها هي أيضاً في الترجمة المسكونية الفرنسية LA BIBLE، وفي ترجمة (لوي سيجو) الفرنسية أيضاً.

لكننا نرى اختفاء هذه الصيغة في التراجم الكاثوليكية الفرنسية الحديثة، التي

ظهرت منذ نصف قرن، والبروتستانتية الحديثة منذ ربع قرن باللغة الفرنسية، وهي لا تزال موجودة في الترجمة العربية البروتستانتية، ولكن بين قوسين إشارة للشك.

واختفت من التراجم الكاثوليكية العربية الحديثة، مثل "العهد الجديد للكاثوليك" و"العهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية"، في الوقت الذي نرى فيه صيغة التثليث قد وُجدت في نسخة الملك جيمس فقط[٣٤٤].

– وأما ما جاء في مَتّى (١٩:٢٨) فالجواب عند "أودلـوف هرنـك" وهـو من كبار العلماء الكنسيين، حيث يَعُدُّها مضافة، ونجدها في هامش بعض التراجم فيقول: (لم تكن هذه العبارة موجودة في النسخة الأصلية اليونانية، ويشكك بها والدليل الآية التي قبلها).

أعاد (دايفيد) إشعال سيجاره العطري الخانق، وتابع يقول: إن الباحث عن الحقيقة، لا بُدَّ له من أن يتساءل: لماذا لم يذكر أي نبي –قبل يسوع المسيح– أي شيء عن التثليث؟ بل كلهم تكلموا عن التوحيد، هل تَغَيَّر الله من الواحد الصَّمد إلى ثلاثة في واحد؟

أ – ألم يقل يسوع نفسُه حسب:

– مرقس (٢٩:١٢): "إنَّ أَوَّلَ كل الوصايا هي اسمعْ يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد...".

ب– ألا يتساءل الباحث كيف يكون الأب في السماء، والابن يسوع على الأرض، والروح القدس مثل حمامة، **وكلهم واحدٌ، وهم مختلفون في المكان والطبيعة والجوهر**، حسب:

– مَتّى (١٦:٣): "فلمَّا اعتمد يسوعُ صعد للوقت من الماء.وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روحاً نازلاً مثلَ حمامةٍ وآتياً عليه".

(٣٤٤) على الرغم من كل هذه الاختلافات بين نسخ الإنجيل، فالجميع يقولون إن ما بين أيديهم هو كلام الله، هل يقبل ذلك منطق سليم؟، أية نسخة على المؤمن المسيحي الإيمان بها واتباعها؟؟؟.

ج– ألا يتساءل الباحث كيف تتساوى الأقانيم والابن ليس لديه علم الساعة؟. حسب:

– مَتّى (٣٦:٢٤): "وأمَّا ذلك اليوم –أي يوم القيامة– وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحدٌ ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده".

كيف يكون إلهاً ولا يعلم، ولا روح القدس يعلم، ويُنسب كل أعماله إلى الأب.

ألا يدلُّ هذا على أن التثليث في المسيحية هو من اختراع (بولس) نفسه؟

فقلت: أرى أنَّ مناقشة التثليث في الدين المسيحي كما ورد أعلاه تُلزمنا الابتداء من تعريف التثليث، كما جاء في مجمع نيقية الأول، ومجمع قسطنطينية الأول الذي ذكرته لنا في جلسة سابقة، وأود إعادته لإنعاش الذاكرة.

ـ **عن الابن** تقرر في مجمع نيقية: "أن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تُحَرِّمُ كُلَ قائلٍ بوجود زمان لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنه لم يوجد قَبْلَ أن يولد، وأنه وُجد من لا شيء، أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الله الأب، وكل من يؤمن بأنه خُلِقَ أو من يقول إنه قابل للتغيير".

ـ **عن الروح القدس** تقرر في مَجمع القسطنطينية الأول: "إن الروح القدس ليس سوى روح الله نفسها وحياته وهو غير مخلوق، وأنه منبثق عن الأب كالابن مسجودٌ لهم، وأن الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم في واحد، جوهر واحد طبيعة واحدة".

أي إن الأب والابن والروح القدس إله واحد، أي ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، إن مناقشة هذا القرار يوضح التناقض الذي يحتويه، فقولهم لم يوجد زمان لم يكن فيه الابن، يعني أنهما متساويان زمنياً ولا تراخيَ بينهما وهما واجبا الوجود، وهذا مرفوض، ثم يقول إن الابن انبثق عن الأب، والانبثاق كان بعلةِ الطبعِ، وهذا يعارض المشيئة والإرادة، وهو مرفوض، وإن كان الانبثاق بالإرادة

فذلك الانبثاق لا يمنع التراخي، واحتمال التراخي يُبطل التساوي الزمني، ومعروف "أنه إذا دخل الاحتمال على الاستدلال أسقطه"، فيسقط انبثاق الابن ويسقط تساويه الزمني مع الأب فيسقط التثليث.

أليس قول (بولس) عن يسوع في:

رسالته لأهل كولوسي (١:١٥): "الذي هو صورة الله غير المنظور **بكر كل خليقة**".

يعني أن الابن هو أول **مخلوق** للأب وليس مولوداً له، فَلِمَ هذا التناقض، فمرة منبثق... ومرة ابن... ومرة مولود... ومرة بكر الخليقة... ومرة مساوٍ لله في الزمن[٣٤٥]؟!.

حتى ما قالوه بشأن الروح القدس لا يخلو من التناقض، إذ إن مفهوم الكلام:

أ – أنه بأمرٍ من الأب حل الروحُ القدس على مريم وظللها، حسب:

– إنجيل لوقا (١:٣٥): "فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللكِ، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله".

ب– إنه من الروح القدس تجسد الابن في يسوع، حسب:

– متّى (١:١٨): "...وُجِدت –مريم– حبلى من الرُّوح القدس".

ج – ثم يقولون إن الله هو الذي تجسد، حسب:

– يوحنا (١:١–١٤): "في البدء **كان** الكلمة والكلمة **كان** عند الله... وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً حل بيننا...".

ثم تراهم في مجمع القسطنطينية الأول يختلفون حول انبثاق الروح القدس عن الأب فقط أم عن الأب والابن؟. وكل يحزب لرأيه وتمزقت الجماعة الواحدة.

(٣٤٥) لمعلومات أكثر تفصيلاً، يرجى العودة إلى المناقشة الأصلية للتثليث.

للفريق الأول نقول: ما قلناه في مناقشة الابن فيسقط التثليث.

للفريق الثاني نقول: إن انبثاق الروح القدس، عن الابن يعارض كون الابن من الروح القدس، بأمر من الله ويلزم الدور[٣٤٦]، والدور مرفوض من الفلاسفة، فيسقط التثليث لدخول الاحتمال والدور.

يمكن أن نسأل أهل التثليث: إذا كان الروح القدس عندكم ليس سوى روح الله حسب مجمع القسطنطينية الأول، فيلزم من ذلك حالتان:

أ – إما أن روح الله في الله وبغيرها لا حياة له، أي لا يوجد انبثاق، ولا يوجد أُقنوم ثالث.

ب– أو أن الروح القدس في الله، ثم انبثق عنه، وكوَّن الأقنوم الثالث، فيبقى الأب دون روح، فيُنقِصُه وهذا مرفوض، فيسقط الانبثاق.

فإن قالوا: الانبثاق بمعنى خروج الشعلة عن الشعلة لا ينقصها، فتبقى روح الله في الله، ويكون الروح القدس أيضاً، فيسقط التمييز.

وإن قالوا بانبثاق الروح القدس بالمشيئة والإرادة، فنحيلهم إلى المناقشة نفسها التي أوردناها عن الابن، والتي ينتج عنها رفض التثليث، وبما أن روح الله تتنزه عن المخلوقية، فيكون الروح القدس لا يساوي روح الله، بل خَلْقٌ من خَلْقِ الله.

قال (مايكل) موجهاً كلامه إليَّ: عظيم.ولكن ألا تظن أنه يجب ألا تفسر الدين تفسيراً فلسفياً، حيث إن الأفكار الفلسفية التي مهد (بولس) لدخولها على الدين المسيحي هي السبب في هدمه.

فقال (دايفيد): إن للفلسفة بحوراً عميقة بعدد الأفكار والمعتقدات، والمقارنة بين الفلسفات قلما تصل إلى نتيجة يتفقُ عليها، مثل حل مسألة رياضية، وإلا

(٣٤٦) الدور: هو العلاقة المتبادلة بين العلة والمعلول، بحيث وجود كل منهما متعلق بالآخر، ولا يقوم إلا به، مثل الدجاجة والبيضة، فكل منهما علة لوجود الآخر.

لجلس المختلفون في قاعة، ولم يخرجوا منها حتى يتوحد العالم فكرياً ودينياً، تحت راية المنتصر ذي الحجة الآنية الأقوى، والخصم الأضعف قدرة على المناقشة... دون لزوم مجانبة المنتصر للحق... ولكن ماذا تفعل إذا هُوجمت عقيدتك بالأفكار الفلسفية؟. إن امتنعتَ عن الرد يظن العامة بانتصارِ خصمكَ، وإن أصبت وأحسنتَ أقنعتَ، وإن لم تُقنع تكونُ قد تركتَ باب الجدال مفتوحاً لمن هو أقدر منك على المجابهةِ والإقناع، وحسبك خيراً ألا تكون البادئ بمقارنة الفلسفة المادية مع الفلسفة الدينية.

قال (جورج): إن ذكاء (بولس) جعل الدخول في المسيحية، لا يعني ديانة جديدة كلية بالنسبة للوثنيين والفلاسفة، وذلك:

أ – باختلاق فكرة التثليث، وفكرة الإله المخلص من الخطايا، الذي يضحي بنفسه من أجل البشر، الموجودة أصلاً لديهم.

ب– بعدم إرهاقهم بالعبادات، إذ إن كل ما هو مفروض على المسيحي هو مجرد الإيمان بيسوع المسيح ابن الله، المولود الذي جاء إلى هذا العالم لتخليص البشر من خطيئة آدم، بتقديم نفسه قرباناً على الصليب، وأنه بعد موته قام من الأموات، وجلس على يمين الأب، ثم سيعود بعد مضي فترة من الزمان إلى الأرض. فلم يُغير من وثنيتهم إلا إطارها، فأوهمهم أنها تعاليم المسيح وأنها استمرار لديانة موسى.

قلت: لقد قابلتُ في أحد أسفاري قسيساً، فسألته أن يشرح لي التثليث.

فأخذ يتكلم ويدور في حلقات إيمانية، لم أرَ فيها جواباً عن سؤالي، وبعد نقاش طويل، دام ثلاث ساعات قال لي:

أقول لك الحقيقة: "إن التثليث هو غموض يجب علينا قبوله كما هو، لأن عقولنا لا تستطيع فهمه"(٣٤٧).

(٣٤٧) Trinity is mysterious. We have to accept it as it is, Because our mind cannot understand or realize it.

فقلت له مستغرباً: هل من المنطق الإلهي أن يُنزِّل علينا ديناً غامضاً، ويُجهزنا بعقول محدودة لا تفهم أساسيات هذا الدين؟ ثم هل من العدل الإلهي أن يعاقبنا إن نحن لم نؤمن بهذا الغموض؟. أنا لا أطلب الإحاطة بالغيب والعلم الإلهي، ولا بالصفات أو بالذات الإلهية، فهذا مستحيل، كل ما أطلبه هو دين واضح يفهمه عقلي المحدود، أو عقل عبقري يفهم الأفكار الغامضة.

وأضفت، إنك تطلُبُ مني إلغاء عقلي ومصارعة فكري ومنطقي لمحاولة فهم الثالوث، إن هذا الصراع قد أدى بكثير من المسيحيين الذين اعتمدوا العقل إلى الإلحاد الذي كان الملجأ والبديل الوحيد الذي وجدوه أمامهم.

وعقب (جورج) قائلاً: إنه مهما حرَّف مؤلفو الإنجيل من حقيقة كلام يسوع ابن الإنسان، فإن الله يأبى إلا أن يجعلهم يغفلون عن بعض الأشياء، التي تكشف الحقيقة لمن يبحث عنها، ومنها ما عَثَرتْ عليه البعثة الفرنسية في أثناء حملة نابليون على بلاد الشام في كنيسة (الكبوشيين) قرب مدينة أورشليم، وهو نص الحكم الجنائي الذي صدر ضد يسوع المسيح في المحكمة الرومانية، مكتوب على صفحة برونزية وجدت ضمن وعاء من رخام تنص على الآتي:

"نحن بيلاطيس النبطي حاكم الجليل الأدنى، المتسنم رئاسة مجلس الشيوخ، نحكم على يسوع الناصري بالموت على الصليب بين لصَّين للأسباب الآتية، وهي:

١ – يسوع مضلِّل.

٢ – عدو القانون الروماني.

٣ – يدَّعي نبوة الله... باطلاً.

٤ – ضال.

٥ – يدَّعي أنه ملك إسرائيل... ادعاءً باطلاً.

٦ – دخل الهيكل والجموع تتبعه بسعف النخيل.

وبناءً عليه فإن بيلاطيس يأمر (كرنيوس كيونيليوس)، قائد المئة أن يقوده إلى مكان العقاب، ويحظر على أي شخص أن يسترحم السلطة بشأن هذا العقاب".

أين تهمة ادعائه أنه ابن الله المولود غير المخلوق ومن جوهره، المُنزَّل من السماء لفداء البشر من خطيئة آدم؟.

لو كان اليهود في تلك الأيام فهموا من قوله أنه يدَّعي أنه معادل لله ومن جوهره أمَا كان هذا وحده جُرماً يكفي لصلبه؟

إنَّ هذا إثباتٌ مُوثَّقٌ يدل على أن التثليث دخيل على المسيحية؟.**ودليلٌ ماديٌ ينقض تماماً ما جاء في:**

يوحنا (١٨:٥): "فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر من أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت **فقط بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله**".

ولقد ثبت تحريف هذه الجملة الوحيدة التي وردت بهذه الصراحة في العهد الجديد (كما سنرى لاحقاً عند مناقشة إنجيل يوحنا).

فقلت: إنه في اللغة العربية يتقارب لفظ "بنوة" و"نبوة".واحتمال الخطأ وارد.

فقال: إذا تقارَبَ اللفظُ في اللغة العربية، فإنه حتماً غير متقارب في اللغة التي وجد فيها النص الأصلي، ولا في اللغات غير العربية.

- البحث التاسع: سلسلة الفداء في المسيحيَّة من الناحية الفكريَّة

قلت: والآن بعد أن ناقشنا فكرة (ابن الله) و(التثليث)، فهل يمكننا الانتقال إلى أساس آخر من العقيدة المسيحية البولسية، وهو الفداء؟

عَلِمَ (دايفيد) أن الكلام مُوجَّه إليه، فقال: لمناقشة فكرة الفداء في المسيحية علينا أن نستحضر الوضع كما تصوره مجمع نيقية الأول الذي يقول: "يسوع

الابن الوحيد المولود من الأب، غير المخلوق، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نَزَلَ من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس"، وصُلب عنا، وتألم ومات، ثم قام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب، وسيأتي ليُدين الأحياء والأموات".

ويمكن مما سبق تصور اللقطات التالية لسلسلة الفداء حسب التصور البولسي:

اللقطة الأولى: آدم خالف الله وأكل هو وزوجته حواء من الشجرة المحرمة، على الرغم من تحذير الله لهم، حسب:

- تكوين (٢:١٦-١٧): "وأوصى الرَّبُّ الإلهُ آدمَ قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأمَّا شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت ".(أي تصبح مخلوقاً قابلاً للموت).

اللقطة الثانية: غَضِبَ اللهُ عليهما بسبب هذه الخطيئة وأنزلهما من الجنة إلى الأرض.

اللقطة الثالثة: انتقلت هذه الخطيئة إلى ذرية آدم وصار كل إنسان يولد مع الخطيئة.

اللقطة الرابعة: الخطيئة لا تغتفر إلا بقربان الدم، وبما أنها خطيئة بحق الله، فلا يكفي دم حيوان بل يجب التقرب إلى الله بدم أكثر أهمية وهو دم إنسان، لكن كل إنسان يولد مع الخطيئة حسب (بولس)، ولذلك لا يوجد إنسان مُطَهَّر يستحق أن يُقَدِّم دمُه الطاهر لفداء الخطيئة وإرضاءِ اللهِ.فما العمل؟

اللقطة الخامسة: إذن لا بُدَّ للإله أن يتجسد في إنسان فيكون طاهراً، يمكن تقديمه ذبيحة لإرضاء الله.

اللقطة السادسة: هنا اختلف المسيحيون فمنهم من قال: كان الله محباً إلى حدٍ جعله يرضى أن **يتجسد بشراً بنفسه.**

وآخرون قالوا: **أرسل ابنه المولود الوحيد** ليتحقق شرط طهارة الدم غير الملوث بالخطيئة.

اللقطة السابعة: القبض على "الابن الطاهر يسوع المسيح وصلبه" و"دفنه"، ثم خروجه من الأموات وظهوره لتلاميذه ثم صعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الأب.

وأرى أن نناقش هذه اللقطات بالتسلسل نفسه:

اللقطة الأولى والثانية: فيهما مخالفة آدم وحواء وغضبُ الله عليهما، وهذا لا غبار عليه، ولا تشكلان مشكلة لأي مؤمن بوجود الله، ولن أناقش الآن إن كانت الشجرة هي شجرة المعرفة، أم هي رمز للطاعة؟ فهذا ليس موضوع البحث.

اللقطة الثالثة: انتقال الخطيئة

المشكلة تبدأ من فكرة انتقال الخطيئة بالوراثة البشرية، حيث:

١- دعَّم (بولس) موقفه بما جاء في:

- خروج (٢٠:٥): "...لأني أنا الرب إلهك إلهٌ غيورٌ أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع...".

٢- استندَ (بولس) إلى تكوين (٢:١٦-١٧) السابقة الذكر، وفسرها بطريقة فلسفية، فقال: بما أن الموتَ هو عقوبة آدم على خطيئته، وبما أننا نحن نموت، إذن نحن نحمل الخطيئة نفسها أيضاً.

٣- تجاهل (بولس) مشكلة التحريف المثبت في التوراة، وتجاهل عشرات الآيات التي لا تجيز وراثة الخطيئة وأن كل شخص يتحمل خطأه بنفسه، حسب:

- حزقيال (١٨:٢٠-٢١): "النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون".

- أخبار الأيام الثاني (٤:٢٥): "...لا تموت الآباء لأجل البنين ولا البنون يموتون لأجل الآباء. بل كلُّ واحدٍ يموت لأجل خَطِيَّتِهِ".

- إرْمِيا (٣١:٣٠): "بل كلُّ واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه".

- تثنية (٢٤:١٦): "لا يُقْتَلُ الآباءُ عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسانٍ بخطِيَّتِه يُقتل".

٤- بإعلانه مبدأ انتقال الخطيئة ناقض (بولس) نفسَه عندما قال في:

- رسالته إلى أهل رومية (٢:٦): "الذي (الله) سيجازي كلَّ واحد حسبَ أعماله".

- رسالته إلى أهل غلاطية (٦:٧): "...فإنَّ الذي يزرعه الإنسان إياه يحصُدُه أيضاً".

من المعلوم أن خطيئة آدم هي خطيئة مكتسبة، لم يكن عليها قبل الوقوع بها، ومعلوم أن الصفات المكتسبة لا تُوَرَّث.

فما ذنب المولود الذي جعله (بولس) يولد على الخطيئة؟ لقد تناسى (بولس) أن هذا مخالفٌ أيضاً لعدل الله في عقوبة غير المذنب.

إن قال أحد: إذا كنا نحن أبناء آدم لم نرث الخطيئة من أبينا آدم، فلماذا ورثنا جزءاً من العقوبة وهو الموت، فأقول له: نحن لم نرث الموت، ولكن الله قد جعل طريقة الاختبار مختلفة، فقد امتحن طاعة أبينا آدم وأمنا حواء بأن منعهم عن الأكل من الشجرة، ولما عصيا ربهما أنزلهما إلى الأرض، وهي العقوبة الأولى، وأعاد امتحان طاعتهما له وهما على الأرض، بعدها أماتهما وأعادهما إلى حياة الخلد، وحتى نعود نحن إلى حياة الخلد لا بُدَّ لنا من امتحان في هذه الحياة الدنيا، بعدها نصعد إلى حياة الخلد بالموت، فالموت على الأرض ليس عقوبة بل هو مجرد

جواز سفر يوصلنا إلى الحياة الخالدة في مكان يناسب مستوى طاعتنا لله أو عصياننا لأوامره.

نقول: إذا كان خروج (٢٠:٥) يدعم قول (بولس) في وراثة الخطيئة، فهل تجاوز الله عنها في الجيل الخامس والسادس وما بعده؟

فإن قالوا: نعم.

نقول:ولماذا فكرة الصلب الوثنية إذن؟

وإن قالوا: لا، يسقط دليله بتوارث الخطيئة.

ونتساءل: هل انتهت عقوبة الموت فوراً لكل من آمن بفداء المسيح للمؤمنين به (على طريقة بولس) من الخطيئة؟

حتى إن فكرة الخطيئة غيرُ واضحة عند (بولس) نفسه إذ:

أ - مرة يقول إن الخطيئة انتقلت إلى كل الناس، في:

رسالته إلى أهل رومية (١٢:٥): "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطيةِ الموتُ وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع".

علماً أن اللذين أخطأا هما آدم وحواء فقط

ب - ومرة يقول انتقلت إلى كثيرين، في:

- رسالته إلى أهل رومية (١٩:٥): "لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعِلَ الكثيرون خطاةً...".

والفرق واضح بين الكل وكثيرين.

اللقطتان الرابعة والخامسة: القربان الإنساني

نتابع مناقشة اللقطات فنلاحظ أنه جعل القربان هو الشرط الكافي للغفران، ونرى أن الطفرة التي قام بها (بولس) والتي لم تنجح بذكائه فقط، بل بمحبة

المسيحيين الرائعة ليسوعَ المسيح، وتَقَبُّلِهم أي شيء يَرفع من منزلتِه، وهي أول طفرة مرفوضة في هذا المجال، والتي كانت تقول: "**إن القُربانَ يجب أن يكون إنساناً، ليليقَ بمقام الله**".

ما طفرة القربان البشري إلّا وثنية واضحة ابتدأت بتقديم بكر القبيلة في المناسبات وعذراء النيل السنوية (حتى إن بني إسرائيل ورثوا فكرة التضحية بالأبناء تكفيراً عن الخطايا، وإرضاءً للآلهة من فترة بقائهم في مصر وكانوا أحياناً يضحون بأولادهم) كما في:

- سفر الملوك الثاني (١٧:١٧-١٨): "وعَبَّروا بنيهم وبناتهم في النار... فغضب الرَّبُّ جداً على إسرائيل".

- سفر القضاة (١١:٣٠-٤٠) حيث نذر (يفتاح) أحد أبطال اليهود أنه سيحرق أول مستقبليه وهو عائد من الانتصار، ومن سوء حظه أن كانت المستقبلة ابنته، فصرخ وتألم ولكنه أحرقها بعد موافقتها إرضاءً للرب. فقال: "ونذر يفتاحُ نذراً للرَّب قائلاً: إن دفعت عني بني عَمُّون لِيَدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند روحي بالسَّلامة من عند بني عَمُّون يكون للرب وأُصْعِده محرقة... ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته إذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص...".

ثم يقفز (بولس) قفزة أُخرى فيقول الإنسان العادي لا يصلح لأنه مدنس بالخطيئة، فمهد بذلك لفكرة التجسد الضرورية للنقاء من الخطيئة.

إن القرابين من الحيوانات تقدَّم عادة ليس لمنفعة الله، بل هي دليل طاعة له، ووسيلة نفع للفقراء.**أما القربان حسب (بولس) فيقدمه اللهُ لله بصلبه ابنه، لكي يرضى اللهُ، فيغفر اللهُ لبني آدم خطيئة أبيهم آدم بحق الله**[٣٤٨]..!.

---

(٣٤٨) بحقِّ الله، أين أنتم أيها العاقلون، لتشرحوا هذا اللغز؟

هل غاب عن (بولس) أن يسوعَ وُلِدَ من أمه البشرية التي يفترض أنها حاملة للخطيئة هي أيضاً حسب قوله؟ فلماذا لم يشاركها فيها؟.

إذا قال قائل: "إن الله قد طهَّر مريم من الخطيئة قبل أن يَحِلَّ عليها الروح القدس ويظللها"، يكون قد أنقذ نفسه من حفرة صغيرة ليقع في بئر عميقة، إذ إن الذي يمكنه تطهير مريم العذراء دون سفك دماء يستطيع تطهير آدم وزوجته بالغفران بعد التوبة.

فما نفع إله لا يرضى إلا بسفك دمِ إنسان (أو دمِ ابنه) قرباناً له، على الرغم من توبة مخلوقه الصادقة، ألا يخالف هذا إطلاق الصفات الإلهية.

اللقطة السادسة: ضرورة التجسد الإلهي للابن لغرض القربان

في هذه المرحلة يَسْخَر (بولس) من كل عقول المسيحيين، ويستغلُ محبتهم ليسوع المسيح فيقول: إن الله أرسل ابنه متجسداً بهيئة بشر ليقوم بنو آدم حاملو الخطيئة بصلبه، وطعنه فيسيل دمه، فيرضى الله عن بني آدم، حسب:

- رومية (٨:٣٢): "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين".

أي امتهان للعقلِ البشري أكثر من أن تَطلبَ منه أن يقتنع بأن اللهَ المُساءَ إليه، قد أرسلَ ابنه إلى المسيء ليقوم المسيءُ بصلبه وقتله، لتهدأ نفسُ اللهِ ويغفر للمسيء، حسب:

- رومية (٥:١٠): "لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صُولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مُصالحون نَخلُص بحياته".

- رسالة بولس إلى أهل كورنثوس الثانية (٥:١٨): "ولكنَّ الكُلَّ من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة".

أليس إلغاء العقل هو إلغاء للميزة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان على بقية الحيوانات؟.

أليس صلب ابن الله في حد ذاته يعد إساءة لله؟.

والأغربُ من ذلك قول بعض المسيحيين (أرثوذكس) إن الله نفسه هو الذي صُلِبَ ليَرضى هو عن الذي صَلَبه، وعندما يعترض كثير من المسيحيين على ذلك، يُقالُ لهم: آمنوا دون تردد فهذا من أسرار الكنيسة التي إن لم تستطع عقولكم تصورَها الآن، فستنكشف لكم يوم القيامة.

فنقول: وما ينفع ندمُ يوم القيامة، حيث يَسقطُ عن الإنسان الاختيار؟ ما نفع دين لا يمكن تصورُه؟ فيه من الأسرار ما لا يمكن فهمه، وخاصة أن هذه الأسرار هي لُبُّ العقيدة البولسية، والتي بسقوطها يسقط دين (بولس)، ويحيا دينُ يسوع المسيح المنزَّل من السماء، المكملُ لما جاء به الأنبياء من قبله.

اللقطة السابعة: ما بعد القبض على (المسيح)

حيث قال (بولس) وغيرُه، حسب:

- مَتّى (١٢:٤٠): "لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال".

- مَتّى (١٧:٢٢-٢٣): "وفيما هم يترددون في الجليل قال لهم يسوع ابن الإنسان سوف يُسلَّم إلى أيدي الناس فيقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم.فحزنوا جداً".

- مرقس (٩:٣١): "...وبعد أن يقتل يقوم في اليوم الثالث".

- مرقس (١٠:٣٤): "...ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم".

الكل يؤكد أن (يسوع) بقي في القبر ثلاثة أيام كاملة، ثم قام من الأموات.

هنا يمكن أيضاً مناقشة **فكرة التضحية التي قام بها الله** بإرسال ابنه ليكون ذبيحاً على الصليب حسب:

- رومية (٨:٣٢): "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين".
- يوحنا (٣:١٦): "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يَهْلِك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية".

إننا نفهم أن التضحية هي خسارة إلى الأبد مقابل هدف معين، ولكن هنا، كيف يقول (بولس) إن الله ضحى بابنه الوحيد، ثم نراه يعيده إلى الأحياء بعد ثلاثة أيام، ويرفعه إليه بعد أربعين يوماً، ما هكذا تكون التضحية، **ما هذه إلا إعادة لا تضحية فيها.**

أما **فكرة القيام من الأموات** فما هي إلا نتيجة تساؤلات مفادها أن الابن إذا مات ولم يقم من الأموات فسوف يبقى الله بثلاثة أقانيم أحدها ميت، وهذا أيضاً يجعل الله حادثاً وليس قديماً، لذلك كان لا بُدَّ من إقامته من الأموات.

وأما **صعود يسوع المسيح إلى السماء** فهو أمر ليس غريباً، وقد ورد مثلُه في التوراة، فقد:

١- صعد (إيليا) إلى السماء، حسب:

- سفر الملوك الثاني (٢:١١-١٢): "وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نارٍ وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء".

٢ - أخذ الله أخنوخ إليه، حسب:

- تكوين (٥:٢٤): "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذهُ".

ولم يستغرب الصعودَ أحدٌ، حيث فهم الجميع أنه يدل على واحدة من معجزات الله التي قَبِلنا بأمثالها، ولا تُعارِضُ منطقية وجود الله الواحد مطلق الصفات.

ـ البحث العاشر: سلسلة الفداء في المسيحية من الناحية الواقعية

وتابع (دايفيد) قائلاً: لقد ناقشنا سلسلة الفداء من حلقة النزول إلى حلقة الصعود من الناحية الفكرية، ويمكن مناقشتها أيضاً من وجهة نظرٍ واقعيةٍ، حسب وقائع ذكرت في الإنجيل، وأرى أنها مناقشة ذات محورين:

ـ محور المناقشة الأول لسلسلة الفداء:

أولاً: مناقشة معرفة المسيح مهمتَه في الأرض

يبين أن الله أرسل ابنه فداء للناس، حسب:

- يوحنا (٣:١٦-١٧): "لأنّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه لم يُرْسِل اللهُ ابنَه إلى العالم ليدين العالم بل لِيُخلّص به العالم".
- رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٤:٤-٥): "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس لتنال التبني".
- رسالة بولس الأولى لتيموثاوس (٢:٣): "لأن هذا حسنٌ ومقبول لدى مخلصنا الله".
- رسالة بولس إلى أهل رومية (٨:٣٢): "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين...".

إن لمحور المناقشة الأول احتمالين:

الاحتمال الأول: أن يسوع المسيح لا يعرف المهمة التي أُرسِلَ من أجل إنجازها:

إنَّ احتمال عدم معرفة يسوع مهمته، نستقرئها من اللقطات التي وصَفَتْ خوفَه واكتئابَه وحزنَه وصراخَه، الصفات التي تؤيد ناسوتيته وتدحض ألوهيته.

وأيضاً هناك صلاتُه وتضرعُه إلى الله حسب:

– لوقا (٤٤:٢٢): "...كان يصلي بأشد لجاجةٍ وصار عرقه كقطرات دمٍ نازلة على الأرض".

وطلبُه المساعدة، حسب:

– لوقا (٤٢:٢٢): "قائلاً يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك".

هي صفات تؤيد بشريته وتؤكد جهله بالمهمة، خاصة عندما عاتب ربه، حسب:

– مرقس (٣٤:١٥): "وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: ألوي... ألوي لِمَ شبقتني، الذي تفسيره إلهي... إلهي لماذا تركتني".

يجب أن ندرك جيداً أن:

أ – كل ما جاء من الآيات الصحيحة عن الخلاص تعني الخلاص من عبادة المادة، التي سادت اليهود، وليس الخلاص من الخطيئة، كما فسرها (بولس).

ب – كل ما جاء عن المشيئة وعن أن يسوع يعمل بمشيئة الله، فالمقصود هو المعجزات وليس النزول من السماء للصلب والفداء.

ج – عندما قال يسوع إن أجله قريب، كما في:

– يوحنا (١:١٧): "تكلّم يسوع بهذا ورفع عينه نحو السماء وقال أيها الأب قد أتت الساعة...".

فليس المقصود هو ساعة الصلب بل ساعة الصعودِ إلى السماءِ.

وبقوله في:

– يوحنا (٣٤:٧) : "ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا".

لم يكن يقصد أن يطلبوه في القبر، **لأن الميت لا يُطلب بل يُزار**، والقدوم للزيارة ممكن، لكنه يَقصد الصعود إلى السماء حيث لا يستطيع أحد الصعود إليه.

هنا نقول: إذا صح الاحتمال الأول افتراضاً بأن يسوع لا يعلم أنه سيصلب للفداء، **فكيف عرف (بولس)؟**

الاحتمال الثاني: أن يسوع المسيح يعرف المهمة التي أرسل من أجل إنجازها:

وهو مستند إلى:

– إفسس (٢:٥): "...كما أحبنا المسيح وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً و ذبيحة لله رائحةً طيبة".

– رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (١:١٥): "صادقةٌ هي الكلمةُ ومستحقةٌ كلَّ قبول أنَّ المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة...".

– رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (٦:٢): "...المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع...".

– يوحنا (٣٨:٦): "لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني".

كل هذا يجعل مناقشة الاحتمال الثاني حسب اللقطات التالية:

١– يسوع يعلم الغرض النبيل (حسب سلسلة الفداء البولسية) الذي جاء من أجله، مع ذلك عندما علم أن اليهود يريدون قتله، أخذ يتخفى منهم ويهرب حسب:

– يوحنا (١١:٥٣–٥٤): "فمن ذلك اليوم [يوم إعادة الحياة لـ(لعازر Lazarus-) أخو مريم المجدلية] تشاوروا ليقتلوه، فلم يكن يسوع أيضاً يمشي بين اليهود علانية بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها أفرايم، ومكث هناك مع تلاميذه".

٢ – **يسوع يعلم الغرض النبيل من المهمة ومع ذلك** عندما أحس بقدوم الأجل ذهب إلى جبل الزيتون ليحتمي فيه ويقاوم:

– حسب لوقا (٣٩-٣٦:٢٢): "فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومِزْوَدٍ كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً، لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتمَّ فيَّ أيضاً هذا المكتوب (وهنا يعني يسوع صعوده إلى السماء وليس الصلب وأيضا يقر مبدأ الدفاع عن النفس، وليس توجيه الخد الآخر للصفع) فقالوا: يا رب هو ذا هنا سيفان، فقال لهم يكفي وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتَبِعَهُ أيضاً تلاميذه".

٣ – **يسوع يعلم الغرض من قدومه ومع ذلك:**

أ – يصلي لأبيه (أو لنفسه حسب بعض المذاهب المسيحية التي تقول إن المسيح هو الله نفسه) ليكْفِ عنه مؤونة هذه الكأس، حسب:

– مرقس (٣٦-٣٥:١٤): "ثم تقدَّم قليلاً وخرَّ على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعةُ إن أمكن، وقال يا أبا الأب كل شيء مستطاع لك فأجِزْ عني هذه الكأس".

ب – يكتئب، حسب:

– مرقس (٣٣:١٤): "...وابتدأ يَدْهَشُ ويكتئب".

ج – يكتئب ويحزن، حسب:

– متّى (٣٩-٣٦:٢٦): "فقال للتلاميذ اجلسوا ها هنا حتى أمضي وأُصلي هناك... وابتدأ يحزن ويكتئب، فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت... ثمَّ تقدم قليلاً وخَرَّ على وجهه وكان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".

د – يطلب النجاة، حسب:

– يوحنا (٢٧:١٢): "...أيها الأب نجِّني من هذه الساعة...".

هـ – يتصبب عرقاً، حسب:

– لوقا (٤٤:٢٢): "...وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض".

و – هو"ابن الله " أو "الله"، فلماذا صرخ على الصليب، حسب:

– متّى (٤٦:٢٧): "...صرخ بصوت عظيم قائلاً إيلي... إيلي لماذا شبقتني أي إلهي... إلهي لماذا تركتني".

٤ – **يسوع يعرف المهمة ويسأل لماذا تريدون أن تقتلوني**، حسب:

– يوحنا (٤٠:٨): "ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله".

٥ – **إذا قبلنا موت ابن الله فكيف نقبل موت الله نفسه ولمدة ثلاثة أيام بطولها، فمن كان للعالم خلال الأيام الثلاثة؟ ومن أعاد الحياة لله إذا كان هو نفسه الميت؟**

– أليس الموت حادث، والله قديم، ومستحيل جمع القديم بالحادث؟

إذا قال أحدهم: إن الابن لَمَّا تجسد في يسوع فقد أخذ صفات الدور، والدور بشري، والبشر يخافون ويكتئبون ويصلون ويصرخون... ...إلخ. وحتى لو كان يعلم مهمة الدور، ويمكن أن يموت أيضاً، ثم يُحييهِ الأب فما المشكلة؟

فنقول: المشكلة هي أنَّ ابن الله حسب قولكم قديمٌ، والقديمُ لا يقبل الحادث عليه، فكيف يموت ثم يحيا؟

ونقول أيضاً: وأين لاهوته وهو ابن الله؟ ألم يستطع لاهوته أن يجعله أكثر وقاراً وتقبلاً للحدث؟

لِمَ التخطيط للمقاومة إذا كان يعلم أن مهمته في ناسوته هي أن يُصلب ويفدي الناس؟

ألم نسمع أن أُناساً بشراً عادين تقبلوا الموت برحابة صدر في سبيل غاية شريفة حتى دون أن يطلبوا شربة ماء؟ فكيف يعطش يسوع على الصليب، حسب:

– يوحنا (٢٨:١٩): "...أنا عطشان...".

هل عجز ناسوته عن تحمل المشقات، ولاهوته عن إضفاء الهيبة والسكينة على الهدف النبيل؟ فأخذ يصرخ ويكتب ويصلي ويعتب... إنَّ الأقرب إلى المنطقِ أن يتسم يسوعُ على الصليب وهو يعلم أنه نَفَذَ المهمة النبيلة على أكملِ وجهٍ، وأنقذ العالم من الخطيئة ليُرضي الله !!، أو أن يلقي خُطبةً من على الصليب يطمئن بها الناس أن المهمة أُنجزت، وخطيئتهم غُفِرَت بصلبه.

إن (بولس) قد أضاف صفة اللّعنة على يسوع لأنه صُلِبَ، حسب:

– رسالته لأهل غلاطية (١٣:٣): "المسيح افتدانا من لعنة الناموس **إذ صار لعنةً لأجلنا** لأنّه مكتوبٌ ملعون كل من عُلّق على خشبة".

الله يلعن في العهد القديم كل من عُلِّقَ على خشبة، ثم لا يقبل إلا أن يُعلّق ابنه على خشبة، حتى يرضى هو ويغفر خطيئة آدم!!!.

أي شيء أبعد عن القبول من هذا؟

لكي نستطيع التقدم في المناقشة فإننا سنترك كل اللقطات السابقة، **ولنفترض جدلاً** فرضيةً جريئةً جداً، مفادها أن الله أحب أن يأخذ ابنُه كل صفاتِ الناسوتِ على الصليب، ولكن كيف نقتنع بأنه بدَلَ الاحتفالِ الإلهي بخلاصِ العالم من الخطيئة، وابتهاج الطبيعة بشمسها ونجومها ومعابدها وشجرها، نرى أن السماء أظلمت والمعبد تشقق؟ حسب:

– مَتّى (٢٧:٥٠-٥٣): "فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشقَّ إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت

والصخور تشققت. والقبور تفتّحت وقام كثيرٌ من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين".

– مرقس (٣٨:١٥): "وانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل".

– لوقا (٤٥:٢٣): "وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه".

أهكذا تكون لقطة النهاية للحدث السعيد؟

ثم لِمَ الويل لـ(يهوذا)؟ وهو الوحيد الذي ساعد على تنفيذِ رغبة السماء في (الصلب)، حسب:

– مَتّى (٢٤:٢٦): "...ولكن ويل لذلك الرجل الذي يُسلم ابن الإنسانِ. كان خيراً لذلك الرَّجل لو لم يولد".

– مرقس (٢١:١٤): "...ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يُسلّم ابن الإنسان. كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد".

ولِمَ العقاب الإلهي له بأن خنق نفسه، أو انشق بطنه وانسكبت أحشاؤه، حسب:

– مَتّى (٥:٢٧): "...فطرح الفِضَّة في الهيكل وانصرف. ثم مضى وخنق نفسه".

– أعمال الرسل (١٨:١): "فإن هذا اقتنى حقلاً من أُجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلُّها".

ألم يكن على الأقل يستحق ميتةً أفضل!!. إن لم نقل حياة رغيدة، ومكانة رفيعة؟

أفرغ (دايفيد) كوب العصير في فمه.

فقلت له: لقد أرهقتَ نفسَكَ اليوم.

فأجاب: لا يهم أريد أن أفرّغ كل ما في صدري فأستريح، والله يعلم أنني مثلك لا أسعى إلا إلى البحث عن الحقيقة.

فقال (جورج): هل تعلمون أن ما ورد في:

- أعمال الرسل (٢٢:٨): "فتُبْ من شرِّكَ هذا واطلب إلى الله عسى أن يغفر لك...".

ينسف مبدأ الفداء البولسي من أساسه، فها هو ذا الله يغفر الذنوب بالتوبة، أليس الأقرب إلى المنطق أن آدم وزوجته تابا فغفر الله لهما؟ فلا تكون الخطيئةُ الموروثةُ ولا مسرحيةُ الفداء أصلاً.

ويحق أن نتساءل :

أ - لماذا (بطرس) مُنِح حق الغفران؟ حسب:

- متّى (١٩:١٦): "...فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات".

ب- لماذا التلاميذ يغفرون، حسب:

- يوحنا (٢٣:٢٠): "من غفرتم خطاياه تُغفرْ له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكتْ".

ج - لماذا الكنيسة تغفر خطايا الماضي بالاعتراف، وخطايا المستقبل بصك الغفران؟

بينما سَحَبَ (بولس) من الله حق الغفران، **وجعله يرفض غفران خطيئة آدم الواحدة، إلا بسفك دم ابنه،** وكيف يُضفي (بولس) هذه الصفة على الله الذي يفرح بكل من آمن به بعد أن كان رافضاً له، غير معترف بوجوده أصلاً، ويغفر كل ذنوبه السابقة؟

أليس غريباً أن الكل يغفرُ بالاعتذار، أو التوبة، أما الله -عند (بولس)- فلا يغفر إلا بسفك الدماء.

إن الله يريد عبادةَ اختيار فيها إمكانية الخطيئة والعقوبة والغفران، وليس طاعة إجبار منزهة عن الخطيئة كعبادة الملائكة. إن القدرة على الاختيار هي الصفة التي فضل الله بها الإنسان حتى على الملائكة.

كان كلام (جورج) بمثابة استراحة قصيرة لـ(دايفيد) قال بعدها: أما الحلقة الثانية في سلسلة الفداء فهي (المسيح على الصليب)، حيث تسلسلت الحوادث على النحو الآتي:

ثانياً: مناقشة موضوع (المسيح) على الصليب

١- القبض على (المسيح)

عند القبض على (المسيح) هرب كل التلاميذ، حسب:

- متّى (٥٦:٢٦) "...حينئذٍ تركه التلاميذ وهربوا".

ولم يقل أحد بوجودهم قريبين من الصليب، أثناء الصلب.

٢- حمل (المسيح) الصليب

بعد ذلك:

أ - حَمل (المسيح) صليبه، حسب:

- يوحنا (١٧:١٩): "فخرج وهو حامل صليبه...".

ب- أو حمله له القيرواني، حسب:

- متّى (٣٢:٢٧): "...وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه".

٣- رُفِعَ المقبوضُ عليه على الصليب فدعا ربه أن يُخَفِّفَ عنه، فأرسل له ملكاً يقويه، حسب:

- لوقا (٢٢:٤٣): "وظهر له ملاكٌ من السماء يُقَوِّيه".

وهنا نتساءل كيف عرف (لوقا) أن الملاك ظهر له في السماء، ولم يعرفه كُتّاب الأناجيل الباقون ولم يذكروه؟

هل رآه الجميع وعرفوا أنه ملاك ومع ذلك لم يطالبوا بتوقيف الصلب؟

أما إذا لم ير الملاكَ أحدٌ إلا (المسيح)، فكيف عرف (لوقا) ذلك وهو لم يكلم المصلوب؟

٤- عاتب المصلوبُ ربَّه لأنه تركه ثم صرخ وأسلم الروح، حسب:

- مَتّى (٢٧:٤٦): "صرخ بصوت عظيم قائلاً: إيلي... إيلي لِمَ شبقتني...".
- مَتّى (٢٧:٥٠): "فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح".

٥- مدة الصلب كانت:

أ - ست ساعات، حسب:

- مرقس (١٥:٢٥-٣٧): "وكانت الساعة الثالثة فصلبوه... ولما كانت الساعة السادسة كانت ظلمةٌ على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة... فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح".

ب- ثلاث ساعات فقط، حسب:

- يوحنا (١٩:١٤) "...ونحو الساعة السادسة، قال لليهود هو ذا ملككم".

ج - ثلاث ساعات، حسب:

- مَتّى (٢٧:٤٥-٥٠): "من الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة، ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم... وأسلم الروح".

ثالثاً: مناقشة موضوع موت المصلوب على الصليب؟

تابع (دايفيد) قوله إنه يتوجَّبُ علينا التساؤل عن موت المصلوب على الصليب، فنقول: إنه من المعلوم أنه كان من عادة الصلب أن تُكسر ساقا المصلوب للإسراع بموته، ذلك حسب:

- يوحنا (١٩:٣٢-٣٤): "فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه، وأما يسوع فلما جاؤوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم راوه قد مات. لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربةٍ وللوقت خرج دمٌ وماء".

إن من الشائع ألا يموت المصلوب خلال ثلاث أو ست ساعات، والنقطة التي يجب بحثها هنا هي قائد المئة:

إن قائد المئة المسؤول هو الذي قرر أن المصلوب مات، حسب:

- مرقس (١٥:٤٣-٤٥): "جاء يوسف... ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع. فتعجب أنه مات كذا سريعاً فدعا قائد المئة وسأله هل له زمان قد مات. ولمّا عرف من قائد المئة وهب الجسد ليوسف".

قائد المئة هذا قال حسب:

- مَتّى (٢٧:٥٤): "وأما قائد المئة والذين معه يحرسون يسوع، فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله".
- مرقس (١٥:٣٩): "ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه هكذا صرخ وأسلم الروح قال حقاً كان هذا الإنسان ابن الله".

أي إن قائد المئة إما أنه آمن بيسوع أو تعاطف معه على الأقل، رأفة به لأنه علم أنه مظلوم، أو خوفاً لأنه ظن أنه ابن الله. فلم يكسر ساقيه، وعندما طلب منه بيلاطس أن يؤكد موت يسوع، أكّده.

ما الذي يمنع أن يكون قائد المئة هذا هو نفسُه الـذي شفى يسـوعُ لـه العبدَ، حسب:

– لوقا (٢:٧): "وكان عبدٌ لقائد المئة مريضاً مشرفاً على الموت وكـان عزيزاً عنده. فلما سمع عن يسـوع أرسـل إليه شيوخ اليهود يسأله أن يأتي ويشفي عبده".

وشفى يسوع غلام قائد المئة حسب:

– متّى (١٣:٨): "ثم قال يسوع لقائد المئة اذهـب وكمـا آمنت ليكـن لـك، فبرأ غلامه في تلك الساعة".

– أعمال الرسل (٢–١:١٠): "وكان في قيصرية رجل اسمه كرينيليوس قـائد مئة من الكتيبة التي تدعى الإيطالية وهو تقي وخائفُ اللهِ مع جميع بيته. يصنع حسناتٍ كثيرة للشعب ويصلي إلى الله في كل حين"

كل هذا يدل على إيمان قائد المئة بيسوع، وأنه قد ساعد (يسوع) على الصليب ليرد له الجميل.

إن الحوادث التالية للصلبِ تُشكِكُ بموت المصلوب بالضرورةِ وهو على الصليب:

١– إذ نتساءل لِمَ اشترت مريم المجدلية الحنوط بعد الدفن وذهبت إلى القبر؟ هل يا تُرى لاحظتْ إشارات حياة على (يسوع) بعد أن أنزلوه عن الصليب؟ إذ إنه ليس من عادة اليهود ولا غيرهم دهن جسم الميت بعد تكفينه ودفنه بعدة أيام، وذلك حسب:

– مرقس (٢–١:١٦): "وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومه، حنوطاً ليأتين ويدهنه. وباكراً جداً في أول الأسبوع أتين القبر إذ طلعت الشمس".

– ولا ننسى يوحنا (٣٤:١٩): "لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة **وللوقت** خرج دمٌ وماء". فإن خروج الدم للتو يعني أن القلب ما زال ينبض ويدفع الدم، وعدم حركة (يسوع) هي بسبب غيبوبة أصابه الله بها، لتكتمل مظاهر الموت، بالإضافة إلى موقف قائد المئة المتعاطف سراً، فلم يفحص دقات قلبه إذ كان عالياً على الصليب.

فإن قال أحد: ولماذا لم يمت في القبر؟ إذ بقي مدة طويلة والهواء لا يكفيه! فنقول: إنه وُضع في قبر كبير الحجم يتسع لعدة أشخاص، حسب:

– مرقس (٥:١٦): "ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً عن اليمين لابساً حُلة بيضاء فاندهشن".

– متّى (٨:٢٨): "فخرجتا سريعاً من القبر...".

– يوحنا (١٢–١١:٢٠): "...وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين بثيابٍ بيضٍ جالسين، واحد عند الرأس والآخر عند الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعاً".

٢- ونتساءل عن **الحدث الهام** في آخر مواجهة ليسوع المسيح مع الكهنوت اليهودي (قبل المحاكمة التي انتهت بصلبِ مَنْ صُلب)، حسب:

– متّى (٣٩:٢٣): "لأني أقول لكم إنكم **لا ترونني** من الآن حتى تقولوا مباركٌ الآتي باسم الرب".

أي بعد هذا الاجتماع لن يراه أحد.أليس هذا أكبر دليل على أن المقبوض عليه ثم المصلوب **الذي رأوه** ليس يسوعاً بل هو شخصٌ آخر شُبِّهَ لهم؟

رابعاً: مناقشة موضوع المصلوب في القبر

فقال (مايكل): أذكُر أيضاً ما قاله (دايفيد) عن بقاء يسـوع المسيح في الأرض

ثلاثة أيام مثل يونان في بطن الحوت، حسب مَتّى (٢١:١٦)، ومَتّى (٢٣:١٧)، ومَتّى (٤٠:١٢).

سارع (دايفيد) بقوله: لا تعجل بالحكم على هذه الآية والاستدلال بها، فتقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الكثيرون، إن يسوع لم يقصد أبداً أن معجزته ستكون مثل معجزة (يونان) الذي بلعه الحوت ثلاثة أيام وعدم التشابه يكمن في:

١- يونان قَدَّمَ نفسه طواعية، حسب:

- يونان (١٢:١): "فقال لهم خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنّه بسببي هذا النّوْءُ...".

في حين نجد أن المصلوب قد أُلقي القبض عليه وصُلب دون اختيار منه.

٢- يونان كان حياً في قلب الحوت، بدليل صلاته، حسب:

- يونان (١:٢): "فصلى يونان إلى الرب إلهَهُ من جوف الحوت".

أما المدفون فقد كان (ميتاً) داخل القبر إذ أسلم الروح وهو على الصليب، حسب:

- مَتّى (٥٠:٢٧): "فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح".

٣- بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام بلياليها، حسب:

- يونان (١٧:١): "...فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ".

في حين نجد أن المدفون بقي ليلتين ونهاراً واحداً وحساب المدة سهل:

ـ الصلب كان:

أ – يوم الجمعة الساعة الثالثة، حسب:

- مرقس (٢٥:١٥): "وكانت الساعة الثالثة فصلبوه".

ب- يوم الجمعة الساعة السادسة، حسب:

- مَتّى (٤٥:٢٧): "ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة".

ـ الموت متفق عليه وهو الساعة التاسعة قبل دخول السبت حيث لا يعمل فيه اليهود، وقد دفن في اليوم نفسه قبل دخول السبت أيضاً.

إذن قضى ليلة السبت ونهار السبت وليلة الأحد حتى الصباح الباكر جداً، حيث جاءت مريم المجدلية، حسب:

- مرقس (٢:١٦): "وباكراً جداً في أول الأسبوع أتين القبر إذ طلعت الشمس".

لتدهن جسد يسوع فكان القبر خالياً.

هل يسهل تصديق أن الغرض من زيارة النسوة للقبر كان من أجل دهن جسم إنسان ميت منذ ليلتين ويوم؟ علماً بأنه قد دُهن وكُفن قبل دفنه على الطريقة اليهودية المعتادة.

إن هذه الفروق تضعنا أمام عدة احتمالات:

ب/١- إن يسوع قال ببقائه في القبر ثلاثة أيام بلياليها، وقصد بها المصلوب، أو عنى بها غيرَ ما فُهم منه، وهذا ممكن.

ب/٢- إن يسوع قال ببقائه في القبر ثلاثة أيام، وقصَد ما فهمه المستمعون، ثم أثبتَ الواقعُ خطأ ما قاله، وهذا مستحيل، لأن يسوع مُرسَل من الله، لا يقول بمشيئته بل بمشيئة الله الذي أرسله.

إذن يَغْلِبُ شاهدُ نفي هذا القول عن يسوع ما دام أنه لم يتحقق من ذلك عملياً وبأدلة من الإنجيل نفسه.

فهز (مايكل) رأسه قائلاً: ممكن جداً، ممكن جداً.

قال (ليفي): هذه القصة تناقض ما قاله:

- مرقس (١٥: ٤٢-٤٦): "ولما كان المساء إذ كان الاستعداد، أي ما قبل السبت.جاء يوسف الذي من الرَّامة مشيرٌ شريفٌ وكان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسدَ يسوع.فتعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً فدعا قائد المائة وسأله هل له زمان قد مات.ولما عَرف قائد المئة وهب الجسد ليوسف.فاشترى كتاناً وكفَّنه بالكتان ووضعه في قبرٍ كان منحوتاً في صخرة ودحرج حجراً على باب القبر.وكانت مريم المجدلية ومريم أم يوسي تنظران أين وضِع".

ولتوضيحه نبدأ من فجر بعد السبت الذي اتفقا عليه، ونعود إلى الوراء فيكون يوم السبت وليلته، واليهود لا يعملون فيه إلا الختان، واليوم الذي قبل السبت هو يوم الصلب، حسب:

- مرقس (١٥: ٤٢): "ولما كان المساء إذ كان **الاستعداد**. أي ما قبل السبت".

في حين أن ما قبل السبت (أي الجمعة) عند (متّى) هو اليوم الذي اجتمع فيه رؤساء الكهنة مع بيلاطس، وطلبوا حراسة القبر، حيث قال:

- متّى (٢٧: ٦٢): "وفي الغد الذي بعد **الاستعداد** اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس".

اليهود لا يعملون في يوم السبت وعليه يكون الاجتماع في يوم الجمعة، وبالتالي فإن الاستعداد والصلب قد أنجز يوم الخميس، والدفنُ يوم الخميس، وبذلك يكون المدفون قضى يومين وثلاث ليالٍ في القبر، وحسب (مرقس) فقد قضى يوماً وليلتين.

- لوقا (٢٣: ٥٤): "وكان يوم **الاستعداد** والسبت يَلوحُ".

- يوحنا (١٩: ٣١): "ثم إذ كان **استعدادٌ** فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت...".

وبذلك تكون كل الأناجيل قد أخطأت قصة الأيام الثلاثة.

فقلت: وهل لاحظتم أن مريم العذراء لم تذهب لزيارة القبر؟ ألا يدل هذا على علمها بأن المدفون ليس ابنها؟

فهل كل هذه التناقضات كُتِبَت بإلهام من الروح القدس ومؤلفها اللهُ، وأعطيت هكذا للكنيسة، حسب قرارات المجمع الفاتيكاني الأول عام ١٨٦٩م؟

خامساً: مناقشة موضوع الظهور بعد الدفن

قلت لـ(دايفيد) وكيف تفسر ظهور يسوع عدة مرات لأشخاص بعد الصلب والدفن؟

فقال: أنا لا أسميه ظهوراً بعد القيام من القبر لأني لا أعترف بصلبه ودفنه أصلاً، بل أقول ظهوره بعد عملية صَلْبِ من صُلِبَ، هذا إن كان ظهوراً ما قد حدث فعلاً، وتصديقه لا يسبب مشكلة أساسية، وتفسيره واضح جداً من الإنجيل نفسه. فلقد اختفى يسوع المسيح غير مرة عندما حاول اليهود إلقاء القبض عليه، منها ما كان في المعبد، حسب:

- يوحنا (٨: ٥٩): "فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا".

- يوحنا (٧: ٤٤): "وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه ولكن لم يُلقِ أحد عليه الأيادي".

فما يمنع أن يكون ما وصفه (برنابا) هو اختفاء مؤقت أيضاً ظهر بعده عدة مرات لتلاميذه ولجمع غفير، ثم صعد إلى السماء بعد آخر ظهور؟ سواء أطالت

فترة الظهور إلى أربعين يوماً حسب أعمال الرسل (١:٣) أم قصرت إلى ظهورَيْن أو ثلاثة حسب الأناجيل الأخرى.

وهنا يجدر بنا أن نتذكر ما ورد في كتاب (تاريخ العقيدة) لأدولف هرنـك في الجزء الأول ص٨٥ بقوله: "إن هناك عدداً من النقاط مؤكدة تاريخياً **منها أن أحداً من خصوم المسيح لم يره بعد (موته)، ورؤية الخصوم دليل قاطع، فإن أخذنا بهذا القول فلا ظهور".**

وهذا يؤيد أن الصعود قد حصل قبل القبض على الشبيه -كما جاء في (إنجيل برنابا)-، وعندها يصدق ما جاء في:

- متّى (٢٣:٣٩): "لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مباركٌ الآتي باسم الرب".

بأن اليهود لن يروا يسوع بعد ذلك إلا عائداً من ملكوت السماوات، وأن الذي رأوه على الصليب هو شخص آخر غير يسوع.

فقلت ولكن مريم المجدلية تعرفت على يسوع عند القبر عندما ناداها باسمها بطريقة خاصة تميزه بها، حسب:

- يوحنا (٢٠:١٦): "قال لها يسوع يا مريمُ، فالتفتت تلك وقالت له ربُّوني...".

وقال لها يسوع حسب:

- يوحنا (٢٠:١٧): "...لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي...".

فقال (دايفيد): إذا لم أشأ أن أطعن في صحةِ هذا الكلام، على أساس التناقضات التي في الإنجيل، فأقول لك: وما يمنع أن يكون هذا أول ظهور ليسوع عند القبر بعد اختفائه عن أعين الجنود.

وأما قول يسوع لمريم لا تلمسيني، لا أحد له مبرراً، لأنه بعد ذلك عندما ظهر للتلاميذ قال لهم المسوني أنا لست روحاً، وذلك حسب:

- لوقا (٢٤:٣٩): "انظروا يديَّ ورجليَّ إني أنا هو، جُسُّوني، وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي".

على كل حال اللّمس أو عدم اللّمس لا يخلق مشكلة أساسية في إثبات الظهور أو عدمه.

فقلت لـ(دايفيد): وهل يمكن أن تطعن في هذه الحادثة بالذات، دون الاستدلال بحوادث أخرى متناقضة في الأناجيل؟

فقال: لست أنا الذي أطعن، ولكن الأناجيل نفسها هي التي يطعن بعضُها بعضَها الآخرَ. وكأنها تتكلم عن حياة مسيحٍ مختلفٍ، فها هو (متّى) يروي بشكل مختلف عن (يوحنا) لهذه الحادثة المهمة جداً في التاريخ المسيحي، فيقول في:

- متّى (٢٨:١-٢): "وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية لتنظر ومريم الأخرى القبر، وإذا زلزلة عظيمة حدثت. لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه".

إذن مريم المجدلية **رأت عملية الإزاحة** ورأت مَنْ أزاح الحجر، **فلماذا لم تر أحداً يخرج من القبر؟ فإذا كان المدفون خرج قبل هذه الإزاحة، فلماذا يحرس ملاكُ الربِّ قبراً فارغاً؟ ألا يعلم الربُّ إن كان القبر فارغاً أم لا؟**

ربما تقول: قد صار روحاً، فأقول وأين جسده؟ وقد رأت مريم المجدلية يسوع خارج القبر بجسده متنكراً بزي البستاني.

إن وصف الوقائع يتعارض مع العقل والمنطق، ويتشابك بعضه مع بعض بشكل يصعب معه تصديق القصّة كلّها.

كما نتساءل أين الحرس الذين ذكرهم (متّى) في:

- مَتّى (٢٧:٦٢-٦٦): "وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حيٌ إني بعد ثلاثة أيام أقوم، فَمُرْ بضبطِ القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة أشَرَّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس: عندكم حرّاس، اذهبوا واضبطوه كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحرّاس وختموا الحجر".

- مَتّى (٢٨:١): "وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم..."

وتابع (دايفيد) قائلاً: بالإضافة إلى أن سهولة تلفيق القصص كان وارداً جداً تلك الأيام بدلالة ما جاء في إنجيل:

- مَتّى (٢٨:١٢-١٣): "فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضةً كثيرةً قائلين: قولوا: إن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام".

- لوقا (١:١-٤): "إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا... رأيت أنا أيضاً... أن أكتب إليك... لتعرف صحة الكلام...".

فمن تصدق في حادثة كهذه، هي منعطف هام في بناء سلسلة الفداء البولسية ذات الأصول الوثنية أو في هدمها؟

في ذلك أقول: إنَّ يوسف صاحب القبر، الذي استلم جسد المصلوب ليدفنه، لم يضعه في القبر أصلاً، لأنه لاحظ فيه مؤشرات الحياة، لكنه أخفى ذلك لمحبّته ليسوع، بعدها قام المصلوب واشترى حقلاً وسقط وانشق بطنه، أو شنق نفسَه، أما إنْ ظهر يسوع بعد ذلك أم لم يظهر، فهو لا يضر في صحة العقيدة

تصور أن (مرقس) لم يذكر شيئاً عن الظهور على الرغم مما ورد في آخر إنجيله حسب:

- مرقس (١٦:٩-٢٠) الذي يروي قصة الظهور، حيث إن المحققين المسيحيين اتفقوا على أن الآية مرقس (١٦:٨) **هي آخر آية في إنجيل (مرقس)** وأن ما بعدها مضاف لعدم وجودها في النسخ الأصلية، وحددوا عام الإضافة بـ١٨٠م.

وفي ذلك يقول (جون فنتون) في تفسيره للإنجيل صفحة ٤٤٩: "إن إنجيل (مرقس) لم يحتوِ على أية روايات تتكلم عن ظهور الرب المُقام من الأموات".

وأيضاً النسخة القياسية المعدلة للإنجيل "Revised standard version". عَدَّت هذه الآيات غير شرعية، فألغتها من النص وكتبتها في الهامش، علماً بأن مشكلة الآيات في مرقس (١٦:٩-٢٠) هي أكبر مشاكل إنجيل (مرقس) التي ناقشَتْها مجموعات من علماء المسيحية.

اختلفت روايات الظهور بين الأناجيل:

- من مرة واحدة في: (مرقس) و(مَتّى) و(لوقا).

- إلى ثلاث مرات في: (يوحنا) في الإصحاح السادس عشر.

- إلى عدد غير محدد خلال أربعين يوماً في: سفر الأعمال (١:٣): "وهو يظهر لهم ويحدثهم طيلة أربعين يوماً ويتكلم على الأمور المختصة بملكوت الله".

من هذا نلاحظ مدى التناقضات التي تجعل "القيام والظهور" مسألتين لا يمكن عدهما من البدهيات أبداً.

وهناك تساؤل لا بُدَّ من طرحه: لماذا أخفى الله الفداء طيلة هذه السنين ولم

يرسل ابنه أيام آدم، لحل مشكلة الخطيئة مبكراً، وفضّل أن يظلّ غاضباً على بني آدم كل هذه الفترة حتى اكتشف (بولس) ذلك[٤٤٩]؟!.

سادساً: مناقشة موضوع الصعود إلى السماء

بعد فترة من الظهور اختلف عليها المحققون، صعد يسوع إلى السماء، حسب:

- مرقس (١٩:١٦): "ثمّ إنّ الرّبَّ بعدما كلّمهم فإن المسيح قد ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله".

- لوقا (٥١:٢٤): "وفيما هو يباركهم أُفرِدَ عنهم وأُصْعِدَ إلى السماء".

- يوحنا (٥:١٦): "...أنا ماضٍ إلى الذي أرسلني وليس أحدٌ منكم يسألني أين أمضي". **فلم يذكر الصعود إلى السماء صراحة.**

- والجدير بالذكر أن (متّى) **لم يذكر الصعود أبداً.**

علماً بأن يسوع ليس أول من صعد إلى السماء كما ذكرتُ سابقاً، بل سبقه إيليا حسب الملوك الثاني (١١:٢-١٢)، وأخنوخ حسب تكوين (٢٤:٥).

قلت متسائلاً: وهل لسلسلة الفداء أصل وثني أيضاً؟

فقال (ليفي): طبعاً فالهنود قالوا عن كرشنا المولود إنه الإله فشنو نفسه، الذي تحرك محبةً كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه، وقد وُجِدت صور لكرشنا وهو مصلوب على شجرة. كما أن صورة

---

(٤٤٩) على هذا يجيب بولس في رسالته إلى أهل رومية (٢٤:٣-٢٨):

"... in the past, was patient and overlooked men's sin's ...God shows that he himself is righteous and that he puts right every one who believes in Jesus...".

بمعنى "أن الله كان في الماضي صبوراً فغض الطرفَ عن خطايا الرجال... (أما الآن) الله يرينا عدله ويبرر كل من آمن بالمسيح..."، هنا نتساءل فقط ما الذي طرأ على الله حتى ينفذ صبره وقت نفاذه، الله واجب الوجود ولا يقبل الحوادث، لكن الله عندهم صبور وعادل، لكنه لا يغفر بالتوبة والاستغفار.

(أندرا) إله نيبال المصلوب لكي يخلص البشر من ذنوبهم منتشرة في دول نيبال.

أما البوذيون فيقولون إن (بوذا) هو المولود الوحيد لله، ومخلص العالم، وهو إله كامل وإنسان كامل تجسد بالناسوت، وقدم نفسه ذبيحة ليخلص البشر من ذنوبهم.

ويقول المصريون، إن (أوزيرس) قام من الأموات وأنه سيكون الديان يوم الدينونة، والسوريون القدامى يقولون عن (تموز) الإله المولود من عذراء أنه تألم من أجل الناس وأنه فداهم بتقديم نفسه للصلب.

نلاحظ أن الفرق ليس كثيراً بين ما ورد في الديانات الوثنية وبين ما أقره مجمع نيقية، إلا في شيء واحد وهو إقرار (بولس) بأن الإنسان يولد بالخطيئة الموروثة من أبيه آدم.

محور المناقشة الثاني لسلسلة الفداء:

قال (دايفيد) إن:

١- الاعتراف بخطيئة آدم وعقابه بطرده من الجنة ونقله من الحياة الأبدية إلى الحياة الفانية، حسب:

- تكوين (١٧:٢): "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت".

٢- الاعتراف بأن الله قد غفر لآدم خطيئته ولكنه لم يُعِده مباشرة إلى الجنة التي كان فيها، بل فرض عليه وعلى أبنائه فترة امتحان أخرى هي حياتهم على الأرض، بعدها يعود الصالح إلى حياة الخلد في الجنة، والطالح إلى حياة الخلد في جهنم.

٣- الاعتراف بأن الله أرسل يسوعاً ابن الإنسان، بشراً مخلوقاً بمعجزة إلهية دون أب، رسولاً إلى بني إسرائيل، بمعجزات خارقات ليعيدهم إلى طريق الله.

٤- الاعتراف بأن الله قد رفع إليه يسوعاً قبل محاولة القبض عليه، وجعل (يهوذا) شبيهاً للمسيح يسوع ابن العذراء مريم، فقبضوا عليه ظانّين أنهم قد قبضوا على المسيح يسوع.

٥- الاعتراف بأن يسوع المسيح ابن العذراء مريم سيعود إلى الأرض ليتابع الدعوة إلى دين الله.

إن كل هذه الاعترافات، تشكل المحور الأقرب إلى المسيحية اليسوعية، والأبعد عن المسيحية البولسية.

- البحث الحادي عشر:

اليهود والمسيح

قلت: إني ما زلت أستغرب سبب رفضِ اليهود ليسوع المسيح وسبب عدائهم له!. إنهم خالفوا كثيرين من أنبيائهم، لكن كرههم ليسوع المسيح اتخذ طابعاً خاصاً متطرفاً.

فتطوع (ليفي) بالإجابة وقال: أظن أن هذا السؤال موجه إليَّ مباشرة.

أنا طبعاً لا أنفي يهوديتي، ولكني لست من المتعصبين المتطرفين، ومع ذلك يمكنني أن أوجز أسباب رفض اليهود ليسوع بعد أن أمهد لذلك:

بدت ملامح الجدّية على وجه (ليفي) وكأنه في قفص الاتهام، فأخرج سيجاراً من علبة (دايفيد) وأشعله، وتبين لي أنه لا ينتمي إلى أصحاب الخبرة، وكأنه بعمله هذا أراد كسب بعض الوقت ليستجمع أفكاره، ثم تابع قائلاً: تبدأ القصة من أعماق التاريخ السّحيقة، حيث توالى الاضطهاد على بني إسرائيل، حتى وصلوا أيام النبي داود أوج قوتهم وسلطانهم، بعد أن قتل داودُ جالوتَ وقام بتخليص بني إسرائيل منه، فلُقب بالمسيح المخلّص، وعاش اليهود عصرهم الذهبي في عهده وعهد ابنه سليمان، ثم ضعفت الدولة وانقسمت إلى مملكتين بين ولَدَيه،

واحدة في الشمال هي مملكة بني إسرائيل وعاصمتها (شكيم) بقيادة (يربعام)، ومعه عشرة أسباط، ومملكة (يهوذا) في الجنوب وعاصمتها أورشليم بقيادة (رحبعام) ومعه سبطان.

بعد ذلك حصل السبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م على يد (نبوخذنصّر)، وهناك في السبي أخذَ اليهودُ يدعون ربهم أن يرسل إليهم المسيح المخلص المنتظر، الذي هو من نسل داود، حتى يتحقق كلام الله لداود، حسب:

- صموئيل الثاني (١٢:٧): "... أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته".

لذلك نرى أنه ما إن انتصر الفرسُ الكافرون عبدةُ النارِ بقيادة (كورش CYRUS) على البابليين، حتى جعل اليهودُ منه المسيح المنتظر الذي خلّصَهُم من السبي، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم متناسين أنه ليس من نسل داود، فقالوا في:

- أشعياء (١:٤٥): "هكذا يقول الرب لمسيحِهِ كورش الذي أمسَكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحقاءَ ملوك أحُلُّ لأفتحَ أمامَه المصراعين والأبوابُ لا تُغلقُ".

ثم احتل الرومان البلاد وقسموها إلى إقطاعيات بين أمرائهم واضطهدوا اليهود، فعادت أحلامهم ودعواتهم لله بأن يرسل إليهم المسيح المخلص المولود من نسل داود، وكثرت الأساطير حول العظماء، وقامت الفلسفات الوضعية إلى إضافة القصص الوثنية عن أبناء لله ينزلون من السماء، أو يولدون من عذارى، وقَسّموا السلطة في السماء إلى العاقل والفاعل والقابض، **العاقل واجب الوجود الكامل الذي لا يخلق غير الكامل**[٣٥٠] **وبما أن الإنسان ليس كاملاً فهو ليس**

(٣٥٠) نلاحظ أن التناقض واضحٌ، فإذا كان الكامل لا يخلق إلا كاملاً، فقد خلق العاقلُ الفاعلَ، وترك له مهمة خلق الإنسان غير الكامل، وحسب الافتراض الأساسي يجب أن يكون الفاعلُ كاملاً أيضاً، فكيف يخلق الفاعلُ الكاملُ إنساناً غير كاملٍ ويخالف القاعدة الأساسية.

من خلق العاقل بل من خلق الفاعل، والقابض هو الذي يُلَملِمُ المخلوقات عندما يحين الزمان، وهو أصل التثليث.

في أثناء انتظار اليهود المسيح، كان (يوحنا المعمدان) يعمد على نهر الأردن، سأله بنو إسرائيل، هل أنت هو المسيح المنتظر؟ فقال حسب:

- يوحنا (١:٢٠): "...إني لست أنا المسيح".

بعدها قام يسوع وقد بلغ الثلاثين من العمر بإعلان رسالته، وأنه مرسل من الله ليكمل الناموس ففرح به اليهود لأن تكميل الناموس يعني إعادة مُلْكِ داود إلى الأبد، ثم ما لبث اليهود أن غيروا رأيهم بالمسيح وذلك **للأسباب الآتية:**

١ ـ رفض أن يكون ملكاً:

حاول اليهود تنصيب المسيح ملكاً عليهم عندما دخل أورشليم وفرشوا له الأرض، لكنه رفض وذهب إلى الجبل وحيداً، حسب:

- يوحنا (٦:١٥): "وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده".

٢ ـ كان يعمل في يوم السبت:

مما زاد من غضب اليهود أنه كان لا يتوانى عن شفاء الناس في يوم السبت المقدس، حسب:

- يوحنا (٧:٢٢-٢٣): "...ففي السبت تختنون الإنسان، فإن كان الإنسان يقبل الختان في السبت لئلا ينقض ناموس موسى أفتسخطون عليَّ لأني شفيت إنساناً كلّه في السبت".

- يوحنا (٥:١٦): "ولهذا كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت".

٣ ـ المسيح رجل مُسالم:

ثم أيضاً قد تبين لهم أنه رجل مسالم يعطي ما لقيصر لقيصر، ولم تظهر عليه علامات لمقاومة الرومان ليعيد لهم مجد داود وسليمان.

لهذا اتفق اليهود على أن يسوع ليس هو المسيح المخلص المنتظر، وأنه ابن زنى ويجب قتله، على الرغم من أنهم كانوا قد أوجدوا له نسباً يصله بداود[٣٥١]، حسب:

- مَتّى (١:١-٦): "كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم... ويعقوب ولَدَ يهوذا وإخوته.ويهوذا ولَد فارصَ وزارح... ومَتَّانُ ولَد يعقوب ويعقوب ولَد يوسف رجُلَ مريمَ التي منها ولد يسوع الذي يدعى المسيح".

- لوقا (٣:٢٣-٣٨): "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يُظن ابن يوسف بن هالي... بن ماثان بن داود... بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم بن تارح... بن شيت بن آدم بن الله".

الاختلاف واضح بين النَسبين في الإنجيلين، فماذا يتوجب علينا الاستنتاج من هذا؟

٤ ـ المسيح لا يعمل بالناموس:

اتهم اليهود يسوعاً أنه لم يعمل بالناموس حينما جاؤوه بامرأة زانية أمسكوها في الفعل ذاته، حسب:

- يوحنا (٨:٧-٩): "وقال لهم من كان منكم بلا خطيَّة فليرمها أوّلاً بحجر... فخرجوا واحداً واحداً".

(٣٥١) كيف يجتمع ما ورد في: مَتّى (١:١-٦)، ولوقا (٢٣:-٣٨) سابقتي الذكر، مع ما جاء في المجمع الفاتيكاني الأول من أنَّ الإنجيل كتب بإلهام من الروح القدس و مؤلفه هو الله، وأعطي هكذا للكنيسة.

قلت: أنا لا أعُدُّ ذلك -إن صَحَّ- مخالفة للناموس؛ لأنه حتماً لم يقل لا ترجموها ليخالف الناموسَ، بل أحب أن يكشفهم أمام أنفسهم،وأنه ليس فيهم من يَتَّبِعُ الناموس، أو ربما أحب أن يكون البادئ بالرجم من لا ذنب له، بقوله **(أولاً)**، وخروجُهم كلهم نفى عنها جُرم الزنى، لعدم وجود الشهود، عندها قال اليهود حسب:

- يوحنا (٨:٤٨): "فأجاب اليهود وقالوا له: ألسنا نقول حسناً إنك سامريٌّ وبك شيطان".

وقالوا إن ولادته من زنى حسب:

- يوحنا (٨:٤١): "...فقالوا. إننا لم نولد من زنىً...".

وقلتُ أيضاً: لكن يسوعَ هو المسيح المخلص لبني إسرائيل من آثامهم وماديتهم والعودة بهم إلى الطريق الصحيح.

فقال (ليفي): وهذا ما لم يقتنع به أجدادنا، حتى إن (يهوذا) الذي ساعد اليهودَ في القبض على يسوع لم يفعلها من أجل ثلاثين قطعة فضية كما يُظَن، بل لأنه كان -بوصفه يهودياً- قد فقد إيمانه بيسوع على أنه المسيح المنتظر، رسول الله، مُعيد مجد إسرائيل، والدليل على ذلك أنه رمى القطع الفضية وذهب وشنق نفسه عندما تبين له شنيع فعله، فقد كان قبل ذلك أشد التلاميذ اتباعاً ليسوع وحباً له.

- البحث الثاني عشر:

الأناجيل الأربعة المعترف بها

قلت موجهاً سؤالي إلى الجميع: لقد تكلمنا عن أساسيات المسيحية، لكننا لم نتعرض لاستعراض مختصر للأناجيل ولم نجر مقارنة عامة فيما بينها.

قال (دايفيد): بشكل عام، إن محتوى الأناجيل هو:

- أجزاء من قصة حياة يسوع المسيح، من ولادته وحتى صعوده إلى السماء.
- فيها نسب المسيح الذي يربطه بداود.
- ليس فيها تعاليم شريعة مستقلة حينما تُفصل عن العهد القديم.
- وهي تحتوي على تعاليم حميدة ومنها النهي عن الزنى، وعدم النظر إلى النساء بشهوة، وبعض الوصايا الأخلاقية، ولكنها لم تحدد عقوبات المخالفين.
- فيها أيضاً الحث على التسامح، وطاعة الله، وطلب الرحمة لصانعي السلام، وتدعو إلى الزهد في الدنيا.
- فيها التأكيد على أن عيسى جاء لإكمال الناموس لا لنقضه.
- فيها الكثير من معجزات يسوع المسيح، من شفاء إلى إعادة الحياة للموتى والصعود إلى السماء.
- فيها القصة الكاملة للقبض على (يسوع)، ومحاكمته، وصلبه، ودفنه، وقيامته.

علماً بأن الأناجيل يختلف بعضها عن بعض كثيراً في الرواية، وفي وصف الواقعة، وتتناقض حتى ضمن الإنجيل الواحد.

والحقيقة التي توصل إليها العلماء والمحققون المسيحيون أن الأناجيل هي:

- كُتب مؤلَّفةٌ من قِبَل أشخاصٍ.
- فيها الصواب وفيها الخطأ.
- لا يمكن الادعاء بأنها كُتبت بإلهام إلهي.

حتى إن القديس (جوستين) في منتصف القرن الثاني كان يسميها (مذكرات الرسل).

إن أناجيل (متّى) و(مرقس) و(لوقا) شبه متقاربة، وتختلف تماماً عن إنجيل (يوحنا) في كثير من الحوادث زماناً ومكاناً، وتقول دائرة المعارف البريطانية: "إن هناك مشكلة هامة وصعبة تنجم عن التناقض الذي يظهر في نواح كثيرة بين الإنجيل الرابع والثلاثة المتشابهة، إن الاختلاف بينهم عظيم بحيث إنه لو قُبِلَتْ الأناجيل المتشابهة باعتبارها صحيحةً وموثوق بها فإن ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنا".

في تعليقات الترجمة المسكونية للعهد الجديد، التي قام بها مئة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت، نقرأ: إنه لا يوجد على أي حال أية شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية قبل عام ١٤٠م.

قلت: ولكن ألا يوجد إنجيل اسمه (إنجيل عيسى) وأين هو؟

فقال (دايفيد): إنه لا يمكننا التكلُّم عن إنجيل يسوع المسيح، بل عن أناجيل متعددة لمؤلفين مختلفين، وذلك إما لأنه لم يكن يوجد ما يسمى إنجيل عيسى أصلاً، لعدم تدوينه في أثناء حياة يسوع على الأرض، أو لفقدانه، وليس العذر الثاني بأقل فداحة من الأول، إذ كيف تفقد نسخةُ الإنجيل الأصلي مع وجود مخطوطات فلسفية أقدم من الإنجيل بقرون؟ أليس الفقدان العفوي مشكوك فيه والإتلاف المتعمد أقرب إلى التصديق؟ أو إخفاء التلاميذ له خوفاً عليه، في مكان استحال مع مرور الزمن العثور عليه، ولا أستغرب أنه يوماً ما ستستحق المعجزة الإلهية بظهور نسخة أصلية لإنجيل عيسى تكشف الحقائق كلها.

وتابع (دايفيد) كلامه السابق عن الأناجيل قائلاً:

١ - إنجيل (يوحنا):

بنظرة عامة إلى الأناجيل نرى أن إنجيل (يوحنا) يتضمن صراحة أُلوهية يسوع المسيح، نَسَبَهُ بعض المحققين إلى (يوحنا بن زبدي)، الذي كان يسوع يحبه ويقربه، ورفض ذلك بعضهم الآخر.

جاء في دائرة المعارف البريطانية: "إن إنجيل يوحنا ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين أحدهما بالآخر هما يوحنا ومتّى، وإن كاتبه هو غير (يوحنا) الحواري وهو غير معروف".

وجاء في دائرة المعارف الفرنسية: "ويذهب بعض علماء الإفرنج إلى أن إنجيل (مرقص) وإنجيل (يوحنا) من وضع (بولس الرسول)"(٣٥٢).

كما أن (يوحنا) يحدد بعثة المسيح بأكثر من سنتين، وذلك بالإشارة إلى أكثر من احتفال فصح واحد في (١٣:٢) و(٤:٦) و(٢٣:٢).

ويعتقد الباحث كولمان (A. COLMAN) أن الإصحاح (٢١) كلّه مُضافٌ، بقوله: "لا نعجب لعدم وجود كل ما تحويه الأناجيل الأخرى في (يوحنا)، ولكن نعجب للثغرات الواسعة الموجودة فيه، كتلك التي تصف تأسيس القربان المقدس، إذ كيف يمكن تصور (يوحنا) المتأمل لا يتحدث عن حدث رئيس كهذا".

إن أكبر مشاكل إنجيل (يوحنا) حسب أقوال المحققين المسيحيين هو الإصحاح الحادي والعشرون. حيث ينتهي الإصحاح العشرون بانسجام تام، عندما يقول:

- يوحنا (٣١:٢٠): "وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمة".

وهو إعلان واضحٌ بانتهاء كتابة إنجيل (يوحنا)، ثم يأتي الإصحاح الحادي والعشرون ليتكلم عن:

أ - ظهور المسيح بعد القيامة ثلاث مرات، لخمسة من التلاميذ.

ب- توكيل (بطرس سمعان) برعاية خراف بني إسرائيل وغنمها، بعد المسيح.

(٣٥٢) في كتاب "نظرات في إنجيل برنابا": محمد علي قطب، ص٣٤.

ج- ظهور المسيح لتلاميذه على بحيرة طبريا **بعد أن قام من الأموات**، حسب يوحنا (٢١:١-١٤)، وتشابه إلى حد بعيد ما رواه لوقا (٥:١-١١)، لحادثة وقعت **قبل الصلب** على بحيرة طبريا، عندما اصطاد التلاميذ أسماكاً كثيرة وصعُبَ عليهم سحب الشباك.

يغلب الظن أن تدوينه في النص النهائي كان في ٦٨م. وهو بعد مقتل (بولس).

٢ - إنجيل (متّى):

كُتِبَ مخاطباً اليهود، ومحاولاً إقناعهم بأن يسوع هو المسيح المنتظر، ويركز على أنه **أتى إلى بني إسرائيل فقط**، حسب:

- متّى (١٠:٥-٦): "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أممٍ لا تمضوا، وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالة".

- وقال في متّى (١٥:٢٤): "فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالة".

ثمَّ يخالفُ نفسَهُ في نهاية الإنجيل نفسه حيث قال:

- متّى (٢٨:١٩): "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم...".

مما يثبت إضافة هذه الخاتمة.

من مشاكل إنجيل (متّى) أيضاً هي:

أ - توقُّعُهُ عودة يسوع سريعاً، حسب:

- متّى (١٠:٢٣): "...فإني الحق أقول لكم لا تُكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابنُ الإنسان".

- متّى (١٦:٢٨): "الحقّ أقولُ لكم إن من القيام ها هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً من ملكوته".

ب - إقرار الثليث في الخاتمة، حسب:

- متّى (٢٨:١٩): "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعَمِّدوهم باسم الأب والابن وروح القدس".

هذه الخاتمة يعُدُّها المحققون العلماء مضافة، ويشككون بها.

دعا (متّى) إلى المسيحية مدة (٢٣) سنة، بعد أن اختاره يسوعُ بنفسِهِ، حسب:

- متّى (٩:٩): "وفيما يسوع مجتازٌ من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه (متّى) فقال له: اتبعني، فقام وتبعه".

مات عام ٦٢م في الحبشة قتلاً من أحد أعوان ملك الأحباش، واختلف تاريخ تدوين إنجيله بين ٣٩م و٦٤م. عاصر (بولس) ولكن يلاحظ ضعف تأثره به

٣ - إنجيل (لوقا):

تدل مقدمته على ما كان يحدث زمن كتابة الأناجيل ورأي كاتب معاصر للأحداث، وهو يبدو على شكل رسالة شخصية من شخص إلى شخص آخر، لا علاقة لها بالوحي ولا بكلام الرب، وذلك حسب:

- لوقا (١:١-٤): "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهوداً معاينين وخداماً للكلمة، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك، أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمتَ به".

والثابت أن (لوقا) لم ير المسيح أبداً، ولكنه رافق (بولس) في بعض أسفاره وأعماله، وثبَّتَ (بولس) ذلك في:

- رسالته إلى أهل كولوسي (٤:١٤): "...يسلم عليكم لوقا الطبيب المُحبَّب و....".

بشكل عام يُعدُّ إنجيل (لوقا) عملاً أدبياً راقياً، اجتمعت فيه صفة الروائي الجيد، ولكن حذفه لكثير من الروايات التي عند (مرقس)، تُثير الشكَّ في أحدهما، ولقد أبرز كلمات المسيح في مواجهته مع اليهود، ونلاحظ اختلاف رواياته عن طفولة المسيح عن (متّى)، بينما الأغرب من ذلك أن (مرقس) لم يذكرها أبداً.

ومما يؤخذ على (لوقا) اختلاف أنساب يسوع المسيح بين لوقا (٣:٢٣-٣٨)، وبين مَتّى (١:١-١٧) حيث يبدو للقارئ **وكأنهما يتكلمان عن شخصين مختلفين.**

يرجح زمن كتابة إنجيل (لوقا) بين ٥٣-٦٤م. ولكن ثاوفيلس مازال مجهولاً بالنسبة إلى المحققين.

٤ - إنجيل (مرقس):

كان (مرقس) تابعاً لـ(بطرس الرسول)، ولقد ذهب أيضاً مع (بولس) إلى أنطاكية، ثم ذهب وحده إلى مصر في منتصف القرن الأول، وقتل عام ٦٢م. ويُعدُّ إنجيله أقدم الأناجيل.

يتناقض مع (متّى) و(لوقا) ويسرد حكاية لم تعد قابلة للتصديق، حسب:

- مرقس (٨:١١-١٣): "فخرج الفريسيون وابتدؤوا يحاورونه (المسيح)، طالبين منه آية من السماء، فتنهد المسيح بعمق وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية... الحق أقول لكم، لن يعطى هذا الجيل آية، ثم تركهم وصعد إلى السفينة ليمضي إلى الضفة الأخرى".

لأنه حدثت آيات أخرى لاحقة لهذه الحادثة، حسب:

- مرقس (٨:٢٣-٢٥): "فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية وتَفَل في عينه وسأله هل أبصرَ شيئاً... وأبصر كل إنسان جلياً".

- مرقس (٩:٢٥-٢٧): "...انتهر الروح النجس قائلاً أيها الروح الأخرس الأصم أنا آمرك، اخرج منه ولا تدخله أيضاً...".

- مرقس (١٠:٥١-٥٢): "فأجاب يسوع وقال له ماذا تريد أن أفعل بك فقال له الأعمى يا سيدي أن أبصر فقال له يسوع اذهب إيمانك شفاك فللوقت أبصر...".

- وغيره كثير في الأناجيل الأخرى.

أما مشكلة هذا الإنجيل فهي خاتمته (١٦:٩-٢٠) التي تتحدث عن الظهور لمريم بعد القيامة، ولاثنين آخرين، ثم الصعود والجلوس إلى يمين الله، وهذه الخاتمة عدَّها المحققون مضافة حوالي عام ١٨٠م.

ويلاحظ أن هذه الخاتمة غير موجودة في المخطوطتين الأصليتين للعهد الجديد، وهما:

- المجلد السينائي "Codex sionaitions".

- المجلد الفاتيكاني "Codex vaticanus".

ويقول الأب (كانينسجر) عن هذه الخاتمة ما يأتي: "لا بُدَّ أنه حدث حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمي لكتاب (مرقس) من الجماعة التي ضمنته، إذ لا (مَتّى) ولا (لوقا) ولا (يوحنا) قد عرفوا بهذا الجزء المفقود، لقد كانت فجوة لا تحتمل، وبعد ذلك جرى توليف خاتمة محترمة لـ(مرقس) بالاستعانة

بعناصر من هنا وهناك لدى المبشرين الآخرين، وبذلك تكوَّنت الخاتمة (١٦:٩-٢٠)، **وهذا يسمح بتكوين فكرة مادية عن حرية التصرف التي كانوا يعالجون بها الكتاب المقدس"**.

ويقول أيضاً: "ويستحيل أن يعطي أي كاتب من كتّاب الأناجيل لنفسه صفة شاهد عيان".

ـ البحث الثالث عشر: نُسَخُ الإنجيل المعدلة:

قلت لـ(دايفيد): لقد تكلمتَ عن تناقضات عامة بين الأناجيل، ولكن ما هي النسخة المعدلة للإنجيل؟ فهل جرى تعديل للعهد الجديد؟ والرجاء أن تذكر لنا بعض الأمثلة عن التناقضات العامة في العهد الجديد.

قال (دايفيد):

١- إن أول ترجمة إنكليزية من العبرية والإغريقية قام بها (وليام تندال)، فاتُهم بإفساد معنى الكتاب المقدس وأُعدم حرقاً على الخازوق عام ١٥٣٦م، وأحرقت جميع النسخ.

٢- ثم ظهرت نسخة الملك جيمس الشهيرة عام ١٦١١م، بعد ظهورها تبين أن فيها خمسين ألفاً من الأخطاء، لذلك عُدلت الترجمة فظهرت الترجمة الإنكليزية المراجعة "Revised English version" عام ١٨٨٥م.

٣- ظهرت أيضاً الترجمة القياسية الأمريكية عام ١٩٠١م

."American standard version"

٤- مع كثرة الانتقادات والأخطاء استمر التنقيح حتى ظهرت الترجمة القياسية المعدلة "Revised standard version" عام ١٩٥٢م.

قلت: وكيف يكون التعديل والمراجعة في النص؟

فقال: أورد لك بعض الأمثلة:

١ـ تحريف بحجة التحديث:

وهو مثال على الأساليب الحديثة في التحريف الذي يقع تحت ستار التحديث اللغوي، بحجة أنها أصبحت غير مفهومة للجيل الجديد مثلما :

- ورد في تثنية (١٨:١٨): "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه (...From among their brothern...) .

المطلوب هو تحديث كلمة. (Brothern)

فعدَّلوها بـ(own people) في طبعة كولنز.(Collins)

بينما التحديث المفروض هو. (brothers)

فتحول التحديث إلى تحريف مقصود الهدف لمن يعرفُ كامل القصة.

قلت : وما هي القصة؟

فقال: إنها كانت تعني من بين إخوتهم، أي من ذرية إخوة إسحاقَ، أي ذرية إسماعيل، أي العرب وهي نبوءة عن محمد، فصارت (من ذريتكم) أي من ذرية إسحاق، أي من بني إسرائيل ومُحمدٌ ليس من بني إسرائيل، والفرق كبير!.

٢- تحريف بقصد الإهانة:

ولقد وصل التحريف أيضاً إلى شخصية يسوع نفسه، بالقول على لسانه ما لا يمكن أن يقوله رسول الله أو (ابن الله)، فقد جاء في:

- مَتّى (٣٩:٥): "أمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشَّرَّ بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً".

- مَتّى (٦:٧): "ولا تطرحوا درركم قدّام الخنازير".يعني بذلك الشعب غير اليهودي.

- مَتّى (٢٦:١٥): "وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب".

- يوحنا (٤:٢): "قال لها يسوع ما لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بَعدُ..."، دون أي احترام لأمه، وبعد ذلك قام بمعجزة تحويل الماء إلى خمر.

- يوحنا (٨:١٠): "جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاقٌ ولصوصٌ".

وهو يقصد كل الرسل الذين دعوا لعبادة الله قبله، فهل يمكن لشخص في مقام يسوع المسيح أن يقول مثل هذا، أو يتصرف هكذا؟.

٣- تحريف بغرض الفصل:

كما توجد تحريفات يَظهر فيها تأثير (بولس) جلياً، لفصل أتباع المسيح عن اليهود، فقد:

أ - كان الله واحداً، فجعله (بولس) ثلاثة في واحد.

ب- كان بلا ابن، فجعل (بولس) له ابناً.

ج - وكان الخلاص بالطاعة والعمل بالناموس. فجعله بالإيمان فقط، حسب:

- رسالة بولس إلى أهل رومية (٢٨:٣): "إذاً نحسب أنّ الإنسان يتبرَّر ربه بالإيمان بدون أعمال الناموس".

د- أمر يسوع **بالقيام بالوصايا**، حسب:

- مَتّى (١٨:١٩): "...فقال يسوع لا تقتل، لاتزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور".

فقال (بولس) في:

- رسالته إلى أهل رومية (٩:٧): "ولكن لما **جاءت الوصيَّة عاشت الخطيَّة** فمتُّ أنا".

هـ- أمر عيسى بالختان، فألغاه (بولس) وحَمَّلَ نفسه إنجيل الغرلة.

و- كان يسوع رسول الله، حسب:

- مرقس (٣٧:٩): "...ومن قَبِلَني فليس يقبلني أنا بل الذي **أرسلني**"، فجعلوه إلهاً أو ابن إله.

ز- قال يسوع إنه أُرسل إلى خراف بني إسرائيل الضالة، حسب:

- مَتّى (٥:١٠) ومَتّى (٢٤:١٥)، فقالوا رسالته لكل الأمم حسب مَتّى (١٩:٢٨).

ح- قال يسوع إنه جاء ليكمل شريعة موسى. فقالوا: إن يسوع ضَمِنَ عهداً أفضل، حسب:

– رسالة بولس إلى العبرانيين (٧:١٨-١٩): "فإنه يصير إبطالُ الوصية السابقة من أجل ضَعفها وعدم نفعها إذ الناموس لم يُكمل شيئاً، **ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله**".

ي- كان الحساب يوم الدين، حسب مَتّى (١٢:٣٦)، فصار الغفران بصلب يسوع، وبالاعتراف في الكنيسة وصكوك الغفران حسب قرارات المجامع المسكونية المختلفة.

ك- قال لوقا (٣:٢٣) إن يوسف ابن هالي، فقال مَتّى (١:١٦) يوسف ابن يعقوب.

٤ـ تحريفات أخرى:

يقول الدكتور (فريدريك كلفتن غرانت): "إن العهد الجديد كتاب غير متجانس، ذلك لأنه شتات مجمع.وهو لا يمثل وجهة نظر واحدة تسوده من أوله إلى آخره".

كما أنه بعد انفصال البروتستانت عن روما، أخذت الأناجيل المعترف بها من الطرفين، تختلف بعضها عن بعض، فكلما أصدر أحد الطرفين طبعة جديدة يسمح لنفسه بتعديل مختلف، ومثال ذلك:

– ما جاء في جواب (يسوع) بعد القبض عليه وفي أثناء محاكمته، عندما سأله الحاكم بيلاطس: هل أنت هو المسيح؟ حسب:

– مَتّى (٢٦:٦٣-٦٤): "...أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله. قال له يسوع: أنت قُلتَ...".

ولقد ورد أيضاً في الإنجيل الأمريكي الجديد (الترجمة الكاثوليكية الجديدة).

أن يسوع قال: أنت قلت. (You have said so) والتي يمكن تفسيرها أن المقبوض عليه (الذي هو يهوذا حسب إنجيل برنابا)، مَلَّ قول حقيقة أنه ليس يسوع المسيح، فأجاب عن السؤال بقوله... "**أنت تقول هذا**".

ولكن إنجيل الملك جيمس الجديد (البروتستانت) فضل تعديل الجواب ليناسب الأفكار البولسية أكثر.فقال:

– مَتّى (٢٦:٦٣-٦٤): "...هل أنت المسيح ابن الله. فقال له يسوع، **إنه كما تقول**..." "It is as you say".

أي نعم إن الذي قبض عليه، ويحاكم بين أيديكم هو المسيح يسوع. وبذلك قلب المعنى رأساً على عقب، فهل توجد جراة أكثر شراً من هذا التحريف؟

قال (جورج) كلنا قرأنا:

– مَتّى (١٩:٢٨): "...متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط بني إسرائيل".

ونعلم أن (يهوذا) الذي خان المسيح و(سلّمَهُ) **هو من بين التلاميذ**، وهذا يلزم وجود احتمالين:

الأول: إن (يهوذا) لم يَخن المسيحَ، لأنه سيكون من ضمن الاثني عشر الجالسين معه، ولا يمكن لخائن الجلوس بين التلاميذ، فتسقط الخيانة.

الثاني: إنَّ (يهوذا) خان المسيحَ فعلاً، فلن يجلس معه ليدين الأسباط، فيسقطُ القول المنسوب إلى المسيح، لأن المسيح لن يقول قولاً لا يستطيعُ الوفاءَ بـه. فيثبت التحريف.

تابع (دايفيد) قائلاً: إن علماء المسيحية يعملون بذكاء إذ يحاولون تعديل كل التناقضات، التي يشير إليها المعارضون والناقدون، حتى يحصلوا بعد عشرات أو مئات من السنين على نسخة يظنون أنه يصعب نقضها، لكن الله لن يسمح بالوصول إلى مثل هذا الوضع وذلك إظهاراً للحق.

فقلت: الحقيقة يا (دايفيد) إني مندهش من كل ما سمعته منك في هذه الجلسة والجلسات الماضية، مع أني قرأت الأناجيل كغيري ووجدت فيها كثيراً من التناقضات، ولكني لم يكن ليخطر على بالي أن الربط بين آياتها وقراءة ما بين سطورها يمكن أن يُعطي صورة مختلفة عن الإنجيل المسالم، الذي تفاءلت به عندما بدأت قراءته، باحتمال العثور على الحقيقة التي أبحث عنها، لكن بمناقشتك هذه ومناقشة الأصدقاء (جورج) و(مايكل) و(ليفي) منحتموني رؤية مختلفة جداً.

على كل... ... ...

قاطعني (ليفي) قائلاً: اعذرني أن أقاطعك، لكنك ذكرت (الإنجيل المسالم) وأظن أنك بنيت فكرتك على:

- مَتّى (٣٩:٥): "أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً".

وربما آيات أخرى مماثلة، أحب أن أقول لك إن في الآيتين خروجاً عن التعاليم الإلهية في العهد القديم، وخروجاً عن المنطق، لأن عدم مقاومة الشر يعطيه مجالاً أوسع ليستشري في المجتمع، ثم هل رأيت مسيحيّاً واحداً إذا ضربته على الخد الأيمن حول لك الآخر؟. حتى (يسوع) عندما ضربه الجندي على خده، لم يحول له الآخر بل قال له حسب:

- يوحنا (٢٣:١٨): "...لماذا تضربني".

ما هذه إلا من التعاليم الصوفية المستوحاة من الديانات الآسيوية، التي تهمل الجسد وتحتقره في سبيل سمو الروح.

ألَمْ تقرأ ما جاء في الأناجيل نقلاً عن يسوع الذي قال حسب:

- مَتّى (١٠:٣٤-٣٥): "لا تظنُّوا أني جئت لأُلقي سلاماً على الأرض، ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً، فإني جئت لأُفرق الإنسان ضدَّ أبيه والابنة ضدَّ أُمها والكنَّة ضدَّ حماتها، ويكون أعداء الإنسان أهل بيته".

- لوقا (٤٩:١٢): "جئت لأُلقي ناراً على الأرض...".

- لوقا (٥١:١٢): "أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض، كلا أقول لكم، بل انقساماً".

- لوقا (٣٦:٢٢): "فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزودٌ كذلك، ومن ليس له فليَبع ثوبه ويشترِ سيفاً".

– وفي إنجيل يوحنا (١٨:٢٢-٢٣): "ولما قال هذا لطمَ يسوعَ واحدٌ من الخُدّامِ كانَ واقفاً قائلاً أهكذا تجاوب رئيس الكهنةِ، فأجابه يسوع إن كنت قد تكلمتُ ردياً فاشهد على الرديّ وإن حسناً فلماذا تضربُني".

إن التسامح الظاهري لرجال الكنيسة في العصر الحديث، ما هو إلا لاستعادة ثقة الجماهير، التي فقدتها إبان عصر الاستبداد الكنسي، ومحاكم التفتيش.

أرجو ألا يظن أحد أني أريد الطعن في الدين المسيحي، إنما أريد أن أبيِّنَ جانباً من الإدخالات، التي حصلَتْ عليهِ، كما حصلت على العهد القديم.

أما من الناحية الدينية فأنا أُشجع كل ما جاء به (بولس) لأنه يُبقي المسيحيين بعيدين عن اليهود (شعب الله المختار).

بعد ذلك تابعت حديثي قائلاً: على كل حال تعلمتُ أن آخذ ما ورد في الأناجيل بحذر، وليس على أنه وحي إلهي، أو كلام الرب مباشرة، كما جاء في قرارات المجمع الفاتيكاني الأول ١٨٧٠م. إذ يستحيل أن ينهي الله كلامه بإرسال التحيات إلى مختلف الأشخاص حسب رسائل (بولس):

– رسالة بولس إلى أهل رومية (الإصحاح السادس عشر) "...سلموا على بريسكلا وأكيلا العاملين معي في المسيح يسوع... سلموا لي على أبينتوس حبيبي ...سلموا على مريم التي تعبت لأجلنا كثيراً...".وغيرهم أكثر من عشرين اسماً آخرين، ويرسل سلامات من الموجودين معه، فيقول: "يسلم عليكم تيموثاوس العاملُ معي ولوكيوس وياسون... أنا ترتيوس كاتب هذه الرسالة، أسلم عليكم في الرب...".

بلغ الاستخفافُ أشدَّه بعقول المسيحيين، الذين يؤمنون بأن الإنجيل كتاب إلهي، أعطي إلى الكنيسة كما هو حسب مجمع نيقية عام ٣٢٥م. خاصة في:

– رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس (١٣:٤): "الرِّداء الذي تركته في ترُوَاس عند كَارْبُس أحضره متَى جئت...".

– رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس (١١:٤): "لوقا وحده معي، خذ (مرقس) وأحضره معك لأنه نافع لي للخدمة".

– رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس (١٩:٤-٢١): "سلم على فريسكا وأكيلا وبيت أنيسيفورس... يسلم عليك أفبولس وبوديس... والإخوة جميعاً"

حيث تتجلى فيها قمة التحريف في العهد الجديد، فكيف يدَّعون أن الإنجيل كلام الله وأنه أعطاه هكذا للكنيسة.

فقال (ليفي): بما أنك تبحث عن الحقيقة، فهل قرأت القرآن بطريقة الشك نفسها، التي قرأت بها ما كتب عن بقية الأديان؟

الفصل الثالث

الإسلام

أولاً: نبوءات عن محمد نبي الإسلام

قلت للحاضرين: هل اطلعتم على الإسلام؟ هل تحبون أن نتحدث عنه؟

أجمعوا كلهم على أن معلوماتهم عنه ليست عميقة، وأنهم يعرفون عن الإسلام ما يجعلهم لا يقبلون به منهجاً لحياتهم، وأضاف (دايفيد): أنا أعلم عن الإسلام ما لا يعرفه كثير من المسلمين أنفسِهم.

فقلت: إن الإسلام ابتدأ بشخص واحد، والآن يؤمن به ربعُ سكان الأرض تقريباً، والبقية إما جاحدة به جاهلة بتعاليمه، أو أنها لم تسمع به، وقبل مناقشة أسباب الإنكار، التي يُلوِّحُ بها رافضو الإسلام، علينا أن نناقش إن كان كتابُ المسلمين (القرآن) هو من عند الله، أم أن الذي كَتَبَهُ هو نبي الإسلام من نفسه، لأنه دستور المسلمين، فإذا أُثبتَ الأصلُ السماوي له، وأثبت عدم تحريفه، فيكون الإسلام ديناً أنزله الله على عباده، ووجب اتباعه، لذلك سأدعو أحد أصدقائي واسمه أحمد، هو دارسٌ عالمٌ بالإسلام، علَّنا نستفيدُ منه، حرصاً على التعمق في البحث عن الحقيقة...

بعد ساعة من الزمن، كان أحمدُ جالساً معنا، شاب سمح الوجه، في عينيه ذكاء، وفي حديثه وقار يتجاوز عمره.

قال (أحمد): أنتم تعلمون أن الإسلام ظهر ديناً سماوياً، دعا إليه رجلٌ لا يقرأ ولا يكتب اسمه محمد ﷺ،لم يُعرف عنه قَرْضُ الشِعْرِ، ولم تعرف عنه بلاغة مُمَيَّزةٌ في الخَطابة، كان معروفاً بالأمانة والصدق والاستقامة، ولم يُعرف عنه الاشتراك في جلسات اللهو والسمر، كان فقير الحال، على الرغم من انتمائه إلى

أشراف مكة، كان يذهب إلى غار يقال له (حِرَاء)، يقضي يومه هناك بعيداً عن مشاغل شباب عصره، متفكراً في خلق السماء، غيرُ مقتنعٍ بما يفعله أهل مكة من عبادة الأوثان حول الكعبة، تزوج وهو ابن الخامسة والعشرين من خديجة المرأة الثرية الحكيمة، وهي بنت الأربعين، لِمَا رأت فيه من أمانةٍ وصدقٍ واستقامةٍ، جاءها ذات يوم يرتعش قائلاً: "دثّروني زمّلوني"، فارتاعت لذلك وسألته عن السبب، فقال وأنا في الغار جاءني من قال لي: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأعادها ثلاثاً... ثم قال: ﴿اقرأْ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقرأ وربُّكَ الأكرمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣٥٣]، ثم اختفى، فاستبشرت خديجةُ خيراً، وقالت: "أبشر يا بن عمٍ، واثبتْ فوالّذي نفسُ خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة"[٣٥٤].

هنا انتفض (ليفي) قائلاً: ماذا قلتَ؟!! إن من جاءه قال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ... مستحيل... مستحيل!!.

فقلت: لماذا يا (ليفي)؟

فقال (ليفي): اسمع ما جاء في العهد القديم، في:

– سِفر أشعياء (١٢:٢٩): "أو يُدفَعُ الكتابُ لمن لا يعرف الكتابة ويقال له **اقرأ هذا، فيقول لا أعرف الكتابة**"[٣٥٥].

ساد صمتٌ دمعتْ له عينا أحمد قائلاً بصوت منخفض: الله أكبر!!.

---

(٣٥٣) سورة العلق (٩٦:١-٤).

(٣٥٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٢٢١، دار الجيل-بيروت ط ١٩٧٥م. وفي الطبراني ٢/٢٩٨: "فقالت: أبشِرْ، فو الله لا يخزيك الله أبداً، ووالله إنك لتصلُ الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتَحْمِلُ الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

(٣٥٥) من نسخة New King James Bible - special edition, Hillwood Ministries, U.S.A.
"Then the book is delivered to one who is illiterate, saying, read this, please and he says, I am not literate".

وتابع (أحمد) قائلاً: وانطلقت خديجةُ لتوها إلى ورقة بن نوفل، قريبها الذي رفض وثنية قومه، فدخل الدين المسيحي، ورَوَتْ له ما عَلِمت فقال: لئن صَدَقْتِني يا خديجة لقد جاءه الناموسُ الأكبرُ، الذي كان يأتي لموسى، وإنه لنبي هذه الأمة. قولي له: فَلْيثبتْ. ثم التقى النبيَ وسمع منه. فقال له ورقة: "إنك لنبي هذه الأمة. لقد جاءك الناموس الأكبر، الذي كان يأتي لموسى، سوف يكذبك قومك، ويعذبونك، ويخرجونك، ويقاتلونك، ولئن أدركتُ ذلك اليوم لأنصُرَنَّ الله نصراً يَعلمه"[٤٥٦].

بقي محمد ﷺ يدعو إلى توحيد الله في مكة مدة ثلاثة عشر عاماً، أولها كانت دعوة سرية، ثم جهر بها بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولَمَّا أَذِنَ لَهُ ربُه بالهجرة... هاجر إلى المدينة بعد أن اتفق مع أهلها على نُصرته، وعند وصوله استقبله أهلُها خارج المدينة ينشدون فرحاً[٤٥٧].

في العام الثامن للهجرة[٤٥٨]، جهَّز محمد جيشاً من عشرة آلاف مقاتل مؤمن، وتوجهوا إلى جبال فاران المحيطة بمكة، وأشعلوا المشاعل في الليل، فألقى منظرُهم الرعبَ في قلوب أهل مكة، فاستسلموا في اليوم التالي، وفتح المسلمون مكة، وبعد ذلك...

قاطع (ليفي) الكلام مرة ثانية وقال: إنَّ ما تقولَه غريبٌ مثير للتساؤل والتفكير إذ قد ورد شبيه لهذا في:

---

(٤٥٦) في ابن هشام ١/٢٢٢: "والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتؤذينك، ولتخرجنك، ولتقاتلنك، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه". وفي الطبراني ٢/٢٩٩حيث سأل صلى الله عليه وسلم ورقة: "أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عُودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً".

(٤٥٧) الهجرة في تموز ٦٢٢م. وهو بداية التاريخ الهجري.

(٤٥٨) فتح مكة ٢٠رمضان ٨ هـ(كانون الثاني ٦٣٠م).

- سِفر التثنية (٣٢:٢): "جاء الرب من سيناء وأشرق من سعير وتلألأ من جبل فَاران ومعه عشرة آلاف[٣٥٩] قديس"[٣٦٠] يا لها من مصادفة!!

وتابع (أحمد) كلامه قائلاً: وبعد ذلك بعدة شهور توفي محمد ﷺ في المدينة التي أحبها وأحبته، ودفن فيها، بعد أن تلقى الوحي خلال ثلاثة وعشرين عاماً، منه ما كان القرآن، ومنه ما كان الأحاديث القدسية. إن سيرة حياة محمد، جعلت (مايكل هارت) يضعه في رأس قائمة "المائة الأوائل في التاريخ".

قلت لـ(ليفي): وهل لديك المزيد عن النبوءات التي ذُكرت في الكتاب المقدس، وتتكلم عن نبي سيأتي بعد موسى؟.

فقال: طبعاً هناك الكثير، لكننا نُؤمن أنها لا تنطبق على أحد حتى الآن، بينما المسيحيون يقولون إنها تنطبق كلها على يسوعَ المسيح.

---

(٣٥٩) – ورد في الكتاب المقدس :

- The living bible “The way-U.S.A.
"...Surrounded by ten thousand of holy ones".
- New King James Bible - Special Edition, Hillwood ministries - U.S.A.:
"And he came with ten thousand of saints...".

(٣٦٠) – اطلع البابا بولس السادس على بعض مخطوطات البحر الميت، المكتشفة في مغاور (قمران)، ومن هذه المخطوطات المكتشفة كان (سفر أشعياء) الصحيح بكامله، على حين أن المنشور في التوراة المعروفة حالياً هو جزء منه، ففي هذا السفر جاء حرفياً: "بعد المسيح يأتي نبي عربي من بلاد فاران (=بلاد إسماعيل- وفاران باللغة الآرامية هي بلاد الحجاز)، وعلى اليهود أن يتبعوه، وعلامته أنه نجا من القتل، فإنه النبي المنتظر، لأنه يفلت من السيف المسلول على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قديس". اطلع البابا على هذا النص، **فأصدر عام ١٩٦٥م وثيقة هامة، كانت بمنزلة اعتراف رسمي بالدين الإسلامي،** وبدعوة رسمية سافر وفد إسلامي إلى الفاتيكان، واجتمع بالكردينال (بيمونَلّلي) وزير الدولة في حكومة الفاتيكان لنقاش ما يتعلق بالعلاقات ما بين الإسلام والمسيحية، وبعد الحوار الجاد، وقف الكردينال (بيمونللي) مخاطباً العلماء: في هذا اليوم أُوقِفُ التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي، ثم قرأ بشارة سفر أشعياء التي تنطبق تماماً على الواقع، ولكن مع الأسف، **فإن هذا البابا لم يلبث أن توفي في ظروف لا ندريها، كما توفي من بعده بقليل الكردينال (بيمونللي) في ظروف غامضة،** وبوفاتهما توقف الحوار بين الإسلام والمسيحية. [العالم الإسلامي، العدد ١٢٢٩م، الاثنين ١ربيع الأول ١٤١٢هـ = ٩ أيلول ١٩٩١م، ص٥، وعنوان الصفحة: الدكتور معروف الدواليبي -الذي كان عضواً في الحوار- يروي قصة الحوار بين الإسلام والمسيحية، كيف بدأ وعَلامَ انتهى].

ملاحظة: لقد نجا الرسول محمد ﷺ من السيف حين اتفقت عليه القبائل لتقتله أثناء نومه، فجاءه الوحي وأخبره، فوضع ابن عمه علي بن أبي طالب مكانه في السرير، وخرج من بين المشركين وهم نيام.

فقلت له: وما رأيك أنت بما سمعت الآن؟.

فقال: على الرغم من المفاجأة الهائلة، غير أني أفضل ألاّ أعطي رأياً قاطعاً إلا في نهاية المناقشة كلّها.

فقلت له: وما عندك من أدلة عن النبي، الذي مازلتم تنتظرونه؟

فقال: عندما كلم الله موسى على جبل سيناء، قال له حسب:

- سفر التثنية (١٨: ١٨): "أقيم لَهم نبياً من وسط إخوتهم مثلَك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

فقال (مايكل): وهذا ينطبق مباشرة على يسوع المسيح، ولا علاقة لمحمد به.

فقال أحمد: قبل الحكم على ذلك، تعالوا نُفصلُ الأمر أكثر:

١- إن النبي الموعود هو من **إخوة** بني إسرائيل، وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، أي العرب.

فقال (مايكل): لا. لا. إن الإخوة تعني من بني إسرائيل أنفسهم.

فقال أحمد: لو كان ما تقول قاطعاً لقال: "**من أنفسهم**" وإلا فكيف تفسر ما جاء في سفر أشعياء عن هؤلاء الإخوة الذين يشترط ألاّ يكون فيهم (زارح) ولا (عاثر) حسب:

- أشعياء (٢٧:٥): "ليسَ فِيهِمْ زَارِحٌ ولا عَاثِرٌ..."؟

بينما في العهد الجديد نرى (زارح) هو أحد أجداد يسوع المسيح من طرف يوسف زوج مريم العذراء، حسب:

- متى (١:٣): "يهوذا وَلَدَ فارص وزارح من ثامار. وفارص وَلَدَ سلمون.".

أي أن النبي القادم سيكون من جماعة ليس فيهم فارص ولا زارح، أي ليس من بني إسرائيل، ويسوع هو من بني إسرائيل، فليس هو المقصود.

٢- كيف تفسر ما جاء في الإصحاح:

- أشعياء (٥:٢٧): "...لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حُزُمُ حقائبهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم، الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيِّهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصَّوان وبكَرَّاتهم كالزوبعة..."؟

هل ينطبق هذا على أتباع يسوع عليه السلام، أمْ على أصحاب محمد ﷺ؟ أليس أصحابُ محمد ﷺ المجاهدون، هم الذين ما تركوا فرصة للجهاد المستمر في سبيل الله إلا و لبّوا النداء، وكأن ما جاء في أشعياء هو وصف دقيق لهم؟ بينما تلاميذ يسوع هربوا عندما جاء الجنود للقبض على يسوع. حسب:

- متى (٥٦:٢٦): "...حينئذٍ تركه التلاميذ كلُّهم وهربوا".

٣- يتابع أحمد قائلاً: على أية حال لننتقل إلى الكلمة التالية في النبوءة والتي تؤيد ما سبق وهي (مثلُك) أي سيكون نبياً مثلَ موسى.

فقال (مايكل): ويسوع يهودي مثل موسى.

فأجاب (جورج): ولكن كان بين موسى ويسوع كثير من الأنبياء وكلهم يهود. لذلك فهذا دليل غير كاف. ثم نظر إلى أحمد لمتابعة الكلام.

فقال أحمد: لنقارن بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام أقصد يسوعاً عليه السلام، ثم بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ، لنرى أيهما أقرب تماثلاً إلى موسى عليه السلام.

أما موسى عليه السلام:

- فقد ولد ولادة طبيعة.
- تزوج وله ذرية.
- اضطر للهجرة.

- قدّم شريعة كاملة.
- أُمرَ بالجهاد.
- كُتِبَ الوحي في حياته.
- مات موتاً طبيعياً.
- لن يعود إلى الأرض مرة ثانية.

بينما نرى أنَّ يسوعَ عليه السلام:

- ولد ولادة خارقة من غير أب.
- لم يتزوج.
- ولم يضطر للهجرة.
- ولم يقدم شريعة كاملة.
- لم يُؤمر بالجهاد.
- ولم يُكتب الوحي في حياته على الأرض.
- تقولون: إنه صُلب ومات ودفن، ثم خرج من بين الأموات وصعد إلى السماء.

ونحن المسلمين نقول: إنه لم يمت بل رُفع إلى السماء، عند محاولة القبض عليه.

- كلانا نقول إنه سيعود ويقودُ دينَ الله الحق.

أما محمد ﷺ:

- فقد ولد ولادة طبيعية.
- تزوج، وله ذرية.
- اضطر للهجرة.

- وقدَّم شريعة كاملة.

- أُمِرَ بالجهاد.

- وكُتب الوحي في حياته.

- مات موتاً طبيعياً.

- لن يعود بعده إلى الأرض.

ألا ترى معي إذن أن كلمة (مثلُك)، عندما يُخاطَبُ بها موسى عليه السلام، تنطبق على محمد أكثر من يسوع عليه السلام(٣٦١).

فقال له (مايكل): إذا كانت لا تنطبق على يسوع، فليس محمد هو المقصود بالضرورة، ربما المقصود لم يأت بعدا!.

فقال أحمد: حسناً، إنك وافقت أن يسوع ليس هو المقصود، وأما كون محمد ﷺ هو المقصود أم لا، فيكفي أن نقرأ(٣٦٢):

أ - ما قاله المسيح **لليهود**، حسب متى (٢١:٤٣): "**لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمةٍ تعملُ أثماره**".

(٣٦١) للتوسع انظر (إظهار الحق) للعلامة (رحمه الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي) (١٣٠٨هـ-١٨٩١م) طبع: الإدارة العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، الإدارة العامة للطبع والترجمة، الرياض، ط: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م. أو طبعة وهبة (القاهرة)، أو المطبعة العصرية (صيدا).

(٣٦٢) لزيادة في المعلومات من مصدر آخر نطالع في كتاب "انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، ص ٢٤٣، أحمد زكي. حيث جاء: "كما ورد اسم محمد ومكان ظهوره في الكتب المقدسة الهندوسية القديمة المعروفة باسم (بورانا)، تقول ترجمته: "**من الصحراء العربية سيخرج محمد، له صحابة عديدون، وسيكون محصناً ضد الخطايا ومحمياً من أعدائه. طبعه ملائكي. سيقتلع الشيطان وعبادة الأصنام، بل وكل الشرور والخطايا من جذورها، وسيكون فخراً للإنسانية جمياً**".
في الكتاب نفسه والصفحة نفسها يقول الكاتب: "وفي الكتب الفارسية القديمة المعروفة باسم "الدساتير"، جاء في الدساتير رقم ١٤ ما معناه: "**عندما تهبط معنويات الفرس إلى الحضيض، سيولد إنسان في الصحراء العربية، ويكون له أصحاب عديدون سيقلبون عرش فارس ويمحون دياناتها وستنهار الرؤوس الكبيرة في فارس. وتُحطَّمُ معابد النار، وتطهر الكعبة من الأصنام، والعقلاء سيتبعونه، ثم يتبعهم آخرون**". صورة النص الأصلي باللغة الهندية والفارسية موجودان في المرجع المذكور نفسه.

أي يُنزع من اليهود، ويعطى لأمة أُخرى تعمل حسب تعاليمه.

ب- ما قاله المسيح، حسب يوحنا (١٤:١٥-١٦): "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزياً(٣٦٣) آخَرَ ليمكث معكم إلى الأبد".

ج- ما قاله المسيح، حسب يوحنا (١٦:٧): "...ولكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزي".

إن المسيح يطلب مُعَزِّياً آخرَ، تكون رسالتُه موجودة إلى الأبد، أي آخر رسالات السماء، فمن كان المسيح يقصِدُ؟ هل كان يقصد نفسَه عائداً من ملكوت السماء؟ طبعاً لا. لأنه قال "**آخَرَ**".

د- ما قاله الله لموسى بعد أن غضب على اليهود لأنهم عبدوا الأوثان، حسب:

تثنية (٣٢:١٧-٢١): "ذبحوا لأوثان ليست لله. لآلهةٍ لم يعرفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم... ...هم أغاروني بما ليس إلهاً، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أُغيرُهُمْ بما ليس شعباً، بأمةٍ غبية(٣٦٤) أُغيظهم".

أضاف أحمد: من كان يعيش في الجزيرة العربية، حيث جبال فاران، غير العرب واليهود؟ وإذا كان الملكوت يُنزع من اليهود فلمن يُعطى لغير العرب؟ بغض النظر إن كان لأمةٍ جاهلةٍ -حسب ما جاء قبل التحريف- أم غبية -بعد التحريف- هل سمعنا أنه ظهر في العرب نبي قبل مُحمد ﷺ، أو بعده.

(٣٦٣) كتاب "محاضرات في مقارنة الأديان" إبرهيم خليل أحمد، ص١١٢. وردت في تراجم أخرى بلفظ "البارقليط" (باليونانية وردت بيركليتوس)، الذي تحاول التراجم الجديدة تجاهله، لأنه يعني حسب المعجم اليوناني "المعزي" أو "الشفيع" أو "المحامي" أو "الأكثر حمداً" (أي أحمد).

(٣٦٤) في طبعة ١٨٤٤م نجد "أمة جاهلة"، حرفوها حقداً منهم على العرب. كتاب "التحريف في التوراة". ص٨٣ للدكتور محمد علي الخولي.

هنا لاحظتُ أن (دايفيد) سارحٌ في التفكير، **فقطعت عليه تفكيره وسألته:** هل أنت معنا يا (دايفيد)؟

فقال: نعم... نعم، ولكني أفكر فيما سمعتُه الآن، وما أتذكره من الكتاب المقدس عن النبي القادم. فقد ورد في:

سفر التثنية (٣٣:١-٢): "...جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سَعير وتلألأ من جبل فاران ومعه عشرة آلاف قديس".

نعلم أن:

أ - سيناء معروفة لدى الجميع حيث كلَّم الرب موسى، حسب:

- خروج (١٩:٢٠): "ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا اللهُ موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى".

ب- أما سعير فهي مُرتَفَعٌ قرب الناصرة، وهي الأرض التي سكنها عيسو أخو يعقوب، حسب:

- سفر التكوين (٣٦:٨): "فسكن عيسو في جبل سعير وعيسو هو آدوم".

أما عن فاران فقد ورد في:

- سفر التكوين (٢١:١٧-٢١): "...وقال لها (أي ملاك الله) مالَكِ يا هاجر[٣٦٥]، لا تخافي، لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، خذي قومي احملي الغلام وشُدي يدك به، **لأني سأجعله أمةً عظيمة.** وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء[٣٦٦]... فسقت الغلام... وكان الله مع الغلام فكبر... وسكن في البريَّة وكان ينمو رامي قوسٍ، **وسكن في برية فاران،** وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر".

(٣٦٥) جاء في كتاب "المسيح في الإسلام"، ص١١، للمفكر الإسلامي أحمد ديدات، أنه حسب ما قال (دبي شالوم) أحد مفسري التوراة، وهو يهودي: "إنَّ هاجر كانت ابنة أحد أمراء الفراعنة، قدمها للفرعون الأعظم لتكون من حريمه، وفرعون بدوره قدمها هدية لإبراهيم". حسب كتاب "تاريخ أرض القرآن"، ص٢٨٠، عن كتاب اليهودية والمسيحية، ص ٤٣، للدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي.

(٣٦٦) ماء زمزم في الحرم المكي الشريف.

ومعروف أن الغلام هو إسماعيل وهو جَدٌّ لمحمد، وأن فاران هي الصحراء بين المدينة ومكة، وجبال فاران هي سلسلة جبال حول مكة، والتي منها نزل فيما بعد جيش محمد المكون من عشرة آلاف مؤمن، لفتح مكة، ليبدأ عهد الإسلام فيها.

فإذا كانت كل هذه النبوءات ليست لمحمد، كما يقول (مايكل)، فكيف كان بعض الرهبان من اليهود والمسيحيين، يعرفون الزمان التقريبي والمكان التقريبي لظهور نبي جديد؟ بدليل أن يهود "المدينة المنوَّرة" كانوا يضايقون العرب بقولهم: "إنه حان وقت ظهور نبي سوف تخضع له الملوك، نأخذكم به أخذ عادٍ وإرمٍ"، وكانوا يقولون إنه سيظهر في بني إسرائيل.

قال أحمد: جوابك عندي، إذ على الرغم من كل التحريفات التي قام بها اليهود بعد ظهور الرسول مُحمد ﷺ، ليطمسوا الأدلة الأكيدة على نبوته، لأنه لم يأتِ من بني إسرائيل كما كانوا يأملون، إلا أن الله أبى إلا أن يَعمي أبصارَهم وبصيرتهم عن بعض الأدلة التي تكشف الحقيقة. ولتحديد الظهور يجب أن يُحَدَّدَ:

١- الموقع:

لقد ذُكِرَ الموقع في أكثر من موضع، وهو فاران.

٢- الزمان:

جاء في سفر دانيال (١٢:١٢): "طُوبَى لِمَنْ يَنتظِرُ وَيَبْلُغُ إلى الألف والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوماً".

فإذا بدّلنا كلمة "يوم"، وجعلناها "سنة" لاحتمال التحريف، وإذا علمنا أن بين دانيال ومحمد ﷺ والي ١٣٠٨ عاماً تقريباً، عندها يمكننا أن نتصور، كيف يستنتج الرهبان قبل التحريف موعد ظهور النبي القادم!.

٣ـ الجماعة:

أيضاً ذُكر في أكثر من موضع، أنَّ الله سيبدل اليهود بأمة جاهلة. بمعنى أنه لن يكون من اليهود، لأنهم كانوا يستأثرون بالعلم في منطقة "فاران" وليس في الموقع المحدد أمة أخرى غير العرب.

٤ـ الشخص:

لقد تنبأ النبي أشعياء في سِفره (٩:٦): "لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً...".

ومعلوم:

- أنَّ لمحمدٍ ﷺ علامة بين كتفيه، وأنه عندما كان صغيراً، رافق عمه في رحلة تجارية إلى دمشق، ولما سمع الراهب (بَحِيرا) من مرافقينَ كانوا في القافلة، أن غيمة كانت ترافق هذا الفتى، وتُظلُّهُ من مكة إلى الشام، جاء إليه ونظر بين كتفيه، ثم قال لعمه: احرص عليه، ولا تُكلم عنه أحداً، سيكون لهذا الفتى شأن عظيم!.

- وأن العرب كانوا يَعُدُّونَ اسم محمد اسماً عجيباً لم يعهدوه منتشراً بينهم من قبل...!

واختتم أحمد كلامه بقوله: آمل أن تكون هذه التفاسير مقنعة لذي لُبٍّ منفتح لتقبُّلِ الحقيقة، بأن المقصود هو محمد ﷺ.

قلتُ: إذا لم تكن هذه النبوءات نفسُها هي التي استدل بها الرهبان على محمد، مكاناً، وزماناً، وجماعة، وشخصاً، فلا بُدَّ أن هناك نصوصاً أخرى، اختفت عمداً أو حُرفت، تكون أكثر دقةً وتحديداً، وهذا ما كان يحيرني دائماً؟

قال (ليفي): إن اليهود القدماء، كانوا ينتظرون عودة (إيليا)، الذي صعد إلى السماء، وينتظرون ظهور المسيح، وينتظرون نبياً قادماً، وعندما علموا أن (يوحنا -في القرآن اسمه يحيى، وهو ابن خالة عيسى المسيح- يعمِّد في نهر الأردن، ذهب إليه وفد منهم وسألوه: إن كان هو المسيح المنتظر، فقال حسب:

- إنجيل يوحنا (١:٢١-٢١): "...إني لست أنا المسيح، فسألوه إذن ماذا. أإيليا أنت؟ فقال: لست أنا. فقالوا: ألنبي أنت؟ فأجاب: لا".

تساءل (جورج): لقد عرفنا من هو المسيح، ومن هو إيليا، فمن هو المقصود بالنبي؟ هل هو مُحمد يا ترى؟

فقال أحمد: نعم... ومن غيره، والمناقشة ستثبت لك ذلك.

قال (دايفيد): لقد جاء في:

- يوحنا (١٦:١٢-١٦) أن يسوع قال لأتباعه: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحقِّ لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع ما يتكلم به ويخبركم بأمور آتية[٣٦٧]، ذاك يمجِّدني،...".

ومنه نرى أن يسوع تنبأ بنبي:

- يجمع الحقَّ كلَّه في إرشاداته.
- لا يتكلم من عنده، بل يتلقى الكلام وهو يتكلم به.

(٣٦٧) وما أكثر الإعجاز العلمي في القرآن، حيث اكتشف بعد مرور ١٤٠٠ سنة من نزوله.

- يُخبر بأمور ستحصل أو تكتشف في المستقبل.
- يؤمن بيسوع.

وهذا يذكرني بما يقوله المسلمون من أنّ:

- القرآن يجمع كل الحق، وأنه دستور حياة كامل.
- النبي محمد لا يتكلم من عنده بل يتلقى الوحي.
- في القرآن إعجازات علمية ستكتشف في المستقبل.
- المسلمون يؤمنون بالمسيح يسوع، رسولاً من الله.

إنني أتساءل تُرى هل كل هذه الدلائل مرتبط بعضها ببعض؟

قال أحمد: لقد سمعنا دلائل من الكتاب المقدس، عن تنبؤات زمانية ومكانية، وعن صفات لا تنطبق إلا على محمد رسول الله ﷺ، وهذا ما أكده أستاذ علم مقارنة الأديان (كريستوفر ديفيس): "بأن كل هذه التنبوات بمعانيها وأوصافها وملابساتها لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد".

وتابع قائلاً: طبعاً !. أنا لا أتوقع أن يُقر كلُّ من يسمعُ ما ورد هنا، بأن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر، لأن المُعارضَ يمكنه القول: "إن محمداً ﷺ قد علم عن التنبوات فرتب أموره على أساسها" فقد عَلِمَ عن:

- إعطاء الكتاب لشخص أُمّي، فابتدأ دعوته بالقول نفسه.
- العشرة آلاف قديس فجهز جيشاً من العدد نفسه.
- بقية الصفات فاتصف بها، والمؤشرات والدلائل فخلقها!.

وإلا لآمن به كل اليهود وكل المسيحيين، ولكن لا بُدَّ لهذه الاستفهامات أن تثير على الأقل في نفسِ سامعها الباحثِ عن الحقيقة عدم تقبل كل ما يسمعه من الكنيسة، أو من المسلمين دون إعادة النظر فيه.

لمثل هذا القائل لا يسعني إلا أن أقول: إن أي إنسان غير متعصب لفكرة معينة لا بُدَّ له من الإقرار بأن محمداً ﷺ:

- الذي يحمل علامة النبوة بين كتفيه. **دون تدبير منه.**
- الذي أُعطي الكتابَ فقال: ما أنا بقارئ. وأُمِّيَّتُهُ **لم تكن بتدبير منه.**
- الذي فتح مكة بعشرة آلاف مؤمن، نازلين متلألئين من جبال فاران، لا تُحل حزم حقائبهم، ولا تنقطع سيور أحذيتهم، **دون تدبير منه.**
- الذي ليس في نسبه زارح ولا عاثر، **دون تدبير منه.**
- الذي شابهت صفاته صفات موسى عليه السلام، **دون تدبير منه.**
- الذي أتى بالحق أجمع، وأكمله قبل موته حسب خطبة الوداع[٣٦٨] التي ألقاها قبل موته، حيث قال إن الإسلام هو آخر الأديان، **دون تدبير منه.**
- الذي ما نطق عن الهوى، بل كان كلامُه وحياً يوحى، يَسمعُه ويُتلى عليه **دون تدبير منه، محققاً** ما جاء في:

التثنية (١٨:١٨): "...أجعلُ كلامي في فمه...".

يوحنا (١٢:١٦): "...لا يتكلمُ من نفسه، بل يسمع ما يتكلم به، ويخبركم...".

- الذي دُعِّمَ بمعجزةٍ دائمةٍ مستمرة هي القرآن، بأموره الآتية وبمعجزاته العلمية التي لم تكتشفها إلا الأمم الآتية مئات السنين بعده، **دون تدبير منه.**
- إنه محمدٌ ﷺ الذي آمن بإبراهيم وموسى ويسوع.

(٣٦٨) حسب المفهوم من سورة المائدة (٣:٥): ﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...﴾.

- نعم هو محمدٌ ﷺ نبي الإسلام الذي لم يستطع العلم حتى الآن نَقْضَ أي من التنبؤات العلمية التي وردت في معجزة الدين الذي يدعو إليه، ألا وهو القرآن...

ساد صمت طويل، تذرع أغلبنا خلاله بتناول عصير أو قطعة حلوى، بينما سحب (دايفيد) نفساً عميقاً من سيجاره الخانق ثم نفثه في وجهي كعادته، (لكنني كنت منتبهاً لمثل هذه الهجمات، متسلحاً بخبرتي معه، إذ حبست نَفَسي، حتى خفّت حدّة الدخان)، وتذكرت الحكمة من تحريم الإسلام للتدخين.

قال (دايفيد): إنَّ ما قلتَه ممتاز لكن محمداً لا يحتاج بالضرورة إلى تلك النبوءات، في حال صِدْقِ نبوته، فإذا كان كلُّ نبي **يجب** أن تدعَمَه نبوءةٌ سابقةٌ له، فمن للأول؟

لذلك أرى أنه يجب أن يصطحب كلُّ نبي معجزاتِه معه، لتساعده على إقناع الآخرين برسالته، وبما أننا لسنا في مستوى عالٍ في معرفة القانون والتشريع، يسمح لنا بمناقشة ما قيل عن الإعجاز التشريعي في القرآن، ومقارنته بـ(شريعة حمورابي) المشهورة مثلاً، ولا في مستوى لغوي يجعلنا ندرك روعة لغة القرآن، ونقارنها بروعة لغة (شكسبير)، الذي قلَّ من يَفهمُها الآن، لذلك أرى أن نتداول ما لدينا من معلومات عن الإعجاز العلمي في القرآن، الذي هو أقرب إلى العقل والمنطق والعلم الحديث بكل وسائله.

وعقّب قائلاً: إن هذا البحث هو بحر واسع جداً حسب ما سمعت... ثم نظر إلى أحمد يدعوه إلى الكلام.

ثانياً: ما المقصود بالإعجاز العلمي في القرآن؟

قال أحمد بعد أن هدأ من الإلقاء الأول: إنَّ الإيمان إنْ جاء عن طريق العقل، فلا بُدَّ لاستمراره من أن يستقر ويهدأ في القلب، وإنْ جاء عن طريق القلب

والفطرة، فلا بُدَّ له للرسوخ والقوة من المرور عن طريق العقل، ثم العودة إلى القلب فيطمئن بإيمانٍ راسخ مُسلَّحٍ بقوة الاقتناع العقلي!.

لذلك أقول: **إن إيماناً ابتدأ بالقلب ولم يغادره، هو إيمانٌ ضعيف غيرُ مسلح، وإيمان ابتدأ بالعقل ولم يغادره، هو إيمانٌ قَهْرِ البرهان، يهتز باهتزاز العلم.**

قلت: أوافقك تماماً، وما نحن هنا، **إلا لننقل إيمان القلب إلى العقل لتسليحه ودعمه، أو للابتداء بإيمان العقل لمن لا إيمان له أصلاً، ثم نحاول جَعْلَ إيمانه يستقر في القلب..!**

قال (مايكل) إن المسلمين يقولون: إن دينَهم هو آخر دين، وكتابَهم آخر كتاب، ورسولَهم آخر رسول، وهم ينتظرون عودة المسيح عيسى بن مريم الذي رفعه الله إليه، والمسيحيون ينتظرون عودته بعد أن –حسب قولهم- أماته الله ثم أقامه من القبر ثم رفعه إليه، واليهود لا يعترفون لا بعيسى ولا بمحمد، وما زالوا ينتظرون المسيح والنبي!.

المسلمون يقولون: إن القرآن هو معجزة محمد المستمرة، وهو مكتوبٌ بلغة بليغة، إضافة لبعض المعجزات الآنية، وأنا لا أرى كيف يكون ذلك لغير العرب، فإذا قلنا لهم: نحن لا نصدق القرآنَ ولا السُّنةَ ابتداءً، ونرفض معجزات الرسول التي بهرت من شاهدها وعاصرها، لأنها الآن نقلٌ عن نقلٍ، وقيلَ عن قالٍ، فلن يكون لديهم جواب مقنع، شأنهم بذلك شأن الديانات الأخرى.

قال أحمد: أنا أضيف على ما قلتَه إن القرآن –حتى الصحوة العلمية في القرن السادس عشر الميلادي- تميَّز فعلاً بالإعجاز اللغوي، الذي لا يحيط به إلا الضالعون في اللغة العربية، على الرغم من ظهور محاولات يسيرة لتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً علمياً، يطابق النظريات المتعارف عليها آنذاك، بعدها تغيَّرت النظريات فأخفق التفسير.

ولكن مع الانفجار العلمي في القرن العشرين، تفجَّر أيضاً الإعجاز العلمي في القرآن، ليخاطبَ العلماءَ، ويضيفَ براهين بلغة العصر، تثبت أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر أبداً!! وأن كل ما فيه هو من خالقِ الكون مطلق الصفات، ويلاحظ تزامن التفجير العلمي مع زيادة الإلحاد، ومدى ضرورةِ ظهورِ الإعجاز العلمي في القرآن!.

لو قال اليهود: إن موسى شق البحر بعصاه، وحوَّل العصا إلى ثعبان حقيقي حي، أو قال المسيحيون: إن يسوع أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فإني لا أرى برهاناً لديهم على قولهم إلا الاستدلال بالكتاب المقدس الذي أُثبت تحريفه، ومن المؤسف أن التحريف امتد حتى إلى بعض الإعجازات العلمية فيه، مثل قصة التكوين، وقصة الطوفان، فكيف يَقتنعُ الملحدُ بصحة معجزات وردت في كتاب ثبت تحريفه للباحثين المسيحيين المتخصصين؟.

ثالثاً: الإعجاز العلمي بين الرفض والقبول

قلت: الإعجاز العلمي في القرآن، هو الطريق الوحيد في هذا العصر لإقناع الآخرين، بأن القرآن ليس من تأليف محمد، بل هو من لدن خالق الحقائق العلمية، لذلك قرأتُ كثيراً من كتب الإعجاز العلمي في القرآن، فوجدت بعضاً منها لا يفي بالغرض، لأنه يمكن لأي ملحد أن يرفض أغلب ما طرَحَتْه من إعجازات، مثلما ورد عن الحاجز بين البحر والنهر، حسب ما ورد في:

- سورة الفرقان (٢٥:٥٣): ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

حيث قال المفسرون بعد أن اكتشف العلماء الفرنسيون الحاجز بين المياه: إن النهر يدخل عند مصبه في البحر مسافة معينة، فلا تختلط مياه النهر بمياه البحر، ولا يَطغى البحر على النهر، لأن بينهما حاجزاً يتأرجح مع حركة الموج، وعدُّوه إعجازاً علمياً.

إنَّ سبب رفضي النظر إلى هذا الموضوع على أنه إعجازٌ علمي قابل للطرح في مناقشة مع الملحدين، يعود إلى أنه يمكن للملحد أن يقول: إن محمداً:

١- إما أنه أغمض عينيه، وتصور نهراً يخترق البحر الساكن، فرأى أنه لا بُدَّ لسرعته من أن تجعله يخترق البحر لمسافة ما، قبل أن يمتزج مع البحر، وهذا يشكل جيباً من الماء الحلو داخل البحر المالح، وحدود هذا الجيب هو حاجزٌ له خصائص من الطرفين، وهو منطقة عبور لتلك الخصائص، فأين الإعجاز؟

٢- أو أنه سمع ممن ركب البحر، أنه توجد ينابيع مياه حلوة وسط البحر، يعرفُ البحارةُ أماكنها، ويملؤون منها مخازنهم، ولست أرى في ذلك إعجازاً.

ماذا أقول لرافض الإسلام إذا قال: إن محمداً شاهد هذا أو سمع عنه أو تصوره، فكتبه في قرآنه؟.

لذلك اتبعتُ قاعدة أساسية في البحث هي:

أن كلَ ما يمكنُ للإنسان تصورُه أو مشاهدتُه ثم وصفه، يجب عدمُ طرحِه في مناقشة مع رافض للإسلام، في الوقت الذي أقبل فيه من المعجزات ما يستحيل على الإنسان الذكي تصوره مهما حاول.

ووجدتُ في بعضها الآخر إعجازاً علمياً رائعاً، وأعود إلى مثال البرزخ السابق نفسه لتوضيح الفكرة، لكن من خلال سورة أخرى هي:

- سورة الرحمن (٥٥:١٩-٢٢): ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

البحران هنا مالحان، ومنهما يخرج اللؤلؤ والمرجان، والمعروف أنهما يخرجان فقط من البحار المالحة، على الرغم من أني قرأت عن لؤلؤة استُخرجت من نهر إيرلندي في القرن السادس، فإن صادق علماء القرن العشرين، على إمكانية وجود اللؤلؤ والمرجان عادة في المياه الحلوة، يكون الإعجاز فيها، لعدم معرفة ذلك أيام

الرسول، إضافة إلى الإعجاز في البرزخ نفسه، وإن رفَضَ العلماء إمكانية وجود اللؤلؤ والمرجان في الأنهار، وأكدوا وجودها في البحار المالحة فقط، فيكون الإعجاز في البرزخ بين البحرين المالحين فقط، لأنه مهما تفكر محمد أو تَمعَّنَ بالنظر إلى البحرين، فلن يستنبط أبداً وجود برزخ بينهما، لأن ظاهر المياه للعين واحدٌ، **وعندها يكون مُلقنُ المعجزة هو خالق المعجزة**(٣٦٩).

وأضربُ مثلاً آخر عن الإعجاز المقبول لأي عاقل، إذ مهما نظر محمد ﷺ إلى السماء، فسوف يرى النجوم كما يراها في مواقعها كل يوم من الشهر نفسه، أو السنة نفسها، ولن يخطر في باله أن الكون في حركة توسع دائم ومستمر، وهذا ما أثبته علم القرن العشرين (١٩٢٠م) على يد (هوبل)(٣٧٠) الأمريكي، حتى إن (أينشتاين) ذهَبَ بنفسه إلى المرصد للتأكد من ذلك، عبر المنظار الإلكتروني، الذي يُقرِّبُ ملايين المرات إذ كان المعلوم هو ثبات الكون(٣٧١).

فَمَنْ إذن قال لمحمد سَجِّل في قرآنك (خاصة وأن أحداً من أصحابه لم يسأله عن توسع السماء) في:

- سورة الذاريات (٥١:٤٧): ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

على مثل هذا الأساس يجب أن نبني مناقشة الإعجاز العلمي.

---

(٣٦٩) علماً أن محمداً (عليه الصلاة والسلام) ما عاش في بيئة بحرية أبداً، بل عاش في بيئة صحراوية قاحلة، ولم يركب البحر في حياته كلها.

(٣٧٠) (ادوين هوبل، Edwin Hubbel ١٨٨٩-١٩٥٣م)، عالم فلكي أمريكي، اكتشف ظاهرة التوسع الكوني بمساعدة معاونه (ميلتون هوماسون Milton Humasson ١٨٩١-١٩٥٧م) بفحص حركة المجرات بالنظر إلى "انحرافات دوبلر".

(٣٧١) عندما خرج (آينشتاين) "بنظرية النسبية" في الكون، قال: إن الكون ثابت محدب، موافقاً لما كان سائداً في عصره، وقال: إن الإنسان إذا انطلق من نقطة في الكون باتجاه ثابت، فلا بُدَّ أن يعود إلى النقطة ذاتها، كأنه يدور في دائرة مغلقة، ثم أثبت العلماء أن الكون في اتساع دائم، فاضطر للذهاب إلى أمريكا لمشاهدة ذلك بالمنظار الإلكتروني بأم عينه، فرحاً بما كان يعتقده من نظريته النسبية، لكنه لم يستطع إثبات التوسع آنذاك.

قال أحمد: الحقيقةُ ما تقول، إن أحد الاختلافات المهمة بين القرآن و(الكتاب المقدس) بعهديه، هو الدعوة إلى البحث العلمي، إذ في الوقت الذي كان فيه رجال الكنيسة ينظرون إلى العلم والعلماء نظرة شك ورفض، حتى لا يُشكلَ العلمُ مصدراً آخر للمعرفةِ، غيرَ المصادرِ الكنسية، خائفين من إثبات ما يخالف معلومات وردت في (الكتاب المقدس) لاقتناعهم بتحريفه، وكتابته من الأحبار والرهبان الذين سبقوهم، لذلك نراهم حرقوا مخترع الفانوس المهندس الألماني لأنه خالف طبيعة الليل المظلمة التي أرادها الله، وحاكموا (جاليلو) لأنه عندما قال بدوران الأرض، حيث كانوا يعدُّون الأرض ساكنة، لأن يسوع المسيح (ابن الله) ظهر عليها، ولذلك قالوا: يجب أن تكون هي مركز الكون والمركز ثابت.

بينما نرى الإسلام قد حث الناس على اكتشاف أسرار الخلق في الكون، وفي أنفسهم، حسب:

- سورة فصلت (٤١:٥٣): ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾.

- سورة يونس (١٠:١٠١): ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

ورفع درجة العالِمين على الجاهلين فقال في:

- سورة الزمر (٣٩:٩): ﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.

- سورة فاطر (٣٥:٢٨): ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾.

حيث نظرةُ العالمِ إلى الآيات تختلف عن نظرة الجاهل إليها، كلاهما يقرأ قول الله في:

- سورة المُلك (٦٧:٢٣): ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾.

- سورة السجدة (٣٢:٩): ﴿...وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ...﴾.

- سورة النحل (١٦:٧٨): ﴿...وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لكن العالِمَ فقط سيقارن تكرار سبق السمع على البصر، بما يعلمه من علم الأجنة عن خلق أجهزة السمعِ قبل خلق أجهزة البصر! فيتحول إيمانه الفطري إلى إيمان عقلي، وهو درجة عليا من درجات الإيمان، لكونه إيمانُ اختيار لا إيمانُ تعوُّد ونشأةٍ!. وأؤكد أنه لا يتفوق على هذا الإيمان، إلا ثباته في القلب بعد ذلك.

تابع أحمد قوله: هذا لا يعني أبداً أن القرآن كتابٌ علمي، لأن ذلك يتعارض مع مهمته، وما لَفتاتُ الإعجاز العلمي فيه، إلا مجرد براهين ليستدل بها كل جيل حتى يوم القيامة، من أجل إثبات نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن من عند الله (وهو في ذلك مِثلُ إنجيل عيسى عليه السلام، وتوراة موسى)، وهي إعجازات لا تعتمد في وجودها على وجود محمد ﷺ نفسِه، ولذلك لا يمكن أن تتعارض مع أي من حقائق الكون، لأن خالق الحقائق هو الذي أخبر عنها. وإلى ذلك يشير الله في:

- سورة النساء (٤:٨٢): **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾**.

يجب عدم الخلط بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، حيث في التفسير العلمي يسارع المفسِّرُ إلى البحث عن تفسير قرآني لكل فرضية أو نظرية علمية اشتهرت، حتى ولو لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، كما أن تحميل الآيات ما لا تحتمل هو خطر كبير، لأن تطور العلم قد ينسخ النظرية ويأتي بغيرها، وبذلك

يقعُ المفسرُ في حرج هو في غنى عنه. ويضعُ الآيةَ موضعَ شبهةٍ، والفلسفةَ الإيمانيةَ موضعَ تصدعٍ وصراعٍ مع ذاتها.

وتابع أحمد قائلاً: لننظر مثلاً إلى الآية التالية:

- سورة لقمان (٣١:١٠): ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..﴾.

عندما عجز المفسرون عن تصور خلق السموات بعمد لا يرونها، قالوا: "الآية تعني أن الله خلق السموات ورفعها فوق بعضها، وهي **بغير عمد** كما ترونها بوضوح"، ويستدلون بذلك على قدرة الله العظيمة، بينما عندما أثبتَ العلم أن الكون متماسك بعضه مع بعض، **ومترابط بروابط لا نراها** من قوى مختلفة تمسك الأجرام في مداراتها، قال علماء الإسلام: قد ظهر تفسير أكثر صحة، وإن ﴿...تَرَوْنَهَا...﴾ معطوفة على الكلمة الأقرب لها وهي ﴿...عَمَدٍ...﴾، أي إننا لا نرى العمد ذاتها، فيكون التفسير الأصح هو: إن الله خلق السموات ومسكها مع بعضها بعمد، لكنكم لا ترون تلك العمد.

من ذلك نرى أنه لا داعي للالتفاف على تفسير الآيات لتناسب مقولة مثبتة أو غير مُثبتة، لأن الله سيُظهرُ المعنى الإعجازي لآيات الإعجاز، وسيخلقه في الوقت المناسب.

إن الإعجاز العلمي، هو بيِّنَةٌ على الملحد، وتنبيهٌ لرافض الإسلام، لا بُدَّ أن يحرك فيهما ما يجعل كلاً منهما مضطراً إلى مناقشة وجود الله مع نفسه، في كل ما يصادفه في حياته عموماً، والمؤمن بالله أصلاً لا بُدَّ له من أن يبدأ بالتفكير بصدق القرآن، وصحة نسبته إلى الله، وليس إلى بشرٍ، بعد أن كان منكراً له جملة وتفصيلاً.

لذلك علينا اعتمادُ الإعجازاتِ العلميةِ التي تُحرك ساكناً في عقل الملحد فقط، لا التي تثيرُ إعجاب المؤمن دون غيره، لأن الغرض من الإعجاز أولاً هو مخاطبة الرافض للإسلام ودعوته إلى الإيمان، ثم التوجه إلى المؤمنِ بغرض

تسليحه بسلاح الاقتناع العلمي، إضافة إلى الإيمان، فتتحول قراءتُه للقرآن من قراءة سرد همها ختم السور، إلى قراءة وعي وتدبُّر، يتلذَّذُ بها عندما يتصور معناها الإعجازي.

يكفي الإنسانَ العاقلَ الباحثَ عن الحقيقة، عددٌ قليل من الإعجازات لتوليد اقتناع لديه، وكثيرٌ منا يعرفُ عن علماء أسلموا بفضل آية واحدة فقط، أقنعتهم باستحالة معرفة أسرارها من قِبَلِ البشر في ذلك الوقت.

من المؤسف أن بعض المكابرين، لا يتقبلون الحقيقة العلمية، ليس لذاتها، بل لأنها وردت في كتاب سماوي، في حين أنها لو وردت على لسان (داروين) أو (فرويد) أو (سارتر) أو... لتهافتوا على تأييدها، ظناً منهم أن الدِّين والعلم لا يلتقيان، وخوفاً من أن يسلبهم الدِّين حريتهم الشخصية إذا التزموا بتعاليمه.

على الرغم من كل هذا الرَّفض اللاشعوري لفكرة الدِّين، فقد ظهر كثيرٌ من العلماء المنصفين، الذين أمعنوا النظر في الدراسات الإسلامية، واقتنعوا بالإسلام ديناً واتخذوه منهجاً، وعلِموا أن تصرفاتِ بعض المسلمين المرفوضة ليست حجَّة على الإسلام، فالإسلام لا يقاس بتصرفات رجاله، بل تقاس تصرفات رجاله بما جاء فيه من آيات وأحكام.

قال (دايفيد): لقد أثَرتَ مشاعري لمعرفة المزيد عن هذه الإعجازات.

فقال (جورج): إن منطقية العرض التي قمت بها أثارت فضولي أيضاً.

أما (مايكل) و(ليفي) فلاذا بالصمت، كأنهما متحفِّزان إلى اغتنام أول فرصة ينقضّا فيها على صحة القرآن.

تابع أحمد قائلاً: إن الإعجاز العلمي ينقسم إلى قسمين:

١- قِسم يُعرض على المسلم المؤمن فينبهر به، دون الخوض في تفاصيله أو محاولة نقده، فيَقبلَ به، في الوقت الذي يرفضُه فيه مُعارض الإسلام.

٢- قِسم يُعرض على رافض الإسلام، وهو القسم الذي قُلتَ عنه إنه يستحيل مشاهدته أو تصوره أو حتى التفكير به زمن محمد ﷺ. وهذا ما تميَّز به القرآن، إذ إنه يحتوي على كثير من الآيات العلمية الإعجازية، التي لا يستطيعُ الباحثُ عن الحقيقة أن يتجنب الإعجاب بكيفية ورودها على لسان محمد ﷺ، دون أن تكون وحياً من خالق الكون. وسوف أورد لكم بعض هذه الإعجازات القرآنية **مع إعادة للتأكيد على أن القرآن ليس كتاباً علمياً يبحث في التفاصيل، وما إعجازه العلمي إلا ليقتنع أصحاب العلم بأنه منزَّلٌ من عند خالق الكون.**

إن أهمية الإعجاز العلمي لا تكمن فقط في إقناع الملحد بصحة الإسلام، وتقوية المسلم الملتزم، بل أيضاً في تنبيه المسلمين **المهملين**، لأن القضية بالنسبة لهم ليست قلة معرفة بضرورة التزامهم بالدين، بل هي قضية إيمان يحتاج إلى صقل ورفع درجات، وهذا لا يقومُ بالترهيب والترغيب فقط، إن شباب اليوم بحاجة إلى من يخاطب عقولهم لرفع درجة إيمانهم، إذن ليست القضية زيادة علم ومعرفة لديهم فقط، بل قضية زيادة إيمان، فيهرعون لتطبيق أحكام الدين بشغفٍ ومحبةٍ، ويتلذذون بعمل ما يبدو أن فيه مشقةً في التكليف، وهذا هو أحد أهم أهداف الإعجاز العلمي والغرض منه.

رابعاً: الإسلام ونشأة الكون

قال بعض العلماء: إن هذا الكون كان في الأصل سديماً كثيفاً حاراً ذا ضغطٍ عالٍ أدى إلى انفجاره.

وقال آخرون: إن الأصل الواحد لعناصر الكون متفق عليه، ولكن المشكلة في التناثر، ولم يؤيدوا نظرية الانفجار الكوني بل قالوا: **إنه لسبب ما حصلت "الخبطة الكبرى Big Bang" فتناثر الأصل الواحد** وتباعدت أجزاؤه بسرعات خيالية، ثم بعد ملايين السنين، ولأسباب مختلفة بدأت هذه الأجزاء بالتجمع بعضها مع بعض، وشكَّلت المجرات، ومنها مجرة درب التبَّانه (اللبَّانة-Milky

way)، التي فيها مجموعتنا الشمسية، إنَّ من المجرات ما هو في مرحلة التشكُّل الآن، ويستطيع العلماء مشاهدتها بمناظيرهم الفلكية الإلكترونية، إذ شاهدوا مجرات في مرحلة السديم، ومجرات في مراحل الانفجارات الهيدروجينية، ومجرات في مراحل انجذاب قطعها المتناثرة لتشكيل النجوم والكواكب، ولنجمع لقطات مختلفة عما قاله القرآن قبل أربعة عشر قرناً في هذا الخصوص في:

- سورة الأنبياء (٢١:٣٠): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾.

- سورة النازعات (٧٩:٢٧-٣٣): ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ، بناها، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وأغطشَ لَيلَهَا وأخرجَ ضُحَاهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أخرج منها ماءها ومرعاها، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا...".

- سورة فصلت (٤١:١١): ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ...﴾.

من هذه الآيات نفهم أن:

١- الكون كان مجتمعاً في رتق واحد.

٢- ثم فتق الله هذا الرتق.

٣- بنى الله السماء فازدادت سماكتها بتباعد عناصرها.

٤- ثم بعد ذلك استوى الله إلى السماء وهي أشبه بسديم دخاني ذي كتل مادية متناثرة في الفضاء ذات حرارة عالية جداً.

فقلت: لي تعقيب، إننا إذا تمعنا بما قد علمناه عن الثقوب السوداء، ذات المادة المصمتة الساكنة ذراتها، لانطباق الكتروناتها على بروتوناتها، لذا فهي ذات كثافة عالية جداً إذ يقدر وزن السم٣ من مادته بألف مليون طن أرضي، فنستدل من إمكانية انتهاء المادة المتحركة إلى المادة الساكنة التي وصفناها، على إمكانية **كون الرتق هو المادة المصمتة الساكنة**، التي كتلتها تساوي مجموع كل الكتل

المتناثرة في الكون، وليس الرتق هو السديم الغازي الذي قال به العلماء. وأن الفتقَ ما هو إلا أمر الله الصادر إلى مادة الرتقِ (بعد خلقها) بالحركة بأمر (كن)، فأخذت أجزاء من الرتق (الإلكترونات) تدور في مدارات تبعد مسافات شاسعة نسبية -بالنسبة إلى حجمها- عن مراكز انتمائها (البروتونات)، مما جعل العلماء يسمونها "الخبطة الكبرى" لأنهم لم يستطيعوا تبرير الانفجار دون سبب.

تابعت قائلاً قبل أن يقطع أحدٌ أفكاري، وأفقدَ الزخمَ الذي ابتدأت به فأعود تلميذاً مستمعاً: وبعد الفعلِ (كن) الذي ما هو إلا أمرٌ لبداية أحداث جزء مما في (اللوح المحفوظ) الخاص بخلق هذا الكون، ثم بعد سَبَبِ "الخبطة الكبرى" (كن) استوى الله إلى السماء وهي على شكل سديم دخاني بكيفية نجهلها، والإعجاز ليس فقط في الفتق، بل في "ثم استوى"، حيث...

فقاطع (ليفي) الكلام قائلاً: نعم إن الفتق في القرآن لا يُعَدُّ إعجازاً فيه، ولكنه نقلٌ عن قدامى فلاسفة ما قبل (سقراط)، فقد قال (انكسمنيلس): إن كرة نارية انفصلت عن الله، ثم أصبحت أرضاً وأجراماً سماوية.

فقلت: لكن القرآن لم يقل انفصالاً عن الله، بل قال هو فتقٌ للمادة المصمتة نفسِها التي خلقها الله، وهذا يختلف عما ذكرت.

قال (دايفيد) موجهاً الكلام إليَّ: هل تعني أن أصحاب النظريات الفلسفية اختلفوا بعضهم مع بعض، حول ما إذا كانت مادة الكون هي من خلق الله أم أنها مساوية مع الله في الزمن، شاهدها فصنع منها الكون، هي نفسها هذا الرتق الذي تتكلم عنه؟

فقلت: بالضبط، لكن مع **الإيمان بأن الله خلق هذا الرتق أولاً**، ثم أمره بالحركة، فانفتقَ. إن العلماء ليس عن جهلٍ تجاهلوا ذكر الرتق المصمت، وابتدؤوا رأساً بالسديم الدخاني، الذي تشكل بعد جزء من بلايين الأجزاء من الثانية من

"الخبطة الكبرى"[٣٧٢]، بل لأن قولهم بوجود مادة مصمتة يُلزِمُهم القولَ بوجودِ مَنْ أوجدها ثم أمرَها بالحركة، وفضّلوا القولَ بأن المادةَ في شكلها الحالي قديمة. ولكن بعد اكتشاف الثقوب السوداء أُسقِطَ في أيديهم وكانت صدمة لكثير من علماء المادية، بينما رأينا أنه عندما سمع المفسرون الإسلاميون الغيورون على الدين نظرية السديم الغازي، سارعوا قائلين إنه مذكور في القرآن، في:

- سورة فُصِّلَتْ (٤١:١١): ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ...﴾.

وإن ما قاله العلم عن أصل الكون مثبتٌ في القرآن، دون أن يعمقوا البحث في كلمة (ثُمَّ)، التي تعني وجود مرحلتين واحدة قبل (ثُمَّ) وأخرى بعدها أي أنه قبل الاستواء لم تكن السماء دخاناً بل كانت شيئاً آخر (الرتق)، **ثم** تحولت إلى دخان

---

(٣٧٢) لنلق نظرة على ما يقوله العلم عن بداية تشكيل الكون بعد "الخبطة الكبرى"، مأخوذة من محاضرات مسجلة للدكتور طارق السويدان، حيث يقول:

أ - بعد الخبطة الكبرى بـ(جزء من بليون بليون بليون جزء) من الثانية: نجد سُحباً من جزئيات "إكس" الـ(X-Particle).

ب- بعد الخبطة الكبرى بـ(جزء من عشرة بلايين جزء) من الثانية: نجد سُحباً من جزئيات أُطلق عليها اسم "زي" الـ(Zee-Particle)، ومن هذه الجزيئات يتكون ما يسمى (الكورك)، الذي هو أساس المادة، اكتشف الـ(كورك) في الثمانينات من القرن العشرين.

جـ- بعد جزء من مائة جزء من الثانية من "الخبطة الكبرى": نرى تشكل (اللوترينوز)، وهو جزء من النواة، دقيق بشكل يجعله يخترق تريليون ميل من الحديد دون أن يصطدم بنواة واحدة.

د - بعد مئة سنة من "الخبطة الكبرى": نرى تشكل نواة الهيدروجين (بروتون واحد + إلكترون واحد).

هـ - بعد مليون سنة من "الخبطة الكبرى": نرى ذرات الهيدروجين (بروتون واحد + إلكترون واحد)، وذرات الهيليوم (عدد ٢ بروتون + عدد ٢ إلكترون).

و - وزن الذرة يساوي (جزأين من مليار مليار مليار) جزء من الغرام، وحجمها يساوي (جزءاً من خمسين مليون جزء) من البوصة المكعبة.

ز - حجم الإلكترون بالنسبة للذرة مثل حجم هباءة إلى غرفة.

ح - حجم الـ(كورك) بالنسبة للإلكترون، كنسبة حجم برتقالة إلى عمارة من عشرين طابق.

فهل ترى الآن المقصود من القول (سحابة دخان وسديم دخاني)؟ إنه تقريب مثالي رائع للواقع، حتى تفهمه عقولنا، فأين الإنسان المكابر من كل هذه القدرة؟.

بفعل (كن)، **ثم** بعدها استوى الله إلى السماء وهي متناثرة الأجزاء كالدخان، بكيفية نجهلها، أي العدمُ ثم الرتقُ ثم الفتقُ ثم الاستواء.

ساد صمت طويل طالعت خلاله على الوجوه استغراباً وتساؤلاً وحيرة. قطع (دايفيد) هذا الصمت بقوله: لقد صَدَقَ من قال إنه يستحيل على محمد الرجل الأمي، في مجتمع جاهل، وفي عصر كانت تسوده الخرافات، أن يعرف شيئاً عن الكون، وخاصة ما اكتشفه علماء القرن العشرين بكل إمكاناتهم المتطورة.

خامساً: الإسلام والأرض

(شكلُها، تصدعُها، كرويتُها، تشكُّلُها، جبالُها، استقرارُ مخلوقاتِها، حركتُها)

قال أحمد: هل منكم من يكلمنا عما يقوله العلمُ الحديث عن نشأة الأرض؟

فأجاب (جورج): من حسن الحظ أني كنت أطالع كتاباً يبحث في هذا الموضوع، أَلَخِّص بعض ما جاء فيه، إن العلم يقول إن الكُتَلَ المتناثرة بعد "الخبطة الكبرى" شَكَّلت المجرات، ومن ضمنها المجرة التي تحتوي مجموعتنا الشمسية، والتي كانت متماسكة كجزء من الشمس، ولسبب ما -اختلف عليه العلماء أيضاً- انفصلت بعض الكتل وتباعدت في الكون، ولكنها بقيت في محيط الشمس، ومع الزمن أخذت الكتل تتجمع وتُشكل مختلف كواكب المجموعة الشمسية ومنها الأرض، التي قدَّر العلماءُ عمرها بأربعة مليارات عام ونصف المليار. حيث كانت الأرض كتلةً ملتهبةً، وأخذت تبرد، وظهرت اليابسة بالتدريج، وكانت تَخرجُ مع اللهبِ أبخرةٌ كثيرةٌ، تكوَّنت منها السحب التي شكَّلت المحيطات والأنهار، وصارت الشمس تضيء القسم المقابل لها من الأرض فنشأ الليلُ والنهارُ، وأخذت النباتات بالظهور، وكان تصلب اليابسة يأخذ شكلَ السطح مستوٍ ومتساوي التضاريس، وذلك أكثر من السطح المستوي

جبلي التضاريس، وكانت اليابسة مجتمعة في وحدةٍ واحدةٍ وحولها المحيط الواحد، ثم تصدعت اليابسة إلى عدة قطع، شُكلت منها القارات الخمسة، وهي في تَباعُد مستمر بعضها عن بعض. هذا التصدع كان من أهم أسباب وجود سلاسل الجبال التي تُلاحَظُ غالباً على أطراف القارات، كما أن هناك تصدعات حصلت داخل القشرة الأرضية، وإلى أعماق بعيدة، فشكلت نقاط ضعف ظهرت فيها البراكين والزلازل، وهي أيضاً من أسباب تكوين الجبال الداخلية والجبال البركانية.

وتابع قائلاً: استطاع (نيوتن) في القرن السابعَ عشر الميلادي قياسَ الفرق بين قطْرِ الأرض عند خط الاستواء وقطرها عند القطبين، وكان الفرق لصالح القَطر عند خط الاستواء، وهذا يعني أن كرة الأرض مفلطحة قليلاً عند خط الاستواء ولكن الفرق البسيط جداً مما يجعلها تُرى بالعين من صور الأقمار الصناعية وكأنها كروية تماماً.

قال أحمد: لنحاول أن نجمع المعلومات من لقطات مختلفة من القرآن حول الموضوع نفسِه، فنراه يقول في الآية نفسها التي ذكرتُها منذ قليل:

- سورة النازعات: (٧٩:٢٧-٣٢): ﴿ءأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ، بَنَاهَا، رفع سَمْكَهَا فسوَّاها، وأَغْطَشَ ليلَها وأَخْرَجَ ضُحاها، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا، أخرج منها ماءها ومرعاها، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾.

وهي تُلخصُ بروعة تطور الأرض ونشأتها، إذ تقول:

- إنه بعد الخبطة الكبرى أخذت السماء مسيرة البناء، حسب القوانين الإلهية، فزاد حجمها.

- وبعد ذلك ترتيباً أخذت الشمسُ بالتشكُّل فظهرت إمكانية وجود الليل والنهار.

- ثم أخذت الأرض تتشكّلُ، فأخذت شكْلَ الدحية[٣٧٣] (ومعناها البيضة والمقصود بها عدم تمام الكروية.

- ثم يشير التطور إلى أن الماء الذي على الأرض إنما خرج من الأرض نفسها، وليس كما كان شائعاً من أن أصل الماء من السماء.

- ثم خرجت النباتات من الأرض، لتَتوافر الشروط اللازمة من ماء وشمس، فأخذت مصانع الكلوروفيل بالإنتاج.

قلت مقاطعاً وردَ في:

- سورة الطارق (٨٦:١٢): ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.

نرى فيها أيضاً إعجازاً واضحاً، خاصة أن بلاد العرب ليست فيها تصدعات أرضية ظاهرة للعين، يمكن أن يكون محمد قد رآها فذكرها في قرآنه، فإذا علمنا أن العلماء لم يتوصلوا إلى مناقشة الصدع الأرضي (لا الذي أدى إلى انقسام القارات، ولا الذي يوجد في أعماق البحار، ذلك الصدع الذي يلامس الصهير الملتهب داخل الأرض.) إلا في هذا القرن العشرين، حيث استطاعوا تصوير تصدعات البحار العميقة، نتساءل من أين جاء هذا الوصف الدقيق.

وتابع أحمد قائلاً: كيف يتسنى لمحمد ﷺ الأمي الذي عاش في الصحراء أن يعلم ترتيب النشأة وصفاتها وتصدعاتها.

فقال (ليفي): إنها مذكورة في سفر التكوين في العهد القديم، فنقلها عنه.

فقال أحمد: إن ما ذُكر في القرآن له ترتيب مخالف للتوارة، وليس منقولاً عنه، ولعلك تعرف أن العلم أثبت استحالة الترتيب التَّوراتي للنشأة، وقد جعل المحللون الترتيب التوراتي للخلق، أحد الدلائل الكثيرة على إثبات تحريف التوراة.

---

(٣٧٣) الأُدْحُوَّة والأُدْحِية: بيض النعام، "المنجد في اللغة والأعلام"، ص ٢٠٨.

بينما لم يستطع العلم حتى الآن إثبات مخالفة القرآن ولو لحقيقة علمية واحدة، مع أنه أُنزلَ قبل الانفجار العلمي المعرفي المعاصر بمئات السنين، وما تزال فيه تحديات[٣٧٤] لكل علوم الإنسان، إلى يوم القيامة.

فقال (دايفيد): أود أن نعيدَ مناقشة بعض الفقرات لأن لي عليها عدداً من المآخذ.

ومثلُه قال (جورج) و(مايكل).

فقال أحمد: كم يسرني أنكم لستم مستمعين فقط، بل أنتم مناقشون تبحثون عن الحقيقة.

قلت: أرى أن نؤجل هذا إلى الجلسة القادمة، على أن يقوم كل منا بالبحث ومراجعة أي شيء له علاقة بتأييدِ الإعجازات العلمية أو نقدها أو نقضها، حتى تكون المناقشة أكثر شمولية وفائدة.

وصل الجميع في الوقت المحدد للجلسة، وكأنهم يتحرقون شوقاً إلى متابعة المناقشة ومعرفة الحقيقة، ضمن جلسة هادئة، خارج أوقات العمل، ومشاكلِه.

بدأ (جورج) الكلام قائلاً: لقد استفدت جداً من هذه الفرصة، وآمل أن يظهر أثر ذلك على المناقشة.

قال (دايفيد) موجهاً كلامه إلى أحمد: لقد ذكرتَ في الجلسة السَّابقة أن القرآن يؤكد أن الأرض كالدحية بيضوية الشكل بقوله في:

- سورة النازعات (٧٩:٣٠): ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾.

هذا حسن وجيد، ولكن كيف تفسر الآية، من:

---

(٣٧٤) الأنعام (٦:٥٩): ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو...﴾.
لقمان (٣١:٣٤): ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزِّلُ الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾.

- سورة الغاشية (٨٨:٢٠): ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

علماً أن بعض المفسرين المسلمين استعملوها قبل ظهور (كوبرنيكس و(جاليلو)، لدعم إثبات أن الأرض مسطحة؟ وأنا أتساءل أين كانت ذاك الوقت آية ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾، التي أوردتَها لنا؟ ولماذا سكت المفسرون عن هذا التعارض؟.

لاحظت ابتسامة على وجهَيْ كلٍّ من (ليفي) و(مايكل)، كأنها تقول: قد وقع القرآن في تناقض، فما لديك؟

قال أحمد: كنا قد تكلمنا عن الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وكيف أن علماءَ عصر الخمولِ العلمي كانوا يسارعون -بسبب غيرتهم على الإسلام- إلى إيجاد تفسيرات ظاهرية لكثير من النظريات، قبل أن تتحول من **نظرية علمية إلى حقيقة علمية**، ومنها الآية التي ذكرتَ، ومنها أيضاً ما ورد في[٣٧٥]:

- سورة نوح (٧١:١٤): ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

إذ سارع بعض المفسرين ليقولوا: إن هذا يطابق ما جاء به (داروين) من فرضيات التطور، وعلى أساسها أخذ فلاسفة منهم يقولون: إنه لا يمكن لجهنم أن تكون آخر مرحلة للحياة، لأن الجنة هي طورٌ أكثرُ تقدماً، وظهرت فئة قالت: إن جهنم هي مرحلة تأديب لدخول الجنة الأكثر تطوراً، وبذلك خرجوا عن الإيمان بخلود جهنم وبالخلود فيها، وبالتالي خرجوا عن طريق الإسلام الصحيح.

فقال (مايكل): وهل تظن أنك تخدم الإسلام بكلامك وتفسيراتك هذه؟ إنك تقع في خطأ وقع فيه من جاء قبلك.

---

(٣٧٥) ومثلها أيضاً ما ورد في مناقشتنا عن الآية: ﴿...خلق السموات بغير عمدٍ ترونها...﴾ من سورة لقمان (٣١:١٠)، تحت عنوان "الإعجاز العلمي بين الرفض والقبول" من هذا البحث.

فقال أحمد: لا أظن، لأني لا أفسر نظرية أو أدعمها بتشويه ولَيٍّ لمعنى الآية لجعلها تطابق أو تناسب نظرية علمية اشتهرت، بل أعالج حقيقة علمية لا يمكن للعلم مهما تطور أن يناقضها، هل سيثبت العلم مثلاً أن الأرض مثلثية المقطع وليست كروية؟ لقد انتهى الخلاف على كروية الأرض، إني آخذُ ما أصبح حقيقة علمية، مشاهدة مثبتة، مجرَّبة مبرهنة، **وأحاول أن أرى إنْ كان القرآن قد تعرض لمثل هذه الحقيقة أمْ لا، ولا تظن أن القرآن تعرض لكل حقائق العالم،** ولكني أؤكد لك أن القرآن ما تعرض أبداً لموضوع إلا كانت الحقيقة العلمية مطابقة له، لأن منزِّل القرآن وخالقَ الحقيقةِ واحدٌ.

ثم تابع كلامَه ناظراً إلى (دايفيد): أما لتفسير الآية التي ذكرتَ تفسيراً صحيحاً، فيكفي النظر من نافذة هذا المطعم في الطابق العشرين، وسوف تفسر لك الصحراء كل شيء، أليست الأرض التي تراها مسطحة مستوية، إن كلمة مسطحة ليست عكس كلمة مكورة، بل إنها تعني سطحاً تضاريسه متقاربة الاستواء، بحيث يمكن أن تشمل الهضبة والمنخفض، أما عكس مسطحة التضاريس فهو جبلية التضاريس، حيث تغلب الجبال على السطح المستوي، ألا ترى معي أن التضاريس المسطحة تغلب بكثرتها التضاريسَ الجبلية على سطح الأرض؟ **فتكونُ الأرضُ كرويةَ السطح، مستويةَ التضاريس.**

واعلمْ أنه يمكن للسطح أن يكون سطحاً جبلي التضاريس، أو سطحاً مستوي التضاريس، وأنه يمكن للكرة أن يكون سطحها ذا تضاريس متقاربة الارتفاع مستوية، إذا قلّت جبالُها ووديانُها.

كما يمكن تفسير الآية كالتالي: انظروا إلى الأرض كيف سُطِحَت، أي كيف **خُلِقَ سَطحُها كما هو عليه،** وكيف أنه جُعِلَ مناسباً لمعيشتكم، بجباله ومسطحاته ومستوياته، وكافة تضاريسه، وبذلك لا تكون لهذه الآية أية علاقة لا بكروية الأرض، ولا باستوائها، فتسقط من الإثبات ومن الإثبات المضاد.

أما إثبات الصفة الثابتة للأرض وهي صفة الكروية، فهو عدا ما ورد في الوصف الإجمالي لنشأة الأرض، يمكن أن نراه في آيات لا يمكن تفسيرها وتحقيقها إلا إذا كانت الأرض كروية، كما في:

- سورة الزمر (٣٩:٥): ﴿...يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ...﴾.
- سورة فاطر (٣٥:١٣): ﴿يولِجُ الليلَ في النهارِ ويولِجُ النهارَ في الليلِ...﴾.

إذ يصعب تفسير هاتين الآيتين وتصور تكوّر الليل على النهار وولوجه فيه، وفي الوقت نفسه تكور النهار على الليل وولوجه فيه، إذا تصورنا أن الأرض قرصٌ مستوٍ، لأنه لن يحصل ولوج ولا تكوّر بين الليل والنهار، عند تبديل السطح الأول مع السطح الثاني، أثناء دوران قرص الأرض المفترض، بل سيحصل بشكل فجائي، كإشعال النور وإطفائه، حسب موقع السطح من الشمس، وأما الولوج والتكور فيستحيل حصولهما إلا إذا كانت الأرض كروية أو شبه كروية، إنَّ عدم استطاعة المفسرين القدامى تصور ذلك، ليس عجزاً في الآية، بل في المفسرين أولاً وأخيراً، وهذا العجز هو إرادةُ الله لإبقاء سر التفسير الصحيح لجيل يكتشف الحقيقة العلمية ثم يراها في القرآن، فتكون إعجازاً قرآنياً وبرهاناً على أنه من الله خالق الحقيقة. **وعلينا ألا نستعجل الإعجاز في الآيات، لأنَّ لهذا المعنى الإعجازي وقتٌ يظهر فيه، فيكون أكثر مناسبة وأكثر فائدة لإثبات الهدف.**

فقال (جورج): وبماذا تفسر ما جاء في:

- سورة الحجر (١٥:١٩): ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا...﴾.
- سورة ق (٥٠:٧): ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾.

ألا يدل ذلك على أن الأرض ممدودة مستوية؟ وهذا يخالف الواقع.

فقلت: اسمحوا لي بالجواب. إن لكلمة (مَدَّ) معنيين:

أ - المد (الشد) الطولي: (مد الشيء) أي شده حتى ازداد طوله.

ب- المد (التوسع) السطحي: هو الشدُّ أو التمدد باتجاهين، فنقول أرض ممدودة المساحة أي واسعة المساحة.

فإذا اعتمدنا المعنى الأول وحيث إن الشدَّ الكثيرَ يؤدي إلى الانقطاع، وهو الصدع نفسه، الذي جاء في القرآن ﴿...وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ...﴾، فَبعد المدِ حصل الصدع وتفرقت القارات.

وإذا أخذنا المعنى الثاني سنرى فيه أروع إثبات لكروية الأرض.

فقال (جورج) باستغراب: وكيف هذا؟

قلت: تصور أنكَ تسير في طريق طويل، ثم تسير وتسير، والطريق لا ينتهي، فتقول ما هذه الطريق كلما سرت فيها أكثر **امتدت** أمامي أكثر، وكأنها لا تنتهي، فهل تظن أن الطريق على سطحِ قرصٍ مستوي، لن تنتهي إلى حافة القرص؟. ألا يمكن للآية ﴿...وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا...﴾ أن تعني أنه مهما مَشَيتَ إلى الأمام وفي أي اتجاه، سترى الأرض ممدودة أمامك، وهذا لن يكون إلا على سطح مكور.

وتابعتُ قائلاً: لا أقول إن هذه الآية هي الإثبات الأقوى لكروية الأرض، لكنها حتماً لا تؤدي إلى تأكيد استوائها.

هز (جورج) رأسه قائلاً: رأي يستحق التفكير فيه.

بدا لي أنه لم يقتنع بعد، ولكن لم يكن لديه ما يجيب به عما أثير أمامه.

ثمّ عقبت قائلاً: إذن المَدُّ في ﴿...والأرض مددناها...﴾، لا يعني الاستواء.

قال (دايفيد): الحقيقة أني أرى أن تفسير ما ورد في القرآن عن هذا الموضوع، لا يُلزم القول بأن الأرض مستوية السطح، بل على العكس، فإنه إما قال بكرويتها بصراحة في ﴿...والأرض بعد ذلك دحاها...﴾. أو أنه أورد آيات لا تنطبق إلا

إذا كانت الأرض كروية، وأنه حقاً لعجيب، من أين لمحمد هذا التأكيد؟ على الرغم من أن الفكرة السائدة أيام دعوته هي ثبات الأرض واستواء سطحها.

فدمدم أحمد: من الله... من الله خالق الحقيقة.

قال (ليفي): على كل حال ليست الأرض كرويةً بل مفلطحةٌ، كما أثبته نيوتن وذكره (جورج) منذ قليل، وكلا التفسيرين لسطح الأرض، الكروي منه، والمستوي المسطح خاطئ.

فقال أحمد: إذا كنت تتساءل عن رأي القرآن في هذا، فلقد ذكرتُ لك أن القرآن شبه الأرضَ بـ(الدحية) أي البيضة، وهي ليست كاملة الكروية، وتأكيداً لذلك نقرأ في:

- سورة الأنبياء (٢١:٤٤): ﴿...أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾.

وهذا بالضبط ما عناه (نيوتن) في تقريره، وطرفا الأرض[٣٧٦] هما نقطتا دورانها، اللتان يمر بهما محور دورانها الوهمي.

قال (ليفي) بخبثٍ: كيف يعارض الإسلام حقيقة علمية ثبتت وأصبحت بديهية علمية، لا مجال لنقضها، ألا وهي دوران الأرض؟

فقال أحمد: الإسلام لم يعارض، بل بعض المفسرين المسلمين، كان لهم رأي في ذلك، ولكن لم يعارضوا دوران الأرض، وإن لسكون الأرض ودورانها قصة طويلة مع الفلاسفة، ورجال الكنيسة، ومع المفسرين الإسلاميين أيضاً:

١- أما الفلاسفة فقد رأوا الشمس تدور حول الأرض كل يوم، فقالوا: الأرضُ ثابتةٌ والشمسُ تدور، وكان ذلك مقبولاً ذاك الزمان، بعدها أخذوا يبحثون عن

(٣٧٦) في كتاب "الله والعلم الحديث"، ص ٢٥، نقرأ أن قطر الكرة الأرضية عند القطبين هو (٧٧١٣) ميلاً ومحيطها ٢٤٢٤٠ ميلاً. وقطرها الاستوائي ٩٧٢٩ ميلاً ومحيطها الاستوائي ٢٤٩٢٩ ميلاً.

إثباتات لذلك، فقالوا الأرض أثقل من الإنسان، **فلو كانت تسقط لابتعدت عن الإنسان وانفصلت عنه. ولو كانت تدور لطار الإنسان عنها وابتعد**، لكنَّ كونه ملتصقاً بها، يُلزِمُ القولَ بثبات الأرض وسكونها، خاصة وأن العهد القديم لم يتعرض لهذا الموضوع.

٢- وأما رجال الكنيسة فقالوا: إن المسيح ابن الله ظهر على الأرض، ومقامه لا يسمح له بالظهور إلا في مركز الكون، والمركز دائماً (ثابت) فالأرض إذن ثابتة والشمس تدور، وعندما قال (كوبرنيكس) بدوران الأرض وأكده (غاليلو) بعد سنوات، غضبت الكنيسة وحاكمتهما بتهمة الكفر والزندقة. **ولكن تَطوُّر العلم واستحالة الإيمان بثبات الأرض عند العلماء جعلهم يعلنون حرباً فكرية علنية على الكنيسة تحت شعار: (العلم والدين لا يلتقيان)، فكان هذا هو الانفصال الأكبر بين فريق العلماء وفريق الكنيسة.**

٣- أما أحوال المفسرين الإسلاميين فلم تكن أسعد حظاً في هذا الموضوع، فعندما كانت فكرة الثبات سائدة حاول المفسرون تأويل بعض الآيات، والعمل على ملاءمة تفسيرها مع سكون الأرض، فمنهم من استند إلى:

أ - سورة النبأ (٧:٧٨): ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾.

فقالوا: إن الله ثَبَّت الأرض بالجبال كما تُثَبِّتُ الأوتادُ الخيمةَ حتى لا تَميد بما عليها. وكان ذلك أيام فرضية الأرض المستوية فكان التفسير آنذاك مقبولاً.

ب- سورة غافر (٦٤:٤٠): ﴿...اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً...﴾.

فقالوا: إن الأرض **مستقرة ساكنة** ثابتة.

ح - سورة فاطر (٤١:٣٥): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾.

فقالوا: إن الله **يُمسك** الأرض، إذن هي ساكنة.

في تلك الأيام لم يكن سكون الأرض وثباتها حقيقة يقينية علمية، بل هو رأيٌ وفرضيةٌ، اعتمدت رؤيا العين للشمس وهي تدور حول الأرض، ودُعِّم ذلك بالتفسير الكنسي، الذي كان المصدر الوحيد المعتمد للعلم، لكن عندما اقتنع العالَم أن الأرض تدور، سارع **العلماء الفلكيون إلى القول**: إذن الشمسُ ثابتة.

هنا فقط قام علماء الإسلام معترضين على ذلك ومكفرين كلَّ مَنْ يقول: "إن الأرضَ تدور والشمسَ ثابتةٌ"، لأن الله يقول في:

- سورة يس (٣٨:٣٦): ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

واستمر الصراع حتى تبين **للعلماء الفلكيين** أنه لا ضرورة لربط حركة الشمس بسكون الأرض، **ولا يَلزمُ لمن يقولُ إن الأرض تدور، أن يقولَ إن الشمس (ثابتة)**، فلكل منهما جريانه وحركته. **إذن الشمس تجري والأرض تدور**. فهدأت ثورة المفسرين الإسلاميين، لأن هذا لا يعارض القرآن، إذ لا يوجد نص في القرآن صريح لا يقبل التأويل يُلزم ثبات الأرض، كأن يقول: "الأرض تجري" ولكن يوجد ما يؤكد جريان الشمس، وقالوا: **ما دامت الشمس تجري، فافعلوا بالأرض ما شئتم، وليس لنا أي اعتراض.**

أما الآن وقد أصبح دوران الأرض وجريان الشمس وحركة المجموعة الشمسية، بدهيةً علمية ثابتةً، وانتهى عصر الشك بذلك، سنحلل كيف أخطأ المفسرون المسلمون القدامى، في التفسير الحقيقي لما ذكره القرآن عن الدوران، وتعال نناقش أدلتهم ونفسرها بشكل أدق:

- **دليلهم الأول** كان سورة النبأ (٧:٧٨):﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾.

لتحقيق هذا الدليل لا بدَّ من:

أ - لزوم وجود جسم آخر ثابت غير الأرض لتثبيتها عليه بالوتد، وهذا غير متوفر ولم يقل به أحد.

ب- لزوم اختراق الجبلِ الأرضَ من الطرف إلى الطرف الآخر، لِيُثَبِّتَ الأرضَ بذلك الجسم الآخر. وهذا ما لم نسمع به ولم يقل به أي من العلماء وهو غير صحيح.

وأما التفسير الصحيح لهذه الآية أذكره باختصار لأنه إعجاز علمي قائم بذاته سنذكره بالتفصيل لاحقاً. ومعنى الآية أن الجبال كالأوتاد تُثَبِّتُ القشرة الأرضية اليابسة من أن تميد وتتداعى وتتكسر مع أول زلزال.

- **دليلهم الثاني** كان سورة غافر (٦٤:٤٠): ﴿...اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قراراً...﴾.

الأرضُ قرارٌ لما عليها من مخلوقات، تدور بهم وتجري، وهم عليها مستقرون. وكلمة (لكم) تنفي إطلاق التثبيت للأرض، وتؤكد التخصص، أي هي قرار لكم أيها المخلوقون، وأيتها المخلوقات، وليس قراراً للأرض لنفسها وبذاتها، ولإدراك هذا (القرار) على الأرض عليك أن تتصَوَّرَ أنك الآن تدور مع الأرض حول نفسها بسرعة ١٠٠٠ميل/سا، وتدور مع الأرض حول الشمس بسرعة ١٠٠٠ميل/د، ومجموعتنا الشمسية تدور حول مركز درب التبَّانة بسرعة ٣٠٠كم/سا، فهل تشعر بهذه الحركة؟ ...أي استقرار للمخلوقات أفضل من هذا تريد؟

- **دليلهم الثالث** هو أضعف الأدلة. وهو في:

سورة فاطر(٣٥:٤١): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا...﴾.

كيف يفسرون ذلك بالثباتِ والسكون للسموات وللأرض، وهم يَرَونَ أن السماوات (الشمس، والقمر، والنجوم...) تتحرك كل يوم. إذن فتفسير (يُمسك) لا يعني الإمساك عن الحركة، بل الإمساك لغرض عدم الزوال ﴿...أَنْ تَزُولا...﴾ والخروج عن الطريق والمسار المخصص لكل منها، وهذا ما تقوله حالياً الفيزياء الكونية من أن الكواكب تدور حول الشمس ضمن مسارات وقنوات فضائية

لا تخضع لقوانين الجاذبية كليةً، وإلا لوجب كون حلقات الدوران دائرية، وليست إهليليجية كما هي في الواقع. ولولا هذه المسارات لخرجت الكواكب عن المجموعة الشمسية عند الطرف الأبعد من الأهليلج، وهذا يفتح أمام المفسرين آفاقاً جديدة عن التفسير الأصح للآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا...﴾.

يجب الاعتراف هنا أنه لا يوجد نص صريح في القرآن يقول إن الأرض تدور، كأن يقول **"والأرض تجري"** أو **"الأرض تدور"**، كما جاء في ﴿...والشمسُ تجري...﴾، ولكن توجد آيات لا تتحقق إلا بجريان الأرض، وهذا الأسلوب يفتح المجال بشكل أفضل للاستنتاجات العقلية المنطقية. كقوله تعالى في:

- سورة النمل (٢٧:٨٨): ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

بما أن الجبالَ مثبتةٌ بالأرض كالأوتاد، وبما أن الجبال تجري كالسحاب، إذن الأرض تجري أيضاً، الجريان بشكل عام يمكن أن يكون بدوران أو بانسحاب أو باندماج الحركتين، ولا تخصيص لذلك في القرآن مما يُغطي الحركتين وهذا هو الواقع.

قلت: إنه يكفي القرآنَ إعجازاً في هذا الموضوع، أنه لم يصرِّح أن الأرض ساكنة، كأن يقول "والأرض ساكنة" كما صرح أن الشمس تجري.

فقال (دايفيد): صدقت.

قال (ليفي): ما دمنا نتكلم عن الجبال، فإن بعض الحقائق العلمية عن الجبال، التي انتهى إليها العلم في هذا القرن، تقول إن:

١- الجبال تتشكل من تصادم قطع اليابسة بعضها مع بعض، فتغوص القطعة الأثقل تحت الأخف، وترتفع الجبال خلال ملايين السنين وتشكل سلاسل الجبال على طول خط التصادم مثل:

- سلسلة جبال (الهملايا) التي نشأت من تصادم القطعة الهندية مع الآسيوية.

- سلسلة جبال (الأنديز) التي تشكّلت من تصادم القطعة الأمريكية بالإفريقية.

- سلسلة جبال (الألب) التي تكونت من تصادم القطعة الأوربية بالإفريقية.

أما الجبال الكلسية فقد تشكلت من جرف مياه الأنهار والأمطار، الملقاة في المحيطات، وأثناء عمليات التوازن الأرضية ارتفع جزء من قاع البحر الكلسي فشكّل الجبلَ الكلسي، والمستحاثات البحرية في رؤوس الجبال تُثبتُ أنها كانت تحت الماء.

٢- لكل جبل جذر يعادل على الأقل أربعة أضعاف ارتفاعه، وهو موجود تحت مستوى الأرض، وجرى تصويره بجهاز (السيسموغراف) المستعمل لقياس الزلازل، وصُوِّر بطريقة المقطع الكامل (الهولوغراف)، وصُوِّر من الأقمار الصناعية.

توصل العلماء إلى أن هذه الجبال هي المسؤولة عن تماسك القشرة الأرضية، فلا تدمرها الزلازل والبراكين، وشبهوا الأرض بالبيضة، واليابسة بقشرتها العائمة فوق طبقات هائجة من الصخور المائعة، وقالوا إن أي زلزال كبير يمكن أن يُكسّر ويُهدّم كل القشرة الأرضية لولا وجودُ الجبال.

فيا ترى هل يقول القرآن شيئاً عن حقيقة علمية كهذه؟

قال أحمد: لم يقل القرآن صراحة إن الجبال هي من تصادم قطعة اليابسة التي امتدت وتصدعت، وتصادم بعضُها مع بعض، لكني قرأت في:

- سورة الرعد (٣:١٣): ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا...﴾.

- سورة الحجر (١٩:١٥): ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

ولاحظتُ تلازم مَدِّ الأرض مع تَشكُّل الجبال. أنا لا أقول إن هذا دليل قطعي ولكن أقول إن هذا الأمر يستحق منا أن نُمعنَ النظر فيه.

أما عن **الدليل القطعي على وظيفة الجبال** الرئيسة فهو ملخص بآية واحدة في:

- سورة النحل (١٥:١٦): ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا...﴾.

- سورة النبأ (٧:٧٨): ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

يتّضح جلياً تشبيه الجبال التي تمسك القشرة الأرضية من أن تنهار من أول بركان أو زلزال، بالأوتاد التي تمسك الخيمة أن تنهدم كما ذكرت سابقاً. وهي أشبه بمرساة السفينة أرساها الله لتمسك اليابسة من أن تتصدع إلى قطع صغيرة غير قادرة على الحفاظ على توازنها.

ثم عقب أحمد متسائلاً: هل يوجد أية إمكانية في ذلك الزمان لمحمد ﷺ ليعرف وظيفة الجبال وشكلها الوتدي، دون وحي من خالق الأرض ومشكل الأوتاد؟

صمت الجميع مشدوهين من عظمة ما سمعوه، وأنا منهم.

سادساً: الإسلام والعلم

قلت: ما أروعها من دعوة إلى العلم والحض عليه، عندما قال الله تعالى في:

- سورة يونس (١٠١:١٠): ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

- وقوله في سورة فُصِّلت (٥٣:٤١): ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فقال (جورج): هل قلتَ (سنريهم)؟

فقال أحمد: نعم.

فقال (جورج): أليست هذه مصادفة عجيبة أن يخاطب الله المسلمين ويقول لهم (سنريهم). أي سنُري غير المسلمين الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتيقنوا أن هذا القرآنَ هو الحقُ. ألم نلاحظ أن أكثر من ٩٩٪ من الاكتشافات العلمية الحديثة جاءت على أيدي غير المسلمين، يا لمصادفة تطابقها مع القرآن.

فقلت: إن القرآن لا يخضع لقانون المصادفة، فليست فيه مصادفةٌ واحدةٌ، وإن ما ذكرتَه يَزيد الإعجاز العلمي روعة، إذا جاء تفسيرُ الآيات على يد غير المسلمين، حتى لا يقال: إن المسلمين حرَّفوا الحقيقة لتُناسِبَ القرآنَ أو شوهوا تفسير الآية ليناسب حقيقة علمية معينة، بينما إذا اكتشفَ غيرُ المسلمين حقائق علمية، ثم يفاجؤون بأنها في القرآن، فيأخذُ الإعجازُ زخماً أقوى[٣٧٧] مما لو أنه اكتشفها العلماء المسلمون.

سابعاً: الإسلام والقمر

قلت: إن من روائع الآيات القرآنية أن كل جيل يجد فيها ما يُقنعُه، وتحضرني الآن آية من:

– سورة الإسراء (١٧:١٢): ﴿وجَعَلْنا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَينِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرةً...﴾.

حيث قال ابن عباس[٣٧٨] في تفسيره لهذه الآية: "كان القمر يضيء كما

(٣٧٧) من أواخر الكتب الصادرة عن هذا الموضوع، كتاب (جفري لانغ) "الصراع من أجل الإيمان"، صدر في أمريكا تحت عنوان: Struggling to Surrender دار النشر: Amana publication beltsville, Maryland U. S. A وترجم إلى العربية بعنوان: (الصراع من أجل الإيمان، انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام) طبع دار الفكر بدمشق: ١٩٩٨م. لقد كانت الآيات العلمية سبباً في إسلامه، ومن ثم تأليفه لهذا الكتاب.

(٣٧٨) عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ أي ٦٨٧ م)، ابن عم الرسول ﷺ، لُقِّبَ "حَبْر الأمة"، روى الأحاديث عن الرسول ﷺ.

تضيء الشمس، القمر آية الليل، والشمس آية النهار، وقول الله تعالى ﴿...فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ...﴾ أي أعتمنا بعضه فظهر السواد الذي في القمر...".

هذا الرأي لم يعجب كثيراً من المفسرين، فقالوا: لقد فسر الكلمات بمرادفاتها، وجنحوا إلى الرأي القائل بأن الليل آية، والنهار آية، ومَحى اللهُ آية الليل (القمر) بجعله مظلماً لا يُنير من نفسه، وجعل آية النهار الضياء الشمس.

ثم ظهر بعض المفسرين الآخرين فقالوا: ماذا كان الليل قبل أن تُمحى آيته؟ إنه لا يقال للّيلِ ليلٌ إلا إذا كان مظلماً، فكيف تُمحى آية الظلام بالظلام والشيء نفسه بالنسبة للنهار، فليست الشمس أو القمر هما الآية، بل المحو هو الآية، لكننا نجهل الكيفية.

استمر هذا الجدل بين المفسرين حتى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث توصل العلم إلى أن القمر كان ملتهباً كالشمس، ثم خمد سطحُهُ منذ ملايين السنين، وأن في داخله جذوة ضعيفة ما زالت مشتعلة حتى الآن، لكنها من الضعف النسبي بحيث لا تؤثر في سطح القمر البارد، وقد استطاع العلماء إرسال أشعة اخترقت القمر وصورت الجذوة الملتهبة داخله حتى الآن.

فرجحَ التفسير بأن الليلَ ليلٌ ومن آيات الليل هي القمرُ الذي محا الله ضياءه **الذاتي**. وأن النهار نهارٌ ومن آياته الشمس، التي ستبقى مبصرة إلى ما شاء الله، فتكون الآية في **المحو وفي الإبقاء** نفسيهما.

ألا يدعو هذا كلَّ باحثٍ عن الحقيقة أن يُسلّم بأن الله هو مُنزِلِ القرآن على رسوله محمد ﷺ.

قال (دايفيد): سأتتبع حقيقة ما تقول، فإن صدق تكون بذلك أديت لي خدمة عظيمة.

قال (ليفي): ولكن المسلمين يفاخرون بأن القرآن هو أول من فَرَّقَ النجم عن

الكوكب، وقد صنّف القرآنُ القمر بين الكواكب، ثم إنك تقول الآن أنه كان نجماً فكيف هذا التناقض؟

تطوع (دايفيد) للإجابة قائلاً: أمّا هذا فلا. إنْ صَدَقَ ما سمعته الآن، فإني لا أرى تناقضاً أبداً بين القول إن آية الليل (القمر)، كان ملتهباً ثم محا الله آية الليل، بأن أطفأ القمر، فتحولت الآية من نجم ملتهب إلى غير ملتهب هو الكوكب، وهو من الصِغَر بحيث لم تكن حرارته تسمح بتتابع الانفجارات النووية الحرارية، لذلك خمدت الانفجارات وبردت حرارة سطحه، ولم يتحول القمر إلى نجم أسود أو أبيض لصغره، فأدخله القرآن تحت زمرة الكواكب، ليؤكد أن هناك فرقاً بين ضياء الشمس ونور القمر.

ساد صمت قصير،... لاحظت أن (دايفيد) لم يعد لديه ما يضيفه، فتابعتُ الحديث قائلاً: قال الله تعالى في:

– سورة نوح (١٦:٧١): ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

من كان يستطيع القول آنذاك بأن القمر ليس سراجاً يضيء من نفسه، بينما يرى الجميعُ نورَ القمر ينير الليل، كما الشمسُ تنير في النهار، ونلاحظ أنه لم ترد ولا مرة واحدة أن القمر يضيء أو يُشع، بل كان النور مرافقاً للقمر، ومعلوم أن الإضاءة والإشعاع تعني الإنارة الذاتية. ولقد جاء في:

– سورة يونس (٥:١٠): ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بعد مئات السنين من هذا التصريح القرآني اكتشف العلم حقيقة أن القمر لا يضيء من تلقاء نفسه كالشمس، بل إنه يعكس أشعة الشمس الساقطة عليه فيُنيرُ الأرض.

لقد أقر القرآن بوجود نوعين من الأجرام السماوية هي:

أ – النجوم، فقال في:

سورة المُلك (٥:٦٧): ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا **بِمَصَابِيحَ** وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ...﴾، والمصباح ذاتي الإنارة.

ب- الكواكب، أقرها في:

– سورة الصافات (٦:٣٧): ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾.

قال أحمد: لا تنس الآية من:

– سورة الفرقان (٦١:٢٥): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾.

فلم يقل **جعل فيها سراجين الشمس والقمر**، هل كان أحد سيعترض عليه في زمانه لو قال ذلك؟

إنه حتى تكتمل روعة الإعجاز عن الكواكب، فإن القرآن جعل نهايتها مختلفة عن نهاية النجوم، فقال:

أ – عن الكواكب في:

– سورة الانفطار (٢:٨٢): ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾.

أي بعثرت وتشتتت.

العلم الحديث جداً قال بهذه الفكرة، دون أن يَعلم العلماءُ أنهم بهذا يؤكدون إعجازاً قرآنياً جديداً، فقالوا: إن الكواكب في نهايتها ستتناثر أشلاؤها في الفضاء بفعل الجاذبيات المتناحرة للثقوب السوداء في الكون!!.

ب – عن النجوم في:

– سورة التكوير (٢:٨١): ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، أي تهدمت على نفسها.

أيضاً أكد العلمُ أن نهاية النجوم هو التهدم والانكدار، بمعنى أنَّ كل نجم سيتهدم على نفسه باتجاه مركزه، ويتحول إلى (ثقب) نجم أسود أو أبيض أو (سوبرنوفا)!.

حقاً لقد صدق الله إذ قال في:

- سورة الجاثية (١٣:٤٥): ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال (دايفيد): يا للروعة.

ثامناً: الإسلام والنهار

قال (ليفي): لقد قرأتُ في القرآن في:

- سورة الشمس (٣:٩١): ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾.

فكيف يخالف القرآن العلم القائل إن الشمس هي التي تصنع النهار على الأرض، فيقول: إن النهار هو الذي يُجَلّي الشمسَ ويظهرها، إذ الأصل أن النهار أحدُ نتائجها؟

فقال (جورج): أنا لا أعلم ما في القرآن، لكن ما تقوله صحيح من الناحية العلمية، إلا أنه ناقص.

فقال (ليفي): وكيف؟

فقال (جورج): إذا صحّ ما قلتَه عن القرآن، فأنا أعُدُّهُ إعجازاً علمياً عاليَ الشأن وإليك رأيي:

الشمسُ هي أحد أسباب النهار على الأرض، وهذا لا شك فيه، بحيث إذا قلنا: لا شمس، فيلزم أن نقول: لا نهار، ولكن الشمس ليست السبب الوحيد للنهار وهذا ما غَفِلتَ عنه، لأن الضياء الذي نراه إنما هو انعكاسات أشعة الشمس داخل الغلاف الجوي، وتشتتها هو بسبب ما فيه من غبار ومواد عالقة في

الهواء، فإذا نظرتَ إلى السماء تراها متجلية متوهجة حارقة، وإذا صعدتَ إلى خارج الغلاف الهوائي، سترى الظلام يحيط بك من كل ناحية، مع أنك أقرب إلى الشمس، وسترى الشمس باهتة في وسط السماء لا ضياء لها، وهذا ما أكده رجال الفضاء عند خروجهم من الغلاف الجوي للأرض، إذ قالوا: "نحن الآن لا نرى شيئاً لقد أصبحنا كالعميان"، فإذا كانت الشمس هي السبب الوحيد للنهار، **فلماذا هذا الظلام فوق طبقة النهار على الأرض يغشاها ويغطيها؟** ولماذا هي باهتة؟ وهناك في الظلام يمكننا القول: "توجد شمس، ولا يوجد نهار"، ويمكننا أن نقول: إن الغلاف الجوي للأرض المقابل للشمس بغباره وعوالقه هو الذي يُظهر أشعة الشمس الموجودة، ويجلي الشمسَ نفسَها فنراها متوهجة؟

فقال (ليفي): نعم... نعم.

قال (جورج): أليس النهار تعريفاً هو ذلك الجزء من **الغلاف الجوي المقابل للشمس**، وفي هذا الجزء فقط تتجلى لنا الشمس ساطعة.

فقال (ليفي) بصوت منخفض: نعم هذا هو تعريف النهار.

قال جورج: فعلاً إنه فقط في ذلك الجزء فقط من الغلاف الجوي تتجلي الشمس ساطعة منيرة، أي أنَّ النهار حقاً هو الذي يُجلي الشمس كما جاء في الآية التي ذكرتَها، فهل تظن أن محمداً الأمي ﷺ يمكن بمفرده أن يصل إلى مثل هذا الوصف؟ في حين أن كثيراً من المتعلمين الآن لا يستطيعون الوصول إلى ذلك باستنتاجاتهم الشخصية.

فلم يجب (ليفي)، لكن صمته أجاب عنه.

قال أحمد: اسمعوا ما جاء في القرآن بصدد الظلام خارج الغلاف الجوي للأرض، في:

- سورة الحجر (١٥:١٤-١٥): ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

لم يستطع (دايفيد) أن يتمالك نفسه فقال: يا الله. ثم أخرج سيجاره الأول في هذه الجلسة، وتذكر الآخرون التدخين، فنظرت إلى أحمد نظرة القائل: إن الله مع الصابرين.

قلتُ قال السيد (جورج): "الظلامُ يغشى طبقة النهار على الأرض"، بمعنى أنه يوجد نهارٌ وفوقه ليلٌ وفوقه شمس، وهو بذلك نبهني لإعجاز رائع علمي آخر في القرآن، فقد جاء وصف مطابق لهذه الحقيقة في سورة الرعد (٣:١٣): ﴿...ويُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ إنَّ في ذلك لآيات لِقَومٍ يَتَفكَّرونَ﴾[٣٧٩]. وهو وصف مطابق للحقيقة بشكل يستحيل معه تماماً على محمدٍ ﷺ أنْ يعلمَ أو يفكر أن النهار الذي يراه ليس ممتداً من الأرض وحتى مكان الشمس، فكيف يذكر أن **الليل يغطي النهار ويغشاه ويحيط به حتى في وضح النهار؟**، فمن قال له هذا؟ لماذا لم يقل "يغطي النهارُ الليلَ"؟ إذا كان المقصود هو تغلُّب أحدهما على الآخر تباعاً في توالي الليل والنهار، وعندما أراد وصف هذه الحالة قال في سورة الحديد (٦:٥٧): ﴿يولِجُ الليلَ في النَّهارِ ويولِجُ النَّهارَ في الليلِ...﴾.

تاسعاً: الإسلام والمخلوق العاقل الآخر

مع الدخان الكثيف الذي كان يتدافع من مكان جلوسنا، قال (دايفيد): هل يقول الإسلام شيئاً عن إمكانية وجود مخلوقات أخرى عاقلة في الكون؟ علماً بأن علماء الفضاء شبه متأكدين، من أن ثمة مخلوقات أخرى عاقلة تسكن مكاناً ما من الكون. ويحاولون الاتصال بهم عن طريق إرسال أقمار صناعية تحمل رسائل مختلفة تُعَرِّفهم بأهل الأرض، وقد أرسلوا أجهزة تنصت فضائية لالتقاط أي موجات عن كائنات عاقلة.

فقال أحمد: أما عن إمكانية وجود مخلوقات عاقلة في الكون، فهي موجودة بصريح العبارة ففي القرآن الكريم:

(٣٧٩) جاء المعنى في "تفسير الجلالين": "يغطي الليلُ بظلمته النهارَ".

- عندما شاء الله أن يخلق آدم، حسب:

سورة البقرة (٣٠:٢): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

بما أن الملائكة لا تعلم الغيب، فكيف علمت أن ابن آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ ألا يدل هذا على أنها شاهدت في مكان ما من الكون مخلوقات عاقلة تسفك الدماء، بدليل قوله تعالى في:

- سورة الشورى (٢٩:٤٢): ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وهو عَلَى **جَمْعِهِمْ** إذا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

كلمة ﴿...فيهِمَا...﴾ تعنى في السموات وفي الأرض، **والجمع بينهم يلزم التزامن وليس التعاقب في الوجود**، والدابة هنا هي كل المخلوقات التي تدب على الأرض كالإنسان والحيوان، وليس الملائكة هم المقصودين في هذه الآية، بدليل أن الله قَسَّم المخلوقات إلى عدة فئات:

١- الدابة: التي تدب على الأرض دبًّا، فتمشي على رجلين أو على أربع.

٢- الطائرة: تطير بجناحين.

٣- الزاحفة: تمشي على بطنها.

وذلك في:

- سورة الأنعام (٣٨:٦): ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

- سورة النحل (٤٩:١٦): ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي الدابةُ تسجدُ، والملائكةُ يسجدون لله.

– سورة النور (٢٤:٤٥): ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

– وأما محاولة اتصال أهل الأرض بمخلوقات الكون الأخرى، فقد ذكر في القرآن أنَّ الإنسان أيضاً سيحاول الخروج للاكتشاف واستراق السمع على غيره من المخلوقات بقوله تعالى في:

– سورة الرحمن (٥٥:٣٣-٣٥): ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾.

هذه جملة خبرية، **والخبر في القرآن واجب الوقوع**، لقد استرق الجن السمع على كلام الملائكة، ثم نقلوه إلى أعوانهم من البشر مع بعض الإضافات لإغوائهم، ونشر الفساد بينهم، ولكن بعد ولادة محمد ﷺ وضع الله حرساً شديداً لمنعهم من الوصول إلى حدود السمع، حيث يرسل عليهم شهاباً رصداً إذا اقتربوا، كما في:

– سورة الجن (٧٢:٨-٩): ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

التنبؤ هو **للجن والإنس**، الجن استرقوا ورُجِموا، وبقي الإنس الذين تنبأ الله لهم بالنفوذ من محيط الأرض ابتداءً، وسيبدأ الرجمُ فقط إذا استطاع الإنسان الوصول إلى حدود استراق السمع لكلام الملائكة، وليس قبل ذلك، ويكفينا من هذا أنه دليل على تنبؤ القرآن بأن الإنسان سيصل إلى أعماق الفضاء، أكثر مما هو عليه الآن، بغض النظر عن أهداف محاولة الخروج إلى الفضاء الخارجي.

علماً بأن كل ما نراه من نجوم مهما بَعُدت هي في السماء الدنيا، بدليل قوله تعالى في:

– سورة فصلت (٤١:١٢): ﴿...وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...﴾.

الحقيقة أني لم أكن أود طرح هذا الموضوع، لأن المعارض للإسلام ربما ما زال لا يستسيغ الأدلة القرآنية، إلا إذا جاءت من العلم الحديث على أنها حقيقة واقعة، ولكن سياق الحديث ساقني إلى هذا، ويمكن لمن يريد العودة إليه بعد اقتناعه بأن القرآن منزَّل من الله على عبده محمد ﷺ أن يتقبل هذا التنبؤ بشكل أيسر.

عاشراً: الإسلام ومعجزات أخرى

١ – أخفض نقطة طبيعية في الكرة الأرضية:

قال (مايكل): لقد سمعت أن الآية من:

– سورة الروم (٣٠:٢-٥): ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فيها إعجاز علمي، ولكني لا أرى أين هو هذا الإعجاز.

فقلت: الحق معك والخطأ في الترجمة الإنكليزية لهذه الآية، ولذلك قصة أرويها لك:

في بداية الدعوة الإسلامية هَزَمَ الفُرْسُ الرومَ في فلسطين، عندها فرح مشركو مكة لانتصار الكفار عبدة النار على المسيحيين المؤمنين بالله، فأنزل الله هذه الآية، فاستبشر المسلمون بنصر قريب للإيمان على الكفر، وكلمة "بِضْع" عند العرب تعني عدداً من الثلاثة إلى التسعة، فكانت هذه البُشرى موضع نقاش بين

المسلمين والكفار في مكة، المشركون يَعُدُّون السنين ليُثبتوا كذب النبوءة، وكذلك يعدها المسلمون لإثبات صدقها، وبالفعل فإنه قبل انقضاء السنين التسع انتصر الرومُ على الفرسِ نصراً عظيماً، فدخل الإسلامَ كثيرٌ من المشركين، لأنهم قالوا: **ما كان لمحمد أن يخاطر بدعوته كلّها ببشارة المفروضُ أنها ستحصل في جيل محمد، فيرى النتيجة، إلا إذا أُنزلت إليه فعلاً من الذي عنده عِلم الغيب.**

تصور لو لم ينتصر الرومان على الفرس خلال هذه المدّة، ماذا كان سيحصل للدعوة الإسلامية برمتها؟

فقال (مايكل): الحرب كرٌّ وفر، والاحتمالات واردة، والمصادفة تلعب دورها، كان المسلمون سيُشيرون إلى أقل تفوق للروم على الفرس في أصغر معركة ويقولون لقد تحققت البشارة.

فقال أحمد: الحرب كرٌ وفر، لكن هذا يكون خلال المعركة الواحدة، أو بتخلخل بضعة أيام لإعادة تنسيق الصفوف، لا أن تمر بضع سنوات على معركة ذكر التاريخ عنها أنها كانت قاصمة لظهر الرومان في المنطقة، ناهيك عن المشاكل التي كانت في القسطنطينية من أجل الصراع على الحكم، وعن معرفة الفرس أن الرومان لن يسكتوا على هزيمتهم هذه، ولذلك فلا بُدَّ من أنهم قد احتاطوا وجهزوا أنفسهم وتحصيناتهم. كل هذا يجعل التنبؤ بالانتصار مرجحاً لكفة الفرس لا الرومان، واعلم أن آلاف المشركين كانوا يشترطون نصراً حاسماً للروم، ولن يقبلوا بغلبة في لقاء صغير بين الجانبين، أما انتصار المصادفات في حروب يقابل فيها الرجُلُ الرجُلَ، والسيفُ السيفَ، فهي أقلُّ بكثير من انتصار القوة والعزيمة والإيمان بالقضية والتضحية، المصادفة تكون فقط إذا تعثر القوي فقتله الضعيف.

وتابعت حديثي قائلاً: إذا كنتَ لا تقبل هذه البشارة كمعجزة لإثبات النبوة، فلا بُدَّ من أنك ستقبل المعجزة العلمية في الآية نفسها، بعد أن أشيرَ إلى الخطأ في

ترجمة النص الإنكليزي للآية. المعركة حصلت في فلسطين بين القدس والبحر الميت، ففسر المفسرون كلمة "أدنى" بمعنى أقرب الأرض (The nearest land) لأن فلسطين هي أقرب الأرض إلى الجزيرة العربية، ولم يجد أحد صعوبة في قبول هذا التفسير، مع العلم بأن كلمة (أدنى) في اللغة العربية لها معنيان الأول هو (أقرب)، والثاني هو (أخفض The lowest)[٣٨٠]، في ذلك الزمان لم يكن مقبولاً أن يؤخذ تفسيرها بمعنى (أخفض) لأنه لا تعليل له ولا سبب، ولحكمة ما فقد أخفى الله التفسير الأوسع حتى يُظهره لجيل قادم، ففي القرن العشرين عندما قاس العلماء الارتفاعات والانخفاضات، توصلوا إلى أن منطقة البحر الميت في أرض فلسطين هي أخفض منطقة في العالم، برز الإعجاز العلمي وقال المسلمون إنه مثبت عندنا في القرآن، فظهر التفسير الأكثر صحة للآية، بأن المعركة حصلت في أخفض منطقة طبيعية على سطح الأرض، وأن كلمة "أدنى" تعني هنا أخفض وليس أقرب. فمن أخبر محمداً قبل أربعة عشر قرناً، بأن هذه المنطقة هي أخفض منطقة في العالم، مع العلم أن الأمريكتين لم تكونا معروفتين حينذاك؟!.

فقال (جورج): رائع... رائع... من قال له؟ ...لابد أنه الله... لابد أنه الله.

فقلت موجهاً كلامي إلى (ليفي): أسوق لك مثالاً آخر عن أخطاء في ترجمة بعض معاني القرآن إلى لغات أخرى، وأود سماع رأيك بالذات.

فقال (ليفي): هات ما عندك، أعدك بذلك.

٢ - العنكبوت:

قلت: ورد في:

- سورة العنكبوت (٢٩:٤١): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(٣٨٠) جاء في لسان العرب مادة (دنا): دنا الشيء دنواً، والأدنى: الأسفل.

إن كلمة ﴿اتخذت﴾ العربية تُحددُ جنس العنكبوت بالأنثى، حيث يقال للذكر (اتخذ)، **لكن الترجمة لم تلتفت -عن غير قصد- إلى تحديد الجنس** وقالت: [who builds (to it self) a house]، بدل أن تقول (هي To herself)، وتوضع بين قوسين لأن (She) عادة تستعمل للعاقل، أو أن توضع كلمة (أنثى Female) بين قوسين للتخصيص، لكن المترجمين أهملوا ذلك لعدم الأهمية في ذلك الوقت، لكن بعد أن اكتشف العلماء أن أنثى العنكبوت هي وحدها التي تبني الشبكة وليس الذكَر، **برز الإعجاز العلمي في الآية وظهرت ضرورة تعديل الترجمة**، لأن غير العرب إذا قرؤوا الترجمة فلن يعلموا أن فيها إعجازاً. فما رأيك؟

قال (ليفي): تاء التأنيث في اللغة العربية تستعمل في بعض صيغ الجمع، كأن نقول: قامت الطالبات، والتاء في (اتخذت) هي للجمع وليست للتأنيث.

قلت: أراك ضليعاً في اللغة العربية، وأُفيدك أن جمع عنكبوت هو عناكب أو عنكبوتات[381] فلو جاء في القرآن "كَمَثَلِ العناكبِ اتخذتْ بيتاً"، لصدق قولك، ولكانَت التاء للجمع.

قال (ليفي): كيف يقول القرآن في الآية نفسها ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾، بينما أثبت العلم أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الحديد.

فقال (دايفيد): إن القرآن لم يقل (خيط العنكبوت)، بل قال (بيت العنكبوت)، ونعلم جميعاً أن وظيفة البيت هي حماية ساكنه من البرد والمطر والرياح والشمس، فأين بيت العنكبوت من هذا؟ كما ثَبت علمياً أن الأنثى هي التي تختار الذكر، وبعضها تأكله بعد الجماع إذا لم يحذر. وهذا جانب مهم لوهن بيت العنكبوت أيضاً.

فأُسقِطَ في يد (ليفي) ولم يجب. وكانت في عينيه نظرة اندهاش عميقة.

(٣٨١) "المنجد في اللغة والأعلام"، ص ٥٣٤، دار الشرق - بيروت.

٣ - التَّصعُّد في السماء:

قال (دايفيد): في أثناء قراءتي للقرآن أُعجبت بآية من:

- سورة الأنعام (٦:١٢٥): ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فقال (ليفي): ولماذا أعجبت بمثل هذه الآية، ومعروف أن الصعود في السماء يضيق الصدر؟

قال (دايفيد): إنه معروف لنا الآن في القرن العشرين، ولكني تصورتُ نفسي زمنَ محمدٍ، فلو أنني نظرتُ إلى السماء أو صعدتُ أعلى جبلٍ في المنطقة وهي جبالُ اليمن، التي لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر، كما أفعل في بلادي للاستجمام، وتصورت النشاط الذي سأشعر به نتيجة استنشاق الهواء الجبلي، فما كنت لأشعر بضيق في صدري، كما أن قوله في الآية (**يَصَّعَّد**) فيها تأكيد على استمرار الصعود إلى عمق السماء، وهي أشد من كلمة (**يَصْعَدُ**)، وتعبير ﴿...يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...﴾ حتماً لا يقصَدُ به الصعود على الجبل، بل الصعود المباشر في السماء.

فكيف خطر لمحمد ذلك الأمي أن يصف ما لا يمكن أن يصل إليه جسمه ولا فكره؟ إذ سيظن مثل غيره أن كل ما فوقه مهما علا سيكون مثل الهواء الذي حوله.

إن أول من شعر بذلك هو راكب أول منطاد ارتفع في السماء، وشعر أيضاً أنه إذا تصعَّد عميقاً في السماء، سيصعب عليه التنفس ويضيق صدره، لذلك نرى الطائرات الآن مجهزة بمعدِّلات للضغط والحرارة والأكسجين، حتى لا يصاب الراكب بضيق في الصدر ودوار في الرأس، لأن قلة الضغط في الأعالي تجعل

الغازات في الجسم **يزداد حجمها وتضغط على الحجاب الحاجز مما يجعل الصدر ضيقاً حَرَجاً**، علماً أن قلة الأكسجين تسبب الإغماء لعدم وصول التغذية الكاملة إلى الدماغ.

وتابع (دايفيد) كلامه قائلاً: ولذلك أتساءل من قال لمحمد، قُل إن الصعود في عمق السماء يسبب ضيقاً في الصدر؟... من يا ترى؟

لقد وضعتُ كل الاحتمالات فقلت مصادفة، وقلت رجال من الفضاء، وقلت كاهن، فلم أستطع إقناع نفسي بأي منهم، وما زلت أبحث عن الحقيقة.

قال (ليفي): لا شك في أن محمداً كان ذكياً جداً، ولا بُدَّ من أن له اتصالات خفية غير إلهية لم يصرح بها.

فقال أحمد: الدليل... الدليل؟

٤ – البَـنَـان :

قال (جورج): إني قرأت آية في القرآن البارحة أرقتني طوال الليل، فما عرفت النوم.

فقال (دايفيد) متشوقاً: ما هي أرجوك؟

قال (جورج): لقد قرأت في:

– سورة القيامة (٧٥:٤): ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

البنان هو الإصبع. قال المفسرون قديماً إن إصبع الإنسان بحجمه الصغير وحركاته في كل الاتجاهات، ووظيفته التي قال عنها العلماء: "إن حركات أصابع اليد هي سبب الحضارة الإنسانية"، ووجود ٢٠٠٠ فتحة تنفس جلدية في البوصة المربعة تقريباً، لا بدَّ يجعله من أصعب أجزاء جسم الإنسان، ولذلك فقد ضرب الله به المثل، ولكننا الآن جميعاً نعلم أن الإصبع هو أهم من ذلك بكثير، فهو عضو لا يتكرر بين البشر ويُميِّزُ بينهم حالياً في المعاملات الهامة، حتى بين التوائم

منهم، ألا وهي **بصمة الإبهام الأيسر**، التي لم يُعرف سرها إلا في القرن العشرين، فكيف ذكر محمد هذا في القرآن؟

قال (دايفيد): وأنا أضيف إلى ذلك أنه والحال كذلك فلا أستبعد أن يَكشفَ المستقبلُ أنه من بصمة الإصبع يمكن أن تُعرف كل الخصائص الوراثية الموجودة في النطفة الأم في حمض الـ DNA، وسوف يصلُ العِلمُ إلى جهاز تضع عليه إصبعك فيطبع لك جميع خصائصك الوراثية، ولقد قطع العلماء شوطاً لا بأس به في هذا الطريق.

٥ – النَّاصِـيَة:

أُعجب أحمد بتفسير (دايفيد) قائلاً: إن شاء الله، ثم قال: هناك موضوع آخر فيه ما يكفي العاقلَ ليؤمن بأن الله هو الذي نزَّل القرآن على محمد ﷺ، وبأنه رسول الله حقاً. ورد في:

– سورة العلق (٩٦:١٥-١٦): ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

وكان تفسيرُها:

– أنه لمّا كانت الناصية هي مقدمة رأس الإنسان ومكان تكريمه، فقد نُسب الأمر إليها مجازاً لا حقيقةً.

– وقال آخرون: إنها تعني ناصيةَ إنسانٍ كاذب وخاطئ.

– وتحفَّظ آخرون على قبول التفسيرين لأن القرآن نسب الكذب للناصية وليس للإنسان، وإلا لوجب القول **ناصيةُ كاذبٍ خاطئٍ**.

بقي التفسيرُ معلقاً إلى أن قام العلماء في القرن العشرين بدراسة المخ، ووجدوا أن مؤخرة الفص الأيمن والأيسر تتحكمان بالحركات الفيزيولوجية للجسم، ثم قاموا بوخز أو إلغاء بعض الخلايا الأمامية من المخ، فتوصلوا إلى أن مقدمة المخ

التي هي تحت الناصية تماماً لا تؤثر في الوظائف الفيزيولوجية للجسم، بل هي مركز قيادة تصرفات الإنسان وإرادته وتوجيهها، كما فحصوا بعض الحالات النفسية على الأشخاص الناضجين من ذوي التصرفات الطفولية، أو الأشخاص مسلوبي الإرادة، فتبين وجود قصور أو تدمير في خلايا مقدمة المخ، وتبين أنه إذا أراد الإنسان الكذب، صدر الأمر له من جزء المخ الأمامي، وإذا أراد عمل الخطأ، صدر الأمر أو صدرت الموافقة والقرار من جزء المخ الأمامي أيضاً. **إذن يمكن القول إن الناصية هي نفسُها الكاذبة، وهي نفسُها الخاطئة.**

وتابع قائلاً وإن قال أحد: إن الكاذب هو اللسان.

نقول: إن اللسان جارحةُ الكلام الصادقِ والكاذبِ، ولكن توجيه الكلام آتٍ عن طريق مركز القيادة في الناصية.

أليس هذا إعجازاً مُثْبَتاً لا يدخُله الشكُّ، يدل على أن الذي خلقَ المخ ووضعه في الناصية، هو الذي أوحى إلى رسوله محمد ﷺ أن يقول ما قال، فهز الجميع رؤوسهم بصمت رائع معجَبين بما يسمعون.

٦ – المرأة والعقل:

قطع (ليفي) هذا الصمت بقوله: ما دمنا الآن نتكلم عن العقل والمخ. فكيف يقول القرآن متهماً النساء بأنهن ناقصاتُ عقلٍ، وهن في غالب الأحيان يتفوقن على الرجال في الدراسة، أليس هذا دليلاً على وجود خطأ في القرآن؟

فقلت: إن ما قلتَه ليس من القرآن، بل هو حديث شريف صحيح رواه مسلم[٣٨٢] ونصُّه: "ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلبُ لذي لُبٍّ منكن"، وأنا متأكد من أنه بعد أن أشرح لك هذا الحديث ستوافقني عليه وسوف تَعُدُّهُ أنت بنفسك من معجزات الرسول محمد ﷺ.

(٣٨٢) رواه مسلم – كتاب الإيمان، ص ٨٠.

فقال (ليفي): هات ما عندك فإن ملايين النساء ينتظرن الجواب، ولكن احذر فقد سمعتُ كثيراً من التفاسير غير المقنعة، لا لي ولا لهن.

قلت: إن للموضوع شقان:

ـ الشق الأول: إن كلمة (عَقْل) هي من أصل عَقَلَ، أي **رَبَطَ وحَزَمَ**، إذ يقول العرب (عَقَلَ الرجلُ البعيرَ) أي ربطه، ولقد أُطلق اسم (عَقْل) تجاوزاً على مركز الربط والحزم والقرار في الإنسان وهو المخ، لأن القرار يحتاج إلى حزم، فإذا فهمنا هذا المعنى، يكون تفسير الحديث أن النساء ناقصاتُ حزمٍ وربطٍ وقرارٍ، وليس تفسيره أنهن ناقصات ذكاء وفطنة.

هذا النقص في الحزم هو بالضبط ما يلزمهن لتنمية عاطفة الأمومة، لهذا فقط تستيقظ الأم لطفلها عدة مرات في الليلة، ويهرب الأب من الغرفة، أو يغطي رأسه لأول بكاء لطفله، فليس عاراً على المرأة أن تكون أقل حزماً وربطاً من الرجل، وليس عاراً على الرجل أن يكون أقل حناناً وعطفاً، **إن ضبط الأمور على حقائقها هو الحزمُ والعقلُ**، وهو أقوى عند الرجل دون خلاف، والدليل على قصد الإسلام بكلمة (عَقْل) حسب ما عَرَّفْتُه لك، قوله تعالى عن الكفار في:

- سورة العنكبوت (٢٩: ٦٣): ﴿...بل أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

الكفار فيهم الكثير من الأذكياء جداً، ولكنهم لا يعقلون، **أي لا يضبطون الأمور على حقائقها ويُعرضون عن آيات الله.**

ـ الشق الثاني: الذي هو بمعنى **الوعي العام**. فقد قام العلماءُ بإجراء تجارب على الناس، فوجدوا أن الرجل عنده كروموزومات جنسية XY والمرأة عندها XX. وأثناء التجارب وجدوا :

١ – نساء عندهن XXX ، وعند دراستهن وجدوا أن ٢٥ % منهن عندهن نقص في الوعي العام.

٢- نساء يحملن XXXX ، كان منهن ٥٠% عندهن نقص في الوعي أقرب إلى التخلف العقلي.

٣- نساء يحملن XXXXX تكون متخلفة عقلياً.

الشيء نفسه عند الرجال حيث وجدوا :

١- رجالاً يحملون XXY أو XXXY كانوا متخلفين عقلياً بنسب متفاوتة.

٢- رجالاً يحملون XYY أو XYYY يميلون إلى قوة شخصية غير عادية تقترب من الجبروت والدكتاتورية وعقدة العظمة.

من هذا كله استنتجوا أن:

١- زيادة الكروموسوم (X) الموجود في الهرمونات المؤنثة، يؤدي إلى:

أ- عند النساء: قلة الحزم والوعي العام باتجاه التخلف العقلي.

ب- عند الرجال: التخنث وقلة الحزم والعقل للأمور، باتجاه التخلف العقلي.

٢- زيادة كروموزوم (Y) الموجود في الهرمونات الذكرية (مثل التستسترون) يؤدي إلى:

أ- عند الرجال: شدة الحزم والربط والعقل إلى حد التسلط باتجاه الدكتاتورية.

ب- عند النساء: زيادة في الحزم وضبط الأمور، باتجاه التسلط.

والملاحظ أن النساء يَقُلْنَ نريد أزواجاً ذوي شخصية قوية، والرجال يقولون نريد زوجات مطيعات لا زوجات ذوات شخصية قوية شديدة الحزم.

فلا تحزن النساء ولا يغضبن على الإسلام، إذ ليس الذكاء مقصودَ العقلِ هنا، بل الحزم والربط.

قال أحمد: أما اتهام الإسلام باضطهاد المرأة، فهذا بعيد جداً عن الواقع، إذ كرَّم الإسلام المرأة وأحسن معاملتها، وأعطاها شخصيتها وقدر مكانتها، أليس الرسول هو القائل عندما سئل من أحق الناس بحسن صحابتي فقال: «أمك وأعادها ثلاثاً، بعدها قال: أبوك»، ألم يقل الرسول «الجنة تحت أقدام الأمهات»، ألم يقل الله عن معاملة الزوجات في سورة البقرة (٢:٢٢٨): ﴿...وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾، إن الموضوع متشعب والنقاش حوله طويل يحتاج إلى وقت إضافي ولا يدخل في صلب العقيدة، لذا سنبحثه بتفصيل أكثر في وقت آخر، إذا سنحت الفرصة.

فقال (ليفي): نعم لنا عودة إليه، إذ لديَّ كثيرٌ من الاستفسارات عن المرأة في الإسلام.

٧ ـ الحديد :

قال (مايكل): أما أنا فقد قرأت في:

- سورة الحديد (٢٥:٥٧): ﴿...وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...﴾.

استوقفتني هذه الآية، فتصورت الموقف وكيفية إنزال الحديد بشكل إضافي على الكرة الأرضية كالمطر، فقلت في نفسي، هذا ما أبحث عنه، خطأ في القرآن، إذ معلوم لي أن كل معادن الأرض خرجت من باطنها، وأخذتُ أبحث في المصادر العلمية عن الحديد، فصُعقْتُ، عندما قرأت أن الحديد هو المعدن الوحيد الذي يستحيل تَشَكُّلُهُ في مجموعتنا الشمسية، لأنه يحتاج إلى ضغط وحرارة لتكوين ذراته، تزيد أربع مرات عمّا هو متوافر في المجموعة الشمسية كلّها، وأن ما هو موجود على الأرض، أصله من الشهب والنيازك الساقطة على الأرض، ومن الغبار الكوني الناتج عن انفجارات كونية لشموس أضخم من شمسنا، أي إن أصل ذرة الحديد غريب عن مجموعتنا الشمسية كلها، واستناداً إلى هذا فسر المحللون

النفسانيون البروجَ والتطلُّعَ إلى السماء، وقالوا إن كلَّ شخصٍ يَحنُّ إلى النجم الذي منه وصل الحديد الموجود في جسمه.

إن حقيقة كهذه لا يعلمها غالبية سكان الأرض الآن في القرن العشرين، ولم أستطع الهرب من التساؤل: كيف عرف ذلك الأمي، ما لا يعرفه مثقفو اليوم؟ لماذا لم يقل في قرآنه (**وأخرجنا الحديد** فيه بأس شديد)، كما قال عن الزرع والمياه؟ بل قال: ﴿...**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ** فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ...﴾، إني في حيرة. فهل من مُغيث؟

فقال أحمد: أليس في هذه الآية بالذات روعة خاصة لمن يعرف العمق العلمي لها، لماذا لا تجيب أنت عن سؤالك؟ إنك تدركه لكنك لا تجرؤ على البوح به، ربما تحتاج إلى براهين أخرى ليطمئن بها قلبك، فتجابه الأصدقاء والأقرباء بما تؤمن به.

قلتُ: وأنا أضيف إلى ما قلته، ما يلي:

تذكر كتب فيزياء الكون، ونقرأ المعلومة نفسها في الشابكة "الإنترنت"، بأن الانشطار والاندماج النووي في قلب النجوم التي هي أكبر بـ ١٠ إلى ١٠٠ مرة من شمسنا مستمر، وكذلك يستمر تخليق عناصر مختلفة، حتى تصل درجة حرارة قلب النجم نحو ٢٠٠٠ مليون درجة مئوية تقريباً، فتتخلق فيها ذرة الحديد، وهذه الحرارة غير متوافرة في شمسنا، ويقدر العلماء أن أعلى درجة حرارة يمكن أن تصلها شمسنا هي ١٠٠ مليون درجة مئوية، بعدها ستتحول إلى عملاق أحمر.

أما الإعجاز العددي فيه، فنراه إذا علمنا أنه يوجد ثلاثة أنواع متتالية من الحديد المستقر Fe56 وFe57 وFe58، ونعلم أن العدد الذري للحديد هو ٢٦، فإذا أخذنا العنصر الأوسط ممثلاً للحديد، يكون لدينا الحديد ٥٧ ذو العدد الذري ٢٦، وإذا نظرنا إلى "سورة الحديد" وأضفنا البسملة إلى عدد آياتها، نرى أن ترتيب سورة الحديد في تسلسل آيات القرآن هو ٥٧، وأن رقم الآية

المذكورة، هو ٢٦، فهل هذه مصادفة؟ أم هو قول حكيم عليم؟ الجواب عند العقلاء.

قال أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .. الدكتور استروخ وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء .. قال: لقد أجرينا أبحاثاً كثيرة على معادن الأرض وأبحاثاً معملية .. ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد .. قدرات الحديد لها تكوين مميز .. إن الإلكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد فهي محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية .. ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض .. ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧].

فقال (ليفي): لا تنفعل كثيراً، واسمع ما ورد في القرآن في:

سورة الأعراف (١٧٩:٧): ﴿...لَهُمْ قُلُوبٌ **لَا يَفْقَهُونَ بِهَا** وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾.

فهل يفقه الإنسان ويعقل بقلبه، أم بعقله الذي اتُّفِقَ على أن مركزه هو المخ؟ وكيف يكون للإنسان عيونٌ وآذانٌ سليمة، والقرآن يقول إنه لا يرى بها ولا يسمع.

فقال أحمد: علينا أن نعلم أن الروح هي التي تعقل، وأن المخ (مقدمة المخ) هو جارحة العقل، وأن الروح تسمع (عن طريق مؤخرة المخ التي تتحكم بالوظائف الفيزيولوجية للجسم)، والأذن هي جارحة السمع، لأن المجنون يسمع، وأن الروح ترى، والعين هي جارحة الرؤيا للسبب نفسه، فهل لاحظت أنك إذا سمعت من شخصين في آن واحد، فإنك تعقل ما يقوله الشخص الذي تنظر إليه ولا تُشغلُ تفكيرك بغير ما تسمعه منه، أليس هذا مطابقاً لما جاء في

الآية؟ ألا يمكن أيضاً أن يكون المقصود من الآية أننا لا نبصر بالعين ولا نسمع بالإذن إلا إذا دمجنا مع ذلك العقل، أو أنَّ المقصود بالرؤيا والسمع هنا هي رؤية البصيرة والحقيقة وسماع صوتها، لكن بعض الناس لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، إن هذه الآية هي من الآيات التي يُنتظَرُ تفسيرُها بشكل أوسع في المستقبل، مع أن البدايات قد أظهرت نتائج واعدة، فقد بدأت الآراء العلمية تظهر بعد أن اكتُشِفَ أن القلب ليس مضخة للدم فقط، بل إن فيه مراكز ما زالت تحت البحث، حيث اكتُشفت رسائل عاقلة تحملها الهرمونات من القلب إلى الجسم كله، كما اكتشف جراحو القلب أن المرضى الذين أجريت لهم عمليات تبديل القلب بقلب صناعي، ليست لديهم أية انفعالات وعواطف، فلا يفرحون لخبر مفرح، ولا يخافون من خطر ولا يحزنون لمأساة! -هذا الموضوع ما زال تحت الدراسة والتجربة-.

لقد قرأت مؤخراً في إحدى الصحف، أن امرأة تغيرت كل طبائعها بعد أن أجريت لها عملية نقل قلب، فأصبحت غليظةَ المعشرِ تدخنُ السيجار والغليون، وتتصرف في الشارع تصرفات رعناء، ولما دقق المتابعون في الأمر عرفوا أن صاحب القلب المنقول كان سجيناً شرساً مات مقتولاً في السجن.

الحقيقة أني أفكر الآن في أنه إذا كان الكذب مبنياً على قرار، والصدق مبنياً على قرار، يصدران من مركز القيادة في الإنسان، فهل الشجاعةُ والجبنُ مبنيَّان على قرار صادر من المخ؟ لماذا وفي أغلب لغات العالم يقال عن الشجاع "إن قلبه قوي"، وعن العطوف "إن قلبه كبير"، وعن العالِم "إن عقله كبير"؟.

إنَّ عِلمَ الإنسان في هذا المجال قليل، والله عنده العلم الكامل، وربما كانت هذه الآية إعجازاً علمياً لجيل قادم، يفسرها بشكل أفضل، لذلك لا تتوقع تفسيراً كاملاً في هذا العصر لكل آيات القرآن، وإلا فَقَدَ القرآن إعجازه للأجيال

القادمة، **علينا ألاّ نعصر الآية لاستخراج التفسير، فإن لذلك وقتاً يظهر فيه، متى شاء الله.**

لم يعلق (ليفي) على كلام أحمد وترك الكلام لغيره.

لم تتوضح لي شخصية (ليفي) تماماً، حتى الآن بدا وكأنه يحاول بذلك إثارة الشبهات أكثر من البحث عن الحقيقة، ولكنني ضمنياً كنت سعيداً بكل ملحوظة قالها، وكنت أكثر سعادة إذ وُجِدَ لكل سؤال جواب لأنها أسئلة ستصادفني في حياتي، وأجوبتها تحميني من أي هجوم على عقيدتي التي سأهتدي إليها، بينما شخصيات الآخرين كانت أكثر وضوحاً، وأصدق بحثاً عن الحقيقة من خلال محاولاتهم الفردية في البحث والتقصي والمناقشة مع الذات.

لاحظت في وجوههم جميعهم علاماتِ الإرهاق، فقلت: في الأسبوع القادم، وفي المكان نفسه، والساعة نفسها؟

قال (دايفيد): سوف نستجمع معلوماتنا عن الإنسان فلا بُدَّ من أن فيه كثيراً مما يهمنا.

قال أحمد: أود في بداية الجلسة القادمة أن أُتمّ بعض الآيات عن الأرض.

غادر (مايكل) و(ليفي) وبقي (جورج) و(دايفيد) وأخذنا نتكلم حول موضوعات عامة عن الإسلام لا علاقة لها بالإعجاز العلمي، ولذلك لم أُسجّل الحديث.

٨ ــ السحاب :

لأول مرة منذ عامين يهطل المطر، منظره رائع من خلف نافذة المطعم في الطابق العشرين من الفندق، حيث أرى منظراً يلخص حضارة مدينة كاملة، من (بيوت الشَّعر)... إلى ناطحات السحاب، ومن الحارات والأزقة... إلى الشوارع الواسعة والجسور والأنفاق، كنت أتمنى أن يتأخر الأصدقاء... لم تدم فرحتي طويلاً... جلسنا... أخرجنا أوراقنا من الحقائب المبلّلة.

قال أحمد تكملة للموضوع السابق: لقد تكلّم القرآن في مجال كان أهل البادية يهتمون به دون دراسة له، وهو السحبُ وأنواعها. فذكرَ سُحُباً ركامية، وسحباً طبقيةً، وسحباً مُعصرة، وتكلم عن تشكيل السحب. والآن أكد العلم الحديث كلَّ ما جاء في القرآن عن هذا الموضوع. فقد ورد في:

– سورة النور (٤٣:٢٤): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.

– سورة الروم (٤٨:٣٠): ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

– سورة النبأ (٧٨:... ...

فتدخل (ليفي) قائلاً: وهل في هذا أيضاً إعجاز علمي، ألا ترى أن محمداً لو استلقى على ظهره وهو يرعى الغنم، أو كان وحيداً في غار حراء لا عمل له غير ذلك، لراقب السماء ويرى السحب المتفرقة، تتجمع وتكوّن سحابة واحدة يتراكم بعضُها على بعض، وتُكوّن جبالاً من السحب يَخرجُ منها المطر، وأحياناً ينـزل البَرَدُ وتُبرق السماء، ولشاهد نوعاً آخر من السحاب لا يتجمع متراكماً على شكل جبال، بل ينبسط فيغطي السماء كلَّها، يخرج منها المطرُ خفيفاً يَستبشر به المزارعون، لم ير فيه أي بَرَد أو برق يرافق مثل هذه السحب، شاهد كل هذا أو سمع عنه من كبار السن، فكتبه في قرآنه بلغة بليغة، فأي إعجاز في ذلك؟

فقال أحمد: لقد وفرت عليَّ كثيراً من الكلام، مع أن الموضوع ليس بهذه السهولة التي ذكرتها، هل سألت (نيوتن) لماذا اكتشف قانون الجاذبية عندما شاهد تفاحة تسقط؟ ألم يشاهد المطرَ يسقط، وأحجاراً تسقط، وتفاحة قبلها تسقط؟ ألم

يلعب (أرخميدس) بطاسة الحمام قبل أن يكتشف قانونه الشهير، فقال: وجدتها وجدتها؟

اعلَمْ أن هذه القوانين قد جاء وقت خلقها فظهرت، وما أكثر الاكتشافات دون قصد، وخاصة في مجال الأدوية. يطورون مواد قاتلة للفئران فيكتشفوا دواءً جديداً لمرض آخر لا علاقة له بموضوع الأبحاث.

وحتى لا نخرج عن دائرة الحديث أقول لك: إنما ليست مسألة **شاهد فكتب**، فلقد شاهدَ غيرُ محمد ﷺ كثيرون، وكانوا من أصحاب اللغة البليغة ولم يكتبوا. إنما هي آيات يوردها الله على لسان رسوله محمد ﷺ تأييداً له.

قال (جورج): لنرى ما يقوله العلم عن تلك السحب، حيث تقول الكتب، بأن المتخصصين اتفقوا على وجود ثلاثة أنواع أساسية للسحب، وهي:

١ـــ السحب الركامية (Cumulous):

تَمتد حوالي ٨-١٠ كيلومتر مربع، وتتصاعد عمودياً لعدة كيلومترات، وتتألف

من ثلاث طبقات:

أ – الطبقة السفلى مملوءة بنقاط متناثرة من الماء.

ب– الطبقة الوسطى فيها بخار ماء درجة حرارته أقل من الصفر، بسبب انخفاض الضغط، وهذا البخار إذا اصطدم بجسم صلب يتجمد عليه فوراً ويغلفه، ويتحول إلى جليد.

ج– الطبقة العليا فيها بلورات ثلجية منخفضة الحرارة.

تتجمع بلورات الطبقة العليا بعضها إلى بعض، فتثقل وتنزل إلى الطبقة الوسطى، فيتجمع حولها بخار الماء منخفض الحرارة، فيزداد حجمها، ويتكون

البَرَدُ فتثقل وتنـزل إلى الطبقة السفلى، فتتجمع حوله نقاط الماء، ويصبح جاهزاً للنـزول، فإما ينـزل المطر أو لا ينـزل.

تبين للعلماء أنه توجد في هذه الجبال من السحاب تياراتٌ هوائية صاعدة، وذلك بسبب الهواء الأقل برودة، الذي يتبادل الأماكنَ مع الهواء البارد النازل من الطبقات العليا، وهكذا تتكون تيارات قوية جداً، وبما أن الصعود والنزول مستمر، فتصعد كرة البَرَدِ إلى الأعلى مع التيار، فيحيط بها مزيد من الجليد فتكبر، فتنـزل إلى الطبقة الوسطى، فيرفعها التيار إلى الأعلى، وهكذا حتى تحين لحظة النـزول إلى الأرض.

٢ـ السحب المنبسطة (Cirrus): تمتد أحياناً مئات الكيلومترات المربعة، مطرها خفيف على الزرع غير ضار به.

٣ـ الإعصار (Tornado): هي سحب ماطرة تصاحبها رياح عاصفة شديدة، غالباً ما تكون ضارة للزرع والممتلكات.

فقال أحمد: نرى بكل وضوح أن القرآن كان أول من وصف وصنَّف تلك السحب، قبل العلم الحديث بمئات السنين.

ثم وجه كلامه إلى (ليفي) قائلاً: ليتك انتظرت حتى تسمع عن السحب المعصرة، فقد جاء في القرآن في:

ـ سورة النبأ (٧٨:١٤-١٦): ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

معلوم أن هذه السحب لا تتشكل إلا في المناطق الاستوائية بسبب ظروف الرياح والحرارة والرطوبة، وتكون أمطارها عادة غزيرة جداً، ولكن بشكل متقطع، وهذا بالضبط المعنى اللغوي لـ(ثجاجاً)، وكأنما تُعصرُ السُحبُ عصراً، فينتج عنها نمو غزير في الأشجار فيلتف بعضها على بعض، وتكوّن غابات ألفافاً.

فهل سمعت عن غابات ألفاف في المناطق الصحراوية التي نشأ فيها أو وصل إليها محمد ﷺ؟ وهل تظن أن هذه السحب مَرَّت من فوقه وهو مستلقٍ على ظهره يرعى الغنم وهي في طريقها إلى المناطق الاستوائية؟ لو انتظرت قليلاً لسمعت ما ورد في:

ـ سورة الحجر (٢٢:١٥): ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

ولقد أثبت العلم الحديث أن المطر ما كان لينـزل، لو لا وجود حبوب لقاح السحب، وهي حبات رمل أو ملح مجهرية الحجم أو رماد وغبار بركاني عالق في الجو، تسوقه الرياح معها فتصادف سحابة، فتتكثف قطرات الماء على حبوب اللقاح حتى يثقل وزنها وينـزل المطر بإذن الله فقط، وفي هذا يكمن الإعجاز والتحدي، فما علاقة الرسول ﷺ وطبيعة حياته بحبوب لقاح الغيوم، كأحد أسباب هطول المطر؟ ولماذا يتعرض لها أصلاً، لو كان هو مؤلف القرآن؟

فقال (ليفي): إن الله وضع القوانين، والكونُ يسير عليها، الله وضع الجاذبية فتسقط بفعلها الأشياء، والإذن أعطاه الله عندما وَضع القانون، وأي حجر يسقط للأعلى يكون بإذن خاص من الله لهذه الحالة الخاصة، لأنه خرق القانون، ويكون هذا العمل معجزة للوسيط، والشيء نفسه بالنسبة للمطر، فقد وضع الله الشروط اللازمة لنـزول المطر من حرارة وضغط وحبوب لقاح وغيره، فعندما تتحقق هذه الشروط ينـزل المطر، والإذن معطى أيضاً عند خَلْقِ هذه الشروط، فلماذا تُصرُّ على ذكر (بإذن الله فقط)؟ نحن نعلم مسبقاً أن كل شيء هو بإذن الله.

فقال أحمد: إن ما ذكرتَه يفتح أمامنا بابَ بحث طويل، وهو موضوع المشيئة والإرادة والعلم الإلهي، وعلى كل حال فسوف أُوجز جداً حتى لا نخرج عن الموضوع:

شاء الله، ووضع خطة للكون، من بدايته إلى نهايته، وخلق قوانينه بكامل

مشيئته وإرادته، وأعطى الاختيار للإنسان في جزء من حياته وفي كامل تصرفاته وأرشده إلى طريق الصواب، ودلّهُ على الخطأ.

بعلم الله لا بإرادته، كتبَ اللهُ اختيارَ الإنسان، فامتلأت فراغات مجال اختيار الإنسان في اللوح المحفوظ، بذلك تكون المخلوقاتُ ذاتُ الإرادة قد شاركت بشكلٍ غير مباشر فيما هو موجود في اللوح المحفوظ، وذلك بتعبئة الفراغات الخاصة بها بتصرفات اختارتها هي بإرادتها الممنوحة لها من الله، فكَتَبَها اللهُ في اللوحِ المحفوظ بعلمه للغيب.

هنا أشير إلى ما قلته عن الإذن الإلهي فإن كنت تظنُ أن الله كتبَ اللوحَ المحفوظ، ثم تخلى عن متابعة أحداثه، تكونُ مخطئاً، وتابعاً للآراء الفلسفية التي تقول: "لا حاجة لنا بالإله بين خلق الكون وإنهائه"، **اعْلَمْ أن الإرادة التي صدرت لفعل أمر ما الآن هي إرادة قديمة، ولكن تنفيذ هذه الإرادة هو الآن، والله يفعل ويُنفِذُ الآن[٣٨٣] الإرادةَ التي قررها في اللوح المحفوظ**، ولا مانع من أن يتدخلَ في كل مرة ليعطي إذنه الآن لينـزل المطر، وليكون هذا الإذن أحد التحديات الإلهية للإنسان الناكر لفضل الله عليه، وصعقه له بعدم معرفة أمرٍ كان يظنه سهلاً ويتكرر حدوثه كثيراً، وأيضاً واحداً من الشروط اللازم تحقيقها لنـزول المطر منها الضغط والحرارة، فأين المشكلة؟ واعلم أن وقت نزول المطر هو واحد من خمسة تحديات تحدى الله بها الناس، جاءت في:

- سورة لقمان (٣٤:٣١): ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

- سورة الأنعام (٥٩:٦): **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾**.

(٣٨٣) بمفهوم وحداتنا الزمانية، حيث إن الله منـزه عن الارتباط بأي نوع من الزمن.

الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله، لا يعلم **ما في غد إلا الله**، ولا يعلم **ما تغيض الأرحام** إلا الله، ولا يعلم **متى ينـزل المطر** أحدٌ إلاّ الله، ولا تدري نفسٌ **بأي أرض تموت**، ولا يعلم **متى تقوم الساعة** إلا الله"[٣٨٤].

المجال مفتوح لمن يقبل التحدي، وهو قائم إلى يوم القيامة؟

فقال (دايفيد): وماذا عن المطر الصناعي؟

فقلت: لو كانت فكرة المطر الصناعي صحيحة، لرأيت بلداً مثل الذي نحن فيه أكثر اخضراراً عما هو عليه الآن، إنها فكرة قامت في الستينات من القرن العشرين بناءً على ما توصل إليه العلم المادي بعد دراسات كثيرة، حُدِّدَتْ فيها شروط هطول المطر، ثم تعجب العلماء لأن الشروط تتحقق ولا ينـزل المطر، فقالوا: لا بُدَّ أنه ينقصها حبوب لقاح، فأطلقوا قذائف تحمل حبوب اللقاح المطلوبة أو نثروها من الطائرات، فكان نجاحهم بنسبة ضئيلة لا تُذكر، وعند النجاح النادر كان يسقط رذاذ (خفيف) ما يلبث أن ينقطع، أو يُطلب المطر في مكان فينـزل في مكان بعيد عن المطلوب.

كثُرت الدعاوى التي أقامتها الدول الصحراوية، أمام المحاكم الدولية ضد شركات استمطار السحب، فأصدرت الأمم المتحدة بياناً تعلن فيه أن استمطار السحب غير ناجح، ومنعت الشركات العاملة في هذا المجال، وتوقفت عن قبول أية دعوى من هذا النوع.

فقال (دايفيد): بالفعل فأنا لم أسمع منذ زمن طويل عن محاولات لاستمطار السحب.

فقال أحمد وكما قال السيد (جورج): وهل تعلم بأن الأبحاث أثبتت أن البرَدَ

(٣٨٤) رواه البخاري في صحيحه، جزء ٤ ص ١٧٣٣.

يمكن أن يصل إلى حجم البرتقالة، ومع ذلك لا ينـزل دائماً على الأرض، إذ تُصادفه تيارات هوائية صاعدة تعيد البَرَدَ إلى أعلى السحابة، ثم يعود البَرَدُ ليسقط، ثم ترفعه التيارات الصاعدة، وهكذا، لا أحد يعلم متى ينـزل البَرَدُ، يقول علماء الأرصاد نحن نعلم أن في هذه السحابة بَرَداً ولكن لماذا لا ينـزل؟... هذا ما لا نعلمه. لقد صدق الله عندما قال: ﴿...**فَيُصِيبُ** بِهِ مَنْ يَشَاءُ **وَيَصْرِفُهُ** عَنْ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إذا علمنا عن الخسائر الفادحة التي يسببها البَرَدُ للبشر.

قال (جورج): توجد أقمار صناعية ومحطات لدراسة الطقس وطائرات، وهناك مناطيد خاصة للطقس وتوجد نقاط قياس في كل أنحاء العالم، حتى في (سيبرية)، ليست لإثبات صحة الآية أو خطئها، بل لمعرفة الطقس من أجل سلامة الطائرات وتوجيه السفن، وبناءً على هذه المعلومات تصدر نشرات التنبؤ بالطقس وتحركات الأعاصير والرياح ومع ذلك اعترفوا بعدم امكانية معرفة تحديد دقيق لنـزول المطر.

يقول علماء الطقس: لقد استطعنا تحديد درجة الحرارة والضغط بدقة عالية، واستطعنا تحديد وقت الخسوف والكسوف بالثانية ولو بعد مئة سنة، ولكننا دائماً نفشل مع المطر، نقول: سينـزل المطر فلا ينـزل، ونقول: سيهطل صباحاً فيهطل مساءً، ولذلك تقول نشرات الأخبار: غداً الحرارة كذا والضغط كذا و**يحتمل** نزول المطر في شمال أو جنوب أو وسط الدولة، ولا تحدد النشرة المدينة أو القرية باسمها، أو الوقت بدقة، كما في الخسوف والكسوف.

فقال أحمد: لقد أعطى الله الإنسان معرفة الكسوف والخسوف بدقة متناهية، وحجب عنه معرفة ما هو قريب منه، وكثيرُ الحدوثِ، وهو معرفة وقت نزول المطر، حتى لا يغتر بعلمه مهما علا، وجعل من هذه المعرفة تحدٍ إلى يوم القيامة، بالقدرة نفسها التي جعل فيها الإنسان يسيطر على الفيل الضخم ويدربه، لكنه يعجز عن تدريب ذبابة.

ألا ترى أن هذا تحدٍّ مفتوحٌ إلى يوم القيامة، هل من دليل أقوى على وجود إعجاز قرآني في معرفة ضرورة حبوب اللقاح والتحدي المفتوح لمعرفة وقت نزول المطر؟

٩- الْحِجَارَةُ وَقُودٌ لِجَهَنَّمَ:

يقول "ليفي" ناظراً إليَّ قاصداً إحراجي: لا بد أنك قرأت في القرآن:

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٤].

نعلم أن عموم الناس يمكن أن يكونوا وقوداً للنار؛ لأن أجسادهم قابلة للاحتراق، فتغذي النار، ولكن كيف تكون الحجارة وقوداً للنار؟

أما "ابن كثير" فقد قال في تفسيره: "المراد بالحجارة هنا، حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا الله منها"، وجاء في تفسيره أيضاً: "فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار".

وقال مجاهد: "حجارة من كبريت أنتن من الجيفة".

وقال أبو جعفر محمد بن علي: "حجارة من كبريت".

وقال ابن جريج: "حجارة من كبريت أسود في النار".

ورجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها، قال: "ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها".

وجاء في تفسير الجلالين: "(والحجارة) كأصنامهم منها، يعني مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه".

وهذه التفاسير كلها غير مقبولة لبعدها عن المنطوق الصريح ".. وقودها ..".

الذي لا يقبل تأويلاً بأن الحجارة إنما تحمى لتكون أداة عذاب، ونعلم أن الأداة غير الوقود، كما أن عدم تخصيص نوع معين من الحجارة في الآية يشير إلى عموم صنف الحجارة، وليس حجر الكبريت فقط كما ورد، وما "الـ" التعريف هنا إلا للدلالة على صنف المادة، وليس على نوع خاص منها، وجلي أن عموم الحجارة ليست قابلة للاحتراق.

وعقب "ليفي" مبتسماً ابتسامة لها ألف معنى: هذا خطأ واضح في القرآن، فما تقول في هذا؟

عدلت جلستي، ثم أخذت ثلاث جرعات من كوب ماء في الطرف الآخر من الطاولة، علي أكسب بعض الوقت أستجمع فيه شتات أفكاري؛ لأن الجواب يحتاج إلى تركيز مضاعف، ثم قلت: أما تأويل علماء الدين فهو يناسب عصرهم، والقرآن حمال أوجه في التأويل، يتقبل تأويلهم المؤمنون، أما أن نجابه به غير المؤمنين في نهاية القرن العشرين، فعلينا الانتقاء والاحتياط.

إن في هذه الآية دليلاً آخر من أروع الأدلة على أن القرآن كلام الله؛ لأن فيها إعجازاً علمياً يخص حدثاً علمياً حديثاً، عُدَّ طفرة قوية في علوم القرن العشرين، ألا وهي النظرية النسبية للعالم العبقري آينشتاين، ولتوضيح الأمر نقول: إن الانفجارات الحرارية النووية ما هي إلا تحول للمادة إلى طاقة حسب القانون الشهير لآينشتاين ($E=m.c^2$)، فانشطار ذرة اليورانيوم ($_{٩٢}U^{٢٣٥}$) الذي يعد أثقل العناصر (وزن ١ متر مكعب يساوي ٢٠ طناً)؛ إذ تحتوي نواته على ٩٢ بروتوناً و١٤٦ نيوتروناً، إلى ذرة كريبتون ($_{٣٦}Kr^{٩٢}$) وذرة باريوم ($_{٥٦}Ba^{١٤١}$)، ويؤدي هذا الانشطار إلى تولد طاقة حرارية وإشعاعية ضخمة جداً بفقدانها ما يعادل خمس كتلة البروتون منها، التي تتحول إلى طاقة تعادل

٢٠٠ مليون إلكترون فولت[٣٨٥]، وكذلك اندماج ذرتين من الهيدروجين وهو أخف العناصر (١ بروتون + ٠ نيوترون + ١ إلكترون)، فينتج ذرة هيليوم واحدة (٢ بروتون+٢ إلكترون) بالإضافة إلى طاقة هائلة فائضة، تستخدم كقنابل هيدروجينية.

وهكذا نرى أن أخف العناصر كتلة وأثقلها كتلة، يمكن أن يكون مصدر طاقة هائلة، فلا يمنع أن تكون عموم المادة –الحجارة– قابلة للتحول إلى طاقة مروعة تحت ظروف حرارية تتوفر في جهنم، لتكون غذاء ووقوداً لها، وما اكتشاف آينشتاين لقانون يحدد مقدار الطاقة التي تحملها كل كتلة، إلا تتويجاً وتفسيراً وإثباتاً بأن المادة هي وقود، بالإضافة إلى ملاحظة أن جزءاً صغيراً فقط من الكتلة يتحول إلى طاقة هائلة، فكيف ستكون الطاقة لو تحولت كل الكتلة إلى طاقة؟

وهنا يجب على كل عاقل ذي منطق سليم أن يسأل نفسه: لماذا يحرج الرسول نفسه بطرح ما يخالف بديهيات علوم زمانه؟ ومن ذا الذي أوحى للرسول محمد، أن يقول ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؟ وهو في غنى عن القول، أم أن الرسول الأمي كان يعلم من علوم الفيزياء أكثر من علماء القرن العشرين؟؟!!. فبهت "ليفي" وأخذ ينظر إلى سقف المجلس عله يرى مهرباً يقيه الإحراج مما سمع، وابتسم "دايفيد" فرحاً، واستغرب "جورج" و"مايكل"، ونظرا أحدهما إلى الآخر متسائلين ومشدوهين.

تدخل دايفيد قائلاً: إن الحديد هو الفاصل بين العناصر القابلة للاندماج والعناصر القابلة للانشطار، فالعناصر الأخف من الحديد في "جدول مندليف"

(٣٨٥) إلكترون فولت (eV): كانت وحدة الطاقة بالجول كبيرة جداً عند تطبيقها على الجسيمات الأولية والذرة، لهذا اخترع الفيزيائيون وحدة قياس للطاقة الصغيرة، لتسهيل الحسابات عند دراسة الذرة ونواة الذرة والجسيمات الأولية، وتعريفاً هو: كمية الطاقة الحركية التي يكسبها إلكترون واحد، عند تسريعه في الفراغ بواسطة جهد كهربائي ساكن قيمته١ فولت. يستعمل العلماء في عملهم وحدة "الإلكترون فولت eV"، في حين يرمزون للألف إلكترون فولت بـــKeV، ومليون إلكترون فولت بـــMeV، وهكذا.

تنتج طاقة هائلة عند دخولها تفاعل اندماج نووي (Fusion Reactions)، يكون مصدراً للطاقة في النجوم والقنابل الهيدروجينية، أما العناصر الأثقل من الحديد فهي التي تنتج الطاقة النووية في تفاعلات الانشطار النووي (Fission Reaction)، وهكذا فإن أساس إنتاج الطاقة هو المادة كل المادة الممثلة بالحجارة.

يضيف أحمد قائلاً: لنستعرض الآية الكريمة من أولها، إذ تقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧]، فنرى أنَّ الله يذكر إنزاله للكتاب والميزان، وبعدها مباشرة يذكر إنزال الحديد، إعجازاً علمياً، وكأنه يقول لأصحاب العقول إن دليلي على أن الكتاب مُنَزَّلٌ من عندي، هو الإعجاز الذي يليه، وقد تركتكم تكتشفونه بأنفسكم، فكيف تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعضه؟

١٠- سرعة الضوء:

ابتدأت بالكلام ناظراً إلى "ليفي": إنه كان حدثاً علمياً كبيراً عندما قاس العلماء سرعة الضوء، ثم جاء "آينشتاين" ليقول إن سرعة الضوء ثابتة، ولا يمكن الوصول إليها ولا تجاوزها، ثم جاء الدكتور "جواو ماغيجو" أستاذ الفيزياء النظرية في "امبريال كولدج" في لندن ليؤكد قياس سرعة الضوء، لكنه قال: إنها متغيرة، وذلك في كتابه الصادر عام ٢٠٠٧م: "Varying of speed of light".

كل هذا عظيم ورائع، خاصة وأنه إضافة أكثر من هائلة إلى إعجاز القرآن العلمي، وإثباتاً آخر لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣/٤١]، إذ كشف الله لهم حديثاً، معلومة علمية كان قد نوه عنها في القرآن، فقد حدد في القرآن سرعة الضوء قبل العلم بأربعة عشر قرناً، ولم يخطر ببال أحد أنها تعني سرعة الضوء، إلا عند الاكتشاف، وذلك بقوله تعالى:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥/٣٢].

وللتفسير نقول إن:

- اليومَ في العلم هو: ٢٣ ساعة و٥٦ دقيقة و٤,٠٩٠٦ ثانية؛ أي اليوم هو ٨٦١٦٤,٠٩٠٦ ثانية.
- سرعةَ الضوء كما حددها معهد الدائرة الوطنية للمقاييس الأمريكية هي: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٧٤ (±) ٠,٠٠١١ كم/ثا.
- سرعةَ الضوء كما حددها مختبر الفيزياء الوطني البريطاني هي: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٩٠ (±) ٠,٠٠٠٨ كم/ثا.
- السنة في الإسلام هي ١٢ شهراً قمرياً.
- المسافة التي يقطعها القمر حول الأرض في الشهر الوسطي، هي: ٢١٥٢٦١٢,٣٤ كم، فتكون المسافة التي يقطعها القمر في ١٠٠٠ عام هي: ٢١٥٢٦١٢,٣٤ × ١٢ × ١٠٠٠ = ٢٥٨٣١٣٤٨٠٨٠ كم.
- نعلم أن السرعة = المسافة مقسومة على الزمن؛ أي: ٢٥٨٣١٣٤٨٠٨٠ كم \ ٨٦١٦٤,٠٩٠٦ ثانية = ٢٩٩٧٩٢,٤٩٩٤ كم/ثانية.

ونعزو الفرق الضئيل جداً، إلى الاختلاف في حسابنا لعدد أيام السنة القمرية.

فهل من متعظ؟

يقول "ليفي" بزهو وكأنه اكتشف كنزاً: لكن جاء في القرآن أيضاً: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤/٧٠].

فكيف يقول مرة ".. أَلْفَ سَنَةٍ ..", ومرة أخرى ".. خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"؟ واليوم واحد.

قلتُ: إن الجواب في: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣/٤١]، ولتعلم بداية:

- أن الزمن نسبي حتى قبل أن يعلنه "آينشتاين" في نظريته النسبية، وهذا ما نحسه جميعاً، إذ تمر ساعة سرور كدقيقة، ودقيقة قلق كيوم، بالإضافة إلى قوله في السجدة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥/٣٢]، في حين قال في المعارج: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤/٧٠]، ولم يذكر "مِمَّا تَعُدُّونَ"، مما لا ينفي احتمال أنه يتكلم عن سنة غير التي نعد، وهذا ما ستريه لنا الأيام.

- إن كل الكتب العلمية المتخصصة تقول بأنه بعد ١٠\١١ ثانية من "الانفجار الكوني الأول"، بلغ توسع الكون مليارات الكيلومترات، ولا يتحقق هذا إلا بوجود سرعة أعلى بكثير من سرعة الضوء، مما جعل بعض العلماء يتكلمون على سرعات أعلى من سرعة الضوء، لكن لم يحددوها. وما دام أن العلم لم يحدد بعد مقدار تلك السرعة، فنحن ننتظر، إذ ربما يكون هذا إعجازاً لجيل قادم، وغالباً لن يكون بعيداً.

عقب "دايفيد" قائلاً: عظيم .. عظيم، وصمت الباقون حائرين، مذهولين ومستغربين.

الحادي عشر: الإسلام وعلم الأجنة[٣٨٦]

قال (ليفي) موجهاً كلامه إلى أحمد: أنتَ قلتَ إن أحد مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله هو وجود ما في الأرحام، فكيف يكون ذلك؟ والطب الحديث يخبر الأم عن جنس جنينها ذكراً كان أم أنثى، وهي ما تزال حاملاً به.

عدَّل أحمد من جلسته وأخذ رشفة من العصير وقال: إن سؤالك هذا هو جزء من موضوع طويل عن تطور الجنين، لقد جاء في:

- سورة الرعد (٨:١٣): ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

أي إن هناك ثلاث مراحل للجنين:

- مرحلة الحمل.
- مرحلة الغيض والتخلق.
- ثم مرحلة الازدياد وهي مرحلة نمو الجنين.

القرآن لم يحدد المرحلة التي يختص الله فيها بعلم ما في الأرحام لأن علمه يشمل كل المراحل، أما التخصص الإلهي في العلم فقد شرحه الرسول ﷺ في حديث شريف خاص، كما هي الحال في كثير من الأمور التي جاءت مختصرة في القرآن، وجاء شرحها في الحديث، كما تَشرحُ القوانينُ الدستورَ، فإننا تنفيذاً لما جاء في:

- سورة الحشر (٧:٥٩): ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٣٨٦) المعلومات العلمية المذكورة في هذه الفقرة تراها في:
- كتاب "إعجاز القرآن في خلق الإنسان": للدكتور محمد كمال عبد العزيز.
- كتاب "الإعجاز العلمي في الإسلام": محمد كامل عبد الصمد.
- كتاب "خلق الإنسان كما نحاول أن نتبينه في القرآن": للدكتور زهير كمال أبو كويك.

نأخذ ما قال الرسول في الحديث الشريف: "...ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله..."(٣٨٧).

هنا يكون تَفَرُّد الله وحدَه بالعلم، وهذه المرحلةُ تبدأ حسب قول العلماء من لحظة دخول ماءِ الرجلِ المرأةَ، ثم غَيضُ الرحم لماء الرجل (أي ابتلاعه لداخله) إلى لحظة التعلق داخل الرحم، حيث تبدأ مرحلة التَخلُّق. إذ جاء في:

سورة هود (١١:٤٤): ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ...﴾.

أي نَقصَ الماءُ وغَار وغاصَ وابتلعَتهُ الأرضُ.

قلتُ: سمعت أن فترة تفرُدِ الله بالعلم بما في الأرحام، تنتهي لحظة إعلام الله للملَك أن الجنين ذكرٌ أو أنثى ويكون ذلك في اليوم الثاني والأربعين من الحمل وذلك حسب الحديث الشريف الذي رواه مسلم عن ابن مسعود، أن الرسول قال:

"إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها ولحمها وجلدها وعظامها ثم قال يا رب أذكرٌ أم أنثى فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملَك..."(٣٨٨).

وقرأت عن مُسلم أيضاً أن الرسول قال:

"إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب

---

(٣٨٧) انظر ص ٥٦٥ من هذا البحث، الهامش رقم ٣٨٩.

(٣٨٨) رواه ابن حبّان في هذا اللفظ – اسناده صحيح على شرط مسلم – وأخرجه مسلم في "كتاب القدر" - باب كيفية خلق آدم.

عملَهُ ورزقَهُ وأجلَهُ وشقيٌ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح..."(٣٨٩).

فقال أحمد: أنت تلاحظ أن الحديث الأول يتكلم عن إتمام الخلق في بطن الأم كالسمع والبصر والجلد واللحم والعظام والذكورة والأنوثة، وأما الحديث الآخر فيتكلم عما بعد الولادة كالرزق والأجل والعمل والسعادة أو الشقاء ولا أرى تضارباً بين الحديثين.

قال (دايفيد): ماذا عن تحديد مرحلة التخصص حسب الحديث الأول بـ(٤٢) يوماً وهذا يشمل حسب تعريفك كامل مرحلة التخلق.

فقال أحمد: كما جاء في الحديث الشريف ترى حوارات بين الله والملائكة كقوله تعالى (كيف وجدتم عبادي...) طبعاً هذا لا يدل على عدم علم الله بأحوال عباده ولكن لغرض نقل الصورة إلى البشر، وربما **-وأؤكد على ربما-** يكون هذا الحوار مع المَلَك للغرض نفسه لتعليمنا ونقل المعلومات إلينا عن طريق الحوار، لكن السائد حتى الآن هو أن فترة تفرد الله بالعلم بما في الأرحام من اختصاص الحديث الأول، حيث عندها فقط يخرج تفرد العلم بما في الأرحام إلى علم الملائكة وإلى الجن، والله أعلم.

إن كل العلماء اليوم يُقرون أنه يستحيل على أي إنسان زمن محمد ﷺ أن يُقرر عمر الجنين إلا باحتمال فرق واحد وعشرين يوماً، حتى إن المرأة نفسها لا تعرف إلا إذا انقطع عنها الحيض، وهي لا تستطيع تحديد الحمل هل حصل في بداية الطهر أم في نهايته.

وعقب أحمد قائلاً: آمل أن أكون قد أرحتك بهذا الجواب.

فقال (جورج): بشكل جيد.

---

(٣٨٩) أخرجه البخاري في كتاب "بدء الخلق": ٦-باب ذكر الملائكة.

قال (دايفيد): لي ملاحظة هامة حول الموضوع نفسه، لماذا نَعُدّ أننا إذا علمنا أن ما في بطن الأم ذكراً كان أم أنثى نظن أننا علمنا ما في الأرحام؟ ألا تظنون أن **جنس الجنين هي صفة واحدة من صفاته، أين معرفتنا بالصفات الأخرى طويل أم قصير، عبقري أم عادي، عصبي أم حكيم وغيرها من الصفات؟ ولماذا نحصر علم الله في الذكورة والأنوثة فقط، ثم نراهن على التحدي؟ أليس هذا نقصاً في تفسير الآيات والأحاديث؟**

فقال أحمد: أصبت وهي ملاحظة رائعة.

قال (جورج): إن العلم الحديث استطاع تجميد النطفة، لاستعمالها بعد فترة أطولها (حتى الآن) خمس سنوات؟ كما استطاع العلماء أخذ خلية واحدة من البويضة الملقحة بعد انقسامها وحددوا جنس الجنين.

قال أحمد: أما عن تجميد النطفة فإنه ليس في القرآن ما ينفي أو يرفض إمكانية ذلك، ولكن الاختلاف هنا هو اختلاف شرعي، وليس اختلافاً علمياً، فالإسلام يَعُدُّ عقد الزواج منتهيا لحظة وفاة أحد الزوجين، وأي لقاح من الزوج للزوجة بعد وفاته يعد لقاحاً غير شرعي.

وأما عن أخذ خلية واحدة من البويضة الملقحة، في مرحلة الغيض دون تشويهها -إذا صح ذلك- فلن يثبت خطأ في القرآن حتماً، بل سوف يجعلنا نفهم الآية أكثر، فنبحث عن تحديد لبداية فترة الغيض بشكل أدق، وتكون الفكرةُ التي طرحها (دايفيد) هي أكثر صحة، علماً أن تفرُّد علم الله بما في الأرحام لا يرتبط بالغيض فقط وقت الحدث، فهو يعلم ما تغيض الأرحام منذ تحرير كتابة اللوح المحفوظ بعلمه، وإذا كان علم البشر في حاجة إلى مختبرات لمعرفة **بعض صفات ما في الأرحام،** فإن العلم الإلهي يترفع عن ذلك ويعلم كل **ما سيكون مِنْ صفاتٍ ما في الأرحام حتى قبل مرحلة الإغاضة،** عندها سيكون المقصود بالإغاضة هو عموم مراحل الحمل، **والمقصود بالعلم هو**

مجموع صفات الجنين كاملة ومنها مستوى الذكاء والوسامة أو الجمال، وليس الجنس فقط، ومما يرجح لي هذا المقصود هو قوله تعالى في:

- سورة الرعد (١٣:٨): ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

ولم يقل (ومن تغيض الأرحام)، حيث الأولى موجهة لغير العاقل من مخلوق قبل بث الروح، وتقصد عموم صفات المخلوق، بينما الثانية تؤكد على مقصود الذكورة والأنوثة فقط، لأن جواب (مَنْ) هو "هي" أو "هو" المحدَّدَة للجنس، ولا حَرَجَ في أن نصل إلى المقصود من عموم الآيات بالتدريج وخلال عدة أجيال قادمة من العلماء، لأنَّ تعمق العلم في سبر الحقائق التي ذُكرَ بعضُها في القرآن سيوسع مداركنا لفهم أدق لآيات الإعجاز، فتكون بذلك دليلاً آخر على أنَّ القرآن أُنزل من السماء.

قال (مايكل): سمعت أن القرآن يحددُ الرجل كطرف مسؤول وحيد عن تحديد جنس المولود، وليست المرأة، فهل هذا صحيح؟

قلت: لقد ذكر كثير من المفسرين ما قلتَ واختلف معهم كثيرون، فظهر رأيان:

- **الرأي الأول** مسؤولية الرجل، استند أصحابه إلى ما جاء في:

١- **الرجل ماؤه مَهين** حسب سورة السجدة (٣٢:٧-٨): ﴿...وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾.

وقالوا: إن ماء الرجل مهين لأنه يخرج من مجرى البول وماء المرأة ليس مهيناً لأن له مجاري خاصة به، إذن المسؤول هو صاحب الماء المهين وهو الرجل.

٢- **الرجل صاحب النطفة** حسب ما جاء في:

أ – سورة القيامة (٧٥:٣٧-٣٩): ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾.

وقالوا: إنّ ﴿...فَجَعَلَ مِنْهُ...﴾ معطوفة على الرجل، إذن الرجل هو المسؤول.

ب– سورة النجم (٥٣:٤٥-٤٦): ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾.

قالوا: إن نطفة المرأة (ovum) لا تُمنى، وما الذِكرُ الصريحُ لـ(الذكر والأنثى) مع صفة خاصة لنطفة الرجل (sperm) وهي الاستمناء سوى تأكيد على تحميل مسؤولية تحديد الجنس للرجل.

٣– **الرجل صاحب الماء الدافق** استندوا إلى صفة الدفق لماء الرجل، وقالوا إن الله قصد الرجل في:

– سورة الطارق (٨٦:٥-٧): ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

وتشددوا في تحميل الرجل مسؤولية تحديد جنس المولود ليعُدُّوها سبقاً علمياً آخر للقرآن.

ـــ الرأي الثاني المسؤولية المشتركة، حيث قال أصحابه، نحن نقول: إنّ للرجل نطفة[٣٩٠] مَني وللمرأة نطفة بويضة، وماء للرجل وماء للمرأة، ولكننا نختلف في تعريف الماء المهين وخاصية نطفة الرجل في الاستمناء والتدفق.

وقالوا في الماء المهين إنه مهان:

(٣٩٠) "المنجد في اللغة والأعلام": ص٨١٦، النطفة هي ماء الرجل أو المرأة.

١ – إهانة مخرج، وهذا أمر يختص به الرجل.

٢ – إهانة مكان إذ هو في أسفل البطن حيث منطقة خروج الفضلات بأنواعها، وهذا مشتركٌ بين الجنسين.

٣ – إهانةٌ بمعنى القلة إذ كميته بأجمعه لا تزيد عن ٢سم^3، والحيوان المنوي لا يزيد طوله عن واحد من المليون من المليمتر، وهو أيضاً ينطبق على الجنسين مع فارق أن البويضة أكبر من الحيوان المنوي.

إذن إهانة المكان والكمية، مشتركة بين الجنسين وهي كافية لجعل الماء مهيناً، يعني الماءين وليس أحدهما. وأما عن المني[٣٩١]، فهو السائل الذي يفرزه الرجل حين الاستمناء ومبيض المرأة وقت الإباضة، لأن الله يخاطب الجميع بقوله في:

– سورة الواقعة (٥٦:٥٨-٥٩): ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ، ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

فلو كان الله يعني الرجال فقط، لعبَّر عنه بشكل مخصوص.

بناء على قول هذا الطرف الآخر من المفسرين، فإن كل ذِكْرٍ لنطفة أو ماء فإنه يعني الرجل والمرأة، وعلى ذلك فالقرآن لا يحدد مسؤولية جنس الجنين بالرجل فقط، بل وبالمرأة أيضاً.

إن أية نطفة لا بُدَّ من أن تعني النطفة الأمشاج، وهي نطفة المرأة بعد تلقيحها من نطفة الرجل استناداً إلى:

– سورة الإنسان (٧٦:٢): ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وأما عن التدفق فيقولون: إن ماء المرأة المهين يتدفق أيضاً عندما تنفجر (حويصلة دوغراف) وتخرج منها البويضة، فالتدفق ليس حصراً على الرجل فقط، لكونه ظاهراً للعين.

فقال (دايفيد): إني أرى أن هذا التفسير أو ذاك يجب تجنبهما، حتى يثبت

(٣٩١) "المنجد في اللغة والأعلام": ص ٧٧٧، الإمناء يعني الإراقة، وبذلك نقول (يراق) أي يمنى، والماءان يراقان.

وضوح أحدهما، فليس مهماً أن تثبت صحة تحديد القرآن للمسؤول عن جنس المولود أو لا تثبت، ففي القرآن إثباتات علمية أراها أقوى من ذلك، ويكفي القرآن إعجازاً أنه لم يذكر بصريح العبارة أن المسؤول عن تحديد الجنس المرأة فقط، أم الرجل فقط، بل قال نطفة أمشاج.

علماً أن العلماء بعد مئات السنين من عهد محمد، كانت اكتشافاتهم أكثر بعداً عن الحقيقة مما كان في عهده:

– ففي عام ١٦٧٥م صرح الطبيب (مالبيجي Malpighi) بأن البويضة تحمل الجنين بصورة مصغرة وأن السائل المنوي ينشط نموه فقط.

– وأكد مكتشفا المجهر (هام) و(هوك) أن الجنين موجود في صورة مصغرة جداً في الحيوان المنوي، والبويضة تقوم بتغذيته فقط.

– ولم يُثبت الحقيقة إلا العالم (ولف Wolf ١٧٢٣-١٧٩٤م) حيث قال: إن الجنين يتخلق من نطفة الرجل والمرأة معاً.

– وفي عام ١٨٣٩م اكتشف العالم (شليدن Schleiden) أن الجنين يتخلق من خلية واحدة ملقحة بعدها يحصل الانقسام الخلوي (Division cellulaire).

– فقط في عام ١٩٥٦م اكتشفت الصبغيات (كروموزومات) بواسطة العالم (فون ويني ورتر Von winiwarter) التي منها الكروموزومات الجنسية X وY.

ثالثاً: ظهر فريق ثالث من المفسرين قال إنه فَهِمَ النطفة فهماً علمياً على أنها المرحلة الأولى من مراحل تَخَلُّقِ الجنين، وقالوا: أينما ذُكِرَتْ النطفة في القرآن، فهي تعني النطفة الأمشاج، وليس نطفة الرجل وحده، أو نطفة المرأة وحدها، لأن نطفة الرجل إذا لم تلتق بنطفة المرأة فلا جنين، وحدَّدوا مراحل خلق الإنسان[٣٩٢] بما يلي:

(٣٩٢) من محاضرات الشيخ عبد المجيد الزنداني المسجلة.

١ ـ مرحلة النطفة الأمشاج: تبدأ باختراق الحيوان المنوي البويضة في أنبوب الرحم فتتكون النطفةُ الأمشاج (Zygotula)، ثم تنقسم وتشكل التوتة (morula) ثم تتحول إلى كرة جرثومية (blastula).

٢ ـ مرحلة العلقة في الرحم: ثم تنـزل إلى الرحم في اليوم الثالث وتحاول التعلق، حيث تنجح بذلك في عدة أيام.

قالوا: من نطفة الرجل وحدها لا يتم الخلق، ومن نطفة المرأة وحدها لا يتم الخلق أيضاً، وبما أن الله قال في:

ـ سورة الحج (٢٢:٥): ﴿...فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ...﴾.

فإنه بذلك يعني النطفة الأمشاج وليس غيرها، لأنه منها **فقط** يخلق الولد، حسب سورة الإنسان (٧٦:٢): ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ...﴾.

إني أرى أن الاختلاف بين المفسرين حول موضوع علمي غير ضار طالما أن الهدف هو البحث عن الحقيقة، وأنَّ الحقيقة النهائية للعلم تطابقت مع ما جاء في القرآن، وأثبت عظمته، وإني أتساءل:

أإذا أُثبت هذا على أنه سبق قرآني، فهل كان العاقلون يؤمنون بالقرآن متجاهلين الإعجازات الشامخة الأخرى؟

وإذا لم يُثْبَتْ هذا السبقُ للقرآنِ، لا يؤمنون به ناسين الإعجازات الأخرى ذات العمق العلمي نفسه أو تزيد!.

قال أحمد: ما دمنا نتكلم عن هذا الموضوع أود أن أذكر ما جاء في القرآن عن مراحل الخلق الإنساني ومطابقته مع العلوم الحديثة التي تعلمون عنها الكثير، وتابع قائلاً:

أ – **الخلق من تراب:** كل أهل الأديان يؤمنون أن أول خلق الإنسان كان حفنة من تراب، وأكده القرآن في:

– سورة غافر (٤٠:٦٧): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ب– **الخلق من طين:** ورد في القرآن أن الإنسان خُلق من طين وهو خليط التراب بالماء، حسب:

– سورة المؤمنون (٢٣:١٢): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.

ج– **الخلق من الماء:** من عموم الماء، فقال في:

– سورة الأنبياء (٢١:٣٠): ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ...﴾.

اختص القرآن بالتعمق في مراحل الخلق فابتدأ بقوله في:

– سورة السجدة (٣٢:٧–٨): ﴿...وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾.

في زمن نزول هذه الآية، لم يكن أحد يهتم بما إذا كان الولد من الماء كله أم من جزء منه، فَثَبَّتَ القرآنُ هذه الحقيقة، ولم يخطر على بال المفسرين أن هذا الجزء الذي لا يُرى إلاّ بالمجاهر الإلكترونية، هو الحيوان المنوي الذي **ينسل انسلالاً** من أصل ما يزيد عن مئتي مليون متسابق مثله... ويلقح البويضة، وكل ما عداه يموت.

لاحظوا روعة التعبير العلمي في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ **سُلالَةٍ** مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾، أي من جزء يَنْسَلُّ من الماء المهين، ولم يقل وجعل نسله من ماء مهين، فيفهم منه من كلِّ الماء المهين، تصوروا الدقة العلمية والحكمة في التصميم، إذ فور دخول أول حيوان منوي إلى البويضة وتركه ذنبه خارجاً، فإن البويضة يقسو

غشاؤها الخارجي، بحيث تتهافت عليها الحيوانات التالية دون أن تستطيع اختراقها، وهي مرحلة التلقيح (Fecondation)، وهذه البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج (Zygot-Ferfilized ovum)، هي بداية رحلة التخلق، التي تبدأ بطور النطفة، ثم تنقسم النطفة الأمشاج إلى عدة أقسام مكونة التوتة (morula)، ثم في نهاية هذا الطور تتكون الكرة الجرثومية (blastula)، ثم تنـزل هذه الكرة من أنبوب الرحم وطولها لا يزيد على (٥) ملم في اليوم الثالث من الحمل، إلى الرحم محاولة التعلق بجداره، حتى تنجح في اليوم السابع بواسطة الخلايا الأكولة (Trophoblast)، ويكون تطور طريقة التعلق بواسطة نمو الخملات المشيمية (chorionic velli) المحيطة بغشاء المشيمة (Chorion)، من طرف واحد فتشكل المشيمة (Pcacenta)، بينما تموت الخملات من الطرف الآخر ويصبح الغشاء أملساً، ثم تتطور مرحلة التعلق الأخيرة بتكوين الساق المشيمية الموصلة (conneching stalk)، وهي الاتصال الدائم بين الجنين والغشاء المشيمي، ومنها سيتكون الحبل السري (umbilical cord) الذي يؤمن الاتصال ولا يعيق حركة الجنين في الرحم، كل ما سبق كان من اختصاص نوع خاص من خلايا التعلق، أما النوع الثاني من الخلايا فستكون مسؤولة عن تخلق الكتل البدنية، حيث ستتخصص طبقات الخلايا الثلاث (الاكتودرم) و(الميزودرم) و(الانترودرم) بتخلق الأجهزة والأعضاء الإنسانية.

وتابع أحمد قائلاً: بعد ثبات التعلق تبدأ مرحلة أخرى تستمر حتى بداية الأسبوع السابع، في بدايتها تبدأ الكتلُ البدنية (Somites) بالظهور في اليوم (٢٠–٢١) من الحمل آخذة شكل اللبان الممضوغ، واعتماداً على عَدَدِ هذه الكتلِ يمكنُ تحديد عمر الجنين بدقة.

يكتمل تبرعم هذه الكتل في اليوم الـ(٣٠–٣٥) بعدها تبدأ الأنسجة الغضروفية بالتحول إلى أنسجة عظمية لتشكيل الهيكل العظمي، وتُكسى العظامُ

لحماً، حيث يتحول الجزء الباقي من الكتل البدنية (myoteme) إلى عضلات، والفرق الزمني بين المرحلة العظمية واللحمية للجنين يسير جداً لصالح العظمية.

حتى هذه المرحلة فإنه يصعب على الفاحص معرفة ما إذا كان الجنين إنساناً أم بقرة أم خنـزيراً، ولكن في بداية الأسبوع السابع تبدأ الأعضاء بالتمايز الإنساني، ويمكن للمجهر أن يُميزها بوضوح، وكأنما خُلق الجنين بشكل مختلف تماماً عن المرحلة السابقة، هذا التمايز هو الحد الفاصل بين مرحلة التخلق أو الجنين (Impero) حيث فيها تكتمل تبرعمات كل الأجهزة، وبين مرحلة ازدياد الجنين ونموه، وهي مرحلة الجنين (Fetus) بقية المدة المحددة له، حيث هي فقط مرحلة نمو الأجهزة والأعضاء الإنسانية التي اكتملت للحميل حتى يخرج إلى هذا العالم.

قال (جورج): إن ما قلته هي مراحل نمو الجنين حسب الكتب العلمية الحديثة، فأين القرآن من ذلك؟

فقال أحمد: لنستمع إلى ما جاء في القرآن قبل أربعة عشر قرناً عن الموضوع نفسه، في:

– سورة المؤمنون (٢٣:١٢-١٦): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

– سورة الحج (٢٢:٥): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾.

وتابع أحمد قائلاً: هل هناك تلخيص لمراحل الجنين أروع من هذا وأرفع، إن حروف الربط (ثم) و(فـ) تلخص اكتشافات استهلكت كثيراً من الجهد والتفكير، حيث وجد العلماء في النصف الثاني من القرن العشرين بالتصوير، أن النطفة لا عمل لها طيلة ستة أيام إلا الانتقال إلى الرحم ومحاولة التعلق، وفترة التراخي هذه لا تسمح باستعمال (فـ) بَدَل (ثم)، في الآية ﴿...نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة...﴾، فلو قال نطفة في قرار مكين **فخلقنا** النطفة علقة فسوف يعني أنه حالاً وفور دخول الكتلة الجرثومية إلى الرحم تتعلق، بينما الحقيقة هي أنه حال دخولها تبدأ الخلايا الأكولة بأكل جدار الرحم محاولة التعلق به، والتغذية من دمه، وهذا يحتاج أحياناً إلى ثلاثة أيام، لذلك نرى أن (ثم) تصف التراخي الزمني للمرحلة بروعة لا مثيل لها، كما نلاحظ أنه بين مراحل النطفة والعلقة وبين العلقة والمضغة وبين المضغة، وخلق العظام وكسائها باللحم، هي مراحل متلاحقة، فما أن تنتهي الأولى حتى تبدأ الثانية فوراً دون تراخٍ، وهكذا، لذلك فإن هذه المراحل لا تحتمل كلمة الربط (ثم) بل (فـ) وهذا ما نراه واضحاً في الآية.

ثم يعود القرآن ليقرر أن بين مرحلة كساء العظام، والتمايز الإنساني للجنين، يوجد تراخٍ زمني لاكتمال النمو دون خلق جديد، فقال: (ثم) أنشأناه خلقاً آخر.

تزداد روعة الوصف القرآني سمواً، إذا عرفنا أنه حتى الآن ما تزال كثير من الكتب العلمية لا تسمي مراحل تخلق الجنين بالاسم الوصفي للمرحلة، بل بالأرقام، فتقول المرحلة الأولى والمرحلة الثانية، وإن أول من طالب باعتماد التسمية القرآنية (Quran terminology) للمراحل، هو عالم الأجنة الكندي المعروف (كيث مور Keith More) وذلك في ملحق لكتابه (تطور الإنسان human development) في الربع الأخير من القرن العشرين.

فأي حجة بقيت لأي عاقل رافض للإيمان بأن القرآن نزّله الله على رسوله محمد ﷺ؟ هل كانت عند محمد ﷺ مجاهر للمراقبة والوصف التشريحي، إن كلمة (علقة) هي أدق وصف تشريحي لهذه المرحلة، وكذلك كلمة (مضغة) ومثلها الوصف البليغ للخلق الآخر، حيث أثبتت الصور المجهرية الفوتوغرافية التي قام بها العالم (لينارد نلسون Lennard Nilsson) ونال عنها "جائزة نوبل"، أنه منْ فحْص مُضغة الفقريات نرى أنه لا يمكن تمايزها، وتحديد النوع الذي ستتطور إليه من مرحلة التخلق، وأن التمايز يبدأ بمرحلة الجنين.

من قال لمحمد ﷺ إن الله سينشئ الجنين خلقاً آخر على شكل إنساني، إننا لو كنا باحثين عن الحقيقة منصفين غير مكابرين، ورأينا بأعيننا أن الآية السابقة تحقّقت منها مرحلة النطفة، والعلقة والمضغة والخلق الآخر والأجل المسمى داخل الرحم، والخروج طفلاً ثم أرذل العمر حيث النسيان والخرف، فلا يعلم الإنسان من بعد علم شيئاً، رأينا هذه المراحل حصلت، منها ما اكتشفه العلم الحديث، ومنها ما نراه رأي العين، أفلا يتوجب علينا أن نُصدِّقَ خاتمة الآية، وهي **البعثُ يوم القيامة** ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، إن في الآيتين اثنتي عشرة مرحلة من التراب إلى الموت، هي حياة الإنسان الكاملة، رأينا الآن إحدى عشرة مرحلة منها، أفلا نصدِّق الأخيرة؟ أليس هذا هو المقصود في قوله تعالى في سورة الحج السابقة الذكر (٥:٢٢): ﴿...لِنُبَيِّنَ لَكُمْ...﴾؟ أليس ذكر مراحل تطور الإنسان، ثم تأكيد العلم بها، هو ليبين الله لنا قدرته على إعادة الحياة يوم القيامة؟

فقال (ليفي): لقد شرحتَ فأجدْتَ، ولكن كيف نفهمُ المضغةَ المخلقةَ وغيرَ المخلقة؟ إن هذا تعبير فلسفي كالقائل بأن نصف الكأس فارغة، وقائل آخر نصف الكأسِ مليئة، فأين العلم المادي الذي تتكلم عنه من مثل هذا التعبير؟

فقال (دايفيد): إني بما فهمته من الشرح الآن، وما أعلمه جيداً عن مراحل الجنين، أقول إن هذا وصف مجهري تشريحي لمرحلة المضغة مطابق تماماً للواقع،

وما كان لأي عالم أن يتكلم عن هذا الوصف التشريحي قبل القرنين السابقين، ولست أرى أي مصدر لمحمد يستقي منه المعلومات إلا خالقها، إننا إذا علمنا أن مرحلة المضغة تبدأ في الأسبوع الثالث حيث تبدأ الكتل البدنية بالظهور، فلو أردنا وصف المضغة في نهاية طورها في الأسبوع السابع، فإننا نرى شكلاً يشبه اللبان الممضوغ، فيه بعض الأعضاء التي تبرعمت، وتمّ تخلقها فنقول: إنها مضغة مخلقة. ولكن إذا بحثنا عن العين والأذن والقلب والجهاز العصبي فلا نجدها، إذ يبدأ تخلقها في طور العظام واللحم، أي بعد الأسبوع السابع، ويمكن وصف هذه المرحلة بالقول إنها غير مخلقة، ونكون صادقين في الوضعين، حسب ما نبحث عنه من تبرعمات الأعضاء، وبهذا يكون الجنين في هذه المرحلة مخلقاً وغير مخلق في الوقت نفسه، وصدق القرآن في هذا الوصف العلمي التشريحي الذي لا مثيل له.

قال (جورج): أما أنا فأقول إنه معلوم للجميع أن خلايا الإنسان تموت باستمرار، وتُستبدل، عدا الخلايا النبيلة والعصبية، فلمَ لا نقول إنه في مرحلة المضغة حيث يبدأ التخلق، يبدأ أيضاً تجهيز الخلايا التي لن تتخلق الآن، بل لاحقاً عند الطلب كقطع غيار؟ يكون تخصصها حسب الحاجة، فيمكن أن تتخلق خلية جلدية لرتق جرح، أو خلية عظمية لجبر كسر، أو خلية دموية لتعويض نقص ما، كل ذلك بقدرة من الله، فتكون الخلايا المتخلقة الآن، والخلايا غير المتخلقة الآن، موجودة دائماً في الإنسان ابتداء من مرحلة المضغة، وأنا أرى في وصف المضغة بمخلقة وغير مخلقة أروع وأشمل من أن يصفه أي عالم.

قال (مايكل): أما أنا فأرى أن النطفة الأمشاج (Zygote) تُخصصُ بعض خلاياها للتعلق وتشكيل الأغشية المشيمية (membranes)، والحبل السري (cordon ambilied)، وجزء من المشيمة (plaxenta felaf) ووظيفتها التعلق وتغذية الجنين، وكلها أجزاء تحيط به ولا تشارك في تخلقه لأنها تسقط بعد الولادة، وأنا أرى أن هذا ما يمكن أيضاً النظر إليه على أنه الجزء غير المخلق من المضغة، وكل

ما عداه (inner cell mass) أو (formahc mass) هو المضغة المخلقة، التي منها يكون الجنين بخلاياه الأساسية والمرمَّمة أو بخلاياه التي اكتملتْ في مرحلة الجنين وكَبُرت وظهرت في مرحلة الجنين، وهذا أيضاً يفسِّر أن المضغة **مخلّقة وغير مخلّقة**.

فقال أحمد: إن جميع وجهات النظر التي طُرحت صحيحة علمياً، وغير مرفوضة إسلامياً، ويمكنها الدخول ضمن تفسير الآيتين المذكورتين.

قال (مايكل): حسب ما ذكرتَه من الآية يكون الجنين موجوداً في قرار مكين، بينما هو محاط بلحم من كل الجهات تقريباً وأية صدمة في الوسط سيتأثر بها الجنين، فكيف يكون هذا القرار مكيناً؟

فقال (دايفيد): أما جواب هذا السؤال فلا علاقة له بالدين، وأنا كفيل به أيضاً، نحن نعلم أن سُنة الكون جعلت المرأة هي التي تحمل وتلد، وهذا من المعطيات الأساسية، الجنين يزيد وزنه آلاف المرات وحجمه ملايين المرات، وهذا من الأساسيات أيضاً، وهو يحتاج إلى مكان قابل للتوسع، ووجود العمود الفقري يمنع التوسع إلى الخلف، ويلزم مكان الحمل قربه من الأعضاء التناسلية، وضرورة حمل الجسم يتطلب وجود عظام الحوض لاتصال الأرجل مع بقية الهيكل العظمي، كل هذه اللوازم والضرورات تجعل المكان الأنسب هو أسفل البطن، فهو محمي بعظام الحوض، وبالتشريح نرى الرحم مربوطة بجدران الحوض بعضلات مرنة تحمله وتمنع سقوطه عند زيادة الوزن، وفي الوقت نفسه تخفف عنه الكدمات، بالإضافة إلى السائل الأمينيوني (Amniotic fluid) الذي من وظائفه تخفيف الكدمات، والأصوات المزعجة، والعزل الحراري للجنين.

الرحم نفسها تتكون من ثلاث طبقات[٣٩٣]، لكل منها وظيفتها في جعل هذا

(٣٩٣) كتاب "مبادئ علم البيولوجيا": للعالمة الروسية إرينا كاروزينا، ص ١٦٩-١٧١.

القرار مكيناً وعازلاً للضوء، إننا لو خيَّرنا لجنة من أكبر علماء الجسم الإنساني أن تختار مكاناً أفضل من هذا، فلن تستطيع أبداً.

فقال أحمد: وهذا يؤكده ما جاء في سورة التين (٩٥:٤): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

قلت: لقد سمعتُ مَنْ قال إن القرار المكين هو الحويصلة المنوية والمبيض لأن الآية تقول: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾، فما رأيك؟

فقال أحمد: حتماً إن المبيض والحويصلة المنوية قرار مكين، كل حسب وظيفته التي خُلِقَ لها، ولكن الآية تقول: ﴿لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين...﴾، والكلام عن خلق الإنسان، والإنسان لا يخلق من نطفة الرجل وحدها، ولا من نطفة المرأة وحدها، ولكن من **النطفة الأمشاج**، ومكانها هو في الرحم، والدليل المؤكد هو الآية التالية إذ تقول: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً...﴾، إذ إنه من النطفة نفسها التي صار منها بداية الخلق خُلقت العلقة، والعلقة كما تعلم خُلِقَتْ في مرحلة متقدمة من النطفة الأمشاج، التي تكونت في أنبوب الرحم ثم هاجرت منه إلى الرحم، ولاحظ أن الآية كلها تؤكد موضوع الخلق.

وعلى أية حال فلا مانع من اختلاف الآراء في التفسير ما دام أنه لا يخالف حقيقة أقرها القرآن، ولا مانع من القول إن نطفة الرجل ونطفة المرأة في قرار مكين، ولكني أؤيد أن القرار المقصود بهذه الآية هو الرحم.

قال (ليفي): لقد ذكرتَ في هذه الجلسة أن الإنسان خُلِقَ من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، حسب:

- سورة الطارق (٨٦:٥-٧): ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

نحن جميعاً نعلم أن خصيتي الرجل ومبيضا المرأة، ليست بين الصلب والترائب ولكن في أسفل البطن وهذا مخالف للواقع، فما رأيك؟.

قال (دايفيد): لتفسير هذه الآية أيضاً فإنه لا داعي لمعرفة عميقة بعلوم القرآن ذلك لأن الإجابة عنه هي إجابة علمية بحتة، اكتشفها علماء التشريح بالمصادفة. إذ لاحظوا أن الخصية والمبيض الموجودين في أسفل البطن يتغذيان من شرايين وأعصاب قادمة مباشرة من مناطق في أعلى البطن، وهذا غير شائع في الجسم، لأن الأعضاء تتغذى وتتصل بأقرب منطقة دموية وعصبية منها، ولما خصَّصوا البحوث توصلوا إلى أن الكتل البدنية التي شكَّلت الأجهزة التناسلية، كانت في منطقة أعلى البطن، ثم في الأسبوع العاشر تبدأ رحلة المبيض إلى أسفل البطن والخصيتين إلى كيس الصفن الخاص خارج الجسم أسفل البطن، وتنتهي الرحلة في نهاية الشهر السادس، وتبين أن الشرايين والأوعية الدموية المغذية لها قد امتدت معها، وبقي مصدرُها في أعلى البطن، الذي هو موجود بالفعل بين العمود الفقري (الصلب) والأضلاع (الترائب).

فقلت لـ(دايفيد): ها قد فسرت تفسيراً اكتشفتَ به إعجازاً علمياً آخر.

فقال: وكيف؟

فقلت: وهل يمكن لمحمد أن يرى الخصيتين خارج الجسم أسفل البطن يقول إنها من بين الصلب والترائب، إلا إذا تلقى المعلومات من خالق الصلب والترائب، ألا يضيف هذا دليلاً آخر على صحة رسالة محمد؟!

الثاني عشر: متى تنتهي معجزات القرآن؟

قال (ليفي) موجهاً كلامه إلى أحمد: إنك قلت إن بعض معجزات القرآن ستظهر لكل جيل، لتدله على أن الله خالق الكون هو نفسه مُنـزِّل القرآن على رسوله محمد، وأنت تعلم أنه بعد مئات السنين من الآن، ستتحول المعجزات العلمية الحالية إلى بدهيات علمية للأجيال القادمة، وسوف تفقد تاريخ اكتشافها،

وأن أطفال المستقبل سيعلمون ما لا يعلمه علماء اليوم، فماذا يبقى من القرآن لتلك الأجيال؟ إذ سوف يُفسَّر كل حرف منه خلال مئة السنة أو ألف السنة المقبلة، ألا يدل هذا على أن القرآن ليس لكل زمان، مع العلم بأنكم تقولون إن محمداً هو آخر الأنبياء، فإما أن ينتهي العالم مع انتهاء تفسير القرآن، أو أن الله سيتخلى عن عباده فَتَصِحُّ نظريتُنا بانتظار المسيح الحقيقي، والنبي الحقيقي.

فقال أحمد: لقد طرحتَ فكرة جيدة وأجبتَ عن جزء منها:

١ ـ أما القرآن والأجيال القادمة: فلقد جاء في:

سورة فصلت (٤١:٥٣): ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

بما أنه يوجد غير مسلمين فلا بُدَّ من آيات لبيان أن القرآن الكريم حقٌّ من عند الله، ولا يصح بناء فرضية على (ربما يُفسَّر خلال كذا من السنين)، إن جيل ما قبل الانفجار العلمي كان مقتنعاً **بأنه فسَّر القرآن تفسيراً كاملاً**، وجيل ما بعد الانفجار العلمي أصبح مقتنعاً **بأنه لم يُفسَّر القرآن تفسيراً كاملاً**، لأن مداركه العلمية توسعت، وأخذ يتوقع المزيد من الاكتشافات كل يوم، ولذلك توقف المفسِّرون الإسلاميون عن محاولة مطابقة الاكتشافات العلمية مع القرآن ما لم تتحول تلك الاكتشافات إلى حقائق علمية غير قابلة للنقض، ثم يتساءلون هل ورد ذكر أو تلميح لهذه الحقيقة في القرآن؟ مع إعادة التأكيد للمرة الثالثة على أن القرآن ليس كتاباً علمياً، وهو لا يجمع كل حقائق الكون، ويكفيه إعجازاً أنه حتى الآن لم يخالف حقيقة علمية واحدة، وأنه أنبأ عن أخبار تأكدت بعد نزوله بأربعة عشر قرناً.

٢ ـ القرآن ونهاية المعجزات والعالم: وأما قولك إن نهاية العالم ستكون عندما لا يبقى في القرآن أي إعجاز علمي جديد، فهو قول قريب من الصحة، وأنا أُبدِّلُ جملة (لا يبقى في القرآن أي إعجاز علمي جديد) بقولي: عندما تفقد إعجازاته

القوة التي تقنع العلماء، إما بضياع زمن الاكتشاف، إن كان قبل أو بعد ظهور محمد ﷺ، أو بتطور ذكاء الإنسان، فتدخل الإعجازات مرحلة البداهة العلمية والمُسلّمات المعلوماتية، وهاتان الحالتان تبدوان الآن مستحيلتين، وذلك بسبب تطور طُرقِ حفظ المعلومات ونقلها.

أ – الإعجازات قبل الأخيرة:

أ/١تبدأ بعلامات يوم القيامة المباشرة كما جاءت في كثير من سور القرآن الكريم، مثل:

– سورة التكوير (٨١:١-٤): ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

– سورة القمر (٥٤:١): ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

– وسورة الانفطار وسورة القارعة وغيرها كثير...

أ/٢– بدخول المؤمنِ الجنةَ والكافرِ النارَ، ورؤيتها عين اليقين، حسب:

سورة التكاثر (١٠٢:٧): ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

أ/٣– ثم تحقيق كل ما وعدهم الله به، حسب:

سورة الأعراف (٧:٤٤): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ...﴾.

ب – الإعجازات الأخيرة:

تابع أحمد قائلاً: إن معجزات القرآن لن تنتهي أبداً، وكل فرضية مخالفة لهذا

الأمر، خاطئة، لأن آخر إعجازات الدنيا تنتهي بانتهاء الدنيا، ودوام إعجازات الآخرة مرتبط بدوام الآخرة نفسها، والخلود من صفاتها، حسب:

سورة البقرة (٢:٨٢): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

سورة البقرة (٢:٣٩): ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إن الخلود لا ينتهي، فالإعجاز باقٍ ومستمر ما شاء الله له أن يبقى.

٣– أما عن آخر الأنبياء: فيكون محمد ﷺ إذا نظرنا إلى بداية الظهور على أنها نقطة القياس، ويكون يسوع عليه السلام آخر الأنبياء إذا اعتبرنا نهاية الظهور على أنه نقطة القياس، لأن محمداً ﷺ قد مات، وكلنا الآن ينتظر عودة المسيح، ولكن ليس المسيح الذي ينتظره (ليفي).

٤– أما عن آخر كتاب مقدس: فهو القرآن وبه سوف يدعو يسوع عليه السلام عند عودته، لكونه الكتاب الإلهي الوحيد غير المحرَّف.

الثالث عشر: رأي المشاركين في المناقشة

ساد بعد ذلك صمت دل على أن جعبة المتحدثين قد فرغت من الآراء المؤيدة والآراء المضادة، طال الصمت، **فرأى (مايكل)** أن يضع خاتمة لهذه الجلسات.

فقال: **أنا مقتنع بأن القرآن ليس كلام بشر، وأن محمداً رسول الله وأنه (النبي القادم) الذي كان اليهود ينتظرونه**، ولكني لست جاهزاً الآن للتخلي عن خمسين عاماً من حياتي ومعتقداتي بسبب أفكار جديدة دخلت عليَّ، خلال أسابيع. **إني سوف أناقش الموضوع بجدية مع نفسي، ولن أترك هذا الأمر حتى أقرر فيه،** فإما أن أدوس كرامة عقلي وأبقى على ما نشأت عليه، وإما أن ينتقل إيمان عقلي إلى قلبي وأعود إلى دين الفطرة والعقل، دين يرفض التثليث وتعدد الآلهة، عندها

ساكون سعيداً، لأن إيمان عقلي وإيمان قلبي حينذاك سيسيران في اتجاه واحد، أو أرفض الفطرةَ والعقلَ وأبقى مع دين المنشأ دون قناعة.

وقال (جورج): **أما أنا فقراري أتركه لنفسي، فإيماني وكفري هو في النهاية لفائدتي أنا وليس لغيري، وظروفي لا تسمح لي بأي تبديل خارجي على المنهج الفكري الذي أسير عليه**، مع أنه لن يكون بالزخم السابق نفسه، فقد فُتِحت عيناي على أشياء لم تكن تخطر لي على بال لولا هذه الجلسات الرائعة معكم.

نظرت إلى (ليفي) نظرة فهم منها... وماذا عنك يا (ليفي)؟

فقال: بالنسبة لي، فقد استمتعت كثيراً جداً بكل الجلسات واستفدت منها، واطلعت على ما لم تسمح لي به سنوات حياتي السابقة، لكني لا أستطيع التخلي عن كوني من شعب الله المختار، وأنا متأكد من أن الله سيقبل مني كما قَبِلَ من الذين قبلي، **هذا لا يعني أني أُنكر أن محمداً رسول من الله، لأن ما سمعته يؤكد لي استحالة وجود مصادر أخرى لمعلوماته.**

وقال (دايفيد): حاولت دائماً رفض فكرة أن الإسلام دين سماوي، وحاولت مع نفسي نقضَ ما ورد في الجلسات من دلائل وآيات تؤكد أن محمداً هو رسول الله، ولم أجد لذلك وسيلة، وكنت المهزوم مع نفسي دائماً، إن كل ما ورد هنا قد أثبته العلم الحديث، وحوَّلَه إلى بدهية علمية، حقاً إني أتعجب من أن محمداً لم يُجارِ آراء عصره، بل جابه كل الناس وحده ورفض الرئاسة التي عرضت عليه إن هو ترك هذه الدعوة، فلو كانت أهدافه دنيوية لما توانى لحظة واحدة عن قبول العروض المغرية من قريش وغيرها، وأستغرب إقحام دعوته في أمور لم يطلبها منه كفار قريش ظهرت لاحقاً على شكلِ إعجازٍ علمي في القرآن، فَلَو كان هو مؤلف القرآن من نفسه لما خاطرَ بذكر أشياء مجهولة متحدياً بها علوم المستقبل القريب والبعيد، لو كان ذلك لكتبَ "والأرض مركز الكون ساكنة"، إذ يراها ساكنةً والشمسُ تتحركُ، مثلما كتبَ ﴿...والشَّمْسُ تَجْرِي...﴾، وأنا أتساءل:

- لماذا لم يفعل محمد هذا؟.
- لماذا يتنبأ عن انتصار الروم في بضع سنين؟، حيث يغلب الظن أنه سيكون على قيد الحياة، فيُعَرِّضُ كل دعوته للخطر.
- لماذا يخوض في آيات كونية دون أن يسأله أحد من قومه ذلك؟ فيقول بتوسع السماء، عكس ثوابت زمانه، وبجريان الجبال كالسحاب، عكس ثوابت زمانه، ويُخبر أنَّ الليل يغشى النهار ويغطيه من فوقه عكس ثوابت زمانه، ثم يظهرُ تفسيرُ قوله بعد مئات السنين على شكل إعجازٍ علمي رائعٍ في القرآن.
- لماذا يتعرض للتصعد في السماء دون أن يسأله أحد؟
- لماذا يتعرض لمراحل الخلق؟، في زمن يفقد أصحابه فيه معرفة أشياء أكثر فائدة لهم، ماذا لو أثبت العلم القادم خطأ ما قاله؟
- هل سأله أحد من أين يأتي الحديد؟ حتى يقول: إن الله أنْزَلَهُ من السماء. لماذا لم يقل خرج من الأرض؟ -كما يرى كل أهلِ عصره-، مثلما قال في الماء.
- لماذا يتكلم عن الناصية وهو لا يعلم عنها شيئاً؟
- لماذا يتكلم عن العنكبوت وعن البنان والسحاب وكشط السماء وبداية الخلق وإعادته، لماذا يُظْهِرُ التحدياتالخمس المفتوحة إلى يوم القيامة، ولماذا؟... ولماذا؟... ولماذا؟ عشرات المواضيع التي وردت في القرآن.

قلت: إن تساؤلاتك هذه رائعة، ويدل على أن أحاديثنا استطاعت توجيه تفكيرك الوجهة الصحيحة، وهي التساؤل، وعدم المرور على آيات الكتب السماوية، مروراً سهلاً، وأنا الآن أوجه إليك كل سؤال أوردته في تساؤلاتك، فأقول: لماذا تظن أن محمداً ﷺ قد ذكر في قرآنه ما ذكرناه، وهو غير مضطر إلى ذلك؟

فقال بصوت هادئ: إني بدأت أرى أنه كان مضطراً إلى ذكره في القرآن، ومفروضاً عليه.

فقلت: ومن أخبره؟

فقال بصوت منخفض ازدادت حدته مع سرد الكلام: هو ذلك الذي أنزل عليه القرآن، هو الذي خلق الكون، وأرسل الرسل، وأيدهم بمعجزات لدعم دعوتهم، هو الذي قال له: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾، و﴿قُلْ يا أيُّهَا الكَافِرُون...﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس...﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَق...﴾، و﴿قُلْ هَاتوا بُرهانَكُم إنْ كُنْتُمْ صَادقين...﴾، و﴿قُلِ انظُرُوا مَاذا في السَّماوات والأرض...﴾، و﴿قُلْ...﴾، و﴿قُلْ...﴾، و﴿قُلْ...﴾، هو خالق الحقيقة، هو رب موسى، وخالق يسوع ورب محمد، الجميع يستقون من مشكاة واحدة، وأنا من أكثر العارفين بتحريف ما سبق من الكتب السماوية، ومن أكثر الناس علماً بالأغراض الدنيوية لهذا التحريف، وأنا هنا بكل كرامة عقلي، وعلمي ومشاعري، أقول: يستحيل على أميٍّ عاش في عصر الخرافات، بين شعب طغى عليه الجهل، أن يقول ما قال من عنده، أنا لم تُقنعني النظريات الإلحادية، ولا فرضيات الحضارات المستوردة، ولا أزلية المادة ولا أبديتها، وأنا هنا أمامكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنَّ الإسلام دين الله، تاركاً ما كنت عليه من أفكار، منتمياً إلى دين العلم والعقل والمنطق، دين التوحيد الواضح، دينٍ ليس فيه غموض التثليث الذي عجز عن شرحه كبار رجال الكنيسة فقالوا هو من أسرار الكنيسة.

بكى أحمد بصمت حتى اخضلَّت لحيته، ودمعَتْ عيناي، وساد جوٌّ مؤثر على الجلسة، لم يستطع أحد تشويشه، قمت وأحمدُ نعانق (دايفيد) ونبارك له، وكذلك شد (جورج) و(مايكل) على يده مباركين ومحترمين قراره، متمنين لأنفسهم أن يصلوا إلى ما وصل إليه من راحة نفسية بقرار ما.

قال (ليفي) موجهاً كلامه إلى (دايفيد): إنك أسلمت، وأنا أحترم قرارك، ولكني أقول لك، تسرعتَ، لأنه وإن صَحَّت الإعجازات العلمية في القرآن، فهل يدل هذا على أن كل القرآن من عند الله، وليس فيه تحريف أو تبديل، كما في

التوراة والإنجيل حسب ما تدَّعون، إنك بإسلامك قبلت منهجاً كاملاً قبل التعرف عليه، فهل هذه هي الطريقة العلمية للإيمان؟

فقال (دايفيد): بداية أذكرك بأن تحريف العهد القديم والعهد الجديد بنصِّه المتداول الآن ليس ادعاءً، بل حقيقة اعترف بها المجمع الفاتيكاني الثاني نفسه، وأنت تعلم هذا، وإني بقراري هذا أَحْمَدُ الله على أنني وصلت إلى ما كنت أبحث عنه، منذ زمن طويل، ولا تظن أني آمنتُ، كما قلتَ، قبل التعرف على القرآن، **إني قرأت القرآن غير مرة وأعجبتني فيه كثيرٌ من الأفكار، مثل اعتماد الأسرة وليس الفرد وحدة المجتمع الأساسية، ومثل توسطه في كل الأمور، وليس آخراً مخاطبته العقل واحترامه، وأنا لا أنكر أنه كان لي في بعضها رأياً خاصاً، مثل نظرة الإسلام إلى المرأة وميراثها، وعدم تحريمه الفوري للعبودية، لكني منذ الآن سوف أعمق دراستي عن هذه المواضيع لأتفهم الموقف الحقيقي للإسلام منها.**

أنا أؤمن بما جاء في:

- سورة الحجر (٩:١٥): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

ولاحظت صيغة الجمع والتوكيد في (إنَّا نحن) التي استعملها الله في هذه الآية للتأكيد والإصرار، وإظهار القدرة على حفظ القرآن، لقد آمنت بقدرات الله اللامحدودة في أمور أخرى، أفلا أؤمن بقدرته على حفظ القرآن، وبناءً عليه أنا أؤمن بالقرآن المحفوظ من الله حفظاً تاماً، وإن اعترضتُ على شيء، فلا بُدَّ أن ذلك راجع إلى قِصَر في إدراكي أو لتأثير نمط حياتي وتأثير المجتمع الذي أعيش فيه.

وتابع قائلاً والاهتمام باد على وجهه: لقد قرأتُ كثيراً مما كُتب عن التحريف في القرآن وجَمعه، فما اقتنعت بجدية التشكيك حتى قبل إسلامي، لقد قسَّمت المشكلة إلى فترتين:

الفترة الأولى: بين نزوله على محمد ﷺ وحتى جمع عثمان للقرآن.

الفترة الثانية : بين جمع عثمان والوقت الحاضر.

سوف أبدأ بالفترة الثانية لسهولتها، لأن بعض نسخ قرآن عثمان ما زالت موجودة حتى الآن، واحدة في المتحف البريطاني في لندن، وأخرى في اسطنبول، وثالثة في القاهرة، ولم يقل أحد إن النسخ الحالية تختلف عن نسخة عثمان إلا بالتنقيط الذي قام به أبو الأسود الدؤلي[٣٩٤]، أي إنه يوجد بين أيدينا الآن نسخ متفق على سلامتها منذ عهد الخليفة عثمان منذ أربعة عشر قرناً إلا بضع سنوات.

التساؤل الأول هو: هل يعجز من استطاع حفظ القرآن طوال هذه الفترة الطويلة، عن حفظه خلال الفترة الأولى ذات السنوات القليلة، مع وجود مئات من حفظة القرآن في ذلك الوقت؟ ومع الاهتمام الكبير بالدين والقرآن، حيث كان مركز العلوم الأخرى في تلك الفترة، على أية حال فالشبهات التي ذكرها الناقدون، كلها منحصرة في الفترة الأولى، وأترك شرح تفاصيل جمع القرآن فيها للسيد أحمد فهو أعلم مني بهذا.

فقال أحمد: كانت الآيات تُوحَى إلى محمد ﷺ، ويقال له أين موضعُها من القرآن، فينقله لكَتَبَة القرآن، لأن الرسول محمد ﷺ كان أُمياً، وكان (جبريل) في شهر رمضان من كل سنة يذاكر ما نزل من القرآن مع الرسول ﷺ، ويُكرِّرُه الرسول على أصحابه، وكان يركز على الآيات الحديثة في صلاته حتى تَثْبتَ في صدور الصحابة.

(٣٩٤) أسند الزبيدي في كتاب "الطبقات"، إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، "البرهان في علوم القرآن"، الجزء الثالث.

– مصادر أخرى أسندت فضل ذلك إلى الحجّاج بن يوسف الثقفي، وأنه بأمره تمّ التنقيط.

الرابع عشر: جمع القرآن ونَسْخه

أما عن جمع القرآن، فلقد مرَّ القرآن بثلاث مراحل هي:

١ـ الجمع النبوي:

أ - جُمع في الصدور مرتباً حسب ترتيب الآيات كما كان الرسول محمد ﷺ يتلوها.

ب- جُمع في السطور مكتوباً حسب ترتيب النـــزول.

آنذاك لم يَجرِ ترتيبٌ إجمالي لآياته بين دفتين، لتوقع نزول آيات أخرى، وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج،..."[٣٩٥].

تميَّزت الكتابة في عهد الرسول ﷺ بنوعين:

- نوع رسمي بأمر الرسول ﷺ وتحت إشرافه.

- نوع فردي خاص كتبه بعض الصحابة لأنفسهم، وهذا النوع الفردي كان أول سبب في الالتباس، لأن النسخ لم تكن كاملة.

٢- جمع أبي بكر الصديق:

بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، وبعد حروب الردة في العام ١١ و١٢ للهجرة التي استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن، تنبه عمر بن الخطاب فحثَّ أبا بكرَ رضي الله عنه على جمع القرآن بين دفتين خشية ضياعه، فوكَّلَ به زيدَ بن ثابت، فقال زيد: "والله لو كُلفت نقل جبل من الجبال ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به

(٣٩٥) حدثنا همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني...". رواه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٩٨.

خليفة رسول الله من جمع القرآن"، وجمع القرآن جاء معتمداً على تحقيق كلٍ من:

أ - المسطور من الكتابة الرسمية.

ب- المحفوظ في الصدور.

لقد اتبع أسلوباً دقيقاً جداً في تثبيت ترتيب الآيات والسور، ابتدأ هذا الجمع في خلافة أبي بكر الصديق، وانتهى في خلافة عمر بن الخطاب، وذلك لقصَرِ خلافة أبي بكر الصديق وهول المسؤولية، وامتاز هذا الجمع بأنه رتَّبَ القرآنَ بين دفتين في مصحف واحد، حسْب ما كانت عليه التلاوة أيام الرسول ﷺ.

٣- جمع عثمان بن عفان:

تابع أحمد قائلاً: ثم أخَذَتْ بعض الشكوك والالتباسات تساور بعضهم بسبب ظهور بعض النسخ الفردية غير الكاملة في بعض أقطار العالم الإسلامي، وأضف إلى ذلك اتساع الأرض الإسلامية بدخول الأعاجم، فدخل اللحن اللغوي، وتنبه إلى ذلك حُذيفة بن اليمان، فعاد من (أذربيجان) وقال للخليفة الثالث عثمان بن عفان: "يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها، اختلاف اليهود والنصارى في كتبهم"[٣٩٦]، وفي ذلك روى البخاري: "أرسل عثمان إلى حفصة -زوج الرسول ﷺ- أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في مصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما

---

(٣٩٦) حذيفة بن اليمان (عام ٣٦هـ =٦٥٦م)، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم، له في كتب الحديث ٢٢٥حديثاً، (الأعلام ١٧١/٢) ولقول حذيفة انظر: "البداية والنهاية" لابن كثير ٢١٧/٧، طبعة: مكتبة العارف بيروت.

نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق"[٣٩٧]، ولذلك سُمِّيت "نسخة عثمان"، وأمر عثمانُ بحرق كل ما وقع تحت يده من النسخ الأخرى، حرصاً على المحافظة على النسخة الأصلية الرسمية للقرآن، ومع ذلك ظهرت لاحقاً بعض النسخ الفردية التي نجت من الحرق، وكانت فيها اختلافات في ترتيب الآيات فقط، وهذا لا يشكل خطراً عَقَدياً.

فقال (ليفي): وماذا عن إدخال الإصلاحات التي قام بها الحَجّاج في القرآن ؟

فقال أحمد: الحَجاجُ لم يقم بإصلاحات في القرآن، وهو لم يجمع القرآن ولم يرتبه، وإنما قام بعمل مهم جداً في بعض نسخ القرآن التي وجِدَت بين يدي من فَتَحَ الله لهم طريق الإسلام بسبب توسع الأراضي الإسلامية ودخول غير العرب في الإسلام، **فاختلف لفظ بعض الكلمات، وكُتبت بعض النسخ وفيها شيء من اللحن، واختلفت نهايات بعض الكلمات**، فقام الحجاج بأمرين:

أ ــ الأمر الأول[٣٩٨]: رَدُّ الأحرف التي ظهر فيها اللحن إلى أصلها مثل ما جاء في:

- سورة البقرة (٢٥٩:٢): ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾، فكتبها ﴿لَمْ يَتَسَنَّه﴾.
- سورة يوسف (٤٥:١٢): ﴿أنا آتِيكُمْ بِتَأوِيلِه﴾، فكتبها ﴿أنا أنَبِّئُكم بتأويله﴾.
- سورة الزخرف (٣٢:٤٣): ﴿...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ﴾، فكتبها ﴿...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ...﴾.
- سورة محمد (١٥:٤٧): ﴿...مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ياسِنٍ...﴾، فجعلها ﴿...مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءاسِنٍ...﴾[٣٩٩].

---

(٣٩٧) رواه البخاري في كتاب "فضائل القرآن"،باب جمع القرآن رقم ٣٥٠٦ و٤٩٨٤ و٤٩٨٧.

(٣٩٨) من محاضرات الشيخ عبد المجيد الزنداني.

(٣٩٩) لا غرابة في تغيير لفظ الكلمات وكتابتها خلال سفرها من بلد إلى آخر، خاصة إذا اختلفت اللغة الأصلية، مثلاً الاسم المعروف "زين العابدين" عندما سافر إلى بلاد البنغال أصبح ينطق ويكتب على طريقتهم، -

ب ــ **الأمر الثاني**: بأمر من الحجاج قام بعض العلماء بعمل رائع هو تنقيط أحرف القرآن لمنع أي التباس في المستقبل ولتثبيت قراءته.

عدَّل أحمد من جلسته قائلاً: ومن هذا نرى أن ادعاءات الذين ادعوا تحريف القرآن مثل (كازانوفا)(٤٠٠) ما هي إلا بغرض التشويش على القرآن، حسب المبدأ القائل: "إن التشويش إذا لم ينجح فلا بُدَّ له من أن يترك أثراً سلبياً عند بعض الذين يجهلون الحقيقة"، وفي الوقت نفسه نرى المستشرق الأمريكي (بودلي) في كتابه: (الرسول: حياة محمد) قد قال: "بين أيدينا كتاب معاصر فريد في أصالته وفي سلامته، لم يُشكَّ في صحته كما أُنزل أي شك جدي، وهذا الكتاب هو القرآن، وهو اليوم كما كان يوم كتب أول ما كُتِبَ تحت إشراف محمد".

فقلت: إذا أضفنا إلى ما سبق، أهم نقطة ضد المشككين وهي **أنَّ كل المشككين في صحة القرآن لم يتطرقوا إلى الشك في الآيات الآتية:**

- الأعلى (٨٧: ٦-٧): ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾.
- القيامة (٧٥: ١٧): ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**، وَقُرْءَانَهُ﴾.
- سورة فصلت (٤١: ٤١-٤٢): ﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ **عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.
- سورة الحجر (١٥: ٩): ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

فإذا كانت هذه الآيات بإجماع المشككين لم تُحرَّفْ ولم تُضَفْ، أفلا يكون هذا أروع إثبات أن الله هو جامع هذا القرآن العزيز المنيع، وهو مرتبه وحافظه من الباطل من أمامه ومن خلفه، وأنه تنـــزيل من عند الحكيم الذي تقتضي حكمته

= فصار "جونال عابدين"، والسبب بسيط إذ إنهم يلفظون ال"ز" على لفظ "ج"، وأيضاً كما هو معروف في الدول الأوروبية يضيفون "ال" التعريف إلى الكلمة الأولى لسهولة اللفظ، فيتحول لفظ "زين ال..." إلى "جونال"، وما أكثر الأمثلة بين الدول العربية ذاتها في اللفظ، وحمى الله الكتابة بالقرآن.

(٤٠٠) (بول كازانوفا ١٨٦١-١٩٢٦م)، مستشرق فرنسي، أستاذ أصول العربية في الجامعة المصرية. المنجد ص٤٥١.

حفظ ما أنزل بنفسه، لأنه آخر الأديان، ومحفوظ من النسيان في الصدور ومحفوظ من التحريف في السطور.

نقال (دايفيد): حقاً لم يشكك أحد بهذه الآيات، وهي حجة على المشككين لم تخطر على بال كثيرٍ من المدافعين عن القرآن.

قال (ليفي): ولماذا لم تقتضِ حكمةُ الله حفظ (الكتاب المقدَّس)، كما حفظ القرآن، حسب قولك؟.

فَرَدَّ (دايفيد) قائلاً: نحن لا نسأل صانع الآلة لماذا اقتضت حكمتك أن تصممها كما صممتها، فكيف نجادل الخالق عن حكمته في خلقه ما لم يظهرها لنا، إن الله أوكل حفظ ما أنزل من كتب قبل القرآن إلى البشر، لأنها ليست آخر الأديان، ولم يرد في أي من تلك الكتب أن الله تعهد بحفظها، بينما ورد في القرآن ذلك **لأنه آخر الأديان، ويجب إبقاؤه محفوظاً من التحريف.**

وتابع موجهاً كلامه إلى (ليفي): بذلك ترى أن القرآن لم يدخله ولم ينله تحريف، بغض النظر عن جمعه وفي أي زمن جمع، اعلم يا صديقي أني كنت متخصصاً في علوم الأديان، وقرأت كثيراً جداً مما كتب حول الإسلام، وبعد سماع ما ذُكِرَ اليوم، أستطيع بالدليل إثبات عدم تحريف القرآن.

إنه من المؤسف أننا لا نعرف عن الإسلام إلا الشبهات، فرفضناه دون أن نتحقق منها.

فقلت، قال السيد (وليام ميور): "من المحتمل إنه لا يوجد كتاب آخر في العالم بقي اثني عشر قرناً (الآن خمسة عشرة قرناً) دون أي تحريف"(٤٠١).

(٤٠١) في كتاب "هل الكتاب المقدس كتاب الله"، أحمد ديدات.

وعقب أحمد قائلاً: لو بذل الناس لِفَهمِ الإسلام الجهد نفسه الذي بذلوه ويبذلونه في محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض في الإسلام لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة الإسلام ومنعته على أعدائه.

الخامس عشر: هل بعض شعائر الإسلام وثنيَّة الأصل؟

قال (ليفي): إذن ماذا تقول عن وثنية العبادة في الإسلام، مثل الطواف حول الكعبة، والسعي بين الصخرتين، ورجم الشيطان، وتقديم القرابين؟

فقال (دايفيد): إني أستغرب قولَك هذا، ففي اليهودية تقديم القرابين، وفيها أيضاً السعي والطواف في دوائر، والبكاء قرب حائط المبكى، فلم لا تسمي هذا وثنية؟.

على أية حال وبشكل عام فإذا كان المطلوب من الدين الإسلامي عدم الالتقاء مع أي من الأديان في العبادات، فهذا سوف يقتضي إنكار الصلاة والصوم والحج والزكاة وحتى التوحيد، وهي أساسيات كل الأديان السماوية قبل تحريفها.

من هنا نرى أنه ليس المهم هو ما تتلاقى فيه الأديان، ولكن المهم هو ما تختلف فيه الأديان:

١ – فالمسيحيون يُصلّون لإله ذي ثلاثة أقانيم، أما اليهود والمسلمون فيصلون لإله واحد أحد لم يلد ولم يولد.

٢ – والوثنيون يذبحون الذبائح وهم مؤمنون بأن الوثن هو الإله أو هو الطريق الموصل إلى الإله، لكن المسلمين يؤمنون بأن الذبح هو اختبار للتقوى، وأن الله لا يستفيد من لحومها ولا من دمها بدليل:

سورة الحج (٢٢:٣٧): ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...﴾.

٣ – المسيحيون يقرؤون على ماء القربان وخبزه ويشربونه وهم مؤمنون بأنه سيحل في أجسامهم **دمُ المسيحِ نفسُه ولحمُه نفسه** وليس رمزه فقط، والمسلمون يقرؤون على ماء ويشربونه ويقولون إنه مبارك، ليس إلا.

وتابع (دايفيد) قوله ووجهُهُ الأبيضُ يزداد احمراراً: ألا ترى معي أن الله يمكن أن يختبر طاعة عباده، بأن يطلب منهم بعض الأعمال **الرمزية**، وهم لا يدرون فائدتها، مثل رجم الشيطان والسعي بين الصخرتين، لماذا قال الرسول ﷺ "الحج عرفة" ولم يقل: الحج الطواف والسعي والرجم والذبح وتقبيل الحجر الأسود؟ ألم يقل الخليفة عمر بن الخطاب عندما قبل الحجر الأسود: "والله، إني أعلم أنك لا تَضُرُّ ولا تَنفعُ لكني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، فقبلتك"؟ إن الطاعة يجب أن تكون لعلة الآمر (الله) وليس لعلة الأمر، وإلا فلماذا استُحسِنَ لنا **تقبيل الحجر** (الحجر الأسود في الكعبة) **ووجبَ علينا رجم حجر** (رمز الشيطان).

قال (جورج): يمكن أن تنظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، لقد خلق الله الإنسان وكرَّمَه، وجعل الحيوان أقل درجة منه، وآخر الدرجات الجماد، وحتى لا يغترَّ الإنسان بنفسه، طلب منه أن ينحني ويقبل الجماد أدنى درجات الخلق، بهدف كسر عنفوانه وحثه على التواضع، لماذا لا تأخذ الأمر من هذه الزاوية.

فقال (ليفي): ألا تظن أنه لو كان في الإسلام خير، لكانت حالة المسلمين أحسن مما هي عليه الآن؟

فقال (دايفيد): **في الإسلام خير مؤكد، فعندما كان المسلمون متمسّكين بدينهم حكموا من آخر بلاد الصين إلى آخر بلاد المغرب، ومن وسط أوروبة حتى أواسط إفريقية، وما حالتهم هذه الآن إلا لأنهم تركوا الإسلام الصحيح.**

السادس عشر: إذا كان الإسلام علمي البراهين، فلماذا لم يُسلم جميع علماء العالم؟

قال (ليفي) لـ(دايفيد): إنك أسلمتَ بسبب البراهين العلمية، فلماذا لم يسلم آلاف العلماء الآخرين؟

فقال (دايفيد): اعْلَمْ يا صديقي أن الإلحاد يلبس ثوب العلمانية، ويهاجم الدين خوفاً من أن يكون الدين الإسلامي كنيسة أخرى، تقول لهم: الشجرة التي أكل منها آدم هي المعرفة، فالمعرفة هي سبب المعصية، التي عاقب الله آدم بسببها، وكلما ازداد الإنسان معرفة ازدادت المعصية.

إنَّ أغلبُ العلماء اليوم يؤمنون بوجود خالق، ولكن لا يؤمنون أنه هو الذي نَزَّلَ القرآن على رسوله محمد ﷺ، وذلك لعدم فهمهم الصحيح لآيات القرآن، كما أن الإعجاز القرآني العلمي لم يصل إليهم بتفسيره الصحيح، فالعلم هو اللغة المشتركة بين كل شعوب الأرض، أنا لست أدري لماذا نذكر كلمات مؤسس علم الجيولوجيا (اللورد هاتون) قبل (٢٠٠) سنة كأول قائل: "إن تاريخ الأرض مكتوب في طيات قشرتها" وننسى قول الله قبل (١٤) قرناً في:

- سورة العنكبوت (٢٩: ٢٠): **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

والخلقُ منه الأرض وما عليها من المخلوقات.

إن كثيراً من العلماء يرفضون الإسلام لأنهم لا يتقبلون أن يتحولوا تلاميذ عند المسلمين العرب، يتعلمون دينهم ولغتهم، ناسين أن الذهاب إلى أواسط إفريقية لتَعَلُّمِ لغة قبيلة ما هناك، يعد من وجهة نظرهم خطوة حضارية، وأنه ما كان التعلم يوماً ذلاً، ناسين وفود الطلاب الكثيرة التي كانت تتجه إلى بلاد المسلمين لتتعلم الطب والرياضيات والفلك والعلوم الأخرى، عندما كانت الأمة الإسلامية رائدة الحضارة.

إن الإلحاد في تراجع، والتلازم بينه وبين العلم تلازم خادع سببه انطلاق العلم في بلاد المسيحية المحرفة، في وقت شهد تراجع المسلمين في إسبانية، فتعارض العلم

مع النصوص والتفاسير المحرفة للكتاب المقدس، حتى خرج من قال: "الدين أفيون الشعوب"، لأن المقهور الذي يلجأ إلى الكنيسة، كان يقال له: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر)، و(من سخَّرك ميلاً فتسخر له خمسة)، فابتعد العلماء عن الأديانِ كلِّها خشية ظهور تعارض آخر، وأعرضوا عن الإسلام أيضاً خشية أن يكون رافضاً للعلم، ناظرين إليه على أنه عين المعصية التي ارتكبها آدم، والآن بعد أن أخذ العلماء تدريجياً في الاطلاع على دعوة الإسلامِ إلى العلم في العشرات من آياته، وحث المؤمنين على البحث والتعلم، لقد وضَّح لهم ظهور الإعجازاتِ العلمية أن العلمَ يُقوي الإيمانَ بالله وبالدين الذي يحث على العلمِ لأنه لا يخافه، فخالقُ العلمِ ومنـــزِّلُ القرآنِ واحدٌ، فآمن مئات منهم.

وتابع قائلاً: مهما كان مدى اقتناعي ببعض الأمور الثانوية الخاضعة لنقاشات طويلة، ومنها نظرة الإسلام إلى المرأة وعدم تحريم العبودية مباشرة، على الرغم من حثه على إعطاء العبيد حريتهم، ومسائل أخرى، فإن هذا لن يؤدي بي إلى ترك عقيدة الإسلام الأصلية، ورفض ما جاء على لسان رسوله من صحيح الأحاديث.

كما أن كثرة الفرَق الإسلامية ستجعلني أتمسك أكثر بالسُّنة النبوية فقط، وأرفضُ جميع البدع والتفاسير الأخرى، وأبتعدُ عن الخوض في نقاشات مع الفرق الخارجة عن السنة وأهل الجماعة، فأنا لست في وضع معرفيّ عميق، يؤهلني لمناقشة جميع هذه الفرق، وأنا حالياً لن أقوم بأكثر من الأركان الخمسة للإسلام، من شهادة توحيد الله وإقرار برسالة محمد ﷺ، والصلاة، والصوم، والزكاة والحج. متبعاً القرآن والسنة.

إني أعُدُّ الدنيا فترة امتحان، من ينجح فيه تنتظره جنة واسعة، وليست شروط النجاح هي الحصول على معدل ١٠٠%، وإنَّ الأركان الخمسة تضمن نسبة نجاح جيدة بإذن الله ورحمته وعفوه وغفرانه، والأعمال الإضافية تزيد معدل النجاح وطوبى لمن استطاع.

قال أحمد: وأنا أوافقك تماماً، وآمل لك استمراراً في إسلامك وقوة في إيمانك، وجَلَداً وصبراً في مجابهة من سيعارض إسلامك، وآمل أنك لن تنظر إلى المسلمين على أنهم مقياس للإسلام، بل اتبع الإسلام الصحيح، وقس عليه تصرفات المسلمين، واعلم أنك ستصادف كثيراً من ضعاف النفوس وضعاف الإيمان من المسلمين، واعلم أن دخول الجنة هو برحمة من الله، وأما أعمالك الخالصة الصادقة النية لوجه الله فهي تحدد درجتك في الجنة، وطوبى لك إذ تحوَّلت كل سيئاتك الماضية إلى حسنات عند الله، وسبقتَ كثيرين من مسلمي المولد، إذا صدَقَ إيمانك.

السابع عشر: يسوع المسيح ومريم العذراء في القرآن

قال (جورج): حبذا لو نسمع من أحمد عمَّا يقوله الإسلام عن يسوع وأمه مريم وولادته المعجزة ورسالته؟

فقال أحمد: إن أول شرط مطلوب من المسلم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره -الخير من الله والشر من أنفسنا، وما يبدو لنا شراً، فهو خير لنا في علم الله-، ولذلك لا يوجد مسلم واحدٌ لا يؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام بصفتهما رسولين من الله، لهداية عباده إلى طريق الخير.

إننا نؤمن بيسوع الذي يسميه القرآن عيسى، ولكن ليس كإيمان المسيحيين الحالين به، نحن نؤمن بيسوع حسب ما جاء في:

- سورة النساء (١٧١:٤): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

فقال (ليفي): لم يَرِدْ في هذه الآية أنه عبد الله ومخلوقه وليس ابنه.

قال أحمد: أما تنـــزيه الخالق عن الولد فهو في الجزء الأخير من الآية نفسها ﴿...سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...﴾.

وكما جاء في:

- سورة آل عمران (٥٩:٣): ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ **كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ** مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

لم يقل أحد أن آدم ليس مخلوقاً لله، بل ابنه.

إن ما تبحث عنه أنت تجده في:

- سورة مريم (١٩:٣٠-٣١): ﴿قَالَ إِنِّي **عَبْدُ اللَّهِ** ءاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ؟وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وتابع أحمد قائلاً: إن عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله أرسله إلى بني إسرائيل لهدايتهم إلى طريق الله مصدقاً للتوراة حسب:

- سورة المائدة (٤٦:٥): ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى ءاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءاتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لاحظ التأكيد على أن عيسى عليه السلام مُصدِّقاً للتوراة، وليس ناقضاً لها ومخالفاً لتعاليمها، **فأين التثليث في التوراة الأصلية غير المحرفة؟**

لقد أيد الله عيسى عليه السلام بمعجزات خارقات وبروح القدس، حسب:

- سورة البقرة (٢٥٣:٢): ﴿...وَءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾.

لخص القرآن معجزات عيسى عليه السلام في:

– سورة المائدة (١١٠:٥): ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...﴾.

قال (جورج): وماذا يقول الإسلام في صلب يسوع وموته وقيامه؟

أجاب أحمد: لقد جاء في:

– سورة النساء (١٥٧:٤): ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

هذه الآية تشرح نفسها، فنحن لا نؤمن بأن الذي أُلقيَ القبضُ عليه هو عيسى عليه السلام، بل يهوذا، حيث جعله الله شبيه عيسى وقت محاولة إلقاء القبض عليه، يغلب على الظن أن التبديل كان في اللحظة التي رجع فيها الجنود خطوات إلى الوراء وسقطوا على الأرض، عندما رأوا المسيح عيسى عليه السلام، وذلك ما نستنتجه من:

– يوحنا (٦:١٨): "فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض".

حسبما ناقشناه سابقاً حيث لا يسقط رهط في آن واحد إلا أن يكونوا مغشياً عليهم، إذن تَوَفى اللهُ عيسى عليه السلام، ورفَعَه إليه، وجعل يهوذا شَبَهَ عيسى، ولما أفاق الجنود وجدوا الشبيه فألقوا القبض عليه، حسب:

سورة آل عمران (٥٥:٣): ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾.

فقال (دايفيد): وهذا يفسر لي لماذا برَّأت الكنيسةُ اليهودَ من دم عيسى المسيح، لا بُدَّ من أنها كانت مقتنعة ضمناً بأن المصلوب لم يكن عيسى المسيح أصلاً، فتسقطُ التهمةُ لعدمِ وقوعِ الجريمة، لسببين:

أ – إما لإثباتات قدمها اليهود عند الاجتماع مع الفاتيكان، اضطر معها البابا إلى إصدارِ بيان برَّأ فيه اليهود من دم المسيح، ربما بشرط سري وهو بقاء الإثبات مدفوناً حتى لا ينفرط عِقدُ الديانة المسيحية.

ب – أو أن الكنيسة نفسها اقتنعت بصحَّة إنجيل برنابا، لكنها لم تعلن ذلك، لأنه يقلب أسس المسيحية رأساً على عقب، وينفي صَلْبَ المسيح، فظهر البيان على أنه مظهر من مظاهر التسامح الفاتيكاني والمصلحة العقلانية، وبقي الحاكمُ الروماني وجنودُه في قفص الاتهام، وهؤلاء لم يكونوا من اليهود ولا من المسيحيين، مع أن الكل مقتنع بأن اليهود هم الذين كانوا يحرضون الحاكم على صلب المسيح، والمحرض على الجريمة كفاعلها في كل قوانين العالم.

قال (ليفي): كيف يقول القرآن إن يسوع لم يَمت، بل رفع إلى السماء؟ ثم يقول: ﴿...إني متوفيك ورافعك إليّ...﴾، بمعنى أن الله أماته ثم رفعه إليه، أليس في ذلك تناقض؟

قال أحمد: هي ملاحظة جيدة تختلط على كثيرين من الذين يعرفون أنصاف الحقائق فقط، إن اللغة العربية بحر واسع جداً، لا يحيط به شخص واحد، في أصل اللغة العربية نرى أن الموت يعني الوفاة بالمقصود والمفهوم، ولكن الوفاة لا تعني الموت بالضرورة والعموم، بل بالعُرف، بدليل قولنا استوفى فلان دَيْنَه من فلان، أي استرده إليه وقبضه، وهنا لا يمكن أن نعني أن الدَّيْنَ مات، لأن المدين أعاد الدَّينَ للدائنِ و لم يُنكره عليه، إننا نقول مات الدَّين إذا لم يُسترد ولن يُسترد.

ثُمَّ تابع أحمد قائلاً: وعند الموت تقبضُ الملائكةُ الروحَ وتعيدها إلى الله، لذلك يقال تَوفى الله فلاناً، أي استعاد الله روحه منه، وسميت الحادثة (وفاة)، ولما كان

لفظ (وفاة) و(توفاه الله)، أقل وقعاً وإيلاماً من لفظ (مَوتٌ) و(مات)، فقد تَغلّبَ استعمال لفظ (وفاة) على لفظ (مَوْت)، و(توفاه الله) على (مات)، ولما كان القرآن يستعمل اللفظ لأصله، فقد قال (متوفيك)، أي قابضك وآخذك من الأرض ومُستردُكَ ورافعك إليَّ، لو كان المقصود منها هو (مُميتك)، لما وُجدَ داعٍ لذكر (ورافعُك)، لأن كل أرواح الأموات تَصعد إلى الله، وفيها تأكيد على أن الرفع كان بالجسد أيضاً وليس بالروح فقط(٤٠٢).

عندما يريد الله أن يعني الموت فإنه يقولها صراحة، كما في:

– سورة الأنعام (١٦:٦): ﴿...حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا...﴾.

لاحظ أن الوفاة هنا لا تعني الموت، بل تعني أنه إذا جاء الموت أحدَ الناس، استردت الملائكة روحَه وقبضتها وردتها إلينا.

– سورة الزمر (٤٢:٣٩): ﴿...اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

التي تدل بوضوح على وجود فرق بين الوفاة والموت، وتثبت أنهما عمليتان مختلفتان.

– سورة البقرة (٢٨١:٢): ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذا إثباتٌ آخر لمعنى الوفاة، حيث (تُوفّى) تعني **تَستردُ كلُّ نفس ما كسبت**، والشيء نفسه نراه أيضاً في:

– سورة آل عمران (١٦١:٣): ﴿...ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٤٠٢) لقد ورد ذلك في إنجيل برنابا، غير المعترف به من الفاتيكان، وسبق ذكر ذلك عند مناقشة رفع المسيح.

أما في سورة مريم (٣٣:١٩): ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

فنلاحظ ذكرَ ﴿...أموت...﴾ هنا تعني غير القبض والرفع، فالموت هنا هو بعد العودة إلى الأرض وانتهاء الأجل، حيث يقول الله إن عيسى عليه السلام سيصل مرحلة الكهولة بعدها يموت حسب:

– سورة المائدة (١١٠:٥): ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ(٤٠٣) وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم يبعث حياً يوم البعث كغيره من المخلوقات.

تابع أحمد موجهاً كلامه إلى (جورج): إذن ليس في الإسلام صَلْبٌ وموتٌ وقيامٌ لعيسى عليه السلام، بل يوجد صعود إلى السماء، ثم عودة إلى الأرض قبل يوم القيامة في الوقت الذي يشاؤه الله، والصلب كان ليهوذا، ولا يُلام الجنودُ ولا من شاهده على الصليب، لأنه شُبِّهَ لهم، فألقوا القبض وصلبوا من ظنوه المسيحَ عيسى بن مريم عليه السلام، وحسابهم في ذلك عند الله العادل الرؤوف الرحيم.

(٤٠٣) إن سرَّ تكلّمه في المهد هو لإبراء أمه والحفاظ على كرامتها، فكانت تلك الآية المبكرة، مع العلم أنه لا وجود للكلام في المهد في الإنجيل المحرف لأنه قال أيضاً: ﴿... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، وهذا لا يناسب الذين يؤلهون المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فلم يذكروها في أناجيلهم.

– القرآن يُثْبِتُ معجزات المسيح:

إن الآية من سورة المائدة (٥:١١٠) سابقة الذكر هي الدليل الوحيد لدى المسيحيين، على صحة ما جاء في العهد الجديد المعاصر على بعض معجزات المسيح، وذلك لأنها وردت في الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يُحرَّف.

– القرآن يبرِّئ المسيح:

لقد برأ القرآن عيسى عليه السلام، إذ قيل إنه قال للناس اعبدوني وأمي، فقال الله تعالى في:

– سورة المائدة (٥:١١٦-١١٧): ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعبُدوا الله ربي وربَّكُم. وكُنْتُ عليهم شهيداً مَا دُمْتُ فِيهِم...﴾.

– القرآن يكفِّرُ من يؤله المسيح:

يُكفِّرُ القرآن كل من يؤلّه عيسى عليه السلام وذلك في:

سورة المائدة (٥:٧٢): ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ...﴾.

إن القرآن يفسر ما جاء في الإنجيل عن البارقليط أو المُعزي بأنه محمد رسول الله ﷺ، فيقول في:

– سورة الصف (٦١:٦): ﴿وإذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَني إسْرائيلَ إنِّي رَسُولُ الله إليكُم مُصدِّقاً لما بَينَ يَدي مِنَ التوراةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾.

قال (جورج): هذا عن المسيح يسوع، وماذا عن مريم العذراء في القرآن؟

قال أحمد: روى البزاز والطبراني من حديث عمار بن ياسر، "لقد فُضِّلَتْ خديجةُ على نساء أمتي، كما فُضِّلَت مريم على نساء العالمين".

وعن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال: "سيدة نساء العالمين مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية".

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال سمعت النبي ﷺ يقول: "خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة"(٤٠٤).

هذه هي مكانة مريم العذراء لدى المسلمين، فلو كان الرسول ينطق عن الهوى، لوضع ابنته أو زوجه في المرتبة الأولى، لكنه رسول الله يُوحَى إليه فيقول.

أما تفسير نظرة الإسلام إليها، فنجدها في:

– سورة آل عمران (٣:٣٥-٣٧): ﴿إذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَى وإني سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإني أُعيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشيطانِ الرجيمِ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

– سورة آل عمران (٣:٤٢): ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ﴾.

---

(٤٠٤) أخرجه البخاري في: ٦٠ –"كتاب الأنبياء".
: ٤٥ – باب "وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك".
خير نسائها: أي خير نساء أهل الدنيا. وخير نسائها: أي هذه الأمة. "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان"، المجلد الثاني ص ٧٣٥ و٧٣٦ حديث رقم (١٥٧٣).

– سورة آل عمران (٣:٤٥-٤٧): ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا** وَمِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وأما سورة مريم فتأخذ لقطة أخرى من قصة خير نسائها فتقول:

– سورة مريم (١٩:١٦-٣١): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا، فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ?وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَراً بِوَالِدَتِي.وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً .وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

هذه هي قصة مريم العذراء –التي اصطفاها الله على نساء العالمين– منذ ولادتها من أمها العاقر (حَقَّة)، التي كانت تَغبِطُ النساء على أولادهن، فدعت ربها

فقالت: "اللهم إن رزقتني ولداً لأنذرنه لمعبد بيت المقدس شكراً لك، فيكون دارساً للكتاب وخادماً له"، فولَدَت العاقرُ أنثى، وأرسلتها إلى بيت المقدس، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلاّ مريم وابنها عيسى عليهما السلام"(٤٠٥).

تقبلها ربها قبولاً حسناً وكفّلها زكريا، وكلما دخل زكريا على مريم المحراب وجد عندها فاكهة في غير وقتها، وكانت تقول: هو من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

قلت: هنا لا بُدَّ من وقفة **لنرى عظمة الحكمة من هذه المعجزة، بأن يرزقها الله بغير حساب**، وأن تعلم ذلك على نفسها، قد أقرت بنفسها قدرة الله ورأتها بعينها، **ذلك لأن الله يُهيئُها للمعجزة الكبرى** بأن تحمل من غير رجل، فلولا هذه التهيئة ربما شكّت في نفسها، ورأت أيضاً قدرة الله عندما دعا زكريا ربَّه بعد أن قالت له إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال في نفسه: ربما يرزقني الله بولد، إذ هو قادر أن يرزقَ بغير حساب للعرف والعادة، فقال حسب:

– سورة آل عمران (٣:٣٨-٣٩): ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

إضافة إلى تأكيد المعجزة لم يأتها المَلَكُ في المنام، بل تَمثَّلَ لها بشراً سوياً، محسوساً لا خيالاً، كلمها وكلمته، ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة، كل هذا كان الهدف منه أن تكون مريم البتول نفسُها مقتنعة مطمئنة، بأن ما في بطنها كلمة الله (كن) ألقاها إليها، فكان عيسى عليه السلام.

---

(٤٠٥) أخرجه البخاري ومسلم بلفظ ابن حِبّان، والطبري في جامع البيان.

انظر إلى سمو التعبير عند قوله ﴿..وكان أمراً مقضياً..﴾ أو قوله ﴿..إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون...﴾، فلا داعي لوصف الكيفية البشرية كما في:

– إنجيل لوقا (١:٣٥): "فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك. فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله".

فقال (ليفي): إنك قلت إنه في:

– سورة آل عمران (٣:٤٢): ﴿...وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ **اصْطَفَاكِ** وَطَهَّرَكِ **وَاصْطَفَاكِ** عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

أليس في هذا تكرار لا داعي له للاصطفاء؟ ألا يمكن اختصارها بالقول (طهرك واصطفاك على نساء العالمين)؟

والسؤال الثاني هو كلمة (طَهَّرَكِ) ألا يؤيد هذا فكرة المسيحيين الذين يقولون: لقد طهر الله مريم من الخطيئة، لتلد مولوداً نقياً دون خطيئة لِيَصْلُحَ تقديمه ذبيحة على الصليب لفداء المؤمنين من الخطيئة؟

قلت: أما عن السؤال الأول، فهناك اصطفاءان مختلفان:

١– الاصطفاء الأول للعذراء البتول: كان عندما وُلِدَتْ من أم عاقر، ثم تقبلها الله قبولاً حسناً وأنبتها نباتاً حسناً وهيأ لها الفاكهة في غير وقتها وأعاذها وذريتها من الشيطان، وبهذا الاصطفاء لم تكن الوحيدة، فقد اصطفاها الله واصطفى غيرها، فهناك آخرون خصهم الله بكرامات ومعجزات واصطفاءات مختلفة.

٢– الاصطفاء الثاني: هو الذي حدده الله بـ ﴿...واصطفاك على نساء العالمين...} فهو اصطفاء للمعجزة الكبرى، وهي الحَمْلُ من غير رجل، وهو اصطفاءٌ خص الله به مريم العذراء على جميع نساء العالمين، بعد أن هيأها لتقبّل هذه المعجزة الخارقة للنواميس، بذلك ترى أهمية ذكر الاصطفاءين، وهذا يؤكد دقة التعبير في القرآن.

٥

قال أحمد: أما كلمة (طَهَّرَكِ) فهي لا تعني تطهيراً من خطيئة آدم والدليل في:

– سورة آل عمران (٣: ٥٥): ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

فيتضح المقصود بـ(طَهَّرَ) فقد:

– طَهَّرَ الله مريم العذراء من الوقوع في الذنوب التي يقع فيها بنو آدم.
– طَهَّرَ دينها من الريب بالمعجزات.
– طَهَّرَ طعامها.
– طَهَّرَ أسلوب حياتها بخدمتها في بيت المقدس.
– طَهَّرَ أيضاً يسوع بالطريقة نفسها.

فقال (جورج): الحقيقة أني متأثر جداً بما يقوله الإسلام عن يسوع المسيح، وعن أمه مريم العذراء خير النساء، هذا يذكرني بقول يسوع حسب:

– رسالة يوحنا الأولى (٤:٢-٣): "...كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو **روح ضد المسيح** الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم".

وهذا نفسه يجعلني أفكر في أنه إذا صحَّ ما قلناه سابقاً عن (بولس)، فيكون قد أخذ عن المسيح اسم دعوته فقط، ونقض كل تعاليمه وعمل ضده فكان هو روح (ضد المسيح)، الذي كان موجوداً في العالم زمن المسيح (كما ورد في رسالة يوحنا الأولى سابقة الذكر) بينما مُحمد ﷺ لم يكن معاصراً للمسيح، بل ولد بعد ذلك بقرون عدة.

قال (ليفي): هل من دليل لدى المسلمين يشير إلى عودة المسيح يسوع، مرة أخرى إلى الأرض؟

فأجاب أحمد: نعم، وبكل تأكيد، بدليل:

١ - ما جاء في القرآن في:

أ - سورة الزخرف (٤٣:٥٧-٦١): ﴿... وإنه **لَعِلمٌ للساعة...**﴾، أي هو مؤشر وعلامة قرب يوم القيامة.

ب- سورة النساء (٤:١٥٧-١٥٩): ﴿وقولِهِمْ إنَّا قَتَلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مَرْيَمَ رسولَ الله وما قَتَلوهُ وما صَلَبوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ... وإنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ به قَبْلَ مَوتِهِ ويومُ القيامَةِ يكونُ عليهِمْ شَهيدا﴾

٢ - ما جاء في السنة الشريفة:

أ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنـزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها". (رواه البخاري في صحيحه).

ب- قال ابن تيمية إنه ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "ينـزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنـزير ويضع الجزية". تفسير المنار ٣١٧/٣.

الثامن عشر: الخاتـــمة :

قبل انتهاء آخر جلساتنا تواعد (دايفيد) وأحمد على جلسة أخرى يعلمه فيها كيفية تطبيق الأركان الخمسة، أما أنا فسعادتي لا توصف إذ إني من خلال عدة جلسات أخذتُ كل ما أبحث عنه في المسيحية من منابعها، وفي الإسلام من أصوله، واطلعت على الإعجازات العلمية من وجهات نظر مختلفة زادت من اقتناعي بأن يهودية موسى ومسيحية عيسى وإسلام محمد صلى الله عليهم جميعاً،

ما هي إلا ديانات من أصل واحد، حُرِّفَت اليهودية وحرفت المسيحية ببراهين ذكرناها في هذا البحث، وسَلِمَ الإسلام بسلامة القرآن من التحريف بتعهد من الله أن يحفظه، لقد كان إيماني إيمان نشأة، مررت في شبابي بمراحل شك لم تصل مرحلةَ الكفر، حتى هيأت لي هذه الجلسات اقتناعات عقلية علمية، فامتزج إيمان قلبي بإيمان عقلي في ملحمة إيمانية رائعة، مسلحة تسليحاً متيناً ضد أية هجمة إلحادية، معاهداً الله على عدم تكذيب الأدلة الشرعية إذا لم توافق عقلي، **لأن العقلَ يُبطِلُ الاعتمادَ على العقل بسبب قصور علمه وتنوع منابعه**، متذكراً أن مشكلة بني آدم ابتدأت عندما لم يعقل إبليس عِلَّةَ السجود لآدم، فرفض الامتثال لله كِبْراً وتعالياً، فكانت المعصية، لذلك مَنَعَ الإسلام العقل من محاولة تصور الله والجنة...إلخ، وأقر له الاكتفاء بما يمكن أن يدركه ويعقله.

أشكر الله على منحي فرصة من العمر حتى أعيش الزمن الذي أثبَتَ فيه العلم فشل فرضيات (أوبارين) و(داروين)، وأزلية المادة وأبديتها الإلحادية المادية، وتحولَتْ إلى تاريخ يرويه الكبار للصغار بأسلوب كان يا مكان... ...

وبسم الله والحمد لله رب العالمين أوله وآخره.

مراجـــع البحـــث

١ - " آينشتاين "الله" — محمد عبد الرحمن مرحبا

٢ - اختلافات في تراجم الكتاب المقدس — أحمد عبد الوهاب

٣ - أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية — أحمد بن إدريس القرافي تحقيق عبد الرحمن دمشقية

٤ - الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة — د. عبد العظيم المطعني

٥ - الإسلام والأديان/دراسة مقارنة — د. مصطفى حلمي

٦ - أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية — د. موريس بوكاي

٧ - إعجازات حديثة علمية ورقمية في القرآن — د. رفيق أبو السعود

٨ - الإعجاز العلمي في الإسلام /القرآن — محمد كامل عبد الصمد

٩ - الإعجاز العلمي في القرآن — د. السيد الجميلي

١٠- إعجاز القرآن في خلق الإنسان — د. محمد كمال عبد العزيز

١١- إلى الذي سأل أين الله — عبد الرحمن السنجري

١٢- الله والعلم الحديث — عبد الرزاق نوفل

١٣- الله والكون — د. محمد جمال الدين الفندي

١٤- الله يتجلى في عصر العلم — نخبة من العلماء الأمريكيين ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان

١٥- الإنسان ذلك المجهول	الكسيس كاريل
١٦- الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل	محمد رشدي عبيد
١٧- بداية الخلق	للحافظ الإمام ابن كثير
١٨- بعض المحاضرات المسجلة عن الإعجاز العلمي في القرآن	الشيخ عبد المجيد الزنداني
١٩- تاريخ الهند Maurice/ Hiistory of Hindustan	موريس
٢٠- التحريف في التوراة	د. محمد علي الخولي
٢١- التوراة بين الوثنية والتوحيد	سهيل ديب
٢٢- الثقوب الكونية السوداء	المهندس فايز فوق العادة
٢٣- حقيقة الإنسان	محمد سلامة جبر
٢٤- حقيقة عيسى المسيح	د. محمد علي الخولي
٢٥- حقيقة النصرانية في الكتب المقدسة	علي الجوهري
٢٦- حكمة الأديان الحية	جوزيف كاير/ترجمة المحامي حسين الكيلاني
٢٧- حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح	د. عبد الودود شلبي
٢٨- خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها في الديانات الأخرى	دوان
٢٩- خلق الإنسان	د. زهير كمال أبو كويك
٣٠- الداروينية اليوم	ترجمة لطيفة ديب عرنوق

٣١- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة والعلم	موريس بوكاي
٣٢- سنريهم آياتنا	الأستاذ عدنان السبيعي
٣٣- شهود يهوه بين برج المراقبة الأمريكي وقاعة الملكوت التوراتي	حسين عمر حمادة
٣٤- صحيح البخاري	
٣٥- صحيح مسلم	
٣٦- الطب محراب للإيمان /جزآن	د. خالص جلبي
٣٧- الظاهرة القرآنية والعقل	علاء الدين المدرس
٣٨- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن	د. عبد العليم خضر
٣٩- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة	فوزي محمد حميد
٤٠- عصر الإلحاد	محمد تقي الأميني
٤١- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية	محمد طاهر التنير
٤٢- العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون	علي بن حسن الحلبي الأثري
٤٣- فضح التلمود	الأب آي. بي. براناتيس
٤٤ - قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن	الشيخ نديم الجسر
٤٥ - قصة الفلسفة	ديورانت
٤٦ - قصة نشوء الكون	د. مخلص الريس/د. علي موسى
٤٧ - الكون والإعجاز العلمي للقرآن	د. منصور محمد حسب النبي
٤٨ - مباحث في إعجاز القرآن	د. مصطفى مسلم

٤٩- مجموعة كتيبات في مقارنة الأديان — أحمد ديدات
٥٠ - محاضرات في مقارنة الأديان — إبراهيم خليل أحمد
٥١ - محاضرات في النصرانية — الإمام محمد أبو زهرة
٥٢ - من علوم الأرض القرآنية — د. عدنان الشريف
٥٣ - الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة — ناصر القفري / ناصر العقل
٥٤ - الموسوعة الفلسفية المختصرة — مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود
٥٥ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة — الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٥٦ - الدكتور طارق السويدان — محاضرات مسجلة.
٥٧ - نقض أوهام المادية الجدلية — د. محمد سعيد رمضان البوطي
٥٨ - الهندوس والسيخ — محمد بن إبراهيم الشيباني
٥٩ - الوجيز في علم الأجنة القرآني — د. محمد علي البار
٦٠ - "نظرات في إنجيل برنابا" — محمد علي قطب
٦١ - "المنجد في اللغة والأعلام" — دار الشرق - بيروت
٦٢ - "Varying of speed of light" — د. جواو ما غيجو، ترجمة نضال شمعون

تم بعــون الله تعالى

المحتــــوى